فتحى سـلامة

ينابيع الحزن والمسرة

(ميت بره / القاهرة / أكسفورد)

تحذير

في ١٥ / ١٠ / ١٩٩٨ المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم



إهداء

إلى

كل الأطباء من أبناء مصر :

- روح الأستاذ الدكتور محمد فتحى الأشقر – طب القاهرة – رحمة الله
- الأستاذ الدكتور مجدى يعقوب – أولد كورت لندن – هيرفيليد
- الأستاذ الدكتور باندبا – نيودلهى – لندن
- الأستاذ الدكتور كمال منصور – اتلانتا – الولايات المتحدة
- " " كمال السروجى – طب القاهرة
- " " عصام بكير – مستشارنا الطبى – لندن

أبنائى : هبه ، ومنى ، وعمرو ، ومحمد ، ومى

وإلى الأساتذة (فى لندن) :

جلال شلبى وحسين قدرى وعاطف الغمرى د./ عمرو عبد السميع وفاروق الريدى والسيدة ثريا الشاهد .

وإلى عميد أسرة الأهرام الأستاذ إبراهيم نافع .

وإلى أسرة مكتب الأهرام بلندن وأسرتى الكبيرة بالأهرام .

وإلى كل الأخوة من الهند والباكستان والبلاد العربية .

إلى كل الأخوة المصريين المغتربين فى إنجلترا .

وإلى الأسرة الطبية العاملة فى مستشفيات (ريد كليف) و (أولد كورت) و (هير فيلد) بإنجلترا ومستشفى الفيروز بالقاهرة وخاصة أسرة التمريض بمستشفى (أولد كورت) الذين لازمونى زمناً طويلاً .

فتحى سلامه

مقدمة

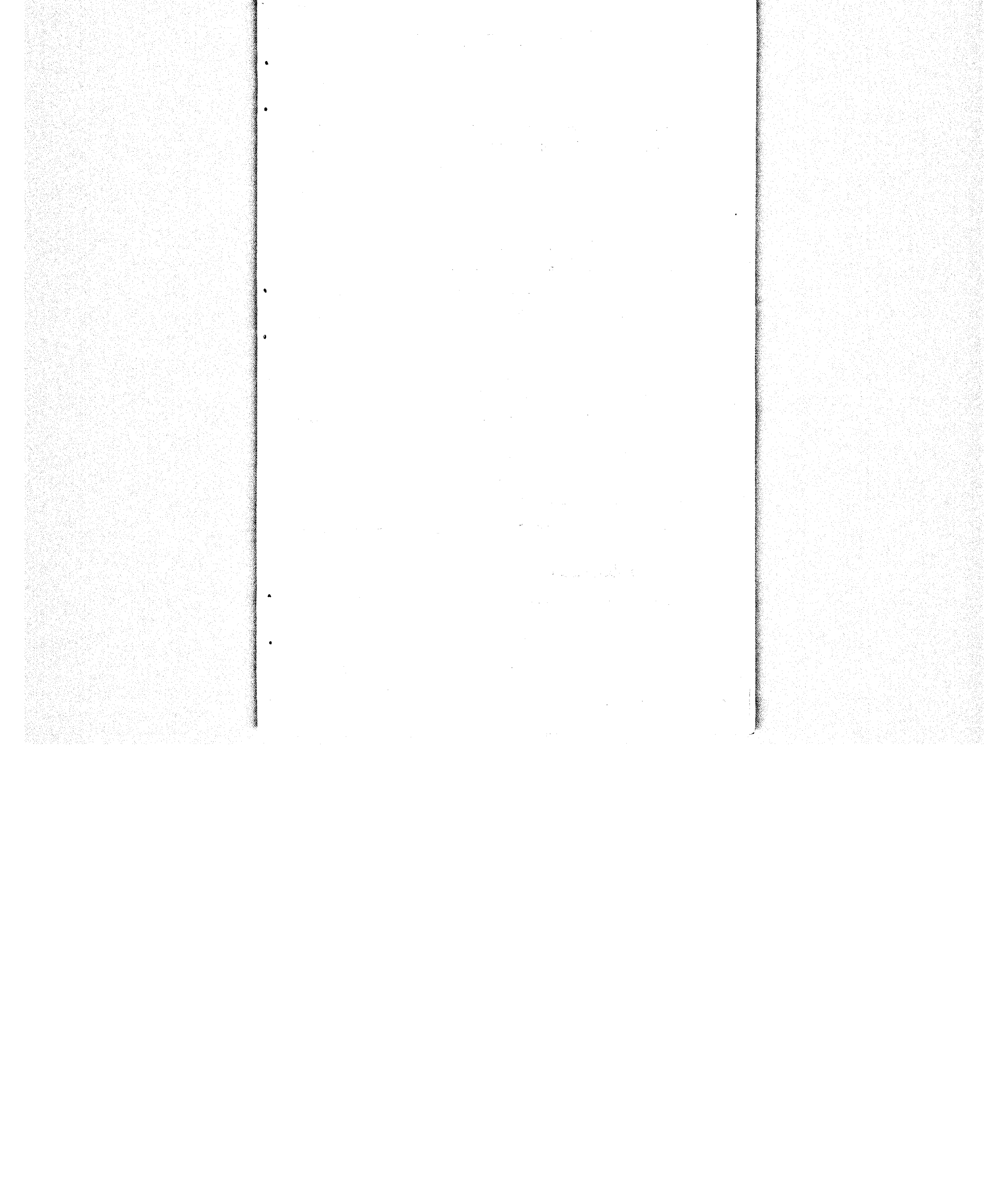
[.. لا أريد تعديل كلمة أو لفظ أو التكلف فى صناعة الكتابة ، فهذه الرواية أو هذا الكتاب أو تلك المذكرات والذكريات أو بمعنى أدق هذه (التهويمات) ما هى إلا رغبة فى الهرب من الألم ومن المرض ومن الطرف الذى يحيط بى ، أردت بها النجاة من الألم والخوف واليأس ، ولا أدرى ما إذا كنت قادراً بالفعل على مواجهة من حولى بعد هذا الكتاب ؟ فقط أردت أن أبقيه كما هو وكما أمليته وأنا راقد طوال تلك الأشهر الطويلة ، على سرير المرض سواء فى مستشفى (ريد اكليف - أكسفورد) أو مستشفى (أولدت كورت) لهذا لجأت إلى ما يخفف هذا الشعور بالإحباط وأمليت على جهاز التسجيل ما أراد الآن وقد تحول إلى حروف وكلمات وسواء سمح لى العمر أن أطلع على هذا الكتاب أم لم يسمح ، فإننى غير نادم على ما ذكرت ، وغير حزين أيضا على أننى لم أحذف أو أبدل حرفا واحدا مما أمليته بصوتى الضعيف الذى فشل كثير من الأصدقاء فى سماعه ونقل كلماته على الورق حتى قيد الله الشاعر حسن حامد فعاوننى خير معاونة .

ها أنا أترك لكم تلك (التهويمات) لمريض يعلم الله كم عانى وكم تألم ، وكم شعر بالوحدة ولولا التنسك بالإيمان وعشق الذات الإلهية .. ما استطعت أن أفتح فمى لكى أسجل تلك الكلمات التى لا أدرى بماذا أسميها .

لعلى أطلت فى مقدمة ما كان يجب كتابتها لأنها كُتبت بعد عودتى من مستشفيات لندن إلى مستشفيات القاهرة وأعدكم بعدم التدخل بعد ذلك ، وليغفر لى القارئ ما سوف يجده فى الكتاب من سوءات لا حصر لها .. فالمريض لا يملك كبحا لعواطفه و لآلامه .. فدعونى أقول لكم ما فى قلبى دون تدخل من محترف للكتابة والله المستعان ..]

فتحى سلامة

(مستشفى أولد كورت - لندن)



الفصل الأول

" قل أعوذ برب الناس ۝ ملك الناس ۝ إلـه
الناس ۝ من شر الوسواس الخناس ۝ الذى
يوسوس فى صدور الناس ۝ من الجنة والناس "

(صدق الله العظيم)

عندما زارتنى سارة فاروق الريدى ، ابنة الزميل فاروق الريدى الذى يعمل فى مكتب الأهرام بلندن وكان يزورنى فى ذلك اليوم وسارة هذه فتاة لا يزيد سنها عن ثمانية أعوام تدرس فى كلية (الملك فهد) العربية فى لندن لهذا فهى تحفظ جزءاً من القرآن الكريم وتتكلم العربية قليلاً وأن كان معظم حديثها باللغة الإنجليزية .

هذه اللحظات من الممكن أن تحدث كل حين ، وليست الإقامة بالمستشفيات كلها ألم وإن كانت الحياة تضيق بالراقدين على فراش المرض ، فالمرض مثل الشوك لا تستطيع نزعة كما لا تستطيع أن تتحمله فإنك ترقد عليه ويرقد هو فوقك ، إنك مريض سواء كنت راقداً أم جالسا - طالما أنك موجود بالمستشفى ، سارة ابنة زميلى تحفظ ما تيسر من القرآن وقد قرأت وسعدنا بها ، وتذكرنا أن الله سبحانه وتعالى قد منّ علينا بالإسلام ، وهى درجة عالية لا يصلها كل مشتاق ولكن الله يهبها لمن يشاء لأن الإيمان ليس فعل إيجابى من الفرد إنما هو فعل مشيئ من الله لأن الله يريدك أن تكون مؤمنا ، فإذا وجدت نفسك مؤمنا فان هذا فضل من الله سبحانه وتعالى يجب أن تشكره وتحمده وتقول أنه كتبها لى وبالتالى تثق فى نفسك ، كما أن الله سبحانه وتعالى قد وضع معنى أخر فانه يقول وقوله الحق " أنا عند حسن ظن عبدى بى " فإذا ظن العبد فى ربه الكرم فأن سبحانه وتعالى لن يضن عليه بذلك الكرم فلهذا ، فأننى سعيد كل السعادة لأننى مؤمن ولأننى

مسلم ، ولأننى على درجة ما من الثقة بنفسى وسعيد سعادة كبيرة بإيمانى هذا وعندى أمـل فـى الله ، أن الله سبحانه وتعالى إن دعوته بالمنان سيمن علينا جميعا بالشفاء .

نعود إلى تلك الحادثة التى مرت بى الساعات الماضية ذلك أن الذى مر بى فى تلك المنطقة التى كنت أظنها الكويت ، أو هكذا ظننت أنها كذلك ، أقصد خلال تلك الحادثة التى مرت بى والتـى ظللت أناضل حتى جاءت ابنتى وأمسكت بى ولكنى كنت أصيح بشكل جنونى على جنـودى لكـى يدافعوا عن الإسلام ، ولكى يبايعوا لأبى بكر خليفة لرسول الله " صلى الله عليه وسـلم " ، ومـرت الحادثة ودخلت ابنتى وتطلعت حولى فإذا بى أجدنى وأنا جالس على مقعد أضيـق بـه ويضـيق بى ومـن حـولى ابنـتى وبعض الممـرضات يحاولـن منـاولتى طعـاما ودواء وأشياء أخـرى لا أدرى لماذا ؟ قلت لابنتى هـل أنا مجنون ؟ قالت لا يا أبى أنت سلـيم بـإذن الله ، فقلـت أيـن أنـا أذن ؟ قالت فى مستشفى تابع لجامعـة أكسـفورد بقسم القلب وأنـت الآن فـى مـركز رعـاية وعنـاية الـمرضى بالقلب فقلت أذن لست بمجنون ، فالألم يمزقنى والمجانين لا يشـعرون بـالألم ، قـالت حسنا هكـذا الحـال .

سنعود إلى تلك الليالى مرة أخرى لأنها ليالى لم تزل تطاردنى بآلامها العميقة – دخل الطبيب الهندى مبتسما :

– صباح الخير .

هذا هو طبيبى وسوف أتحدث إليه بالإنجليزية بالطبع (توقف التسجيل) .

طبيبى رجل عطوف للغاية ، آسف لأننى سجلت تلك العبارات باللغة الإنجليزية لأننى تعودت أن أتكلم باللغة الإنجليزية ، وهى عبارة عن مجموعة من الكلمات والمصطلحات علقت بذهنى وعندما أحاول أن أتذكر كلمات أخرى لا أجدها ، كل ما فى الأمر أننى أردد دائما بالإنجليزية للممرضات أنت عطوفة ، وأنت طيبة ، شكرا لكم ، أننى سعيد لأنكن بجوارى ، هكذا .. أردد تلك العبارات رغم أن الألم يمزقنى ، وأنا ابتسم وأقول للممرضة التى جاءت لأخذ درجة الحرارة أو لوضع المزيد من أنابيب الحقن أنت غاية فى الرقة ، كما أنك جميلة جدا ، وهذه الكلمات تجعلهن يشعرن بالسعادة ويبتسمن ، لأننى أشعر أننى ضيف ثقيل وطلباتى كثيرة بالمستشفى يبدو وكأن لا نهاية لها .. وأصبحت أشعر أننى مريض لا تطاق معاملته ، فهوسى كثير ، وعقلى لا يكف عن العبث وأكاد أعيش فى عالمين منفصلين عالم يسيطر على داخلى – يتغير ويتحول وأنفعل به وعالم آخر ، هو ما يدور فى حجرتى ، فأنا المريض الراقد على ظهره تحيط به أجهزة ذات أحجام وألوان ، العالم الأول لا أتخيله إنما أعيشه وأعايشه ، وأغوص فيه ، ليس هربا من الألم الذى لا يطاق ، إنما لأنه يسيطر على فكرى فأعيشه واقعاً غير متخيل لا حالم ، والعالم الثانى أو (أنا الثانى) يأكله الألم ، ألم لا يطاق ، يهرسه ويذيبه ، أنا الأول فى عالمه الأول يعيش فى صراعات عنيفة تحدث فى أزمنة مختلفة ، هما عالمان ، عالم أصبحت لا أتخيل العيش بعيداً عنه وهو عالم يجعلنى أهرب من الألم إلى ألم ، والصراع ضد الموت بحد السيف تارة ، وتارة أخرى يطوقنى حبل الشنق ، كل هذا يحدث فى أزمنة سحيقة لا أدرى لماذا أرحل إليها أو يرحل الزمن ويزحف نحوى فيركبنى وأرانى وقد وقفت داخله أحارب إلى حد الموت وأعتقد جازما أننى ولدت منذ زمن طويل لامرأة كانت أميرة وقد تم شنقها ، أحيانا أشنق معها وأموت وأحيانا أخرى تشنق أمام عينى ، ويرقب عالمى الثانى عالمى الأول وكأنهما لشخصين منفصلين أحدهما أنا ذلك الراقد الذى يحكى لكم الآن وتصل أذنه تلك (التكة) الرتيبة من جهاز (الحقن الآلى) ، وترقب عينى قطرات الدم الأحمر التى تتساقط من الكيس المعلق قطرة ، قطرة ، ترقب عينى تلك القطرات فى ذات الوقت التى ترى فيها أميرة البلاد وقد وقفت فى ثبات وحول رقبتها حبل المشنقة الممد لشنقها ، وأراها سمراء طويلة نحيلة ، ترقبنى فى شفقة شامخة الرأس فى كبرياء ، وكأنها تقول لى لا تخف ولا تخشى الموت فإنا عائدون ، أمى – أصـــــرخ – يحضر الطبيب لا بد أن أقول له : " كم أنت عطوف وماهر وكم أنا مدين لك لاهتمامك بى " ، لا أدرى لماذا أعتقد أن ما أراه فى الحالتين حقيقة ، والثابت أننى بالفعل ذلك الولد ابن تلك الأميرة المشنوقة ، هذه ليست أول مرة أعرف هذا ، لقد عرفته من قبل ، وأعرفه الآن ، بل أعيشه حسنا قلت أعيش أذن فأنا مدرك أننى أعيش بالفعل ومدرك أن أمامى الطعام طعام الإفطار ، يبدو أننى بدأت أعيش أنا الثانى فى عالمى الثانى لأننى منذ فترة طويلة لم أكن أعرف

اليوم ، فقد عرفت اليوم ، أن اليوم هو السبت . ماذا يهم إذا كان اليوم هو يوم السبت أم الأحد أم أى يوم آخر ، ماذا يهم إذا كنا فى الشهر الرابع أم الخامس أم أى شهر آخر لا يهم التواريخ ، بل لا توجد أهمية على الإطلاق لأي شئ مهم . لقد أوقفت عقلى ، هاهى ابنتى تطعمنى . كما أنها تقوم بدلا عنى بكل شئ ، فابنتى بيضاء شقراء ، وأمي سمراء ، ويبتسمان لى . دوما أرى ابتسامة ابنتى ، واليوم عرفت أن ابنتى ذكية لماحة ، جديرة بالثقة ، لم أكن أعرف ابنتى كما يجب – اليوم عرفتها ، كنت أعرف أنها على درجة كبيرة من الإيمان بالله فهى تصلى وتقرأ القرآن وتراعى الله فى كل شئ . كنت أعرف هذا ولكن لم أعايشه ، ولم ألمسه عن قرب ، واليوم عرفته وعرفت كم هى قوية . وقد رأيتها تتصرف وحدها وسط حشد كبير من الأطباء والممرضات وأساتذة جامعة أكسفورد أنها تدير شئونى تروح وتجئ وتحاور وتسأل وتعرف . وقد رأيت اليوم أيضا كم أحبها كل هؤلاء ، مديرة المطعم تقدم لها طعاما خاصا ، بل تطهو لها بنفسها الطعام ، وكبيرة الممرضات تشملها برعايتها والأطباء يحيطون بها فى رعاية أبويه ، لم أكن أدرى أن لابنتى كل هذه الخصال التى جعلتها موضع احترام وتقدير وعطف كل هؤلاء ، يهرعون لتلبية طلباتها ، عرفت اليوم .. اليوم فقط كم عانت وكم تحملت وماذا فعلت من أجلى ، يبدو أننى أصبحت مدركا .. فقد وجدت نفسي منطلقا فى الحديث عن ابنتى ربما لأننى أبغض تلك الغرفة ، وذلك الفراش ، وهذا المستشفى كله ، كرهت أكسفورد ومن فيها ، شعرت أنهم هم أيضا يبغضوننى رغم حبهم لابنتى ، ويفعلون من أجلها كل شئ ، لاحظت هذا بل عرفت أننى كنت ألاحظ هذا من اليوم الأول ولم أكن مدركه ، واليوم قررت أن أترك المستشفى اللعين بالليل أنتابتنى بعض الهواجس فأنا أراهم هنا بالمستشفى ، أقصد مستشفى أكسفورد وقد أهملونى أطباء كثيرون يأتون ويذهبون نفس الأسئلة ، نفس الأجوبة ، ولكن لا شئ ممرضات كثيرات جميلات شقراوات لا يستطيعون رفع جهاز الحقن وينصرفن بحجة إرسال خبراء فى هذا الأمر ، أتبول تبولا لا أراديا ، لم أعد املك جسدى كأنه جسد شخص آخر ، لست أنا النائم على الفراش ، ولا أنا قائد المسلمين فى حرب فارس ولا حتى ذلك الطفل ابن الأميرة المشنوقة ، شخص ثالث لا أعرفه ، أراهم الثلاثة فى وقت واحد ، أراقبهم ، عقلى يعمل ويدقق ويتأمل ذلك الشخص الثالث الذى يتبول على نفسه ليل نهار ، والذى لم يعد قادرا على ابتلاع الطعام أو الشراب ، ماذا يكون .. هل أنا ، ومن أكون أنا فى تلك الشخصيات الثلاث ؟ ، لابد من مغادرة المستشفى قررت ، وأسف لاستخدام ضمير المتكلم ، لأننى لا أدرى من الذى قرر ، ربما عقلي فقط هو الذى قرر ، قرر ترك المستشفى ، هذه المستشفى الضخمة الهائلة بأطبائها وأساتذتها لا يقدرون على معالجة التبول اللاإرادي ، ولا يستطيعون حقنى ، أنهم فقط يتكلمون يسألون وأجيب ، اردد العبارات ، تذهب ابنتى وتحاول وتسأل ، ورغم أننى أرى أنهم يتظاهرون

أمامها أنهم جميعا يتعاونون معى ، إلا أن الواقع لم يكن كذلك فقد قامت هى بكل العمل . أصبحت أمى وأختى وابنتى وممرضتى وطبيبتى وكل شئ - ها أنا أعود إلى التحدث بضمير المتكلم أسف .. قررت الهرب بجلدي من هذه المستشفى ، فى الليل جاءت الفكرة فى الصباح الباكر وقبل أن تأتى ابنتى استغثت بالسيدة التى تشرف على (الكافيتريا) اتصلت بأحد الأصدقاء وبصوت غير واضح استنجدت به ورحت أستجدى الأصدقاء الذين أعرفهم أنقذونى من هذه المستشفى ، نجحت أخيرا فى إقناعهم شعرت المرضات بما يدور حولى وذهبوا إلى ابنتى لكى تمنعنى من مغادرة المستشفى ، هل يعقل أن يخرج مريض وصدره مفتوح وقلبه لا يزال تحت تأثير العملية الجراحة الثانية ، انهما عمليتان فى أسبوع واحد ، وكيف يخرج ، يجب ألا يخرج ، وهكذا وجدتها أمامى تبكى ، لن تخرج يا أبى - إلى أين تذهب ،فقط بعد أن يزيلوا السلك عن صدرك ، وإن .. قاطعتها فى انفعال - لقد سرقوا ابنتى ، أحبوها وأرادوا الاحتفاظ بها ، أما أنا فلا أهمية لى إنهم يتجولون من حولى وأنا أتبول فى فراشى ، وغير قادر على الحركة سرقوا ابنتى وسرقوا حياتى فى نفس الوقت ، ولم يكتفوا بهذا بل جعلونى عدة أشخاص ، لا أعرف منهم من أنا ، لا أدرى أمر نفسى ، إذا بقيت هنا لن أشفى ، جاء زميلى فى العمل ، ومدير مكتبنا بلندن - لقد حضر صدفة رآنى ، قرر هو أيضا أن أخرج من هذه المستشفى . لقد ساءت حالتى كثيراً .. أخذ يردد هذا القول للقنصل العام - صديقى جلال اتصل بمجدى يعقوب استنجد به ، نحن من بلد واحد ، ووافق مجدى يعقوب أن يستقبلنى واسترحت ، ولكن ابنتى تبكى .

جلال صديقى الدمياطى ، رجل أعمال ويعيش فى لندن ومتزوج من إنجليزية يتجول حول العالم ، له أصدقاء ومعارف كثيرون ، ولكنه لم ينس دمياط ، ولم ينس والديه وأهله ، كل عام يقضى معهما وقتا ، أشترى لهما بيتا جميلا ، ودود ، وبشوش ، وقف بجوارى ، هذه هى المرة الثانية التى يقف بجوارى فى محنتى ، أو فى ذلك الامتحان الذى أراده الله لى - يردد بلهجته الدمياطية :

- أريد ا. أسمع نكتة جديدة .

قلت فى غيظ : هل هذا وقته .. أريد أن أذهب الآن .. فورا .

وجاءت ابنتى تبكى ، ورآها (عاطف) زميلى ، عاشرته أكثر من عشرين عاما ولكنى لم أعرفه جيدا ، إلا فى تلك اللحظة التى جلس بجوار فراشى وهو يبكى ، جاءت الطبيبة لكن تقول كلاماً كثيراً عن رغبتهم فى علاجى وفى شفائى وفى معاونتى ، كدت أموت غيظا وهى تقول فى نهاية حديثها :

– سوف آمر لك بثلاث حبات من أقراص النوم ، أقراص النوم ؟ هل هـذا هـو علاجـى ؟ وأنـا أصبحت خرقة بالية ، وتحول عقلى إلى شوارع متسعة يسير فيها كل من يرغب ، .. أهواك ولـن أنس أبداً هواك يا حبيبى ، لقد اكتشفت قارة جديدة اسمها (المفترى) ، وأنـا الآن أركـب مركـب صيد ، وأقلع بها مخترقا المحيط الهادئ ، المحيط هادئ دوما ، لا زوابع بل رمال باردة وصوت الريح يبدو رقيقا مثل تهشم زجاج يأتى من بعيد ، ... صرخت ، منعنى عاطف ، لا تزال ابنتى تبكـى ، يبـدو أن الطبيبـة أخبرتـهم – رأيـت الممرضـات والأطبـاء يتحلقـون حـولى ، الجميـع يتكلمون ، يحاولون ، ولكن ابن الأميرة يقـف صامتـا ، آراهـم مجـرد رجـال بملابـس بيضـاء ، أساتذة أطباء ، ولكن بلا قلوب ... كـان موضع القلب منهم يبدو فارغاً ، نعـم رأيت موضع القلـب فـارغاً ، ابتسمت ، أشهـرت ، سيفى قلت :

– أنا عبد الله .. ولكنكم لا تعرفون الله ، ولا تعرفون كيف يكون الإنسان عبد الله أنا من صنـع الله ، وقد خلقنى ، وسكن بداخلى ، فأنا الله – وأنا عبـده ، وأنـا أسـجد لـه أعبـده .. ولكنكـم لا تعلمون .. أنا من صنع الله ، قادر على أن يعطينى قدرته ، لماذا لا يأخذ الإنسان قدرة الله ، أليـس من خلقه ومن صنعه ومنه ، سيدنا (سليمان) تكلـم مـع الطـير ، الحيـوان الجـن وحكـم البـلاد ، ومشى (العبد الصالح) على الماء ، وذبح (إبراهيم) الطير ووضع كل جزء منها على جبل ثم جاءت إليه مغردة قل فقط لا اله إلا الله . . فقط قلها بقلبك ، ودخل الجـن إلى سليمان وأخـبره أن هنـاك ملكة لها عرش وأنا قادر على حمله إليك ، وأنت جالس فى مكانك ، ولكن البشـرى قـال لـه بـل أحمله لك قبل أن يرتد إليك طرفك ، البشرى مؤمن ، لديه العلم الذى منه الله لآدم ، فقد خلق الله آدم وعلمه ، ثم جاء بالملائكة وقال لهم سجدوا فسجدوا بعد أن سألهم ولم يستطيعوا أن يجيبوا ، ولكن آدم أجاب ، أدم لديه العلم ، علمُ علمه له الله ، فلماذا لا يقدر آدم أن يـأتى بعـرش بلقيـس فى لمح البصر وقد استطاع ويستطيع .. العلم هو القوة .. والقوة من عنـد الله .. فسجد لـه الملائكـة والملائكة تعرف وتعلم أن الله منح آدم العلم والقوة ، .. ولكن إبليس كفر – لم يستطع أن يسجد – لقد رفض أن يسجد تكبرا على آدم وليس على الله .. وأقسم إبليس على أن يغوى آدم –لقد طرد من الجنـة بسـببه ، لقـد حـرم مـن رحمـه الله بسـببه ، إذن ليقعـدن لـه ، فنحـن أمـام جبهـتـان متعـارضـتان ، الخير وهو علم آدم وقدرته ، والشر هو إبليس وأمراضـه ، إبليـس يحرضنـا لكـى نمرض ، وآدم يدفعنا للابتعاد عن الخطر ، يدفعنا نحو الإيمان بالله .. يكفى الثقة بالله – أنا أثـق بالله الذى أعطانى القوة :

لكزنى صديقى عاطف – قال : ماذا تقول ؟

قلت : أريد أن أخرج من هنا .

قال في ألم : ولكنك تقول كلاما غريبا .. وهم لا يفهمون ماذا تقول ؟

قلت : أخبرهم أنت

قال في ضراعة :

– أرجوك .. أنا لم أفهم شيئا ، فقط يجب أن تكف عن الكلام .

تلتفت حولي ، من الذي يتكلم ، أنا راقد مستسلم ، أرى صديقي وزميلي عاطف وابنتي يبكيان ، لا أدري لماذا يبكيان ، وطبيب يتكلم وعدد من الممرضات وقد تحولن إلى راقصات عاريات في ملهى ليلي ، قلت :

– أنا لا أحب هذه الكباريهات .

قال : لسنا هنا لكي نلهو .. إننا نبحث عن ممثلة تقوم لك ببطولة مسرحيتك ؟

قلت له في قسوة : لماذا تهرب مني أحيانا .. وتختفي بشكل مريب ؟

قال مبتسما : لا .. فقط لكي لا أفشل فيما قصدته .

قلت في حده : وهل أنا الذي أسبب لك الفشل .

قال وهو يدفعني لركوب السيارة :

– نعم .. (وشك وحش) .. وأنصحك الابتعاد عندما أريد ذلك .

شعرت بالحزن ، هذه أول مرة يصارحني صديقي أنور بذلك – وراح يعدد المرات التي فشل فيها ، وضحكت لقد فشل في إغضاب الله ولم يستطيع ارتكاب المعصية لأنني معه – فإذا تصرف دوني أنا نجح في غرامياته ونزواته وكل ما هو جميل بالنسبة له .. وكان النجاح حليفة .. أما إذا حضرت فإن كل شئ سيفسد بمجرد حضوري ، ضحكت .. قال عاطف :

– لقد وافق القنصل على نقلك إلى مستشفى آخر تحت رعاية الأستاذ يعقوب وسوف يرسلون إليك سيارة إسعاف قالت ابنتي :

– ولكن الممرضات هنا يحذروننا من هذا .. يمتنعون عن اعطائنا الأوراق .. وقد هرب الجراح !

وجدت نفسي جالسا في مدخل المستشفى ، أنه عالم كبير ، هائل ، النساء الداخلات شبه عرايا ، الحرارة شديدة ، تقيأت شعرت بالمرض وقد زحف على بطني مقتربا من عقلي ، ابنتي أخذتني إلى الغرفة مرة أخرى ، لم أعد أطيق صبرا – أردت أن أدخل إلى الكعبة وقف رجل اسود

ومنع دخولى .

قالت الممرضة : إنك كسول .. لا تريد أن تشفى .

رأيتها تتلوى ، وسمعت نقرا مثل نقر الدف ، .. قالت ابنتى :

- لماذا لم يحضر (وسبى) ؟

ضحكت ، تذكرته ، أنه الجراح الذى شق صدرى مرتان ، فى أسبوع واحد - ضحكت لأنه اختفى وتركني مع مجموعة من راقصات الملاهي العاريات ، جاء وهو يضحك ، كان ضخم الجسد ، صوته أجش يصحب ولده الصغير ، وقف بجوارى وهو ينضح بالثقة فى نفسه ، قال :

- غدا نبدأ ببعض الإجراءات الطبية ، وسوف أشرح لك ما سوف أقوم به ، هذا هو الرسم ، هنا يكمن المرض ، انتفاخ الآورطى ، سوف أصلحه وأثبت هذه الزواية أنت ترى الآورطى حاليا يبدو ملتويا ، وسوف اجعله هكذا مستقيما ، ثم أصلح ما حوله .

قلت : منذ سنوات أربع فتحوا صدرى وفعلوا كل ما تقول الآن .

قال : تفاخرا

- أظنك تعرف (البروفيسير) ..

- أنا الشباب ، أنا المستقبل ، إنه رجل عجوز .

شعرت بالغيظ لأنه أهان (يعقوب) ، لم أرد ، راح يسترسل فى شرح العملية بصوته الثقيل الغليظ .. قلت لعاطف لم أعد أطيق وجودى هنا ، ... ابنتى أقنعوها بخطورة خروجى من المستشفى ، لم أعد أفكر فى شئ ، .. كنت ارغب فى دخول الحرم المكى ، أن أرى الكعبة ، أن تلمس قدماى بلاطها البارد ، انتقلت إلى مستشفى (الأولد كورت) ، .. الممرضات هنا من جميع البلاد ولكن يبدو أنهن على دراية كبيرة وخبرة طيبة .. الهنود هنا كثيرون ممرضات وأطباء والباكستانيون أيضا ، أراهم باستمرار .. (بانديا) الطبيب الهندى المساعد للدكتور يعقوب قال :

- يجب أن تثق بالله .

لا اله إلا الله - الواحد - الأحد ، الفرد الصمد الرحمن الرحيم ، الغفار الغفور الرازق ، الواهب ، المنان .. هو المنان ، هو الله ، يكفى أن تثق فى الله ، أنا أثق فى الله - أستريح عند نطق لفظ الجلالة قال (بانديا) طبيبى الهندى :

- هذا يكفى .. أنت الآن تعيش - فقاوم ، وحارب .

قلت كيف ؟

– قال : فقط حارب .

ومضى ، وحاربت ، اختلطت الصور ، وضعونى على الفراش قالوا سوف نجرى لك جراحة صغيرة ، ولكن لن نستطيع تخديرك ، هل يمكن أن تتحمل ، أخذت أردد .. أحـــد ، أحد ، .. لا اله إلا الله ، يقول الأطباء .. أسف ، أردد مـــرة أخرى .. أحد ، أحد .. بانديا يغيب عنى يومان فى الأسبوع .. القطار تحطم فى إحدى بلدان الهند : رأيته يبكى وبكيت ، أنا فى حاجة للبكاء ، فى حاجة إلى أن أجد نفسى ، أين أنا ؟ لماذا يردد الكل من حولى كلمة أسف ، لماذا لم يحضر الجراح الإنجليزى (وسبى) قالوا لن يحضر استمر الجدل – (بانديا) قال لا تفكر فى شئ – دع الأمر لله ، يعقوب يعطى الأوامر لبانديا – وبانديا هو الذى يعشق (عبد النـــاصر) و(نيرو) كما يعشق (غاندى) ، ويعشق علمه ، .. حاول أن يخفف عنى ، ولكن يخفف عنى ماذا .. أصطدم قطاران فى الهند ، راح كثيرون ضحية هذا الحادث ، بانديا كان يبكى ، .. هل أنا الآن فى مستشفى أكسفورد أم فى مستشفى أولد كورت ؟ .. غدا تجرى سبع عمليات جراحة قلب .. الحركة من حولى تبدو هادئة ، .. أسف لم أعد قادرا على الحكى ، .. (المسرح) جاهز ، أقصد غرفة العمليات ، يسمونها هنا مسرح ، فى أكسفورد كتبوها بخط واضح .. المسرح .. أدخلونى محمولا على نقالة دلفت إلى طرقه طويلة ، رأيت رجلا عجوزا أبيض الشعر ممددا فى سرير فى ركن من أركان هذا الدهليز ، يبدو أنه ميت حاولت نسيان أمره ولكن لا أستطيع .. ابتسموا فى وجهى ، شعرت أنهم يأخذون جارى ، سمعت كلمات معتادة ، انهم فى طريقهم إلى المسرح – إلى التياترو أنهم يأخذونى إلى التياترو ، اقصد أنهم يأخذون جارى ، غرفة العمليات تسمى مسرحا ، هل يمكن أن تسمي غرفة العمليات بالمسرح ، هل كتبوها هكذا لكى لا يخاف المرضى فى مصر .. يكتبون غرفة العمليات ممنوع الاقـــتراب ، محظور التصوير أو الاقتراب ، منطقة خطر رفعوا أيديهم عنى . أرادوا أن أكون وحدى .. ولكنى شعرت أنهم يخيطون صدرى دما نخيط نحن أكياس القطن شعرت بالأيدى وهى تزم صدرى بالخيط ، وفتاة سمراء ؟ هل أنا لازلت فى المسرح أقصد فى غرفة العمليات وهذه الفتاة لماذا هى سمراء هكذا ، سمرة تبرق فى شقاوة ، أخذت السمراء فى التهام الطعام وشرب الشاى وهى تنظر نحوى .. هل هى أمى ، أمى سمراء ، وزوجتى سمراء وابنتى الصغرى سمراء ، والليل فى بلادى أسمر .. وهذه الشقية التى تنادينى بأسمى وتنهرنى لم أعد أطيق هذا الشتات ، يجب أن استقر ، هذه الشقية أجدها دائما فى المسرح اقصد فى غرفة العمليات ، فى العملية الأولى رأيتها وفى الثانية ، وقد شعرت بوخزتين فى أسفل بطنى وفى أعلا صدرى ، ولمحت السمراء الشقية وهى تستند على

ما يشبه المكتب وفى يدها كوب الشاى ، نهرتنى فى حنان واقتربت منى ، .. لا أدرى أين رأيتها من قبل ولكنى واثق أنى رأيتها وأعرفها ، وهناك شابان يرتديان ما يشبه ملابس رجال الفضاء ، ملابس من المعدن البراق اللامع ومعهما أجهزة . يدوران حولى ، يبتسمان ويهجلان .. تياترو . ندخل ونتفرّج . عالم غريب والفتاة السمراء التى تأمرنى دوما ، انظر إلى عينيها ، سمراء ، سمراء مثل أهل النوبة دقيقة الملامح ، ذات شعر قصير ، لماذا أذكرها ، لماذا تلح على ذاكرتى ، أفقت أول مرة فإذا هى أمامى تأكل سندوتشا وتشرب الشاى ، لقد أجبرتنى على تذكرها دوما ، وفى العملية الثانية كانت هى أيضا ، زوجتى سمراء وأمى سمراء وأمى سمراء ، شعرت بوخزة شديدة أسفل البطن وأعلى الصدر ، رأيت أماكن الوخز ، والوخزتان لازالتا تسببان لى آلاما مبرحة وينزفان دما . الفتاة السمراء ، تلح على ذاكرتى أظنها مصرية أو أظنها من صديقاتى ، .. هنا فى التياترو كل الناس مشاهير الجراح وسبى ، مشهور ، وصحوت أو فى تلك اللحظة التى ترنو نحوى ، تبتسم تضع يدها على صدرى . لم أكن أدرى ما إذا كنت راقدا تماما أو جالسا ، كل ما اذكره أننى عندما رأيت وجه ابنتى ابتسمت ، نسيت آلامى ، ونسيت الفتاة السمراء ، لم أسمع حديثها ولكنها كانت تتكلم وأنا ابتسم .

قاطعنى الطبيب ، وهو رجل يتحدث بسرعة ، وإنجليزية تبدو ركيكة ، .. وأطلقت ابنتى عليه (شورم بورم) وحتى الحكيمات بدأن يضحكن وهن يرددن الاسم بلكنه إنجليزية ، (جيسى) كبيرة الممرضات تعرف أن هذا الطبيب له مهارته الشديدة فى عمله ، كما يتميز بخفة دم وتبتسم عندما يسأل المرضى عن الدكتور (شورم بورم) .. علمت فيما بعد أنه أخذ موقفا عدائيا منى يبدو أنه فهم أننى السبب فى التسمية ، الجميع هنا يشفقون على ، ودوما يسألوننى نفس الأسئلة ، كلها تدور حول ما حدث فى مستشفى أكسفورد ، لم أعد أهتم قال باندبا لا تهتم فقط قاتل ، ها أنا أقاتل بطريقتى ، أسجل بصوتى الواهن ما يمر بذاكرتى ، أو ما يمر بى ، متناسيا الألم ومتناسيا ما يفعله بى الأطباء ، أشير إلى ابنتى كى لا يبدأ الجراح فى عمله ألا بعد أن أغيب فى الصلاة فإذا غبت ، قاموا بعملهم أنهم يحتاجون إلى أحداث فتحه فى أعلا الصدر أو فى الرقبة لوضع جهاز الحقن الآلى ، لعدم وجود عروق ظاهرة ، ولاختفاء الدم .. أرفع بصرى مكبرا ، أرى الحرم المكى ، أدخل وأسجد بعينى وأركع بعينى ، عقلى هناك ، جسدى هنا ، لا يهم لقد تعودت على الانقسام من قبل استطاعوا أن يشطروا الذرة فلماذا لا أنشطر أنا ؟ ، أنا اثنان ، بل أحيانا ثلاثة ، رجل يبتسم وأخر يحكى حكاية قديمة ، وثالث يتألم ، عقلى يجرى فى تعقب الفتاة السمراء فى تياترو أكسفورد لكى يكشف لى عن أصلها وفصلها ، وخيالى هناك فى الكعبة وجهازى العصبى تحت تأثير المخدر .. حان الآن موعد اختيار طعام الغداء ، تبتسم السيدة الهندية ، لا أدرى لماذا يعمل فى مستشفى الأولد كورت كل هذا العدد من دول أسيا

وجنوب أفريقيا بل ومن أمريكا اللاتينية كل واحدة لها قصة ولها حكاية ، وأنا أستمع إليهن ، وقد غمسن شريطا طويلا فى قلبى ، تظل تغرسه كما تفعل أمى عندما تحشو (المبار) فى صبر وأناة وسعادة أيضا .. وهى تحكى :

(لم أجد أحدا بجوارى عندما ولدت ، ذهبت إلى الميدان وهناك وجدت شابا ، لا أعرف من أين هو ، حادثنى ، جذبنى إليه ، انتقلنا إلى بلاد كثيرة ثم جئت إلى هنا ، لأنه ذهب ، وصادقت شبانا آخرين ، كانوا يرحلون عبر سفينتى ، لم أجد بدا من العمل ، وطاردونى تمسكت بالعمل ، أنا الآن سعيدة لأننى أعمل ، سوف أحتفل بعيد ميلادى الثلاثين) أبتسم (تقول بل الأربعين) أبتسم تضربنى على كتف وتقول (أنت تجيد الاستماع) .. أسألها لأتسلى ، ماذا أفعل ، أنا أحارب بطريقتى أتحدث إليكم وإليها وأكتب مقالاتى وألقى النكات على المرضى وأترجم للمرضى العرب ما يقول الأطباء وأستمع إلى أشرطة القرآن ، وأنظر إلى شجرتى الجميلة من نافذتى ، لقد استطاعت الشجرة أن تقف وسط النافذة تماما ، .. عندما خرجت فى نزهة قصيرة بعد عدة أشهر ، وجدت الشجرة ليست فى منتصف النافذة سألتها :

زوجك ؟

ضحكت وقالت : ليس زوجى بالضبط ، إنما هو الرجل الذى يعيش معى الآن .

قلت : هذا حرام ، قالت فى دهشة :

– كيف هذا ؟

كنّ يعشن مع رجال ، ليس بالضرورة أن يكون هناك زواجا مجرد رجال يقيمون مع نساء ، قالت : هل هذا عيب ، قلت لها : بما إنك من الصين – والصين بلد التقاليد مثلنا كان يجب أن تعلمى هذا ، قالت : من يتزوج من سيدة تخطت الأربعين وليس لها مال ولا عائلة لو طالبته بالزواج لذهب ولم يعد .

قلت : هذا أفضل .

قالت : وماذا أفعل فى الليالى الطويلة وإلى من أتحدث ؟

قلت لابنتى : حادثى أمك فى التليفون

قالت : بعد لحظات أن زوجى عندها .

قلت : حادثيه .

أسمع آذان الظهر فى التلفزيون ، الحاج (محمد أيوب) جاء لزيارتى وأراد أن يؤذن للصلاة فى حجرتى ، أشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وقرأ الحاج محمد الباكستانى آيات بيانات من القرآن الكريم ، هذه اللحظات التى تتقطع عليك حبل الوحدة أو حبال الصمت بأن يدخل عليك أحد الناس ليس من أهلك ولا من بلدك ، ويدعوك للابتسام ويتحدث إليك ، ويقرأ ، تلك اللحظات تعد من أجمل لحظات الحياة على فراش المرض ، ومحمد أيوب تاجر الملابس المستوردة من فرنسا يسكن فى منطقة بعيدة ، بجوار مطار (هثرو) بلندن ويتكبد بشكل يومى تقريبا متاعب زيارتى ودائما يحمل بين يديه طعاما أو فاكهة أو علبا من العصائر بالإضافة إلى تسجيلات للقرآن الكريم ، هو رجل تعدى الخمسين ولكن فى حيوية الشباب ماتت أخته فى الشهر الماضى أثر حادث أليم فى فرنسا ، يعتز كثيرا إنه كان أحد أفراد حرس الرئيس الباكستانى ، وبعدها جاء إلى بلجيكا ثم إلى هولندا وأخيرا أستقر به المقام فى لندن بائعا للملابس التركية التى تهرب عن طريق فرنسا ويضعون عليها علامات تجارية مختلفة ذات شهرة عالمية ، وهو يعمل مع شريك له ، وهذه التجارة مزدهرة جدا فى الحى الباكستانى فى لندن وتذكرت غاندى عندما قطع الهند طولا وعرضا لكى يمنع الهنود من استعمال الملابس الإنجليزية واستخدم البضائع الأجنبية والعودة إلى الصناعة الهندية ، بل تذكرته عندما قرر مقاطعة الملح الإنجليزى واستخدام البضائع الأجنبية واللجوء إلى تصنيع الملح الهندى ، وكسب غاندى استقلال الهند وبعدها أنقسم الهند إلى هند وباكستان .. والآن يبيع الباكستانيون الملابس التركية للإنجليز .. دنيا يا عم محمد يا أيوب ، الأفضل أن تقرأ لى القرآن . كل آماله أن يزور الأزهر .

غفوت قليلا – سمعت صوت ابنتى مرحبة ، تنبهت ورأيت رجلا طويلا يرتدى جلبابا أبيضا وله لحية بيضاء ، ظننت أننى أحلم ، غمضت عينى ، ولكنى سمعت الصوت واضحا كان يتلو القرآن ثم قال :

– أنا أحب مصر ، وأتمنى زيارة الأزهر الشريف .

راح يحدثنا عن عمله هنا ، أنه شيخ مسجد أكسفورد ، الواعظ وقارئ القرآن والداعية هنا مجموعة كبيرة من الباكستانيين المسلمين ، أخذ يمسح على صدرى برفق ، وذهب ولكن فى كل يوم يأتينا ولده (أحمد) بطعام الغذاء ، قال هنا لا يتبعون الطريقة الإسلامية فى الذبح لهذا يجب ألا تأكل طعامهم ، لدينا نحن طعامنا الخاص ، وذبائحنا من مزارعنا نأكل كما أمرنا الله ونذبحها كما أمرنا الله .. لهذا فطعامنا حلال ، وحاولنا أن نرفض برقه – المسألة أننى لا أستطيع

تناول الطعام وابنتى لا تكاد تأكل ثم هى تأكل السمك فقط ، .. ولكن الطعام يأتى كل يوم ساخنا طازجا ، والفاكهة من كل لون ، ورحلنا عن مستشفى أكسفورد وذهبنا إلى الأولد كورت وتكرر نفس الموقف ، جاء محمد أيوب الباكستانى أيضا ، وراح يعطينا الطعام بل يمطرنا به وأكياس العصائر ، واضطررنا لإعطاء الطعام للممرضات بحجة أن الطعام يأتى من عند أمى ، هى التى أرسلت هذا الطعام ، وأمى أرسلت لى هذه الفاكهة ، يبتسمون لأن أمى ترسل كل هذا حتى أن الطعام السعودى الذى كان يأتينى من الأسرة السعودية كنت أرسله إلى الممرضات وكن يأكلن بشهية ويرددن أن طعام أمك هذا جيد ، كيف ترسله إليك ، وأقول : بالطائرة ، بلدنا ليس بعيدا ، وأمى تسعد عندما تعلم أن طعامها جيد ، .. والفاكهة أيضا ، أبتسم وأنا أراهن مندهشات سعيدات بالتمر والجوافة .. ويسألن ما هذا أردد أن هذا من بلدنا من عند أمى وتسألنى (لولا) فى تخابث كيف ترسل لك الأكل هذا ؟ أردد بالطائرة ، تقول ولكنى لا أرى أحدا من أهلك أقول كيف ألم تشاهدى أخى (فاروق) ، وتقول : آه .. أهو فعلا شقيقك : أقول وأنا أتذكر كل أشقائي (سمير) و (نصر) و (عز) وأحبس دموعى وأقول نعم هو كذلك ، فاروق زميلى فى الأهرام يعمل فى مكتب لندن ولكنه لا يتركنى يزورنى يوميا ، يراقب معاملة الأطباء لى ، .. نسيت أن أكتب كيف كتبت هذا ، أنا لم أكتبه إنما أمليته على مسجل صغير ، كنت قد اشتريته من (مكة) فى مارس الماضى ، عندما أحضرونى إلى لندن جئت به ومعه مجموعة من تسجيلات القرآن الكريم ، وقال باندبا : حارب ، قاتل ، فكرت كيف أحارب ومن أحارب ، وبأى سلاح عقلى يذهب بعيدا ، يدى لا تطاوعنى ثم أننى لا أرى من أمر نفسى شيئا .

ما يقوله يعقوب حسيرتنى ، قال : لم تكن بحاجة إلى عملية ! وها أنا راقد بسبب تلك العملية ، بل أجريت عمليتان — ثم يقول لم تكن بحاجة إلى عملية !— وطار عقلى ، وتصلب جسدى ، وتدفق الدم من صدرى ، فى كل جزء من جسدى وضعوا العديد من (الحقن) .. كيف أحارب يا باندبا . كيف أقاتل ، هل أقاتل من أرسلنى إلى أكسفورد ، هل أقاتل من تسبب فى رقدتى ، قال : باندبا لا تفكر فى كل هذا ، يعقوب يقول أن أمامك تسعة أسابيع حتى تشفى ماذا أفعل .. وتذكرت أننى كاتب — ولكنى كيف أكتب ، وماذا أكتب ، وعن ماذا أكتب ، وهل أفادتنى الكتابة ، ألم تكن سببا مباشرا فى مرضى ، لو كنت بائعا للفول أو بائعا فى محل ، أو مجرد عامل فى البلدية لكنت الآن سعيدا ولكن للأسف ها أنا أصبحت كاتبا عشرات الروايات ومئات القصص ومثلها العديد من المسرحيات وغيرها .. مسلسلات ..أفلام .. مقالات .. دراسات .. ندوات .. ساقية لا تكف عن الدوران ، أكتب لكى ترى اسمك مكتوبا بحروف سوداء فى الجريدة ، أكتب ، أمى .. هذا هو أسمى — تقبل الصفحة وتبتسم ، لا تعرف ماذا أكتب ؟ ابن أخى أشار إلى أسمى وقال لها : انظرى يا جدتى هذا أسم عمى ، أبنى

يرى أسمى فى الجريدة والمجلة ، ابنتــى تنظـر إلى صورتـى .. بـالتليفزيون .. أتحـرك أتكلـم ، أضحك ، أبتسم ، ولكنى أجلس فى نفس الوقت بجوارها .. كيف هذا ؟ هل أنا حقا بجوارها ؟ ، إذن من يكون هذا الذى يتكلم بكل جدية أمامها فى التليفزيون ، ابتعدت ابنتى عن التليفزيون لم تعد تتابعه .. تسألنى بلا اهتمام مسلسلك الجديد يا أبى ؟ أبتسم ، تقول : صديقاتى يتابعانـه ، أقول وأنت ؟ – تقول: لقد راجعته عندما كان مخطوطا ، ألا تذكر أننى أقوم بهذا العمل ، أسألها ما رأيك ، تقـول لا أدرى ، وزوجتى لا تريد أن تقـول شيئا ، لم أعـد أهتـم بمـا أكتبـه بعـد أن أكتبه ، أو بما يذاع من أعمالى بعد أن يتم تصويره ، .. ماكنة كتابـة ، ماكنـة كـلام .. نحـن هنـا أيها السادة لكى نحدد القضية الأساسية .. تصفيق حاد ، يبتسم أصدقائى – كيف تفعل كـل هـذا فى وقت واحد ؟! . لا شئ هنا سوى لوحة معلقة على الحـائط المقـابل للفـراش حـاولت أن أتـأمل اللوحة ، إنها غير واضحة يبدو أن الرسام كان مريضا ، هذه المستشفى تلازمنـى كنـت هنـا منـذ ثلاثة أعوام فقط ، يبدو أننى لم أخرج منها ولكن كنت فى القاهرة عندما سقطت ، لم أكـن أدرى وقتها أننى ذاهب إلى المستشفى كنت فى عجله من أمرى – زفاف ابنتى بعد أيام ، وهى تريد أن تقضى فى العريش أسبوعين كنت قد حجزت أسبوعا واحدا ، أسـرعت إلى الـدور العاشـر ، قـالوا كان يكفى أن تتصل بنا تليفونيا ، دفعت الاشتراك ، أسرعت إلى مكتبى شعرت بالدوار ، دخلـت المستشفى ، أحضرونى إلى هنا ، عندما قابلتنى (جيسى) قالت : وجهك مألوف قلت لهـا : نعـم أنا الآن فى دارى ، فى مستشفى (الأولد كورت) وابنتى لم تـتزوج وحضـرت معـى ، تساعد كـل المرضى ، تقوم بالترجمة للمرضى العرب ، وتساعد السيدات ، عدد كبير منـهن تحـت العـلاج ، قالت : أن عيد ميلاد (محاسن) اليوم – بالحجرة رقم ٥ أحضرت لهـا هديـة ، جلسـت معـها ، استمعنا سويا لأغنيات أطفال محاسن كانوا قـد سجلوا لهـا ، عـدد تسـجيلات ، أغنيـات أعيـاد الميلاد ، وقالوا أن أعياد (السود) غدا ، لندن سوف تمتلئ بالسود وسوف تغلق المحـال ولا عمـل للشرطة سوى الحفاظ على الأمن ، قلت لابنتى : لا تخرجى ، كل يوم يحضر مريض جديد ، أنه خائف يرتعد ، منذ عامين وهو يعانى من مرض القلب ولكن يجـب أن يحصـل علـى موافقـات ، عشرات الأساتذة يجب أن يمر بهم – لكل منهم رأيا مستقلا – والمرض يزداد شراسـة ، وأخـيرا أحضروه إلى هنا لا يدرى ماذا يفعل ؟ أحدهم خاطبنى بصفتى أقدم مريض ، أنا شاويش المستشفى والحالة النموذجية لمريض القلب الصابر ، لابد أن أتحمل ، هناك جراحة صغيرة ولا يسـتطيعون إعطائى مخـدرا . ويجـب أن أتحمـل ، تركـت نفسـى وذهبـت بعيـدا ، كـانت البيـوت الصغـيرة الجميلة لها حـدائق صغيرة أيضـا ، والـورود الحمراء والصفراء تقف فى انبهار لشمس أغسطـس اللنـدنية ، الأبواب موصدة وأنا أصلى ، والطبيب يقوم بفتحه صغيرة فى الرقبة لكى يتمكـن مـن وضع (آلة الحقن) .. قالت ابنتى دعوه لأنه يصلى .

ودخلت الكعبة ورقدت على البلاط ، صحت فرحا لأن كل ما حولى كان جميلا ويدعو إلى الانبهار ، جدى كان يهبط إلى بئر زمزم مربوطا بالحزام والحجاج يمسكون بحبل مربوط بالحزام ، يجب أن يصعد بعد أن ملأ الدلو ، أجلس وصديقى (محمد) يضع أمامى العديد من الأكواب ، أنظر إلى الماء ، اشرب يا أبى ، أتمتم اجعلها زمزم يا ربى ، آسف قالها الطبيب وربطوا صدرى بحزام عريض ، شدوا فوقه حزاما حديديا قلت : أن الأسف لا ينفع ، وأننى يجب أن أعود إلى حجرتى فقد شعرت بالتعب لأننى مشيت على قدمى مسافة طويلة ، ابتسمت ابنتى وسألتنى أين كنت ؟ تلفت حولى ووجدتنى راقدا واللوحة المبهمة أمامى . دخلت السيدة التى بالحجرة المقابلة لحجرتى قالت : أن العزم يقاس بالشدائد ، زوجها ، يرقد فى انتظار إجراء الجراحة ، ضابط شرطة متقاعد ، افتتح مكتبا للتجارة ، جاء على نفقته الخاصة ، كان لا يشكو والسيدة زوجته محجبة ، أخذت أبنتى معها فى جولة حتى تبعدها قليلا عنى ، .. لم أكن أشعر بالزمن ولا حتى بالألم ، كنت أبحث دوما عن الحلم ، عن البعد ، عن البعاد بعدت عن قريتى ، وعن بلدتى وعن أسرتى ، وعن نفسى ، جاء بعد أن عرف أن ابنتى خرجت ، جلس يحكى لى حكايته ، لم يكن يشكو مرضا ، اصطحب زميلا له إلى الطبيب ، أصر الطبيب على أنه هو المريض وليس زميله ، وقد أكدوا له تعب قلبه منذ عامين وهو يجوب المدينة ، كل طبيب برأى ، المهم أن والده الطبيب يسعى لكى يرسله لإجراء الجراحة فى لندن ، ولكن الإجراءات ، دائما الإجراءات ، سألت نفسى ذات مرة عن سر حيوية الفتاة التى تعمل فى مطعم المستشفى ، هل هى تشعر بالألم فى صدرها ، كيف تجرى ، وتقفز وتضحك ، السيدة المكلفة بنظافة حجرتى لها ضحكة رنانة أنها من أفريقيا ، سوداء ولها ضحكة مجلجلة لا تهدأ أبدا ، قلت للرجل لا يهمك سوف - يجرون لك الجراحة وسوف تشفى بأذن الله ، أصابه (الفواق) بعد العملية ، ظل هكذا لمدة أسبوع كامل ، عادت ابنتى وأقبلت نحوى فى لهفة ، داعبها الدكتور بانديا بأنها مسرفة ، ضحكت وقالت اشتريت لأبى كاميرا ، لقد سرقوا الكاميرا التى كان يعتز بها يوم سفرنا لهذا اشتريت له هذه الكاميرا ، أوقفته بجوارى لكى تصورنا معا ، تذكرت المياه الزرقاء عند خليج (روميل) بمرسى مطروح وعمق المياه فى منطقة الميناء وكيف كنا نقفز فى منتصف الليل إلى الماء البارد .. وجاءت محاسن ذهبت ابنتى معها إلى حجرتها ، تبكى من أجل أولادها ، وقالت عائشة أن كل أملها أن يستبدلوا قلبها بقلب سليم كل حديثها حول هذا الأمل . جلست بجوارى وقالت : أن زوجى يفعل ما يفعله الشباب فى السعودية استلم سيارة بالتقسيط ثم باعها لأحد الأهالى فى القرية وأعطى ثمنها لأبى ، المهر يأخذه والد العروس ، ويضعه فى جيبه وعلى العريس أن يدفع كل النفقات ، اليابان تأخذ مهور العرائس ، وتعطى للأهالى سيارات (التيوتا) و (المازدا) وكل الشبان يفعلون هذا ، لم أكن أدرى أننى سأتزوج ، قالت

(عائشة) أنهم أحضروها من الحارة وألبسوها ثيابا ملونة ثم قالوا لها هذا الشاب هو زوجك ولما بكت قالت لها أمها : أن هذا الشاب لا يحب البكاء أنما يحب أن نسمع كلامه وأن نقيم معه وأن تنام فى فراشه ، بعدها أحضروها إلى الرياض وأدخلوها المستشفى ثم آتو بها إلى هنا ، إنها لا تفهم لماذا لم يقوموا بتغيير قلبها بقلب سليم حتى يمكنها أن تنام فى فراش زوجها الذى يدخن بشراهة شديدة ، ويبدو كطفل فقد والديه لابد أن أترجم لها ما يقوله الطبيب ، إنهم لن يستطيعون تغيير القلب لإصابة الرئة برشح شديد ، لم أخبرها ، كنت أفكر فى ابنتى ، وفى أولادى ، .. سألتنى ابنتى :

– لماذا تبكى يا أبى ؟

قلت للممرضة أن إقامتها مع رجل دون زواج هو كبير وسوف يعاقبها الله ، لاحظت الحزن على وجهها ، ولكننى ابتسمت عندما قدمت لها ابنتى بعض الفاكهة ، حاولت أن أمسك بالحلم أن أعيش فيه ، لا أدرى لماذا فقدت خاصية الانقسام إلى عدة أشخاص ، أصبحت أشعر بالمرض والألم ، وأفكر فى كل ما حولى أيقظنى (مصطفى) الإسكندرانى أصبح يشكوا من كل شئ .. من عدم وجود ملابس ولا نقود ومن خوفه ، رجوته ألا يشكو ، حدثنى الآخرون ، تعوت على سماع قصصهم ولم أعد أستطيع الانفراد بذاتى ، الجميع هنا يعانون ، القلب الموجوع ، والهم الممدود واليد قصيرة ولابد من الشكوى ، جاء لزيارة قريب له ، سقط مغشيا عليه ، قالوا له يجب إجراء جراحة عاجلة ، (عم شنودة) صاحب مكتبة بالعتبة لم يكن يعرف أن الحياة سوف تصبح قاسية إلى هذا الحد ، قالت له زوجته أريد أن أزور أقاربى فى لندن ، لن نتكلف إلا ثمن الطائرة ، قال لزبائنه مباهيا سوف أزور لندن ، كلفه جاره بشراء دواء يعيد إليه شبابه جاء لندن وسقط فى يد الجراح ، والجراح يريد أجراء العملية والمستشفى لا تعرف العلاج المجانى ، وأنحشر عم شنودة وزوجته فى سرداب الهم والحزن والإفلاس ، ماذا نفعل ، قال بانديا لابنتى : يجب أن يكف والدك عن استقبال المرضى ، وقال الدكتور مجدى : أن العرب يتكلمون كثيرا ، وأن حالتك خطيرة ويجب الحرص حتى لا نضطر لطلب عثام للصدر .. تدفق الدم ثانيا من صدرى وضعت الممرضة خرطوم المياه فى ثقب الصدر المفتوح ، حاولت أن لا أرى الدماء ، وأن أتخيل أنها مجرد ماء أحمر ، حاولوا أن يوقفوا الماء الأحمر ، بكت ابنتى ، استطاع بانديا أن يوقف النزيف ، وضعونى فى الفراش ، رأيت شجرتى كما هى تتوسط النافذة ، سعدت بها كثيرا ، أردت أن أغنى ، ولكن لا صوت لى ، أشارت ابنتى أن أكف عن المحاولة لأن صوتى لا يخرج إلا بصعوبة ويدى اليمنى لا تتحرك ، حمدت الله أن يدى اليسرى تتحرك وأننى أفهم ما يقال لى ، صليت الظهر والعصر ، وتلفت حولى ، كان المرضى يتقاطرون ، نحن هنا أسرة واحدة يجب ألا نفترق ، محاسن تئن فى صمت ، بينما يصرخ (ممدوح) وكيل النيابة من الألم ومن قسوة الجراحة . كانوا

قد فتحوا صدره فى القاهرة ولكن الجراح لاحظ ظاهرة لم يعهدها فى القلب من قبل فأضطر إلى إغلاق الصدر وعندما حاول مرة أخرى رفضت المستشفى الخاص إحضاره إلى لندن ، وأجرى له الدكتور مجدى الجراحة ولهذا فهو هنا خائف جدا مرتعب يشكو باستمرار ، غادر المستشفى بعد أسبوع ثم عاد إلى الوطن معافيا ، بعد أسبوع آخر ، جاء الرجل الباكستانى ، محمد أيوب وقال أن كل أمله زيارة الأزهر بالقاهرة ، جلس وأخذ فى تلاوة القرآن ثم أخذ يدعو لى ، كان يحضر كثيرا أحيانا أراه وأحيانا أخرى لا أراه إنما أعرف بعد ذلك أنه كان بجوارى أعلم أن الله بجوارى وأن ضاقت الغرفة بجلال الله فإنه بجوارى أحس بهذا أناجيه ، أخاطبه ، أدور فى ملكوت حبه ، تسعدنى هذه اللحظات ، أخاف عندما يهرب الحلم منى ، أخاف من نفسى على نفسى قالوا يجب أن تكلم هذا الرجل أنه من موطنك ولكنه شديد الخوف ، الخوف هنا أمرا عاديا ، والألم هو الموسيقى التى تعزف ليل نهار ، والممرضات يشربن القهوة فى العاشرة ، ويتسلين بالحكايات التى تدور حول ما يحدث فى دورهن ، لندن لا تهم أحدا قالوا أن الانفجارات أوقفت المترو ، لم يشعر بها (سكان الأولد كورت) إلا بعد أن تخلف الأهل عن موعد الزيارة ، لا شئ مهم ، كتبت العشرات والآلاف ، والملايين من الكلمات ولكن لا شئ مهم الآن ، محمد أيوب يسمعنى تسجيلا لتلاوة القرآن بصوت أحد أصدقائه ، قال أن الرجل حفظ القرآن فى كوبنهاجن ، عشرات من الزوار يأتون وينصرفون ، ولكن لا أشعر إلا بالقليل منهم ، قلت هم الذين أثروا فى نفسى ، ذلك الرجل صاحب مطعم الدجاج فى أكسفورد ، مصرى ابن بلد ، زوجته ترقد فى المستشفى يزورنى باستمرار ، والغريب أن صاحب مطعم الدجاج الباكستانى كان أيضا يزورنى ، لا أستطيع تناول الطعام ، قدت ثورة الجيش هناك ضد الملك الفرعون ، انتصرت حتى وصلت قواتى إلى منطقة صحراوية يبدو إنها بالقرب من إسنا ، انقلبت المعركة ضدى ، فر قواد جيشى ، ولكنى بقيت وعندما اقتربت منى العربة الملكية وقفت ساكنا كنت أعرف الفرعون سوف يطيح برأسى ، قال الدكتور مجدى : - حالتك سيئة تحتاج إلى مدة طويلة حتى نتمكن من القضاء على جرثومة التلوث ، جسدك ضعيف .

انصرف الدكتور مجدى وبكت ابنتى ، ابتسمت ورويت لها حكاية كيف أخذنى أبى إلى مطعم السمك بعد أن قرر الطبيب عدم صلاحيتى طبيا للالتحاق بالجامعة ، منذ ما يقرب من أربعين عاما وحديث هذا الطبيب يطاردنى يومها تشاجر أبى معه وأصر على أن يسترد أجرة الكشف بعدها هبطنا إلى الشارع وبحث أبى عن مطعم السمك ، وراح يأكل ويطعمنى فى سعادة ، كانت سعادة ظاهرة ، ولكن قلبى كان يخفق بشدة لاحظت هذا ، ابنتى تقدم لى الفاكهة ، أعشق هذه الفاكهة ولكنى اليوم لا ارغب فى شئ مجرد الصمت يريحنى وأحاول أن أتذكر مياه مصيف رأس البر ، كنت عائدا من رأس البر عندما أخذونى إلى المستشفى ، أتمنى أن أعود إلى رأس البر ، الماء

البارد، والجو هنا حار ، ورائحة الحجرة تضايقنى قال لى (العراقى مصطفى) : عندما قابلنى منذ عشرة أعوام ، أريد أن أرى فرعونا ، فقلت له : وما فرعون ؟ قال أليس عندكم فى مصر فرعون ؟ قلت : ليس عندنا فى مصر فرعون ، قال : وهو يحاول أن يكون واضحا ، بالتأكيد لديكم تمثالا له ، أو ما يمثله ، قلت ضاحكا : لدى ملايين الفراعنة ، وسوف تراهم عندما تخرج إلى الشارع قال : وكيف يعيشون ؟ قلت ضاحكا : هذه هى العبقرية كيف يعيش ملايين المصريون تحت ضغط كل هذه الظروف ذلك لأنهم فراعنة ، سألنى الدكتور بانديا نفس السؤال أيضا سأله صديق هندى مسلم ، أخبرونى أن السيدات الهنديات سوف يجتمعن عند إحداهن للدعاء لنا ، يوما كاملا يختمن فيه القرآن ويقمن بالدعاء ، .. الطعام هنا لا طعم له ، عافت نفسى الدجاج واللحم ، صديقى فى أكسفورد أحضر لى كل أنواع الفاكهة مرة واحدة ، .. حاولت أن أتذوق ما أحبه منها ، ولكن لا مذاق له ، وأحضروا لى أشياء عديدة ، مصريون طيبون أحضروا لى طعاما مصريا ، ولا أدرى كيف تصورت أننى سوف ألتهم هذا الطعام عندما وضعوا أمامى لم أستطيع ، الألم يصبح عادة يتعودها المريض فإذا غاب الألم لحظة فإنها تكون لحظة من التعاسة ، .. قالت إن زوجها مات ، وأنها تعيش من أجل أولادها تحاول أن تسعدنا بزيارتها لنا ، ولكن شعورها الزائد عن الحد بأهمية زيارتها لنا جعل تلك الزيارات عبئا علينا فنتمنى ألا تحضر ، دائما ، تتحدث عن اهتمامها بأولادها ، والزوار أنواع ، منهم من يجعل زياراته جحيما لا يطاق بحديثهم الدائم عن المرض والموت ونصائح الأطباء والأصدقاء ، ومنهم من ترغب فى أن يظل معك ، أنه يتحدث عن الحياة ، الحياة فى لندن وفى باريس وفى القاهرة عشت أنا عمرا فى روما ومثله فى فرانكفورت ومثله فى جنيف ورأيت بـأريس وبون وبرلين وموسكو ، وذهبت إلى دبى وسوريا وتونس والمغرب وعشت أحلى أيامى فى مكة وفى المدينة .. كل أملى الآن أن أذهب إلى مكة – أن أجلس فى نفس المكان الذى طالما جلست فيه ، هكذا أمام الحجر الأسعد مباشرة ، دخلت قبيل المغرب ، كان المسجد الحرام مزدحما لا مكان لأحد ، اخترقت الصفوف أود أن أجلس فى نفس المكان ، لكن لا أمل هذا العام الزحام شديد ، وفجأة رأيت رجلا شيخا ذو لحية بيضاء مهيب الطلعة ، وقف وأشار إلـى أن أقترب ورحت أشق طريقى بصعوبة حتى وصلت إليه ، كان جالسا على مقعد من قماش ، أشار إلى مكان بجواره جلست ، ورأيت الحجر الأسود ، كنت قريبا منه ، وضع الرجل أمامى تمر وقهوة وماء زمزم ، الله اكبر ، رفعت الكوب وشربت متمتما بالدعاء ، وأكلت التمرات ووجدت لها مذاقا حلوا لم أعهده من قبل واحتسيت القهوة ، وكبر المؤذن للصلاة ووقفت وبحثت عن الرجل فلم أجده ، ورحت أرقب وجوده فى الصفوف من خلفى ومن أمامى فلم أجده ، فى اليوم التالى رأيته يشير إلى ورحت أشق طريقى إليه ، كنت قادما من باب بنى أميه ، المسافة طويلة ، ولكن الرجل يستحثنى بإشاراته

المتكررة وجلست بجوار مقعده كنت أود أن أحادثه قدم لى الماء والتمر والقهوة وما كدت أقف لصلاة المغرب جماعة واتلفت حولى لم أجده ، رحت أبحث عنه ، أنه يجلس على مقعد من قماش كيف يختفى هكذا ، وتكرر هذا كل يوم ، فلم أعد أبحث عنه عند قيامى للصلاة ، كنت عندما أدخل إلى المسجد الحرمُ ألمح يده تشير نحوى وأقترب منه وأجلس ليقدم لى الماء والتمر والقهوة .. لم أعد أفكر فى البحث عنه ، اكتفيت بالإحساس بالأمان والسعادة وأننى أجلس قبالة الحجر الأسود وبالقرب من الكعبة ولم تعد حلاوة التمر ولا صفاء الماء وطلاوة القهوة تثير عجبى ودهشتى .. لم أعد أبحث عنه وظللت هكذا أراه عند دخولى الحرم ويحدث ما يحدث ، قالت ابنتى :

– يحتاجون إلى جراحة صغيرة ولكن بدون مخدر .. فهل ..

قلت مقاطعا :

– أبى كان لا يخشى الألم !

– وشعرت أننى أغوص فى ماء بارد وأن أطرافى ترتعد .

⌛⌛⌛⌛⌛⌛⌛⌛

الفصل الثانى

فى نفس الوقت الذى سقطت فيه إلى هذا العالم الذى لا يبدو من الخارج للأصحاء . العالم من خارجه يعمل ويسير ويمرح وتنعقد المؤتمرات والجلسات وتقام الحفلات وتحاك المؤامرات ويكثر الحديث عن الدنيا ونقودها ونفوذها ، ودسائسها ، أما فى عالمنا ، عالم الحزن والمسرة ، تختلف الرؤية ، وتتناقض الرؤيا . أطباء وحكيمات وممرضون وممرضات ومسرح للعمليات وآهات وأشجان وأحلام وأمانى . هذا عالم وحده ، متماسك كل حركة لها معنى ، كل إشارة لها مدلولها وأنا الراقد هنا ، حبيس الصوت مشلول الذراع ، أراقب عقلى يدور ، تتغير عوالمى ، وتتنافر أحيانا ، ولكنى أنا وعقلى نتنقل من عالم إلى آخر ، قال أنه خارج اليوم بعد أسبوع سيعود . كان سعيدا ، لم يلحظ وجود ابنتى التى نظرت نحوى فى أسى ، عندما وضعونى فى حجرتى فى أكسفورد ، أسرعنا ، أنا وهى لكى نضع لنا برنامجا ، قال الجراح : بعد أسبوع سوف تكون أفضل وبعد الأسبوع الثانى يمكنك الخروج ، سوف نذهب إلى الشاطئ ، قلت لابنتى بل سوف نقضى هنا فى مدينة أكسفورد شهرا ، ويجب البحث عن مسكن ملائم ، يمكننا أن نحضر إلى المستشفى إذا اقتضى الأمر بسهولة وأيضا نقضى عطلة فى ريف إنجلترا ، وبحثنا عن السكن بواسطة (مادلين) عاملة الكافتيريا ، وهى سيدة إيطالية الجنسية خفيفة الدم أحبت ابنتى منذ اليوم الأول ، ووجدت لنا (مادلين) السكن ، منزل مستقل بتليفون وقريب من المستشفى ، فإذا انقضى الشهر ، سافرنا إلى وسط لندن ، وأقمنا أسبوعاً للشراء وبعدها نعود ، كل شئ كان واضحا ، قدم لى الجراح رسما تفصيليا عن العملية وما سوف يقوم به ، .. وسقطت فى بئر أكسفورد ، وجاءت الآلام وخرجت منها لأدخل عالم (الأولد كورت) ، بئر جديدة ، آلام جديدة لم نذهب إلى الريف ولم نذهب إلى وسط لندن ، تعاقبت الأيام والأسابيع والشهور فنحن هنا فى قبضة الألم وتحت رحمة الله عز وجل ، قالت ابنتى :

– أشعر أننى كنت فألا سيئا عليك يا أبى .

صليت ودعوت لها ، كنت مشفقا عليها ، كانت آلامها أكثر حدة من شعورى أنا بالألم ، كانت تتحرك وترى وتسمع وتعانى وتنفعل ، أما أنا فقد كنت مشغولا بنفسى لا أدرى ما إذا كان صوتى هذا يصلح لنقله كلمات على الورق ، أتمنى هذا ، تسألنى المرضات ماذا أفعل ، أقول أتحدث مع نفسى ، تبتسم (لولا) وتقول لهن فى اعتزاز :

– أنه أديب مشهور فى بلده .

تضحكن ، الكلمة ، أديب ، أدباتى ، كلمنجى ، يجيد صناعة الكلام ، الكلام يحتاج إلى عقل لكى يؤلفه ، وإلى ناشر كى يذيعه على الناس ، ما رأيك يا لولا لم يعد عندى كلام أقوله ، ولم يعد يهمنى أن ينشر هذا الكلام أو لا ينشر ، لم يعد هناك ما يهم ، فقط ماذا أفعل تمر الأيام والليالى ، بل .. ماذا أفعل لكى تمر الساعات والدقائق ، قال الدكتور بانديا يجب أن تحارب وها أنا أحارب ، لم أتعلم فى حياتى سوى تلك الصنعة ، صنعة الكلام المكتوب ، لو كنت قد تعلمت شيئا آخر لفعلته ولكننى لا أجيد إلا هذه الصنعة ، ولا أقدر الآن على الإمساك بالقلم ، صوتى اليابس كفيل بتسجيل خواطرى ، أحلامى ، أفكارى ، همساتى إلى نفسى ، لا يهمنى ما إذا كان هذا الكلام سيصل إلى الناس أو لن يصل ، فكم من الكلمات سودتها ، ماذا حدث ، تحدثت عن هزيمة يونيو قبل حدوثها فى كتابى (ما بعد الخوف) ، لكن لم يهتم أحد ، وتحدثت عن حرب أكتوبر فى " المزامير " فلم يهتم أحد ، بل كتبت عن السد العالى قبل الشروع فيه ، آلاف الأشياء جاءت فى كلماتى ولكن لا فائدة .

– لولا .. لم يعد هناك شئ يهمنى .

قالت :

– فكر فى الشفاء .. يجب أن تأكل .

أريد أن أتكلم ، أن أتنفس ، أن أقول شيئا عن نفسى ، ليس تذكرة ولا تاريخا ، ولا أى شئ ، مجرد الرغبة فى الحديث وخاصة وأنا على هذا النحو الذى يبدو لى الآن أنه خليط من الأحلام المفروضة والتى يجب أن التزم بها تخص ذات من ذواتى ومجموعة من الأمانى .

عندما أدخلونى المستشفى تركونى أكثر من ساعة مثل الأشياء المتروكة فى بهو المستشفى ، مثل الـ[illegible]ـزات القديمة ، والصور التى كانت ملونة ثم ذهب لونها ، مثل أحبال الزينات المدلاة بلا عناية وإن كان الهدف منها الاحتفال ، تركونى هكذا ، فى المستشفى المصرى والإنجليزى وكل المستشفيات التى دخلتها خلال الرحلة وحتى الآن ، لابد أن تظل مركونا فى أحد الأركان ، لا حيلة لك إلا الانتظار والترقب ، فعلوا هذا معى فى المستشفى المصرى ، وكذلك فى لندن ، فى عدة مستشفيات ، حتى تلك اللوحات البلهاء المرصوصة بلا اهتمام على الحوائط ، ثم مكالمات عاملة التليفونات ، وعاملة الاستقبال وأيضا عاملة الكمبيوتر أنهن يثرثرن فى أمور تبدو لك تافهة للغاية ، تظن بنفسك أنك مركز اهتمام الكون لمجرد أنك مريض ، وماذا يعنى هذا بالنسبة لهذا الجيش من العاملين والعاملات ، أنت مجرد حالة ، بيانا تدخل أجهزة الكمبيوتر

والمرضة تتحدث عن حفل عشاء السبت ، أو كيف صنعت (حلة المحشى) وأكلها زوجها دون أن يترك لها مجرد (صباعا) واحـدا ، وتلك المشغولة مع خطيبها فى ترتيب (مقلب) لزميلة لها تعاندها ، وأخيراً أخذونى على مقعد متحرك ، دفعنى الرجل وهو يثرثر مع بقية العمال حول غلظة معاملة المدير وأن المستشفى مجـرد وكـر للزبالة ولا يـدرى لماذا يأتيها المرضى ، وزملاء العامل يؤيدونه : المستشفى المصرى مستشفى استثمارى العلاج فيه مكلف للغاية ، وكذلك المستشفيات الإنجليزية التى دخلتها حتى الآن ، نفس .. الملاحظة وكأن (عم عوض) هـو (مستر فيليب) الذى نقلنى على مقعد متحرك حتى صالـة الأشعـة ومنهـا إلى غرفـة (العناية المركزة) لا أدرى لماذا يسمونها هكذا ، أناس يتكلمون وأنت راقد ضمن مجموعة من المرضى / الأطباء يتحدثون بصوت عال ، وكذلك تفعل الممرضات والحكيمات الدكتورة ظلت ثلاثة أيام تبحث عن اسم لابنتها التى سوف تأتى بعد أشهر وتفسر للحكيمات اللائى تجمعن حولها لماذا هى وافقت على الإنجاب فى هذه السن ، تحكى عن مشقة الحمل ، وكل واحدة تدلى برأيها عن حملها السابق أو حمل أختها أو أمها والآن ومتاعبه ، وأنت تسمع دون أن تصيح كفى يا دكتورة ، الكل مشغول عنك بنفسه .. بذاته ، وأنت أيضا مشغول بذاتك ، وزادك المرض حساسية لذاتك وتتصور أنهم جئن إلى هنا لكى يقمن بخدمتك ، حتى الأطباء الرجال يتحدثون عن الضرائب والمغالاة فى أسعار المنازل ، وفى وسط لندن كان الطبيب يتحدث عن كارثة سوق العقارات فى لندن وأنت بلا ملابس منتظر لكى يدخلونك إلى أنبوب الأشعة ، ترتجف من البرد – ولكن يجب أن تصمت ، كل لحظة تسمع تعليقا عن الحياة من حولك ، وغرف العناية المركزة تكاد تشبه سوقا فـى قرية ، كل الناس تتكلم فى وقت واحد ، قالت (نولا) ، الممرضة الصينية الأصل :

– لا يزال طعام الإفطار أمامك .. مضت ثلاث ساعات ! وجدت كوبا من الشاى باردا ، لا أستطيع إزالة غلاف قطعة الجبن ، لا أريد الطعام ، قالت نولا :

– هل أحمله بعيدا ؟

أومأت برأسى ، كان عقلى الذى بداخلى يفكر فى أشياء أخرى ، أريد أن أتحدث مع نفسى أن أعيش حياتى كما هى ، الزوار من الغرف الأخرى يأتون فرادى وجماعات ، أكتب أو أملى على مسجلى الآن من الغرفة المعزولة رقم (١٦) فى مستشفى (الأولد كورت) بعد نقلى : يبدو أنهم نقلونى إلى هنا فزعت ذات ليلة ورأيت ذاتى وقد توزعت ، حاربت من حاربت ، وهادنت من هادنت وتم إعدامى عشرات المرات ، وحاولت دخول الكعبة فلم أفلح ولكنى كنت أسمع الآذان دائما يتردد ، الآذان فى سمعى ، حجرتى فى أكسفورد كانت مطلة على المحطة النهائية

(للكوتشى) الأوتوبيس الذى يربط المدينة (أكسفورد) ببقية المدن الأخرى ، يزحف مثل دبابة يهودية تدخل قرية فلسطينية ، حاربت فى القرن الخامس ، وأيضا فى السادس ، عرفت المدفع والسيف وقذيفة سام ٧ ، الحكيمة سوف تندفع مثل صاروخ سام ٧ أو (الأربجية) كما نطلق عليه فى الحرب ، المرضى يقبلون ، يتشاكون ويحكون القصص ، وآلاعيب الأطباء ، كم عانوا .. وكم تعبوا لا أحد يظن أن هناك من هو أكثر منه ألما ، ينظرون إلى نظرة إشفاق وهذا يؤلمنى ، قررت أن أتواجد ، أن تغرس فى الوجوه وأن أتماسك حتى لا تفزعنى نظراتهم وأريد أن أعرف لماذا فشلت فى دخول الكعبة ، وأمرت أن يحضروا لى تسجيلات للقرآن – فى قريتنا كنت أصحو قبيل الفجر وأذهب إلى المسجد كان الظلام حالكا ، والشوارع ضيقة مظلمة لا أرى شيئا ولكن أواصل المسير حتى أصل إلى المسجد وأدير طلمبة المياه اليدوية لكى أملأ خزان دورة المياة بالمسجد ، ثم أتوضأ وأدخل إلى المسجد أصلى ، أحيانا يصطفون خلفى صفوفا طويلة أخاف النسيان والسهو والخطأ ، أحاول أن أتماسك ، أمسك بالكتب والكراسات وأذهب إلى المدرسة ، الجميع يكتبون يخطون خطوطا فى الكراسات ، ويطالعون ما فى الكتب من كلمات ، المدرسون لا يكلفون أنفسهم مشقة تعليمى ، كانوا يرددون أن أبى رجل ثرى ، فلا داعى للشهادة بالنسبة لى ، أجلس فى أول الفصل أستمع جيدا لما يقول المدرس ، وأحفظه عن ظهر قلب ، تعودت على هذا ، تعلمت أن أحفظ من السماع لأول مرة ، قالوا يجب أن تصمت ، المفتش قادم وأنت لا تعرف شيئا ، عندما انصرف المفتش ، سألنى المدرس كيف أجبت بسهوله على كل أسئلة حضرة المفتش ، لم أعرف ماذا أقول له ، يسألنى الناس ، وأنا لا أعرف كيف أرد ، عندما أختلى بنفسى أعرف الإجابات الصحيحة ، الطبيب بمستشفى أكسفورد شرح لى العملية التى سوف – يجريها فى القلب ، وابتسم سعيدا بمهارته ، أخبرونى أنه عديم الخبرة ، وأنهم يعلمون عنه الكثير ، وسألونى لماذا وضعت نفسك تحت رحمته ؟ لم أستطع الإجابة وسألونى هنا فى (الأولد كورت) لماذا ذهبت إلى هناك ؟ لم أستطع الإجابة وسألتنى ابنتى لماذا نرحل من أكسفورد ؟ كانت تبكى ، وتظن بى الجنون ، قلت لها : من قبل أحضرى لى طبيبا نفسيا ، أنا على يقين من عدم قدرتى على إصدار أحكام . والبول يسقط منى غصبا : وتخرج الأهوال والحروب من دماغى ، والآذان يطن فى رأسى ، وأنا على الفراش وعلى مقعد الغرفة فى آن واحد : أنا لست أنا ، ولكن يجب أن أتماسك ، حكيت لابنتى حكاية .. ضحكت ، قلت لقد نجحت فى إضحاكها ، وجلست أمام الكتاب المصور وعرفت حروف الكلمات هذه (عين) وتلك (ضاد) والأخرى (واو) وأذان الفجر وذهبت إلى المسجد ، رأيت عيونا حمراء تلمع وفحيح كلاب مسعورة ، وزأرت مثل الأسد المرعوب ، فتفرقت الكلاب لم أرها وهى تختفى ، ولكن شعرت بأنها انصرفت ، ومضيت إلى المسجد ، وتوضأت وصليت وبكيت ، عندما لاحظ مدرس اللغة العربية أننى أكتب فى الكراسة

ضحك بصوت خشن ، ثم نظر إلى ما كتبته وجد حروفا كتبتها لأول مرة ، كنت فى السنة الثالثة الابتدائية ، وقررت أن أضحك أنا عليه فأخفيت عن المدرس كراستى ، وحصلت على شهادة الابتدائية دون كل زملائى فى الفصل فقد رسبوا ، وضحكت ، ثم بكيت عندما وجدت أن البول يسقط منى غصبا ، وأن الممرضات يتأففن منى فأنى أفعل هذا الأمر الذى يضطرهن لتغيير فراشى وملابسى ، يجب أن أتماسك ، كانت المدرسة الثانوية مجرد مدرسة بالاسم فقط ثم لا شئ بداخلها لا تلاميذ ولا مدرسون ، وأصبحت وحدى ، أذهب إلى شاطئ البحر لأقرأ موباسان وشكسبير واللص الظريف (أرسين لوبين) ، و (الجبرتى) و (أبى العلاء المعرى) و (الجاحظ) ، وفلسفة (أرسطو) ، وكتب (جان جاك روسو) ، فى الامتحان كان علينا أن نجيب على طريقة تركيب حامض الكبريتيك ، ومنابع النيل ، وكيف الوصول إلى المبنى للمجهول ، وأيضا عن حبوب اللقاح ، وزهرة عصفور الجنة ، وتخطيت الامتحانات ، كانوا دوما يعطوننى الكتب فأدير لها ظهرى طوال العام لأقرأ (لابن خلدون) وأحلم بمشكلة (الملك لير) ، وأدهش من كُتب التاريخ التى تحكى حكايات غرامية ممزوجة بأفعال بهلوانية تـزل الملوك ، وذلك الرجل المجنون الذى وضع الكتب فى نهر الفرات لكى يعتبر فوقها جنوده ، وترعبنى صور العنف التترى ، وأيضا العنف البنجى من كل جيوش الحرب ، وأجلس فوق سطوح دارنا لكى أغنى أشعار (أبى العلاء المعرى) وأحيانا أسمع مع جدى أسطوانات (كايرو فون الأستاذ محمد عبد الوهاب) أذاكر لكى أنجح آخر العام ، كان أبى لى بالمرصاد ويتمنى أن أرسب لكى يمنعنى من تكملة الدراسة ، وأنا أرتجف أتماسك وهم يضعون قطع القماش المغموسة فى المطهرات داخل ثقوب فى صدرى ، يجب أن أفكر فى أشياء أخرى ، يروى لى (مصطفى) حكاياته الفظة ، يقول الكلمات دون تزويق أو حذف ، هو هكذا لقد جاء إلى هنا ليجرى عملية الشرايين للمرة الثانية ، نقول له كفى ، إن المرضى هنا يخافون من العدوة ، كف عن هذا يا رجل ولم أكف ، جريت وراء المشعوذ سنة كاملة لكى أتعلم السحر وفنون السحر ، عشرات من الرجال يحضرون إلى داره لكى يكتب لهم الأحجبة ، لكى يذوق العاشق الحب ، وتنجب العاقر ، وتتزوج العانس ويجد الفلاح جاموسته التى فقدها ، كانوا بالعشرات ، كيف يكون دجالا ويقتنع به الناس يجب أن أعرف سره ، سر صناعته ، وفقدت عاما كاد يفلت منى ويكسب أبى الرهان ، ولكنى نجحت وسلمته للشرطة .

قلت لابنتى ، لا أريد طعاما فقط أود أن أشرب ، أن أمسك الكوب وأشرب دفعة واحدة ، كنت أفعل هذا ، ولكن الآن لا أستطيع الماء لا يدخل حلقى يرتد إلى فمى ، أسعل وأتقيأ ، ولكن الرغبة لازالت تحاصرنى ، والظمأ يمسك بخناقى ، كيف أتماسك ، يسألوننى لماذا فعلوا بك كل هذا ؟ فكيف أجيب ؟ قذفوا بى هنا ، ثم نقلونى إلى هنا ، وليس هذا الـ (هنا) من اختصاصى ولا

من اختيارى ، أود صراحةً أن أصرخ ، أن أبكى ، وأحيانا قليلة تتساقط دموعى ولكن بلا بكاء ، فى مستشفى أكسفورد كانوا يعاملوننى بغلظة ، يجب أن أفعل كل شئ وحدى ، إذا شكوت . قالوا : هذا رجل كسول ، عرفت عندما نقلونى إلى مستشفى آخر أنهم كتبوا تقريراً مطولا عن كسلى ، إننى رجل كسول أفقده ذراعه اليمنى وحبله الصوتى وتركوا التلوث يأكل عظم صدره ويفقده وعيه ، ثم قالوا عنه هذا رجل كسول ، إنهم طيبون هؤلاء الناس فى مستشفى جامعة أكسفورد ، فيما يبدو أنهم كانوا يظنون أننى بطل (هرقلى) ، جراحتان فى أسبوع واحد فى القلب ثم أشترك فى مارثون أوربا طائرا فوق المحيط ، سوف أفعل هذا ، حاولت ولكننى فشلت كان الحلم يهرب منى ، مثل عقلى الآن ، لا أعرف ماذا قلت لكم ولكن يجب أن أقول كل ما عندى ، وهل عندى شيئا يروى أو يحكى ، وجدتنى أفكر فى (جمال المرضات) فى أكسفورد فتيات إنجليزيات بيض الوجوه ، زرق العيون ، والشعر المسترسل الذهبى ،والجسد النحيل فى (الأولد كورت) لا يوجد معنى للجمال ، فالوجوه سمراء .. صفراء .. سوداء ، لا لون لها ، كالحة اللون ، والشعر الخشن ، والأجساد المنهوكة ، ومع هذا فكرت فى الجمال فى مصر .

(الحكيمة) تحدثنى عن شجارها الدائم مع شقيقة زوجها وأهله ، نظرت إليها ، شعرت أنها كانت جميلة ولكن (الهم) أكلها ، أصبحت عجوز فى الثلاثين ، ممرضتنا فى مصر ، أكثر حيوية ولطفا وخبرة ، وفى أكسفورد عنجهية لا أدر لها سببا ، مجرد انضباط ولا شئ غير هذا فى (الأولد كورت) المرضة تعرف ماذا تفعل وتفهم ولا شئ يشغلها سوى العمل ، يبدو أنهن جميعا من بلاد فقيرة ، ولا هم لهم إلا الحياة المستوردة ودون مشاكل ، ولكن لماذا أروى هذا الآن ، يبدو أننى تأثرت بعناية المرضات هنا فى (الأولد كورت) ، بعد تجربة مستشفى (أكسفورد) المريرة ، وضعوا طوقا حديدياً حول صدرى ، ووقف بجوارى زنجى أسود أفزعنى ، نظر إلى جهاز الحقن الأوتوماتيكى ، بحلق فى وجهى ثم ردد كلمة اعتذار ومضى ، الساعة تقترب من الثانية ، اشعر أن العالم صغيرا جدا وأنه لا يساوى شيئا ، نسيت الآن كل شئ لم أعد أعي ماذا اقول أقصد ما أقوله لجهاز التسجيل الخاص بى أحاول أن أتذكر ، الألم يحيط بى ، يشلنى ، جئت إلى هنا بعد عذاب وبعد عمليتين جراحيتين فى القلب ، وعندما جاء الدكتور يعقوب قال : من أدرك أنك كنت فى حاجة إلى جراحة .. ماذا ؟ تشبثت بعينى ابنتى ، كانت تصر على عدم البكاء (كل هذا العذاب لم يكن له داعيا) ، إهتز جسدى ، وتكورت مثل بالونة طفل قذفها فى تمرد ، (يعقوب) لا يزال يتكلم لقد أجريت لك من قبل ما يدعيه الجراح الذى أجرى لك الجراحتين فماذا فعل ؟ الألم يحتوينى أحيانا أفكر فى الإذلال والعبودية ، أقول لماذا: يرضى الإنسان عن الذل ، لماذا يرضخ للتعذيب ويستسلم للتهر ، لماذا لا يشهر سيفه ، غضبه ،

عصيانه ، يموت وهو يناضل ، لماذا يتحول الإنسان إلى مجرد ذبيحة ، بقرة ، جاموسة ، شاه ، مجرد دجاجة تذبح وتطيع ذابحها ، لماذا هذا الموقف ، البائس المشين ؟

عرض التليفزيون البريطانى عملية اغتصاب وخشية لشاب ، اغتصبه مجموعة من الأصدقاء ، بكى وتوسل ، كانوا أقوى منه أحدهما يقوم باغتصابه والآخرون يمسكون به فى وحشية ، شدنى الفيلم ، تصورت أن الشاب سوف ينتقم ، سوف يهد الدنيا ويفعل كل ما هو شر ، ولكن بدلا من هذا رقد منهزما فى غرفته ، الألم يعتصره ، يخنقه يحضر سكينا ويقطع شريان يده ، ينبثق الدم ، يندفع ، يملأ فراش الشاب الذى تكور حول نفسه ، تدفق الدم على أرض الغرفة لم يصرخ فى الصباح كان مجرد جثة والدماء تملأ الغرفة ، حملوه رفاقه ، وشرطة المعهد وموظفوه ينظرون فى لامبالاة ، حقدت على الشاب وعلى نفسى لأننى شاهدت هذا المشهد ، مات الشاب ومن اغتصبه ورفاقه يتأهبون لالتهام طعام الإفطار ، لماذا لم يحاول هذا الشاب قتلهم هم ؟ كان فى إمكانه المكر بهم ، تدبير وسيلة ما للانتقام ، ولكنه قتل نفسه .

هل أنا هذا الشاب ؟ تركت نفسى للجراح الذى فعل بى ما فعله الرفقاء بزميلهم ، حولنى إلى إنسان على حافة الموت ، ثم مضى ، وجلست أنا على فراشى ينزف الدم منى بغزارة وأنا راقد مستسلم ، ثم يخبرنى (يعقوب) أن ما فعله الجراح لم يكن ضروريا ، إذن لماذا فعله ، لماذا اغتصبنى ؟ ولماذا رضيت أنا ؟ ولماذا لا أحاول أن أقتله ؟

وراحت الذكريات تتدافع إلى ذهنى ، أنا فعلا هكذا ، كنت مجرد طفل مغلوب على أمره ، وشاب خجول تحبنى الفتيات أو يدعين هذا وأنا لا أنفى عنى هذا ، ابتسم فقط ، وأصبحت رجلا هكذا ، ماذا بهم ، سرقوا أعمالى ، أهدروا أفكارى ، وأنا صامت أتألم ، تعلمت كيف أتألم فى صمت ، وأنا أتحدث الآن يضعون فى شراييني إبرا ، يزغونها ، ويسحوبنها ، وأنا أتظاهر بالشجاعة والألم يمزقنى ، أنا شجاع ، شجاع أخرس ، الخرس هو الذى يغطى خوفى ، ربما يريحينى أن أقول هذا ، أبتسم دوما وكأننى فى حفل تسلم جائزة النضال الوطنى ، وترتعد مفاصلى وعقلى سابح سارح أتصور أننى أطير فوق السحب ، أسبح فوق مياة المحيط ، أقيم المساجد والقصور وبيوت للعجزة والمحتاجين ، أتلفت حولى وأصيح :

– أنا مجنون .

فى البداية كنت أدور فى حقول البرسيم ، ألف فى دوائر وأتطلع إلى السماء وأرى الشمس ، وأعتقد أن الله يرانى وأنه قادر على كل شئ ، وأضع قرشا فى يدى ، وأغمض عينى ، وأقبض على القرش وأدعو الله فى حرارة وحماس لكى يتحول القرش المعدنى الأبيض إلى " جنيها ذهبيا " ،

لم أكن أعرف وقتها ما شكل الجنية الذهب ، وأظل أدعو الله ، ثم أفتح عينى وأفتح قبضتى فأجد القرش الأبيض كما هو لم يتحول ولم يتبدل ، ولم أفكر أن الله تخلى عنى ، كنت أظن فقط أننى أجد كلمات الدعاء المناسبة ، وظلت هذا الحالة تراودنى حتى كبرت قليلا ، وعرفت أن هذا (لعب عيال) فلم أعاود مرة أخرى ، ولكنى تمسكت باعتقادى بوجود الله خالقى وهو يرانى ويعرف سرى لهذا ، كنت أخاف أن أخالفه، سافرت حول العالم ولم أقرب امرأة ، ولم أحاول أن أخادع أو أغش أو .. أسرق ، كنت دائما أخشى الله ، وأخافه ، وكنت أعتقد أن أمامى من الأعمال الهامة التى يجب أن أقوم بها ، اقتربت الممرضة وقالت :

– البروفيسير قادم .

حالة الارتباك والخوف تشمل الغرفة بمن فيها ، بل الجناح الذى به غرفتى بل المستشفى كله ، البروفيسير قادم ، ينتاب الطبيب المساعد بعض الخوف الذى يبدو على وجهه ، ترتجف الممرضات تجرى إحداهن لإحضار ما تتصور أنه يحتاجه ، ابتسم أنا ، سوف يكلمنى بالعربية لن يفهموا حتى لو سبنى أو أهاننى لن يفهموا ، أليس هذا أمرا هاما ، ولكن سوف أفهم كلمات التأنيب وعلامات الازدراء التى سيفصح عنها البروفيسير بالإنجليزية لهم لا يفهمون ما يقوله لى وأنا أفهم ما يقوله لهم ، تقدم منى ، ورحت أحكى له حكاية قتل رئيس وزراء إسرائيل ابتسم ، أحسست أنه سعيد بما حدث ، ولكنه قال :

– أنا أكره القتل .. حتى لأعدائى .

تحدثنا عن أشياء بعيدة عن مرضى وهو يتفحصنى ، كان أملى أن يقول لى خبرا مطمئنا ، أن يقول أن كل شئ أصبح جيداً ولكنه لم يقل هذا ، أعلن أوامره لمساعديه وانصرف وهو يداعبنى ببعض الكلمات ، اخبرنى مساعده ان الأيام .. ستطول وأنه أمر بإعادة نقل الدم مع استمرار حالة الطوارئ والحقن (الأوتوماتيكى) بالمضادات الحيوية سألنى المساعد عن سر الضحكات والكلمات المتبادلة ، قلت له :

– أن الأمر لم يعد مهما .

وعدت إلى دارنا ، فكرت أن أصعد إلى سطوح بيتنا ، ولكن لم أفعل فى اليوم التالى ، جاء إلى المدرسة ، وإلى الفصل الذى أنا فيه تلميذ مستجد ، يبدو أنه ابن المدينة ، فملابسه وحديثه يبدوان أنه كذلك ، كان مدرس الدين يشرح لنا معنى الصراط المستقيم كما جاء فى القرآن . ، كنت أرتجف من الهول فى هذا الموقف يوم القيامة ، كيف يعبر الإنسان هذا الصراط فإذا نجح دخل الجنة وإذا فشل سقط فى هوة سحيقة إلى نار جهنم ، وأتخيل سقوطى المروع فى هذا الجب

الجهنمى ، والمدرس يزيد فى شحن عقولنا بالخوف من هـذا المصير ، كنـت فـى الصـف الثـالث الابتدائى ولم أكن أقرأ ولا أكتب ، كنـت طفـلا مدلـلا فلـم يحـاول المدرسـون معـى شيئا ، وكـان زملائى قد سبقونى فى التعلم بالمدارس التى كانت تسمى الأولية أو الإلزامية، وقد كانت الدراسة بها إجبارية على كل طفل وصل سنة السادسة ، ولأنى لم أكن قـد بلغت هـذه السـنة فلـم أدخـل المدارس الأولية وعندما افتتحوا هذه المدرسة فى بلدتنا ، وهى مدرسة ابتدائية خاصة تسير وفق المناهج الإنجليزية فى التعليم ، دخلت المدرسة الابتدائيـة بعـد أن طلبـت هـذا مـن أبـى بإلحـاح شديد وهو بدوره (أمر) ناظر المدرسة بقبولى فى الصف الأول ، وهكذا دخلـت المدرسـة وارتديـت ملابســها (الإفرنجية) الجديلة وراح أبى يدللنى بشراء أجمـل الملابـس ، ولأنـه لم يكـن يعنيـه التعليم فى حد ذاته ، فإنه هرول إلى المدرســة بعـد سماعـه عـن عقـابى علـى يـد نـاظر المـدرسـة (لأميتى) الشديدة بالنسبة لأقرانى الذين دخلوا المدرسة ، وهم يجيدون الكتابة والقـراءة والخـط وأيضا كانوا على دراية فى علم الحساب والهندسة والعلوم ، وكانوا – طبعا – أكبر منى فى السن والجسم بفارق واضح جاء أبى وهدد بهدم المدرسة إذا تكرر ذلك ولعن الإنجليز وكل مـن يحتمـى وراءهم كان هذا قبل معاهدة جلاء الإنجليز ، وخاف الناظر الذى كمـا نطلـق عليـه اسـم (توبـى) وهو اسم (الكلب) بطل للرواية التى ندرسها فى المدرسة ، وخاف (توبـى) ولم أعـد أذكـر اسـمه الأصلى ، وخاف كل مدرسى المدرسة الخاصة ، وقالوا :

– أنت لست فى حاجة إلى شهادات .. تكفيك أعمال أبيك .

وفعلا لم أكن أقضى فى الدراسة إلا الأوقات المريحة والسعيدة ، أما إذا عدت منها فـإن عملـى مع أبى حتى منتصف الليل كان يرهقنى ، وأن كان قد أفادنى كثيرا فقـد تعـاملت مـع كـل فئـات مجتمعنا ، وكنت أقوم بكـل العمليـات الحسـابية فـى ذهنـى تفـوق سـرعة التجـار الذيـن كـانوا يتعاملون معنا ويقومون باستخدام الأقلام (الكوبيـا) واسـتطعت أن أنـال إعجـاب مدرسـى فصلـى عندما كنت الوحيد الذى يجيب على أسئلة السيد المفتش ، وابدى مدرس العلـوم دهشـته عندمـا وجدنى أجيب على أسئلة المفتش دون بقية زملائـى وبـلا وجـل ولا خـوف ، ومـع هـذا ظللـت لا أعرف الكتابة والقراءة ، ولم يحاول أحـد مـن المدرسـين تعليمـى ، وانصرفـوا إلى تدريـس المـواد لفصلى وفقا للمناهج المقررة ، وهكذا وجدتنى فى الصف الثالث الابتدائى وأنا على هذه الحالة من الأمية ونجاحى كان ضروريا حتى لا يتعرض الناظر لتهديد أبى ، وحتى لا يفقد المدرسون صداقة عمى الذى كان فى مثل أعمارهم وكانوا يقضون عنده أوقات فراغهم بحكـم غربتـهم عـن بلدتنـا ، جاء هذا الولد البندرى القادم من الحضر ، ومعه كتب ملونه وجلس معنا يستمع إلى مدرس الدين وهو يزمجر لكى يزداد خوفنا ، لكن هذا الولد سأله فى هدوء :

وانفجر التلاميذ فى ضحك مكبوت ، وانفجر المدرس غيظا ، وانفجر فى عقلى سؤال هذا الولد ، أيقظنى ، وأسرعت وجمعت شتات ذهنى واقتربت من الولد التلميذ وخرجت معه بعد أن عرف من أكون ، وأنهم يسكنون فى منزل يملكه أبى وذهبت معه إلى دارهم ورأيت الكتب الملونة ورأيت أخته ، وفى تلك اللحظة عرفت القراءة والحب .

اندفعت المرضة الإنجليزية الشقراء تسبنى لأننى أتبول على نفسى وأنها لن تغير ملاءات السرير بعد الآن ، وجاءت أخرى لتساعدها وجلست على مقعد بعد أن حملونى إليه وأنا لا أدرى ماذا أفعل ، لقد أصبحت مثل أطفالى الصغار وسوف يرانى أصغرهم (محمد) ويقول فى لغة غير سليمة النطق (أنت مبلول) كما تسأله أخته كل صباح ، وبكيت ، لماذا لم أستطع أن أتحكم فى نفسى ؟ لما لا أعرف حتى الآن القراءة ؟ سألته أن يعطينى الكتب الملونة ، وسألت أخته ليلى ، هذا اسم جميل لا ينسى ، أين أنت الآن يا ليلى هذا هو حبيبك وقد حبسوه فى فراش مبلل ، وأخذت الكتب الملونة وجلست فى حجرتى وقررت أن أتعلم . هذا هو الحمار .. أجيد ركوب الحمير وأجرى بها وسط الحقول ، غدا سوف أحمل ليلى خلفى على حمارى وسوف تسعد لأنها قادمة من البندر ، حيث يركبون السيارات ، كيف أقرأ اسم الحمار ، حسنا فلنبدأ من البداية ، كما أسمع صوتى ، أتبع صوتى وأضع يدى على الحروف ، أخيرا وجدت حرف (الحاء) حا ، لنبحث فى الكتاب كله عن هذا الشكل (ح أو د) ، هذه (هى) وتلك ، (أنتن) أحرف متشابهات ، وبعده حرف (الميم) .. وهكذا حى أذان لصلاة الفجر ذهبت للصلاة وقد علق فى ذهنى كم لا بأس به من حروف الكلمات وفى اليوم التالى ذهبت إلى المدرسة بعد أن اشتريت كراسة وكلما حاولت أن أكتب مثل بقية زملائى ، رآنى المدرس سخر منى ، ولكننى واصلت ، كنت قد نجحت فى كتابة بعض الحروف ، وفى الليلة التالية كانت صورة ليلى وهى تركب خلفى على حمارى المنطلق نحو حقولنا وصورة المدرس الساخر تصطدمان فى رأسى ، قررت أن أتعلم جيدا وتعلمت ، وقرأت القصة التى كانت فى الكتاب الملون وذهبت لصلاة الفجر بعد أن تذوقت حلاوة القراءة ، ومن يومها وأنا أعشق القراءة كما أعشق ليلى ، وساعدتها حتى استوت على الأرض وهى لا تزال فى حالة انبهار (لركوبها حمارى) وأخذت عصا جافا ورسمت على التراب أمام حقلنا اسم ليلى ففرحت هى ، وصاحت فى دهشة :

- لقد كتبت أسمى صحيحا !

أخذت أعيد كتابته من جديد عدة مرات ، أخذت العصا من يدى وكتبت بجوار اسمها اسمى ثم رسمت قلبا وفى داخله سهما ، ولما رأيت السهم ارتعدت وظهر هذا على وجهى وجريت ..

لماذا السهم ؟ لماذا الجرح ؟ لماذا أحالونى إلى هذا الطبيب المعتوه ؟ الذى أجرى لى جراحـة لم تكـن واجبة وأجراها خطأ توالت عنه الأخطاء وها أنا أرقد عليلا ، مصابا بسهام عديدة ، لم أحاول أن أحب أو أعشق وكلهن ليلى ، وكلهن لا يرون منك إلا القتل والفتك لا تعطـى نفسـك لامـرأة مـهما كان الثمن لأن حياتك فى النهاية هى الثمن .

جاءت ابنتى تبكى ، كنت قد قررت الرحيل ، صحا عقلى على فكـرة البقـاء معنـاه المـوت . أتمتم البقاء الموت ، كان من الممكن الذهاب إلى أطباء كثـيرين ، لمـاذا استسلمت للصديـق الدكتـور الأستاذ ؟ لماذا أذهب إلى أطباء آخرين ؟ وجميعهم أصدقاء وأساتذة ، انحـدرت تلـك الأفكـار مثـل صخرة قيس على دماغى لم أنم ، فى الفجر كنت بصوتى الواهن أطلب معاونة الأصدقاء لإخراجى مـن هنا وخرجت ، بكت ابنتى .. بكت زوجتـى عندمـا علمـت أننـى متـهم وأننـى ربمـا أدخـل السجن – كنت على ثقة بالله ، هو معى ، حتى ولو لم يتحول القرش الأبيـض إلى ذهـب أحمـر ، قلت أننى برئ ولكنهم شهدوا ضدى جميعا حتى تلك السيدة التى تزوجتها بعد ذلك ، كل الذين أكلوا معى وأنفقت عليهم مالى الخاص شـهدوا ضـدى ، تكدسـت الأوراق وأصبحـت مثـل أبحـاث الدكتوراه باللغة العربية ، كـل الأوراق بـها كـلام وحولونـى إلى المحاكمـة كـان مـن المفـترض أن أسجن ، كانوا يعرفون وأنا أيضا أعرف السر وراء الاتهام ، ليس ما هو مكتوب ومدون فقط لأننى عارضت نظام منظمة الشباب كان نظاما فاسدا مجرد تقليد أعمى لتجربة السوفييت ، قلت : لا ، الدين ليس أفيون للشعوب ، بل هو الأساس الذى يعيش عليه ومن أجله الناس ماذا يفعل المصرى الذى عبد الله الواحد منذ آلاف السنين ، صارت فى دمه وعروقه يرثها الأبناء عن الآبـاء ، جـزء من تكوين الشخصية ، لماذا نرفض وجود الله ؟ ما الذى يفيدنا من هـدم الـروح لـدى النـاس ؟ من الممكن تطبيق كل تعاليم المنظمة والاحتفاظ بالعقيدة الدينيـة ، هـذا سـوف يفيدنـا ، لم يعجبـهم كلامى وبعد أن كنت (الصبى المعجزة) أو الشاب المرموق والـذى يمكـن أن يقـود شـباب العـالم ، تحولت فى ليلة واحدة إلى بـؤرة فسـاد للشباب ، وجـات يـا اتـهامات ، يجـب أن يسـجن ، أن يسحل ، والحمد لله لم يتمكنوا ، نجـانى الله ، وظلت زوجتـى مؤمنـة بصدقـى وطـهارتى ، مـع تخلى كل الأقارب والأهل والأصدقاء بل والمعاداة علانيـة حتـى لا يتـهموا بنصـره أحـد أقاربـهم المغضـوب عليه من السلطة العلـيا ، وتخلى كل الناس ، وظلت زوجتى عامـا وبعـض عـام تنفـق على البيت فى تماسك وهـى تردد أن زوجى صادق وبرئ وطاهر وسـوف يخرجـه الله إن شـاء مـن محنـته أصلب عودا ، فهو لا يـزال صغير السن ، وخرجـت لأبحـث عـن عمـل ، يـاه .. اثنتـى عشرة مرة أخرج من العمل .

اليـوم خرجـت مـن المستشفى هاربـا ، أنقذنـى رجـال الإسـعاف الـذى أرسـلهم البروفسـير (يعقوب) ، حشرونى فى السيارة الجو حار خانق يزيدنى كآبـة ، والطريـق طويـل يـدور ويلـف

وأنا أكاد أختنق حتى وصلت إلى هذا المعتقل ، أقصد الغرفة ١٦ بالأولد كورت ، أنا الآن جالس وفى يدى مسجل صغير ، كل ما يربطنى بالعالم هو هذا المسجل ، أحكى له حكاية لطيفة ، وأسمع منه صوت (الشيخ الحذيفى) – يذكرنى الصوت – صلاة الفجر فى الكعبة ، البرد الخفيف ورائحة جبال مكة وصوت يرتل القرآن فى طلاوة وحلاوة ، رائحة جبال مكة تطبق على المصلين لهذا كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يضع الطيب – كل شئ يمكن تفسيره ولكن دون تطرف ، أذاعوا أن مجموعة من المسلمين هاجموا قطارا بالصعيد ، هذا التليفزيون البريطانى لم ينس أنه يعبر عن (الاستعمار) رغم مضى كل تلك المدة قالوا المظاهرة سوف تذهب إلى مصر ، ذهبت معهم ، الموت للخونة (إنجلترا لنا أن أمكنا) ، الاستقلال التام ، وعندما تدخلت الشرطة وتفرق الصحاب لم أستطع الاهتداء إلى محطة القطار ، لا أدرى كيف عدت إلى قريتى ، ولكن يبدو أننى عدت .

يحاول (بانديا) مساعد البروفيسير ، تركيب الحقنة ، لقد حاول حتى الآن سبع مرات ، ومع كل مرة أسمع كلمة أسف وأرى الأسى مرسوما على وجهه ، وفى النهاية نجح ، جلس بجوارى بعد أن تأكد من سريان مادة الحقن فى الوريد ، كان يحب (نهرو وجمال عبد الناصر وتيتو) عندما كان فى المدرسة الثانوية ، لم أسأله لماذا جاء إلى لندن ، هنا هنود كثيرون ، لا داعى للسؤال .. أتصور أن كل الناس الذين فى لندن لهم حكايات فقد جاءوا من بلاد بعيدة راح يضحك وهو يروى لى حكايات عنى خلال تخديرى كنت أحبه ، وأحب جلسته فى حجرتى .

وجاءت ليلى فى المساء وعاملتنى بقسوة ، ليلى هذه من الزنج السود ولكنها إنجليزية تتباهى بذلك ، نهرتنى بشدة وأعطتنى درساً فى الأدب والأخلاق الحميدة ، كيف أشير إليها كما يشير السادة لكلابهم ، لم أنطق ، حاولت الاعتذار ولكنها لم تقبل انصرفت بعد أن أعطتنى الدواء ، قصيرة القامة ، نافرة الشعر ، ومع هذا عاملتنى كأننى أحد رعايا مملكة أهلها ، يسقط الإستعمار ، تسقط ليلى .. ياه ليلى مرة أخرى .. ليلى الطفلة الجميلة الرقيقة البيضاء ذات الضفائر المجدولة والرداء الأحمر الذى يرفرف حول جسدها النحيل ، تأخذ العصا من يدى لكى تكتب أسمى بجوار أسمها ثم ترسم سهما فى القلب ، السهام كثيرة هذه الأيام يا ليلى ، ولا أعرف كيف انتهت قصتى مع ليلى ، وأصبحت أقرأ كل ليلة حتى صلاة الفجر .

سألنى (بانديا) سؤالا غريبا عن أشياء غريبة والسؤال كان عن الكون ، وكيف أراه ؟ ولماذا يرانى دائما نائما ؟ فإذا ما اقترب منى سألته أن يبقى ، كيف تبدو نائما وفى نفس الوقت ترانى رغم أننى أحاذر عند دخول الحجرة حتى .. لا أوقظك لأننى لم أحضر إلا للاطمئنان عليك وأنت نائم ..

ياه يا دكتور بانديا .. ابنتى تعودت أن تسألنى وأنا نائم وأجيبها ، أسرتى تعـودت هـذا ، لم يحاول أحد إيقاظى ، أننى أستيقظ فى الموعد المحدد إذا كنا على سفر ، ظللت حتى بلغت سن الأربعين وأنا لا أعرف النوم ولكنى أتظاهر بالنوم فإذا ما سألنى أحدهم سؤالا أجبته ، لا أدرى كيف حدث هذا .. فى ليلة باردة ، كانت حجرتى فى دارنا القديمة لا يفصلها عن مقابر أهلى إلا مجرد زقاق ، وتعودت أن أرى الجماجم ، والعظام البارزة ، كلما تهدم حائط من حوائط هذه الجبانة أو كلما أرادوا أن يوسعوا من الزقاق ، وتعايشت مع هذه المقابر ، كانوا يقولون إنها مقابر أجداد لنا من قديم الزمن ولم تعد مستخدمة الآن ، وكان بى خوف شديد من التواجد بمفردى فى الغرفة لهذا كنت أصحب أخى الصغير الذى يصغرنى ببضع سنين ، أحاول أن أدارى خوفى وأن أقنعه بمصاحبتى على أن يظل مستيقظا – كنت فى الصف الرابع الإبتدائى ، ولم تعد مشكلة القراءة عذرا كافيا لعدم مذاكرتى للمواد الدراسية فكانوا يقولون لى هذه شهادة مهمة ، وتحمس أعمامى وأخوالى من أجل نجاحى فى الإبتدائية ، ولهذا أقنعوا أبى بتركى قليلا حتى أذاكر ، ولم يكن أحدهم رغم كثرة أخوالى وأعمامى لديه الوقت لكى يساعدنى ، فلم أجد ألا أخى الذى يصغرنى مباشرة لكى يكون معى فى أوقات المذاكرة ليلا ، ولكنه سرعان ما يغرق فى نوم عميق وكان طفلا لم يدخل المدرسة بعد ، وابتسم أنا . فوجوده يعطينى الإحساس بالأمان ، وأندمج فى مذاكرة المواد الدراسية ويساعدنى أن السنوات التى قضيتها لا أكتب فى الفصل تعودت فيها أن أصغى جيدا للدرس فأحفظه كما قاله المدرس حفظا تاما ، وفى السنة الرابعة كانت ذاكرتى مع قراءة الدروس تجعل من المذاكرة أمرا مسليا ولطيفا وليس مجهدا ، فى هذا الليلة ظللت انتظر أخى (سمير) ولكنه لم يحضر ، وشعرت بالخوف قليلا ولكنى تغلبت عليه ، وذهبت إلى فراشى وتأهبت للنوم ، ولكن لم تمضى لحظة ، وانفتح الباب ورأيتها سيدة ترتدى ثوبا أبيضا تغطى رأسها بشال أبيض ، شعرت بالارتباك فلم أراها من قبل ، دارنا تعج بالسيدات والرجال من أهلنا وأقاربنا وأناس يعملون فى خدمتنا ، ودائما ما تدخل سيدة تقدم لى الطعام بناء على أمر من جدتى ، فى الغالب كنت أعرفهن من تكون ، أغلقت الباب خلفها بعد أن دخلت ، لم أشعر بالخوف ، بل شعرت بالسعادة وكأنها فيض نور تدفق فى جسدى كله ، وكأننى أغطس فى بئر ماكينة المياه التى تدور على حافة حقول (الوسية) شعور بالمتعة وأنا أغطس فى الماء البارد ، ثم أقفز منه لأعود لكى أغطس ، ولا أجد بجوارى ، بل لا أحد يرانى ، الماكينة تدور ليل نهار ، تسكب الماء فى البئر ، يفور الماء ، كأنه يغلى ، تعلو الزبد ، اقفز سعيدا منتشيا ، وقد خلعت جلبابى على حافة البئر ، أكرر الغطس القفز حتى أشعر بالشبع ، أرتدى جلبابى وأصلى ، أشعر بالسعادة للفراغ من حولى ، حقول متسعة ولا شئ غير النبات الأخضر الذى يتراقص مع الهواء ويفرد طوله مداعبا شعاع الشمس ، .. اقتربت منى ، اعتدلت فى جلستى كنت أريد أن ألمسها أو

أن تلمسنى ، قبلتنى على جبهتى ، شعرت بسخونة حادة على جبهتى وظلت هذه السخونة تصاحبنى بعد ذلك ، قبلتنى ثم نظرت فى عينى واستدارت تنصرف ، كدت أقفز خلفها ، لا تمضى الآن ، فقط ومتى أراك ثانية ، أشارت إلى بالصمت ثم مضت ، أغلقت الباب خلفها كما كان ، ظللت محملقا فى الباب لا أقدر على مغادرة الفراش ، حتى رأيته يفتح من جديد وكان أخى هذه المرة ، مندفعا نحو الفراش وكأنه كان على موعد مع النوم ، سرعان ما راح فى نوم عميق ، وظللت أنا مستيقظا غير قادر على النوم ، جاء الفجر وصليت .. ذهبت إلى جدتى أردت أن أحكى لها ما حدث ، ولكنى لم أستطع ، سمعتها تقول فى تأكيد :

– لسانك حصانك ..

وسكت ، فى كل ليلة أظل مشدودا نحو الباب أريد أن أراها ، اشعر أننى معلق بها ، وليس حبا ، ولا عاشقا ولا شئ من ذلك ، إنها كل ذلك وأكثر حكيتها بعد أكثر من خمسين عاما للدكتور بانديا ، الذى كنت أود أن أراها مندهشا ، ولكنه لاحقنى بالأسئلة مرة أخرى عن الكون وكيف أراه (.. الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ..) أستمع جيدا إلى التلاوة ، القرآن سبق خلق الإنسان ، إذن الفرق بين أدم وبقية الملائكة أن ربه علمه القرآن ، العلم هو القرآن ، واصطفى الله أدم فعلمه ، والقرآن هو البيان ، هو الميزان ، ميزان الكون كله ، ميزان العدل ، وميزان الحساب فى الدنيا أرطالا وأوزانا ، وميزان العقل ، والميزان فى يد الله ، يا (بانديا) لقد جعلتنى أبكى طوال ليلى ، أنا من أكون ، أنا محمل بكل جرائم البشر ، أحمل فوق قلبى خطايا كل الناس ، أنا آدم الذى عصى أمر ربه أنا ولده الذى قتل أخيه ، أنا ابن هذا القاتل ، لماذا سألتنى هذا السؤال ؟ ، لقد اقتربت يا بانديا من منطقة الخطر فى نفسى ، نفسى المنقسمة إلى آلاف الأنفس التى .. تتحدث بلغة لا أفهمها ، دعنى يا بانديا ، يريد أن يعرف يسألنى وأنا نائم .

نعم أرى الأشياء وأنا نائم ، وأسمع الأصوات عن بعد وأنا نائم ، لا أقدر على وصف هذا رغم كونى كاتبا ، ولكن هذا ما حدث لى بعد تلك الليلة أشياء لا إرادية ، لا أدرى لها تفسيرا ولا سببا ، أرقد على ظهرى ، سرعان ما أترك جسدى وأرتفع فى السماء ، عقلى يدور ويدور ، أتحرك وفقا لما يقرره ، أريد أن أرى سيبيريا لم أذهب إلى سيبيريا من قبل ، أرتفع أكثر ، أرى الحقول ثم الجبال ثم البحار ثم قمم الثلوج وهى تبرق ، وأحط على جبال خضراء وأشجار باسقة ، كيف تكون هذه سيبيريا ، ولكنها كذلك خليط عجيب من الثلج والأنهار الصغيرة .. والبحيرات ذات شطآن وأشجار ورجال غلاظ نهرنى أحدهم فى قسوة وصاح فى وجهى ولم أعرف ماذا يقول ؟ أصعد مرة أخرى ، أرى جبال الألب ، انحدر نحو الجنوب ، أرى قطارا وعربات

تجرى بسرعة ، كل شئ صغير ، ومدن ، وقرى ، أهبط فى بلدة لا أدرى ما اسمها ، أجلس ، أستريح ثم أواصل الرحلة عائدا إلى جسدى ، سرعان ما أهبط وأشعر بالتعب ، والعرق يغرق كل جسدى ، لا أحد يدرى ما حدث ، ولكنى بعدها أظل مجهدا مدة تزيد عن أسبوع هل عندك تفسير لهذا يا بانديا ؟ تكرر هذا آلاف المرات ، بالنهار وأنا وسط معسكر للشباب أو بالليل وأنا راقد بجوار زوجتى ، أو حتى وأنا أجلس ممددا بجوار مجموعة من الأصدقاء ، والويل لى إذا أيقظنى أحدهم قبل أن أعود إلى جسدى .. ، والذين كانوا على معرفة بى جيدا لم يكونوا يفعلونها ، ثم أن ما حدث لا يستغرق فى الزمن المعروف إلا وقتا قليلا لم استطع تحديده .. وقد رأيت أشياء كثيرة وسجلت أشياء عديدة ، وكنت دوما لا أتكلم ، فلماذا دفعتنى يا بانديا لكى أحكى لك ما فى نفسى .؟

الليل يزحف حولى ، والغرفة يسودها البرد والخوف يملأ قلبى ، أحاول ان أنام ، أن أحلم ، يستعصى الحلم ، حتى الحلم لا أجده ..

☆☆☆☆☆☆

الفصل الثالث

وضعونى فى حجرة أمامية ، حاولت النهوض للذهاب إلى الحمام ، رحلتى من مستشفى أكسفورد إلى هنا (الأولد كورت) كانت مرهقة ، انسال البول على ملابسى ، أسرعت كبيرة الممرضات (جيسى) لازلت أذكر اسمها فقد جئت إلى هنا منذ ثلاثة أعوام فقط مكثت بعض يوم ثم نقلونى إلى (الهيرفيلد) ثم إلى هنا مرة أخرى ، أول مرة دخلت فيها هذه المستشفى لم أسترح طلبت من أخى الذى كان يرافقنى أن يذهبوا بى إلى غرفة أخرى ، ولكنه قال ليس هذه فندقا ولسنا هنا للسياحة ، كنا لا نعرف شكل الدكتور يعقوب الذى جئنا من أجله ، ولكن فجأة رأينا الطبيب المصاحب لنا من القاهرة يخرج من الغرفة مسرعا ، وإذا به يعود ومعه رجل أسمر عملاق وفى ابتسامة طفل ، يقول بالعربية :

– لا تخشى شيئاً .. فقط سوف أنقلك إلى مستشفى آخر .

شكرته بالإنجليزية ، لم أشعر بشئ ، فقط وجدت نفسى فى حجرة فسيحة جميلة وأمامى فتاة بيضاء رشيقة – أمسك أخى بذراعى وقال سوف تذهب الآن ، قلت :

– أترى – هذه الحجرة أفضل ؟

قال : وكأنه يكرر كلاماً ما قاله من قبل :

– لن تشعر بألم .. فقط تذكر إيمانك بالله .

تدحرج السرير ، دلفنا إلى عدة طرقات كانت ألوان السقف تتغير من وردى إلى بنى إلى أخضر ، أخذت أفكر فى الألوان ، وأقترح غيرها ، ثم وجدتنى وقد توقفت الحركة من حولى ، وانهمر الضوء الساطع ورأيت وجهاً أسمراً ثم تدافعت الوجوه سمراء وبيضاء وسوداء وصفراء ، وجوه رجال ونساء وشيوخ وشباب عجائز وفتيات ، وأدور كما يدورون ، وينطلق لسانى مكبراً الله أكبر ، الحمد الله ولا إله إلا الله ، اللهم أنى نويت الطواف بكعبتك الشريفة ، اللهم تقبل ، ها أنا أطوف الشوط الثالث ، ولا أشعر بإرهاق ، أكبر الله وأدعو ، أحس بالسعادة ، ها قد

انتهيت من الطواف وصليت ، وتوضأت فى زمزم وشربت حتى ارتويت ، ودارت بى الأيام ، أحسها وأشعر بها ، أصلى الفجر جماعة وكذا بقية الأوقات لا أغادر الكعبة المشرفة ، ولكن ما هذا .. أنهم يدفعوننى دفعا أشعر بألم حاد – ثم ها هو أخى يمسح عن وجهى ماء زمزم ، واسمعه يقول :

– لقد انتهت العملية بسلام .

لا أفهم ، أحاول أن أبعد يده عن وجهى ، ولكنى لا أقدر أستسلم له ، يجفف الماء عن وجهى تبتسم الفتاة :

– أنت محظوظ يا رجل .

لا حول ولا قوة إلا بالله ، ماذا حدث ، عرفت أنهم أفاقونى ، رأيت الناس يتحركون، يمشون ، يتكلمون ، أقول هذه قدرة الله ، كيف يفعلون هذا ، وعندما جاءت تلك السيدة المكلفة بتدريبى لم أطاوعها ، ولكنهم واصلوا المحاولة ، وجاءت رأس السنة وطلبوا أن أذهب إلى أسرتى ، كيف ؟ أسرتى هناك فى قارة أخرى ، لم يفهم الطبيب الإنجليزى ، حملنى الأصدقاء إلى مسكن جميل ، كانوا يحيطون بى فى عناية ورعاية ، وعدت ، هل عدت إلى الوطن إلى الأسرة ؟ لما عدت إلى نفس المستشفى ؟ لا أدرى ، وقال أن (البروفيسير) قادم ، تفحصنى فى برود ، كانت على وجهه علامات الألم والخوف قال :

– لم يكن هناك داعياً لجراحة جديدة .

تصاعد الغيظ المكبوت إلى نافوخى ، شعرت أن الأسد قد تم حصاره وأنهم أوهموه بالراحة ، ولكنه لم يكن يعلم أنها راحة من السعادة والحياة ، سقطت فى بئر ، وها هو يقول لم يكن هناك داعياً .. لماذا وكل هؤلاء والذين قرروا والذين قاموا بالجراحة ، وكل تلك الآلام .. لا لشئ عبثاً كل ما حدث قال :

– هل عدت تفكير فى هذا الأمر .. يجب أن تحارب معركتك أولاً

قلت : ولكن يا بانديا لقد سمعت ما قاله الأستاذ ، قال :

– لا تفكر .. لقد جئت الآن إلى المكان الصحيح وبدأنا رحلة العلاج ، ولكن ماذا نفعل أمام المعاناة والألم ؟

قال : ألست مؤمنا ؟

قلت : الحمد لله ، قال :

خجلت من نفسى ، كيف أصبحت هكذا ، نعم كيف أفلت منى هذا الضوء الجميل الذى طالما تمسكت به ، بعد أن زارتنى وأنا طفل ، وأنا ممسك بضوئها أرى الأشياء كما لا يراها الناس ولا أتكلم ، أعرف أشياء لا أبوح بها ، وأتمسك بهذا الضوء يشدنى نحو ذكر الله والصلاة ، والمساجد ، كل شئ أراه غير ما يراه الآخرون ، أفعل ما يأتينى به قلبى حتى ولو كان ضد كل الناس ، ونجحت فى الشهادة الابتدائية وكنت التلميذ الوحيد الذى نالها من بين زملائى الذين كانوا بالفعل أكثر قدرة على النجاح ، لا أدرى لماذا رسبوا ؟ لقد كانوا يكتبون وأنا لا أعرف ، ويرسمون الأشكال وأنا لا أعرف ، ويتحدثون عن حب الفتيات ومقابلات عند النهر وعند الجسر وأحيانا داخل الحقول وأنا لا أدرى عما يتكلمون كيف يكون حب الفتيات جارفاً ومفرحا ومبهجا إلى هذه الدرجة ؟، رحلت ليلى فلم أعد أعرف من أسال فرحت أسرتى ، وسعد أبى ، ولكنه رفض أن أواصل الدراسة كان كل أمله ولا يزال أن أرث عمله ، أكون ساعده الأيمن ، وقد كنت دوماً ، أعمل معه أكثر من الوقت الذى أقضيه فى الدراسة والنوم والطعام معا ، ولكن أريد أن أواصل ، وأخيرا نجح خالى فى إقناعه ودخلت مدرسة لا تحمل إلا أسمها ، بداخلها لا شئ لا مدرسين ولا دراسة ولا تعليم ولا شئ .. المهم أن تدفع المصروفات أول كل عام ، وحضرة الناظرة الطبيب البيطرى كان يقضى يومه فى (بار جميل) ليس البار هو الجميل إنما هو أسمه لأنه فى الشارع الذى يحمل هذا الاسم ، وأسترحت فى هذه المدرسة واستمتعت بها لأنها كانت تعطينى الحق فى الذهاب إلى الحقول حتى موعد العودة وركوب القطار للسفر عائدا إلى بلدتى .. تسقط إنجلترا ، ما الذى فعلته هذه الدولة لكى يكون نصيبى منها كل هذا الألم ، تسقط الإمبراطورية وعملاء الإنجليز ، فى كل يوم مظاهرة – أسرع إلى مكبر الصوت وأصرخ بعدة كلمات عن الوطنية ، فى كل يوم لابد أن تجد ذكرى لشهيد أو لمعركة أو لبطل أو لحدث ، ذكرى دانشواى ، واليوم حرام فيه العلم ، ويخرجون يهتفون بسقوط كل شئ وألملم كتبى ، وأتحسس طريقى نحو مكان لى مفضل أسفل الكوبرى ، هناك جزيرة خضراء لا يوجد بها إلا الحشائش الخضراء – يطير فوقها بعض الفراشات ، أجلس وأبدأ القراءة ، وأمامى (حزمة) من الجزر الأحمر ، إذا أردت طعاما أو شرابا ، أسمع من بعيد هدير المظاهرات ، أعرف أنها ستظل كذلك حتى موعد حفلة العاشرة فى السينما .. كل طلاب المدارس خرجوا الفتيات والفتيان ، لم تعد المدرسة مكاناً ملائماً للعلم ، تساوت المدارس ، مدرستى لا تهتم بقضية العلم وأيضا طلابها إنهم هربوا إليها من بلدان مجاورة ، أبناء أثرياء الريف فى الفصل الدراسى الذى دخلته طلاب متزوجون ، والباقون على علاقات مع فتيات والحديث كله عن المرأة ، وماذا يفعلون معها . هذا إذا دخلنا الفصل أصلا وأردنا – لا سمح الله – أن نرى وجه مدرسنا ، وهذا يحدث نادرا ولكن

سرعان ما أفكر أنا فى طريقة للخروج وأفضل الطرق أحداث مظاهرة طلابية يتضامن الطلبة فيها من أجل إسقاط إنجلترا ونظام الحكم العميل ، إنهم يتحدثون عن النساء وجارى متزوج وأنا ابن التاسعة ولا أفهم ما يقولون بل أنفر منه وهم فيه راغبون ، هم فى العشرين أو يزيدون عنها فى العمر ، أجسادهم مفرطة فى الضخامة والقوة ، وأنا طفل قصير هزيل ، العمل مع أبى والقراءة والسهر جولونى إلى هيكل عظمى ، كيف أدبر أمرى وسط هؤلاء العماليق .. سوف أفكر ، والهدف هو قراءة أكبر قدر من الكتب وتحصيل أكبر قدر من المعرفة ، لقد حددت هدفى منذ أن علمت نفسى القراءة سوف أكون كاتباً – والكاتب عليه فى البداية أن يعرف ، ويعرف كل شئ من أول طرق رى القطن إلى طرق توليد الكهرباء وما بعدها ، وكيف كان الإنسان منذ جاء يكتب! سواء بالعربية أو بالإنجليزية ، وعرفت أشياء كثيرة ، وتغنيت بشعر أبى العلاء من فوق أسطح دارنا وترنمت بقصائد (شكسبير) ، وقرأت أبحاثا فى الزراعة وفى التاريخ وقرأت عن (إخناتون) وعهد الملكات فى مصر القديمة ، وقرأت (التوراة والإنجيل والقرآن) كل ما وقع فى يدى من كتب ، قالت جيسى :

– ثلاثة ساعات وأنت تحملق فى طعام إفطارك .. لماذا ؟

قلت أننى فعلا آكل ولكن عل مهل ، قالت : هذا موعد الحمام .. لأن الطبيب يريد أن يرى جراحك بعد الحمام ، قلت : حسناً .

ووضعونى فى الحمام أول مرة منذ ثلاثة أعوام وهنا فى (الهيرفيلد) شعرت بالخجل الشديد ، هذه أول مرة اتعرى فيها أمام سيدة ، حملتنى قسرا وقذفت بى فى (البانيو) شعرت بالإهانة ولكنى عندما رأيت الماء الملوث بالدم ، استسلمت بعدها ، كانت (شارون) الممرضة الايرلندية فى (الهيرفيليد) من الشخصيات الى لا يمكن للإنسان أن ينساها بسهولة.

قالت ابنتى : أن المريض بالغرفة رقم ٤ خائف لأنه وحيد وليس معه مرافق وسألتنى أن تذهب إليه ، أعلم أن المرض يصاحبه دوما الوحدة ، عندما كنت فى المستشفى بالقاهرة كان رفيقى بحجرة الإنعاش يطلب من زوجتى أن تحضر له الفول والطعمية ، وحاولت أن أمنعه من هذا الطلب ولكنه ألح إلى درجة البكاء ، وأحضرت له زوجتى سندوتشات الفول والطعمية فانحنى أسفل فراشه وأخرج برطمانا به زيتونا مخللا ، (أخذ يأكل بشراهة شديدة، ويقول كل شهرين أسقط ويأتون بى إلى هنا وبعد أسبوع يعيدونى إلى البيت ثم إلى العمل ، أعلم أننى أحتاج إلى جراحة فى القلب ولكنهم لا يوافقون من أكون حتى يراسلوا بى إلى الخارج – أنهم يعطوننى

مسكناً وأنا أيضا أعطى نفسى فرصة الحياة كما أريد ، أنهم يعاندوننى لأننى مجرد عـامل بسـيط ولكنى سوف أهزمهم) ، كان قد التهم الطعام مع حبات الزيتون وقف وبدأ يصنع شاياً .

قلت صائحا : كفى يا رجل هذه غرفة إنعاش ولها احترامها .

ونظر نحوى فى قسوة وقال :

– يبدو أنك متزمت .. طالما أنت كذلك فلماذا مرضت إذن ، وخرج .

جاءت ابنتى وقالت : أن الرجل بالغرفـة رقـم ٤ ليس لديـه ملابس ولا نقـود ، فقـد خـذوا حقيبته بالمكتب الطبى بالسفارة وأرغموه علـى المبيت فـى فنـدق ثـم جـاءوا بـه إلى هنـا لاجـراء الجراحة ، أعطته ابنتى بعض ملابـس خاصـة بـى ، كـل الغـرف بـها زوجـات ملـهوفات علـى أزواجهن ، أو أزواج ملهوفون على زوجاتهم الكل هنا مشغول – محمد أيوب الباكسـتانى يدلـف إلى الحجرة ويجلس ليقرأ القرآن ثم يفسره باللغة الإنجليزية ، وهو سعيد لأنـه مسـلم ، وعندما يقرأ القرآن يبكى بشدة ، تتساقط دموعه بغزارة ينظر نحوى ويقول :

– أنت أخى فى الإسلام .

يحضر محمد أيوب كثيراً ، ويأتى ومعه الكثير مـن الطعـام أو الأشـياء الأخـرى ، يتمنـى أن يرى القاهرة وأن يتعلم فى الأزهر ، ويقـول :

– أنت تعرف الكثير عن الإسلام .

تنظر ابنتى نحوه ، لا أدرى كيف أجيب ، ماذا أعرف أنا ؟ منذ زمـن وأنـا لا أرى مـا كنـت أراه ، أربعة أشهر بعد عودتى من مكـة مباشـرة وأنـا لا أرى مـا كنـت أراه لا أسـتطيع أن أغـادر فراشى ، الأحلام هربت منى الأمانى ، الآمال ، كل شئ لم يعد له وجود ، حتى ذلك النور الذى كنت أتعلق به – صرت وحدى ، انفض الزوار وذهبت ابنتى إلى سكنها أحاطت بى نفسى .. ماذا فعلت ؟ حاولت أن أتذكر كل ذنوبى وآثامى واكتشفت أنـها كثـيرة – كثـيرة ، وأننـى لا أطيـق ، كيف تحولت إلى هذا الكائن الذى أرفضه ، كيف .. تدنست نفسى وصرت مثـل الآخريـن ، مـاذا فعلـت بـى يـا نفسـى ، جريـت وراء سـراب وراء شـهرة لم أنالهـا ووراء مـال لم أعـثر عليــه ، وجــريت .. جريت ، كنت ألهث أندفع فجراً للصلاة وأجرى وأنا ألهث لكى ألحق بقطار المدينـة من أجل المدرسة وما من مدرسـة هنـاك ، التـهم الكتـب كتابـا وراء كتـاب ، أتلـوى بـين الكتـب والعمل والدراسة وغضب الآخرين ، أزووم مثل القط المسعور ، أريد أن أفعل شيئاً هاماً ، أن أكتب كتاباً قيماً كل هذه الأعوام ، وما فعلت ، وما حققت شيئاً ، ياه .. لقد غرقت فى الفساد ، وحتـى

هذا لم أستمتع به ، والآن وأنا أرقد مشلولاً بالألم ينشطر قلبى من الحزن على نفسى ، تدمدم خلف النافذة ، وجرح فى الصدر ملئ بالميكروب ، ولا أملك إلا أن أردد فى رجاء الله .. الله ...

قال خالى يجب أن تجلس هنا فوق تل القمح .

قلت فى دهشة : لماذا ؟

وضعنى بنفسه فوق التل ، وقال :

– هكذا ولا تتحرك

شعرت أن حبات القمح طرية وندية رغم حرارة الشمس ، ورقدت فوقها مستلقيا على ظهرى ، ورأيت الشمس تبتسم ، وسمعت حبات القمح تردد الله .. الله فرحت ورحت أتمتم .. الله .. الله .. حاولت أن أدس رأسى داخل تل القمح لكى أسمع جيداً ، كان صوتها عذباً وعصافير تغرد فوقى تقف على فرع شجرة بالقرب من (الجرن) ناديت على العصافير ووضعت بعض حبات القمح على كفى ، جاءت العصافير ، خالى ورجاله مشغولون يضعون القمح فى الأجولة ويكيلون ، الله واحد ، ملوش تانى .. حبات القمح تردد الله .. الله .. العصافير تلتقط الحب وتفرد أجنحتها وتغرد الله .. الله .. حملنى خالى وهو يقول :

– لابد أنك جائع .. لقد أتعبناك .

قلت لجدتى (حليمة) أريد أرزا معمرا ، ابتسمت وقالت سيكون أمامك فى الحال، لم يعجبنى ردها، أسرعت إلى جدتى (ست أبوها) وطلبت منها الأرز المعمر ، قالت ها هو أمامك وأكلت قطعة واحدة وأخذت أخرى بيدى ، سمعتها تنادينى أعرف أنها تبحث عنى ، ناولتها قطعة الأرز أخذت تأكلها فى نشوة ، قلت لها :

– لماذا يفعلون بى ذلك ، لماذا يجعلونى أتكلم مع الأشياء ، اليوم تكلمت مع القمح .

رفعت قطتى رأسها ونظرت إلى عينى ، قطتى لها عين زرقاء وأخرى صفراء ، قلت :

– هذا ما يحدث دائما مع القمح والأرز والفول ... حتى السيدة التى تبيع الجميز .

أنطلقت قطتى مهرولة ، ضحكت لأنها لم تفهم ، سوف تعود فى المساء لترقد بجوار رأسى حتى أنام وأسمعها وهى تنشد أغانيها فى العشق الإلهى .. وعشق الذات يدراينى عن ذاتى !

لاح ضوء الصبح ، أخيرا سوف تدور الحركة من حولى ، كيف حال المريـض الوحيـد ، قـالوا أنه فى المسرح الآن ، أخذت أدعو له حضرت ابنتى أخبرتنى أن حالته جيدة ، قدمت لى شريحة من الفاكهة ، لا أقدر على البلع ، كم كنت أشتهى هذه الفاكهة ، أبى كان يعلم مدى حبى لهـا ، لهذا كان يحضرها لى كل مساء ، وكان يحرص على ذلك ، ولكن الآن لا أستطيع أن أتذوقها .

أخيرا .. حول الموظف المختص التليفزيون إلى محطة عربيـة وكـانوا يذيعـون الصـلاة ، صـلاة الجمعة من الكعبة المشـرفة ، حـاولت أن أنظـر جـيدا كـانت السـاعة العاشـرة صباحـا بتوقيـت إنجلـترا ، موعـد الحمـام اليومـى والكشـف والغيـار أيضـا ، لاحظت المرضـات أن كـل المرضـى مشغولون بمتابعة التليفزيون فسألتنى ما الأمر جميعكـم ترفضـون المقاطعـة ، أشـرت إلى الكعبـة التى كانت فى وسط الصورة وقلت هذا هو السبب أنـها صـلاة الجمعـة بمكـة ، ابتسمت وظلت تنظر ، تنقلت الكاميرا حول الكعبة وطافت حول الجالسين وهـم ينصتـون إلى خطبـة الجمعـة – قلت هذه هى قبلتنا ونحن جميعا نتخيل أننا هناك ، المصريون يحافظون على صلاة الجمعة ربمـا تخلف الكثيرون منهم عن متابعة الصلوات فى بقية الأيام أما صلاة الجمعة فإنها (طقس مقـدس) لا يتركه صغير ولا كبير هكذا لاحظت ، حتى هنا فى لندن ، لاحظت اهتمـام المصريـون بتأديـة هذه الصلاة من الجمعة إلى الجمعة كفارة ، سمعت هذا من شيخى وأنا طفل وسمعته من أبـى كـان يحرص على أداء صلاة الجمعة فى المسجد الكبير بالإضافة إلى حرصه على بقية الصـوات ، وكـان دوما يجلس بجوارى ، وعندما نعود للغـذاء يـأخذ مـا قـال الخطيـب ، أبـى تخـرج فـى مدرسـة المعلمين التى كانت تؤهل حاملها لدخول مجال التدريس ولكنه رفض وفضـل أعمالـه التجاريـة ، ومع هذا لا ينسى ما حفظه من قرآن وسنة وشريعة وأصول دين ، كـان دومـا ضـد انفعـال وتشـنج خطباء الجمعة ، رغم أن خطيب المسجد وإمامه أحد أخوالى فقد كان متزمتاً من وجهة نظر أبى – لازالت أسمع الأذان ، كما سمعته فى أكسفورد (يرن) فى أذنى بوضوح – حاولت أن أجـد لهـذا تفسيرا ، جاءت ابنتى وسعدت عندما رأتنى منهمكا فى متابعة صلاة الجمعة فى الكعبة ، قالت بعد الصلاة :

– مصطفى قد تم نقله إلى الدور الأول .

وهذا معناه تخطى حواجز العملية وما يتبعها من عناية مركزة وغيرها ، وقالت أنه جـائع ، ابتسمت ،وكان عندى فـى الـدولاب الكثـير مـن الفاكهـة وكنـا أنـا وأبنتـى نوزعـه علـى المرضـى ومرافقيهم وأيضا المرضات ، عندما جاءت المرضة السوداء (ليلى) بعد أن عصفـت بـى فـى ليلـة سابقة ، قدمت لها (تمراً) نظرت إليه فى دهشة وقالت ما هذا ؟ كان صديقى فاروق قد أحضـره لى من أحـد المحـلات بلندن ، وكان يـأتيننى منـه الكثـير ، ورغـم لهفتـى عليـه وحبـى الشـديد

للتمر ، إلا أننى قد أصبت فى حلقى ولا أستطيع (البلع) كل شئ حتى الماء لا أستطيع بلعه بسهولة ، لهذا كنت أحاول أن أتناول تمرة واحدة أو اثنتين بصعوبة ، ويبقى منه الكثير ، فلما أخذت (ليلى) السوداء تنظر إليه عجبا وكأنها لأول مرة قلت لها ضاحكا :

- لقد أرسلت لى أمى ، إننا نزرعه فى حقولنا .

قالت وهى تتأمله فى انبهار :

- أمك .. أرسلت لك هذا ؟ !

قلت وقد لاحظت أنها تصدقنى ، لم تعد هناك فرصة للتراجع .

- بالطائرة ويومياً .

أخذت منى الطبق سعيدة به ، حفية به ، بعد قليل زارتنى ممرضات أخريات ودون أن يسألنى أعطيت كل واحدة منهن طبقا من التمر مؤكدا أنه وصلنى من أمى هذا الصباح بالطائرة .. وتعودت على ذلك وتعودن منى ذلك العطاء الغذائى ، كل يوم أعطيهن شيئا من الفاكهة أو اللحم أو الحلوى وأحيانا الخبز الذى يحضره لى أصدقائى من المحلات العراقية أو اليونانية أو المصرية التى تبيع خبزا طازجاً ، ولكنهم يضيقون عليه بعض التوابل أو الحبوب المعروفة فى الشرق ، فكن فى حالة انبهار دائم ، حتى أطباق اللحم التى كانت تصنعها ابنتى فى مسكنها ولا أقدر على تناولها ، أقدمها لهن على أنها هدية من أمى هى التى صنعتها بنفسها فى بلدنا ، وكنت سعيدا بهذه اللعبة التى تخلصنى من طعام لا أريده ولا أقدر على أكله وسعيدا لأننى أرى على وجوههن الشره والرغبة المجنونة فى التهام ما أقدمه لهن ، حتى أنه جاء لى بطعاماً سعودياً خاصاً كان لذيذ الطعم ذكرنى برحلاتى إلى السعودية ، وأيامى بها ، ولكنى لم أقدر على تناول إلا القليل منه ، فدفعت به إلى أول ممرضة قدمت نحوى التى سرعان ما دعت إليه زميلاتها فالتهمنه فى لحظات وهن مستمتعات غاية المتعة وشكرن أمى على طهوها الجيد وعلى إصرارها على إرسال كل هذا الطعام بأشكاله المختلفة وبالطائرة .

جاء (مصطفى) مستندا على ذراع ابنتى ، كان يرتدى منامة خاصة بى ، جلس على الفراش بجوارى وأخذ يحكى ، ويشكو ويقص ، عرفت منه كل شئ عن حياته منذ ولد وحتى جاء إلى هنا ، كيف عمل بالتعليم ، ثم تزوج وأنجب بنتا واحدة ، وكان بطلا رياضيا ، ثم سافر إلى ليبيا مكث فترة طويلة ثم قذفوا به إلى الطريق لم يتركوه إلا خارج الحدود دون ملابس ودون مال ،

مستحقاته كثيرة ، وأشياء كثيرة أخذوها منه ، حتى (باكو الشاى) الذى كان مستمسكا به لأنـه يحب الشاى أخذوه وأذروه الرياح ، وعاد إلى الإسكندرية وبعد عامين بدأت رحلته مـع المرض ، وهذه هى الجراحة الثانية له بعد عـامين فقط مـن الجراحـة الأولى ، وهـو الآن لا يملـك شيئا ، حاولت أن أجعله يكف عن الشكوى .. ظل (مصطفى) مركزا لأحاديث المرضى حتى رحل وعاد إلى وطنه ، أهدانى قبيل رحيله جلبابا أبيضـا كـان قـد اشـتراه مـن مكـة المكرمـة ، فأخذتـه فـرحا مستبشراً ، عانقنى فى عاطفة كان مثل الطفل فى كل شئ ، سـريع الحركـة ، كثـير الحديـث ، أخاف المرضى جميعا بتكراره أنه يجرى الجراحة الثانية بعد عامين فى نفس الموضع حتى طبيباً كبيرا كان يجلس ذات مرة بعـد أن أجريت لـه الجراحـة ، عندمـا سمعـه ، أندفـع إلى حجرتـه مستغيثاً بالأطباء لأنه على وشك الموت ، وظل هذا الطبيب كلمـا أخروجـوه مـن المستشفى لكمـال الشفاء ، عاد مرة أخرى وهو يتألم ويشكو فيضطرون لابقائه عدة أيام أخرى حتى تهدأ حالته ثـم يخرج ولكنه يعود من جديد أكثر اضطرابا وأشد هياجا .. لأنه فـى ظنـه - لا يـزال مريضـا وفـى حاجة إلى رعاية ، حتى اضطرت زوجته لإجباره على السفر والعودة إلى القاهرة ، وتكرر هذا مع الأطباء الذين زاملونى فى رحلة العلاج وكانوا مثل صاحبنا أكثر خوفا ، وهلعا ورعبا ، بينما كان مصطفى سكرتير المدرسة والرياضى السابق وطريد ليبيا يـأكل بشـراهة ، ولا يكـف عـن الـدوران داخل وخارج المستشفى ، ولا يكف لسانه عن قص حكايته لكل مريض يصادفه حتى لو كـان هـذا المريض هنديا أو يونانيا لا يفهم لغته المهم أن (يحكى) مصطفى كيف أن الحالة تعود من جديـد وها هـو قد أجرى الجـراحة للمـرة الثانية .

وسمعت الآذان ، وصليت ، كان الظلام يسود خارج الغرفة كنـت أخـاف الظـلام لا أذهـب إلى حجرتى فى المساء إلا إذا تأكدت أن أمى قد أضاءت الحجرة ، كنا نستخدم (لمبات الجـاز) التـى كان يستدعى أن يعدونها للإضاءة كل يوم ، أما أخى فقد كان يسأل فقط ، مجرد سؤال ثـم يذهـب لينام لا ينتظر الرد ، [illegible] هو يسأل كما تعودت أنا أسأل ، ولكنى أسأل وأنتظر أن تصحبنى أمـى أو جدتى ، وعندما يضعونى فى الفراش كان الفراش فى العـادة يغطـى بغطـاء كـامل مـن الحريـر المنقوش (ناموسية) تمنع دخول الحشرات والغطاء به رسومات للملائكة تحمـل سـهاما مثـل تلـك السهام التى رسمتها ليلى بجوار اسمـى ، أحـاول النـوم - أمـى تنـام نهايـة (الحدوتـه) ، أظـل أناديها حتى أعرف ماذا فعل الشاطر حسن ولكـن بـلا فـائدة ، يغلبنـى النـوم لحظـات ، أصحـو لاكتشف غياب أمى أو جدتى ، تحاصرنى الملائكة بسهامهم يتشاجرون ، يتعـاركون ، يقـتربون منى ، المعركة تشتد وأنا أنكمش فى فراشى خوفا ورعبا ، تحولت الملائكة إلى عـالم متصـارع مـن الإنس والحيوان أصرخ رعبا يهاجمنى ثعبـان ضخـم ، أصحـو مرعوبـاً ، أرى الوجـوه مـن حـولى متوترة ، جدتى وقد أمسكت برأسى ودسته فى صدرها ، أبى الذى يقف حائرا ، أمى وقد وقفت

ترتعد من القلق، جدتى تقرأ القرآن ، تشير على أبى وأمى فى الانصراف .. لماذا يا جدتــى يـأتى هذا الثعبان الضخم أنه دائما يهاجمنى كل ليلة ، هل هـو حقيقـة أم مجـرد خيـال ، الأسئلة لا تخرج من رأسى ولا أرددها على مسامع جدتى ، ولكنها تدور فى رأسى لم أجد لها جوابا ، ومع هذا تتكاثر الأسئلة ، علمتنى جدتى أن لا أتكلم كثيرا ، وظل الثعبان يهاجمنى .. وامرأة سمـراء تمسك بى ، تقترب من حبل المشنقة ، أحس بالموت ، بالاختناق .. أصحو ولكن أعلم أننى شنقت ذات يوم مع أمى ، كانت أميرة سمراء – ولكن الملك أمر بإعدامنـا ، لا أستطيع أن أقـول أن هـذه أضغاث أحلام أو مجرد وهم .. سمعت الباب وهـو ينفتـح بشدة ورجـل أسـود عمـلاق يتفحصنـى شعرت بالخوف ولكنه قال فى ثقة :

– أنا (سليمان) ؟

قالها بلكنة إنجليزية ، بدت لى كلمة (سليمان) هذه وكأنـها كلمـة لا معنـى لهـا ، قـال أنـه سوف يقوم بتركيب ماكينة الحقن الآلى وأنه يأسف للإزعاج ، كان دخوله المفاجئ وسرعة حركته قد تسببت فى ارتباكى ولكن لا أستطيع أن أفعل له شيئا ، أيقظنـى مـن أحلامـى ومـن طفولتـى ، أعادنى إلى الألم والحزن والمرارة ، راح يغير من وضع الأسلاك بآلية فظة ، كرهتـه ، اشتد الألم بصدرى وشعرت أن ذراعى يكاد ينفصل عن جسدى ، بدأت أتقيأ ، لم يعبأ بـى ظـل يعمـل فـى تغيير أجهزة الماكينة وتركيب الأسلاك ، حـاولت أن أنبهـه إلى الألم الـذى يغمرنـى يـردد كلمـة آسف ، ملعونة هذه (الآسف) التى سمعتها هنا فى لندن مئات المرات فى اليوم الواحد عشرات الحقن خلاف الحقن الآلى ، بالإضافة إلى عملية تنظيف الجرح مرتين يوميـا ومـا تحدثـه مـن ألم ينهك البقية الباقية من قواى .. انصرف سليمان ، وجاء نـور الصبح ومعـه ممرضـات الصبـاح ، الطعام كما هو ولابد من تغيير الفراش ، أوامر الممرضات كأنها أوامر للتدريب العسكرى يلقيانها ثم ينهمكن فى حديث حول سهرة الأمس ، وأصناف الطعام والملابس ومشاكل الرجـال التـى لا تنتهى – وأعرف أنهن غير متزوجات ، كل واحدة قصت علىّ حياتها ، هذه قدمت هى وأختـها وأمها من الصين ، وعشن هنا ، وعندما توفيت الأم ، بقيت هـى وأختـها ، لهـا صديـق ، رجـل يأتيها كل أسبوع ، يقضيان معاً أجازة الأسبوع ، إنه رجلها ولكنهما غير متزوجان ، تضحك فى سخرية عندما أقول لها أن هذا حرام ، كيف تعاشـر رجـلا بـدون زواج ، قالت الأخـرى : هـذا أفضل من الزواج بامرأة أخرى لم افهم ، قالت موضحة :

– هنا القانون يسمح بزواج الرجل من الرجل والمرأة من المرأة ، حسنا يا سيدات ، الحرام يجب أن يتم وفقا للقواعد المركبة – لابد من زواج فى الكنيسة أما الحلال فـهو مبـاح لا حـذر ولا خوف ، لا أحد يرغب فى الزواج ، إذا طالبته المرأة بالذهاب إلى الكنيسة للـزواج سوف يتركـها

ليجد من هى أصغر منها وأفضل ، ليس له أن يتزوجها أو حتى يخلص لها ، المهم أنه يأتى مساء الجمعة تتقضى معه أيام راحاتها الأسبوعية وعطلاتـها السنوية ، ثـم إن التكـاليف يتحملانـها سويا ، المتعة هى الأساس المشترك .

زملائى فى الفصل يتحدثون عن النساء ، لا فرق بين المرضات فـى أكسفورد أو فـى (الأولد كورت) عن زملائى فى الفصل ، لم أسمع هذا فى (الفيروز) فى القاهرة ، البنات هناك متزوجات أو باحثات عن زوج ، أو شاكيات من الزوج . (حنان) المرضة تسكن بعيدا عن المستشفى ، تسكن منطقة التناطر ، زوجها يلتهم وحده الطعام الذى سهرت فى إعداده لأنها لا تعود إلا فى المساء ، ولكن هذا هو قدرها وزوجها .. (مادلينا) سهرت ليلة السبت لكى تعد عشـاء ضيـوف زوجـها ، أخذت تصف لى ما أعدته للوليمة ، كيف جاء أصدقاء الزوج وعائلاتهم وأكلوا وسهروا وشربوا ثم قضت هى يوم الأحد فى إزالـة آثـار (العدوان) تقصد آثار الوليمة (مادلينـا) زوجـة إنجليزيـة ، وزوجها رجل غامض لا تتحدث عنه كثير ، ولكن حديثها عن طعامـها وحديقتـها هـو الحديـث المفضل ، تناولت شريحة لحم وقطعة من الحلاوة المصرية ثم قالت :

– هل فعلا يأتيك هذا الطعام من عند أمك ؟

قلت ضاحكا :

– المهم أن أسمع رأيك .

قالت وهى تتذوق القطعة الأخيرة من الحلاوة الطحينية .

– رائع .

ثم قالت باهتمام :

– هل أنتم أثرياء ؟

قلت فى كياسة :

– الحمد لله .

رفعت رأسها بدهشة ولم تفهم وأعادت السؤال ، واضطررت أن أجيب بنعم ، قالـت وهى ترنو نحوى فى إعجاب :

– هذا يبدو واضحا من طعامكم ، كما أن ابنتك تنفق الكثير ، قلت وقد أعجبنى اللعب :

– لا أهمية للمال عندنا .

راحت تتلمظ وكأنها قطعة تطلب المزيد ولكنى تظاهرت بالنوم ، اشعرتنى (لولا) بما يحدثه الفقر فى الإنسان وخاصة فى الغربة ، جرت فى رعب نحو الباب الخارجى بعد أن أخبروها أن صديقها يسأل عنها ، وتركتنى فى الحمام غارقا فى الماء الساخن ومضت بسرعة ، وعندما جاءت ، قالت :

- إنه يريدنى أن أذهب معه إلى أنه فى الريف .

قلت بجدية وتأثر ، لأنها صغيرة السن ، مقبولة الشكل .

- يبدو أنكما سوف تتزوجان .

قالت بأسى :

- هذا الوضوع لا يجب أن أفاتحه فيه أبداً .. يكفينى أنه يأتى . أمرتها أن تخرجنى من الماء الساخن ، وأن تلف تلك الأسلاك التى تشلنى وتفسد حركتى ، كنت مغتاظا ، أنها مجرد (بقرة) فى إنتظار ذكرها كانوا يتحدثون هكذا فى فصلى فى مدرستى الثانوية التى لا تحمل إلا اسميا للدلالة على كونها مؤسسة تعليمية .. كانوا يتباهون بفحولتهم كيف يجعلون النساء تجرى خلفهم ، كل منهم له عشرات التجارب التى يحكيها كلما اجتمعنا بالصدفة فى الفصل الدراسى ، وكانوا يتباهون فى وصف ماذا فعلوا ، وكنت أتقزز لأن ما يقولونه يثير لدى الإحساس بالبهيمية ذات يوم كنت آخذ حماماً ، كانوا فى العادة يتركوننى فى الحمام على أن تكون جدتى أو إحدى سيدات الدار تقف خارجه لمعاونتى إذا أردت ، كنت أخجل من كل السيدات إلا جدتى التى أسمح لها بالدخول معى فى الحمام وأستمتع وهى تصب الماء الساخن على جسدى وتدلكنى بالصابون الخاص بى الذى لا يستخدمه سواى كما أمر أبى ، ولكن فى هذه المرة كانت جدتى مشغولة بضيوف من أهلنا وكذلك بقية السيدات ، ووجدت نفسى وحدى فى الحمام حاولت أن أدلك جسدى بالصابون ، ولكنى شعرت ببعض الدوار ثم إحساس باللذة والمتعة يسرى فى أوصالى ، بعد قليل لاحظت أن سائلا اندلق منى على شكل قطرات ، خرجت من الحمام مرتبكا ، بعدها عرفت بعض أسرار زملائى ، ولماذا تبدو اللهفة على وجوههم عندما يخططون لبعض الغزوات النسائية ..

أيقظتنى ابنتى ، لم أكن نائما ، كان الرجل يبدو طيبا ، يرتدى جلبابا اختلط الواقع بالخيال ، تقدم الرجل منى وأخذ يمسح على جسدى وهو يتلو بعض سور القرآن ، شعرت بالراحة ، لا أدرى ما إذا كان هذا حدث بالفعل أم فى الخيال ، ولكنى لم أحاول التفكير بجدية ، جلس بجوارى وأخذ يتحدث عن رحمة الله ، أراحنى حديثه ، أخذ فى قراءة بعض

سور القرآن الكريم ومضى . الزوار كثيرون ويسعدون المريض ولكن أحيانا أفقد تركيز عقلى فى وجودهم ، ومع هذا تفرح ابنتى بهم ، وتقدم لهم ما لدينا من حلوى أو فاكهة .. تقدم شاب رقيق ، عرفت أنه يسكن بجوار مسكن ابنتى وأنهما أحيانا يأتيان معا إلى المستشفى لم أعد أفرق بين مستشفى أكسفورد ومستشفى (الأولد كورت) – فقد تركت جسدى لألمه الشديد وحاولت أن أندس داخل أحلامى ، ولكن الأحلام تهرب منى ، لا أجدها – عندما دخلت الفصل وكنا فى السنة الثانية الثانوية قالوا أن الناظر أغلق علينا باب غرفة الدراسة بالمفتاح ، أخذت أفكر .. هم دائما فى حاجتهم إلى عقلى وخططى ، أجسادهم الضخمة وأصواتهم الجهيرة لا تتناسب وجسدى الصغير النحيل وصوتى الرفيع ، فكان يجب ايجاد ما يميزنى عنهم حتى لا أصبح مجرد صفراً لا قيمة له إلا السخرية منه لهذا حاولت أن يكون عقلى هو سلاحى ، نظرت إلى نافذة الحجرة اكتشفت وجود فراندة خشبية تحملها أعمدة خشبية أيضا ، وكنا فى الدور الثانى من مبنى المدرسة الذى كان فى الماضى مجرد قصرا لأحد الأثرياء ، حولوه إلى مدرسة أشرت إلى النافذة واقترحت أن يهبطوا على أعمدة الفراندة ، أسرعوا وبعد لحظات صرت وحدى فى الفصل حاولت أن أفعل مثلهم ولكنى خفت ، تملكنى الرعب وأنا أنظر إلى الأرض ، وجدتهم وقد التهموا كل عيدان الخس بحقل الناظر وعندما أندفع إلى غرفة الدراسة لم يجد سواى ، نظر من النافذة وصاح فى غضب :

– أكلوا زرعتى !

أسرع خارجا ، نظرت إلى أسفل لم أجد أحد منهم ، حملت كتبى وخرجت لكى ابدأ رحلة القراءة اليومية !

دخل (بانديا) الطبيب الهندى المساعد للبروفيسير يعقوب قال أن كل شئ الآن تحت السيطرة .

قلت : هل هناك علاج يعاوننى على رفع جسدى ، فقد بدأت أشعر بالشرود والدخول فى عالم الغيبوبة !

قال فى حسم :

– حارب ، كن محاربا مثل أجدادنا ، لم يكن يعرفون الدواء ، ولكنهم كانوا يحاربون .

قلت : وكيف أفعل هذا ، قال يجب أن تقتنع أنت بذلك .

– أحارب ، أحارب من ؟ وأحارب بماذا ؟ كيف يحارب البوسنة وليس لديهم سلاحا ؟ كل دول أوربا تنظر إليهم وهم يذبحون فى الشوارع ، كيف حارب الهندى الأحمر أمام عصابات

البيض المتعطشة للدم ؟ لقد أكثر من ستمائة مليون هندى ، كانوا من إنجلترا وغرب أوربا جاءوا بحثا عن الذهب ، قتلوا أصحاب الأرض ، لغة المدس والبندقية لازالت هى اللغة السائدة عند اليهود ليبيدوا العرب ، كما فعل أجدادهم فى أمريكا وكما يفعلون فى البوسنة ، التليفزيون يهتم بموت سائحة هولندية فى أسوان ، تتكرر التعليقات ولكن لا تهتم بعزل القرى العربية فى فلسطين ، بقتل المئات فى المساجد والشوارع فى قرى فلسطين ، موت العربى والمسلم لا يهم أحدا إنما (ليالى ديانا الحمراء) هى الأهم ، كم رجلا مارست معه الحب يا مولاتى ؟ عشرات ، مئات ، لا يهم الرقم ، المهم أن الحب كان جارفا فلم تقاومه ، والصراحة أيضا ، وزوجك هو أيضا يفعل ذلك ، البحث عن الإثارة ، سواء فى الجنس ، وتبادل الزوجات والزواج من نفس النوع ، واشتهاء مل نساء العالم ، والبحث عن (الذكر) مهما كان شكله أو لونه أو جنسه ، لا يهم إلا ممارسة الحب ، وأن كان الأفضل أن تكون الممارسة علنية فى الشوارع فى النوادى ، فإذا كانت فى البيوت فلا يجب أن نسكت عنها يجب عقد مؤتمراً صحفيا لشرح الوقائع وتصوير كيف تمت تلك الممارسة ، ما الفرق بين الكلاب والقطط و (الأميرة ديانا) وزملائى فى الفصل أنهم يفعلون هذا ، وفعله رجل كان يدّعى أنه شيخ فإذا به يحرض تابعيه على أمن يمارسوا الجنس كما تمارسه الحيوانات دون حياء ، وهكذا دون التقيد بزوجة من هذه أو زوج من هذا بعد أن أسكرهم بخمر شربوه على أنه شراب المعرفة والوصل ، شربوا الخمر وما شعروا بأنفسهم ألا وهم يستيقظون فى الصباح وقد راحت (الخمرة) وبقيت الزوجات الحرائر مرتميات فى أحضان رجال غرباء ، وأسرعوا فى وجل وخزى ، ولكن سرعان ما اعتادوا هذا الأمر ، فقد أشبع لديهم غريزة القذارة الإنسانية التى تجعلهم يحبون بالمتعة من مجرد ممارسة الفعل غير الأخلاقى ولا أذكر كيف انتهى حال هذا الرجل ، ولكنى أذكر أنه ذهب إلى السجن ، وربما أتذكر كيف ، ولكن (إسماعيل) الموظف بالبريد ، والد الشاب المهندس الذى أراه كثيرا مع ابنتى ، جاء لزيارتى بعد أن طاب وشفى قليلا ، قال أنه أخذ أحد زملائه للكشف عند طبيب ، ولكن الطبيب قال له أنك أنت المريض لا زميلك ، ومن يومها ومنذ عامين وهو يتردد على الأطباء ولده الأكبر يعمل طبيبا ، لهذا أوصى أن يراه أكبر عدد من الأطباء كل طبيب برأى ، هذا أجره ألفا من الجنيهات وآخر يأخذ الضعف ، لابد أن تحدد اللجنة أحقيته فى العلاج بالخارج رجل طيب لا يحمل هما ، له أحفاد يتذكرهم على الدوام ، نجله المهندس من أصغر أولاده .. اضطر إلى أن يصحبه معه ، سافر كثيرا إلى بلاد أوربية فى رحلات عمل ، يجيد طهو الطعام وتدبير أموره ، ولكن ولده ليست لديه قدراته ، تمنى لى عاجل الشفاء ، ثم مضى رأيت الكثيرين هنا ، يرقدون فى الخوف ، ثم فى إعياء بعد الجراحة ثم يمضون إلى بلادهم ، أما أنا فقابع هنا فى السجن الإنفرادى بالزنزانة رقم ١٦ .. أتحدث إليكم من الغرفة رقم ١٦ كان لى صوتا جميلا ، اشتركت

فى أحاديث إذاعية كثيرة وجدت ابنتى شريطا موضوعا بين طيات الملابس التى أحضرناها من القاهرة ، قالت أن أخى الصغير (عمرو) وضع هذا الشريط بطريقته الشقية ، أدرت الشريط وسمعت صوتى .. وجدته صوتا حسنا ، عندما سمعه الأطباء لم يصدقوا أن هذا صوتى بالفعل ، زارتنى اليوم سيدة أرملة مصرية قالت أن زوجها توفى العام الماضى وترك لها ولدين وراحت تتكلم ولا أدرى لماذا أفاضت فى الحديث عن أفلام الجنس ؟ التى تعرض على شاشة التليفزيون خوفا على أولادها الذكور – كنت أعتقد أن التليفزيون الإنجليزى لا يعرض مثل هذه الأفلام أنه محافظ إلى حد ما وفقا لما أشاهده وأنا على فراشى ، خشيت على نفسى من التفكير فى هذا الأمر ، لماذا يصر الجميع على الحديث عن الجنس بهذا الشكل الممل ؟ تظاهرت بالنوم ، كانت سيدة طيبة .. تذكرت حربى مع المرض ، جاءت وقالت : إنها أستاذه بالجامعة كانت خائفة فسوف يجرون لها الجراحة غدا ، قلت لابنتى رافقيها ، لم تكن تجيد الإنجليزية رغم كونها استاذه بالجامعة ، تعبت حتى جاءت إلى هنا رغم ما تملكه أسرتها من نفوذ ، تحدثت عن أشقائها وأزواج شقيقاتها الجميع فى مناصب قيادية يملكون سلطات واسعة لهذا استطاعت أن تأتى إلى هنا ، يختلط لديها الخوف من الجراحة مع الخوف من عدم حصولها على منصب رئيس القسم ، كانت فى مثل تخصصى العلمى ، وكانت تعتبرنى أستاذا لها ، دعوت لها ، هنا نتبادل كتب الدعاء ، العديد من الكتب يأتى بها الزوار وخاصة الباكستانيون ، دخل بانديا بعد انصراف الجميع لم يعد أحد بالغرفة سواى سألنى مرة أخرى .

– كيف ترى الأشياء ؟

جلس ، شعرت أنه لم يحضر لرؤيتى كطبيب ، إنما جاء الليلة كصديق ، أحببته كثيرا وفرحت بزيارته ولكن سؤاله صعب ، منذ أن عرفت طريق القراءة وأنا منهمك فيها أكرمنى الله بأن وفر لى مخزنا هائلا من الكتب ، مخزن يتجدد كل شهر وأحيانا أكثر من مرة فى الشهر الواحد (الفسخانى) الذى علمنى كان يشترى المكتبات من أصحابها ، مجرد كتب ، ورق لا لزوم له عندهم ، قذارة يجب التخلص منها ، قمامة يجب القذف بها فى الخرابات ولكن الرجل يخلصهم منها ويدفع لهم أيضا بعض النقود ، واكتشفت هذا الكنز مبكرا فكنت أقضى الساعات الطويلة واقفا على براميل السردين المملح ، فقط لكى أختار الكتب الصالحة للقراءة ثم أحملها إلى غرفتى بالدار أدفع له الثمن قروش قليلة لكل أقة من الورق أحيانا أعيدها لكى أخذ مقابلها الجديد من الكتب خمس سنوات يا (بانديا) وأنا أفعل هذا ، لا أدرى كم كتابا قرأت ، ولا أحصى مواد تلك الكتب أنها فى العلوم والفنون والآداب كنت متلهفا على المعرفة ، يسعدنى أن أظل مع الكتاب طوال يومى ولا أشعر بالملل أحسد السجناء فى امكانهم التفرغ للقراءة أما أنا فيجب معاونة أبى فى العمل والذهاب إلى المدرسة وتناول الطعام يجب أن أتفرغ للقراءة ساعدتنى

المدرسة فى هذا الأمر فلم تكن الدراسة فى تلك المدرسة الثانوية منتظمة بحكم كونها مدرسة خاصة ولا يوجد بها مدرسون لهذا أعطتنى الفرصة لأتفرغ للقراءة بينما يظن أهلى أننى مشغول بحضور الدراسة ، بالإضافة إلى أن تلك السنوات كانت مضطربة سياسيا تخللتها قيام ثورة يوليو وما صاحبها من تغيرات وما سبقها من مظاهرات كانت شبه يومية ، الحمد لله لقد منحنى الله الكثير من النعم لا أستطيع أن أحصيها ، قلت لبانديا .

– أنا أرى الأشياء بعكس ما يراها الناس .

قال فى تمهل : كيف ؟

– قلت وأنا أحاول أن أتناسى كل الألم الذى أشعر به : أستطيع هذا فأنا دائما منقسم على نفسى ، لى عوالم خاصة بى ، حتى لو حسبنى الناس غبيا ، فهذا لا يهمنى ، المهم ما أود أنا أن أفعله ، عندما تصديت لهوس منظمة الشباب وأنا أحد الذين شاركوا فى تأسيسها لم أخش أحدا كنت أعلم أنهم سوف يسجنوننى ، لم أخف من السجن أو حتى الشنق فهو خير على كل حال ، قلت لبانديا الهندى :

– كل شئ يحدث هو خير من عند الله ، المهم أن تراه أنت كذلك كنت قد قرأت عن البوذية والزرادشتية وعن فلسفة فرق الحشاشين والصوفية والشيعة وفرقهم ، وعن فلسفة المهاتما غاندى الذى ظل يعمل وفقا لحكمه ملخصها أنت غنى لأنك لست فى حاجة إلى الآخر ، أؤمن بأننا فى حاجة إلى الله ، إلى الإيمان به والتمسك بهذا الإيمان فى أجمل الأوقات أو فى أحلكها ، أنت مع الله فى كل شئ سوف يحدث بإرادته ، أردت أنت أم لم ترد ، فلماذا لا توافق على هذا وتسأله اللطف بك . ما يحدث لك فهو خير ، قلت لجدتى : أن جدى سوف يموت بعد يوم ، ومات وأخبرت جدى من قبل عن الأشياء التى كان يفقدها ، كانوا يسألوننى فأجيب دون أن أدرى لماذا سألونى ولماذا أجبتهم ، هذا يحدث ويتكرر جدتى تعلم هذا وتعلم أننى لا أنام مطلقا وأن حالتى صعبة ، تأثر بصرى بذلك وفقدته حينا ، حرمنى من الدراسة الجامعية فترة ، ولكن الله أنعم على بنعمة البصر مرة أخرى ، قال بانديا :

– وكيف تذهب إلى مكان وأنت فى مكان ؟

قلت فى استعطاف :

– سامحنى لن أبوح لك بشئ .

قال فى هدوء :

– ولكن هذا ليس شيئا عجبا !

فى الصباح أحضرت ابنتى بعض الفاكهة ، وقالت أنت تحب هذه الفاكهة .

قلت فى استبشار :

– بل تمنيتها .

راحت فى صبر تجهز لى حبات الفاكهة كما أرغب ، أشرت إليها أن شرائط التسجيل قد نفذت ، سألتنى ماذا تكتب يا أبى ، ابتسمت وهى تضع شريطا جديدا فى جهاز التسجيل الذى ينيب عنى فى نقل كل ما أخبرك به ، أو أخبر نفسى ، أننى أتسلى ، ولكن فى نفس الوقت بى رغبة أن أقول كل شئ أو على الأقل ما علق بذهنى ، لا يهم إذا كان هذا سوف ينشر على الناس أم لا ، سعدوا به أم غضبوا تحدث عنه النقاد ، إن لم يتحدثوا كما هى العادة ، أنا يا بانديا نبت محشور إذا تحدثوا عن المسرحية قالوا : أنت روائى ، وإذا تحدثوا عن الرواية قالوا : أنت مسرحى ، وإذا تحدثوا عن القصة قالوا : أنت معدود من النقاد ،وإذا كنت فى قريتى قالوا : أنت من أهل البندر ، وإذا كنت فى البندر قالوا : أنت فلاح – وإذا تحدثت بالعربية قالوا : أنت رجعى سلفى متخلف ، وإذا تحدثت بالإنجليزية قالوا : أنت تحاول أن تتعالى علينا – أنا محشور بين تروس لا ترحم ولكننى أتغابى أحاول أن لا أشكو لكى أظل – على الأقل أمام نفسى – عزيزا ، لا يهم ، ماذا يحدث لو تحدثوا عنك ومع هذا أنهيت دراستى الابتدائية وتخلفوا من حولى كذلك فى دراستى الثانوية وتخلفوا هم ، وفعلت هذا فى كل عمل أشتغلته أو عملت فيه كانوا يسرقون الأقلام من أمامى ثم يبعونها لى ، عبيط ، سمعتها من أحدهم ، كانوا يجمعون بعض النقود للمشاركة فى مناسبة مختلفة وكنت أول من يدفع ولم تكن هناك مناسبة ، ومع هذا كنت أدفع لأن هذا يسعدهم ، يسعدهم أنهم استغلوا غبائى ربما أكون غبياً وأنا لا أدرى فلماذا أقف أمامهم فى محاولة لاقناعهم بأننى أفهم – على الأقل – مثلهم ، وأفهم ألاعيبهم ، أن هذا يسعدهم وكفانى أنا هذا الشرف، فقد كنت سببا لاسعاد بعض الناس ، لا يهم المال ولا الأقلام ولا الأوراق ، تعودت على هذا ، هذا الجراح الذى استأصل عصب اليد اليمنى وأصابنى بكل ما أنا فيه ، ماذا أفعل له ، لقد قذف بى إليه طبيب أستاذ صديق هذا الصديق كان يعرف أنه جراح محدود الخبرة ! ولماذا .. من أجل رحلة علمية إلى أوربا ، من أجل حفنة من النقود .. أم كان حسن النية ولم يقصد . ربما – ولكن هذه المرة لا أستطيع التظاهر بالغباء ، فلعبة العلاج على نفقة الدولة مهما كان شكلها مجرد تجارة تدر مالا على الكثيرين ، أكتب هذا بعد مضى أكثر من شهرين متنقلا بين المستشفيات حتى يخيل لى أن هذه المستشفيات أصبحت دارى التى يجب أسكن بها مقيما لا ماراً بها ، ربما جعلنى هذا أرى الكثير وأتعامل مع الكثيرين ، ولا أدرى لماذا أكتب أو أسجل كل هذا . إنما أردت أن أحارب بالسيف الذى حملته

طوال عمرى ، أحارب نفسى أولا وأخيرا لهذا ربما يكون هذا البوح خارج عن تقاليد الكتابة الأدبية ، أو ربما يكون وفقها ، ولكنه بوح على حال يريحنى .

زارنى اليوم ثلاثة من الرجال ، ظلوا يتحدثون وكأننى غير موجود بالحجرة سألت ابنتى من هؤلاء ، قالت : لا أعرف يا ابى ، سألتهم من تكونون ؟ قال أكثرهم سمنة :

– آه .. أنت (بتاع أكسفورد) !

ماذا ؟ (بتاع) أكسفورد ، هل الأمر تحول إلى نكته ، أم إلى أمر ساخر أم ماذا ؟

من تكونوا ، خرجوا ولم يجيبوا – عرفت بعد أن غادروا الغرفة أنهم لجنة من وزارة الصحة فى جولة (تسويقية) أقصد تفقدية ، ولكنهم لم يسمعوا منى شيئاً ، ولم يحاولوا أن يتصفحوا تقارير حالتى ، لقد جاءوا وذهبوا لم يستغرق وجودهم بالمستشفى إلا بضعة دقائق ، كان بالمستشفى ما يقرب من عشرة أشخاص من مصر – عشرة مرضى يرقدون فى حالة يرثى لها ، فى أشد الحاجة إلى مجرد كلمة طيبة .. أخبرنى مديرنا بمكتب الإشراف الطبى أنهم لجنة قدمت من مصر فى مهمة عمل لبحث مشاكل العلاج على الطبيعة ، ربما كان يقصد على طبيعة حديقة هايد بارك وما حولها من أسواق ومحلات وأماكن عديدة أسمع أنها تأخذ وقتا طويلا من السائحين والعرب الذين غزوا لندن هذه الأيام .. أما عم شنوده الذى يبكى خوفاً وهلعاً وتبكى زوجته من الحسرة لأنهما لا يملكان (المال المطلوب) ، وتبكى (محاسن) من قسوة الألم الذى يطبق على صدرها ولا تملك ابنتى لها إلا استدعاء (الدكتور باندیا) كل ساعة تقريباً ، كنت أكاد أجن من أجلها وأنا أتابع حالتها من ابنتى المشغولة الآن بخدمة كل هؤلاء المرضى من أهالينا ، إنهم فى أشد الحاجة إليها لكى تنقل وتترجم لهم أوامر الأطباء والممرضات وتخبرهم ما يطلبونه وهى فى نفس الوقت مثلهم من بلدهم ربما تفهم عنهم مالا يفهمه هؤلاء الأجانب .



الفصل الرابع

يبدو أن الدهشة من صورتى التى انعكست فى المرآة . جعلت ابنتى تجهل ملامحى تبدو مثل وجه تمثال قديم لرجل مات منذ زمن ، العينان غائرتان ، والشفاه مقلوبة ، تبدو الأسنان صفراء الذقن مثل الشوك ، حاولت ابنتى أن تبعدنى عن المرآة ، لكنى أردت أن أعرف نفسى ، اشتقت إلى صورتى وحشتنى ، صدرى به الكثير من الأشواك ، أتحسسها أشعر وكأنها مجدولة من الخوص أو القش ، يدى اليسرى ترتعش من ملمس القش ، يدى اليمنى لا أحس بها ، قطعوا يدى ، قالت ابنتى إنها أسلاك يا أبى ، خياطة فى الصدر بعد العملية الثانية ، لذلك أغلظوا الربط لهذا تشعر بالألم ، وعندما تأتى الكحة فان الآلام تصبح فوق الإحتمال الآدمى ، والكحة لا تريد أن تخرج ، تصر الطبيبة : ولكنى لا أستطيع ، تتوقف فى منتصف البلعوم ، لا تصل إلى الزور ، أضغط على قطعة القماش التى وضعوها على صدرى هكذا ، حاول الألم لا يطاق ، ولكن حاول ، أحاول ، أخيرا أبصق وأرتاح قليلا ، ليعاود الألم من جديد ، وأحاول من جديد ، ويصبح النجاح فى إخراج آثار الكحة نصرا كبيرا .

عندما قررت الذهاب إلى الجامعة ، سافر معى خالى وعمى وأبى ، قدمنا الأوراق ، وحددوا لنا موعد للاختبار الطبى ، كنت أشكو من نزيف متقطع من أنفى ، وصداع حاد ينتابنى كل بضعة أيام ، يعالجنى أبى بوضع الثلج لكى يتوقف النزيف ، وأتناول جرعات من الأسبرين ، تحدد موعد الكشف الطبى ، وقررنا العودة إلى بلدتنا ، شعرت بالسعادة لأننى سوف أدرس بالجامعة ، وأصبح طبيبا ، قال الطبيب : حاول أن تشرب المزيد من السوائل ، ولكنى لا أستطيع ، أضع كوب الماء وما يكاد الماء يدخل إلى فمى حتى أسعل ويضيق صدرى ولا أقدر على الشراب ، صاح الطبيب أشرب شايا ، أو مياه غازية المهم أشرب كمية كبيرة من السوائل حتى يمكن تعويض السائل المفقود ، دخل (عم شنوده) كان خائفا يرتعش ، العملية سوف تجرى له غدا ، ولكنه خائف ، أصر أبى على أن نصعد إلى الطبيب كانت عيادته فى عمارة بجوار موقف السيارات ، كانت لافتته مكتوب عليها أنف وأذن وحنجرة وعيون – ولا أدرى كيف تجاور طب العيون مع الأنف والأذن ، صعدنا السلالم إلى الدور الرابع كان أجرة الكشف جنيها كاملا .. ،

دخلنا ، الطبيب متقدم فى السن إلى حد كبير ، يرتدى قلنسوة من الجلد على رأسه ، يبدوا عظيم الوجه بارزا ، لا يبتسم - نظر نحوى وأخذ يفحص أنفى ، سال أبى عن صحة أجدادى وأمراضهم ، أنزعج أبى وثار ، قال أنا أبوه وكما ترانى وهذا خاله وذاك عمه وكل الأسرة هكذا ، أيضا جده لأمه وجده لأبيه ، نحن من سكان الجبل توارثنا القوة من أجدادنا ، وتصاعدت ثورة أبى حتى أمسك بخناق الطبيب وطالب برد الأجرة لأنه ليس طبيبا إنما دجال ، حاول الرجل أن يشرح لأبى ولكن أبى كان قد بلغ منه الغضب مبلغه ، لم تنفع معه توسلات خالى ولا عمى ، هبطنا إلى موقف السيارات وكنا فى حالة من الحزن والكآبة حتى أننا لم نتلكم ، سرق هذا الرجل فرحتنا ، سجلت هذا الموقف فى إحدى قصصى لا أذكر الآن أسمها ، أقترح عمى أن نأكل كان أبى يحب الأسماك ، هاهو محل السمك . دخلنا وأكلنا ، وعندما ركبنا السيارة أشترك كل الركاب فى حكايتى نصحنا بعضهم بالعلاج بالكى على يد أحد شيوخ القبائل ذهبنا إلى هناك ووضع شيخ القبيلة قطع من الخشب ملتهبة أسفل أنفى لسعتنى النار وصرخت ، جريت رعبا ، دخلت الجامعة وبعد شهر كنت قد فقد بصرى تقريبا ، كان الأمر قاسيا ، درت مع أبى على الأطباء نصحوه أن يأخذنى إلى البلدة ولا داعى للشهادة وبالتالى لا داعى للوظيفة ، منطق .

قال البروفيسير يعقوب : لماذا اجروا لك الجراحة ما كنت فى حاجة إليها ، كيف ؟ لقد قرر الأستاذ فى مصر أن الجراحة هامة وضرورية وكذلك قال الأستاذ فى مستشفى أكسفورد وأجرى لى جراحتين ثم تقول أنها لم تكونا ضروريتان ، مجرد فار للتجارب كل هذا الألم ودون مقابل ، قال عم شنوده أنه خائف ، كنت قد لمحته من أسبوع ، كان مثل الفأر الخائف فى المصيدة زوجته تكرر قصة مرضه تزيدها فى كل مرة ، يتأثر السامعون ، رجوت المستشار الطبى لسفارتنا أن يتدخل ، كانت زوجته قصيرة القامة حزينة إلى حد الهوس ، لا تردد إلا كلمات اليأس .

اكتشفت أن المرضى يحيطون بى - سمعتهم ، وحمدت الله أننى بدأت أشعر وأسمع وأحيانا أبتسم ، أردد بعض الكلمات ، تساعدنى ابنتى فى الحديث مع الآخرين تود أن تشركنى مع الآخرين حتى لا أظل هكذا مثل كيس مملوء بالألم لم أكن دوما أتألم ، كنت فى ذكر الله ، أردد أسمه باستمرار أشعر بسعادة داخلية تهزنى وأنا أسبحه ، أبكى كلما طاف بذهنى إثما ارتكبته أو ذنبا لم أكن أقصد فعله ، بكيت كثيرا ، ظللت راقدا بمستشفى العيون فى باب اللوق - كل يوم يعطوننى حقنة فى العين ، داخل العين ، أبى ينفق الكثير ، وأنا غاضب وغير مستقر ، كلما خرجت وذهبت إلى حيث كنت أسكن فى حى شبرا بجوار عمى المقيم هناك ، عدت إلى المستشفى ثانية بعد مغامرة التوهان فى الشوارع لصعوبة الرؤية ولرفضى معاونة من أحد ، قلت لأمى : إذا

جاء أحد من أهلى ورأيت الشفقة والأسف مرسوما على وجهه سوف أرديه قتيلا فى الحال لا أريد شفقة ، سوف أشفى بأذن الله حتى لو لم أشف ، سأصير كفيفا ، وهذا لن يعوقنى عن حقيقة هدفى ، أنا يا أمى أريد أن أكون أديبا ، طه حسين كان كفيفا ومع هذا أصبح عميد أدباء العرب وغيره كثيرون ، تبتسم أمى وتدس فى فمى قطعة من صدر دجاجة ، أحاول أن أشرح لبا ولكن أبى يحسم الأمر بدعوتيا للعودة إلى بلدتنا ، لا أحد بجوارى ، أظل أفكر كنت أود أن أكون عالما من علماء الكيمياء وهكذا كتبت فى استمارة الثانوية أو التوجيهية كما كانوا يسمونها ، كنت أسابق زملائى فى حل مسائل الكيمياء الصعبةُ وأيضا أسئلة الطبيعية ، كان أساتذة هذه المادة يطردوننى من الفصل لأننى أسألهم أسئلة لم يستعدوا لها ، كانوا يرددون : عندما تذهب إلى الجامعة سوف تعرف الإجابة ، كنت أبحث عن الإجابات فى الكتب التى أعثر عليها عند الفسخانى ، لهذا كنت أبكى بشدة وأنا راقد بمستشفى العيون بباب اللوق ، وعندما قرروا سفرى منذ أعوام لإجراء أول جراحة فى القلب ، كنت أردد أخيرا ليسدل الستار على كل الأحلام ، لم أعد عالما فى الكيمياء ، ولم أعد طبيبا ، ولم أعد – وهذا هو الأهم – أديبا ، وبمعاونة أحد زملائى فى الجامعة ، كنت أتمنى أن أذكر اسمه الآن ولكن اسمه هرب منى ، ساعدنى فى تحويل أوراقى إلى كلية الآداب حيث تخرجت فيها بالفعل ، كان يقرأ لى الكتب وكنت أشرح له ما غمض عليه ونجحت فى السنة الأولى ، وتم بأذن الله شفاء بصرى ، ودخلت الجامعة لأول مرة وأنا فى السنة الثانية ، كانت الثورة قد أقامت سورا من الأسلاك الشائكة حول الجامعة وكان جنود الجيش بمدافعهم يحيطون بالسور وعلى الطالب أن يرفع بطاقة الجامعة إلى أعلا حتى يراها كل الجنود ، وداخل الجامعة كان الحديث يدور همسا عن أمجاد الجامعة فى السنوات السابقة قبل الثورة ، ودخلت الجامعة ..

عم شنوده قبع فى حجرته ساكنا ساكتا ، لا تزال امرأته تشكو "حسنين" من المنصورة ذهب مع والده الطبيب فى الجامعة ، قالوا أنه فى حاجة إلى جراحة شرايين ويجب أن يسافر ، وافقت شركته على السفر ، حددت المبالغ التى تحتاجها الجراحة ولكن لابد من إذن الحكومة ، العلاج على نفقة الشركة ولكن الاذن بالعلاج يجب أن يصدر من الحكومة ، ودار حول نفسه ، وحول الأطباء – وقضى ليله معى فى حديث حول قصة سفره كيف ارتحل إلى العاصمة وقابل أساتذة القلب ، ودفع (الفزيتة) قالوا نفس الكلمات ولكنهم كانوا يدفعون به إلى غيرهم ، جاءت به إلى (عائشة) مسلمة من بولندا تصلى بانتظام ومحجبة ، تشفق على المرضى العرب وتقدم لهم كل معاونة ، شابة جميلة بيضاء ، وقلبها أبيض قالت أن مستر (حسنين) خائف ، يلوذ بى الخائفون . اللهم ساعدنى على مساعدتهم .. ماذا يا حسنين ما بك ، قال تعبت ، كنت أشرب كل صباح كوبا من الحلبة بالحليب ثم أسير حتى مقر عملى ، أنه بعيد عن منزلى حيث أسكن فى

إحدى القرى ، أنام بعد العشاء ، لا آكل إلا الجبن القريش قالوا انسداد فى الشريان ، يحـول إلى القومسيون ، فاتتنى الجلسة ، حددوا جلسة أخرى نحـونى بالعرض على أستاذ للقلب ، ذهبت إليه كان أبنى الطبيب معى ، دفعنا مبلغا فـوق طـاقتى ، أرشدنا الاستاذ إلى استاذ آخـر ، كنـا نسمع عن شهرة هذه الأسمـاء وكـان ولـدى الطبيـب يقـول أنـهم الأفضـل ودفعنـا حتـى الضريبـة دفعناها ، سألته وما الضريبة ، ابتسم لا أعرف أنهم يقولون لنـا ادفعـوا فـاذا دفعنـا قـالوا ادفـع الضريبة ، ها أنا بعد عامين هنا ، ربنا يستر ، كانوا قد تجمعوا حولى ، سمعـت مـالا يطـاق مـن قصص أطباء القلب الذين انتشروا فى كل الأقاليم كـل منـهم صنـع لنفسـه شـهرة لا حـدود لهـا ، والمرضى يدفعـون لكـى يدخلـون إلى جلسـة القومسـيون ، الأوراق تحتـاج إلى (أسـطره) أو لإعـادة تحاليل أو لرسم قلب وأشعة فوق بنفسجية ، وغير ذلك وعلى المريض أن يدور ويدور حكايـات لا أقدر على تسجيلها ، مرضى من الإسماعيلية والإسكندرية والفيوم ، جاءوا بعد معانـاة ومكـابدة أرهقتهم ، سمعت أسماء أطباء مشاهير كانوا يظهرون على شاشة التليفزيون يبتسمون ويتكلمـون عن الإنسانية والرحمة ، ولكن إذا ما ذهبت الإنسانية إليهم فإنهم مجـرد تجـار يبيعـون المـرض والوهم والكلمـات المبهمة ، آلاف من أطباء القلـب ، كنـت أعـرف بعضـهم وأسمـع عـن البعـض الآخر ، كليـات الطـب كثـيرة ، وفـى كـل كليـة قسـم أمـراض القلـب ، وفـى القسـم الكثـير مـن التخصصات ولكن تخصص أساتذة ، وهكذا نحن أمام غابة متشابكة من أطباء القلب ، وكل منـهم يكتب أعلا التذكرة الطبية أنه أستاذ وزميل كافة المراكز العلمية فى روسيا والنمسا وألمانيا ولابـد مـن ذكـر إنجلـترا وأمريكـا وسـوف تجـد أيضـا عـدة أرقـام تليفونـات لعيـادات ومراكـز طبيـة ومستشفيات خاصة ، هكذا فهو دوما مشغول ، ولا وقت عنـده ، لا أدرى كيـف يذاكـر ويـدرس ويقوم بالتدريس ومراعاة مرضاه فى عياداته ومستشفياته ، ومـع هـذا عندمـا تدخـل إليـه تجـده غاضبا ساخطا على الوضع السياسى فى جمهورية نيبال ، تكرر معى شخصيا هذا الأمر ، وكنـت أشفق على نفسى وعلى المرضى الذين يجلسون فى ملل قاتل فى انتظار الدور ، ومع هـذا فالأسـتاذ مشغول بمرض حماته أو بإرتشاف القـهوة وبعضـهم يشـغل نفسـه بـالتدخين ، مـاذا يـهم أنـهم مرضى دفعوا المعلوم وسوف يتحملون ، لا أدرى لماذا نتحمل كل هذا الهوان ، نقع فى براثن كافة ألوان النصب والاحتيال ونتحمل .

(حسنين) دار عامين كاملين حتى أخذ موافقة للجنة الطبية الحكومية ثم دورة ثانيـة كاملـة حتى يحصل على موافقة الحكومة ، وأخيرا هاهو يجلس بجـوارى فـى انتظـار إجـراء الجراحـة مثله مثل كل المرضى الذين تحلقوا حولى الليلة الماضية ، وحكـى كـل منـهم حكايتـه وحمـدت الله أننى لم أتعذب هذا العذاب ، مؤسستى كانت عند حسن ظنى بها هذه نعمة من عند الله أنعم بـها على ، الحمد لله ، لقد سمعت هذه الليلة كيف يكون الإنسان معلقا مـن قدميـه فـى انتظـار قـرار

الحكومة ، أما أن يأتي قبل أن يلفظ أنفاسه وإما لا يأتي ، ... دخلت الجامعة وأنا كاره ، فقد كنت أرغب في دراسة الكيمياء على أن أعيش حياتي بعد ذلك في عالم الأدب والآن أنا في كلية الآداب ، حضرت محاضرات (لطه حسين) و (لسهير القلماوى) و (لإبراهيم سلامة) وأيضا محاضرات (لتوفيق الطويل) و (يوسف مراد) .. كنت قد اخترت الدراسات الاجتماعية ، بعيدا عن الأدب حتى يكون هناك فرقا بين ما أدرسه وما أنوى عمله ، مقدمة ابن خلدون كنت قد درستها وأنا في المرحلة الثانوية خلال رحلة القراءة الممتعة ، معظم ما ندرسه بالسنة الثانية بالكلية كنت قد قرأته أصبحت طالبا مشاغبا ، الدراسة في المدارس السابقة علمتني أن لا أكون تلميذا منتظما ، حاولت أن أنشغل بعيدا عن المحاضرات المملة والمكررة والتي لا تفيدني ، معظم ما يقوله الأساتذة ليس فيه جديد صحبني زميل إلى سور الأزبكية ، لم أكن قد رأيته على رغم أنني كنت أحضر إلى العاصمة مع أبي كثيرا ، وكنا أنا وهو نتجول جولات حرة بشوارع وأحياء القاهرة ، ولكنني لم أكن قد رأيت سور الأزبكية هذه (النعمة الكبرى) التي أنعم الله بها على أهل القاهرة .. ياه كل هذه الكتب ، وقفت مشدوها لاحظ زميلي ذلك ، أرشدني إلى أحد الأكشاك ، حاولت اختيار الكتب ولكن هناك الآلاف من الكتب التي جذبتني . بدأت أعرف الأسعار ، فقت طاقتي ماذا أفعل ولكن فجأة وأنا غارق في بحر الدهشة والخجل وقلة الحيلة ، جاءني صوته من خلفي ، تعارفنا ، جاري في حارة القرية ، إنقطع عن الدراسة واشتغل تاجرا للكتب هنا في سور الأزبكية ، قال خذ ما شئت عقدت معه اتفاقا أن أخذ قدر طاقتي ثم أعود إليه لأرد له ما انتهيت من قرائته وأدفع ثمن ما أود الاحتفاظ به ، لم نختلف حول الثمن كان عرضه سخيا وكريما وحرص على أن ينال رضائي ، شكرته واشتريت مجموعة الكتب قررت الاحتفاظ بها وأخذت مثلها على سبيل الإعارة إلى حين ، وهكذا عوضني الله خيرا عن دكان الفسخاني ، وها أنا عرفت طريقا جديدا سهلا ومعقولا للقراءة وهكذا إمتدت صداقتي (ببكر) وهذا هو اسمه ، ظل صديقي لزمن طويل حتى وضعت الحكومة نهاية مأساوية لسور الأزبكية ، كما وافقت على سفري إلى هنا ، إلى أكسفورد حيث أجروا لي عدة جراحات كانت سببا في رقادي الطويل هنا ، أرى الممرضات تتغير نوبات عملهن - كل واحدة لها طابعها ومزاجها وطريقة معاملتها للمريض ، أصبحت صاحب بيت ، لا داعي للقلق ، إنهم قادمون ، الحمام يمكن أن يتأخر ساعة لا يهم - يأتون إلى حجرتي لكي يقصون على ماذا فعلن في بيوتهن ، هذه أقامت وليمة ليل السبت ، وهذه ذهبت لمشاهدة الباليه ، أما تلك فقد نامت يومين كاملين ، أنها تشعر أنها سوف تموت وهي تجري ، أنها فعلا تجري دائما ، سريعة الحركة قلت لها (ياسو) يجب أن تتمهلي قليلا ، قالت في حزن : الحياة قصيرة .

جاءني الدكتور بانديا ، قلت لقد غبت عنى يومين كـاملين قـال : وأنـت أيضـا ، وحشـتنى ، أخذ يتفحصنى بعناية فائقة ثم قال لقد اطلعت على نتائج التحاليل وهى مبشرة إلى حد ما

قلت : هل آن أوان العودة ، أبتسم وقال لا تفكر فى هذا الأمر الآن على الأقل ، صرخت علـى طفلى محمد .. لماذا لا تناديني يا محمد ، لماذا لا تقول عد يا أبى ، .. كانوا يقفون على عتبة باب المستشفى وأنا أدخل إلى عربة الإسـعاف ، أجلسـونى بعـد أن وضعـوا كمامـة الأوكسـجين نظـرت إليهم من النافذة كانوا يرنون نحوى فى صمت ، عمرو ومحمـد ومـى خلفـهم تقـف زوجتـى ، لا يتحركون ولا يلوحون ، كانوا فى صمت التماثيل الحزينة اندفعـت سـيارة الإسـعاف حـاولت أن أستدير لأشير إليهم ، أن ألوح لهم ، ولكنهم ظلوا هكذا ، واقفون فى صمت ، ارتسـمت الصـورة فى ذهنى لا تريد أن تغادرها ، أضع السماعة على أذنى صوتـى حبيـس ، لا صـوت لى ، أريـد أن أسمع أصواتهم – تحدثوا قولوا أى شئ ، ولكن لا فائدة أنهم أيضا فـى حاجـة إلى سـماع صوتـى ، أضع السماعة أشعر بالحزن يعتصر قلبى ، أين صوتى ؟ وأين ذراعى الأيمن ؟ أيـن أولادي ؟ أريـد أن أراهم ، أسمع أزيز الطائرات ، أغمض عينى وأتخيل النيل والبحر والماء والشـوارع والأشجار وحقول البرسيم وولدى وهو يجرى نحوى ، .. ياه لقد غلبنى الخوف – البكـاء يريحنـى أحيانـا ويرهقنى أحيانا كثيرة ، جاءت (جيسى) وقالت سوف يضعون لك (كانة) جديدة ولكن هذه المرة فى الرقبة ، قلت وهل تؤلم ، قالت : هل أنت الذى يسأل هذا السـؤال ! كـل هـذا وتسـأل عـن الألم ، ابتسمت نعم كل هذا لا يكفى حتى أعرف أن الألم له أيضا حـدودا يجـب ألا يتجاوزهـا ، وأنا تجاوزت الألم والألم تجاوزنى ، أصبحنا أصدقـاء ، مرحبـا بـالألم ، ودفعـوا بـى إلى طبيـب معتوه ، هل كانوا يعرفون عنه شيئا ، أم لم يكن يعرفون ، الاستاذ الذى أرسلنى ، كان صديقـا ، تعاملت معه أكثر من عشرين عاما ، هل عقد صفقته من ورائى ، لماذا هذا الطبيب بـالذات ، ولمـاذا أخبرنى البروفيسير أننى لم أكن فى حاجة إلى جراحة جديدة ! .. هل هذا ظلم ، أم أنـه عـدل ، لا شك أنه عدل من الله حتى أعذب فى الدنيا وأدفع ثمن أفعالى السيئة وما أكثرهـا ، وأبكـى وأنـا أتذكر شريط حياتى ورغبتى المحمومة – فى الحياة ، كنت أعمل وكأننى فى سباق مع الزمن ، لا نوم .. مجرد إغفاءه لا تزيد عن خمس دقائق يتخللها ثلاثة أحلام مزعجة (كوابيس) ثـم اصحـو لكى أواصل العمل ، الماء ذلك المشروب الجميل ، يا سلام – كم أهفو إلى ابتلاع زجاجة كاملـة مـن الماء العذب ، وخاصة إذا كان من ماء النيل ، لونه أبيض صافى بـه حبـات مـن الثلـج كنـت أضـع (القلة) أعلا فمى وأدعها تدلق الماء فى رشفات سريعة ، وأحيانا يتدفق الماء منها فى دفعات وأنـا أشـرب وارتـوى ، أحلـم بـأن أمسـك الكـوب وأشـربه دفعـة واحـدة ، ولكنـى الآن لا أسـتطيع ، يستحثنى الطبيب .. أشرب بقـدر الإمكـان ، أشـرب مـاء أو ميـاه غازيـة أو شـايا ولكـن حلـقى مصـاب ، ما أكاد أضع جرعة ماء أو شراب فى فمى حتى يسـتعصى علـى بلعـه وتـأتى الكحـة ،

وأشعر بالألم فى صدرى وحلقى ، ينسكب الماء من فمى على ملابسى ، أريد أن ارتوى ، ما أحلى تلك الأيام التى مضت ، كنت أجرى وألعب ، حقيقة أنا لم ألعب مثل الأطفال ، فقط كنت أعمل مع أبى - لا وقت للعب أو الراحة حتى إذا ما انتهى العمل وهذا نادرا ما يحدث كنت أسرع نحو كتبى ماذا حدث .. شبكة من أطباء القلب ، لامعون مشهورون ، يبرقون مثل الإشارة الموضوعة على أكتاف وصدور خريجى الكلية الحربية ، أرى هذا المشهد الآن على شاشة التليفزيون تحت ضوء الشمس كل ما يرتديه الخريجون يلمع ، يبرق ، أزرار الجاكتات ، وإشارات التفوق تزهو تحت الشمس ، هكذا أطباء القلب عندنا ، لهم بريق ، مرضى مكدسون فى صالات الانتظار المظلمة ذات المقاعد الجلدية القديمة ، ومجلات متهرئة ، ويطول الانتظار ، ثم لا شئ ، تحاليل ، أشعات ، فحوص ، مناظير ، تليفزيونات وكاميرات تصوير ، وعليك أن تدفع تكاليف كل هذا ولا شئ يدون فى الدفاتر ، مجرد عدد محدود لزوم الضرائب ، وتخلع ملابسك ولابد لك أن تخلعها لأنك سوف تبيعها ، أن لم تفعل سيقومون هم ببيعها ، ودفعونى إلى هناك قالوا هذا عالم جليل ، ولما قابلته كان مثل لاعبى كرة السلة فى طولهم ، ومثل لاعبى المصارعة فى ضخامة جثته ، صوته جهورى قال : مرحبا سوف أجرى لك جراحة كبيرة ثم بعدها سوف تقضى معى الصيف فى مصيفى الخاص ، أريدك أن تقوم بنشر تفاصيل العملية الكبيرة ، عرفت أنه على علم بمهنتى لهذا جاء يرحب بى ، وأدخلونى إلى (التياترو) وهناك رأيت أن السماء حمراء وبيضاء وصفراء .. ورأيت كيف يتضاءل هذا الطبيب حتى تحول إلى ضفدع صغير ..

ولدى الحبيب محمد .. توا يا حبيبى رأيتك تقف بجوارى .

وسقطت فى وهذه الألم ، ولم أستطيع المقاومة .. لا أريد أن أتحدث ، ماذا فعلت لى كل الحكايات التى حكيتها .. لا شئ غير الألم ، لماذا اتعب نفسى كى أسلى هذا القارئ المجهول ، كل شئ إلى زوال .



الفصل الخامس

منّ الله عليّ في الايام .. ـيه واستجاب بإذنه تعالى وقدرته سبحانه أن أكون بالقرب من نوره ، أردد اسمه ، وأجهش بالبكاء وأدعو .. يا رب أعلم أنك بجوارى ، وأن تلك الحجرة على ضيقها تتسع لك ولحضرتك سبحانك أنت بجوار عبدك المريض ، أنت موجود بجوارى فى مكان محدد حيث لا يحدك مكان أو زمان لأنت أنت خالق الزمان ومنشئ المكان ، أنت الأول والآخر ، وتعلم وحدك أين مكانك وزمانك ، كل الخلائق تسبح باسمك وحمدك ، ولا شئ يحدث إلا بإرادتك ، يا الله .. يا الله .. أشعر أن روحي ترفرف فى سماء الوهية ، أشعر بقربك وقرب رحمتك ، أردد اسمك ، فى الليل وأنا وحدي فى غرفتى المعزولة .. لا أحد يسمعنى إلا أنت .. أنت الله ، لا شئ هناك إلا وجودك ونور وجودك ، وأنا عبدك وحبيبك وأنادى اسمك الأعظم .. الله !

ربما أكون قد فقدت نصف عقلى ، أو فقدت عقلى كله ، ولكنى بعونك لم أفقد إيمانى بك فأنت المعين المنان ، وأنت العافى ولا شفاء بغير أذنك ، ضعوا محاليلكم ، ضعوا الدماء والأدوية اخلعوا عظام صدرى ، افتحوا الجرح ، دعوه يتدفق دما ، فلا شئ يؤلم ، أنا فى حضرة الخلاق ، فى حضرة الذات الإلهية ، أجلس وحيدا هامسا إلى آله التسجيل ، قالوا لى حارب وها أنا أحارب ، عدتى فى الحرب دعائى ، ودرعى إيمانى ، وشفائى ترديد اسمه سبحانه ، أعجز عن الكتابة .. ياه بعد كل هذا العمر أعجز عن الكتابة كل تلك الصفحات التى سودتها ثم لا أستطيع الإمساك بالقلم ، يدى اليمنى أصابها العطب أنظر إلى الحوائط الغرفة البيضاء ، وأنظر إلى يدى وهى راقدة على الوسادة ، مر الآن زمن طويل وأنا راقد هنا ، ولكنى اليوم رأيت أبنى محمداً ، هفت نفسى إليه اشتقت إلى تقبيل وجهه ، كانوا يعلمون أننى اهفوا إلى إنجاب طفل واسميه محمداً ، تبكى العين كلما أردد اسم الرسول الكريم على مسامعى ، ولكن شاء الله أن أنجب طفلا وأسميه (عمرو) سألونى كنا نظن أنك سوف تسميه كما ظللت تحلم باسم الرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه ، ولكن لم أرد ، كنت أعرف أن الأمر لم يصدر بعد ، و عندما حملت زوجتى للمرة الثانية .. رأيت صلى الله عليه وسلم فى نومى وقلت أن كان ولدا سوف

يحمل أسمك ، ولكنه لم يرد . صلى الله عليه وسلم ومضى ، وفى المرة الثانية لم يرد أيضا ، ونخني سمعت صوتا يردد : أبشر بمريم ، وعرفت أنها أنثى ، ولما وضعتها زوجتى : كان الشوق إلى اسم محمد يكابدني ويأخذ بنفسى ، ومكان الهاتف يردد مريم ، ماذا أفعل قلت فلتكن (مى) ، حرف الميم من محمد ومريم حرف الياء من مريم ، وشاء الله وما شاء كان ، وأتى (محمد) وكنت قد أخذت الأمر .. بعد أربع ولادات ، جاءنى الأمر بأن يكون الاسم محمدا ، وجاء (محمد) ، وفرحت ، وكدت أفقد اتزاني ، وهاجرت إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهنالك رقدت بجوار القبر الشريف ، ثم اعتمرت وطفت بالكعبة ، ومكثت هناك وحدى فى ظلال الكعبة المشرفة ، ولا شئ يعادل عندى رؤية الكعبة المشرفة لا شئ على الإطلاق ، تهفو نفسى إليها ، أشد الرحال بإذنه تعالى وأجلس بجوارها ، لا تعب هناك ولا مرض ، أول مرة منذ عشرات السنين ، لم أستطيع التآلف معها ، كان الحر شديداً وكنت عائداً من سويسرا وكان اللهيب يفح صهدا لم أعهده حتى أن أنفى ظل مسدوداً ولا أستطيع أن اتنفس ، كان الزحام شديداً والضوضاء أشد ، لم أتعود على المكان .. وشعرت بالألم يعصرنى ، كيف لم أحب الكعبة ، تألمت لأن حبى لم يكن كما توقعت ، وسافرت إلى المدينة وهناك شعرت بالراحة ومكثت شهرا ، كنت أجرى مثل الأطفال وأنا أتوجه إلى مسجد رسول الله فى المدينة ، كنت أندس بين المصلين فى الروضة الشريفة ، ولما حان موعد العودة أجبرونى عليها ، زوجتى وسائقى ، حملونى حملا حتى ركبت الطائرة ، ولكن ما كاد العام ينصرم حتى هزنى الحنين إليها وأسرعت بشوق لا حدود له إليها ، وها أنا أدخل حرمها وأهلل وأكبر ، سعيدا منتشيا ، لم أعد أرى زحاما ، لم أعد أشعر بالحر ولا بالصهد ، لم أعد أحس إلا بالشوق يهزنى ، أتطلع إليها أطوف حولها أشرب ماء زمزم ، أصلى ، أتمنى أن أظل بجوارها ، دخلت الكعبة إلى صدرى وقلبى وكيانى فلم أعد أراها ، فقط استشعر جلال الله ، أجلس خاشعا مريدا لتذوق حبى عبادة الله ، استشعر جلاله وأنا جالس قبالتها ، وفى كل عام ، وعندما يشتد الشوق أهاجر إليها ، أراها فى منامى وصحوى .

عندما رقدت هنا منذ أعوام ثلاثة ظللت بها زمنا حتى أفاقنى أخى بعد انتهاء فترة الإنعاش أما هذه المرة فلم أذهب رغم أننى كنت تواً عائدا من هناك ، ولكنى دخلت (التياترو) ودخلت دوامة الجراحات وقد استعصيت على الكعبة فلم أرها فى صحوى وفى منامى ، وحاولت استحضارها فلم أستطيع ، حتى رأيت أبنى محمدا يقف أمامى هذا الصباح يبتسم قلت : يا بشراي .. هذا فأل حسن واستبشرت خيراً ، وجدته كما عهدته أبيض الوجه تشوبه حمرة خفيفة ، صامتا لا يتكلم ، قلت يا محمد ألا تنادى على أبيك ، ألا تقول له تعالى يا أبى ، أو وحشتنى يا كبد الفؤاد ، يقولون عنى كسول متأنف ، ويزعجوننى بالنصائح قف ، تمالك

نفسك ، حارب ، لابد أن تحارب معركتك ، يجب أن تثابر ، يجب أن تشرب ، تأكل ، تمشي ، تتحرك ، لماذا تعتمد على غيرك ، اعتمد على نفسك ، أحاول وأحاول ولكن أفشل ، أنهد راقدا ، عقلي يدور مثل ساقيه خربة ، يدور ويدور ولا شئ ، ويختفي ولدى محمد ، أين ذهب ، أجلس مستكينا ، جاء أبي بشعره الأبيض وقامته مرفوعة مفرودة نظر نحوى بعطف ، يبدو أنه يعاتبني على ضعفي ، أشعر بالخجل ، يختفي ، لا أرى أحداً ، تسود الظلمة المكان ، تأتي ابنتي وتنير المكان ، أخبرها بأن محمدا كان هنا ، لا يبدو عليها الدهشة ، تبتسم وتحدق ، كيف أشك أنا وهي تحدقني ، إذن لقد كان هناك حقا أسألها في صراحة وأين كنت عندما شاهدتيه تقول في ثقة :

معهم على التليفون ، قالوا : أنهم بخير وأنهم كلوا حلاوة المولد ومحمد لعب كثيرا حتى نام بين أحضان أمه الحاجة ، تتحد أمها حى ، أبتسم أحملق في وجهها إنها تشبه شقيقها الصغير ، عاشت محنة المرض معي ، قالوا : لابد أن تأكل ، ولكن لا أقدر ، وضعوا الطعام في فمي ، لا رغبة لي . ولا أستطيع البلع حلقي يؤلمني ، اتهموني بعدم الرغبة في الشفاء فالطعام معناه الشفاء ، وأنا لا أريد طعاما ، أرسلوا الطباخ إلى حجرتي الذى سألني عن نوع الطعام الذى أفضله قلت منذ أربعة أعوام وأنا لا آكل إلا (الكوسة) المسلوقة والزبادى ، قال حسنا لدينا أنواعا كثيرة من الزبادى ، قالت ابنتي : (إصنع لأبى أرزا باللبن وحاولت أن تشرح له الطريقة ، جاء في اليوم التالي سعيدا وهو يحمل طبقا من هذا الأرز باللبن - حاولت أن آكله ولكني لم أستطع ، قال : أجرب صنفا آخر أنه لا يعرف إلا طعام المستشفى وبعض أنواع من الطعام الهندى ، قلت : فنجرب الطعام الهندى .

قال (باندیا) : أن التحسن يتم بصعوبة ونحتاج إلى وقت الطويل ، زارني البروفيسير وقال : أمام أسابيع أخرى قلت محتجا : ألا تنتهى تلك الأسابيع الممدودة في كل مرة تكرر هذا ، أبتسم وقال : ما باليد حيلة ، كان يتكلم بالعربية ومساعدوه من حوله صامتون ، يحاول أن يكون لطيفاً وأحاول أنا .. أستسلم ، (عائشة) جاءت بمواعيد الصلاة هذا الأسبوع والفتاة السعودية تبدو قلقة جاءت من مستشفى (الهيرفيلد) وهي حزينة لم يقولوا لها متى ينقلون إليها قلبا جديدا ورئتين ؟ تتصور أنها جاءت إلى لندن لكن يضعوا لها قلبا ورئتين ثم تعود إلى أسرتها ، أنها صغيرة السن إلى حد كبير ، تزوجت منذ عامين ، كانت تلعب مع البنات في الساحة وكانت تجرى وتقفز وتنط وتكنس وتنظف الدار ثم قالوا : لها سوف تتزوجين ، والدها دس المهر في جيبه خمسين ألفاً من الريالات ، وقام زوجها بتكاليف الفرح والزفاف وأهداها هي وأمها ذهبا ، ثم ساقوها إلى داره ، كانت دار أسرته في نفس القرية ، زوجها لا يكبرها كثيرا ، يعمل بأحد

المصانع بالقرب من الرياض ، فجأة شعرت بالتعب وألم في الصدر ، نقلها الطبيب إلى الرياض ، وهناك وضعوها في مستشفى كبير ، قالوا : أنها في حاجة إلى قلب ورئتين ، ومن يومها وهي تحلم بهذا الأمر - لعلها تعود وتلعب في الساحة كما كانت ، نقلوها إلى لندن بعد عامين من المعاناة داخل المستشفى الكبير في الرياض ، قال البروفيسير : سنحاول بإذن الله ، شعرت بالأمل من جديد ، ولكن يبدو أنه أمل ضعيف لأنه لم يحددوا بعد موعد العملية ، قلت لها : الصبر ، ابتسمت في وهن ، كانت تأتي إلى حجرتي تجلس على مقعد تحدثني ثم تمضي ، صغيرة كطفلة في التاسعة ، لا أصدق أنها زوجة ومنذ عامين ، زوجها يأتي ويدخن بشراهة شديدة ، يتحدث هو الآخر عن عملية نقل القلب ، ثم يمضي إلى مسكنه ، دائما تفوح منه رائحة دخان السجائر ، يهتم كثيرا بها يتقاضاه من سفارتهم يقول أنه من أسرة فقيرة وأنهم في حاجة إلى راتبه ويخشى أن ينقطع هذا الراتب ، من أين جاء بالمهر الكبير الذي دفعه لوالد زوجته ، بالتقسيط ، هكذا .. يشترى سيارة من شركة السيارات بالتقسيط بضمان راتبه ثم يبيعها نقدا لأحد أثرياء قريته ومن ثمنها يدفع المهر وثمن الذهب ولوازم الأفراح والعرس ، ثم يسدد ثمن السيارة ، أشفقت عليه ، سألتها هل يفعل هذا كل العرسان ؟ قالت : نعم قلت ويأخذ الأب كل المهر لنفسه ، قلت : نعم ، كنت أفكر في زواج أبنتي الثانية بعد أن انتهيت بصعوبة من زواج الأولى ، ونفذ المال من يدى وجيبي ، قالت لها : عندى ثلاثة بنات قالت في جدية شديدة : يا بختك ، أنك تأخذ مهورهن كلها وتصبح ثريا ، ابتسمت في وهن وشعرت أن الألم يزداد دفعت كل ما أملك لزواج ابنتي ، وها أنا أحمل هم الثانية فما بالك بالثالثة ، الله وحده هو المعين ، مضت إلى غرفتها ، شعرت أنهم جاءوا مرة أخرى لكي يجرون لي جراحة أخرى لا بد من الاستغراق في الصلاة والابتعاد عن هذا العالم .

وقفت في الجمع المحتشد في الميدان ، كان الميدان يحده بعض المباني الحجرة المغطاة بخوص النخيل ، وجدتني أقف على جزع نخلة وأنا أخطب في الناس ، كنت متحمسا ينتفض جسدي في غضب - سيفي كان ثقيلا ولكني كنت ألوح به في غيظ ، رجال غلاظ يتحلقون حولي ، وجوه غاضبة ز تها وحشية رمال الصحراء الصفراء التي علقت بذقونهم وملابسهم، أشاح بعضهم في ضيق ، ونفر البعض الآخر يود قتلي ، كيف تقول أن رسول الله قد مات ، محمد لم يمت ، صرخ بعض الرجال سود الوجوه ، هويت بسيفي فتفرق القوم صحت سوف نبايع (أبا بكر) خليفة لرسول الله ، كما بايع أهل المدينة ، أزداد الأمر سوءا وحاول بعضهم قتلي تماسكت ، تحلق حولي في دائرة أولاد عمومتي أشهروا سيوفهم في غضب ، أنكمش القوم ، وراحوا يجادلون ، نظن أنه لن يموت أبدا ، عندما أسلمنا كنا نحتمي به ، فكيف تقول إنه مات ، القافلة التي حملت إلينا الخبر لم يأت غيرها ، كيف نتأكد ونحن على مبعدة كبيرة من المدينة ، أنها مسافة

تزيد عن أيام الشهر كاملة على ظهور الإبل ، أشرت إلى (عبد الله) بن عمى فتقدم وخطبهم ولكن (جلف) حنيفة صاح غاضبا لا تقل أن محمدا مات وإلا والله لأقتلنك كما قتلت الكفار فى بنى النضير ، يحاول أن يظهر أنه فارس مغوار اشترك فى غزوات رسول الله ، أقسمت أن نبايع أبا بكر الساعة، ومن لم يبايع يخرج من ديارنا فقد خالف الجماعة قال (حسان) ابن خالتى أقول لكم ما قاله (أبو بكر) من كان يعبد محمد فإن محمد قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت وأنا أقول من يعتقد غير ذلك فقد كفر وأحل دمه .

تراجعوا ، ولكن البعض استمسك بأنه إذا كان محمدا قد مات كما أقول فلنعد إلى ما كنا قبل مجيئه ، وهذه فرصة لن ندفع الزكاة بعد اليوم وكل ما نملكه لنا وحدنا ، واشتد العراك والصراخ ، ولكن ما تراجعت أنها ثورة ضدى ولكنى لن استسلم ، سأقوم بما يجب أن أقوم به ، لقد عرفت الخبر وعرفت أن الإسلام لا يموت وأنه دين بنى آدم حتى يوم القيامة وتأتى الرسل وتذهب وشعرت بالإرهاق ، ولكنى لم استسلم .

لا أدرى إذا كانت هذه الحادثة قد حدثت بالفعل أو لم تحدث ، حدثت معى فى الزمن الماضى ومن أنا ومن هؤلاء ولماذا أردت ذكر هذه الحكاية ، لا أدرى ليس عندى تفسير ربما فقدت عقلى أو نصف عقلى ، ربما دارت بى الدنيا دورة فإذا أنا بها من ألف عام ويزيد ، ربما لم تحدث وهى محض خيال ، إنفض الناس من حولى وشعرت ببعض الراحة ، جاءت سيدة وقالت فى حياء :

– أتسمح لنا بالجلوس معك ؟

نظرت فإذا بها تبدو أليفة الوجه ، جلست على المقعد بجوار الفراش و جلس شقيقها بعد أن أعلمنى بهذا ، إنها استاذة بالجامعة ، جامعة الأزهر ، وقد جاءت لا جراء جراحة ، وهى خائفة ، قلت باسماً :

– لا شئ تخافين منه ، المؤمن لا يخاف أبدا ..

وكيف نخاف والله رحيم بنا .

ابتسمت وتمتمت بالشهادتين ، قال شقيقها ! أنه وكيل وزارة ، وأنه ترك أولاده ، لكى يرعى الدكتورة شقيقته وقد سمع عنى لهذا فهما يلوذان بى ، قدمت ابنتى لهما بعض الفاكهة ، شعرت بالسعادة والرجل يقضى على محتويات الطبق ، أحسست بالرضا وكأننى أنا الذى أكلت الفاكهة ، كان مضطربا وهى خائفة أنها أستاذه إجتماع .

ابتسمت وتذكرت كيف اخترت هذا القسم فى كلية الآداب وتذكرت زملائى وزميلاتى ، ..

نقلت سكنى من حى شبرا بجوار عمى إلى الدقى وسكنت مع آخرين كنا أربعة كل منا فى كلية مختلفة – أبن العمدة فى الحقوق لا يريد أن يستكمل دراسته ، يحب شرب (الجوزة) بشراهة شديدة يتغيب من أجلها عن البيت والجامعة لكى يجلس فى مقهى فقير يقدم (المصرى) وهو اسم هذا الدخان الذى يعشقه الفلاحون ، لا يتحدث كثيراً ويشكو من الهزال ، (عبد الستار) يدرس التاريخ ولا يشبع إلا إذا أكل سبعة أرغفة فى الوجبة الواحدة ، ضاحك السن ، مقبل على الحياة يزاملنى فى ألذها إلى الجامعة (حسن) فى الزراعة أكبرنا سنا يقوم لنا بمقام الأخ الأكبر فهو الذى يطبو الطعام ويشرف على المنزل معه شقيقه الأصغر يدرس هو الآخر ، أحاول أنا أكون زعيما ، اكتشفت فشلى فى الأعمال المنزلية ، خشيت أن يضطهدونى من أجل ذلك ، بدأت ألعب معهم لعبة القائد الذى يلقى بالأوامر كل لحظة وأننى أصغرهم سنا وحجما ولكنهم أسرعوا فى تنفيذ أوامرى ، وتعودت أن أتزعمهم وتعودوا هم الطاعة ، ولكن شعرت أن لدى من وقت الفراغ الكثير لهذا أخذت فى البحث عن عمل ، كنت طالبا مواظبا ، ومشاغبا أيضاً ، أحاول أن أعيش حياة الجامعة كما تخيلتها ولكن كانت الجامعة فى ذلك الوقت قد تحولت إلى جامعة مستأنسة ليس لها علاقة بالعالم المحيط ، المحاضرات وبعض الأنشطة القليلة ، حاولت أن أجد لنفسى مكانا داخل فريق التمثيل وتقدمت (لفؤاد المهندس) الذى أعطانى دورا هامشيا نعبته ولكن لم أتحمس ، حاولت أن أرتبط بالنشاط الأدبى ، ولكن كانت لغتى لا تتفق وبلاغة وفصاحة زملائى .. ، شعرت أننى دون الجامعة وأننى لا أطيق التعليم المنتظم ، لولا ارتباطى بصداقة بعض الزملاء لتركت الجامعة غير آسف ، ولكن هاأنا التحق بالصدفة – بعمل فى (دار للتحرير) التى كانت تصدر جريدة (الجمهورية) ، وفجأة وجدتنى موظفا بها أتقاضى راتبا كبيرا مثل بقية زملائى فى العمل ، بل أخذت مكافأة تعد وقتها رقما قياسيا عندما (كتبت) أول إعلان وصممته لشركة (الإعلانات الشرقية) ، ووجدتنى فجأة أقابل (طه حسين) و (يوسف السباعى) و (لويس عوض) و (الشرقاوى) وكوكبة من الأدباء ، لم أكن قد قرأت لهم من قبل ، كنت قد قرأت كل ما وصل إلى يدى من الروايات العالمية سواء فى لغته أو مترجما كما قرأت من المسرحيات والأعمال الإبداعية الأخرى الكثير ، وعرفت (جوركى) و (تولستوى) و (هوجو) و (موليير) و (شكسبير) و (سومرست موم) وكنت معجبا به إعجاباً خاصا لا أدرى لماذا ؟ وقرأت الكثير من كتب التراث العربى سواء نثرا أو شعرا ، ومع هذا كانت لغتى غير جيدة وعندما أحاول الكتابة أشعر أننى لست فى بلاغة هؤلاء ، حاولت تأليف رواية وأنا فى السنة الثانية الثانوية وتحمس لها أصدقاء الحارة فى بلدتنا وكتبوها فى كراساتهم وتبادلونها وعندما كبرت وجدتها وقد مزقها أخى وحولها إلى ورق يبيع فيه الفلفل الأسود فى دكانه ، وضحكت لأننى كنت أتصور أنها أعظم رواية فى العالم ، وبالطبع لم تكن كذلك ، فقد إنكشفت أوراقى عندما بدأ

احتكاكى بالأدباء الكبار ، بل اكتشفت رداءة لغتى عندما حاولت الاشتراك فى نشاط الأسرة الأدبية بالجامعة ، وانصرفت إلى عملى بدار التحرير ، فى البداية اشتغلت عاما مصمما للإعلانات وهو عمل فنى بالدرجة الأولى ويحتاج إلى خيار وقدرة على الابتكار ، ولم أكن أعرف شيئا عن هذا المجال ولكنى حاولت أن أتعلم من زملائى ، فعندما سمعت رئيسى يأمرنى بأن أصمم اعلانا (١٥ على عامودين) لم أكن أعرف ما هو (العامود ولا البنط ولا الكور) وهى مصطلحات بسيطة مفهومة لدى العاملين فى مجال الصحافة والطباعة ، وأسرعت أراقب زملائى وأتعلم ، لهذا لم أكن أغضب عندما يسرقون منى الأقلام أو يجبروننى على أن أدفع ثم طعامهم واتظاهر أنى مغلوب على أمرى ، وقد علمتنى الحياة العملية وأنا فى هذه السن المبكرة فقد كنت بكل المقاييس صغيرا سواء فى العمل أو فى الجامعة ، تعلمت أن اتظاهر بالغباء أو العبط ، اعطيهم فرصة لاستغلالى ، أو لاستغلال غبائى وسذاجتى ، وهم يسعدون بذلك وأنا أستفيد وقد حقق لى هذا نجاح فى الدراسة بدرجة مشرفة ونجاحى فى العمل أيضا بدرجة ممتازة ، حتى أننى انتقلت إلى عمل جديد أفضل ، سكرتير التحرير ومن حقى الكتابة أيضا ، وفى الجامعة انتقلت إلى السنة الثالثة طالبا مشهورا محبوبا ، بيتى مثل دوار العمدة بعد أن أخذت سكنا مستقلا كان فى أعلا (فيلا) صغيرة بمنطقة العجوزة وكان هذا يعطينى الفرصة لاستضافة أكبر عدد من الطلاب من مختلف الاتجاهات ، لأول مرة أعرف ماذا تعنى الشيوعية المصرية ومن هم أقطابهم ، ولماذا اشتركوا فى الثورة ، كنت من قبل على دراية بأعمال (الإخوان المسلمين) ، وذهبت مرارا إلى دارهم فى الحلمية معجبا بهم ولهذا لم أدهش عندما أجتمع فى مسكنى عدد منهم وخاصة بعد أن قضى عليهم عبد الناصر الذى أحبه جدا ، أرى فيه زعيم مصر المخلص ، لهذا سارعت بالاشتراك فى الحرس الوطنى وكانت لى مثل بعض طلاب الجامعة أدوارا لا تصل إلى الفعل الإيجابى ولم تتعد مظاهر الاشتراك فى حرب السويس ، ولكن الأهم أننى تدربت تدريبا عسكريا عنيفا وكنت على وشك السفر إلى بور سعيد ، وقد حدث لى فى تلك الفترة حادثا لطيفا ، فعندما أنصرف أصدقائى وصرت وحدى فى مسكنى فإذا بطارق يطرق الباب ، وعندما فتحته وجدته شابا نحيفا يبدو عليه الإرهاق والتعب كأنه كان مسافرا وجاء سيرا على الأقدام ورحبت به ، واعتقدت أنه زميل جاء متأخرا عن موعد جلسة الأصدقاء ، كان الليل قد انتصف ، جلس وهو يتلفت حوله يتفحص .. المكان أخذت فى عمل الشاى ، قدمته له مع بعض الطعام الخفيف ، شربت وأكل وهو صامت ، لم أحاول أن أسأله ، يبدو مرهقا ، قلت :

- أتريد أن تنام للصباح ؟ لأول مرة أسمع صوته .

قال : هذا مسكنى .

قلت فى دهشة : كيف ؟

قال : كل شئ هنا يخصنى ، وهذه شقتى .

لم أرد ، كنت فقد مشفقا عليه ، قال وقد شعر أننى غير مقتنع :

– كنت فى السنة الرابعة بكلية العلوم وكان امتحانى النهائى فى اليوم التالى عندما أخذونى من هنا ، وقضيت كل هذه المدة فى المعتقل لا أدرى لماذا .. واليوم أخرجونى فعدت إلى بيتى !

قلت وقد صدقته :

– لك ما تريد ، لقد استأجرتها منذ عام من صاحب البيت ، ويمكننى تركها لك فى الصباح أن كان هذا ما تريد .

نظر نحوى وقال :

– لا ، أسمح لى فقط بقضاء الليل هنا ، فى الصباح سوف أسافر إلى أهلى .

قلت : بإذن الله ،سوف أرحل مع فرقتى إلى منطقة قريبة من بور سعيد .

قال : أنا أيضاً سأحاول دخول بور سعيد فهناك أهلى .

شعرت بحب جارف نحوه ، أحضرت له المزيد من الطعام ، أخبرته أن أسرتى كانت فى بور سعيد وأن أبى ولد هناك ، وجدى كان يعمل هناك وأنا مسافر كفرد فى قوات المقاومة فى بور سعيد ، أبتسم وقال :

– عندما يعود السلام ، سوف أعود إليك ، وأحاول استكمال امتحان .. البكالوريوس .

وسافر ، وسافرت ولم نلتق حتى الآن ، لا أدرى ماذا فعل – لماذا اعتقلوه ليلة الامتحان، بعدها عرفت معنى الاعتقال ، وعرفت الكثير من آلام الاعتقال .

كان بانديا يجرى جراحة فى عنقى لإدخال محقن للدواء داخل العروق الداخلية بعد أن هربت العروق الخارجية كان الألم حادا ، واندكتور بانديا وجراح آخر يحاولان ، قالوا هذه الجراحة بسيطة وأن كانت مؤلمة ، ولكنها هامة حتى يمكن استمرار الحقن ، تناسيت ما يفعلونه ، تذكرت هذا البورسعيدى الذى قبض عليه ، وابتسمت ، لقد تكررت لى نفس الحادث بنفس الطريقة ، كنت قد استأجرت مسكنا بمنطقة ميدان التحرير ، كان المسكن صغيرا ولكنه جميل وقريب من مكان عملى وقد أثثته بأثاث جميل ، عندما كنت فى السنة الرابعة ، وقد كنت يومها أعمل محررا بالعديد من الصحف وطالبا بالجامعة وأيضا مشرفا ليلا على دار للأحداث ، وكنت مكلفا بعمل دراسة عن الأحداث لزوم دراستى لليسانس هكذا كلفنا رئيس القسم الذى لم

يكن مؤمنا بالامتحانات بشكلها التقليدى ، .. كنت جالسا أحاول أن أنهى موضوعا صحفيا وأيضا أفكر فى عمل استمارة (الاستبيان) الخاصة بالبحث ، وسمعت طرقا على الباب وأسرعت لأفتحه وكنت أظن أن زميلا فى الجريدة جاء يأخذ ما كتبت ، فإذا برجل فى أواسط العمر يدخل وينظر إلى المكان متفحصا ثم قال :

– كيف حصلت على هذه الشقة .

قلت فى هدوء : – تفضل أولا ، أشرب هذا الشاى حتى أفرغ من عملى فأنا كما ترى مهموما بالعمل .

جلس وشرب الشاى وحكى لى أن هذه شقته ، وأنه سافر إلى الخارج هربا وأنه أخيرا عاد ويريد مسكنه ، فهو صاحبه هو أيضا أديب يكتب الروايات ، وأنه اضطر إلى السفر إلى إنجلترا وسمعته وأنا أنهى ما بدأ من عمل ، ثم وقفت وقلت :

– آسف عندى عمل ، الشقة ينازعنى عليها صاحب البيت، اشتريتها من أخيه بموافقة من أخيك أنت ، ودفعت كل ما كان معى من مال ، فإذا أنتهت مشكلتى مع صاحب البيت يمكنك أخذها على أن تدفع ما سبق أن دفعته .

قال سعيدا ، وهو كذلك ، سوف أقاتل وأحارب صاحب البيت هذا حتى يكف عن مطالبه ، قلت فى حزم :

– وأنا عند اتفاقى معك ، تكون الشقة لك .

وانصرف سعيدا ، وانصرفت إلى عملى ، أو أعمالى ، كنت ما أكاد أنهى محاضراتى فى الجامعة حتى أذهب إلى المجلة ومن هنا إلى مسكنى لأستريح وأراجع ما فعلت ، ثم أسرع نحو المؤسسة وهناك أظل طوال الليل ، أحاول أن .. أحارب طواحين الهواء أو الفساد أو الكسل أو الغش أو كل هذا معا ، إنها صورة لكل أنواع الفساد فى الجهاز الوظيفى الذى تحول فيه قلة من العاملين إلى ديدان تنخر فيه وتفسد ثمره ، فقد كانت تلك المؤسسة وفقا للمفهوم العام الذى من أجله أقيمت تعمل على رعاية وتربية (الأحداث) وهم الأطفال والفتيان تحت السن القانونية الذين يرتكبون جرائم يعاقب عليها القانون (قانون الأحداث) أضعفها التسول وبيع السلع التافهة والسرقة وأغلظها القتل أو الشروع فيه أو المساعدة فى بيع المخدرات ، والمؤسسة بناء على حكم المحكمة تحاول أن تبقى هذا الحدث بعيدا عن المجتمع إلى حين تعديل سلوكه وتأهله تربوياً ونفسياً واجتماعياً ومهنياً للحياة الاجتماعية من جديد . لهذا كانت المؤسسة بها مدارس وورش صناعية وبها مدرسون ومدربون وأيضا مشرفون اجتماعيون ، وكان كمساعد للمشرف

الاجتماعى ، فلم أكن يكفى أن أتسلم (العدد) كاملا لأسلمه كما هو فى الصباح وأن أشرف على هدوء المكان ليلا ، ولا شئ غير ذلك ، ومكافأتى نصف مكافأة الاخصائى المؤهل وقد رضيت بهذا العمل رغم ما أحصل عليه من الجريدة من راتب جيد لأننى كنت قد نويت أن أجعل تخصصى العلمى فى هذا المجال وبالفعل بدأت فى الاستعداد العملى ، فوافقت على العمل مشرفا ليلياً رغم إرهاق هذا العمل الذى يحرمنى من النوم فى بيتى ، وأخذت أنقب عن طبيعة جرائم هؤلاء الأحداث ، وأصنفها ، وأناقش أصحابها وأتعرَّف بشكل شخصى ومباشر لمشاكل هؤلاء الصغار ، وخاصة وأن عمرى كان يقترب من أعمارهم .

دار الرجل صاحب الشقة ، أو الذى أدعى ملكيته لشقتى ، حاول مع صاحب البيت ، كان يخبرنى بما يفعله وأنا صامت ، فى النهاية وبعد فترة جاء ليخبرنى أنه وقع فى حبائل ذكائى اكتشف موقفه ، وهو ينسحب وقال :

– أنت أذكى رجل قابلته فى حياتى !

ضحكت ، وعندما انصرف حاولت أن أفهم لماذا قال هذا ؟ كنت فعلا على استعداد لتسليمه الشقة إذا ما نجحت فى التغلب على مطالبة صاحب العمارة بطردى – حاول هو أن يدخل طرفا فى النزاع لم أمانع ، ولكنه يبدو أنه اكتشف أن صاحب البيت لا يريده أيضاً ، وهكذا أحس أنه مهزوم وأننى السبب فى ذلك ، لم أكن كما قال ، ولم أكن فى يوما من الأيام ذكيا ، حاولت فقط دائما أن أكون ، لا أبغى تملك شئ ولا أرغب فى شئ ، فقد أود أن أعيش لعملى وأن أكتب ما أشعر به .

انتهت الجراحة وركبوا فى رقبتى عدة أجهزة ، ثم بدأ الحقن ، وأخبرنى الدكتور بانديا أنهم سينقلون لى دما جديدا ، وأن هناك محاولة لمحاصرة التلوث داخل الدم وأنه يجب أن أساعدهم بأن أشرب أكبر كمية ممكنة من السوائل أحاول تناول ما يقدم لى من طعام ، جاء فاروق محملا كعادته بكميات من الفاكهة ، تمر ، وجوافة ، وتفاح وأشياء أخرى ، عندما حضرت إحدى الممرضات أعطيتها بعض من التمر والجوافة سألتنى من أين ؟ قلت : لقد أرسلتها لى أمى من بلدتنا ، قالت فى دهشة : وهل عندكم مثل هذا الفاكهة ؟ استغرقت فى التمثيل وشرحت لها أن هذه الفاكهة قد تم زراعتها فى مزرعتنا وأمى ترسل لى يوميا أنواعا كثيرة ، أقبلت الممرات ووزعت عليهم ما أحضره(زميلى فاروق) ، التهمته فى سعادة ، لا أدرى ما إذا كن قد صدقن أن هذه الفاكهة من عند أمى بالفعل وقد أرسلتها بالطائرة أم أنهن تظاهرن بذلك ، الأمر عندى سيان ، فقد كنت فى حاجة إلى التخلص من الفاكهة وأيضا فى محاولة للتقرب إليهن ، عندما يقضى الإنسان وقتا طويلا فى المستشفى يصبح واحدا من المجموع داخل المستشفى ، واحد منهم

وليس مجرد زائر ، ويعرف عنهم الكثير ، أطفال الحكيمة (ميرا) وابـن السـتر جيسـى الـذى يدرس الكمبيوتر ، وهموم (سو) فى البحث عن رجل تعاشره ، وغضـب (مـارى) مـن زوجـها ، وأسرار صديقة (ليلى) وكيف ترعاها كما ترعى ولديها ، وتسعد وتنسى مـا كـانت تفعلـه عندمـا أسألها عن (المهندس) وهو ابنها الذى دخل كلية الهندسة ، فهى تسعد لأننى أطلـق عليـه لقب المهندس ، من الآن يبدو أنهم يحاولون تغيير نمط العلاج فقد بدأ جسدى يتلون بلون أحمر شديد الحمرة ، وأسرعوا لإخبار البروفيسير الذى – جاء وأبدى عدة ملاحظات ولم يحاول أخبارى هذه المرة بشيء ، كانت أطرافى قد اكتسيت بلـون أحمـر ، واصل بانديـا دفعـى إلى القتـال وتـرك مـا يحدث حولى يمشى دون أن أفكر فيه ، وتحدث عن (البوذية) ، قـال : أن الإنسـان خـيّر بطبعـه لهذا يجب أن يفكر فى الخير .

فى المؤسسة ، تفاقمت المشاكل بينى وبين المديرة ، كانت سيدة فوق الخمسين ، تبـدو شرسـة وخاصـة عندما تقابلنى ، إسماعيل أفنـدى يتبـاهى أنـه يعمـل فـى هـذه المؤسسـة منـذ (الأميرة فريال) ، أيامها كانت ملجأ وكـان هـو الرجـل الأول ، أمـا الآن فـهو مجـرد (معـاون) ، ودائمـا يعترض على هؤلاء الذين تسميهم الوزارة (بتـوع الشئون الاجتماعيـة) لأنـهم لا يفعلـون شـيئا ويتكلمون كثيرا عن (الأولاد) بأنهم (غلابة) ، ولانى كنـت منـهم ولكـن علـى حـد قولـه مجـرد (صبى مشرف اجتماعى) فقـد كان يتحدث معى بصراحة : الأولاد هنا لا يحتـاجون إلا للكربـاج أو للعصا على الأقل وأنـهم لا شئ وأن زملائـى الكبـار لا يصلحـون لهـذا العمـل وخاصـة السـت المديـرة ، كان إسماعيل أفندى يبيع طعام (الأولاد) لأهالى الحى ، بخمسة وعشرون قرشا ، وكان يتعامل مع المتعهد بشكل يسمح للمتعهد بتوريد طعام فاسـد وغـير كـاف ، وشـكوت ، ولكـن لا فائدة ، هددونى بالطرد ، شكوت ومعى عينات الطعام لكى أثبت ما يورده المتعهد ، وأيضـا علـى نقص الكميات الموردة ، بالإضافة إلى بيع ما يطهى منه إلى الأهالى ، ولكـن راحـوا يـهددونى مـن جديد بأننى أتدخل فيما لا يعنينى ، مشـكلتى أننـى أحببـت عملـى ، وصـارت الصداقـة والمـودة تربطنى بهؤلاء (الأحداث) أعرفهم معرفة تامة ، بالاسـم وبسبب دخولهـم ومـا يـودون عملـه ، حتى التصقوا بى وصاروا يصارحوننى بكل همومهم لهذا حاربت من أجلهم فقد كنت أقف حتـى يتم دخولهم الحمام للإستحمام كما تنص اللائحة ويتم تغيير ملابسـهم والحصـول علـى حصص كافية من الصابون والمناشف والملابس النظيفة ، والحق أقول أن اللائحة الداخليـة ترعـى مشـاعر هؤلاء الأحداث كمـا توفـر لهـم كـل الاحتياجـات الصحيـة ، وهكـذا فـى التغذيـة أو التعليـم أو التدريب . لكن الشر نابع من الذيـن يشـرفون علـى التنفيـذ فـهم لا يراعـون الله فالصـابون لا يتـم توزيعه ويتم سرقته ، وكذلك فى بقية الأشياء حتى الطعام والويل لهـم إذا مـا اشـتكوا أو تـأففوا فإن العقاب موجود ، لهذا أعترف أننى كنت أقوم معهم (بسرقة) مخـازن المتعـهد ، ونـأخذ مـا

نحتاجه من كل شئ ، يأكل الأولاد ويشبعون ، ويحصلون على كافة احتياجاتهم ، ثم نغلق المخازن كما كانت ، هذا يعد سيئا إلى أننى اضطررت إليه ، ماذا أفعل أمام أطفال وفتيان جوعى . كل أسبوع نسطو على مخزن المتعهد ونحاول أن نأخذ دون أن نحدث تلفا ، وأسمع أنا شكوى .. المتعهد ، ولكن لا دليل على السرقة ، المفتاح معه ونسخة أخرى مع (إسماعيل أفندى) فمن يا ترى سرق من ، من السارق ومن المسروق ، وهما قد تآلفا وانسجما وأصبحا شريكا ، يسعدنى أن أستمع إلى الأولاد كل فرد منهم وأدون كل ما يقوله ، .. ولكننى اكتشفت أن الأغلبية دخلوا هذه المؤسسة دون ذنب ولا جريمة سوى أنهم فقراء من أسر فقيرة ، الزوج ترك زوجته بعد أن أنجبت دستة من العيال ، وداهمته الأمراض وقلة الحيلة فتركهم ، تنصحها الجارة بأن تأخذ طفلا لتربيه الحكومة ، وتأخذه إلى الشرطة حيث تحرر له محضرا بأن سرق منها أوانى المطبخ وتكرر منه ذلك ، فلا تملك الشرطة إلا تقديمه إلى المحكمة وهناك ترفض الأم أستلامه لأنه لص أو أنه يهدد بقتل إخوته ، وأغلبهم دخلوا بجرائم لفقتها لهم أمهاتهم ، وسمعت آلف القصص من الأمهات أنفسهن بعد أن سمعتها من الأولاد ، والقلة هم فعلا الذين ارتكبوا جرائم ومنهم من تاجر فى المخدرات ، وقد عرفت منهم (طه) الذى اخترع عجينه خاصة وراح يبيعها عن أنها أجود المخدرات ، وصار لها زبائن وعملاء كثيرون حتى أنهم قام بتصنيعها وهو داخل المؤسسة وراح يوزعها عن طريق شبكة من الفتيان ، كان أول عميل له بالطبع - (إسماعيل أفندى) الذى تغاضى عنه فى مقابل حصوله على حصة يومية من المخدرات ، وكان يوزعه بأثمان معقولة بالنسبة لمدمنى المخدرات وأمسكت به خلال تصنيف هذه (التوليفة) فى حديقة المؤسسة ، ولم تكن تلك التوليفة الساحرة سوى خليط من الحناء ولبان دكر وبعض الحبوب من عند العطار التى تباع علنا لوضعها مع توابل الطعام ومع هذا كان (طه) قد أكتسب شهرة واسعة فى ترويجها على أنها أجود أنواع المخدرات ، وأحيل (طه) للنيابة وقام المعمل الجنائى بالتحليل ولما اكتشفوا أنها تخلو من مواد مخدرة محرمة قانونا - أفرجوا عنه ، حاولت أن أعرف لماذا اتجه (طه) هذا الاتجاه ؟ ضحك بشدة وقال :

- حتى أضحك على كل هؤلاء .. وخاصة الذين لفقوا التهمة ووضعونى هنا .

كان ينفق ببزخ شديد ، وكانت أمة تزوره بشكل أسبوعى دائم تجلب له كل ألوان الطعام سيدة من حى شعبى تبدو مثل برميل متحرك فيصدر الذهب الذى تتزين به وشوشه تغرى الكثير من الرجال وأوالهم (إسماعيل أفندى) ، الذى ظل ودودا معها ، حتى بعد أن عرف كم كان مغفلا وهو يدخن المخدرات المزيفة التى ولفها ابنها ، وأعترف أن (إسماعيل أفندى) يستحق كل هذه المساحة التى استغرقتها فى تذكره لأنه أثر فى نفسى تأثيرا كبيرا فقد كان يمثل لى لونا فاضحا

من ألوان اللصوصية والوصولية والنفاق لم أجدها فى أحد من قبل ولا من بعد ، ولهذا دخلت معه حربا معلنة وحربا غير معلنة ، وأن ظل يظهر لى عطف الآباء على أولادهم الضالين ، وكنت أسمى عمليات السطو على مخازن التغذية فى المؤسسة بواسطة الأولاد (غزو غذائى) لإطعام الأولاد ما هو حقهم الفعلى ، ولم يحاول (إسماعيل أفندى) اتهامى مباشرة على الرغم من شكوى المتعهد من نقص صفائح العسل والطحينة والحلاوة والجبن بأنواعه ، فلم نكن نأخذ إلا هذه الأصناف حيث يسهل أكلها والتخلص من بقاياها ، .. لم يكن تعاملى مع (الأولاد) كله تعاملا ورديا وديا ، لأننى كنت فى أحيان كثيرة ألجأ إلى العنف وإلى الضرب بقسوة ، وكانت سياسة القسوة مع الملاطفة ، وكل منها فى وقتها تأتى بأثرها السريع حتى شعر كل من فى المؤسسة بنفوذى الشديد على (الأولاد) جميعهم وقد رأيت (إسماعيل أفندى) يضع (طربوشه وعصاه) وسط حوض المؤسسة ويذهب إلى منزله وكان هذا كافيا لكى يلتزم الأولاد بما أمر به ، طالما أنهم يشاهدون هذا (الرمز المرعب) لمعاون المؤسسة ، ليعود بعد قيلولة الظهر ليجد كل شئ قد تم كما أراد .. أردت أن أزيل هذا فرفعت الطربوش والعصا ، وحرضت الأولاد على أن لا يخافوا من مجرد طربوش موضوع على مقعد خشبى ، وأهتزت صورة إسماعيل أفندى ، وبدأ الأولاد يسألون ويطالبون بل يثورون ، وأحست المديرة أن حائط إسماعيل أفندى الذى كان يصد عنها غضب الأولاد بدأ ينهار وقدمتنى للتحقيق ، وهددتنى بالطرد ، ومع هذا ظل هذا الحائط يتهاوى ، وأحس زملائى من المشرفين – أخيرا – بهذا الأمر فراحوا يؤيدون موقفى .. وانتهت المعركة بطردى من المؤسسة ، وبتحويل من أيدنى من المشرفين إلى التحقيق الذى انتهى بالفصل من العمل ، وحمدت الله أن هذا قد حدث وقد انتهت رسالتى حول الأحداث ونلت شهادة الليسانس ، ولما عرف المسؤولون بالتحقيق وأنكشف أمامهم ما كان يحدث ، وجدت خطابا بتعيينى فى المؤسسة مشرفا مؤهلا ، ولكن كانت هناك قصة أخرى جرتنى إلى عمل آخر ، وإلى مؤسسات أخرى ، وكنت أيضا فى عملى الصحفى قد تعرفت على معظم الأدباء والكتاب الكبار وتعرفت على شخصيات كان لها نفوذها فى ذلك الوقت منها (أنور السادات) الذى كان رئيسا لمجلس الإدارة للمؤسسة الصحفية التى كنت أعمل فيها ، كان ودودا معى أبا وأخا عزيزا كما كان (يوسف السباعى) و (طه حسين) و (توفيق الحكيم) و (محمد عبد الحليم عبد الله) و (محمود يوسف) و (محمود البدرى) و(يوسف جوهر) .. وغيرهم من الذين لا أتذكرهم الآن والعذر هنا مقبول لشدة ما أشعر به من ألم ، كل هؤلاء ومعهم يحيى حقى ومحمد فريد أبو حديد ، كان لهم تأثير هام فى حياتى وفى فكرى ، وعلمونى الكثير ، .. شعرت أن حالة من التوتر سادت الغرفة وبدأت أنتبه لما يحدث حولى ، وأغلقت التسجيل لكى أعرف ماذا حدث ؟

الفصل السادس

أعوذ بالله مـن الشيطان الرجيـم ، بسـم الله الرحمـن
الرحيم ، ﴿ قل أعوذ برب الناس ۝ ملك النـاس ۝
الله النـاس ۝ مـن شـر الوسـواس الخنـاس ، الـذى
يوسوس فى صدور الناس ۝ من الجنة والناس ﴾
(صدق الله العظيم)

أسمى (سارة فاروق الريدى) ، بـالصف السـادس بأكاديميـة الملـك فيصـل الإسـلامية أتكلـم العربية .. وسكتت ، استدارت نحوى ، وناولتنى قطعة من الحلوى ، قلت لها بالعربيـة شـكراً ابتسمت ونظرت إلى والدها الذى استحث أختـها لكـى تتلـو القـرآن ولكـن الصغـيرة حـاولت أن تتدلل ، اقتربت منى ، سألتنى بالإنجليزية :

– لماذا أنت مريض ؟

ضحكت قالت ثانية :

– أبى يقول : أنك مريض جداً .. ما معنى مريض جداً

قلت وقد أحالت الصغيرتان حجرتى إلى مكان به رائحة الأسرة التى افتقدتها :

– لا شئ .. فقط أود سماع صوتك وأنت تقولين بالعربية بسم الله الرحمـن الرحيـم ، رددتـها بسرعة ، قلت : حسناً أنت تعرفين العربية ، قالت : وأعلم ماما ، وانطلقـت تلـهو قـالت وهـى تعبث بالأشياء : هل تعلم من أين جاء المصريون ؟ قلت لا أعرف ، قالت : من الملائكـة ، قلـت : ومن أين جاءت الملائكة قالت : من السماء طبعا ، ضحكنا ، هـمّ والدهـا بـالانصراف علـى وعـد بالعودة ليلاً أو صباحاً ومضى بهما ، ولكن كانتا لا تـزالان معـى ، شـعرت بالسـعادة للحظـات ، اقتطعتها من بحر الألم والوحدة والهواجس والمخاوف عاودت ذكر الله ، المرض مثل الشـوك يـؤلم ولكن لا تستطيع نزعه ، أنه يرقـد فوقـك ومعـك وتحتـك ، لا الـه إلا الله ، الشـافى ، مـنّ علينـا بالإسلام ، وهى درجة عالية لا ينالها إلا كل من هداه الله ، درجة يهبها الله لمن يشاء من خلقه ،

والإيمان درجات ، اللهم أرفعنا فيه إلى أعلا درجاته ، الإيمان ليس فعلا فرديا إراديا ، إنما هو مشيئة الله ، فإذا كنت مؤمنا عرفت الحمد ، وإذا عرفت الحمد وجب عليك الشكر ، وإذا شكرت فإن الحمد واجب على الشكر ، والشكر مرتبط به ، فاذكر ربك وكن عند حسن ظنه بك ، ليكن الله عند حسن ظنك أنت أيضا – وثق أن الله معك فثق بنفسك .. وذكرت الله وحمدته وشكرته وسبحته ، وجاء الأمل مثل نسيم البحر فى قيظ الحر ، واشتقت إلى الكعبة ، وهفت نفسى إليها ، وإزداد شعورى بالقرب من الله ، وبكيت و تذكرت سيئاتى ، بكيت ، وتذكرت دنياى وبكيت وتذكرت أخوتى وبكيت ، يا منان ، يا عفو يا كريم ، أسبح فى جو أثيرى أستعذبه ، أشعر وكأنى طائر بين السماء والأرض ، لا شئ يعوقنى ، أرى الأشياء ، الماضى والحاضر يختلطان ، لا أود أن أفيق مما أنا فيه حتى لو كنت مجنونا ، أحيانا أبتعد عن النوافذ وأخشاها ، تهاجمنى الرغبة فى القفز ، فى الطيران ، أنا الآن أطير ، عبد من عباد الله ، سبحانه أسبح فى ملكوته ، دعونى لا أريدكم أن تعيدوننى إلى الأرض ، مجنون أنا ، نصف مجنون ، عاقل ، لا شئ يهم ، اللهم أننى أسبح واذكر الله وقلبى يخفق بشدة وأطرافى لا أشعر بها ، يا ناس يا عالم ، ماذا فعلت لكم ذقت من الظلم أمره ، ومن الهوان أرذله ، ومن العسف أعنفه ، ولكنى أحمد الله على أننى عند إيمانى بالواحد الأحد ، الباقى ، الحى الذى لا يموت ، بيده الأمر وهو على كل شئ قدير ، قدوس تسبح كل الكائنات بحمده ، وتلهج بشكره ، أندفع نحو الشوك ، يغرس فى لحمى إبره ، يقول ، الطبيب :

– صباح الخير .

اختلطت الرؤى ، لم أعد أعرف هل أنا فى مستشفى (أكسفورد) أم فى مستشفى (النيروز) أم فى (الأولد كورت) ، حولى ممرضات كثيرات وابنتى تقف أمامى مباشرة ، طلباتى كثيرة وأشعر أننى فقدت عقلى لا أدرى حقيقة ما حولى سيطرت فكرة أننى مريض لا يمكن تحمله ، وأصبحت أتألم وأنا اطلب شيئا ، ساورنى الإحساس بأهمية الهروب ، أذكر أننى هربت ذات مرة ولكننى لا أتذكر كيف حدث – اقتربت ابنتى وقالت :

– أنهم يحاولون إطعامك يا أبى .. حاول أن تساعدهم ابنتى تذكرنى بزوجتى (ماجدة) ، زوجتي ماجدة ، تذكرنى بأمى ، وأمى كانت أميرة وأنا كنت العب فى قصر الملك – حتى جاء يوم وأخذونى معها ثم وضعونا على المشنقة .. أشعر بحبل الشنق حول عنقى ، أخاف على أمى ، نحيفة سمراء هزيلة ، تكرر هذا أكثر من مرة ، كنت عايشته من ألف سنة أو يزيد ، وعايشته مرة أخرى منذ سنوات والآن أعيشه عدة مرات فى اليوم ، لا أدرى ما إذا كان اليوم أو الأمس أو الغد لم أعد أعرف الأيام ولا الليالى ، كلها أوقات متشابهات أصلى ثم أعود لأصلى ، ثم اتجه إلى

الله عله يهدينى إلى الصراط المستقيم ، تضع ابنتى شريط التسجيل ، تكلم يا أبى ، أتعجب لأننى لم أعرف ابنتى إلا وأنا راقد فى فراشى ، كنت أعـرف أنـها جيـدة التربيـة وأنـها حافظـة علـى إيمانها وأنها صديقتى ، ولكن أنا الآن أعرفها أكثر وأعجز عن الحديث عنها ، فعالمى اليـوم هـو ابنتى ، التى تحمل همى ورعونتى وآلمى ومرضى ، وتقرا لى القرآن ، وتعرف مـاذا أريـد وتنطـق بلسانى أو أنطق أنا بلسانها بعد أن فقدت النطق وأصبح صوتى مثل صغير خافت ، ويدى اليمنـى لا أستطيع حراكها واليسرى تنوء تحت أسلاك الحقن من كل نوع وصدرى مفتـوح ورقبتـى يحيـط بها مجموعة من الأنابيب وأنا مقيد بفراشى ، وهى تتحـرك نيابـة عنـى وتتحـدث بـدلا منـى ، تصاحبنى فى صحوتى ونومى ، تسرع إذا أحست أن هناك ما أحتاجه ، عرفتها وأنا علـى فـراش المرض ، ولم أكن أعرفها جيدا طوال حياتها السابقة معى على الرغم أنها عايشتنى طـوال عمرهـا وكانت أقرب بناتى إلى قلبى ، بل هى التى تسرع لتلبية احتياجاتى ، ومع هذا لم أعرفـها جيـدا إلا هذه الأيام ، أحاط بها مجموعة المرضات والحكيمات بل والأطباء فـى كـل مستشـفى اتجـهنا إليها ومكثنا بها كانوا يصنعون لها طعاما خاصا ، ويجلبون لها أحيانا من منازلهم بعض الطعـام الخاص الذى يصنعونه خصيصا لها ، وعندما جاءتنى القدرة علـى اتخـاذ قـرار تغيـير المستشـفى واتخذت بالفعل الإجراء الرسمى ، وأحـس الأطبـاء ، والمرضـات بـأننى تاركـهم كارهـا لهـم ، أسرعوا وحاولوا كسبها لموقفهم بل حاولوا أن يدفعوها لكى أغير رأيى ، ولكن كنت على يقين من أننى لو ظللت هنا كانت نهايتى ، وكان هناك ما يدفعنى إلى تـرك المستشـفى لا خوفـا مـن المـوت فالموت حق ، ولا يد لنا فيه ويلاحقنا فى الزمان والمكان الذى سـبق وأن حـدده الله ، ولكـن هنـاك قرارات اتخذها من قبل لم يكن لها مبرر ظاهر ، بل ولا أستطيع أن أدافـع عنـها وقـت إنجازهـا ولكنى أكتشف بعد ذلك مدى الشجاعة التى كانت عندى عندما فعلتها ، رغم عدم مواجهتها فى حينها ، ولكنى فعلتها ، مثل هذا القرار أو الفرار لا أدرى لـماذا افـر ، أنـا دائمـا هكـذا لا أقبـل الحرب أو النضال ، دائما أتخلى وأهرب ها أنا أهرب ، ساعدنى صديقى الدميـاطى وزميلـى فـى العمل عاطف وسفيرنا فى لندن أيدونـى وسـاعدونى ، ولكنـهم هنـاك فـى أكسـفورد قـالوا سـوف نعطيك أدوية تريحك من كل متاعبك ، لا .. أنا لا أريد منكم شيئا ، بل لا أريد مـن الدنيـا كلـها شيئا كنت : ائما أسرع بالتنازل لا أبغى حربا من أجل عمل أو وظيفة أو مال أو سلطة عندما أشعر أنهم يحاولون محاربتى أرفع رايتى البيضـاء وأهـرب ، لا أنـدم علـى شـئ ، هكـذا خرجـت مـن المستـشفى كما سبق وخرجـت من العديـد مـن الأعمـال والوظـائف ، بـل عندمـا أخـذوا شـركتى للسياحة لم أعارض ولم أقاوم قالوا الحكومة أخذتها وفقا لقوانين التأميم ، كنت أعلم أنه لا يوجد قوانين إنما هى السلطة تفعل ما تشاء طالما أن بيدها الأمر أما أنا .. فلست إلا عبدا من عبيـد الله ، أنا عبد الله ، آتانى نعمة العبودية له ، ومنحة الإيمان به ، ورغبة اللجوء إليه ، فلماذا الجأ إلى

غيره .. حتى ولو كانوا أطباء جامعة أكسفورد ، وأين كانوا هؤلاء الأطباء ، وأنا أتحول إلى مجرد خرقة بالية تلف منى العظم قبل اللحم ، ماذا كانوا ينتظـرون ، لا .. لا أريـد عطيـة مـن أحـد ، اتصلت ابنتى بأحد الأصدقاء فى دبى وكنت قد كلفتها بأن تتغل وتطلب منه مالا ، وأنا أعلم مدى صـداقتى بـه ، ولكنه تهرب منها ، وشـعرت بالمرارة والحزن ليس مـن صديقـى هـذا بـل مـن نفسى ، أن النفس لأمارة بالسوء ولم أتحمل ولم أهدأ حتى أعدت أنا الاتصال به وبصوتى الواهـن أخبرته أن ابنتى أخطأت فى طلبها وأننى لا أريد شيئا وأرجـوك أن تقبـل عـذرى ولـك منـى كـل تحية ، ووضعت السماعة وأنا لا أريد أن أسمع صوته ، فقد كنت مشغولا بالعتـاب مـع النفـس ، أنا الذى أخطأت ، لا شئ من فراغ ، أخطـأت فـى حـق نفسـى وجعلتـها تقودنـى إلى التهلكـة لا أستطيع البوح بكل المخازى التى اقترفتها والآثام التى ارتكبتها ، لا أريـد ، أنـا أبكـى .. آلامـى هذه ليست شيئا بجانب ما أحس به من ذنب فى حق نفسى ، أعطانى الله وأنكـرت ومنحنـى الله وجحدت ، كنت أصول وأجول وكأننى الوحيد من دون خلقه الذى عرف وتعلم وشق طريقـه .. لا أريـد شيئا كثانى ما أخذت ، وهـل اسـتحق الأ .. كـل هـذا الألـم ، أيـها الطبيـب لا تعطـينى مخدرا ، بل شق اللحم بسكينك حتى أشعر بالألم ، وأرى النزف فى صدرى ورقبتى ويـدى وكـل جسدى أملت إلى الأمام فاندفع الدم قانيا فى تهور ، انزعجت الممرضة وراحت فى ارتباك توقـف النزف ، وجاء الأطباء ، ولكننى تشاغلت عن كل هذا .. سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، أشعر بالارتياح كلما رددت هذا التسبيح ، أيها الإنسان أنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ، اسجد يا بنى آدم ، استغفر ربك ، ستعود إليك الثقة بالنفس .

جاء إلى الغرفة وحيدا ، يحاول أن يمشى ، يتمايل ، جلس مهدودا ، قال : أنه يعانى مـن الوحدة ، زوجته وابنته لا يريدانه وهو يشعر باقتراب المـوت ، ابتسـمت فـى وجهـه ، قلـت : حالتك تبدو طيبة لماذا هذا التشاؤم يا رجل ، خذ هذا الكتاب أنه يحتوى علـى آيـات مـن القـرآن أتلوها على شكل دعاء ، لم يحاول أن يمد يده ليأخذ الكتاب راح يشكو ، جاء (مصطفى) وقال : أنهم صرحوا له بالخروج ، كان سعيدا ، ثم جلس وهو يقول ولكن لا أدرى أين أنـام حتـى موعـد عودتى إلى بلدنا ؟! قلت : هنا فى حجرتى ، قال : النقود فرغت ولم أعد أملك أجـرا للفنـدق ولا للطعام ، قلت : كف عن الشكوى منذ أسبوع واحـد فقط كنـت لا تـدرى مـاذا سيحدث لـك هـل ستموت أم تعود إلى أولادك ؟ والآن تشكو من نفاد المال قلت لك كف عن الشكوى وأذكر الله ، قـال : ولكن النوم ، قلت له فى غضب : نم هنا بجوارى ولن يكلمك أحد وخذ طعامى فأنا لا آكل ، ثم استرح ولا تيأس من رحمة الله — قالت ابنتى : خـذ مـن المـال ما تريد لدينا المزيد منه ، قـال : لا ، قلت : إذن لا تشكو فأنت تخيف المرضى ، سكت ونام ، فى اليوم التالى خرج ولم يعد إلا فى اليوم الذى يليه كان يحمل لى علبة من عصير المانجو ، وجلبابا كان قد اشتراه من رحلته السـابقة

إلى السعودية ، جلس بجوارى يرينى جهاز تليفزيون صغير جدا ، كان سعيدا به غاية السعادة وجهاز للتسجيل جعلنى أتكلم حتى يحتفظ بصوتى وصورتى أيضا بعد أن قام بتصويرى وقال إنهم حجزوا له على طائرة الغد وأنه سعيدا لأنه سوف يرى ابنته وزوجته فى الإسكندرية ، قدمت له ابنتى الطعام فأكل فى شراهة وقال أنه ظل طول يومه يسير على قدميه للفرجة على لندن ، وسافر مصطفى بعد أن أصاب زميلنا المريض الدكتور عضو اللجنة الطبية ووكيل وزارة الصحة (بيستيريا) مرضيه جعله يلازم المستشفى أكثر من شهر رافضا الخروج ، وكلما سمحوا له بمغادرة المستشفى والعودة إلى بلده ، جاءهم فى منتصف الليل يهذى ويشكو من آلام فى صدره وزوجته لا تدرى ماذا تفعل ، وتقول أنه ظل طوال عشر سنوات يعمل فى لندن جراحا للقلب وقد مر عليه حالات أصعب من حالته ، ولكنه الآن يبدو مثل طفل يبكى كلما أحس ببعض الألم ، وقالت : أن الطبيب الذى يشرف على علاجه كان معاونا له طوال عمله هنا فى لندن ، وكانت زوجته تأتى لتشكو من توتره وتسألنى ماذا تفعل ؟ ونطيب خاطرها ، ولا ندرى ماذا نقول لها فهو طبيب وجراح وسبق أن شاهد حالات فى ظروف أصعب ، دعوت الله أن يشفيه ، واضطررت لنوم (مصطفى) على لسانه الملوث ، أكتب لكم هذا ولا أدرى ما إذا كنت أقدر على استكماله أم لا ، يدفعنى الدكتور (بانديا) على الاستمرار فهو دائما يسألنى ويناقشنى فى كل الأمور ، واليوم عاد من أجازته الأسبوعية ومعه أحد كتبى وجده عند ناشر لبنانى وطلب منى أن أكتب عليه أسمى بخطى حتى يريه لزوجته وسألنى متى بدأت الكتابة .

وهو سؤال مثل متى بدأت تعرف اسمك ، أو متى بدأت تتكلم ، وقد سألنى ولدى عمرو ، كيف عرف أسمى لأول مرة ، وكان السؤال صعبا للغاية ، فكيف أرد عليه كيف عرف ابنى الصغير اسمى ، وهل أنا اسمى فعلا ما ينطقه هو الآن أم أن لى اسما آخر ، وجلست أفكر فى الإجابة ، متى بدأت الكتابة ومتى عرف ابنى الصغير اسمى فعلا - وكان التليفزيون يعرض فيلما عربيا ، فقد سمحوا لنا بمشاهدة القناة المصرية والفيلم عن مرض الإيدز ، كانت المرضة ذات الأصل الأسيوى تضع الضمادات وتقوم بالغيار اليومى الليلى ، وكانت عملية شاقة بالنسبة لها ومؤلمة جدا بالنسبة لى ، فحاولت التشاغل بمشاهدة الفيلم ، وسألتنى وقد لاحظت انصرافى عنها إلى موضوع الفيلم فحكيت لها ، فإذا هى تنبرى محذرة إياى من ممارسة الجنس مع نساء غير زوجتى ، بل وراحت تحاضرنى عن قسوة هذا المرض وتخوفنى من معاشرة النساء ، وأن أبتعد عن هذا الفعل تماما وضحكت .. وقلت أتراني قادر على أن أتحرك فقط من مكانى حتى يمكننى ممارسة الجنس ، كيف وكل ما يربطنى بالحياة متصل بأنابيب ، ولكنها لم تكف عن تلقينى هذا الدرس الأخلاقى الهام .

كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة ليلا ، وساد الصمت وتذكرت سؤال .. ابنى وسؤال الدكتور بانديا . . متى بدأت الكتابة ؟

كانت السنة الرابعة بالكلية مضطربة ، فقد سكنت فى أولها مع أسرة كسان عميد هذه الأسرة أحد الأوصياء على العرش ، وكان يملك قبل الثورة حوالى ثمانية آلاف فدان وحده ، ثم جاءت الثورة وأخذت منه كل شئ ولم يبقى معه إلا البيت أو (السراية) ، التى كانت تقع فى ذلك الوقت بمنطقة نائية فى الهرم وحولها الحقول والحدائق ويبعد عنها قليلا بيت الفنان (يوسف وهبى) ثم لا شئ ، ويربطنا بالجيزة شارع الهرم وأتوبيس رقم ٨ ، كنت أقطن فى شقة بالعجوزة مع زميل تشاجرت معه وقررت الهرب إلى أبعد مكان وأخذنى صاحب البيت والذى كان يعمل طباخا عند الباشا وأدخلنى (السراية) وقال للسيدة التى وقفت أعلى السلم الرخامى فى مقدمة السراية : إننى طالب جامعة وأريد سكنا معهم ، ابتسمت وقالت وهى تتأملنى :

– هل أنت فى الجامعة ؟

كان جسدى نحيلا وكنت صغيرا فى السن ، لم أجب شعرت بالإهانة ولكن ابتسامتها الطيبة شجعتني على أن أسأل مباشرة :

– هل عندكم مسكنا لى ؟

قالت بسرعة : نعم

ظهر لى الرجل أسود ، هكذا كان لونه ، نظر نحوى فى غيظ وغضب وقال :

– أنصرف يا ولد

شعرت بالتحفز لكى أسبه ، ولكن ابتسامة السيدة البيضاء التى تبدو أصغر منه كثيرا جعلتنى أتريث ، قالت موجهة إليه الحديث :

– إنه فى الجامعة ويمكنه السكن بالحجرة الخلفية .

قال فى عجرفة وكانت هذه أول مرة أرى فيها باشا حقيقى : لا . . قلت لا .

ثم انصرف ، هبطت السلالم القليلة التى تفصلنا ، كانت ترتدى ملابس منزلية رقيقة وجميلة أيضا ، قالت بعد أن نظرت نحوى فى أمومة :

– من أين ؟

قلت : من الفلاحين

قالت وقد وقفت بجواري تماما : وأنا أيضا : ولكن من أى البلاد ؟ تعارفنا ، وعرفنا أننا من بلدة واحدة أو تقريبا هكذا لأنها من بلدة تتبع بلدتنا ،سعدت وقد عرفت أسرتى ، صحبتنى إلى الداخل ، بعد أن صرفت التباخ ، أدخلتنى حجرة فسيحة لم أكن قد رأيت مثلها من قبل ولها نوافذ عريضة كثيرة ، كما أن لها باب يطل على الحديقة ويمكن الدخول والخروج منه دون عبور (السراية) قالت : سيكون هنا مقامك ، قلت : ولكن هذا الرجل .. قاطعتنى برفق :

– زوجى رجل طيب ، ولكن الزمن أصابه فجأة لقد أخذوا كل أرضه وأمواله ولم يتركوا إلا هذا البيت ، حتى السيارة قديمة ولا تكاد تسير . . أنت بالتأكيد تعرفه قلت لا :

قالت : أنه رجل مشهور فهو أحد الأوصياء على الملك الصغير (فؤاد) قلت فى تحفز طفولى : لم يعد لدينا ملك . ولم تعد لدينا وصية نحن الآن فى زمن الثورة وأنتم اقطاعيون قالت وهى تبتسم بجنب ألا تنسى أننى بلدياتك وأعرف أسرتك فلا داعي لهذا الكلام ، وأرجوك لا تدخل معه فى مناقشة ، دعه فى حالة فأنت لا تعلم كيف يكون ذل الرجال

قلت : أذن هو إقطاعى وأنا ..

وضعت يدها بسرعة حول فمى وقالت فى رجاء :

– اسكت ، لا تصدر أحكاما عندما تكبر سوف تعرف ، والآن هل أعجبتك الغرفة .

قلت وقد فكرت فى التجربة ذاتها : نعم

قالت : يمكنك من اليوم السكن بها .. أين حاجاتك ؟

وأسرعت وأحضرت ما يمكننى حمله من حاجاتى ، وأخذت فى ترتيبها بالحجرة ولكنهم استدعونى لتناول العشاء ، وترددت ولكن الرجل جاء ودعانى إلى العشاء فى لهجة آمرة اكتشفت أن لهم ابنا لا يزيد عن الثامنة من عمره ، ذكى ، لطيف ، مرح أحببته كثيرا ، وسيدة عجوز تعمل كل شئ فهى مربية وطباخة وأمينة سر السيدة ، أفادتنى هذه التجربة فى التعرف على الوجه الـ[illegible] للثورة ، والذى لم أكن أعرفه ، وخلال المناقشات التى كانت فى الغالب حامية من جانبى عرفت أسرار السياسة المصرية ودخائل الأحزاب والتكتلات والتداخلات والمصالح المتشابكة والمتضاربة .. عرفت أن كل الأزمنة هكذا وأن تختلف درجات ألوانها ، كان الرجل شيخا مجربا على دراية واطلاع ولكن إحساسه بالفقر بعد الغنى ، وإحساسه بالمهانة بعد الجاه والسلطان كل هذا جعله ، نافرا ، غاضبا ، منعزلا ، لم يكن يزوره إلا قليل من الناس كنت أسمع عنهم فقط ولا أعرفهم كما كانوا يستأجرون سيارته فى السينما ، ومن إيجارها يعيش ، لهذا حددت لهم أجرا لسكنى ومبلغا مساهمة فى نفقات البيت ، وكنت أعلم أنه أحياناً لم يكن هناك

إلا ما أدفعه لهم . لهذا رغم صعوبة الحياة فى تلك (السرانية) إلا أننى تحملت ، فقد عطفنى الناموس فى أول ليلة وذهبت إلى الجامعة وتلقيت الكثير من النكات الساخرة عن البقع الحمراء التى برقشت وجهى وكان على فى هذا العام عمل رسالة الليسانس وحل مشاكل المؤسسة وأيضا البحث عن عمل فى الصحافة بعد أن حدثت اضطرابات فى دار التحرير وتركها (أنور السادات) وحدث الكثير من التطورات السياسية بعد حرب ١٩٥٦ ، وأنا أتخبط لا أعرف طريقا محددا أسير فيه ، فقد خاصمنى أبى بعد وشاية من أحد أقاربى وبدأ دخلى .. يتقلص وكنت قد أحببت فتاة زميلة فى الدراسة ، وكان حبى لها بدأ فى السنة الثانية ولكنه ظل هكذا بدون كلام فى الحب ، ولكنها تجتهد فى حجز مكان لى بجوارها واعطائى مذكراتها لكى أنقلها فى كراسات وتشرح لى التفاصيل التى كانت تحدث خلال دورانى فى ساقية العمل / المؤسسة / المنزل فى الهرم / محاولة فهم مشكلات سياسية كانت بالنسبة لى صعبة مثل الصرع الروسى الأمريكى وما ذنبنا نحن ، أسمع كلمات ضخمة مخيفة من الكبار الذين أجلس إليهم فى الجريدة ، وأسمع كلاما عجيبا من بعض الطلاب ، ولكن كنت عاشقا للثورة متلهفا على التضحية من أجلها ، أتصور الاتحاد السوفيتي ملاكا يحمى الفقراء وأمريكا وحشا يريد افتراس العالم ، أحاول أن أكتب ولكن ما أكتبه لا يعجبنى ، اقرأ أشعر أننى فى حاجة إلى قراءة العالم الجديد ، الدنيا الجديدة أتخبط لا أعرف الاستقرار ، فى البيت أظل محملقا فى الظلام الذى يغطى حقول الهرم ، وعندما أشعر بالضيق أذهب إلى الرجل الذى يشرب من براد كبير شرابا مثل الشاى ، وعندما طلبت قليلا منه رفض ، بعد هذا عرفت أنه الخمر يشربه هكذا ، وعندما يشرب كثيرا يقول كلاما عجيبا ، كيف كان يضع امرأته فى (البانيو) المملوء بالحليب الساخن ، وكيف كان يقيم حفلات لكل القضاة أو الوزراء أو من بيده سلطة ما ، وينفق ببذخ ، ويردد كلهم هكذا ويشير إلى فمه ، إنهم جميعا يشربون ولا يخشون شيئا وعندما أقول له ولهذا قامت الثورة ، يضحك فى هستريا عجيبة ، ويردد أنت طفل فى الجامعة لا تفهم أن فيهم من هو أسوأ ، ثم يثور فجأة ويحطم الكوب وهو يسبنى فتصحو السيدة وتأمرنى بالعودة إلى حجرتى وكفانى ما سمعت ، أحيانا كنت أكرهه لأنه يريد أن يحطم النموذج الذى أحاول أن أعشقه ، ولكن ذات ليلة اضطررت للعودة متأخرا جدا ، فوجدته يقف فى أول الشارع وقد تدثر بغطاء السرير يترقب عودتى ، وعندما لمحته وأسرعت إليه ، اشاح بوجهه وقال :

– أسرع .. فهى قلقة عليك .

وعندما دخلت البيت وجدتها فعلا تبكى ، قدموا لى الشاى الساخن ، وعندما جلس هو بجواري قال في تأنيب :

– عندما تنوى أن تتأخر ، دعنا نعلم .

قلت : أنا أعمل فى جريدة ، وأيضا أعمل مشرفا ليليا فى مؤسسة للأحداث شهق الرجل وكأنه صدم فى إنسان عزيز وصاح :

– وكيف تسمح لنفسك أن تعمل وسط هؤلاء .. الأحداث .

قالت السيدة :

– يجب أن تترك هذا العمل ، أنت من أسرة فاضلة ، والدك ليس فى حاجة إلى عملك . ثم أنه عمل ..

قلت مقاطعا :

– أنه عمل يتناسب ودراساتى ، إنه يفيدنى وسوف أحصل على الدكتوراه عن هؤلاء الأحداث :

قال فى يأس :

– أنت لن تحصل على الليسانس ، أنت لن تنفع فى شئ على الإطلاق .

قلت ضاحكا :

– لا يهم

كاد يصفعنى ، ولكن السيدة أسرعت تدفعنى إلى الدخل وهى تشرح لى كيف ظل قلقا لغيابى ، ثم أنه بالفعل قلق على مستقبلك فأنت لا تذاكر مثل الطلبة الذين نعرفهم ، أنت هنا تشاكسه ، ثم تنام ، ثم تخرج طول اليوم وبعض الليل ، بكيت ، بكيت فى حسرة فقد اكتشفت أنها على حق ، وأنه أيضا صادق فيما قال ، وأن العام يكاد ينصرم وأنا مشغول بألف شئ وكلها لا تخص دراستى ، بل أصبحت **شغوفا** بالفرجة على النساء وتهفو نفسى إليهن ، وما كان هذا يحدث من قبل ، فى الجريدة يزاملنى (فؤاد) الذى يظل يتحدث عن النساء وحلاوة التعامل مع النساء ، وقدرته فى اصطيادهن بسهولة ، وفى المؤسسة يجلس معى (إسماعيل أفندى) يحدثنى عن مغامراته النسائية ، وفى الجامعة كل زملائى يتعاملون مع النساء ، بل أن (عبد الستار) أبلغنى أنه يتعامل مع سيدة على أن يدفع لها أول الشهر ولكنها تكتب كل مقابلة لها فى النوتة لا تنسى ، والبنات فى الشوارع قصرن الملابس ومزقن الأكمام حتى سار الفستان وكأنه قميص نوم ، و (فكرى) يتحدث عن حبه للصبيان ، ماذا أفعل ؟ قصدت منزل بلدياتى (الدكتور فتحى) ، وهو رجل طيب القلب ، يعمل أستاذا بالجامعة قريبا لأمى ، جلست معه – يرحمه الله – لم أحاول

أن أحكي له شيئا ، كنت فقط أريد أفيق ، أن أرى عالما أخر غير عوالم (فؤاد وإسماعيل وعبد الستار) ، ثم انصرفت من عنده ، لكي أتجه إلى أحد أصدقائي في (الحرس الوطني) والذي تدرب معي ، كان قد سافر إلى (غزة) وأصبح فردا من أفراد المقاومة قابلني في سعادة وأصر أن نتعشى سويا ولكني لاحظت وجود سيدة ممتلئة وليست بالصغيرة ، حاولت الاعتذار ولكنه رفض وطلب من السيدة تقديم العشاء ، وأكلت لقيمات وتذكرت (الباشا) وما سوف يقوله ، حاولت الإنصراف ولكن صديقي لا يريد مفارقتي فهو يتعرض للموت كل يوم ولا يدري هل يرأني ثانية أم لا ، كان يسكن نفس سكني السابق ، وكنت قد تنازلت له عنه عندما أراد سكنا يلجأ إليه كلما جاء إلى القاهرة .. وأقسم أن أبيت معه ، نظرت إلى السيدة التي كانت تناولنا أكواب الشاي أبديت رغبتي في الانصراف ، ولكنه أصر على بقائي ونام د. والمرأة على الفراش الوحيد ، ورقدت أنا على فراش خفيف على الأرض ، وحاولت أن أنام ، أنسى كل شيئ الأمريكان والروس وعبد الناصر والباشا الأسود .. والخمر المراقة ، والأزمنة التي تتداخل ، ونساء (فؤاد وإسماعيل أفندي) .. وإذا .. بالسيدة تتسلل إلى جواري وتلتصق بي ، كان جسدها حارا دافئا ، فزعت ، ناوشتني الرغبة وناوشتني المرأة .. ولكن صحوت وقفزت خارجا ، أسرعت إلى الشارع وجريت ، جريت حتى وجدت سيارة تنقلني إلى (السراية) .. وهناك سمعت كل ألوان التقريع ، وأن خففت السيدة بعضا منه ، ونمت بعمق لأصحو والسيدة تحمل لي كوبا من الحليب الساخن ، وقدمته لي وهي تقول في نغمة ذات معنى :

– من هي تلك السيدة التي ظلت معك طوال الليل .

فزعت ، وتلفت حولي ، فقالت وهي تضحك :

– كنت تحلم .. أليس كذلك ؟

قلت في صدق :

– لم يكن حلما ، كان واقعا مؤلما .. أريد أن أبوح أن أصرخ أن أتحدث أريد أن أبتعد عن هنا ، منذ أن جئت إلى هنا وأنا لست أنا .

قالت في حنان :

– أذن قص على ما تراه حتى يريح نفسك .

وجدتني أحكي لها ، أقول لها ما بداخلي ، ما يفز عني من نفسي ، فإذا بها تصغي السمع ، ثم ينسكب دمعها في هدوء على خديها ، وأمسكت بيدي ، وأخذتني إلى حديقة البيت وأجلستني قبالتها :

– سوف يحدث لك أكثر من هذا .. المهم أن لا تتوه يجب أن تعرف ماذا تريد ، وأن لا تجذبك المظاهر الخادعة ، الأحاسيس الكاذبة قلت فى صدق لم أعد أعرف ؟

قالت : بل تعرف .. أولا يجب أن تحصل على شهادتك العالية .. ثم أفعل ما تشعر أنه يلائمك .

تعودت أن أسمع ولا أنقل ما أسمعه ، لأننى أعرف ما سوف يقوله لى الناس فقد كان الجو العام من حولى متقلبا ، متوترا ، وأنا لا أفهمه .. (الباشا) يقص على خيانة الثورة لقضية السودان ، وكيف باعوها للإنجليز ، ويحكى عن غراميات (قواد) الثورة وانقلابات الجيش المتكررة ، وحكايات الاعتقالات ، وانفراد ناصر بالسلطة .. وأنا لا أصدقه ، أحضر لى العديد من الوثائق والشهود ، ولكننى لم أصدقه ، أبى كان يهمه أن أظل معه ، تعودت أن أسمع كلامه عن أهمية ترك المدرسة والدراسة لكى أتفرغ لمعاونته فى تجارته لأنها الأجدى ، ولأننى بالفعل (شاطر) أجيد كافة عمليات البيع والشراء بل أدخل فى صفقات يعجز عنها الكبار ، وأعرف كيف أحدد نوعية وجودة الأصناف التى نتاجر بها ، فأنا أجيد (فرز) القطن ، وهى عملية فنية معقدة تحتاج إلى خبرة ، وتعودت أن أتعلم من الكبار وأستفيد منهم ثم أحاول تطوير ما تعلمته وأبتكر أيضاً ، لهذا كان أبى مصمم على أن أظل معه ، وافترقت بنا السبل ، وتقاذفتنى الأعمال والوظائف وتكدست فى أدارجى ، الشهادات من كل لون ، وارتفعت كتبى حتى صارت هرما صغيرا بمكتبى ، قال أنه حزين لأننى لم أظل معه وأنه خسر الكثير بسببى وخسرت أنا أيضا الكثير ، ويومها شعرت أن ما فعلته فى دنياى لا شئ ، لا قيمة له ، مؤلفات لا معنى لها شهادات معلقة فى براويز ، ولكن قلة المال وقلة الحيلة يطلان على أسرتى من النافذة ، والآن وأنا أرقد هنا ، تحصى أبنتى ما تبقى معنا من نقود ، والبروفيسير يزيد فى المدة الطويلة للبقاء فى المستشفى ، والحياة ذاتها مهددة ، لا شئ .. لا شهرة تفيد ولا مال ، ولا جاه ولا منصب الكل هباء ، عندما دخلت المستشفى منذ سنوات ثلاثة رددت بينى وبين نفسى هل هذه هى النهاية .. لن أكتب ولن اقرأ ؟ ، ولن أفعل شيئا آخر ؟ ، هذه هى النهاية أن الصراع والمنافسة والاسم الذى يجب أن يكتب على أربعة أعمدة وأهمية الصورة مع المقال ، أنا الأفضل أنا الملك أنا وليس غيرى ، هكذا رأيت وسمعت (يوسف ادريس) يقولها ، وأيضاً قالها من قبله (طه حسين) و (الحكيم) وكل (الأدباء) ، هم وحدهم ، كل منهم يظن أنه الملك وأنا الآن أرقد لا حول لى ولا قوة فى غرفة الانعاش فى انتظار ما يحدث وأنا لا أملك لنفسى شيئا ، مرت الأيام ولكن الإنسان كلما أحس ببعض القوة ، ارتفعت هامته وهو يردد اللفظ الملعون أنا ، انا فعلت وأنا سأفعل ، وهو لا يدرى أنه لا شئ مهما كان ومهما كانت مناصبه وشهرته واسمه وسمعته كلنا نذهب ، تراب تذروه الرياح ، سمعت صوت الطبيب الآخر المسمى (شورم بورم) أو هكذا أطلقوا عليه ،

جاء لكى يأخذ عينة دم ، أنها عملية صعبة للغاية فلا عروق ظاهرة ، والآن يحتاج إلى صبر منـه وتحمل منى ، جاءت معه (جيس) ، كنت قد صارحته بعدم حبـى لـه وأننـى أود قتلـه ، نظـر نحوى وقال بانجليزية محببة لأنه من (التبت) ، أعلم أنك تـود قتلى ولكن لـن تفعليها إلا بعد أن تشفى ، ابتسمت ، راح يبحث عن وريد ، أستغرق وقتـا طويـلا ، صليت وذكـرت الله وسـبحت بأسمه وهو مستغرق فى البحث عن نقطة دم ، أخيراً استطاع أن يحصل عليـها ، هللت (جيـس) وقالت :

– ألم أقل لك أنه عبقرى !

عبقرى ، طبيب يعمل جراحا للقلب ، حاصل على درجة الدكتـوراة منذ عشـرة أعـوام ويعد عبقريا لأنه حصـل علـى نقطـة دم تصلح للتحليل ، نظـر إلى جـرح صـدرى وأمـر بتغيير المـواد المستعملة واستخدام شريط أطول حتى يستتر بـالدخل ، وضـع إصبعـه وراح يقيـس عمـق الجـرح شعرت بآلام لا تطاق ، قلت لنفسى : هكذا أنت اضطـررت لـترك المسـكن فـى (سـراية الباشـا) ، بكت السيدة بشدة لأننى تغيبت عنها ، لم أقل لهم أننـى سـأتركهم ، فقـط انتقلت إلى مسـكن أخر ، حجرة ببدروم فى إحدى العمارات القريبـة مـن الجامعـة ، كـان البـدروم بـه العديـد مـن الحجرات ، كل حجرة ، يسكنها خادم أو عامل فقير أو سيدة تعمل فى بيـع جسـدها ، القـذارة هـى العلامة المميزة لحجـرات البـدروم ، والعـلاقات بينـهم ودودة رحيمـة ، وأن كـانت تتسـم أحيانا ببعض العنف ، السيدات المحترفات لم يحاولن احتراف المهنـة مـع بقيـة الجـيران كنـا يتبرعن بغسيل الملابس وأحياناً تنظيف الحجرات ، كانت حجرتى خالية تمامـا بعـد أن تركـت حاجياتى هناك واستقلت من الجريدة ومن المؤسسة ، شعرت أن سنتى النهائية فـى الكليـة علـى وشك الإفلات منـى ، لم يعـد أبـى يعـرف طريقـى وبالتـالى لم أتلـق أى نقـودا منـه ، اضطـررت للإستغناء عن أشياء عديدة كنت أملكها أيام (العـز) لكـى أدبـر مصروفات طبـع رسـالتى وأيضـا طعامى وأجـرة الحجـرة وبعـض الضـروريات ، زارتنـى السـيدة حـرم الباشـا ، ولا أدرى كيـف عرفت مكانى ، ظلت تبكى ساعة كاملة لكى أعـود معـها ولكنـى رفضـت العـودة (ورجوتـها أن تخرج من هذا البدروم القذر ولم أهدأ حتى استقلت سيارة أجره كنت أختى عليـها مـن شراسـة الجارات ، فقد جاءت إحداهن بكوب من الشاى وهى تحملق فى الســيدة فـى ريبـه) ، عرفـت منها أن (الباشا) أصبح أكثر عصبية من ذى قبل وأنه على استعداد لمصالحتى بنفسه إذا كان سبب غيابى عنهم معاملته لى ، ولكنى رجوتها أن تعود ، فالحياة عندهم دمرتنى من الداخـل ولم أعـد قادرا على الحكم على الأشياء .. كنا نغنى عندما دخلنا منطقة البحيرات وكنـا نقـول أن ليبيـا والسودان هما عمق مصر ، ولن يفلح الإنجليز هذه المرة ، وعدنـا ، وقـالوا انتصرنـا ولكـن الباشـا ابتسم فى سخرية ، ورحت أبكى وأنا أعود إلى حجرتى تقدمت منـى إحـدى الجـارات وحـاولت

التسرية عنى كانت عطوفة رقيقة ، كلماتها لا توحى بأنها سيدة ذات سمعة سيئة ، بل كانت تتعامل معى بكياسة ولباقة ، أدهشتنى ، ثم قدمت لي بعض الطعام ، كان طعامى فى ذلك الوقت يعتمد فقط على الخبز والحلاوة ولا يكلفنى إلا ثلاثة قروش فى اليوم ، وأحيانا كنت لا آكل وأظل أعدل فى رسالتى أدخر كل قرش من أجل طباعتها .. وبالفعل تقدمت بها وكنت قد تحولت إلى هيكل عظمى ، ولم يعد هناك ما يمكن بيعه ، ونجحت ، كانت علاقتى مع جيرانى قد تحسنت ، عرفت فيهم اخلاقا كريمة وزمالة محببة وتكاتف لم اشهدة فى مكان آخر ، وهم يتفننون فى خلق الجو الضاحك مهما كانت الظروف كانت النساء يسخرن من أنفسهن لأنهن لم يستطعن الحصول على (زبون) وأنهن رجعن كما خرجن ، رغم الجوع الجنسى النهم البادى على وجوه الرجال والشباب وأحيانا يعدن وقد فقدن بعض ملابسهن وعلامات الضرب المبرح على وجوهين ، لانه تم الاعتداء عليهن عندما طالبن الزبائن بالفلوس ، ونحاول نحن أن نسرى عنهن ويقول جارى (السباك) : لقد ضربتنى زوجة مدير كبير على رأسى لأننى طالبتها بأجرة إصلاح الحمام وحملونى إلى الشارع وأنا أنزف دما ، ومع هذا فانا أعيش .. نضحك أحاول أن أضحك ينظرون نحوى نظرة أكبار وانبهار فأنا شخص متميز عنهم جميعا كنت صحفيا وكاتبا لحكايات مسلية ، وسوف أعود إلى عملى بعد (الاستمحان) .. ، ونجحت ولم أعد إلى البدروم فقد طلبوا منى أن أعود الى المؤسسة مشرفا مؤهلا ، ولكن رفضت ، وعينت فعلا فى مجلة ذائعة الصيت أيامها ورحبت بالعمل بها ، وكنت مشغولا بتكوين نقابة لخريجى المهن الاجتماعية والعاملين فى حقل الخدمة الاجتماعية بأشكالها العلمية الحديثة حتى نبعد عنها الهواة وعديمى التأهيل العلمى ، .. ثم وجدت أستدعاء من (كمال الدين حسين) عضو الثورة ووزير التعليم وأشياء أخرى وقتها لم أعد اذكرها ، وذهبت إليه ، وأحببته وشعرت أن مكانى بجواره ، وازداد هذا الأمر مع الأيام ، ومع تجاوبه القوى فى تنفيذ أحلامى ، وسافرنا إلى موسكو فى أول احتكاك عملى مع (الشيوعية) !

وسافرنا عام ١٩٥٨ ، وعرفت أن هذه الشيوعية صائرة إلى زوال ، وشعرت بالحزن ، الناس يتكالبون على شراء ساعاتنا المتواضعة لأنها من سويسرا ، وأجهزة التسجيل رغم خشونتها ، وملابسنا وكل شئ ، بل يشتهون ما نأكل ، نحن نقيم فى شبه سكن عسكرى ولكنه نظيف ومنسق وبه كل شئ ، ونقدم عروضا كوناها كما شئنا ، بعضا من رقص الخيل مع رقص تحية كاريوكا مع بعض الشعارات التى ليس لها معنى ، كنت صغير السن ، ومع هذا كنت أحد القادة الذين يلقون الأوامر ، ويسيرون الطوابير ويقودون الوفد الشبابى ممثلا للحكومة المصرية و كان معنا اساتذة اجلاء وشخصيات ناضجة تعرف أكثر مما ، أعرف لكنهم كانوا يتركون لى الأمر ، وعدنا ومعنا مجموعة من الأفكار والعديد من الأشياء المفيد ة للرياضة والشباب ، وهكذا بدأنا فى

تنفيذ المجلس الأعلى للشباب ، ومن هذا المجلس ومن احتكاكى بالعمل مع مجموعة الوزراء والخبراء والاساتذة تعلمت الكثير جدا ، بل أكاد أجزم أن ما أعيش عليه من خبرة حصلت عليها فى السنوات الخمس التى قضيتها فى العمل برعاية الشباب ، حين كانت حياتى مثل حلم جميل ، ما آراه فى الليل أحققه فى الصباح ، ساعدنى فى ذلك الرجل الذى أحببته كثيرا (كمال الدين حسين) ، إلا أن جاءت طامة (منظمة الشباب) و (تنظيم الطليعة) . حيث وأدت أحلامى ، وجعلتنى أهرب من عمل عشقته وملك على نفسى باتهام باطل ولكنه كان فى ذلك الوقت كفيل بإدخالى السجن ، ألم أقل لكم ليس لدى هنا مستندات وأرشيف فأنا لا أنوى كتابة مذكراتى ، إننى اتسلى ، احكى لنفسى ، أولا ثم إذا أراد أحد أن يسمع فليسمع ، ماذا يفعل مريض لا يعرف مصيره ، هل يستسلم لليأس أم يحاول أن ينصرف عن الداء والدواء وكل ما يحيط به لكى يعيش داخل نفسه ، يحاول أن يتذكر والسؤال يعذبنى ، كيف أضعت حياتى هكذا بين مشكلات الأحداث ومآسيهم ولعبة رعاية الشباب وما أحاط بها من آمال بينما هى فى الواقع مجرد شكل اشتراكى ، تقليد كما تفعل البلدان الاشتراكية التى كنا نقيم لضيوفها حفلات العشاء الباذخة ولا ننسى (الطعمية والبصارة) لأنها طعامنا الشعبى وأيضا البصل الأخضر وعلينا أن نشاركهم الطعام وأن نكون سعداء ونتظاهر بحب الاشتراكية التى تسمح للأغنياء والفقراء بأكل الطعمية ، وأذكر أننى كنت أتسول من اللاعب شبابا يوافق على الاشتراك فى حفلات عشاء الطعمية وبجوارها أطعمة واردة من فرنسا ، أيام لا أدرى كيف اكتبها دون أن يواجهنى أحدهم بالتشكك فى التاريخ أو الاتهام بالإساءة إلى العلاقات الدولية ، وحتى أريح نفسى أنا فقط أتذكر لنفسى ، قد تذكرت حفلات العشاء هذه لأنها كانت تتم بشكل يومى لا يقدر على تحمله زملائى ، فالطعام كان بالفعل دسما ، ولا بد أن يعقبه لونا من ألوان التسلية والحديث عن العلاقات الودية بين الشباب الإشتراكى عندنا وعندهم ، لأن الاشتراكية هى التى ستسود .. العالم . وأهرب لكى أؤدى صلاة المغرب والعشاء ، فى السر ، وكأننى أودى طقسا وثنيا لا يصح تأديته ، ثم يقولون الآن كلاما كثيرا ، كل الذين كانوا معنا فى التنظيم الطليعى سواء من تناسوا واصبحوا من عتاه الدعوة الإسلامية أو من أبطال الديموقراطية وحرية الرأى .. كانوا يتشدقون بكلمات رنانة العدالة والخبز وحق العمال فى السيطرة على العالم ، ولا أدرى لماذا يرغب كل أصحاب فكر ما السيطرة على العالم حتى هؤلاء الذين يشعرون بالظلم فان أحد المبادئ الهامة التى يدعون اليها ويصرون عليها السيطرة على العالم ، النازية ، الصهيونية ، الشيوعية ، الرأسمالية ، حتى أصحاب المذاهب المتطرفة .. كلهم يسعون للاستيلاء على العالم ، أنا أيضا سوف أستولى على العالم ولكن بطريقتى .

كانت ترمقنى بعينين سمراوتين ، وجهها رقيق أسمر ، لا تريد أن ترفع عينيها عنى ، تنهال على بالأوامر ، فى العملية الأولى كانت تقف هناك متربصة بى ، أكلت سندوتشا أو هكذا تخيلت أنها تأكل ثم شربت شايا ، فى العملية الثانية كانت أكثر عنفا ، أحاول أن أتذكرها لا يمكن أن تكون مجرد ممرضة إنجليزية أنها هى .. تلك الفتاة التى جاءت إلى مكتبى برعاية الشباب ، كانت تتدرب تحت إشرافى ، وكانت ذات شخصية قوية ، كانت تعاملنى وكأننى أنا التلميذ وليست هى ، دائما تتحدث وتطلب ، وتأتى مبكرا وتعاقبنى لأننى تأخرت ، دائما لها رأى فى كل شئ يخصنى فى طعامى ، وفى ملبسى ، وفى حركتى يومها لم أكن غير مهتم إلا بعملى ولم أكن متزوجا ، وكانت هى تتولى أمرى وتظل معى حتى آخر اليوم .. ، وكانت عيناها سوداوتان تبرقان ، وجهها دقيق رقيق سمراء فى خمرة محببة ، ضئيلة الجسد ، أناملها رشيقة ، وخطها جميل ، كانت تعد لى التقارير وتعاوننى فى الإشراف على الطلاب الذين ترسلهم لى الجامعة ، وتصنع لى طعاما خفيفا تحضره لى كل يوم ، ثم غابت فجأة ، شعرت وكأن شيئا هاما ينقصنى بحثت عنها فلم أجدها ، حاولت التحرر من وجودها الدائم بجوارى بعد أيام أخبرنى ابن خالى أنها كانت تحبنى بشدة ، وأنها فضلت الانسحاب لأننى لم أحاول أن أعبر لها عن شعورى ، لهذا آثرت الابتعاد ، أضاف ابن خالى وأنا اتوجه إلى فراشى فقد كان يزاملنى فى السكن أنها نعم الزوجة إذا أردت الزواج ، ضحكت وقلت لو أننى تزوجت من كل فتاة أحبتنى حتى الآن ، لأصبحت زوجا لآلاف من النساء ، نظر نحوى فى غضب وقال :

– ولكنها كانت تحبك حبا ملك عليها حياتها .

حاولت أن أتناسى ما قاله ابن خالى مصطفى ، كنت مسافرا فى فجر اليوم التالى إلى دمشق ، بعد الوحدة ، كنت مسؤلا عن التبادل الثقافى بين شباب سوريا ومصر ، وأعطونى سلطة واسعة إلى درجة تمثيل رئيس الجمهورية فى احتفالات الشباب السورى والمصرى ، وكان الأمر بالنسبة لى جدا لا هزل ولهذا وضعت فيه كل جهدى وخبرتى ووقتى ، لم تكن الوحدة فى حد ذاتها تشكل شيئا فى فكرى العام ، كانت مجرد عملا يجب أن أجيده ، لهذا كانت تصدمنى أشياء لم أتعودها ولم أتصور أننى سوف أراها أو حتى أسمع بها ، مثل (السنه) و (الشيعة) والفرق الاسلامية التى تكتب فى هوية الإنسان ، بحيث يصعب تعامل افراد كل فرقة مع افراد من فرقة أخرى ، ورأيت (صورة) الوحدة فى حفلات البزخ التى يقيمها تجار حلب ودمشق وحمص ، وسمعت لأول مرة الموسيقى التركية والموسيقى الشرقية القديمة ، كنت كأن عالما سحريا أنفتح أمامى ولم أكن شاهدته من قبل ، وتذكرت حجرتى بالبدروم عندما أكتشفت أن السيدة التى تسكن بجوارى (امرأة هوى) وأنها تحترف البغاء ، ياه .. أنها تبدو فى البيت سيدة عادية ترتدى قميصا أصفرا مثل كل نساء البيوت وتصنع المحشى والملوخية وتشترى كما تشترى كل

النساء ، ثم تقسم بالله أنها تحاول أن تتعامل مع الناس بشرف وعندما تبدأ جولة (العمل) تذكـر الله وتدعوه أن يوفقها وأن يرزقها رزقا حسنا ، ياه لم أكن أعرف أنها مثل بقية النساء كانت هذه أول مرة أرى فيها امرأة من هذا النوع ، وأيضـا كـانت هـذه أول مـرة أرى تجـارا مـن هـذا النـوع يبيعون السياسة ويتعاطون الاحزاب ويتباهون بفرقهم الاسلامية ويخططون للإطاحـة بالحكومـة على بركة الله وبأذنه ولا أحد يصدق ولا يريد أن يصدق ، وتيارات تفور وتـدور تحـت السطـح ، والإحسـاس الداخـلى أن السوفيت الملحدون يتدخلون وأن حكومتنا تخضع لهم .

و (التياترو) هو اسم غرفة العمليات ، هكذا كتب عليه وبحروف كبيرة دخلت إلى هنـا عـدة مرات ، تركني المرض الذى كان يدفعني على مقعد متحرك بجـوار جسـد شخص ميـت ، راح ينهي الاجراءات وأنا أرنو إلى الرجل المدد بلا حـراك ، لم أشعر بشئ وفـى الجراحـة الثانيـة شعرت وهم يقومون بخياطة فتحـة الصـدر وخاصـة غرزتـين أحدهمـا وسط البطـن والثانيـه فـى منتصف الصدر ، والغريب أنهما ظلا ينزفان مـده طويلـه ، وغـرز الصـدر أحتـاجت إلى جراحـه خاصه لانقاذ ما تلف من عظام الصدر ولكن بعد عدة أشـهر .. أتذكـر تلـك العينـين السـوداوين ، وهل هى ممرضة بمستشفى (أكسفورد) أم أنها تلك الفتاة التى كانت تتدرب تحت إشرافى منذ ما يقرب من أربعين عاما ؟ ياه الزمن يمر .. جاء الطبيب (شورم بورم) وأخذ عينة أخـرى مـن الـدم وكشف عن الجرح أعلا الصدر وقاس عمقه ثـم أمـر بـالمزيد مـن الأدويـة ولم يحـاول الانصـات إلى حديثى ، توجه بحديثه إلى ابنتى لأننى بالنسبة له لا أعرف اللغة الإنجليزية ضحكت ..

دخل فجاة ، صاح الله أكبر ، الله أكبر ، أشـهد أن لا الـه الا الله وأشـهد أن محمـدا رسـول الله (صلى الله عليه وسلم) حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا الـه الا الله ، وضع يده على ظهرى ، .. لكنته هندية أو باكستانية وقال اللهم رب هذه الدعوه التامـه والصـلاة القائمة أت محمدا الفضيلة والوسيلة والدرجة العالية الرفيعة ، صدق الله العظيـم وصـدق رسـولنا الكريم ونحن على ذلك من الشاهدين الشاكرين ، صلى بجوارى وصليت معه ثم جلـس يتلـو قـول الله سبحانه وتعالى ﴿ أعوذ بـالله مـن الشيطان الرجيـم ، بسـم الله الرحمـن الرحيـم ، لله مـا فـى السموات وما فى الأرض وأن تبـدو ما فى أنفسـكم أو تخفوه يحاسبكم بـه الله ، يغفـر لمـن يشـاء ويعذب من يشاء والله على كل شئ قدير ، آمـن الرسـول بمـا أنزل اليه مـن ربـه والمؤمنـون كـل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقـالـوا سمعنا وأطعنـا غفرانـك ربنا واليك المصير لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، لها ما كسبـت وعليـها مـا اكتسبت ، ربنـا لا تؤاخذنا أن نسينا أو أخطانا ، ربنا لا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ، وأعـف عنـا وأغفـر لنـا وأرحمنـا ، أنـت مـولانا فانصرنـا علـى القـوم الكافرين ﴾ صدق الله العظيم .

اسمه (محمد ايوب خان) من باكستان تعلم تلاوة القرآن الكريم فى كوبنهاجن حيث كان يعمل فى تجارة الملابس ، ثم جاء إلى لندن وافتتح شركة لإستيراد الملابس من تركيا ، وهو يقيم بجوار مطار هثرو ، وعندما علم أننى من مصر وأننى مسلم قرر أن يزورنى .. وهكذا صارت صداقة ، وود ، ولم يتخلف عن زيارتى طوال الأشهر الطويلة التى قضيتها فى لندن حتى الآن والتواجد بالمستشفى لا يخلو من هذه اللحظات الطيبة التى تخفف من حدة الألم والوحدة ، صرنا الآن أكثر من عشرة مواطنين جاء اليوم أحد ضباط الشرطة المتقاعدين ومعه زوجته ، رجل بدين ولكنه متفائل جدا ، كان يدعونى (شاويش المستشفى) بحكم أننى أقدم المرضى ، زوجته سيدة طيبة ، عرضت على ابنتى كل أنواع المعاونة وعرضت عليها المال والعون ، شكرنها ابنتى ، وتمنت أن تتم الجراحة لزوجها على خير ، وعندما أنهى جراحته وسمح له بالتحرك أصبح الآن يتردد على حجرتى ملبياً كل ما أطلب ، سمع زوج مريضة من الإسكندرية أننى أشتهى جبن مثل جبننا الأبيض ، جاءنى فى اليوم التالى بعلبة كاملة ، وجاءت حماته وهى تحمل دجاجا مطبوخا بالفعل فى الإسكندرية وخصنى بكمية وفيرة ، لا يتخلف زميلى (فاروق) عن الحضور وعن تزويدى بكل المعلومات ، شجعنى على إملاء عامودى الأسبوعى وارساله بالفاكس ، وشجعنى على إملاء قصة طويلة لنشرها فى ملحق الجمعة ، .. تذكرت أنهم فى سوريا كانوا يخططون للانفصال ونحن نقيم جسور التعاون ، بل كنت أنفق أسبوعياً ما يقرب من مائة ألف من الجنيهات على التبادل الثقافى بين الشباب السوري والمصرى ، وأخيرا ، حاصرونا فى استاد دمشق ولولا فدائية لاعبى الفرق المصرية لكنا الآن فى عداد الأموات ، فقد تم حصارنا بقوات من الجيش وفرق من الحرس وراحوا يضربونا بقوة واضطررنا للرد ، وهنا ظهرت مواهب لاعبى كمال الاجسام وعلى رأسهم بطل العالم (الجندى) ، ولاعبى الملاكمة ، وأيضا بقية الفرق التى خاضت حربا وكأنها معركة حقيقية حتى استطاعوا إخراجنا من الحصار ولم نصب إلا ببعض الجروح السطحية ، أحاول نسيان هذه الحادثة لأنها بعد هذا الزمان أصبحت لا شىء وإن أضافت لخبراتى الزيد التى كنت فى أشد الحاجة إليها ومع هذا فحفلات الموسيقى العربية فى حلب وحمص باقية فى ذاكرتى ، تذكرنى بليالى سوريا الجميلة والأصدقاء الذين احتفظت بهم !

لا أدرى لماذا لم يستخدم اللص ، والنصاب ، والخائن ، جملة توكلنا على الله ، إنه يتصور أنه مقبل على عمل طيب ، ضحكت عندما طاف هذا بخاطرى ، كانوا قد تجمعوا حولى ، بعضهم قارب الشفاء لهذا فهو قادر على الحركة حتى غرفتى والبعض الآخر فى انتظار موعد الجراحة ، وأقاربهم يتحركون ويسألون ويهتمون بكل شىء تزعجهم حالتى ، أردد أن حالتى حالة غير عادية ، وأن جراحتى كانت بمستشفى اخر غير هذا وعلى يد جراح إنجليزى وليس على يد البروفيسير ، والكل يتكلم، يحكى عن العذاب الذى لقيه وعن بدل النقل الذى لا يكفى

لشراء كوبا من الشاى . دخل رجل طويل القامة وحيانا بتحية الإسلام ثم راح يسلم باليد على كل من فى الحجرة ، ثم جلس وأخذ يتلو القرآن ، وعندما انتهى قال أن أسمه محمدا ، وأنهم فى الحى المجاور سوف يجتمعون غدا لختم القرآن والدعاء لنا جميعا بالشفاء ، وأن يومهم يستمر من الصباح حتى المساء ، يتخلله ساعة للراحة وتناول طعاما خفيفا وبعض الشراب الساخن ، كل منهم يحضر طعامه ، والنساء أيضا يفعلن هذا ، وسوف يخصصون الغد للدعاء لمرضى (الأولد كورت) ثم قال موجها الحديث لى :

– أريد أن أذهب إلى مصر لأرى فرعون .

حملق الموجودون فى وجهه ، قلت بصوتى الضعيف :

– ومن فرعون هذا ؟

قال فى إنجليزية واضحة :

– الذى جاء ذكره فى القرآن ، أكيد أنكم تحتفظون به ، على شكل تمثال أو على شكله القديم فأنا أعرف أن فى مصر علم التحنيط .

قلت :

– فرعون هذا لا وجود له ، وكلمة فرعون تعنى البيت يحكم منه الملك ، وتجاوزا قالوا لساكن هذا البيت (فرعون) ونحن لا نعبد إلا الله الواحد الأحد الفرد الصمد .

ابتسم وقال :

– كنت أتصور أنه هناك دائما فرعون هذا .

أسترح بعد أن شرحت له بعض تاريخ مصر ، وأخبرته عن (إخناتون) الذى يقال أنه رسول وكان ملكا حكم مصر مدة طويلة ووحد الدين . ونادى بعبادة الله الواحد القهار وكان أول من نادى بعبادة الله فى الزمن القديم ، وكانت مصر أول دولة وأول شعب عرف الوحدانية ، وأن هذا الشعب لم يسجد لصنم ولم يعبد الحجارة ، حتى فرعون الذى جاء فى القران كان يدعى الألوهية وهو يعلم أنه ليس إله وأنه يستمد ألوهيته من الله ، مضى الرجل وهو يحذرنا من أكل اللحوم والدجاج الإنجليزى لانهم لا يذبحونه بالطريقة الشرعية ثم أنهم يطعمونه دما محرما .

وعاهدت ابنتى على ألا نأكل إلا السمك ، وطعامى قليل ومع هذا ابتعدت عن تناول اللحوم والدواجن ، والكثير من الأطعمة التى يستخدمون فيها لحوما ، وحاولت أن آكل الفاكهة أو الجبن الذى يرد لى من الأصدقاء وكانوا يحضرونه من تركيا أو من مصر وشعرت بالدوار ، وغبت

عن الوعى الليلة الماضية التى لم اتحدث فيها إليكم ولا أدرى ما إذا كنت سأواصل الحديث أم أن هذا هو نهاية المطاف ، لا أريد أن أثقل عليكم بالحديث عن الألم واحتباس الصوت إلى درجة انعدامه ، ولا عن يدى التى تؤلمنى ولا تستجيب للعلاج ، والدماء تغطينى ، والأطباء يهرولون ، ولا شئ غير الخواء ، ولكن أتذكر تسبيحه ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم .

قررت أن أصلى الظهر فى المسجد الجامع بالرياض ، أو مسجد الحكم ، وذهبت إلى هناك والمسجد كبير جدا ، وقد أصلحوه وتوسعوا فيه ، وصليت وقابلت هناك العديد من المصريين لا عمل لهم ، والفاقة تبدو واضحة على وجوههم ، والإنكسار والمزلة باديان عليهم ، وعندما جلسوا بجوارى وعرفوا أننى مصرى انفضوا من حولى فى رعب وفزع ، وخرجت من المسجد ، وذهبت إلى (البطحاء) وهو ميدان رئيسى فى الرياض ، ووجدت الناس وكأنهم يوم الحشر ، جماعات متراصة ، أدقق النظر فاذا كل جماعة منهم لها ملامح واحدة ، وكأنهم أمة واحدة ، انهم لا يفعلون شيئا إلا الوقوف هكذا ، والشمس تلسع الوجوه هربت إلى الحوارى ، اشتريت ملابس جميلة لأولادى كنت سعيدا بالملابس على الرغم أنها أرهقت يدى من حملها ، ومع هذا اشتريت المزيد ، وتذكرت شوارع الحميدية بدمشق ، وحركة الشراء ، المصريون يشترون كل شئ وتجار الشارع سعداء وفى كل أسبوع أقود مجموعة جديدة ، وفى كل أسبوع أزور مع رفاق الرحلة شوارع الحمدية ، والمال ينسال فى الشارع ، ومع هذا أجبرونا على الرحيل دون حمل شئ ، وعاملونا بقسوة وكنت فى العادة لا أشترى إلا ملابس للاستخدام للمرة الواحدة لأنه لا وقت عندى لغسيل الملابس ، لهذا لم أفقد الكثير ، ولكنى زملائى فقدوا الكثير وعدنا بعد أن شعرنا أن كل ما فعلناه كان بلا معنى ولا فائدة ، عدت إلى قواعدى فى المجلس الأعلى للشباب أحاول أن أعوض فشلى ، وطاوعنى من بيده السلطة فرحت انشغل فى إنشاء العديد من مراكز الشباب ومعسكر اتهم ، وبدأت أشعر بنجاحى ، وثناء العديد من الوزراء الذين كانوا أعضاء فى المجلس .. ولكن هل اكتفيت بهذا العمل ، لم أفعل ، تعودت أن أعمل فى أكثر من عمل ، هكذا تعودت بدأت فى انشاء شركة للسياحة ، وتأليف كتاب فى الرحلات ، والدخول فى سلسلة من المعاهد العليا والسفر إلى إيطاليا ، وهذه لها حكاية خاصة ، أنا يا زوجتى نصف مجنون ونصف غبى ومتهور وعاطفى ومتقلب وأشياء عديدة ، لا يمكن ان تصنع إنسانا سويا ، تهاجمنى آلام اللوزتين وألم فى الصدر وأشعر أحيانا بالصداع ولا أستطيع النوم ، عندما أرقد عقلى يدور مثل الماكينة (الخرسانة) كل ما أكتبه أو افعله يدور وأنا راقد ، أعد الساعات نحن الآن فى الثانية بعد منتصف الليل ، ها نحن نقترب من الثالثة صباحا ، سوف يؤذن لصلاة الفجر بعد قليل ، لم انته بعد من رصد حركتى فى الأيام القادمة وأيضا محاسبة نفسى عن الأيام الماضية ، أنا الآن بمستشفى لا أملك إلا رصد ما بقى والبكاء على ما فات ، أخاف الليل والطبيب يعطينى جرعات

كبيرة من الحبوب المنومة ، لا أنام ، أتابع الليل الأسود خارج نافذتى أحيانا أتصور أشياء جميلة ، شاهدت منظرا منفرا فى التليفزيون البريطانى إغتصاب فتى فى الخامسة عشرة فى مدرسة داخلية أو فى سجن لا أدرى ، لم أرى المشهد كاملا ، فقد أسرعت بإغلاق الجهاز ، ولكنه ظل يطاردنى ، ولا أحب العنف ، انتحر الفتى بعد الحادث ، ثارت نفسى ، غضبت غضبا شديدا ، لماذا لم يحاول قتلهم ، لماذا لم يحاول الانتقام ، لماذا أسرع بالانتحار ، الإحساس بالعار شىء مهين ، ولكن لا يكفى الإحساس بالعار يجب أن يجاوره العنف ، الإنتقام ، الأخذ بالثأر ، لماذا تبدو أفضل منى ، كلنا عجزه مصابون بالإنسانية الذليلة ، فلماذا تحاول أن تأخذ منى ما لا حق لك فيه ، لماذا تحاول أن تتنمر أن تصبح أسدا وأنت مجرد خروفا قابل للإلتهام ، نحن بشر ، لا .. لقد أزعجنى هذا الذى رأيته ، لا أحب الظلم ، لقد ضربونا فى استاد دمشق ، ولكننا حولناها خرابا فوق رؤوسهم ، أطحنا بهم قبل أن يطيحوا بنا ، انسحب الجيش المصرى ، لماذا لم يحاول الدفاع عن المواطن المصرى ، لماذا نشعر بالقهر ، يحجزوننا يوما كاملا فى مطار جدة ، لمجرد أننا مصريون أننا لا نهتم نحاول الانتحار لا أحب الانتحار ولا أحب الظلم ، ولكن أعشق العين بالعين والسن بالسن والبادى أظلم ، وإذ كنت أنت إنسانا لك عقل ، أنا أيضا املك ما تملك ولى حق الدفاع عن نفسى ، بل أقتلك إذا لزم الأمر ، والبادى أظلم ، هكذا تعلمت وهذا الطبيب الذى سمح لنفسه أن يحولنى إلى شبه إنسان عاجز مريض وسوف أنتقم منه لو أستطيع قتله لفعلت ، ولكن هناك أساليب أفضل ، وأيضا هذا الأستاذ الذى كان صديقا والذى باعنى للطبيب الإنجليزى ، لقد تحولت الحياة إلى حياة حشرية دموية ، لأننا انسحبنا بعد ذلك من اليمن ومن سيناء ومن كل مكان انسحبنا بعد أن تظاهرنا بالقوة وما نحن كذلك ، .. الليل لا يريد أن ينتهى ، وأنا فى ضيق شايا أتمنى أن تأتى الممرضة لتعلن أن الساعة تدق السادسة أريد أن أتحرك من الفراش ، أن اترك الغرفة أن أشرب كما تعودت فى الماضى كوبا كاملة مرة واحدة ، أريد أن القي جسدى فى البحر واسبح فى الماء البارد ، وأغوص ، وأشاغب من حولى ، وأجرى خلف ابنى ، وأمسك بابنتى الخائفة .. الماء يتدفق حول جسدى باردا لطيفا ، وينساب داخل حلقى رقراقا متدفقا يروى الظمأ ولكن الصباح لا يأتى ، وأتذكر الصلاة وأصلى ، وأسبح وأغوص فى عالم جميل يهدهدنى ، أقف فى نهاية الطابور ، الرجال يرددون بموت جماعى رتيب الله .. الله .. أردد معهم الله .. الله يصفق المنشد وهو يردد صلاة الله على محمد صلاة الله على الامين ، .. اسبح باسم الله ، أردد الواحد ، الأحد المنان .. يا رب خذ بيدى ، أنقذنى ، الجأ إليك ، أنت البداية والنهاية الملجأ إليك وبك ، اهدنى إلى الصراط المستقيم .. وجاء الصبح .

الفصل السابع

أسرعت نحوى والسعادة تغمرها ثم وضعت طبق البيض المقلى المغطى بخبز أسمر ، قالت: جئت به توا من المطبخ ، أعرف أنك تحبه هكذا كل أنت لا تأكل ولا أحد يود أن يطعمك ، البيض يصنع فقط فى المطبخ الرئيسى ثم يوزع على الأقسام التى توزعه بدورها على المرضى ، فيأتى إليهم باردا .. أنهم يتشاجرون ابتسمت رغم الإحساس بالهزيمة أثر ليلة مملوءة بالأحلام المؤودة والآلام التى تقسم الظهر ، نظرت إليها تلك السمراء الطيبة أنها من جنوب أفريقيا ، متزوجة من رجل إنجليزى أبيض يعمل فى هولندا ، لديها أربعة أطفال ، تعمل هنا فى قسم نظافة حجرات المرضى ولكنها دائمة الابتسام ، سريعة الضحك ، تآلفت معها بسرعة وبدأت تقدم لنا المعونة كلما أمكنها ، ليس من وظيفتها إحضار الطعام ولكنها تفعل هذا من أجل خاطرى ، تسكن فى بيت ذى حديقة وتعيش حياة سعيدة مع أولادها وزوجها السيدة المشرفة على الطعام فى القسم تعاملنى أنا وابنتى بطيبة شديدة ، ومرح إيطالى لطيف ، فهى دائما فخورة بأنها من أصل إيطالى ، تحب كل من يأتى من بلاد المتوسط ، وقد أحبت ابنتى ودثرتها بأمومة بالغة العطف ، إلا أن السيدة السوداء تحاول هى الأخرى أن تحضر لى البيض المقلى كل صباح فى السادسة صباحا ، وتحاول أن تتكلم معى ولكن مرضى كان شديداً وحالتى تزداد سوءاً ، فلم أعرف كيف أبادلها نفس المودة ، بل نفس الحديث وحرارته ، ظلمتها بصمتى الدائم ، وعندما انتقلت إلى المستشفى الثانى وجدتها هناك ، اقصد وجدت مثيلتها ، زنجية أيضا من جنوب أفريقيا وتعمل فى النظافة ، تضحك باستمرار كما كانت تفعل السيدة الأولى فى أكسفورد وتسرع لتلبية أوامرى ، وتحضر لى هى الأخرى أطعمة خاصة من المطبخ ، بل تطوعت بغسيل الملابس بعد أن تركتنى ابنتى وسافرت وراحت هى تفعل لى ما كانت ابنتى تفعله ، وحاولت إعطائها نقودا ولكنها رفضت ، كانت أصغر سناً من السيدة السوداء فى أكسفورد ، وكانت ظروفها معى أفضل فكنت أبادلها الحديث ، وأحيانا أخبرها بأننى سوف أصحبها إلى مرقص يوم الأحد عندما أكون قادراً ، فكانت تضحك وهى تضحك دوما حتى ولو لم يكن هناك ما يُضحك .

محطة (الكوتش) اقصد محطة أتوبيس الأقاليم تقع فوق رأس ، الطريق الأسود الذى يقطعه هذا (الكوتش) جيئة وذهابا كل خمس دقائق بجوار سريرى ، والجو الحار خانق ولا نسمة

هواء ، أكاد أشم رائحة تراب الحجرة وأنادى على السيدة التى تسرع بتنظيف الحجرة ، وتضع لى مروحة هوائية وإناء به ثلج وتقول :

– لم نشهد هذا الحر منذ سنوات عديدة ، والماء شحيح ، ولا يأتى إلى البيوت إلا كل ثلاثة أيام والحديقة ذبلت وكادت تموت .

الجو خانق ، لا أدرى لماذا لم يفكروا فى وضع أجهزة تكييف ؟ ثم لماذا أقاموا مركز جراحات القلب بجوار محطة الأتوبيس ؟ إنه يعذبنى ، وأشم رائحة نفاذة وكأنها صادرة من داخلى ، أتحمل ، لم تعد (لويز) تعاملنى معاملة حسنة ، أو هكذا أصبحت أتصور ، وأيضا هذا (المايكل) الذى يتباهى دائما بأنه زار مصر وأقام فى فندق (هيلتون) .. هذا الممرض يعاملنى وكأننى مجرد شخص معتوه ، والممرض الطويل الذى تصورت فى أول الأمر أنه رجل عاقل ، أخبرنى أنه قضى الليل مع زملائه فى شرب الخمر ، وأنه يفعل هذا دائما ويتغنى بحبه للخمر ويؤدى عمله فى روتينية مملة ، وناديت على (لويز) كانت تبدو مثل طالبة تحبو فى الصف الأول لايبدو عليها خبرة الفتيات الإنجليزيات المحنكات ، وجدت ليا مثيلا بعد ذلك فى مستشفى (الأولد كورت) ، تلك البولندية التى تعمل فى الكافيتريا ولا تعرف شيئا عن العالم المحيط بها بل ارتبكت عندما اكتشفت فجأة أن غدا عيد ميلادها الخامس والعشرين ، (لويز) كانت مثلها ، جاءت وعقدت صداقة وطيدة مع ابنتى ، وأحسست أنها سوف تعاملنى معاملة حسنة أو على الأقل سوف تلغى هذا البرود الإنجليزى ، ستكون أكثر حرارة فى التعامل ، وتذكرت حنان ممرضتى فى مستشفى الفيروز التى كانت تصنع لى الشاى ، وهى لا تشربه ثم تشكو من زوجها لأنه دائما يذهب إلى البيت قبلها ويأكل الطعام الذى أعدته طول الليل ثم لا يترك لها شيئا تقول هذا كل يوم وتضحك ، وانظر إلى يدها وهى تناولنى الدواء أو تأخذ عينة من الدم أو تساعد الطبيب فى رفع الأربطة ، أتعجب كل هذه المهارة فى أيدى ظلت طول ليلها تصنع (صوابع المحشى) ، أقارن حكيمات مستشفى (الفيروز) بممرضات وحكيمات (أكسفورد) ، هنا لا يكلمونك فى صناعة المحشى أو كيف تضع البصل فى السمن بطريقة لا تجعلك (تعطس) كما كانوا يحدثوننى فى (الفيروز) ، أو قضاء الليل فى محاولة للبحث عن اسم فتاة لطبيبة على وشك الولادة ، يقولون هذا وهم يتحركون ويقدمون الخدمة الطبية للمرضى ، ويتضاحكون معى لأننى متابع كما يقولون ومشترك فى الحديث عن محشى ورق العنب ، بل أن الأستاذ الجراح المصرى الأصل والأمريكى الجنسية الذى أجرى لى الجراحة الأخيرة ، كان يحدثنى عن عشقه للمحشى ، وكيف أنه كلما زار أقاربه وجد أنهم قد أعدوا له أطباقا من المحشى ، يقول هذا وهو يتابع فى اهتمام آثار الجراحة ويأمر بما يراه ، وأدعوه أنا أيضا إلى (حلة محشى) ، ولكن بعد

أن أعود إلى بيتى ، تختلط الأمور فى عقلى ، ولا أدرى هل لازلت فى أكسفورد مع (مستر وسبى) أم نقلونى إلى مستشفى آخر ، تشابه الآمر علىّ ، أردت أن أتحرك أن أفعل شيئا ، قالت (لويز) أن جارى مسلم وأنهم يجرون له عملية خطيرة لمرض خطير أصيب به وأن ولده يجلس وحده فى الحجرة يبكى حملتنى إليه ، كان فتى نحيفا أسمر الوجه لم يكن يتكلم العربية ، قال بالإنجليزية أنهم اخذوا والده إلى المسرح ، يقصد غرفة العمليات ، وأنهم تأخروا قلت (للويز) دعينى معه ، حاولت أن أسرى عنه ، والده أمام المسجد ، وهو يعمل فى مطعم ، إقامة الأسرة هنا فى أكسفورد لم أتركه إلا بعد أن أخبروه أن الخطر زال عن والده دفعتنى (لويز) إلى حجرتى ثانيةً ، فى اليوم التالى جاء لزيارتى وأحضر معه طعاما باكستانيا ، أرزاً ودجاجاً ، كانت رائحة الطعام تبدو مألوفة فهو نفس الطعام الذى نأكله فى مكة والمدينة ونحبه ، أكلت ابنتى ولكن لم أستطع ، كان حلقى يؤلمنى والرغبة فى الطعام غير موجودة ، وفى اليوم الذى يليه جاء أيضاً ومعه زوج شقيقته وكانا معهما طعاما كثيراً ، قال أنه طعام حلال لأنه مذبوح على الطريقة الشرعية وأنهم تخصصوا فى صناعته ، حاولنا أن نشكرهم فالطعام كثير ولكنهم أبوا ، وتكررت الزيارات ، حتى جاء الأب أخيرا ، رجلا ذو لحية طويلة بيضاء رأسه يحيط بها شاش أبيض كثيف ومعه زوجته التى شكرتنا على أننا حرصنا على السؤال عنهم وكنا بجوار ولدهم الصغير ، وأخذ الرجل يتمتم بصلاة شكر ، وانصرفوا جميعا ، ولكن ظلوا يرسلون لنا الطعام حتى غادرنا المستشفى .

وزوار المرضى ، مختلفون ، متباينون ، كان حظى منهم كثير يحضرون يتكلمون أحياناً عن تجارب مرت بهم أو بأقاربهم ، وأحيانا لا يتكلمون فى المرض ، وكنت أحيانا أشترك معهم فى الحديث وأحياناً أخرى أظل صامتا ، وأن كنت أعترف الآن وأنا فى وحدتى هذه أنهم جميعا بلا استثناء كانوا رحماء بى ، أسعدنى وجودهم سواء كانوا مجرد مصريون جاءوا للواجب أو من أقطار أخرى ، هذا بالإضافة إلى التليفونات التى لم تكف عن الرنين والسؤال ، وتذكرت حديثاً قدسياً معناه أن الله سبحانه وتعالى سأل عبده لماذا لم ترن يا عبدى ؟ فقال العبد وكيف أراك يا الله ؟ وأنت الله ، قال : ألم يكن فلانا مريضا قال : بلا قال الله تعالى لو كنت زرته لوجدتنى عنده فأنا عند عبدى المريض حتى يشفى ، صرخت من أعماقى يا الله أعلم أنك هنا بجوارى أمدد يدك إلى فأنا أمدها قدر استطاعتى وأعلم أنك بجانبى ، فإذا كان المكان والزمان محدودان لا يسعانك فأنت خالق الزمان وخالق المكان ، امدد يدك إلى ، أنت الشافى والله وحده الشافى أنقذنى يا الله ، أسعدنى هذا الحديث القدسى ، وظللت أردده ، وأرى زوار حجرتى يتوافدون وأنظر إليهم ، ها هم عباد الله الذى يراهم الله أسألهم الدعاء ، وحضر رجل مسن بريطانى ظل يردد أنه زار مصر مع (ونيستون تشرشل) عنده) زار تشرشل مصر أيام الحرب وأنه أكل حلاوة وطحينة وظل يردد

هذا كلما حضر لزيارتي علمنا أنهم حددوا له أربعة أشهر فقط هي كل ما تبقى له في الحياة ، ومع هذا يتحرك ويقرأ ، وكلما قرأ شيئا يخص بلدنا يريني إياه ، ويكرر أنه يتمنى أن يأكل الحلاوة والطعمية ،فقلت لابنتي أرسلي في طلب ما يشتهيه من الأصدقاء ، ولكنه قال : أنه يحب أكلها في مصر ، وأنه سوف يسافر بعد أن يخرج من المستشفى ، كان رجلا طيبا يدفعني لكي أحاول التماسك ،وزارنا صديق له زوجه في حاله صحية سيئة وتقيم بالمستشفى أكثر مما تقيم في البيت ، يزورها يوميا ومعه بناتهما ، عرف بوجودي فجاء مسرعا ، حمل إلينا من الفاكهة ما لا طاقة لنا به ، أصنافا وأشكالا نادرا تجتمع في وقت واحد ، ولكن لم أكن أرغب في الطعام أو الشراب أو الفاكهة ، وظلت مكدسة بغرفتي ولا ندري كيف نتخلص منها ، ومع هذا ظل يزورنا كل مساء جالبا معه كل ألوان الطعام والفاكهة وعرفنا أنه يدير مجموعة محلات لأطعمة عالمية مشهورة ، وقد أخذ ابنتي إلى أحد المطاعم لتشاهدها وتأكل ما تشاء حسب رغبتها ثم دار بها أنحاء أكسفورد ، وكنت أنا وهي لم نر مدينة أكسفورد ، ويوم تذكرت أن أول قصة قرأتها وأنا طفل كانت بعنوان (فول مدمس أكسفورد) وأذكر أنها كانت عن تجربة أحد الطلاب من مصر أقام مطعما للفول المدمس في أكسفورد خلال دراسته هنا ، وظلت أكسفورد مرتبطة في ذهني بالعلم والعلماء والآداب والفنون والجامعة ، كما ظلت قصة الفول المدمس تدور في عقلي كلما أكلت هذا الطعام ، والآن لا أرى فولا مدمسا ، ولا أرى علما ولا علماء ولا جامعة ولا أدب ، مجرد حوائط بيضاء لحجرة كئيبة في قسم جراحة القلب . وجراح اغتالني ثم هرب وتركني بين الحياة والموت ومستشفى تمور بالمرضى والممرضات والأطباء ، وتشعر أنك داخل مستشفى القصر العيني بضجته الفريدة ولا أحد يهتم بك ، جيش من الأطباء ولا تدري من هم على وجه التحديد يسألونك كل صباح ثم لا يفعلون شيئا ، وطبيبات العلاج الطبيعي وكأنهن يعملن في سيرك متجول يتحركن حولي في بهلوانية لا أفهم معناها ، ثم لا شئ بعد ذلك ، ممرضات متحجرات القلب لا يفعلن شئ كأنك مجرد (رجل خردة) لا نفع فيه ، متكبرات ، الكثير من البرودة – والكثير من الإهمال ثم يقولون لك التمريض هو الأهم ، ولا أدرى أين هذا التمريض وأنا أتبول في فراشي وأكاد أفقد السيطرة على جسدي – أنا إنسان مهزوم ، لولا التمسك بالإيمان بالله لأسلمت الروح ، والروح من عنده وحده . والشفاء من عنده وحده ، وهؤلاء لا يعرفون هذا ، ولا يودون معرفته ولا يهتمون ثم يقولون المهم التمريض .

كنت قد اشتريت أسدا بنيا جميلا من الفرو الناعم – ووضعته أمامي في الحجرة عندما دخلتها ولأول مرة ، وكنت أضحك أنا وأبنتي وكلما نظرنا إلى الأسد الصغير الذى اشتريناه لولدي (محمد) ولكن عندما رأيت ابنة صديقي صاحب المطعم وهي تحدثني بالعربية فهي تعيش في مصر فترة الدراسة ولا تأتي إلا في الموسم الصيفي ، أسرعت بإعطائها الأسد حتى أن ابنتي

تأثرت بشدة لأنها كانت تحب هذا الأسد الصغير وتود أن تعود به إلى أخيها الصغير حتى تسعده ، وكنت قد أحضرت معى كثير من الهدايا فرحت أوزعها على هيئة التمريض .. ، وأعطيت ابن الجراح إحدهما كما أعطيت الجراح هدية لطيفة حملتها من مصر ولم أندم على الهدايا ولكن شعرت أنها لم تكن مهمة بالنسبة لهؤلاء الذين أخذوها ، كانوا من البرود وعدم الإحساس لدرجة أننى ندمت بعد ذلك على تقديمها إليهم ، وعندما جئت هنا إلى المستشفى الآخر كانت ثمرة (الجوافة) أو (حبات التمر) التى أعطيتها للمرضة تقابل بالشكر لا حدود له .

كانت ابنتى تجرى اتصالات تليفونية بأسرتى ، وكنت أكتفى بسماع أصواتهم فقط لعدم مقدرتى على الحديث ، مجرد سماع أصواتهم وكنت أبكى لأننى لا أستطيع الإجابة على ابنتى أو على أبنى ..

جاء بطلعته البهية فى اليوم الخامس والستون كان رقيقا وطويلاً ومهيبا حاملاً بعض الزاد جلس محببا وقدم لنا الزاد وقال فى إنجليزية رقيقة : أن هذا نصيبك ، ثم بالعربية (أمر الله) قلت فى عفوية : اليوم هو الخامس والستون ، امسك بذراعى المصاب وأخذ يتلو القرآن بصوت خفيض ولكنه واضح ، ثم قال الصبر ، ليس أمامى إلا الصبر ، الصبر على البلاء ، والصبر على المكوث حياً ، أدعو الله كل حين ، وكلما مر بخاطرى ما يضايقنى دعوت الله ، أحاول أن لا أتذكر أولادى تعودت أن أفعل هذا فى سفرى ، ذات مرة أخذت صورة مشتركة لأولادى وكنت فى زيارة لمدينة دبى ، لم أستطيع المكوث أكثر من أسبوع ، كل صباح تطالعنى الصورة التى علقتها على المرآة ، بعدها لم أحاول أن أحمل صوراً لهم ، أبتعد قدر الإمكان عن تذكرهم – كيف يلعبون ؛ كيف يتكلمون ، تذكرت كل أخطائى وخفت عذاب الله وبكيت سألته المغفرة ، الله أعلم بأخطائى وذنوبى وهى عديدة كثيرة ، لا تقنطوا من رحمة الله ، أرفع رأسى وأدعو الله المغفرة ، أبكى وأنا قابع وحدى فى ظلام الغرفة سائلاً المولى عز وجل أن يسامحنى ، إذا كان ما نزل بى عقابا عن تلك الخطايا والذنوب فأنا أتحمله ولكن لا يكن بك غضب علـى ، أنا مجرد عبد ضعيف ، حاولت وفشلت ، وكنت فى كل عام أجلس وحدى لأسجل أخطائى وعيوبى وماذا فعلت ولكن نسيت هذه العادة ، جذبنى التيار بعيداً ، يسألنى (باديا) لماذا لم تعد كما كنت ؟ قلت : عجزت عن التحليق ، وعجزت عن التركيز وضاع منى الأمل والحلم ، ولم أعد أنا هذا الإنسان الطاهر الذى يسعى فى محبة الله ، أجلس فى المساجد وأسهر مع الذاكرين ، لفعتنى الثورة ، حملتنى إلى وكر الغرور ، ها أنا على وشك أن أتقلد المناصب العليا وأصبحت علاقاتى بكبار الرجال ، وعرفت أن هؤلاء الرجال ماهم إلا قشرة مزيفة تحتها يقبع طفل يسعده كلمة حلوه ، لفظ جميل ، ولا شئ داخل السترة إلا مجرد رجل حالم كان يتمنى أن تصير مصر على رأس الدول ، مجرد حلم لم

يمارسه من قبل ولا يعرف كيف يتحقق ، ولم يدرس ولم يتعلم ولا يحاول أن يدرس وأن يتعلم كيف يحول الأحلام إلى حقائق ، والخيال إلى واقع قالوا نقيم مجلساً للشباب ، وأقمناه وجلست شهرا وحدى لكى أكتب ماذا يفعل هذا المجلس ثم إذا ظهر ما كتبت تلقفوه وأذاعوه ذهبت إلى موسكو وروما وأسبانيا ، وجئت لكى أطبق ما تعلمت ولكن كان هناك ذوى المناصب والأحلام يقفون هناك خلف متاريس الثورة يحاولون ، وكنت مجرد شخص ، جندى مجهول الهوية ولكنه يفعل كل شئ فليذهب المجد إلى حيث شاءوا هم ، ولتذهب كل الأشياء فأنا لم أعد أتحمل ، ولا أجيد رد الاتهام إذا وجه إلىّ ، ولا أجيد الإجابة المقنعة ، إذن يجب أن يبقى فى الظل ، وإذا أردت الحديث فأنت هالك لا محالة وقلت أن الدين فى شعبنا منذ أن وجد ، وإن حذف الدين والتدين هدم لأركان هذا الشعب ، انزعجوا قالوا أنت مجنون وتكالبت الذئاب ، وأنا وحدى كيف أسبح ضد التيار وأنا لست بطلاً فى السباحة ، وليس لى فى حيل الإنقاذ شئ ؟.. جاء بطلعته البهية ، يسألنى أن أشاركه الطعام ، أن أغمس يدى فى الطبق ، حاولت ، ولكن السعال اللعين هاجمنى بشدة ، ارتعب هو ، حاول أن يستدعى الطبيب ولكنى رفضت ، كنت أود أن يظل معى ، كان يذكرنى بليالى الذكر فى مضيفة (سيدى يوسف) بقريتى – ونفر من أهلى يرددون اسم الله ثم سقونى بلسما ، قالوا هذا شرابنا لا يشربه أحد سواك ، من اليوم لم يمسَّك ثعبان بأذى ، قلت : أجلس بجوارى وضع يده على ظهرى وراح يتلو كلمات الله ، الحمد لله يا رب هكذا كان الحلم بالأمس ، وقد تحقق اليوم ، وسأذكر هذا ، يحيطون بى لا يفهمون ما أمليه على مسجلى ، كلماتى تبدو مبهمة يسألوننى ولكن ماذا أقول لهم ، لا شئ ، إن كل الأشياء تساوت من سافر ومن لم يسافر ، من كتب ومن لم يكتب .

فى السادسة يحضرون ، يجب أن أغادر الفراش ، إنه غيار الفراش ، وموعد الحقن اليومى والعمل الروتينى فى كل المستشفيات أرقام الحرارة والنبض والضغط وكمية البول وأشياء عديدة ، أحاول أن أرى برامج التليفزيون المصرى ، أنها هنا تذاع بواسطة جهاز خاص ، فى أكسفورد لم يكن هناك شئ من هذا كان هناك خط أتصال مباشر مع بيتى بالقاهرة ، وهكذا كنا نتصل باستمرار ، أما هنا فالمكالمات مكلفة والمال بدأ ينفذ ، والأيام تمر ، ولا أحد يعرف متى نخرج من المعتقل رقم ١٦ وهو رقم غرفتى ، يحضرون طعام الإفطار ليظل أمامى ثلاثة ساعات كاملة أحاول تناوله ولكن يدى لا تطيق كسر البيضة ولا فتح كيس الجبن ولا كيس الخبز والسكين يستقر على الأرض ، والشاى يندلق دون تحكم ، أحيانا تمر بى أحدى الموظفات لتقص أظافرها ، وتلاحظ إننى لا أستطيع أن أفعل لنفسى شيئا ، تحاول أن تساعدنى ، ولكن البلع صعب والفم ملتهب ، وأخيرا تحضر ابنتى لكى تجعلنى أرتشف بعض الشاى ، فى التاسعة تتغير الأحوال ، فابنتى معى ، ويحضر الدكتور بانديا ويقومون بتغيير الأربطة وفتح الجراح لإخراج

ما تجمع من دماء ، ابنتى ترى هذا محاولة دون جدوى يطلبون منها الإنصراف ولكنها ترفض .. أذهب أنا للصلاة ، أحب الصلاة فى مسجد قريتى ، رطب ، مظلم قليلا ، به نسمة هواء خفيفة وأحب الصلاة بجوار النيل ، والماء يجرى أمامى ، كم أشتاق إلى النزول فى الماء والسباحة لمسافة طويلة ، والماء من حولى من كل جانب ، سكون هائل ، الماء يحيطنى والسماء من فوقى ، ثم لا شئ ، أكمل فى الماء دون حراك أتأمل لون الماء ولون السماء ، أحب لون ماء البحر كما أحب لون ماء النيل ، وأحب السكون ، أذهب إلى حقول البرسيم فى الشتاء ، أنام محتضنا أعواد البرسيم الطرية الرطبة تنكسر بعض العيدان تحت ثقل جسدى اسمع بكاءها ، أستدير محاولا الاعتذار ، ألملم الأعواد المكسورة ، أعتذر لها ، أرجوها المغفرة ، تسمعنى ، أحتضنها بنعومة ، ما أسعدنى ، وأنا أعيش وسط هذا العالم الأليف الذى يسبح بحمد ربه ، أرفع عقيرتى مسبحا ينسال الدمع من عينى ، أدور بجسدى كله وسط عيدان البرسيم ، البرسيم لا يحيطه شئ ، واسع عريض فسيح ، مثل ماء البحر وما النيل ، وأنا وسط هذا المحيط الأخضر يتنفس جسدى بقوة ، ترتعد أوصالى محبا عاشقا ولهانا مسبحا لله الواحد الأحد الفرد الصمد ، أحبك يا الله ، يا معبودى وعشقى ، يا أنا .. الله داخلى ، صنعنى كما شاء ، وصورتى كما أراد ، فأنا منه وإليه ، ومن صنعه ، هو أنا . أنا هو واحد أحد ، لا أله الا هو أنت المعبود الخالق المصور المنان ، أرفع يدى ، ألمس أطراف عيدان البرسيم ، إنها ترقص ، إنها تسبح إنها تكبر ، إنها تلبى ، أحب رائحة الكعبة ، وأتمسح فى بلاط الحرم ، أرقد عليه أنام ، ترتخى كل عضلاتى ، وأشعر بالأمتنان لأننى مسلم وأنظر إلى حرم الكعبة ، كل شئ فيه جميل ولطيف ، يعلو صوتى بالشكر ، أنا مسلم ، وهذه كعبتى نظيفة ، بهية ، لامثيل لها إنها بيت حبيبى وخالقى ومولاى ومعبودى ، إنها بيت الله ، كيف لا يكون لها مثيل ، وأصعد إلى الدور الثالث وأنظر إلى السماء لم تعد هناك حدود ، حقول البرسيم ، وموجات البحر ورقرقة ماء النيل وأنا وسط هذا كله ، أصرخ .. يعاتبنى الطبيب فى رفق فقد كاد ينتهى والألم يصعد إلى رأسى أعواد الحديد الساخنة ، أكظم ألمى وغيظى ، ها قد انتهوا ، تردد ابنتى – ولكن أين حقول البرسيم ؟ أين ماء البحر وأين السماء ؟ لماذا تذهب منى الأشياء الجميلة لماذا أفقد كل ما هو جميل ؟ لم أحصل على حب يكفينى ، ولا طفولة أمتعتنى ولا شباب ألهو به ويلهو بى ، ولا حب كما كنت أحلم ، كل الأشياء التى حصلت عليها كانت معطوبة ، استغفر الله ، لا حوله ولا قوة إلا بالله ، ولا اعتراض على ما أعطاه الخالق لعبده ، الشكر لله يارب ، كانت ابنتى تراقبنى وطبيبى يجلس فوق رأسى فلم أستطع استكمال ما كان يجول فى ذهنى ، ألم أقل لكم أننى نصف معتوة ، ونصف .. لا أدرى ما هى الكلمة التى كانت على خاطرى ، دعونى أتوقف .

كنت أذهب إلى الحقول مع عمى ، وهو طفل فى مثل سنى وأن كان يكبرنى بعام أو بعض عام ، وكان عامه هذا يجعله مرشدى وموجهى وهو المسئول عنى ، فإذا أخطأت عوقب هو ، وإذا فعلت شيئا نُسبت إليه ، ومع هذا كان يحبنى وأحبه ولم أخاطبه بلقب عمى هذا أبداً ، وعندما نكون فى حقلنا يجلسنى تحت (الجميزة) بجوار الترعة ، ويذهب هو لكى يساعد الرجال ، ولكن سرعان ما يأتى ليجدنى قد صنعت من طين الترعة تماثيل لأبقار ولحيوانات الحقل المختلفة ، فيتعجب ويُبدى دهشته من مهارتى وكنت أحفر فى جذع الجميزه حفراً صغيرة حتى ينبثق منها سائل له لون اللبن ولزوجة الصمغ ، فأطلى به حيواناتى الصغيرة وأتركها لتجف الشمس ، فتبدو بعد ذلك كأنها صُنعت من الخزف ، ويأخذنا النهار ويأتى الليل لنترك تماثيلنا تنام تحت شجرة الجميزة ، ربما نعود إليها فى الغد ، والمسافة حتى دارنا طويلة يغنى فيها عمى الصغير أغانى عن (أدهم الشرقاوى) ، حتى إننى كنت أبكى عندما يصل إلى مقتله على يد الخيانة من صديق .. وعدت وحدى فى ذلك اليوم ممطياً حمارا أصيلا كان يجرى مثل حصان (أبى زيد) فى الهلالية رافعا عصا رفيعة وكأنها سيف بتار ، فإذا بجماعة من اللصوص وقد تحلقوا حولى فى منطقة تظللها الأشجار الكثيفة حتى تبدو وكأننا فى عتمة الليل وأمسكت برقبة حمارى فى تشبث الموت ، وصارع حمارى بأرجلة الأربعة ، دائرة الرجال من حولى ، لا أدرى ما إذا كانوا فى طلبى أو فى طلب الحمار ، وفشلوا ولكن ازدادوا شراسة ، وراحت صياحاتى الفزعة تستصرخ رجالاً لا أراهم ، فإذا بصوت رجل يجيب بقوة وما كاد الرجال يسمعونه حتى انطلقوا هاربين ونجوت ، وكان يوما مشهودا ، فقد انطلقوا من حولنا بكثافة لم نعهدها ، ارتعدت مفاصلى ولكنى واصلت الزحف حتى سقطت فى حفرة الرمال وصاح مدربنا فى غضب أننا لم نتدرب بعد كما يجب ، يوميا رأيت الشعر ينبت فى صدرى لأول مرة وعرفت معنى الرجولة ، لهذا كانت أوامرى لمجموعتى بإطلاق النار على جنودنا الفارين ، ولما زاد العدد عن المعقول جاءتنا الأوامر بالإنسحاب ، وأمطرتنا السماء بقنابل من كل نوع ، وتشتت شملنا ، ولم نعد إلى دورنا مباشرة ، كنت حزينا ومكسور النفس باكياً أقبل الكبارى والشوارع والبيوت ، لماذا هزمتنا قيادتنا ؟ لماذا أعطونا السلاح وقالوا لنا كلاما كبيرا ؟ لا أدرى لماذا تتدافع تلك الأحداث لتتمركز فى بؤرة واحدة ؟ أن هذا الرجل لم يكن يعنى ما قاله عندما أمر بإيقافى وعدم صرف راتبى ، وأن الكبار عندما يجلسون فى المكاتب المكيفة الهواء ويصدرون القرارات ولا يعرفون أن بائع الفول لا يفهم هذه القرارات وأنه يطلب ثمن ما يقدمه من طعام وأن الأولاد والزوجة يجب أن يأكلوا ، ولكنهم هؤلاء الكبار يريدون أشياء عادية جداً ، يريدون بناء مصر المستقبل ، وأن يحفظ الصغار الميثاق ، وأن يهتف الشباب بحياة الزعيم ، وان يقفوا فى الشمس طوال اليوم لكى يعبروا عن حبهم لزعيمهم وضيفه يحصل كل منهم على خمسين قرشاً ، علينا نحن أن نفعل هذا السنا

ملتزمون اشتراكيون طليعيون ، والرؤساء الكبار في المكاتب تعاتبنا أحيانا ، وعلى الوجوه ابتسامة ساخرة يأمرون (بالإيقاف) وعدم صرف الراتب الشهري .. إنهم يتسلون ويتشدقون بكلمات عن العدالة والبذل والتضحية ونكران الذات .. ثم يأمرون بإيقافنا عن العمل وهميحتسون المشروبات الباردة .. وصورة الزعيم تنظر إلينا في بلاهة وعندما تصغر النفوس تكون رحلتنا نحن الصغار لزيارة متاحف الظلام وأفاعيل الشيطان لنأخذ منها عبرة ودروساً ونستفيد بها لكي نسمع الكلام ولا تطالبني أبداً بنقطة نظام وقد ضت الأيام وسقط الكبار ولكن مـا زلنا نحن مـجـرد الصـغـار تلهـو بنا الريح والأمطار وتسـقط تحت عـجـلات الزمن !

وأسقطني (العجل) في النهر ، ورحت أغوص إلى الأعماق ، وزادت الظلمة من حولي أحسست أنني قضيت أعواماً تحت الماء ، ثم شـدني إلى أعلي ورأيت السماء والأشجار ، وزحف بي عائداً إلي الشاطيء ، كانت الظلمـة هي التي تأتي وتروح ، ولمحت كلبي (فوكس) يشدني من جلبابي ، ولما أفقت رأيت أعمامي وأخوالي ورجال كثيرون يخرجون الماء من جوفي ، وعلمت أن العجل دفعني إلى الماء وأن الكلب أنقذني ، وأنني لا أدري هل الحمار هو الذي أنقذني من اللصوص أو أن الكلب هو الذي فعـل ذلك وأنقذني من الغرق ،، وجلست بجوار خالي ليقص لي قصصاً عجيبة كلها لحيوانات وأشياء ونباتات تتكلم ، أحياناً أجلس بجوار شجرة التوت وأسمعها ، وفي المنزل جلست إلى مائدة الطعام وسمعتها ، كل الأشياء أسمعها تتكلم ، حتى لمبات الكهرباء ، وأكواب الشاي ، قال خالي : أن (النسر) تكبر وتجبر ولم يطـع سيـدنا (سليمان) ، فأرسل إليه غـراباً صغيراً ، وقال له : إذا لم تطع سيدنا فسوف يرسل إليك الفكر لكي يقتلك ، ولكن النسر لم يخف التهديد والوعيد واستعد لملاقلة الفكر ، فلم ينم ولم يذق الزاد في انتظار ذلك العدو المسمى بالفكر ، وأجهده الانتظار وفقد اتزانه وقوته فسقط مريضاً فإذا بالغـراب يقول له لمـا لا تطيع ، ولكن النسر الذي كان يغالب الموت قـال في صوت واهن :

ـ أين هذا الفكر الذي هددتني به حتى أقتله وأستريح فضحك الغراب وطار ، وبعد أيام كان النسر قد مات وأصبح حكاية كما فعلت السيدة التي أكلتها الغولة ، فالغولة كانت تحب رجلا قوياً وكانت تحرسه وتحميه على ألا يقترب من سيدة أبداً ، وحذرته منهن ، قالت :إنهـن يأكلن ولا يشبعن ، ويكذبن ولا تفلح معهن حيلة أبداً ، ولكن الرجل احتالت عليه امرأة ودعته إلى عشها بعد أن تزينت له ، وأوهمته بالحب والإخلاص وفوق هذا كنز جدودها الأثريا ءوذهب الرجل ولم يسمع كلام الغولة ، فإذا بالسيدة التي وعدته بالحب تنقلب إلى دب ، وتهشم عظامه وتأكل لحمه ، فهجمت عليها الغولة وأكلتها ، وجلست تندب رجلها الطيب الذي انخدع

من امرأة أخرجت جده من الجنة ، ولكن الرجل لم يسمع كلامها وغلبته شهوته ، ففقد عقله ، وبعدها فقد حياته ، ويروى خالي أن ذلك حدث في أيام جده الذي روى عن رجل عاش من ألف ألف عام ، وعاشر الجن وعرف لغتهم فعلموه كيف يحيل أرانب الليل إلى أبقار سمينة ، وكيف يُسخر جنية البحر لكي تصطاد له الحوت ، ولكنه ذات ليلة سقط في حبائل سيدة كانت تبيع الهوى لمن يدفع ، بكت على كتفيه ، وصارحته بالرغبة في التوبة فصدقها ، ولما فعل كانت نهايته التي تذكرها حوائط الجدران ولا يكتمها السائرون في الأسواق ، ولكن كل الأحداث تعود للظهور ، وكل المحظورات مرغوبات والعياذ بالله .. كما أستفحل أمر المحافظ الذي رفع الزعيم إلى سماء الأنبياء ، أستفحل الداء ودفعنا نحن أرانب الظهيرة الثمن وصرنا حميرا وأبقارا تدور في السواقي ونحمل الأثقال ، حتى إذا سقط المحافظ وسقطت معه كل الصحبة العزيزة الذين كانوا يتندرون علينا وهم جلوس في مبنى اتحاد الكرة بالجزيرة ، لم نعد كما كنا أناسا ، لأننا كنا قد تعودنا حمل البرسيم وجر العربات ، مع أننا كنا ندخل المساجد الخالية ونؤذن للناس للصلاة ، لامونا أيضا لأننا خشينا من الغولة ومن سيدة الكنوز المسحورة ومن جنية البحر ومن طمع الدنيا الذي يسبب النكد ، ولكنهم سرعان ما جلسوا على الكراسي وسألونا أن نلتزم بالنظام حتى يعود الماء للنهر الجاف ..

دكتور (وهبة) صاح في وجهي بقسوة ، ارتعدت أوصالي وخرجت مسرعا من غرفته ، قالوا لقد حضر في منتصف الليل ترتعد أوصاله من الخوف ، وعجبت أن هذا المريض الطبيب الذي أكد له الأطباء الشفاء التام وهو لا يصدقهم وعندما يدفعونه إلى الخارج يعود ، وأسفت لأنني كنت أود أن أتحدث إليه وأن أجعله ينسى مرضه ولكنه عايرني بمرضي وبصدري المفتوح وتلك العلامات التي يعرفها كطبيب تؤكد له سوء حالتي ، وشعرت بالهزيمة ، لماذا يأتي الشعور بالهزيمة دوما عقب كل عمل ، الهزيمة عن طريق الأصدقاء ، عُدت إلى حجرتي قالت ابنتي :

– أنت بخير يا أبي ، أخبرني الطبيب أنك في طريقك للشفاء بإذن الله . قلت لها في ثقة : أعلم يا ابنتي أن الأمر كله بيد الله ، وما أخزاني الله أبدا ، وأن كل شئ مقدر ومعلوم وأنا راض بقدري مستسلم له ، ولكني أتشاغل عنه ، وأنسى مرضي ، وأحاول أن أتعايش وأن أعيش ، ودخلت (عائشة) لتخبرنا بتغيير مواعيد الصلاة ، وقدمت لابنتي جدولا بمواعيدها ، وعائشة جاءت من بولندا مسلمة هاربة بدينها ، ترتدي الحجاب وتدرس الدين وأدب الجاحظ وتستعد لنيل الدكتوراه في الأدب العربي ، وتتحمس لخدمة المرضى ،جاءت لتعتذر عن سلوك الطبيب المريض ، وتطلب مني أن أواظب على الحركة ، علمت منها أن كل العاملين بالمستشفى يراقبونني وأنهم يتمنون أن أعبر نهر المرض بعون الله ، لم أكن أعرف أن كل طاقم المستشفى من سائقين

وعمال وحرفيين يتابعونني ويتابعون حالتى ، استدعوا لى الدكتور (بانديا) الذى جلس بجوارى فقد كنت أتقيأ بشدة وحرارتى بدأت فى الارتفاع وحالتى فيما يبدو أصبحت حرجة ، أمر (بانديا) بأن يرتبوا إقامة لابنتى فى غرفتى ، وأن أظل تحت الملاحظة الشديدة ، ولكن سرعان مازالت آثار الحمى وبدأت أعى ما حولى ، وبدأت أطلق النكات وأروى الحكايات التى سبق وأن سمعتها من أخوالى وهم يطلبون منى أن أكف عن الكلام ، وأنا أحاول ارتشاف كوبا من الشاى .

– وانكمش الدكتور (وهبه) على نفسه ، وتحلق المصريون حولى ، يتضاحكون جزارون وعمال وتجار وقضاة فى البداية كانوا ضعفاء يتألمون ، يصرخون أحيانا ، ولكن الأمل فى الشفاء يدفعهم للتجلد ، وتمت الجراحات ، وبدأ كل منهم يتحرك وفقا لحالته الصحية فى النهاية تجمعوا حولى كانت الممرضة تدفع بالحقنة إلى داخل صدرى لتسحب الدماء ، كان المنظر يبدو بشعا فى ظاهره وليذا كانت ابنتى تتألم فأمسك بيدها وأحكى لها حكاية ، تحولت إلى جسد متبلد يكاد لا يحس بشئ وعقلى أيضا يدور فى الماضى ، أحكى عن كلبى (فوكس) ، وقطتى ، وأيضا عن (عمرو) ولدى كيف أداعبه كما كنت أداعبها ، ولكن الدكتور وهبه يلازم حجرته لا يريد تركها ، بينما خرج الجميع يتضاحكون ويتجادلون حول شراء الهدايا من أسواق لندن المنتشرة فى الأحياء ، كل منهم ينقل خبرته إلى الآخرين .

وجاء (بانديا) يسألنى المزيد من القتال ، لا أدرى كيف أقاتل عدوا لا أعرفه ولا أراه ، ولكنه أصر على أن يقول لى نفس الكلمات ، ثم عاد فى المساء ، وراح يسألنى من جديد عن (عبد الناصر) لأنه يحبه ، قلت : ونحن أيضا كنا نحبه ، وهو أيضا كان يحب نفسه ، حتى كره نفسه فكرهناه ، هو السائل والمسئول ، القاتل المقتول ، أحاول الإبتعاد عن الفترة التى سمحت لى الظروف التى جمعتنى بقمة الدولة منذ عام ١٩٥٨ وحتى نهاية عام ١٩٦٥ ، أحاول الابتعاد فقد كنت صغيرا جدا ، ساذجا جدا ، كل ما أسمعه أصدقه وأنفذه ، وأقوم به ، تعترينى رعشة وكأننى أصلى ، عندما أخذونى وأنا لا أكاد أخرج عن طوق الطفولة ودفعوا بى إلى التدريب العنيف ، لكى أتعامل بكل أنواع الأسلحة ، ثم دفعوا بى ، بعد ذلك إلى مناطق كانوا يعلنون أنها معرضة للخطر ، وكنت أصدق ، وأسافر ، وأتعلم من أجل بلدى ، ثم لا شئ .. ، لم أجد شيئا فى يدى ، وعندما أبديت بعض الإعتراض زجوا بى فى عتمة الظلم ، ولا أدرى ماذا فعلت ومنذ أيام قال أصدقاء لماذا لا تكتب عن كل هذا ، وكيف أكتبه .. الأشخاص بصراحة شديدة لم يتغيروا ، من كانوا معنا فى التنظيم الطليعى ، أو الشبابى يتربعون الآن قمم السلطة ، ماذا تم ؟ لا شئ كل شئ مرسوم ، وأنا لست ذكيا حتى أحاول تسلق القمة ، حتى ولو بمصعد كهربائى .. أرقد الآن وقد حبستنى كل هذه الأجهزة ، تحبسنى فى عيون ابنتى التى تنادى : أفق يا أبى يجب أن

أعود بك ، كيف أقابلهم بدونك ؟ ويردد (بانديا) : حارب ، قاتل ، تلميذ نهرو وناصر لا يزال يتذكر الحرب . (الباشا) الأسود يضحك ، يقول : انتظر أن السلطة خمرا ، من هم الآن أبرياء لن يظلوا على حالهم ، لقد سرقوا المقاعد والموائد من قصر عابدين بل سرقوا أطول سلم من مسجد (زين العابدين) بالقلعة ، لم أصدق ، قال أنهم يبيعون مجوهرات القصور فى أوروبا ، وأنهم يرسلوا بأموالهم إلى سويسرا لم أصدق ، وبعد أن دخلت بيوت بعض هؤلاء (الأبرياء) رأيت سجادا كان قد وصفه لى ، ومقاعد ذكرها ، ومع هذا لم أصدق حتى الرجل الكبير يقول وهو يؤنبنى لأننى تمسكت بالقانون : يا شاطر نحن الذين وضعنا القانون ، وضحكت لأن القانون سيظل كما هو ، ويذهب صانعوه .. وقد ذهبوا .. أجلس وحدى بجوار النافذة فى غرفتى ، رقم ١٦ السحب تتماوج فوقى ، أتمدد فوق المستشفى ، خفيفة تدل على أن الجو سيكون باردا أنظر إلى السحب ولكن سرعان ما سادت الظلمة فى الخارج ، ولم يتبقى إلا الضوء الباهت فى غرفتى وكوب ماء على المائدة وأنا وحدى أكاد أجن من الوحدة ، وقد أنقطع إرسال القناة الخامسة وهى التى تذيع برامجها من القاهرة على القناة الفضائية وتربطنا بأهالينا ، وتربطنا بتلك البرامج الهابطة التى كنا نستهجنها ونملها ، ولكن ها هى الآن أصبحت جميلة ولطيفة ومسلية لأنها على الأقل لا تكلفنا إلا النظر إلى ذلك الجهاز العجيب ، التليفزيون ، ويسكت الصمت حتى أننى أكاد أسمع صوته ، غرفتى فى نهاية الممر ، اسمع وقع الأقدام من أول الممر .. لا أحد هناك إذا سمعت وقع الأقدام أنتظر أن يكون زائرا أو ممرضة أو طبيبا ولكن سرعان ما أتبين أن وقع الأقدام قد انقطع أمام غرفتى يقع مخزن الملابس وملاءات الأسرة المغسولة والمكواة ، ويأتون لأخذها اللمبة على الحائط مطفأة ، وصورة لمنظر طبيعى فيما يبدو ، ولا أكاد أتبين ملامحه جيدا ، فقد قل بصرى أو ضعف بحيث لم أعد أتبين الأشياء بوضوح ، حجرتى تبدو أنها أنيقة وبها الكثير من الكماليات ، بها مدفئة ومائدتان بالإضافة إلى السرير الذى يعلو ويهبط ، والمقعد ، ودولاب صغير عليه جهاز تليفزيون ، وملحق بها من الداخل حمام به دولاب ملابس وبه الكثير من الإمكانيات ، التى يمكن أن تستخدمها وكما قلت من قبل أن النظام اليومى أن نأخذ حماما فى الحادية عشرة ظهرا ، بعده يتم تغيير الأضمدة على جرحى لأنهم اكتشفوا منذ أيام أن به ثقبا وأن هذا الأمر سيأخذ منهم بعض الوقت ، مضت ابنتى إلى مسكنها منذ ساعات كما طلبت منها ، لأننى بكيت وتأثرت بشدة عندما استمعت إلى القرآن الكريم ، خشيت أن يكون هذا غضب من الله ، وبكيت خوفا وارتفع ضغطى ، وقلت لابنتى بعد أن جففت دموعى وتماسكت : أذهبى وأنضجى لنفسك طعاما من هذا الذى أحضره هذا الرجل المبارك ،وأحضري منه قليلا فى الصباح ، ثم اذهبى لتشاهدون .. بعض المحلات هنا فنحن فى ضاحية ساكنة ، معزولة عن لندن ذاتها ، بالقرب من المطار فلهذا نسمع بين الحين والآخر هزيز طائرة تقلع أو طائرة تهبط ، جاءنى

(محمد) وهو شاب مفتول العضلات جاء مع والد زوجته ومعها زوجة أبيه وزجته هو أيضا تراهم دائما حول الرجل العريض والد زوجته ، وهو رجل لطيف المعشر رأيته مرة أو مرتين خلال التمرين الإجبارى .. للسير على الأقدام ربما يكون من الأفضل الرجوع إلى نقطة البداية ، والأمر يا صديقى ليس أن تحكى ولكن كيف نحكى ، هذه هى المعضلة الحقيقة التى يقف أمامها الفنان وتفرق بين المبدع وغير المبدع ، عندما فكرت فى كتابة هذه الأوراق ، ما كنت أتصور أن تكون رواية أو مذاكرات أو ما يشبه ذلك ، إنما هى تنفيس عن الإنسان فى محنته ، آليت على نفسى ألا أشكو إلا لله تعالى ، وأتوسل إليه لكى يشفينى لأن كل ما يحيط بى يهزمنى ، كلام الأطباء ، كلام الممرضات ، لابد أن أتحمل الأسابيع الكثيرة القادمة ، حتى أشفى إذا كان لى حظ الشفاء بعونه تعالى ، فكرت أن أذهب إلى منزل قريب ، أستأجره وأقيم وابنتى آكل طعامها وآراها كل حين وتخرج هى كل لحظة إذا شاءت وأعلم أن المسكن يكلف الكثير ، لا يهم فإنما المهم أن نستريح من هذا المحبس الإجبارى ، الذى أستمر حتى الآن ، ولكن الأطباء قالوا يجب أن نستشير (البروفيسير يعقوب) الذى رفض بشدة ، يذكرنى بما حدث بعد أن هربت من مستشفى أكسفورد ، وبعد أن توسلت لكل الناس ، وبكيت وصممت حتى أهرب من تلك الغرفة اللعينة رقم ١٦ بمركز القلب بجامعة أكسفورد وبعد أن أحسست أننى أتهدم مثل بيت عتيق يسقط هربت من ذلك الخوف اللعين الذى يطاردنى بالليل بعد أن عشت أكثر من ستين ليلة كل ليلة تهاجمنى الهواجس ، أدور فى حكاية غريبة مثل التى رويتها ، وفى كل ليلة ، عندما يضعونى على السرير أجدنى فى عالم آخر ، أتخبط وأصرخ وأناضل وأحارب وادعوا الله ثم أجدنى فى الصباح قد جلست مقرفصا فى مقعدى والنافذة مفتوحة وأزيز تلك الأتوبيسات أو الكوتش كما يسمونها يصدر طنينا قويا فى راسى مع صوت الآذان كل لحظة وأسال ابنتى عن مصدر هذا الآذان وتقول لا يا أبى لا يوجد هنا مساجد ، ولا أحد هنا يؤذن بل الجميع هنا إنجليز ولا يوجد إلا قلة الباكستانيين وكان [illegible] يزورنا ليومين كاملين ، وانقطعت الزيارة كما انقطعت بذلك صلتنا بالسنين فى أكسفورد لا أدرى إذا كنت مسهدا أو نائما أو مستيقظا أعيش فى عالم آخر ، شككت فى عقلى يانبت أن يرسلوا لى طبيبا نفسيا أو معالجا وابتسموا ابتسامة الإنجليز هذه ومضوا ولم يسمعنى أحد ، فى النهار يأتى إلى كل الأطباء هذا يتعلم وذاك يعلم وذلك يسأل ثم لا شئ طوال اليوم : ولأننى فأر تجارب ، زارنى (وسبى الجراح) الذى قام بإجراء الجراحتين ، ليخبرنى بالنجاح الهائل الذى حققه ، وأنه فعل المستحيل لإنقاذ حياتى ، وتعديل أو تثبيت ما هو بداخل قلبى وشكرته كل الشكر : ثم حدث بعد أيام قلائل ما يسمونه بالتسمم تعرض جسدى لذلك التسمم بسرعة شديدة ، وأخذونى مرة أخرى إلى المسرح لإجراء جراحة يمكن بها إنقاذى من التسمم ، وخرجت منها بزموم الصدر والبطن ، الآلام تهاجمنى فى كل موضع ويدى اليمنى لا

تعمل ، وجلست فى سريرى أحملق فى سماء الغرفة التى ازداد كرهى لها ، والجو خانق حار ، النهار يمضى بآلامه وأطبائه وبأخصائية ، الذين لا تعرف منهم أحدا ، إلا ثلاثة من الهنود تقربوا إلى وحاولوا أن يأخذوا بيدى ، ولكن ما باليد حيلة ، بقيت الممرضات الإنجليزيات حمر الوجوه يهتممن كثيرا بطعامهن وهندامهن أكثر من اهتمامهن بالمرضى ، ليس عليهن إلا تقديم الدواء فى مواعيده المنضبطة ثم مجموعة من الأوامر الصادرة منهن إلى المريض ، لا تفعل افعل ، لا تحلق ذقنك ، لماذا ترتدى ملابس النوم ليل نهار ؟ أنت كسول تعتمد على ابنتك ، هذا الطعام ، يجب أن تأكله كله ، هذه أوامر الطبيب ، وأكل الطعام وينتفخ بطنى ويأتون لى بشراب لا طعم له الا أنه يتميز بأنه مغذى ، لأنه يحتوى على كميات كبيرة من الفيتامينات والمعادن وما إلى ذلك ، قامت الجامعة بدراسة كل ذلك وتقديمه للمرضى وخدمة الذين لا يأكلون ، ماء ابيض ، ولكن تشربه بطعم اللبن الحامض ، وهذه مجموعة معادن وفيتامينات لا أحب هذا الشراب ، جاؤا إلى بعصائر تبدو من الخارج عصائر أنوع من الفاكهة ، ولكن ما هى بعصائر .. طعمها مر المذاق وعندما ينصرفون ، أجلس وابنتى : قبل أن تسوؤ حالتى تضعنى ابنتى على كرسى متحرك إلى الدور الأول من المستشفى لنرى المحلات هما محلان اثنان ، يبيع كل شئ للمأكولات والمشروبات الخفيفة ، وآخر للزهور ثم بنك مغلق دوما ، نذهب إلى البهو الرئيسى ونجلس كنت استريح فى هذا البهو ، وهم يدخلون ويخرجون ، كل من يدخل قد أرتدى تلنيعه غريبة معظم النساء عاريات تقريبا ، لأن الجو حار بالنسبة لهن ، فخلعن ملابسهن وارتدين (الشورتات) القصيرة وتركن بقية أجسادهن عاريات و يمشين بسرعة فائقة ويدخلن بحماس واضح ، ثم بعض المرضى وقد أجلسوهم على مقاعد متحركة تدور فى دوائر ، شيصة ، لا أحد يعرف أحد ، ولا أحد يكلم أحد ، ومكتب الاستعلامات مشغول دائما بشئ ما ، مكتب بريد تضع به الخطابات ، كل شئ متاح وكل شئ ممكن أن تفعله حتى أننى بعد أن أنسالت منى المياه غصبا ، كنت أجلس فى هذا البهو وأترك بولى ينسال على الكراسى والمقاعد ، ماذا أفعل ؟ هكذا أظل ذاهبا قادما من دوره المياه لا أتحكم فى نفسى لابد أن أشرب لعطشى الشديد أمسك الزجاجة البيبسى وأخذ منها جرعة بصعوبة بالغة ، وأحتفظ بها مدة طويلة حتى تضيق بى وأضيق بها وأقذفها ، الليل يمر وأنا أعيش حكاية غريبة فى ليلة كنت قائدا لقبيلة تعيش فى منطقة الكويت ، ولا أدرى لماذا كانت الكويت بالتحديد فى زمن ولاية أبى بكر الصديق ، رغم أننى لم أزر هذه الكويت فى حياتى ، وفى الليلة الثانية أجدنى بطلا لحكاية أخرى ، أصول وأجول وأخترق الحواجز وأندفع ، ويندب فى جسدى عدة رصاصات وأموت وأصرخ حتى نهاية الليل ، ولا أدرى ما هو نهاية الليل ،أنما أجلس على مقعد أكاد ارتجف من البرد وأحاول أن أجلب غطاء لجسدى ، ولكنى لا أجد القوة لفعل ذلك كما أن الاستعانة بالممرضات شئ صعب لأنهن يتصورن

أنك فى خدمتهن ولسن فى خدمتك أنت ،حاولت التقرب من إحداهن ولكن هذا لم يشفع لى ولم يحاولن مساعدتى مساعدة فعالة وخاصة بعد أن هاجمنى المرض بشدة هذا الوباء الذى بدا ياكل جسدى ، واختفى (الدكتور وسبى) فجأة كان يتحمس للقائى يأتى لزيارتى واتفقنا أن نكتب عن هذه العلمية الكبيرة التى أجراها لى ، حيث تمكن من وضع الأورطى فى مكانه السليم وأن يفعل أشياء كثيرة ، لم أهتم فى البداية بما سوف يفعله ، وكل ما أطلبه الشفاء ثم الذهاب إلى منطقة ثانية من أكسفورد والمكوث بها فترة من الزمن حتى أسترد عافيتى وأعود إلى لندن مع ابنتى لنشترى ما اشتهت لنفسها من أشياء غريبة كانت تسمع عنها وهى فى بلدنا مصر ، اشتاقت ابنتى إلى مصر ، بدى هذا واضحا من الأيام الأولى ، قالت ما أشتهى الماء ؛ ما أشهى الطعام هناك ، ما أحلاها مصر فى كل شئ ، فى حرها وشمسها ونيلها وازدحامها وتعامل الناس مع بعضهم البعض ، والرحمة التى تغلف الناس ، ولكن هنا بالرغم من أنها احيطت بالرعاية التى كنت أراها من الممرضات ، وبالتحديد بعض الممرضات ، كن يحطن بها أحاطه الإسوره بالمعصم ، يلبون طلباتها بعد تركها تفعل لأبيها ما تشاء واستراحوا ، فكانت تقوم بغسل ملابسى وتشرف على حمامى وعمل ما يمكن أن تفعله الممرضة ذاتها ، وهى لم تشكوا ولم تتذمر ، كانت سعيدة أنها تقدم خدمة لأبيها وتحاول أن تنجح فى إعادته إلى الحياة وإلى عائلته ، وكانت تكاد تجن من التأخر فى الشفاء وذات مرة أجبرتنى على أن أقسم لها أن أقاوم ، وأقسمت أنها ستجدنى على غير هذا الحال بعد أيام قلائل .ولكن بعد أيام كنت فى حال غير ذى حال ، كنت فى الأسوأ وظلت ابنتى ، وأنا أشعر بها تماما ، تحن إلى عائلتها ، إلى بيتها ، إلى فراشها ، إلى أختها ، تردد دائما اسم ابن أختها (مصطفى) .

ومن فضل الله تعالى أن التليفون بحجرتى ، تليفون دولى مباشر ، وكنت أكافاها فى نهاية اليوم أن أطلب منها أن [illegible]ل بأمها أو أختها أو زوجها وتتصل وتسعد وكانت تقوم بذلك بسعادة شديدة تبدو على وجهها ذات مرة أوحشتنى الأطفال وأوحشتنى عائلتى وكان صوتى قد حبسه المرض ، ولم أعد أتكلم إلا همسا لا يسمع وأتألم عندما أصدر هذا الصوت كما أتألم الآن بعد أن خرج صوتى كما يبدو الآن ضعيفا غير واضح ، واتصلت هى بأسرتها وطلبت منهم أن يتكلموا معى ، ولن يحصلوا على رد لأننى لا أستطيع النطق ، استمعت إلى أصواتهم جميعا وكانت ليلة ليلاء لأننى استمعت إلى بكاء ابنتى حزنى الصوت حزا شديدا كاد يفقدنى عقلى فى تلك الليلة ، أكاد أجن إن لم أكن قد دخلت عالم الجنون بالفعل ، وأخذت أصلى ، صلاة المريض مريحة لا وضوء هناك ولا شئ سوى أن تكبر فى سرك ، وتركع وتسجد لله ، كل ذلك فى مخيلتك وبعينيك فقط أن كنت تستطيع أن تحرك العينين وفعلت هذا مرارا وكلما وجدت نفسى مستيقظا أو متذكرا للصلاة ، ومرت الأيام فى تلك المستشفى كل يوم تزداد كآبته بشده حتى ضقت ذات ليلة وجلست

مفكرا استعرض ما حدث ، فى الأول من يوليو وكنت فى عملى ، اتممت الحجز لأبنتى ، لقضاء شهر العسل ، دفعت التكاليف وهبطت إلى مكتبى لكنى لاحظت انتباه الجميع لى وكل منهم مشفق على يطالبوننى بالذهاب إلى البيت أو إلى المستشفى وزاد هذا من ارتباكى لأننى كنت أشعر أن هذا أمر وقتى سرعان ما يزول لكنهم أصروا واستدعوا مساعدا للطبيب ، لان أطباء المؤسسة كانوا قد انصرفوا والمساعد طلب منى الذهاب إلى المستشفى ، ولكنى قاومت وهبطت إلى الدور الأول وشعرت أيضا بالدوار والإرهاق ، كنت مصمما على أن أذهب إلى بيتى وأنام واستريح فى غرفتى فى ظل التكييف البارد ، يمكننى أن أنام فى هذا الهواء البارد ونحن فى أول يوليو والحرارة مرتفعة ولكن زميل لى نصحنى أن أذهب بالفعل الى المستشفى وسوف يصحبنى للإطمئنان على ودخلنا المستشفى الخاص . وجلسنا فى البهو ساعه كامله ، والموظف يبحث عن غرفه ويسجل إداريا الدخول والإجراءات الروتينية وذهب زميلى إليه ، يا رجل هذا رجل مريض أسعفه الآن ثم افعل ما تشاء ، وأخيرا أدخلونى غرفه العناية المركزة وتركنى صديقى (محمود) وذهب ورقدت فى فراشى ، نظرت حولى فإذا سريرى ملاصق للنافذة ، نظرت من خلال النافذة وجدت حديقة خضراء ، قلت مستبشرا هذا جميل ، الحمد لله على ذلك ، ورقدت مستسلما ، جاءوا وأخذوا يفحصون ويدققون ، وقالوا لا يمكننا عمل أي شئ إلا إذا أتى الأستاذ وجاء اليوم التالى بدأت ادخل مرحله الفحوص اليومية ، فحص أشعه وتلك أشعه مقطعيه وذلك رسم وهذا بيان وقياس الضغط وقياس النبض والحرارة وما إلى ذلك ، وكثيرا من الأدوية ، ولا أدرى وقد استسلمت استسلاما غريبا وكانت الغرفة مكيفة الهواء باردة ، وكان أطفالى يأتون إلى بل ينامون معى فى بعض الأحيان وكل يوم يأتينى صديق ، كنت سعيدا فى تلك الفترة ، ومضيت أسبوعا كاملا فى تلك الغرفة بعد أن نقلونى من العناية المركزة وهذا أمر مضحك ، لا عناية مركزة ولا يحزنون ، بل هم مجموعة من الممرضات الثرثارات الائي يتكلمن ليلا نهارا ، وأنت مجبرا أخاك على أن تسمع ، والأطباء يروحون ويجيئون ، المرضى يأتون ، منهم ذلك الرجل الذى كان مصابا بجلطة فى القلب ، كلما أعياه المرض جاء إلى المستشفى وقضى بها عدة أيام ، حتى تخف حدة الجلطة ثم يعود إلى عمله وإلى حياته المعتاده وسألته ماذا تأكل ؟ قال : إن طعام المستشفى لا يعجبنى ، لهذا أتى بالزيتون المخلل والجبن الرومى الحادق و (برطمان الطرشى) وهو يحب ذلك ، وخرج وأنا لازالت جالسا فى تلك الغرفة ، حتى جاء يوم أخبرنى الأستاذ أننى فى حاجة للسفر لإجراء عملية جراحة عاجلة ، فى تلك اللحظة ، أصابنى الشلل الفكرى ، لم أسأل كثيرا وهذا آلمنى فيما بعد ، هل كان يجب أن أذهب إلى طبيب أخر ، لكن هذا الطبيب معالجى طوال العوام الماضية ، هل هو يكذب ؟ ولماذا يكذب ؟ هل هو صادق ؟ بالتأكيد هو صادق لأنه كتب تقريرا وبناء على التقرير تمت إجراءات السفر ، لا يمكن أن يفعل بى هذا ، فكرت

فى كل ذلك فى تلك الليلة التى أجبرت نفسى على أن أظل مستيقظا أفكر فى أمر نفسى فى مستشفى أكسفورد ، هل كان يجب أن أذهب إلى طبيب أخر فى اليوم التالى ، هناك عدة أطباء فى مستشفيات أخرى بها أجهزة أحدث ولكنه أصر ، هذا ما حدث فى تلك الليلة ، تقلبت الأفكار ، قلت : كان يجب التدقيق فى أمر هذه العملية ، وكان يجب الذهاب إلى مستشفى أخر أو طبيب آخر حتى أتيقن تماما من أهمية وضرورة إجراء العملية فى شهر يوليو .

هذا ما حدث ولا داعى لكلمة لو لأنها فى النهاية كلمة مكروهة وأنا لا أحبها ، تخلصت من أفكاري بسرعة وقلت فى نفسى هذا ما حدث ولا داعي للبكاء على الجرح النازف ، جاء (مجدى يعقوب) الذى أخذ ينظر إلى صدرى ويقول ، لقد تذكرتك ، أنا الذى قمت لك بالعملية الأولى منذ أربعة أعوام وفعلت لك كل شئ وما كان يجب أن تجرى أى جراحة بعد ذلك ، وقلت له مندهشا ومصعوقا : معنى هذا أن ما حدث لى ما كان يجب أن يحدث ، هل جئت من القاهرة إلى لندن لإجراء جراحة غير ذات موضوع ؟ قال : نعم . إذن ما تقوله صحيح إنها جريمة قتل ؟ أننى الآن أموت بميكروب لا يعرفونه ، فى سبيل من ؟ فى سبيل العلم ؟ فى سبيل الوطن ؟ فى سبيل من ؟ من الذى فعل هذا بى ؟ أستاذ القلب وصديقى يدفعنى دفعا إلى الموت ؟ أدفع حياتى ثمنا لأخطاء الأطباء ؟ فلما نظر نحوى ، قلت إذن عليك بإثبات هذا إذا كان هذا صحيحا ؟ قاضيت الطبيب الذى قام بإجراء جراحتين لى وتسبب فى حالة الانهيار التى أعيشها والتهديد المستمر بفقد حياتى فى سبيل لا شئ ، نظرت إليه وقلت له : أنا الآن تحت أمرك وحاربت لكى أتى إليك وعندما خرج وكانت ابنتى تسمع كل هذا فانفجرت باكية ، تبكى ؟ ، لماذا تبكى ؟ تبكى خيانة الأمانة أم تبكى خوفا على ما هو قادم ؟ حاول الأصدقاء أن يعجلوا لى قرار السفر والجوازات وما إلى ذلك والجميع ، ويجرى وأسرتى تلبث وأنا أجمع نقودا ، كنت فى أشد الحاجة إليها لأسدد ديونى ، جمعت كل ما يمكن جمعه لأننى أعلم مصاريف العملية وقد عانيت ذلك من قبل ، عانيت منها منذ أربعة أعوام ولا أزال حتى الآن أعانى من آثارها فى دخلى ودخل أسرتى ، هل هذا معقول يا يعقوب ؟ هل هذا معقول يا (شريف) ؟ هل هذا معقول يا وسبى ؟ ثلاثة أطباء ذبحونى فى لحظة واحدة ثم لم يكتفوا بذبحى ، بل وذبحوا ابنتى فوق جسدى وأنا أراها مذبوحة ، صرخت وبكت وأخذت تردد بصوت عالى أنها تسببت لى فى كل هذه الآلام ، لا أدرى كيف جاءتها هذه الخاطرة ، إنها لم تفعل شيئا سوى كل الخير ، لم تقدم لى إلا كل العون ، لقد بذل جهدا كبيرا فى القاهرة من أجل إتمام الأوراق والإجراءات الروتينية التى تأخذ وقتا طويلا ، كان المفروض أن تتزوج يوم السفر وألغت حفل زواجها ، وجاءت معى سعيدة فرحة لأنها كانت ترغب فى أن تجنبنى آلام الوحدة ، التى شعرت بها أثناء إجراء العملية الأولى منذ أربعة أعوام ، وكانت فى قمة الحماس حتى تلك اللحظة اللعينة التى أخبرنى بها يعقوب بأنه

ما كان ينبغى لى أن أجرى العملية ، تماسكنا وصلينا لله ، وقلنا هذا أمر الله وليس أمر أحد فلنكتمه فى أنفسنا ، ونكتمه أيضا عن الآخرين ، وبدأ علاجى هنا علاجا طويلا ولكننى أتحمل وأتجلد وأشكر الله ، وأستطيع الآن أن أخرج إلى الشارع بضعة خطوات ، وأقف بجوار ابنتى أحكي لها ذكريات طفولتى ، وما كنت أفعله وأنا طفل حيث كنت أمرح فى الحقل بين أعواد البرسيم أسعد فى القرية بين أحضان أسرتى جميعا أخوالي وأعمامى وأبناء أخوالي وأبناء عمومتى ، طفل مدلل لأسرة كبيرة يذهب هنا وهناك ، وفى كل بيت قلوب مفتوحة وصدور تفتح ذراعيها لتلقانى ، لكن تمدنى بكل ما هو جميل ورقيق ولطيف ، تذكرت كل هذا وتذكرت حنو أبى وحنان أمى وتذكرت جدتى بيضاء الوجه مثل الملائكة التى كانت تأخذنى فى آخر اليوم بين أحضانها وأنام قرير العين وهى تحكى لى حدوتة أخر الليل ، التى لا أسمع لها نهاية كنت أنام قبل أن تتمها ، وأصحوا فى اليوم التالى ألهو ، حتى جاء أدخلونى المدرسة وأنا لا أزال طفلا يكاد يمشى لان أبى أراد ذلك .

وذهبت إلى جدى الذى علمنى أن الكذب حرام وأن الصدق حلال ، والصدق هو الحسنة والكذب هو السيئة وهكذا أقيس الأشياء ، ما استراحت له النفس يكون حلالا وما لم تستريح به نفسى يكون حراما ، استفتى قلبك قبل أن يفوتك هكذا علمنى جدى وأنا صغير وهكذا علمت أن الله رحيم بعباده .. ونسيت أن (بانديا) كان يجلس بجوارى وأنا أحكي كل هذا ، وأنه ظل طوال الوقت يستمع إلى ثم سألنى لماذا يبدو بعض الناس فى بلادي أشرارا ؟ وفاجأنى السؤال ولم أعرف له أجابة ، وأمهلته حتى اليوم التالى ، فقال – أنت دائما تهرب من الإجابة ، وتهرب من مواجهة الحقيقة .. ثم مضى منصرفا لتكشف ابنتى فى اليوم التالى أن جهاز التسجيل كان يعمل ، فسمعت كل ما قيل ، وقالت فى مرارة : لقد سبق لك أن رويت هذا من قبل .. ابتسمت ولم أدهش من نظرتها الغاضبة نحوى ؟



الفصل الثامن

لا أدرى هل يمكننى أن أتم هذا العمل أم لا ، اليـوم لم أستطيع تنـاول طعـام الإفطـار ، وقـد تكرر هذا من عدة أيام ، وجاءت ابنتى (منى) ابتسمت فـى وجـهى وقلـت فـى عاطفـة صادقـة : أحبك يا منى ، ابتسمت ، وقالت سوف تحكى لى يا أبى ما حدث معك عندمـا ولدنـا أنـا وأختـى ضحكت وقلت أعلم أنكما لا تودان سماع هذا الحديث ، ولكـن رغـم تكـراري لقصـة ميلادكمـا ألا أنكما لم تفهما المعنى الذى أقصده ، لقد ترسب فى عقليكما أننى لا أحـب البنـات وهـذا الأمـر لم يخطر ببالي قط ، ولم أفكر فيه ، كل ما فـى الأمـر أن مثـل أى زوجـين يحلمـان بـالأولاد فانـهما يفكران فى الولد الصبى ، واتفقنا إذا جاء ولد نسميه (محمـدا) ، حبـا فـى رسـول الله (صلـى الله عليه وسلم) ، ولكن جاءت هبه فى البداية ، وكنا قـد انتقلنـا إلى المستشفى وهنـا كـانت الأسـرة تحيط بنا والقلق ، والتوتـر باديـان علـى وجوهـم جميعـا ، ولكـن لم أشـعر بشـىء لا بـالقلق ولا بالتوتر ولا بالفرج ، ووجدت أننى فى موقف فردى شاذ ، لهذا قـررت الهـروب وصليـت حتـى أحسست بالراحة ومضى الوقت ، فعدت إلى المستشفى وكنت قد اشتريت علبـة حلـوى مـن رجـل كان يجلس بجوار المسجد ، وعندما دخلت طرقة المستشفى قابلني الطبيب غاضبا وهو يردد :

– بنت ، يستدعونني من السينما لكي أشرف على ولادة (بنت) !

فقلت بسرعة :

– هبه من الله

وتركني الطبيب وخرج – وأسرعت أنا إلى زوجتي وكـان الطبيـب قـد أمـر بوضعـها بالدرجـة الثانية ، فأمرت نقلها للدرجة الأولى ، ووجدت الأسرة قد كسى الحزن وجوهم ، فقلت مبتسما :

– هى (هبه) بإذن الله .

وقدمت ما معى من حلوى إلى أفراد الأسرة والى من تجمع مـن أهـالى المرضـى ، وكنـت سـعيدا وجاء الطبيب وحكى لى : أنه عندما كان شابا أشرف على ولادة زوجة العمـدة فـى إحـدى القـرى بالوجه القبلى ووضعت زوجته بنتا وكانت العاشرة لجناب العمدة الذى قـرر قتلـى هكـذا يـروى الطبيب وهربت قبل أن يفعلها وقضيت ليلة كاملة أعاني من البرد والخوف ، ومن بعدهـا ظللـت

أخاف من ولادة البنات وأشتهر عن هذا الطبيب رحمة الله كراهيته لولادة البنات ، أما أنا فقد سمعت من أخبرني بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر من أنجب البنات وراعين أحسن رعاية دخل الجنة ، فكنت سعيدا بولادة (هبة) ولكن ما حدث في اليوم التالى لم يكن متوقعا ، فقد ذهبت إلى مكتبي فوجدتهم قد أغلقوه بالشمع الأحمر وراتبي تم إيقافه كما تم تحويلى إلى التحقيق تمهيدا لتحويلي إلى القضاء ، ولم أكن قد فعلت شيئا يستوجب كل هذا ، وعدت إلى المستشفى وليس في جيبى ما يمكنني أن أدفع مصروفات المستشفى ، بل لم يكن معي ما يكفى لطعامي وقد صرت وحيدا في المنزل ، مهددا بالسجن والاعتقال ، ومستقبلى لا يعلمه إلا الله .

وتصادف أن يتكرر هذا فى ولادة (منى) هكذا شاء الله ، نفذت مشيئته ، ولكنها كانت مشيئة خير وفرج من عنده ، تعالى ، فهو المنان الرحيم ،.. وصوت الأبواب موصدة وقد تخلى عنى كل الناس ، بل تبدلت عواطفهم ، حتى أقرب الناس وأعزهم أيقنوا بهلاكى فلم يتقدم أحد ليمد يد العون ماذا أفعل لكى أوفر مصروفات ولادة زوجتى ؟ وما أفعل لكى أواجه هذا الاتهام الفظيع والشائن الذى وجه إلى ، ودرت حول نفسي ، أنا الذى أقمت كل هذه المنشآت الشبابية وسهرت آلاف الليالي أدبر وأفكر فى جمع الشباب حول الثورة ، وحول الوطن ، متشاغلا عن أسرتى وعن صحتى وعن ما أستحقه من مكاسب أو مناصب ، بل متشاغلا عن حلمى الأساسي وهو الكتابة والأدب ، أعمل فى إقامة المعسكرات وأضع القواعد واللوائح وأشارك فى إقامة منظمة الشباب ومنظمة الطليعة وأسافر إلى موسكو وروما وبرلين ومدريد وغيرها لكى أرى وأتعلم – وأتى لكى أطبق ما تعلمت ، نسيت حلمي الذى شغلني من قبل أن أكون كاتبا وروائيا – لكي أتلهى فى عالم الشباب بمشكلاته ومؤسساته ولوائحه فى خدمة النظام الذى كنت ساعتها مستعدا لفدائه بروحي ، ها هو النظام ينقلب ضدى ويسخر منى ، ويتركنى بين أنياب مجموعة من المحققين لا يعرفون ما هى التهمة التى يجب أن يحاكمونى على أساسها ، ومن الطريف أن نسخة من كل التحقيقات وصلتني رسميا بعد أن صرت مديرا عاما .. ووجدت ذات يوم مظروفا ضخما تم تحويله إلى مكتبى للاختصاص والتصرف ، واحتفظت به وأنا أضحك ، ولكن يومها كان الموقف يصعب تحمله ، زوجة تلد بالمستشفى والجيوب خالية ، وأنا محول للتحقيق بتهمة مبهمة ولكنها تبدو وقتها مخيفة ، أخافت الأقارب قبل الأصدقاء ، وأخافت الأهل قبل الزملاء ، لهذا وجدتنى أقف وحدى والأمر كله لله ، وكما حدث فى ولادة (هبة) حدث فى ولادة (منى) وتكررت المأساة ، يبدو أنهم لم ينالونى أول مرة فأرادوا تكرارها لعلهم يفلحون ، من هم ؟ لا أدرى ، حل المنظمة ، هل الذين يتفنون خلف العلم الأحمر ؟ لا أدرى .. صدقا أتكلم الآن لأن لم تكن الرؤيا عندى واضحة ، أنا أعمل فى مجال الشباب بكل اجتهاد وجد ، ومع هذا أتهم بأفظع الاتهامات ويأتون بالعديد من الشهود ، والإثباتات والأدلة ، وكالعادة يتخلى عنى كل

الناس ولكنى أتمسك بالإيمان بالله ، وأننى برئ ، مهما تعددت الاتهامات وتكرر إيقافى ، والتحقيق معى والتحويل للقضاء ، والاعتقال ، ومع هذا لا شئ ، أجد نفسى أعود إلى منزلي ، أتطلع إلى وجه (منى) وأفكر كيف أعيش ، اتجهت للكتابة هى الآن الأمل الوحيد والحلم المرجو ، وبدأت أكتب وأكسب بعض المال ، وأعمل مدرسا بمدرسة خاصة وأحاول أن أعول أسرتى ، أخذوا شركتي ، كانت ملكى ، شركة سياحية ، ولكنهم أخذوها وتركوا لى الديون – وكان الله معى ، وبدأت أكتب وأكتب ، وكانت أولى رواياتي التي حصلت بعد ذلك من أجلها على مجموعة من الجوائز من روسيا وإنجلترا ، وكأن ما حدث لى كان بمثابة صدمة الإفاقة ، ونظرت إلى وجه منى وهى تسألني هل أنت رجل !

ابتسمت وقلت : نعم ، قالت : وهل الرئيس رجل أيضاً ؟ قلت : طبعا . قالت : وهل عند الرئيس تليفون ؟ قلت : بالطبع ، قالت ولماذا لا يكون عندك أنت وأنت رجل (تليفون) ؟ ، كانت فى عامها الثالث لا تعي من أمور الدنيا ، رأيت أن أجرب عليها اختبار الذكاء الذى كنت مشغولا به فى بحثى ، وأجريت عليها الاختبار الذى يحدد ذكاء الأطفال ، وكانت النتيجة مذهلة ، ازداد إعجابى بها ، ولكنها كانت كثيرة المنازعة معى ، فى المستشفى أرقد مستسلما وهى تحاور .. وتناقش ، وتنفعل ، وإذا أبديت رأيا ، أقنعتنى بعكسه ، أردد بينى وبين نفسي أنها الأذكى ، وهى أعلم منى وأسكت ، وتغضب منى لامتناعى عن الأكل ، ولكن لا أقدر على ابتلاع الطعام ، أصبحت تأخذنى خارج المستشفى لعدة دقائق تدفعني دفعا وهى تحمل المعدات التي تحيط بجسدى وكأنني رجل فضاء ذاهبا لاستكشاف عالم جديد ، أقص عليها حكايات حياتى ، صوتى لا يبدوا واضحا ، ولكنني تعجبت من منظر الشجرة التي كانت تقف فى منتصف نافذة غرفتى ، رأيتها الآن ، هى فعلا شجرة جميلة ، الأشجار هنا كثيرة وكثيفة ، الأيام تمر بصعوبة ولكنهم يقررون مد الإقامة ، نسأل ومتى الخروج ؟ لا أحد يستطيع التحديد، يجب أن تبقى وتحارب وتتحمل – وأتحمل ولكن لا أدرى كيف أحارب ، قال بانديا :

– تبدو أنك لم تكن موفقا فى بداية حياتك .

قلت بانزعاج : كيف جاءك هذا الخاطر ؟ لم يجب ظل محملقا فى وجهى ، هذا الطبيب الهندي ليس رجلا عاديا ، أنه يتعامل فى داخل الإنسان ، يعرف أكثر من مجرد طبيب جراحة ، قال :

– لماذا لم تحاول أن تستفيد من موقعك ؟

ضحكت وتذكرت أنني تحدثت معه عن (عبد الناصر) ، وعن اشتغالي بالقرب منه بحكم عملي فى مجال الشباب ، تذكرت الأشياء التى بدت الآن لها معنى ، لم أكن أعرف معناها عندما

حدثت أمامي وكنت أعايش واقعيا ، الآن فهمت ، كنت شاذا ، أصلى و أصوم وأقيم المساجد ، ولكنهم لم يكونوا يحبون من يفعل هذا ، الآن فهمت ، لماذا حاولوا إبعادي ، ولكن الحق يقال على الرغم أنهم فعلوا (كل شئ) من أجل ذلك إلا أنهم أفادوني ، كنت بسأظل أدور فى الفراغ ، فلم أكن زعيما ولا راغبا فى الزعامة ، لم أكن أحب السلطة ، فماذا أفعل ؟ كان الضباب يحيط بي ، وكنت أحسبه أبخره للمجد ، كنت أسمع طنين الذباب ، وكنت أحسبه طنين النحل الشغال ، لهذا لم أجد عسلا ، ولم أجدنى راغبا فى ابتلاع الذباب ، وعرفوا هم هذا قبل أن أعرفه أنا ، وكنت أقول رأى صراحة ، وأقول ما أعتقده صدقا ، ولكنه لم يكن إلا خداعا للنفس قبل أن يكون خادعا للآخرين ، وهكذا تعرضت خلال ولادة ابنتى إلى نفس الظروف التي لم أفهم مغزاها إلا بعد زمن طويل !

وكان التحقيق بطيئا للغاية ، فالمحقق مشغول بزواج ابنته ، راح يسألنى عن كيفية التغلب على مصاعب الإعداد للعرس ، ويسألنى عن مسئوليتى فى خبايا تخريب عقول الشباب ، وأنا أجيب ، إذا سألنى عن العرس أجبته بصدق فقد كان فى سؤاله يبدو إنسانا يحتاج إلى من يصدقه القول ، وعندما يسألنى عن جرائم ، كنت أجيبه بإجابات غير مفهومة ، مجرد شقشقة لسان أجرب فيها أساليب الحوار المسرحى ، فقد تحولت من العمل فى مجال الشباب إلى دارس وباحث فى عدة معاهد عالية ومنها معهد المسرح ومعاهد أخرى كانت قد بدأت العمل مثل السيناريو والنقد والسياحة وغيرها . فالتحقت بكل تلك المعاهد لكى أكون مشغولاً ، فيما يكاد المحقق يكتب عدة أسطر مما أمليه عليه حتى يشعر بالتعب ويصرفنى على أن أعود إليه فى اليوم التالي ، ولم أكن أقضى معه أكثر من ساعة ، كان هو يعمل ، كنا أعلم أنا ، أننى برئ ولكن يجب أن يثبت إدانتى لعبة نلعبها معا ، هو مشغول بزواج ابنته وأنا مشغول فى الصباح مع ابنتى هبة ومنى فأخرج بهما إلى الحدائق والمتاحف ، وفى المساء مع دراساتى وأبحاثى وكتبى ومقالاتى ، عرفت الآن أن ما حدث كان خيرا لى فقد عدت إلى الكتابة ، إلى الآداب بكل حماس ، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يعوضنى عن فقد راتبى وانصراف الأهل والأصدقاء طوال عامين كاملين ، بمكافأة سخية متمثلة فى مكافآت المقالات ، ومعنويا فى العودة إلى بناتى ، وإلى عالمى الأدبى الأثير ، وتعلمت خلال وجودى بالمنزل ، بعد أن كنت لا أعرف المكوث فى منزل أكثر من ساعات النوم ، وأصبحت الآن أقضى فيه معظم اليوم تعلمت أشياء عديدة عن ربات البيوت وعن الشغالات وما يدور فى عوالم البيوت خلال ساعات النهار كان من نتيجتها كتابتى لمسرحيتين هما (ممنوع دخول الستات وحفلة طلاق) وأيضا مسرحية (ألماظ) التى جمعت فيها خبرتى مما كان يدور فى أوساط القيادات فى ذلك العهد ، عندما كنت قاب قوسين أو أدنى من السلطات العليا .

وانتهت المحنة ، أو التى كانت تبدو كذلك ، وحصلت على عدة دبلومات عليا ، وعلى خبرة أوسع فى الكتابة الأدبية كان نتاجها روايتـى (الجـرار رقـم ٣٥) التـى نلـت عنـها عـدة جوائـز وترجمت إلى عدة لغات وقادتنى إلى الطريق السليم ، .. فى النهاية يا ابنتى ، اعلم إنكما تغضبان عندما أحكى تلك الحكاية ولكن كيف أنساها وهى التى جعلتنى أفيق ، وأعـرف مـن الـذى كنـت أهتف له ومن أخذ شركتى ووظيفتى ودفعنى دفعا إلى العودة إلى الكتابة ، وحرمنى النـوم أشـهر طويلة ، وحرمنى حنان الأهل وحب الأصدقاء ومنحنى كثرة الحاسدين الذين ظـهروا فجـأة وهـم يضحكون .

كيف أنسى وقد نشلتنى هذه الحوادث من وسط كنت أتصور إننى أقيم فيه عالما جميـلا ثوريـا يحقق الرخاء لوطنى ، ولابناء وطنى ، ثم يتهمووننى بالتخريب ، لمجـرد إننـى قلـت لا لم أكـن أعرف وقتها أننى أعارض ، أو إننى أثور ضد صنم ، دعوت كل شـباب وطنى لعبادتـه لأننـى لم أكن أعرف أنه مجرد صنم .

بعد عامين حولونى إلى المحكمة التأديبية لم أكن أعرف ما هى تلك المحكمة ولماذا تم تحـولى إليها ، سألت ودلونى ، دخلت المبنى ، قديم ، النيل قريـب مـن هنـا ، لا أدرى مـاذا أفعـل ، اقترب رجل فى الخمسين وسألنى ما هى تهمتك ، ابتسمت وقلت النصب والاحتيال ، قال : فى تهكم لا يبدو عليك ذلك ، قلت : وأنـت ؟ قـال فـى لا مبـالاة ، سـرقة كـابلات كـهرباء القـاهرة وثمنها خمسة ملايين من الجنيهات وقال مكملا فأنا المهندس المختص ، قلت بصدق وطبعـا أنـت مظلوم ؟ قال فى لهجة جادة أنا سـرقتها بـالفعل . وظـهر واضحـا إننـى انزعجـت بشـدة فقـال بسرعة انتبـه سوف ينادون عليك حالا ، ودخلت القاعة هناك خمسة مـن القضـاء علـى المنصـة ، قال كبيرهم : هل معك محامى ؟ قلت لا ، قال : وهل تعرف تهمتك ، قلت : لا ، ابتسم وأشار إلى كم هائل من الأوراق موضوعا أمامه وقال كل هذه التهم وتقول أنك لا تعرف ما هـى تـهمتك ؟ قلت مرة أخرى بصدق شديد :

– أنا لا أعرف بالفعل ، قال : انتظر بالخارج ، وخرجـت ، مـاذا أفعـل ذهبـت إلى النيـل ، جلست إليه ، اشتريت السجاير وشربتها لأول مـرة فـى حيـاتى ، كـانت أول مـرة أمسـك فيـها سيجارة لم أكن قلقا ، أشعر بفـراغ داخلـى ، وقـالوا أن التدخـين يذهـب القلـق ، لهـذا أردت أن أجرب وسألت النيل ، نفس النيل الذى يصل إلى دارنا ويلمس جدرانـها ، يـاه .. هـل لـو ألقيـت بنفسى يأخذنى النيل إلى حضن أمى ، وكيف أقابلها وقد كانت تود أن ترانى فى أحسن حال أمـا الآن يا نيل فأنا لا أعرف ماذا يدور حولى ، .. تنبهت لمضى الوقت فعدت إلى (المحكمة) لم أجـد أحدا كان هناك أناس كثيرون ، وباعة ومحامون وأناس يدخلون ويخرجـون ، ولكـن الآن لا شئ

من هذا كله ، لمحت رجلا يكنس الردهة ، قلت بلهفة !ألم تكن هنا محكمة منصوبة ؟ نظر نحوى فى دهشة ، لم أكن قد تخطيت عامى الأول بعد العشرين ، وكنت ضئيل الجسد أبدو مثل الفتيان ، قال : وهل لك أنت أيضا قضية ، قلت نعم قال : ولماذا خرجت ؟ قلت قالوا لى أخرج وانتظر ، أخذنى الرجل وهبطنا إلى (البدروم) أشار إلى رجل جالس يكتب ، تذكرت تمثال الكاتب المصرى ، تقدمت منه وأخبرته بأسمى نظر نحوى فى دهشة وقال فى ترحاب شديد أجلس هل تشرب شيئا ، قلت شكرا لم يكن فى جيبى سوى خمسة وعشرون قرشا ، أحضر لى زجاجة مثلجة ، كانت مبرقشة بقطع صغيرة من الثلج ، راح وهو يشرح لى ما حدث يعد صورة من الحكم لكى أحملها إلى عملى وأحصل على راتبى الموقوف ، وكان يعمل وهو يتكلم عن الظلم والبراءة وعن كيفية الانتقام ، ثم أخذ الورقة التى أعدها وكورها مثل قرطاس وقال فى ثورة :

– اذهب وضع هذا القرار فى أعين من ظلموك هكذا .

ودفع إلى بالقرطاس حتى كان أن يذهب بعينى فتراجعت بسرعة ، ولكنه جمع صورا عدة من هذا (القرطاس) أقصد هذا القرار وهو يدفعنى لكى أذهب فى الحال إلى مقر عملى ولا أتركه فقد أعادتنى المحكمة إلى عملى السابق ، وأعادت إلى راتبى الموقوف والأهم أعادت إلىّ ثقتى فى نفسى وبرأتنى بما أتهمنى به الآخرون ومنهم الأقارب والأصدقاء ، ورآنى متلكئا حرجا ، قال يا بنى: أعرف حالتك .. ، أذهب بسرعة ولا تفكر إلا فى استرداد حقوقك ، وذهبت ، وقبضت مالا كثيرا .. ولكن عندما وضعت المال فى جيبى أحسست أنه يزيد عن راتبى ، وأسرعت إلى عامل الخزينة ، يا رجل افتح الشباك لكى أراجع معك ما صرفته ولكنه بدلا من أن يفتح (شباك الصرف) راح يسبنى ، فالعيد بعد غد ويريد هو أن ينصرف سريعا ، أرجوك دعنى أراجع معك ما صرفت ، ولكنه راح يسبنى وهو يجمع أوراقه ويعد عدته لتسليم عهدته ، وبعد توسل ورجاء وتدخل بعض زملائه ، وفتح (الشباك) وأحضر استمارة الصرف وقال ها هو رقمك وها هو توقيعك ، وأنت تسلمت منى النقود تامة ولا نقصان فيها فلا تعبث معى ، قلت هات النقود أعد عددها ، وانكمش الرجل فى نفسه ، ثم امتدت يداه إلى النقود وهو يقذفنى بكل أنواع السباب ويتهمنى بالتلاعب والخداع والغش ، ولكنه ما أن انتهى من العد ونظر إلى الرقم المدون بالاستمارة ، حتى جلس وقد انتشرت حبات العرق على وجه ، أخذ يعد النقود ثانية فى اهتمام شديد ، ثم أعطانى المبلغ كما هو مدون بالاستمارة ، واستبقى الباقى ، نظرت إليه وقلت :

– هل تسمح لى أن أرد إليك سبابك هز رأسه فى أسى ، قلت :

– هل تسمح لى أن أرد إليك إهانتك الشديدة لى وأنا أبحث عن الحق أرده إليك حتى لا يدخلونك السجن يوم العيد .

تواكب زملاء الرجل يعاقبونه ويتوددون لى ، كنت قد سئمت ما حدث ، بل كرهت تلك النقود التى شعر أننى ما بذلت جهدا لكى أحصل عليها ، هى راتبى عن عامين ، ولكن فى العامين رزقنى الله خيرا كثيرا ، وعدت إلى بيتى لأخبرهم ، ولم أعد إلى عملى بعد ذلك ، وكانت الأمور قد بدأت تدخل فى متاهات السوفيت ولم يعد أحد قادرا على فهمها إلا من كان يسعى لمنصب أو المال أو الشهرة وهكذا عرفت الشيوعية طريقها الملتوى ، حاملة كل الشعارات الصالحة لكل العصور وحتى الآن ، وأنا أرى منهم من يجلس على مقاعد السلطة ، نقلونى إلى عمل آخر لا يتصل بخبرتى ، وعرفت أنه عقاب بعد أن خرجت من الاعتقال ومن المحكمة ومن كل التهم التى حاولوا إلصاقها بى ، ودفعوا بى إلى مجال عمل لم أكن أتصور أننى سوف أعمل فيه وهو الإسكان الشعبى الذى كانت الحكومة تدفع إليه بمن لا خير فيهم من موظفيها ، وذهبت ، وعملت ، وتركت خلفى إنجازا نجحت فى تحقيقه خلال عام واحد ، ويبدو أن هذا أيضا لم يكون فى بالهم ، فقرروا نقلى مرة أخرى ، ولكن بعد أن وعيت الدرس وحفظته ، وعرفت أنه ألعب فى ملهى ليلى أو سيرك ..

هكذا يا منى يا ابنتى لم يكن لى خيار إلا ما أراده لى الله وكان ما أراده خيرا كل الخير ، وعندما أحدثك به هنا فى مستشفى لندن ليس معناه كما تقولين كل مرة أحكى فيها تلك الحكاية ، إننى قد ربطت بين (خلفه الإناث) وإيقافى عن العمل وعقابى على هذا النحو ، إنما أقصد أن أتعلم ، أن أعى ما مر بى ، ها نحن فى جزيرة نائية عن بلدنا وعن أهلنا ، فى حجرة بمستشفى قديم متهالك يشكو قلة الميزانية ، وضنك الحال ، وعماله وأطباءه من كل بلد ومن كل قطر ، بل من كل جنس ولون ، ومع هذا نشعر إننا أحسن حالا ، من حالتنا عندما كنا بالمستشفى الكبير التابع لجامعة شهيرة ، كنا تعساء حيث كانت كل الإمكانيات متاحة ، ونحن هنا سعداء حيث لا شئ .. فقط أنت بجوارى ، وكأن الأسرة لم تفارقنا ، نحن هنا نتشاجر ، ونختلف ، ونتحاور .. نضحك ونتألم ، ولا نعرف ما سوف يحدث لنا ، هل سنعود معا ، أم تعودين وحدك ، أن كل ما يصنعه الله بنا هو خير ، هكذا يقول شقيقك الصغير فى بساطة وعفوية ، ابنتى لقد أحببتك منذ أخبرنى الطبيب بمولدك ، ليس هذا هو شعورى الآن فقط ، إنما هو شعورى الدائم ، اغفرى لى ضعفى عندما أبكى ، واغفرى لى هفواتى عندما أضيق بفراشى .. التليفون يدق ، تكلمى وقولى إننا بإذن الله بخير .

بدأ البرد يشتد ، وتذكرت زوجتى (ماجدة) ، وراح سيل الذكريات يفيض غصبا عنى ، أحببتها وأنا أحكى لابنتى عنها أحببتها وهى تقف خارج غرفتى وحيدة حزينة ، وعندما يسمحوا لها بدخول (الإنعاش) أراها تبتسم وهى تسقينى عصير العنب أو عصير البرتقال ،

ترتعد ولكنها تبتسم ، أعرف أنها وحيده وخائفـة ، ومـع هـذا تتماسك ، فـي الجراحـة الأولى فعلت هذا ، وسافرت وتركتها ، ثم عدت لأجدها ، حـاولت أن أرفـه عنـها ، ولكنـى مـا لبثـت وعدت إلى المستشفى وجاءت هى خلفى تحمل طفلها وقلقها ولهفتها وخوفها وظلت ما يقـرب مـن شهر وهى تحاول أن تساعدنى ، وكان المنظر الذى لم أستطع نسيانه وأنا أركب سـيارة الإسعاف وهى واقفة ومعها أطفالها الثلاثة ينظرون نحوى .. هل أعود إليهم أم لا ؟ العلم عنـد الله ، أشـعر بالخوف ، وينتابنى القلق كلما تذكرتها بأطفالها ، وحيدة ، ولا أحد بجوارها ، يـهتز قلبـى ، ولكن سرعان ما أعود إلى إيمانى المطلق بالله ، هو رب الناس جميعا ، يرعاهم أيتاما كانوا أو ذوى أهل ، الله وحده الكفيل بهم ، ونعم الكفيل هو الله ، ونعم الوكيل ، هو الرحمـن الرحيـم الـرزاق الواهب المنان أسبح بحمده وأستغفره ، أسـأل الله أن يثبـت قلـب زوجتـى علـى الإيمـان ، وأن .. يجنبها وسوسة الشـيطان ، ويحفظهـا مـن المكـاره والمعاصى والذنـوب ، هـى ابنتـى وصديقتـى وصاحبتى وزوجتى ، وأم أولادى ، وكان وجودها بجوارى اسـتجابة مـن الله لدعـائى ، فكـانت بشرى من الله ، وعلامة طيبة ، بها سَكَنت نفسى وإليها سَكَن قلبى واستراح فؤادى ..

زملاء الدكتور (باندیا) يدهشون بكثرة جلوسه فى ساعات راحتـه بجـوارى ، أنـهم جميعـا أصبحوا أصدقاء لى ، وتصادقت أيضاً مع الممرضات والعاملات والموظفات . كانوا يتضاحكون معى ، ويقصون علىّ ما حدث لهم ، ويسألون لماذا أنا أسجل كلمات على هذا السجل ، وينصحنى بعضهن بالابتعاد عن هذه العادة التى تجهدنى ، أردد بينى وبين نفسى وهل أتخاصم مـع القلـم ، عِشْرَةُ نصف قرن ، هل هذا أمر سهل على رجـل عـاش عمره يحلم بالكتابـة عاشـقا لهـا متجنبـاً كـل المناصب التى تبعده ، عنها هل هذا سهل لا أظن .

وتدور فى عقلى الذكريات ولا أدرى كيف تتبلور صورة ما حدثت فى الماضى دون غيرها لقـد استدعتنى النيابة عدة مرات ، ولكن هذه المرة ، النيابة تطلبك صباحاً ، لا تتأخر حتى لا نضطر للقبض عليك ، هذه الأوامر الميرى التى لدينا ، ارتجفت رعبا ، ماذا فعلـت ؟! وعلـى الرغـم مـن أننى تعودت على جلسات المحاكم التأديبية ومجلس الدولة ، وتحقيق النيابـات بتـهم مختلفـة بـداية مـن تهمة الشيوعية التى لـم يكـن لى شـرف الانتسـاب إليـها إلى تهمـة تخريـب العقـول الشابة ، إلى تهمة التحريض على الاهتمام بالدين والشروع فى بناء مسجد ، بـل أتُـهمت بـأننى أقوم بالإمامة لصلاة الجمعة أحيانا ، ولكن هذه المرة واجهنى وكيل النائب العام بتهمة اختـلاس سبعة قروش ونصف ! وضحكـت دون إرادة منـى للضحك وغضب السيد وكيـل النـائب العـام ، والغريب أننى تعاملت مع العديـد مـن وكـلاء النيابـة ، بـل تعـاملت مـع النـائب العـام نفسـه ، ولاحظت أنهم شخصية واحدة ، زارنى اليوم وكيل نيابة مـن المنصورة أدخلـوه فـى مصـر غرفـة

العمليات لإجراء جراحة القلب ، وبعد أن شقوا صدره ، اكتشفوا خطأ فى تركيب الشرايين ، فأغلق الجراح الصدر وجاء به إلى هنا ، وقال لى أنه كان على وشك الموت وأراد الله له العيش ، قلت له ضاحكا قلوبكم ليست كقلوبنا ، ابتسم وكنت قد سألت رئيس نيابة بأحد أحياء القاهرة عن عدم ابتسام وكلاء النيابة ، قال ماذا نفعل وعملنا يقتضى الجدية وكتبت مسلسل (يوميات نائب فى الأرياف) وأوردت فيه صورة وكيل النيابة حتى أن (توفيق الحكيم) أبدى دهشته من دقة تصويرى لتصرفات وكيل النيابة والغريب أن توفيق الحكيم عمل وكيلا للنيابة فترة من عمره وكان دوما يحكى لى عن ذكرياته التى لم يكتبها عن تلك الفترة ، سألنى وكيل النيابة فى جدية وتجهم أنت متهم باختلاس أموال حكومية (ميرى) فما قولك ؟ قلت : معاتبا وهى القروش السبعة تسمى أموالا حكومية تستحق الاختلاس ، قال : عملى هنا أن أحقق فى صحة الاتهام وأقيم الدليل على صحته من عدمه ، والقروش عندى مثل الملايين ومن يختلس قرشا يختلس مضاعفاته ، قلت ولكنكم تصرفون وقتا فى لا شئ ، ربما يفلت منكم من اختلس الملايين بالفعل ، وتذكرت مهندس الكهرباء وهو يعترف لى صراحة بأنه باع أسلاك المدينة كلها مرة واحدة وأنه مستعد للفصل من العمل ، فما أخذه يكفيه . لم أشأ أن أخبره بما قاله المهندس ، سمعته يردد على مسامعى تحريات المباحث ورجال الضبط حول تهمتى التى تثبت تقديمى لمستند شراء لمبة كهرباء لمكتبى بسبعة قروش ونصف وعندما حاولوا التيقن من صحة المستند المالى لم يستطيعوا الاهتداء إلى البيانات المدونة على المستند المالى ، فلا يوجد محلا ولا صاحب للمحل بهذا الاسم ، فسألته بسرعة وهل يمكن الإطلاع على المستند ، قدمه لى وقرأت اسم (عزت محمد على) هو البائع ، ورجال الشرطة لم يستدلوا على هذا الاسم مطلقا ، وسال العرق البارد ، ماذا أفعل عرضت عليه أن أدفع أضعاف المبلغ قال فى تبرم : عملى هو إثبات التهمة أو نفيها فماذا أنت فاعل ؟ قلت : أمهلنى للغد إن كان هذا جائزا ، قال : لك هذا على مسئوليتى لأنه مخالف ، ولكنى مشفق عليك وخاصة أن التقارير المرفقة كلها ضدك ، خرجت ولا أدرى كيف أخرج من هذه الورطة .

هبطت من السيارة ، سمعت صوتا ينادى ، ثم بالصوت يقترب ، وسعدت به فقد كان أحد تلاميذى عندما كنت أعمل فى رعاية الشباب ، مشى بجوارى وهو يحكى لى عن أحواله وأنه الآن يعمل بوزارة الزراعة بعد أن ترك محله الخاص لبيع الأدوات الكهربائية بعد وفاة زوجته ، بل رحل من الحى إلى حى آخر ومعه أطفاله ، سألته فى تردد ما أسمك يا (عزت) ؟ ضحك بشدة وقال يا بابا بعد كل هذه العشرة تسألنى ، قلت فى نفاذ صبر أريد اسمك الكامل ، قال : (عزت محمد على) ، أمسكت به وصرخت ولكنى لم أكن أعرف ، كنا نطلق عليك هويدى ، صحبته إلى وكيل النيابة الذى تحقق من صحة المستند ، وأخلى سبيلى وهو يبتسم .

قلت لعزت : هل تتصور أننى لم أكن أعرفك حق المعرفة فلم أكن أعرف أنك متزوج ، وأنك أب لخمسة أطفال وأن كل هذا يحدث لك وأنت لا تقابلنى إلا مبتسما ضاحكا حتى أننى كنت أظنك أسعد رجل عرفته عاد إلى مرحة . وعدت أنا إلى النيابة من جديد بعد هذا الحادث بأسبوعين لأنهم اكتشفوا (مستندا) آخر يستحق هذا الجهد لكى يدخلونى السجن ، وذهبت لأجد أن المستند هذه المرة يخص شركة معروفة ، وابتسم وكيل النيابة وهو يرمقنى وكأنه يسألنى هل يمكن أن تجد (عزت) مرة أخرى ، ولكنى أوجدت له هذه المرة (نجلاء) التى شهدت أنها هى التى استخرجت هذا المستند من الشركة التى تعمل بها ، وهى شركة مشهورة .. ومعروفة ، وابتسمت أنا فى مرارة وغادرت مبنى سراب النيابة كما يقولون عن هذه الحجرة الكئيبة التى يجلس بها وكيل النيابة ولا يوجد بها إلا مقعد واحد وعلى المتهمين الوقوف أمامه وهو يصرخ طالبا كوبا من الماء البارد له ، أما هذه الصورة التى نراها فى الأفلام والتليفزيون فلا وجود لها ، حتى عندما دخلت محكمة (باب الخلق) ، ورأيت الزحام حول (القاضى) وهو يردد تواريخ التأجيل للقضايا التى أمامه ، ضحكت وأنا خارج (من سرايا النيابة) أليست هذه تمثيلية هزلية ، قضاة وحولهم الآلاف يصرخون ، غرف سيئة النظافة سيئة التهوية يجلس فيها وكلاء نيابة .. هل أعضاء النيابة هم المعذبون فى الأرض أم أمثالى من معتادى التردد على هذه الغرف ، .. ثم ماذا بعد ، يا عالم ، ألم أكن قد أتممت عامى الخامس والعشرون بعد ، وأنا أذهب وأروح بين المعتقل وسرايا النيابة وغرفة المحكمة ، حقا تعلمت أشياء عديدة .

كنت عائدا من بنى سويف ، من ندوة عقدوها فى قاعة كبيرة تابعة لجامعة الأزهر ، وكان الجو جميلا وصوت الشيخ (عبد الباسط عبد الصمد) يصدح بالقرآن وحملنى صوته وطريقة ترتيله فى تيار العشق ، اختلطت فى رأسى صور العشق أحببت مولاى وخالقى ..أحببت الله .. ورحت أردد اسم الجلالة فى شجن جميل ، وتذكرتها ، لا أدرى لماذا تعلق بالوجه الأسمر ، أحببتها وأحببت بناتى بوجههن الأبيض كالأقمار الساطعة ، وأحببت الزرع الأخضر كان عقلى مشغولا بدراسة حول رسول الله " صلى الله عليه وسلم " ، كنت أدرس فى اجتهاد تدرج المعرفة العقلية عند رسولنا الكريم ، وأعتقد أنه جاء ببشرية لا يخالطها أساطير ولا معجزات خارقة ، وذلك لأن الدين قبله وكانت اليهودية - غارقة فى الأساطير ، ما من نبى لليهود إلا له قوة خارقة فوق العادة ، وما هو برسول أو نبى ، إنما هو قوة الله ، يحارب ، يدافع ، يهدم ، يبنى بيد الله وحده ، أما هم فجلوس ينتظرون الغنائم ، لهذا - كما تصور عقلى بمحدوديته - كان رسول الله "صلى الله عليه وسلم" بشرا سويا ، له ما للبشر من أعضاء وقدرات يبكى ويتألم ، يسعد ، يمشى على الأرض ، يفكر ، يستمع إلى أصحابه يمشى خلفهم لا أمامهم ، يجلس حيث انتهى

المجلس ، لا متصدرا ولا متشامخا ، إنما هو رجل أمه تأكل القديد بمكة ، رعى الغنم ، وتاجر ، وضربه الفتيان بالأقذار ، وحارب وكاد جيشه يفر من حوله ، وانتصر عندما عمل بقواعد الحرب ، لهذا كله رأيت أن معرفته بالوحدانية لم تكن فقط وحيا نزل عليه فعرفها ، إنما هى فى البداية أعمال عقل ، ومتجه قلب ، وعشق روح إنسانية فطرت على الهدى ، وعناية من الله وتدريبا ، يمشى رسول الله محمدا "صلى الله عليه وسلم" فى شعاب مكة ، يؤلمه الشوك والشوق ، يهزه الحب والريح العاتية ، يرى ما لم يدركه العقل ويميل حسه إلى الإدراك الحسى فإذا ما اجتمع العقل والحس ، ازدادت القناعة ، وتوحدت النفس وتوهج اليقين شعلة لا تنطفأ ، فإذا ما جاء الوحى وهو فوق المدرك الحسى والعقلى يكون قد وجد النفس المطمئنة القابلة التزود بالمعرفة الإلهية والتى سبقتها – وهذا اجتهادى والله وحده هو الحكم العدل – المعرفة العقلية البشرية ما كدت أقول هذا هاجمنى الشيوخ واستصرخوا الطلاب وقد أحلت دمائى ، وأصبح موتى وشيكا ، كنت لأول مرة أقول هذا الذى قلته علنا ، وما كدت أفعل حتى رأيت أصحابى وقد تخلوا عنى ، ورأيت القوم وقد شدوا على كرجل واحد، وأيقنت الهلاك ، ولكن الله كان معى ، فلما لم أجد من زملائى الذين اصطحبونى إلى الندوة ميلا لتأييدى ، ولو على الأقل أمام جحافل الطلاب ، ووجدتنى وقد انقلبت مقاتلا ، وتلك لحظات أتذكر الآن أنها كانت نادرة فى حياتى ، فأنا لا أجيد المحاورة فى النقاش ، ويعترينى الارتباك إذا ما هاجمنى أحد فى ندوة أو فى مكان عام ، وانسحب سريعا لكى ينشغل عقلى لا لسانى للرد على الهجوم ، أما تلك المرة ، فقد ألهمنى الله بالدفاع عن فكرتى وانسابت الآيات المؤيدة والمؤازرة لرأيى على لسانى وما كنت استشهد بالآيات إلا وأمامى المصحف ، فثقتى فى ذاكرتى وخاصة لآيات الله لا أركن إليها فإنى أخشى ارتكاب الإثم بالخطأ فى الآيات ، ولكنى هذه المرة انطلقت حتى هدأت القاعة وانقلبت ثورة غضبى ضد الشيوخ ، وصاح الطلبة يؤيدون ما ذهبت إليه ، وهكذا نجوت بفضل الله ، ولكن لم أعد لمثل هذا الحديث بعد ذلك واكتفيت ببحثى الذى نشر بعد ذلك وكان توفيقا من الله ..

ولما نجوت من (المذبحة) قررت العودة إلى بيتى ، وخلال العودة كان مؤنسى صوت الشيخ (عبد الباسط) وهو يرتل سورة يس بتلاوة لم أكن قد سمعتها من قبل .. فتجمعت أشواقى فى حبى لله والخشية منه وحب أولادى وحبى الجديد للوجه الأسمر فى رياح واحدة أخذتنى بعيدا عن السيارة (البيجو) التى كانت تنهب الطريق إلى القاهرة .

وفى القاهرة عرفت أنهم أعادونى إلى عملى الأول فى رعاية الشباب ولكن كانت الرغبة فى العمل قد ذهبت كما ذهب كل الذين كانوا يقفون بالمرصاد لى لمجرد أننى طالبت بالاعتراف بالدين كركيزة هامة لدوافع النفس البشرية وخاصة نفوس الشاب . يمر اليوم بأشياء عديدة ،

والعلاج هنا حَبْلُه ممدود ، وطريقه مملوء بالأمل والرجاء والألم والدم ، ومرضت ابنتى التى طال عليها الانتظار ، وأثقلت الغربة عن أهلها مرضها ، وصارت شاحبة اللون ، وبدأت أنا أحاول مواساتها وأنا أمهد لرغبتى فى أن تسافر وتتركنى لعل الله يدركنى برحمته أو يشفنى ، وعاوننى الدكتور بانديا فى علاجها ولكنه أيدنى بوجوب عودتها إلى الوطن . يا ابنتى ، أنه حمل ثقيل حملته على كاهلك ، فأب مريض قعيد يحتاج إلى معاونة دائمة ورعاية يعجز عنها أحيانا المرضات المحترفات ، ورفضت السفر ، لهذا فكرت فى أن ننتقل من مسكنها بجوار المستشفى إلى مسكن أخر على أن يكون بيتا مستقلا بحديقة صغيرة ، بيتا نتحرك فيه فتشعر أنه بيتها لا مجرد غرفة فى فندق ، وتحمست لها ، أننى يمكننى أن أقيم فيه معك ثم نأتى للمستشفى للعلاج ، وقلت لها ، دائما أحلم بأن اسكن فى (فيلا) بيت مستقل له باب حديد وسور مرتفع ، ثم حديقة تحيطه نجلس فيها ونرى الأشجار والشجيرات ونشرب الشاى ، ثم المبنى وهو صغير ، به غرف معدودة ، والمقاعد الوثيرة متناثرة فى أناقة ... وتذكرت بعد أن عدت للعمل فى رعاية الشباب أننى ذهبت مع زوجتى السمراء إلى ساحل العجمى ، كان مهجورا وغير معروف إلا لعدد محدود من أهل إسكندرية الذين يهربون إليه عندما يضطرون بزحام مدينتهم ، وقصدنا فندقا أقمنا فيه عدة أيام ، كانت الغرفة صغيرة جميلة ، وكنا فى عمر لا يفكر فى المكان إنما يكفيه ما هو نابع منه من سعادة ، ولكن عرض علينا أحد الخضراء أن يؤجر لنا مسكنا مستقلا ، كانت (فيلا) صغيرة بيضاء ذات طابقين وحولها حديقة واسعة وذات سور عال وباب حديدي يطل على الشارع ، وكانت ترصد البحر من بعد معقول ، ولما كانت (فلوسنا) قليلة .. قابلنا عرضه بفتور وعرف هو كيف يغرينا على دفع نقودنا القليلة فى إيجار (الفيلا) واكتفينا بطعام قليل ، ولكن سعدنا (بالبيت) ، نروى الحديقة كل يوم ، ونجلس بها لنشرب الشاى ، نتناول عشاء من الفاكهة التى كنا نجنيها من أشجارها ، ونعيد ترتيب المقاعد والغرف ، ونزيل الأتربة والأوساخ ، حتى أحلناها إلى قصر فخم جميل ، ولكن اكتشفنا أننا لم نذهب إلى البحر كما تعودنا ، ولم نسبح فى الماء كنا نحب ، وضاعت الإجازة فى (خدمة الفيلا) التى ظلت فى بالى حلما جميلا أود أن يتحقق ، ولكنه لم يتحقق . هذه مشيئة الله وحده ولا راد لقضائه ومشيئته ، لهذا اقترحت على منى أن نستأجر بيتا صغيرا وحوله حديقة ...ولكنها رفضت ، وعندما وافقت ، رفض الطبيب بشدة ، فقد ساءت حالتى ولا أدرى إلى متى سأظل هنا حبيس تلك (الزنزانة) ..وكأن الذين أرادوا سجنى لم يفلحوا إلا هذه الأيام ، بعد ثلاثين سنة تقريبا ، والله وحده أعلم بحكمته ، ونحن له طائعون .. ، خاشعون ، راضون نأمل فى رحمته ومغفرته وعفوه ..

وجاء الرجل إلى غرفتى فزعاً ، ولم أملك إلا أن أنسى آلى لكى أسانده وأدفعـه لكـى يتحمـل، ويتجمل بالصبر ، وأدخل مرة أخرى مع حكايات المرضى التى لو كتبناها فى أعمالنـا لسـخر منـا النقاد والقراء ...

ويسألنى الدكتور (بانديا) :

– ماذا تفعل لهؤلاء ؟

أقول وأنا انظر إلى وجيه الداكن وملامحه الهندية :

– الله وحده هو المعين .

الفصل التاسع

ويفيض الماء تاركا الأرض مغطاة بالذهب ، نجـرى نحـن الصغـار – علـى الذهـب والذهـب ، والذهب يبرق تحت أشعة الشمس الخريفية ، نتصايح ونلعب (عريس وعروس) ، ينـهرنا خـالى فقد آن أوان زراعة (اللمعة) ويزرعون الفجل عقب زوال فيضان النيل ، تأكله كأنك تـأكل سكر ، بعد الفجل الذى ينمو فى أسبوع واحد ، يزرع أخوالى البطيخ الذى يصبح جاهزاً للتسويق فى أول الصيف ، بطيخ مستدير داكن اللون لا يسقى بماء إنما يكتفون بالأرض الذهبية التى تركها النيل ورقد فى مجراه ، أحب النيل ، أراه كل يوم ، أجلس بجواره وأحلم ، أقود مركبا صغيرا وأتردد بين شاطئيه ، لجمع السمك ونذهب به إلى جدتى ، نأكل من خيره .. الفجـل ثـم الخيـار والقثـاء والأحمر البطيخ الشلين ، نأكله فى الصباح والمساء بالطبع مع الجبن كغذاء ، ثم جاء (عبد النـاصر) وأمر بعدم بيعه وأصبحنا نرسله إلى روسيا ، وكان أهلى يحتالون على أكله من وراء ظـهر الجنـد الذين ترسلهم (الحكومة) لكى تستلم البطيخ للريس ، يتعمد الفلاحون إسقاط بعض ما يحملونـه (على الأرض فيتكسر) ثم يجمعونه لكى نأكلـه ، أمـى تجمـع البـذور وتـأخذ رأينـا لنعطـى لهـا درجة للحلاوة فتضع البذور فى إناء وتحتفظ به ، وفى نهايـة الموسـم تقدم لأخـوالى أحلـى هـذه البذور لزراعتها فى الموسم التالى ، ولكن بعد أن استولى عبد الناصر علـى (بطيـخ الفالوجـا) وهـو اسم الأرض التى كان البطيخ يزرع فيها ، لم يعد أخـوالى يـهتمون لأننـا لم نعـد نـأكل أحلـى مـا نزرعه ، وصار الجنود يأتون كل عام لإحصـاء البطيـخ وجمعـه فـى قـوارب لكـى يعودنـه هدايـا (لخروشوف) حاكم روسيا ، وأصبحنا نتندرُ علىَ هذه الهوية البطيخـة التـى كـانت لنـا بمثابـة طعام فحرمنا منه ، وأن كانت قد أخذت فى طريقها شرا ، كنا نشكو منـه ، وهكـذا سمعـت مـن أهلى فلم أكن أعرف كل الحقيقة .. فعندما يأتى موسم البطيـخ تقـام مدينـة ملاهـى صغـيرة علـى الجزيرة المقابلة لبلدتنا ، وبالليل يذهب الرجـال والشـباب للسـهر فـى هـذه الملاهـى بقصـد أكـل البطيخ والفرجة على (الغوازى) وكانت هذه الملاهى تعد (فسقا) وفجـوراً ، ندعـو الله أن يجنبنـا إياه ، وكان خالى فوده أمام المسجد يدعو الله والناس تؤمن على دعوته بأن .. يهدم الله هذه الملاهى وأن يميت (الغوازى) ويبعد شبابنا عنـها ويتـوب عليـهم ، وأسـأل أبـى مـاذا يحـدث فـى هـذه الملاهى ؟ يقول إنها ليست ملاهى إنما هى مرد (غرز) يذهب الشباب إليها لكى يدخن الحشيش ، ويتفرج على الغوازى ، والظاهر أنهم يذهبون لأكل البطيخ ، فأراحنا الله من (غرز البطيـخ) بعـد أن استولى عبد الناصر على البطيخ لصالح الـروس ولم يعـد أحـد يسـتخدم كلمـة (الفالوجـا) علـى

الجزيرة بعد أن كانوا حريصون على إطلاقه عليها وخاصة بعد أن سمعوا عن بطولات شبابنا من الجنود الذين حاربوا فى (معركة الفالوجا) وقاوموا الحصار اليهودى مع عبد الناصر ، فأطلق الأهالى على هذه الجزيرة التى كانت تحاصرها المياه من كل جانب ويغمرها فيضان النيل كل عام ولاانحصر عنها الماء إلا فى الخريف فيزرعون البطيخ على أرضها الذهبية ، وكما جاءت الفالوجا مع عبد الناصر فقد ذهبت معه ولم يعد لدينا بطيخا خاصا نتباهى به ، ونقيم الملاهى (والغرز) من أجله ، لم يعد لدينا إلا دودة القطن ، ودودة البرسيم وطعم (الخيار البطيخى) بعد أن فقد البطيخ طعمه الخاص ، وأيضا الخيار !

جاءت أسرة مصرية لزيارتنا هذا الصباح ، وقد أحضرت السيدة (بطيخا) أو هكذا قالت ، واشتقت إلى أكل البطيخ وخاصة ودرجة الحرارة هنا فى لندن عالية بشكل ملحوظ ، وقد تذوقته وتذكرت طعم الفراولة بعد أن كبرت ثمارها وانتفخت بفضل الزراعة المغطاة ، ماسخة الطعم ، ولم أستطع ابتلاع قطة صغيرة ، وأخذت أحلم بنيلى وماء نيلى والغوص فى الماء البارد والشرب حتى الارتواء ، كم أشتاق إليك يا بلدى ، يا مدينتى ، يا قريتى يا جزيرتى يا أهلى ، أنا هنا أعانى الوحدة والطعم المر ، والحياة المريرة ، أستعيذ بالله افتح المسجل لأستمع .. ﴿ الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان﴾ والبيان هو القرآن ، والقرآن خلق قبل خلق آدم ، أن كلام الله وصوته وحديثه يا الله ، الشفاء من عندك، والرجاء منك وإليك ، اغفر ذنبى اللهم أنك منّان ، حنّان ، فتّاح عليم ، اللهم أنى ألجأ إليك كما يلجأ الرضيع إلى أمه ، أفزع إليك خوفا منك ورهبة راجيا رحمتك ، اللهم أكرمنى بحمايتك ، وحبب إلى قلبى الإيمان المطلق بك ، اللهم أن هذا الامتحان قدر قدرته لامناص ولا خلاص منه إلا بهداك ، أسألك اللهم المغفرة ، اللهم أنى قد أذنبت فاغفر لى ، وتجاوزت حدى فأعفو عنى ، تجرأت وتطاولت على خلقك ، فأعفو عن حماقتى ، أنت غفار الذنوب ، اللهم يا ذا الجلال والإكرام ، يا الله .. اللهم إنى أسألك بكل اسم سميت به نفسك ، أعلمته لعبادك أو أخفيته عنهم ، أن توفقنى فى عبور هذا الاختبار ، كما وفقتنى بنعمة مس شى كثير من مواقف حياتى وجنبنى العثرات ، من الغواية والإسراف فى حب الذات ، اللهم أنى عبدك وابن عبدك اللهم استحب والليل يحيط بى ، والألم كامن فى صدرى ، اللهم أنى أسألك ان تشفنى شفاء لا سقم بعده .. الساعة الثالثة صباحا ويدى تؤلمنى ، لم أستطيع النوم ، أفكر وأتذكر ، أحاول أن أتشاغل عن الألم ، ابتعد عنه ، .. أرى الهرم وقد وقفت بجواره ، وحولى أطفال دار التربية (الإصلاحية) كما يطلقون الناس عليهم ، أبدوا سعيدا وأنا اصطحب معى هؤلاء الأطفال ، الجميع ينادونى : أبى ، نعم كنت سعيدا طوال عملى فى (الإصلاحية) لم أهتم بما تفعله المديرة أو المعاون أو بعض الزملاء ، ورغم قسوتى أحيانا إلا أنهم كانوا – الأطفال والفتيان – يسعدون بوجودى ويأتمرون بأمرى – وما خالفونى يوما – كم اشتقت

إليهم .. ذات يوم كنت أتناول طعامى فى أحد محلات الفول أنا وزوجتى فإذا (بالجرسون) يبدى سعادة غير عادية لوجودى ويقدم لنا أفضل الطعام وأكلنا وعندما انتهينا سألته عن الحساب ، فإذا به يغضب ويقول :

– ألم تعرفنى يا بابا ؟

نظرت إليه ، حاولت أن أتذكره ، فى رعاية الأحداث كانوا يقولون (يا بابا) وعندما عملت فى رعاية الشباب ظل اللقب كما هو ، واعتدت على أن ينادونى بنفس اللقب (بابا) ، نظرت إليه وقد هزتنى الكلمة وتألمت لأنه شعر بخيبة أمل عندما لاحظ أنى لا اعرفه فقال :

– أنا (طه) ، تلميذك وابنك فى رعاية الأحداث .

وتذكرته ، طه .. عاقبته فى يومه الأول عقابا شديداً ، استقام بعد ذلك ، وأصبح مقربا منى – كان نشطا وصريحا وصادقا وأمينا ، دفعته للعمل خارج المؤسسة ونجح وأخذ يشق طريقه فى العمل حتى أصبح من أصحاب الخبرة فى إدارة المطاعم ، وتزوج وأنجب أيضاً .. أليس هذا أمراً مفرحاً ، وأنا جالس هنا أو راقد لا أستطيع أن أتحرك أو أحرك يدى ورأسى ، تدور الصورة فى ذهنى لست نادما لأننى قضيت شطرا من عمرى أعمل فى ميدان رعاية الأحداث ، وشطرا آخر فى رعاية الشباب ، ثم تنقلت بعدها فى عدة أعمال ولكن والحق يقال لقد تعلمت فى هذين المجالين أشياء عديدة ، سواء من الأحداث أنفسهم لأننى عشت القصص الحقيقة لكل منهم ، ولمست ظروفهم وحاولت الأخذ بيدهم ، منهم من استجاب ومنهم من خيب ظنى ، وفى الحالتين تعلمت أن العديد من الأشياء لم أكن أتعلمها أبداً من الكتب ، وكذلك فى رعاية الشباب ، حيث كانت الرغبة تدفعنى لعمل شئ فريد – سألنى زوج ابنتى هل كنت مدفوعا بدافع من رغبة فى منصب أو شهرة أو مال ؟ ، قلت : لم أكن أفكر فى شئ من ذلك ، بل لو أننى فكرت لحظة واحدة فى هذه الأمور ما شغلت نفسى بالمكوث فى هذا المجال ، وخاصة وأن أحلامى كلها كانت الرغبة فى أن أصير كاتباً ، فلا معنى عندى لمنصب أو لمال ، كنت أتصور أن ما يمر بى ما هو إلا تجارب يجب أن أعيها وأن أستفيد منها ، هذا ما قصدته من عمل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وأذكر انه قبل عام ١٩٩١ ، وكنت صاحب شركة سياحية ناجحة ، عرض أحد الأجانب أن يبيعنى شركته بعرباتها الفخمة ومشتملات مكاتبها وما يتبعها من منشآت مع العقود المبرمة أيضا ، على أن أدفع ثمن كل هذا مقسطا على عدة سنوات ، فقط على أن أدفع له المال فى سويسرا حيث كان ينوى الرحيل ، وخصما من مستحقات الشركة لأفواج سياحية من نفس البلد ، وسوف يرسل لى هو الأفواج ومبلغا يكفى لمصاريفهم ثم يخصم هو الباقى فى جنيف حتى يتم حصوله على الثمن المحدد بيننا ، فرح (ناجى) محاسب شركتنا وهلل (هنداوى) المدير العام ، وذهبوا بالفعل إلى

المحامى لإعداد عقد البيع الذى يوقع فيه صاحب الشركة معى أنه استلم كافة مستحقاته وأن الشركة أصبحت ملكا لى ، كما ذهبوا إلى البنك لإعداد (قرض) يمكن منه تسديد التزامات الشركة الجديدة وأيضاً ندفع للرجل السويسرى المبلغ الذى وافق على قبوله قبل سفره وهو لا يمثل إلا نسبة صغيرة من ثمن شركة كانت تقدر يوميا بحوالى نصف المليون ، .. وشعرت بالخوف ، ماذا أفعل ، أنها عملية سرقة لأموال بلدى ، سيحول الرجل ثمن شركته إلى الخارج من وراء القانون ورفضت .. بكى (ناجى) الذى كان قد أنهى الإجراءات تقريبا وخاصة قرض البنك ، واعتصم (هنداوى) بمكتبه يأسا من إصلاح حالى ، ولما تم رفض الصفقة نهائيا ، استقال ناجى بعد أن كتب يقول أنه ثبت عدم صلاحيتى ، يقصدنى .. ، للأعمال الاقتصادية وأنه يجب الاكتفاء بدورى كمصلح اجتماعى – وسافر ناجى إلى الكويت واشتغل هنداوى فى الخارجية وبعدها سافر إلى الباكستان ، وبعدها جرى تأميم الشركة ، واليوم وأنا فى المستشفى فى لندن قرأت وأن أبكى خبر وفاة (هنداوى) سفيرنا فى الكويت ، سبحان الله ، هنداوى الذى كان بمثابة أخ أصغر لى ، وكان يعمل كل جهده لكى يرضينى ، تركنى واشتغل بالعمل الدبلوماسى الذى ظل فيه حتى رحل عن عالمنا ، وبشر الصابرين ، وتذكرت زوجته وبناته وبكيت كنت أحبه وأتابعه وأسعد كلما ارتقى السلم الدبلوماسى .

دخلت كبيرة الممرضات (جيسى) وهى تبتسم لأنها علمت بذهاب ابنتى للتسوق ، وقالت : أن هذا فألا حسنا ، وقالت : أنها تدعو لى الرب فى صلاتها فقلت : وهل تذهبين إلى الكنيسة يا جيسى ؟ ، قالت فى حماس : كل أحد ، قلت الحمد لله لأن الجميع هنا لا يحبون الكنيسة ولا يحترمون التدين ، قالت : أنا تعودت على الذهاب إلى الكنيسة وأحرص على الذهاب أيام الآحاد ، ثم راحت تحدثنى عن زواج المرأة من المرأة وزواج الرجل من الرجل والذى يتم فى الكنيسة وأنه قانونى ومعترف به ، ولما أبديت اشمئزازى ونفورى من هذا الأمر ، اتهمتنى بالرجعية والتخلف ولا أدرى لماذا يتم زواج المرأة بالمرأة ويتم تسجيل لهذا الزواج بل يتم (تدشينه) فى دار العبادة ؟! أى تحول هنا عن المقدسات والشرعية ، ولكن كيف أتعجب من هذا الأمر ومعظم الممرضات يعشن مع رجال ليسوا بأزواجهن ، ولا يبدين حرجا ، بل يتحدثون عن ذلك على أنه أمر عادى لا خبث فيه ولا فسوق ، ثم هذا العدد الهائل من الأولاد غير الشرعيين ، يعرض التليفزيون مشاكلهم كل مساء ، حتى هؤلاء الأطفال الذين يجدونهم فى مواسير الصرف الصحى وفى أماكن تجميع الزبالة ، لقد شاهدت (مذيعة) استطاعت أن تركب عربة القمامة من الداخل ، وأن (تندلق) مع القمامة لكى ترى بعين رأسها آلاف الأطفال وقد تجمعوا فى (مقالب القمامة) ينظرون إليها فى بلاهة ودهشة وكأنهم قادمون من عوالم أخرى ، وليس من لندن عاصمة المملكة المتحدة والتى تدعى أنها رائدة التحضر الغربى المعاصر .. أيتها الحضارة الغربية

كم من المآسى تدور فى فلكك فلا تتحركين ، تركتنى (جيسى) تعيساً ولم تفلح محاولاتها فى إعادة الهدوء إلى نفسى ، ورفعت إلى الله يدى علّه يرحمنى ولا يميتنى فى هذه الأرض الخراب ، وأن يعيدنى إلى ديارى المسلمة وإلى أهلى ، .. هناك نعرف العيب ونعرف حقوق الله وحده فلا نتعداها وسبحان الله .

وعندما وصلت الباخرة إلى نابولى ، كنت قد حزمت حقائبى بعد أن حذرنا قبطان الباخرة (سوريا) من البلطجية فى ميناء نابولى ، فما كدت أحمل حقيبتى لكى أغادر الباخرة حتى رأيت رجلا مثل المارد وقد بدت عضلاته والقطع الجلدية التى وضعها حول رسخه وشعرت بالخوف الشديد ، وهذا المارد يقترب منى ويقول كلمة واحدة (سجاير) (سجريت) ورأيتني وقد تحول إلى كلب مسعور يدافع عن حياته أمام أسد ، ولا أدرى كيف زأرت بكل هذه القوة ، المهم أن المارد أختفى كما جاء ، جلست على حقيبتى أحاول أن أتمالك نفسى وأردد : هل هذه إيطاليا فقد جئت إليها لكى أتعلم ، أتعلم ماذا ؟ تمالكت نفسى وخرجت ، وجدتنى ورفيق آخر نسير فى شوارع نابولى نسأل عن طريق إلى روما ، واقترح زميلى ، عندما لاحظ كثرة السيدات الجميلات اللائى يحاولن إغرائنا أن نبيت الليلة فى نابولى ثم نركب القطار إلى روما فى الصباح ، وخاصة ونحن لم نتأكد بعد من كيفية الوصول ووافقته وذهبنا إلى فندق ، ما كدنا نضع حقائبنا حتى رأيت زميلى وهو يندفع من الغرفة مسرعا نحو إحدى السيدات وراح يتفاهم معها بلغة الإشارة ، لأننا لم نكن نعرف الإيطالية ، جاء بعدها لكى يجرنى إلى الصالة وهو يشرح لى أنه اتفق معها على أن يمارس معها الحب ويدفع لها مبلغا زهيدا ويريد أن أجلس فى انتظاره ومعى محفظته وجواز سفره ، ولم يترك لى مهلة التفكير فقد رمى لى بالمحفظة والأوراق وأيضا بعض ملابسه ، وسحبته الأنثى الإيطالية إلى حجرتها التى لم تكن بعيدة ، وجلست أنا وقلبى يدق بشدة فلم تكن لى بهذا العالم دراية خاصة وأنا لم أتجاوز عامى الواحد بعد العشرين وهذه أول رحلة لى إلى أوروبا ، وصدمتنى سيدة عجوز تحمل المناشف ، ما كدت اعتدل حتى واجهتنى سيدة شابة وهى تتعرى وقد أمسكت بجندى أسود تجره خلفها ، وشعرت أن معدتى تفور ، وغثيان ، وجسدى ينتفض فجريت نحو الشارع والقيء يسبقنى .

وقضيت ليلة كاملة وأنا أحاول أن أطرد هذه الصورة عن ذهنى ولكنها .. تشبثت أمام عينى ، ولم تتركنى أبداً وظلت معى حتى اليوم كلما جئت إلى أوربا ، ولا أدرى أنها كانت من رحمة الله لأنها أبعدتنى عن عالم النساء والخبائث وخاصة هنا فى أوربا ، وأحبتنى فتاة من روما كانت تأخذنى فى الآحاد إلى بيت أسرتها حتى كدت أكون واحدا منهم ، ولكنها فى النهاية لم تطق معاملتى لها والتى تتسم وفق تقاليدنا بالكياسة والأدب والحشمة ، فانفجرت ذات مرة وهاجمتنى لأننى لست رجلا ، ولم استطع أن أثبت رجولتى ، وفضلت أن أفارقها وأنا حزين

لصداقة جعلتنى أحب روما وأقضى يوما كل أسبوع وكاننى مع أسرتى ، وخاصة وأن ما معى من النقود لم يكن كافيا ، فعدت لقضاء أيام الآحاد ، أيام عطلات الدراسة متسكعا فى شوراع روما ، جالسا فى إحدى الحدائق ، ولأتغذى (رنجة مملحة) فهى أرخص طعام ممكن أكله ، لكن لم أندم ، وتكرر هذا فى ألمانيا ، وخاب أمل زميلتى التى أرادتنى حبيبا ولكن هربت منها ، ثم تكرر هذا فى موسكو ، وفى برشلونه ، وفى لندن وفى كل مرة لا تفهم الفتاة الأوربية ما نقوله نحن عن الحرام والحلال ، وضرورة الزواج قبل المعاشرة والأهم هذا الذى يحدث لى عندما أرحل إلى بلد أوربى ، أنه .. أشبه بالرفض الداخلى لكل سيدات وفتيات أوربا .. ولكن حدث أيضا هناك فى بلادى ، حدث كثيراً جدا وفى كل مرة أمر بهذه التجربة الأليمة أعيش لحظات أرانى فيها مهزوما من الداخل ، ولا أستعيد نفسى إلا بعد أن أرقد فى فراشى ، وأغمض عينى وأتحول إلى اثنين ، أحدهما راقد بلا حراك والآخر يذهب بعيدا طائرا ، أرى الأشياء تصغر ، الجبال ، المدن ، القرى ، والطرق تلتوى ، أتجه إلى حيث أريد ، أحيانا أذهب إلى الكعبة وهذا ما يحدث غالبا ، أهبط ، أطوف ، أصلى ، أرحل أعود ، و أصير واحداً ، أشعر بالإرهاق الشديد ، أحياناً يكون بجوارى أحد من أفراد أسرتى لا يعرف ما حدث ، ولكنه حدث ، وأعود إلى حياتى ، مرة أخرى سوف أحكى عن الحب كما شعرت به وكما عايشته ، إنما ذلك الذى صرت كما سبق وأن أشرت إليه كان شيئا أخر غير الحب ، إنها رغبة جامحة ينفر منها عقلى ويفر منها جسدى ، ويحدث لى ما رويت .

تدخل (جينى) كبيرة الممرضات تقول أن البروفيسير يريد أن يراك ، يتجمع عدد من الممرضات والطبيب المقيم ، يدخل (يعقوب) مبتسما : كيف حالك ؟

ابتسم ولا أقول شيئا ، ينظر إلى الجرح ثم يفحص القدمين يهمس إليه الطبيب المقيم ببعض الكلمات ، ويضع يعقوب الواقى على فمه ثم يأخذ فى فحص الجرح جيدا ، يتحدث خلال الفحص عن أشياء سياسية - كانوا قد اغتالوا (بريز) رئيس الحكومة الإسرائيلية ، ويعلن أن هذا أمر مؤسف ، وأنه كان يستحق القتل بالفعل ولكن ليس بهذه الطريقة ، يبدوا أنه مهتم بأحداث الشرق الاوسط ، يعتدل ويملى بعض التعليمات على من حوله ، ينظر نحوى ، ولا يخبرنى بشئ عن المرض إنما يواصل حديثة عن مقتل (بريز) وعن دور جماعات التطرف اليهودية وينصرف باسماً كما جاء ، يهرع خلفه كل ما جاء معه ، أنام وحدى الآن ، أفكر فى حكاية الإرهاب اليهودى ، يعقوب يرى أن كل الأديان بها متطرفون وأن هؤلاء هم أعدى أعداء الإنسانية والدين ، ولا أدرى هناك جوانب مضيئة كثيرة فى هذا الجراح الشهير والذى يحفه

المرضى بأنه لا يبتسم أبداً ، ومع هذا أراه دائما مبتسما ، وربما رأيته كثيرا وفى أوقات مختلفة من النهار والليل .

أحلق فى الفضاء وأرى البلاد من فوق ، وأراني وقد تحولت إلى شخصين ، كما يحدث لى فى كل مرة ، وأقوم بالرحلة .. لكى أراها ، وتبتسم وتدس فى يدى قطعة من ورق ، فأعود وأرى جسدى ممدداً وأرى الذين جلسوا بجوارى وهم لا يشعرون ، ثم أهبط ، وأعود ، وينتفض جسدى ، وأشعر بالعرق يغمرنى .. ، والإرهاق يهدنى ، وأفتح عينى لأرى يدى وقد أمسكت بالورقة أحيانا تكون مجرد ورقة بيضاء ، وأحيانا أرى عليها كتابه ، وتدلنى الكتابة على ما يجب عمله ، ولا أخبر أحد بما حدث وخاصه وأنه لم يستغرق زمنا ، بل لم يستغرق إلا دقائق ربما تصل إلى ثلاث .

أحاطونى ، عرفت أنهم سيقون بفتح ثغرة فى رقبتى لكى يصلوا إلى عرق يصلح لوضع جهاز الحقن ، قالوا : لن نعطيك مخدرا ، قلت : إذن نتحمل ، الألم أنواع وأشكال وألوان ، تلك عذابات الدنيا من ألم الجسد ، غير ألم الظلم ، غير ألم الخيانة ، غير ألم الهجر والفراق ، غير ألم الحاجة ، غير ألم لا تعرف له سببا يسمونه الإحباط ، وقد عشت الآن شهورا كثيرة شهدت فيها عشرات من أنواع هذه الآلام ، أحيانا أشعر بها متفرقة كل ألم يأتى أياما . وأحياناً تتجمع كلها فى لحظة واحدة ، فارقت الأهل والأحباب والأصدقاء والعمل ، فارقت الهدوء فارقت مصر.. إحساس بالظلم والضنى والوحدة .. والظمأ ، ما أعظم الألم عندما يحاصرك الظمأ حتى تتقلب على جمره والماء أمامك ولا تستطيع رى هذا الظمأ ، ولا تستطيع أن تذهب إلى الحمام إذا أردت ، ترى ما حولك يتحرك ، يتكلم ، يضحك ، يشكو ، يحكى عن المحلات والشوارع والمترو ، وعن أشياء عادية ، لكن كل هذا يعد عملا سحريا لا تقدر عليه يهدك المرض ، ويشلك الخذلان والضعف ، وتبتلع الحبوب فإذا أنت قد تخلصت من ألم الجسد لترى نفسك فريسة ألم آخر من نوع آخر .. هلوسة ولا تعرف أين أنت وماذا تفعل ؟ .. لجأت للصلاة ، تقول ابنتى أراك تصلى حتى وأنت نائم ، تبدى دهشتها لأننى لا اصدق ذلك ، ولكن إذا كان هذا يحدث فإنه فضل من الله ونعمة .

(باندیا) عاش بداية حياته فى الهند حتى تخرج فى كلية الطب ثم جاء إلى إنجلترا ليستكمل دراسته ، أصبح صديقا لى ، يجلس معى كثيرا ونتحدث عن نهرو وناصر وكيف عاونا فى استقلال العديد من الممالك والدول تحررت الآن وأصبحت دولا ذات سطوة فى السياسة الدولية ، نتحدث عن (الإنجليز) ، نكاد نتفق على رأى واحد ، فقد والديه فى حادث سيارة لم يبق له إلا ابنة واحدة تدرس الطب هنا فى لندن ، جاءت مناسبة الحديث عن أكسفورد ، كانوا يتباهون بأنهم تخرجوا فى أكسفورد تمنيت أن أذهب إلى أكسفورد ، وذهبت وخرجت محمولا على

الأكتاف هاربا من سوء المعاملة وعدم كفاءة (البروفيسير) الذى أجرى لى الجراحة ، باندياً يطالبنى بعدم تذكر أيام أكسفورد ، والنظر إلى المستقبل وتحدث عن نهرو ، تحدثت عن ناصر ، كنت مصاحبا لكريمتيه وهما طالبتان بالمدرسة الثانوية ، وكانتا تذهبان معى فى رحلات إلى أسوان والأقصر ، وقفت ذات يوم ومنعت عبد الناصر الزعيم من الدخول إلى مهرجان الشباب ، وقتها لم يغضب لأننى كنت أنفذ تعليمات (كمال الدين حسين) ربما ينسى الكبار هذه الأشياء الصغيرة ولكنها تظل فى ذاكرة أمثالنا من (الصغار) ، رويت (لباندبا) كيف كنت أحب ناصر ، وكيف حاربت فى ١٩٥٦ مع قوات الفدائيين وكيف حاربت فى ١٩٦٧ وشعرت بالقهر وأنا أرى الجنود وهى تفر هاربة من شرق القناة إلى غربها رأيت الجنود فى الطرق الموصلة إلى القاهرة والدلتا وهم شبه عرايا وكأنهم متسولون ، وكيف خرجت جماهير (بنها) إلى محطة القطار بعد إشاعة انطلقت بأن القطار محملا بالأسرى من اليهود ، وخرج الناس فى غضب جامح لكى يقتلوا اليهود وضربوا القطار الذى أسرع قائده به للفرار من المحطة ، فقد كان يحمل جنودا من الجيش المصرى وليس من أسرى اليهود ، ومع هذا كم من جندى أصيب بقذائف الطوب التى صوبها إلى القطار رجال غاضبون ، ورويت (لباندبا) ، كيف جاء أمر الانسحاب والانتشار وكنت فى الإسماعيلية ورأيت جحافل جيشنا وهى تفر فى فوضى ولا أحد يعرف شيئا حتى نحن قادة المعسكرات وجرينا إلى قاهرتنا وبكيت وأنا أقبل كوبرى قصر النيل وكوبرى الجلاء وأعلن أسفى وندمى على إهمالى فى الدفاع عن كرامتهما وكرامة مدينتى .

وأعلن ناصر التنحى ، وبكيت ، وظللت أبكى لأننى فقدت هدف الكتابة ، وكيف أكتب عن بلدى بعد اليوم كيف أكتب عن السد العالى وعن المقاومة فى بور سعيد والمنزلة ؟ وبكيت بعد أن عرفت الحقيقة ، وأن الجيش لم يحارب وأن الزعيم كان يعرف مقدما وقت الحرب وتاريخه وزمنه ، ومع هذا لم يفعل شيئا أو ربما دفع بجيشه لكى يموت وعرفت كم من الجنود قتلوا وهم أسرى ، كانوا لا يهتمون بأسر الجنود ، (فكه) لا لزوم لها ، كانوا يقتلونهم ويُبقى على الضباط فقط ، ومات كثيرون ولكن الأهم يا صديقى باندبا مات الحلم فى قلب الإنسان المصرى الذى ظل يحلم ، واكتوى بالنار كل مصرى ، حتى هؤلاء الذين كانوا يتمنون زوال (عصر البكباشية) نسبة لرتب ضباط الثورة . عشت أنا هذا الزمن المحزن المؤسف الضنين بالحلم والأمل وجاء البروفيسير يعقوب ولابد من الصبر ، تقول ابنتى أن زيارته تحمل لها المزيد من اليأس والحزن ، ولكن باندبا له رأى آخر ، إنه يقول لقد حاربت ٧٣ وانتصرت لنفسك وانتقمت لهزيمة ١٩٦٧ ، أقول فى أسى : آه .

وتذكرت (سامى) وكيف أكلنا الفول المدمس بالزيت الحار ثم سافرنا إلى السويس حيث تمركز قواتنا الخاصة ، ولكننا لم نصل ، كان اليهود قد دخلوا السويس أو بمعنى أدق احتلوا

منطقة الزيتية وانفجرت سيارتنا ، وواصلنا السير حتى توغلنا فى منطقة اليهود لم يعرفنا أحد ، ورأيناهم قد حبسوا المدنيين فى أحد عنابر شركة البترول ، تسللنا لكى نخبر القيادة ، كتبت عن ذلك فى رواية العام الأول للميلاد .

سألنى كثيرون أن أكتب مذكراتى ، وأنا أحمل ذكريات أنا أحمل فقط هموما جبلية ، سافرت إلى أسوان ، ودخلت السد وهى تحفر ورأيت (الكراكات) وهى تحمل أطنان الصخر وعربات نقل الصخور ، كانت الآلات تشبه الديناصورات أمريكية الصنع وإنجليزية ، و (عثمان) اشتراها من إنجلترا وأمريكا وألمانيا وعندما حضر (ناصر وخروشوف) همس أحدهم فى أذن (عثمان) ، أنهم سوف يرون (ماركة جونسون) على آلات الحفر والرفع ، ونحن نقول أن السوفييت هم الذين يساعدوننا فى بناء السد العالى ، وجدنا أن من الأفضل دهان الآلات والعربات باللونين الأصفر والأسود على أن يكون الأسود فى الوسط حتى يغطى الماركات الإنجليزية والأمريكية على الآلات ، ووقف الزعيمان (ناصر وخروشوف) فى افتتاح المرحلة الثانية وصفق العمال وهللوا وذبح عثمان الذبائح وأكل أكثر من مائة ألف عامل صعيدى ، بينما أكل الروس البصل والكرنب واشتهت النساء الروس رجال أسوان والنوبة وعندما رزقت إحدى الطبيبات الروس بمولود أسود لم يفعلوا شيئا سوى إعادتها إلى موسكو وزادوا فى توزيع حبوب منع الحمل ، لم أكن أعمل فى السد العالى كنت فقط أحد عشاقه لا أغيب عنه إلا للضرورة تصادقت مع المهندس عثمان ومهندس آخر لم أعد اذكر اسمه كان مسؤولا عن إنقاذ معابد (فيله) ، كان يقول لى تخرجت فى كلية الهندسة لكلى أعمل فى عملين فقط ، ميناء الإسكندرية البحرى الجديد ، وإنقاذ هذه المعابد وعندما أتممها أتقاعد ، وعجبت لهذا الرجل الذى تولى أمر مشروعين اثنين فقط ، كأنه يجلس أمام الصخور المرقمة ويحكى لى ذكرياته عن تجديد ميناء إسكندرية البحرى ، ويقص حكاياته ويضحك ، تأثرت به فقد كان نموذجا فريدا ، وكان يذكرنى بأحد أقارب الملكة فريدة الذى كان يعمل معنا بعد الثورة طبعا مجرد رئيس عمال ، ولكنه كان يتولى هذا العمل بحماس شديد وكأنه يقود معركة حربية هامة وعندما أحس بأن عماله لا يتحمسون استقال لكى يفتتح مطعما من نوع فريد أداره مثل القائد نابليون باهتمام شديد فى مجالين فقط وضع الخطط الحربية ومداعبة النساء ، وكانت أيضا زوجته تعاملة كما كانت زوجة (نابليون) تعاملة بجفاء شديد ، وصديقى الأمير السابق هذا كان يصر على إقامة احتفال كبير بعيد ميلادى ، وكان على استعداد أن يخالف زوجته وكل عشيقاته لكى أوافق على السهر معه فى هذا الاحتفال الذى كان يخلو بالطبع من الخمر والنساء وهو مالا يطيقه أميرنا السابق ، وأسرع باندیا بتغيير موضع (الحقن الآلى) وقال :

– يجب أن نزور معا السد العالى

رأيت الجبال شامخات والماء يتدفق بجوارها خائفا مترقبا ، وجعلنا من الماء كل شئ حى ، حفروا الجبال الشاهقات ، ودكوها أحالوا جسدها ترابا يذوب فى الماء ويجرى معه ، تتلقفه آلات الشفط لكى تعيده جبلا مرة أخرى ولكن فى الناحية الغربية وأصرخ فى ظلمة النفق ...الله .. الله هو الذى خلق ، هو الذى علم الإنسان ما لم يعلم ، علمه الأسماء كلها ، علمه القرآن ، ثم قال للملائكة أسجدوا لآدم فسجدوا ، سألهم فلم يجيبوا وسأله فأجاب ، أكرمه بالعلم ، ولكن الإنسان لا يعلم إلا إذا أذن الله له بالعلم ، هكذا علم الله مئات الآلوف من الصعايدة بناء السد العالى ، بينما علم الروس أكل البصل والثوم والكرنب ، وبنى الفلاحون الفقراء السد العالى لأنهم آمنوا بالله وبملائكته ورسله وكتبه ، آمنوا نعلمهم الله ، وأوصى لهم بما يجب أن يفعلوه بعقولهم ، فالعقل هبه من الله ومن أراد أن يحبه الله يجعل ذكر الله فى عقله لا على لسانه فقط .

لا إله إلا الله ، أتصور أن كل من يتحركون حولى كأنهم سحرة ، وأنهم يحققون معجزة ، لأنهم يمشون ويتحركون ويتكلمون ويأكلون ويشربون ، وأسأل كيف يفعلون هذا ، أنهم يتحركون بكل سيولة وأيضا يجرعون الماء والشاى ويمضغون الطعام ويتحدثون بحماس عن المترو والشارع وعن أشياء عجيبة تحدث فى الشارع وعن مظاهرات (الزنوج) وأعياد الزنوج ، وعن الرجل الذى أغلق المسجد الذى بناه لأنه يريد أن يبيعه فمن أراد أن يصلى فعليه أولا شراء المسجد ، وأعلنت الصحف عن الخبر ، وتعجب زوارى من هذا الأمر الذى وقع بالقرب من المستشفى وفى المساء قالوا أن الناس دفعوا لصاحب المسجد وتركوا أبوابه مفتوحة ولم يعلن أحد عن أسم الذى دفع أو أسماء الذين ساهموا فى شراء المسجد ، وضحك الإنجليز على هؤلاء السذج الذين يشترون (مسجدا) ثم يتركونه للآخرين ، فعلا نحن أمه من الأغبياء لأننا تركناكم تفعلوا بنا هذا ..

خانونى وزجوا بى فى متاهات الظلم وشهدوا ضدى وأقسموا ، لم أصدق أنهم فعلوا ذلك ، كل هؤلاء قالوا ها هو كتابك (أقرأ ما فيه أقرأ ، أنا إنسان يا ريس ، لست معصوما عن الخطأ ولكن لم أفعل كل هذا ، يقول المحقق أن هذا ما أجمع عليه الشهود، ولكنهم يا سيدى ليسوا شهود أنهم أصدقاء وأخوه وزملاء ، يردد فى آسى هكذا قالوا وأنت الآن مدان ..أحاول أن أبتعد ، لماذا تصر تلك الأحداث أن تلاحقنى ؟ خرجت بريئاً من كل ذنب ، واعترف العدو والصديق بأنى كنت مظلوما ، ياه .. كلمة العدو هذه تبدو منفرة ، لا أحب أن أكتبها أو أذكرها ، الناس كلهم أصدقائى لقد نفعنى الله بهم ، كانوا وسيلة لكى أرتفع عن الصغائر وأتقوى على الشدائد ، وعندما قابلت (محافظ القاهرة) الذى كان يتباهى بأنه لا يخاف من أحد وأنه أقوى من الناس ، ويضرب من يشاء ويعاقب من يخالفه ، قلت له أنت تراب ، مجرد تراب حتى ولو كنت فى عبقرية (نابليون) وقوة (رمسيس) وعندك مال (قارون) وحكمة (أفلاطون) ، فأنت هالك لا محالة وميت

وصائر إلى تراب ، زمجر ولكن واصلت هجومى فرأيته وقد تحول إلى فأر صغير ، وتضاءل هذا الرجل الذى وصف (ناصر) ذات مرة بأنه نبى بل أفضل من ذلك ! أستغفر الله ، ذهب ناصر وذهب ذلك المحافظ المنافق، وظل الحق ، وظلت مصر ، لأن الله واحد وحكمه نافذ ، وأنا متعب لا أعى ما أقول فقد تشابكت الأحداث واختلطت الأمور ، ومع هذا فأنا راض بحكم الله ، إذا أرادوا أن يدفعوا بى إلى السجن فان هذا فضل من الله ،وإذا لم يفلحوا فهو أيضا فضل من الله ، لقد هرب الصديق وهرب الأهل ولم يبق إلا وجه الله وأنا به متشبث ، أقف فى حلقة الذكر أردد الله ..الله ..أتوق إلى احتساء (القرفة) ، وسماع المنشد ، يا من له سجد الملوك وتقدست أسماؤه ، يا من بيده ملكوت كل شئ وهو على كل شئ قدير ، أمدد إلى يدا ترفعنى من وهدة الظلم والإظلام والوهن ، ألوذ بالبيت ، أطوف به ، أشهد أنك أنت الله أحد ، قالت (جيسى) كبيرة المرضات تحمّل ، والألم الحاد يكاد يعصف بى ، كانت تقوم بغيار الضمادات الأمر الذى يتطلب منها الكثير من الصبر وتطالبنى هى بتحمل الألم ، الشريط طوله متر ونصف يجب أن يدخل إلى الجرح الغائر فى صدرى ، كل لحظة تقول : إنها آسفة ، أحاول أن أتشاغل ، الليل يغطى المكان ، شجرتى لا تبدو فى الظلمة ، إنما يظهر شبح امرأة تقف خارج النافذة تنظر نحوى ، تتأملنى وأتأملها ، لا أدرى كيف جاءت إلى هنا كيف دخلت حديقة المستشفى ، ربما إحدى المرضات ولكن وجهها يبدو مألوفا ، قلت لجيسى : كم مرة وقعت فى الحب ؟

قالت ضاحكة :

- ألن أقل لك لا تستعمل كلمة حب لأن لها معنى مختلف عن قصدك .

قلت فى إصرار وأنا أحاول إبعاد فكرى عن الألم .

- فلتسمه ما شئت ، فكم مرة حدث هذا .

قالت فى أسى :

- مرة واحدة فقط .

كانت مشغولة بإدخال الشريط فى صدرى ، وشعرت أنها لا تود البوح .

قلت مشاكسا وأنا أكتم آلمى :

- سمعتك ذات مرة تتكلمين عنه .

رفعت رأسها ونظرت نحوى فى هلع .

- لابد أن ما يقولونه عنك حقيقة .

قلت بصوت واهن :

– وما هو ؟

قالت وهي لا تزال تنظر في وجهي :

– إنك تعلم أشياء لا يعلمها غيرك .

قلت في حزن وقد غمرني الأسى :

– أنا لا شئ يا جيهي ، أنا نصف ميت ونصف مجنون ونصف رجل .

قلت وقد عادت إلى عملها بإتقان أشد :

– لا تتحرك حتى أنتهي .

وذهبت ، قلت في نفسي كم مرة وقعت أنا في الحب ، ووجدت صعوبة في الإجابة لأني إذا قلت لم يحدث أن وقعت في الحب ، كنت صادقا وإذا قلت عشرات المرات ، كنت أيضا صادقا لأنني لم أعرف ما إذا كنت أعشق حقا في كل مرة أم أنني أتخيل ذلك .

وأخيرا أحببت ذلك الحب الذي يتغنى به الشعراء ، كنت قد تخطيت مرحلة الطفولة ، وعرفت ما كان يعرفه رفاق المدرسة ويحكون حكاياته ، لا أدري كيف وقعت في غرامها ، كانت أقرب إلى الطفلة منها إلى الفتاة ، بيضاء بحمرة في الوجنتين ، دقيقة الملامح ، رقيقة المظهر ، تجلس مع أمها على عتبة دارهم في أول شارعنا ، لم أخاطبها ولم أكلمها ، تكفيني منها نظرة بعينيها ، مجرد أن أرى الوجه الملائكي ثم أمضي وقد تعثرت بخجلي وارتبكت خطواتي ، وشعرت أن كل الناس يعرفون بحبي لها ، كانت دارهم واطئة عن مستوى الشارع وكانت دائما تجلس قابعة بجوار أمها على عتبة الدار ، وكان يحلوا لي أن أعبر شارعنا عدة مرات في اليوم ، أتذكر هذا الآن وأبسم رغم الألم ، أحاول أن أستحلب ذكرياتي ، أن أستعيد ذلك ، ذلك الحب الذي ·· قلبي وعقلي ودفع بي إلى متاهات .. وأتذكر ذلك كما أتذكر بيتها كان يغطس في بحر شارعنا وهي مزروعة هناك أعلا العتبة ترمقني ، وعندما تزوجت ، كانت الطامة الكبرى فقد كفت الطيور عن التغريد ، وسكنت الريح ، وعصف بقلبي زلزال أحمق ، وحاولت البكاء ولكني لم أستطيع ، كنت كلما رأيتها أرتعد وارتعش ولا أدري ماذا أفعل ، أذهب إلى صديقي (رفعت) فيحدثني في القومية العربية وأصول الحكم ونظرية (أنشتين) ، وينظر نحوي في دهشة فأنا على غير عادتي لا أعارضه ولا أناقشه لتعديل حلمنا المشترك نحو عالم أفضل ، أين أنت يا رفعت الآن وهل تعلم بمكاني ؟ !

هل كان حبا ، عشقا ، لم نتقابل ، لم نتلامس ، لم أقل لها أحبك ، وهل كنت أحبها فعلا ، ذهب إلى خالها (جابر) وحكيت له ، وكان مجرد (صعلوك) صغير يكبرنى فى السن ، عاطلاً ولكن موزع خدمات على أهل قريتى ، قادنى إلى عراف لكى يكتب لى دواء الحب ، وعرفت طوال عام كامل أسرار السحرة أو من يدعون ذلك ، وتعلمت كيف يكتبون وماذا يقولون ، وشربت عدة مرات من دواء الحب ولكنى لم أتقدم نحوها خطوة ، حتى تزوجت ، ونسيتها، وضاعت منى ، كما ضاع العام مع هذا الرجل المشحوذ الذى أنهيت خداعه للفلاحين بإبلاغ (نقطة البوليس) عنه ، فاقتادوه بعدة تهم ، كنت أذهب إليه ليلاً ، داره فى عنق الحارات ، فى أول الدار غابة من الأحذية المتهالكة .. بالوحل ، تتخطاها فإذا أنت فى بهو سئ الإضاءة والتهوية وعشرات من الرجال والنساء جلوس فى انتظار مقابلة (سيدنا) الشيخ ، فإذا دلفت إلى محرابه ، وهكذا فعلت بمعاونة (جابر)خال حبيبتى ، إلى غرفته الخاصة ، لن ترى ألا ناراً موقدة وسط الحجرة السوداء ، ورجل يجلس القرفصاء ، تحدث معه (جابر) فأشار عليه بالخروج ثم التفت إلىّ ، كنت أعرف أنه بالتأكيد يعرف من أنا ، بل لابد من أنه يعرف كل شئ عنى وعن عائلتى لمكانة عائلتى فى بلدتنا الصغيرة لهذا لم أتوقع أن يدخل معى فى محاوره ، مد يده بورقة صغيرة وقال خذ هذه وأجعلها فى ماء حتى تذوب ثم اشرب منه كل صباح ، وفعلت وظللت أداوم على شرب هذا المنقوع ، الماسخ ، ولكن الأهم أن هذه التجربة استهوتنى ، وأردت أن أعرف عنها المزيد فكنت أتردد عليه كل ليلة أعاونه فى كتابة الاحجبة وأقابل بعض أصحاب الحاجات بدلا عنه عندما يكون مشغولا بعمل طقوسا خاصة لجماعة من رجال ونساء كانوا يحضرون مرة كل أسبوع ، ولم يشركنى فى هذه الاجتماعات المغلقة إلا بعد فترة طويلة ، وعرفت الكثير . قال لى أننى فأل سعد عليه، عرفت كيف تختفى البهائم حتى تظهر على يد (سيدنا) وكيف تلد العاقر بعد أن تزور سيدنا ، وكيف (تنفك) العقد وتخرج الشياطين .

وكنت أذهب إلى (رفعت) صديقى الوحيد فى تلك الفترة ، ولا أخبره بما أفعل ليلا ، كنا نقرأ كتبا كثيرة ، وكنت شغوفا بالقراءة عن كل شئ وكان هو كذلك ، وكان والده رحمه الله معلما عظيم الفائدة لنا ونحن فى هذه السن المبكرة ، وتحاورنا حول الجن والعفاريت والشياطين ، وأخذنا نتذكر كل ما سمعناه عن الجنيات والنداهات والساحرات اللائى يملأن حارات قريتنا ويجلس بجوار النهر بالليل متخذات أشكال الحسان الجميلات أو متخذات أشكال الأرانب والحمير ، فإذا اقترب أحدهم منها أمسكت به ودفعته إلى عالمها السفلى حيث لا عودة !

وقررنا أن نقوم بالتجربة ، طفلان مندفعان يحاولان معرفة حقيقة (الجنيات) وذهبنا إلى النهر ومكثنا ليلة كاملة ، ظلماء لا ضوء لقمر أو لمعة لنجم فى السماء ، ولم نقابل شيئا ، مشى

كل منا فى اتجاه ، ولكنه ولمدة ليال لم نلمح ولم نر شيئاً ، ذهبنا فى ليالى تالية إلى الأماكن التى كانت مسرحاً لحوادث كثيرة عن الجن ذهبنا إلى (شجرة أبى كريم) أسفلها ظلمة داكنة وتمرح فيها أشقى الجنيات ، ولكن لم نر حمارا ولا حصانا ولا أرنباً هذا فضلا عن عدم ظهور الحسناوات ، .. ضحكنا لأننا فعلنا هذا .. وعدنا ولم أخبره بما أفعله مع سيدنا ولم أخبر أحد قط ، كما لم أخبره بما يحدث لى كل فترة ، وهو أمر لم أتحدث عنه إلا هذه الأيام وبعد سقوطى فى وهده المعاناة هذه ، وقد ترددت - حتى الآن - فى ذكره ، ولكن قد صرحت به بعد أن دفعنى باندبا إلى الاعتراف وتحدثت عن الحالات التى تتسابق فأرى ما لا يمكن رؤيته فى حياتى العادية وأعرف تلك الأشياء التى كانوا يسألوننى عنها فأجيب وأنا لا أدرى كيف عرفت ما عرفت ، بل كنت أرى نتائج امتحاناتى وأنا لا أدرى حتى الآن تفسيرا لهذه الظاهرة ، ولكنى لم أخبر أحد بعد أن حذرتنى جدتى التى كانت هى الأخرى تسألنى عن أشياء مفقودة فأدلها ، حتى أخبرتها ذات يوم بموعد وفاة جدى ، بل أخبرت جدى ، عرضا ، وأنا ذاهب إلى المدرسة أنه سيموت بعد صلاة الظهر ويجب أن يستعد ، فذهب إلى حجرته ، وبعدها عرفت أنه مات فعلا وأنا خارج المدرسة فهربت إلى بيت صديقى (رفعت) ، وحاولت أن أغلق فمى فلا أتحدث إلى أحد ، ولا أخبر أحدا بشىء .. وفشلت فى أن أقول لها أحبك ، وتزوجت ، وعرفت أن (سيدنا) دجال فأبلغت عنه الشرطة .

قبلها سمح لى سيدنا أن احضر الاحتفال ، ورأيت الرجال والنساء سكارى يشربون من شراب أحله سيدنا لهم ، واختلط حابلهم بنابلهم واختلطت النساء بالرجال ورأيت ما هزّ وجدانى سنوات ، فقد كانوا شبه عرايا يشربون ويتبارون فى إباحية جاشلة و(سيدنا) ينشد فى نشوة !

جاء (رفعت) وأخبرنى بما فعله ضابط النقطة فى (سيدنا) وكان سعيدا لأنهم ، أخيرا ، إمسكوا به ، وقال : انا أغار عليك من كل شىء لمسك ، فقلت : فى دهشة لقد مسك شيطان كيف تقول هذا ، قال : فى صدق أنا فعلا أحبك ولا أريد لصداقتنا أن تزول .

قلت : ولكن الغيرة هذه للسيدات ، للعاشقات وليست لنا نحن الأصدقاء ، قال : ومن قال أنها حكر على العشق والعاشقين ، إن الصديق يشعر بأشد أنواع الغيرة عندما يرى صديقه ينصرف عنه ، قلت ولكننا لا نكاد نفترق ، قال :

- وماذا يحدث لك فى الصباح ، إنك تختفى عنى بعيدا ، وأبحث عنك فلا أجدك .

ياه .. لقد حاصرنى (رفعت) بغيرته فعلاً ، كنت أعشق الهواء الذى يأتى معها فى عربتها الحنطور ، أقف مشدوها فاغر الفم ، ناظر إليها ، تهبط من عربة الحنطور أمامى مباشرة ،

الملاك الذى قرأت عنه فى الكتب ، ينقصبا الجناحان ، يمكن أن أصنع لها أنا الأجنحة ، تبتسم ، فتظ تبتسم ، أحس كأن الدنيا تمطرنا بالياسمين ورائحة الجنة ، تقبض حقيبتها على صدرها وضفيرة من الشعر الأصفر المتوهج تحت شمس الصباح تتراقص على ظهرها، والنور ينبثق من وجنتيها ، ولفيف بنات كالغزلان يحطن بها ، ترنو نحوى ، تتوقف لحظة ، ثم تدلف إلى باب المدرسة ، أظل أحملق حيث كانت ، ينهرنى سائق عربة الحنطور .. أذوب خجلا ، أظل أحلم برؤيتها فى اليوم التالى ، تهبط على مهل على سلم عربة الحنطور ، أكاد أتلقفها بين أحضانى ، أكاد ألمس وجهها ، أكاد أتحسس ضفيرتها ، ولكن فقط أحملق ويدور فى عقلى طواحين النغل .. أحتضنها ، أقبلها أهمس لها بحبى ، أسمع هسيس أنفاسها المبتدلة ، ترنو نحوى ، لا أفعل شيئا تختلط الرغبة بالحلم ،تتماوج أحاسيس الحب والأمانى والخوف .. هل أحبها ؟ لاتكفى الكلمة ولكن أعشقها .

– هل عرفت

قال فى غضب : ماذا ؟ قلت :

سوف أتخصص فىعلم الكيمياء

قال : وهل عرفت ، قلت متظاهرا بالرغبة فى المعرفة :لأن عقلى كان معها هناك أمام باب مدرستها، ماذا ؟

– لقد قرر مدرس الكيمياء حرمانك وحرمانى من حضور حصته قلت منزعجا : وماذا نفعل ؟

ضحك وقال : ألن تخبرنى بسر غيابك عنى فى الصباح ؟

أصبح صديقى رفعت استاذا ورئيسا لقسم الكيمياء بالجامعة !

الليل فى أكسفورد ، ألم وحزن وكابوس ، أعيش ليلا مرعبا ، ونهارا مزعجا تداخل الأشياء والأفكار والكلمات ، يدور حولى الأطباء ، ولكن أحس أن حالتى تسوء ..

انتظرها فى نفس المكان بالقرب من باب مدرسة (فريال الثانوية للبنات) ، تتوقف عربة الحنطور ، يرمقنى سائق العربة ، فأحاول أن أدارى وجهى ولكنها تسطع كشمس الشتاء ، جميلة الجميلات ، شعرها الأصفر يتطاير وهى تهبط سلالم الحنطور قلبى يخفق بشدة ترنو نحوى ، تتوقف ، تحتضن حقيبتها وكأنها تقبلها ، أتمنى أن أهمس لها بكلمة واحدة .

– أحبك .

وحكيت لصديقى (حسين) ، ابن البندر عن حبى ، وأضفت من عندى أننا نتبادل الحب ، وقلت كل ما تمنيت أن أقوله لها كأنه حدث فعلا ، أحببت حسينا" لأنه دائما ملهوف لسماعى وأنا أتحدث عنها ، فى المساء أحكى له .. وبالليل أحلم بها تأتينى ، ونجرى ، ونذوب شوقا وفى الصباح أقف مشدوداً مشدوها لأرقبها ، أنتظر لحظات هبوطها من الحنطور ومرورها أمامى ودخولها المدرسة، ثم أظل يومى أعيش فى تلك اللحظات ياه .. كان حبا جميلا عشته كأنه حياه كاملة وجاء الامتحان وجاءت الأجازة ولم أعد أراها ، هل لازالت كما هى وردة فى ضياء القمر !

– أستاذ .

– نعم .

– أنت دائما تتحدث مع نفسك وتمسك بهذا المسجل الصغير ، ماذ تفعل بالتأكد.

– لا شئ ..مجرد حديث مع النفس ، مجرد كلمات .

قالت :

– أخشى أن يرهقك ما تقوم به .

– لم أعد أخشى شيئاً .. ماذا أفعل ، هل أظل أحملق فى سقف الحجرة حتى أموت قالت فى تلعثم :

– لا .. ولكن ..

ضحكت وقلت لها :

-- أن كل أسرة المستشفى يسألون نفس سؤالك ، ويدهشون مثلك ، ومع هذا سوف أخبرك بسر .

– اقتربت فى فضول وقالت :

– هل هو سر يخصك .

قلت : نعم ..فقط أخبرنى عن سر جمالك وأناقتك .

، انطلق الزهو مشرقا على وجهها وقالت فى دلال :

– أنت تجيد الغزل .

قلت : وأنت جميلة بشكل ملفت للنظر .

قالت فى دلال :

ـ ألا تخبرنى عن السر ؟

قلت لها : وأنا أتذكر إحدى الفتيات الائى وقعت فى حبهن وكانت نادرة الجمال :

ـ أحببتها حبا لم يحبه أحد ، وعندما طلبت منى مصارحتها بمشاعرى لم أستطع العثور على كلمات تعبر عن هذا الحب .. كلمات لم يسبق لى أن قلتها لأحد أو كتبتها على لسان أبطالى.. لم أجد الكلمات .. فهربت منى لأننى لم أقل لها أحبك .

ـ حاولت مواساتى وقالت :

ـ وهل وجدت كلمة جديدة ؟

قلت يائسا :

ـ لا

ـ وأين هى الآن ؟

ـ لا أدرى

ذهبت ، ضاعت ، وأنا لا زلت أبحث عن الكلمة الجديدة ، كيف أقول لها أحبك دون أن أقول لها أحبك .. كيف ؟

دق الباب ودخل فاروق يحمل طعاما . لم أعد راغبا فى الطعام لم أعد راغبا فى شىء ، جاء طبيب شاب وراح يفحصنى باهتمام .. تناسيته . .. لم أفق إلا بعد انتصاف الليل .

⊕⊕⊕⊕⊕⊕⊕

الفصل العاشر

المكان مجهول ، والزمان مجهول ، أراقب السماء ، الصخور ملونة ، .. و (الترولى) كأنه ترام يسير من القلعة إلى شبرا ، يدفعه رجل طويل ، أسمع ضحكات الممرضات ، السقف وحده هو الذى أرى ، أشعر بالحذر من الحركة الدائمة (للترولى) ، يدخلوننى حجرة واسعة ، تسطع الأضواء ، الشمس حارقة ، أدخل من باب المسجد الحرام ، أعرى كتفى ، لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، أن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك أهبط السلالم أدور مع الطائفين ، الرخام بارد ، تلسعنى برودة محببة فى قدمى ، أتوقف أمام حائط الملتزم ، ألصق جسدى بالحائط أتشبث بأستار الكعبة ، دمعى يسبق دعائى ، اللهم أعطنى فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، اللهم أغفر ذنبى وأقل عثرتى وجنبنى الشقاء فى الدنيا والآخرة ، قلبى يخفق ، أتذكر أهلى ، أدعوا لهم ، أتذكر رفاقى أدعو لهم ، ادعونى استجب لكم ، هاهو الحجر الأسعد اقبله ، رأيته مرة أحمرا ، وأخرى أزرقا ، وثالثة أبيضا ، لماذا سمى بالحجر الأسود لم أراه أسودا قط ، الله أكبر ، هذا هو شوطى الثانى أتذكر أناسا لم يخطروا على ذهنى من قبل الله أكبر أدعو لأمى ثم لأبى ، أنهيت الطواف والصلاة ، زمزم عشقى ، أتوضأ ، أشرب أدعو ، زمزم لما شرب له ، نؤدى الصلاة ، الله أكبر ، صليت العشاء ثم جلست أمام الكعبة ، يحلو لى أن أنام فى الحرم وفى الطابق الثالث لأعود للصلاة .. إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك بليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، أصلى ، أتلو القرآن لا أود ترك الكعبة ، أعشقها ، أحبها ، تغلغلت داخلى ، .. الناس من حولى يتدافعون ، يهرولون ، أفقد اتزانى ، تسقط نظارتى ، قالوا لا تنحنى انحناءة تعنى الموت تحت الأقدام ، أحس أن أقدامى تدهس أشياء لزجة ولينه ، تدفعنى الكتلة البشرية ، أرمى بالجمرات الله أكبر يلكزنى أحدهم ويقول لا تكبر عليه – يصر عقلى على التكبير ، هذه الواحدة ، فالثانية ، لا وقت ، تنتهى الجمرات ، يقول لى أنها (ست) فقط أصيح فزعا بل (سبع جمرات) .. أكرر ، الظلام من حولى ، لم أعد أرى ، هل أبحث عن نظارتى ، أين رفاقى ، معى اثنان من سوريا قواد حرب ، رجال من الصاعقة ، أمسكا بى ، أين أنت ، قلت فى لهفة :

– بل أين أنتم ، وأين بقية الرفاق ، نظارتى سقطت .

قال رفيقى السورى ، قائد الصاعقة ، إنها عالقة بملابس إحرامك ، أعيد وضعها على

وجهى ، رأيت النيار ، حكيت لهم أنه موجود بالفعل لا الرمز ابتسموا أعطانى طفل زجاجة مياه ، شعرت أنه تأنف عندما شربت ، وأعدتها ، قذف ما بها فى قرف ، شعرت ببعض الحزن ، قلت لرفيقى (طارق) الطبيب البشرى أود أن أحج حجة لا يشوبها نقص ، تذكرت هذا فابتسمت للطفل ، رأيت شيخا يخرج من الحرم ليشرب الدخان ، قلت فى نفسى ، أغمض عينيك ، شعرت بالإرهاق ولكنى ألزمت نفسى بالصبر والصمت والصلاة ، كان الشيخ يفتى بما يخالف (السنة المتبعة) ، وأشفق على نفسى ، وأضغط على يد رفيقى (طارق) حتى لا ينفعل ، يزمجر فأسحبه إلى مكان الصلاة ، أدعو الله أن يجعلها حجة بيضاء لا يشوبها شائبة ، قالوا الجسر سقط وسقط مئات من الحجيج ومات كثيرون ، وقالوا أن مطار القاهرة ، احترق وأن فندقا كبيرا بالقاهرة قد احترق أيضا ، وقالوا أن الحجاج الذين ماتوا من مصر ، سجدت لله بكيت اللهم احفظ بلدى ، قالت ابنتى :

– حاول يا أبى .

قلت فى ضراعة :

– اطلبى لى طبيبا نفسيا ، لقد جن أبيك ! تدافعت الأيدى أكملت طوافى ، كدت أسقط ، وزعت المياه الغازية على ركاب السيارة كنت ملهوفا على رد شربة الماء التى شربتها من الطفل السعودى ، اشتريت الكثير من علب المياه الغازية ، شربوا .. كانوا من المغرب والجزائر ومن اليمن ومن ألمانيا .. شربوا وشكروا ، حمدت الله ، قلت لأختى يجب أن تترك ماء زمزم على وجهى ، قال أن الجراحة انتهت كم مرة حتى الآن سمعت هذه الكلمة .. انتهت الجراحة ، هذه المرة لا أشعر بشىء ، دعونى هنا فى الحرم المكى ، جذبونى ، قالوا لابنتى إننى كسول ومهمل ولهذا لا يمكن أن يشفى ، سقطت ، أعادونى إلى غرفة الجراحة ، تختلط الصور ، كم مرة جئت إلى هنا ، وفى كل مرة اشتاق إليها أكثر لبيك اللهم لبيك أن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك لبيك ، أرفع صوتى ، يطالبنى الشيخ بالكف عن التلبية ، لم أسكت انطلقت ملبيا يشاركنى رفيقاى (عماره وطارق) ، تصرخ أعماقى ، الرغبة فى التوحد تدفعنى إلى القرب ، يا الله .. يا حبيبى ، أمدد يدك إلىّ ، سمحوا لى بالتجول فى طرقات المستشفى ، بالليل .. أسير وأرفع صوتى بالدعاء ، أود أن أتوحد مع الدعاء ، أن أصبح أنا والدعاء واحد ، ندعو لرب واحد ، لن يسمعنى أحد إلا هو ، أرفع صوتى .. يا رب .

يأتى الصبح ، وتأتى جدتى لتضع فى حقيبتى طعاما ، أسرع لألحق بالقطار الذاهب إلى مدرستى ، ويأتى الصبح فى أكسفورد لأجدنى قابعا فى خوف على أحد المقاعد ، وهنا فى (الأولد كورت) تعاوننى الممرضات لكى أجلس ، يتحدثن معى ، الطعام لا تشتهيه النفس .

الليل فى أكسفورد معناه الألم والموت والرعب ، أموت رعبا أتسلل من الرفاق وأختلى وحدى ، أشار (حسن) ناحية الكعبة ، وأحسست أننى قريب منها وجدتنى اعترف بأنى مذنب ، فعلت الكثير من السيئات وجريت وراء نزوات نفسى واعتقدت أن الشباب باق ، مرقت من الباب ، جريت نحو الكعبة لا أدرى إذا كان حجا أو عمرة ، اختلطت الصور ، وضعوا صنية الإفطار ، الطعام لا معنى له ولا رغبة لى ، جاءت ابنتى ابتسمت وقلت لها إننى أحسن حالا ، وضعت اللقمة فى فمى لا أستطيع بلعها ، حاولت .. رفعت يدى حتى تكف عن إطعامى جاء مرضى آخرون ، فى حجرتى يجلس المرضى الجدد يسألون نضحك ، نحاول أن نقنعهم بأن حالتى ليست القاعدة ، وأن الجراح الإنجليزى هو السبب ، وأن المستشفى الآخر هو الذى فعل بى هذا ، يبتسمون ويذهب كل مريض إلى حجرته ، تذهب ابنتى فى جولتها اليومية ، محاسن تحتاج إلى رعاية ، شقيقها تركها وذهب إلى لندن ، والفتاة السعودية تشعر بالوحدة ، وسيادة اللواء يشعر بالخوف الشديد ، ويانديا تأخر اليوم ، تقوم ابنتى بالترجمة بين الممرضة ورجل من قطر ، عدت من الحج سعيدا ، كنت قد اشتريت تفاحاً ، تحلق أولادى حولى ، كنت قد استأجرت بيتا صغيراً وجميلاً وبدأت أعيش حياة شبه مستقرة ولكن الذين دفعوا بى إلى العمل ، أحزنهم نجاحى فحاولوا إيقافى ، لم أكن أعرف ماذا أفعل ، ناصر ناصر يحيا ناصر ، كنت أرددها فى معسكر روما ، وفى موسكو ، ورددتها فى حدائق المانجو فى الإسماعيلية عندما حاصرتنا القوات الإسرائيلية ، دفعت برفاقى وقررنا الموت ، كانت الطلقات تنهمر علينا مثل حبات المطر ، طلقات من كل حجم ، المدافع تقصف والطائرات تحاول اختراق حائط الدفاع الصاروخى ، رأينا الدبابات تئز بإصرار ، دفع (سامى) بمدفعه إلى الأمام ، ارتفعت الدبابة الأولى عن الأرض ثم سقطت ميتة ، ارتبكت الدبابات الأخرى ، تشجع الرفاق وراحوا يصطادونها ، تساقطت الدبابات مثل الفيلة السوداء الضخمة ، تعوى من الألم ، ازداد ضرب المدفعية وازداد انهمار مطر الطلقات عوى إبراهيم مثل الذئب رأيناه ممسكا برأس ضابط اسرائيلى ، اندفعنا نحو الترعة وتخلصنا من عشرات تساقطوا من الدبابات ، ثم كفت المدفعية وهدأت الجبهة ، شعرت بالخوف من الصمت أدرت رأسى وأشرت لرفيقى (عزيز) ، تقدم (عزيز) مجموعة ، بعد لحظات عاد القصف أكثر قسوة وضراوة ، الليل طويل والقصف لا يكف ، تشبثنا بمواقعنا لم نفكر فى الحرب الماضية ، أخيرا جاء الصبح ورأيت أن الرمال والطين لم يكونا إلا تلال من الطلقات التى لم تنفجر وسقطت علينا كما هى .. قالت ابنتى :

ـ يجب أن تأكل .

وقال باندیا :

ـ جئت لأراك وأجلس معك

قلت فى ضراعة :

– الألم يعصف بى والوهن يشلنى

قال مبتسما :

– حارب

حاربت ، حاربت كل حروب مصر ، وكل حروب جيلى الذى مات قبل أن يولد ، حاربت القهر ، والظلم والغلاء وقلة الحيلة ، حاربت مع عبد الناصر حتى انخلع قلبى ، وحاربنى عبد الناصر فى لقمة عيشى وحاصرنى حتى كدت افقد حياتى ، وجريت إليه .. إلى الله كان بيتنا يطل على ضريح سيدى يوسف ، وكل مساء يوم الاثنين يأتى الرجال ويقيمون حلقات الذكر ، أواظب على حلقات الذكر ، أردد مع المنشد الله .. الله يعلو صوت المنشد جميلا رقراقا مثل صوت الكروان ، تقول جدتى أنه يقول لا إله الا الله .. تنتشى روحى وأنا أشترك فى حلقة الذاكرين ، طفلا صغيرا كنت محشورا بين الرجال فى حلقة الذكر ، انفصل عن عالمى ، أتحول إلى شخصين ، كل منهما يرى الآخر ، أطير أرتفع ، أرى ، أعود .. والآخر يرقبنى ، يحدث هذا أحيانا عدة مرات فى اليوم وأحيانا أخرى تمر الأيام ولا حدث .

وأنفصل عن ذاتى لكى أفكر فى أشياء عديدة ، تدور فى رأسى الأفكار ، أصبح ذكيا للغاية عندما أكون وحدى .. جاءت اليوم إلينا سيدة تقوم بواجب الزيارة نيابة عن الجالية المصرية ، سيدة سمراء لطيفة المعشر ، أسعد أحيانا بالزوار ، حادثتنى سيدة من الخليج ، .. أحيانا أشك فى وجودى كله .. وأحيانا أتصور إننى مجرد أكذوبة ، ولماذا لا أشعر بآدميتى ؟ .. تحيرنى هذه المسألة كثيرا .

أتوق إلى عناق أبى ، إلى حديثه ، صديقى ومعلمى وكل حياتى ، قويا شجاعا ، مهابا ، تخافه نساء حارتنا ويهابه الرجال ، له وجه جميل ، وحديثه أجمل فى جلسات صفائه يرتل القرآن لنفسه ، أستمع أشعر بالخشوع ، ثم أجده وقد تحول إلى عاصفة جامحة لا تبقى أمامها شيئا لا يخاف أحدا ، ولا يخشى إلا الله ، يحنو علي ويعلمنى ويجلس ليقص على كل ذكرياته وما حدث له .. جدى يقرأ (المصرى) بعناية ويشرح لى سياسة الوفد ، جدتى تحكى لى (حواديت) ألف ليلة وليلة ، أمى تقص على قصصا لم تكملها قط ..

قالت ابنتى :

– أنهم قادمون لإجراء جراحة صغيرة فى صدرك .

أم كلثوم تغنى (رجعونى عينيك لأيامى اللى راحوا ، علمونى أندم على الماضى وجراحه ،

اللى شوفته قبل ما تشوفك عينيا عمر ضايع يحسبوه إزاى عليا) اللى شوفته ، ماذا رأيت ، ماذا رأيت والرؤية هنا الرؤى والأحلام وما أكثرها . الرؤية ضاعت ، طفولة حبيسة ، عمل متواصل وقراءة ، وشباب ضاع منى ، وكهولة محفوفة بالمرض ، الله .. لا أحصى ثناء عليك ، أنت الله ، قال أبنى عمرو أن الله لا يصنع إلا خيرا ، صدقت يا عمرو ، تذكرت أولادى ، يقولون فى بلدتى إننى رجل (مزواج) ، وتزوجت بثلاث نساء ، قالوا تزوج مثل كل الشباب ، من فتاة من أسرة عالية المقام ، وفرحوا وأكلوا الوز والبط والحمام ، ثم قالوا تزوج ، تزوج بأخرى وأيضا من أسرة ثرية عالية المقام ، قلنا كيف يتزوج هذا (الولد) باثنتين معا ، لم يحدث هذا فى عائلاتنا ، إنه عاق ، ولكنهم بعد فترة نسوا أو تناسوا فقد ألهتهم الثانية بالهدايا بينما ترفعت الأولى عن مخاطبتهم ، سعدوا وفرحوا ، ثم قالوا لقد جاء بالثالثة لا ندرى لها أصلا ولا فصلا ، هذه هى الطامة الكبرى ، وقامت قيامة الزوجة الثانية ولم تهدأ ، واشتعل الجو نارا من حولى ، لماذا فعلت هذا ؟ هل المطلوب أن أبرر ، أن أجلس أمام محكمة لكى أفسر وأفند ما ارتكبت من الأخطاء .. لماذا ؟ حتى هنا فى تلك الحجرة النائية فى مستشفى بارد مظلم لا أنيس لى إلا أنابيب الحقن والدم والجلوكوز ، وتليفزيون يعرض على شاشتة رقصات من أوبرا ألمانية حديثة ، تشنجات راقصة لا أفهمها ولا أعيها ، لماذا أفسر كل شىء ، هل من أجل تسلية القراء ، ولماذا أسعدهم وهم لم يقدموا لى شيئا ، الناشرون يأخذون الكتاب بثمن بخس لا يغنى بثمن القهوة ، والقارئ يتسلى يعرض عنك النقاد ، إذن لماذا أشرح وأفسر ؟ نعم أنا تزوجت بثلاث نساء ، من يعترض ؟ المعترض عليه مقاضاتى .. سوف يقولون عنده دوافعه وأسبابه ، وأن لم يكن عندى شئ من ذلك ، هل أعتذر وأذهب إلى السجن ، نعم هذا ما حدث ولا تبرير عندى .

عندى منزل جميل ، وخادمة تطهو لى الطعام وتعتنى بى ، ولى راتب جيد ، وأشق حياتى ناجحا ، قالوا أننا نعدك لكى تصبح وزيرا للشباب ، .. واندفعت ألهث وراء العمل لا أتوقف فى كل يوم (مناورة) جديدة من عجائز النادى ، ما رأيك لو تزوجت من هذه ، أسرتها تملك ووالدها رجل مهم ، وأحاول أن أتملص ولكنى أقع فى مؤامرة أخرى ، ومن فتاة إلى أخرى وعجائز النادى لا يتوقفن : لماذا لا تتزوج ؟ ولماذا أتزوج الآن ، لم أذهب إلى الجندية بعد ، وأمامى الوقت على اتساع ، وأمامى مستقبلى ، ولكن ماذا تفعل فيما يسمونه النصيب .. ، كانت حولى عدة فتيات يحاولن جذب انتباهى ولكن أرواغ ، أحاول الابتعاد عن النساء بكل السبل ، لا أجلس ولا أتواجد منفردا مع فتاة أو سيدة مهما كانت الظروف ، أسرع بالتواجد مع الجماعة .. رحلات الحب الذى عاشها قلبى لم تكن إلا رحلات غير ناجحة ، حتى تلك الفتاة التى زاملتنى فى الجامعة لم أتزوجها ، ظلت علاقتى بها جيدة ، وظن الزملاء أننا متحابان وسوف نتزوج ، لم أقل لها كلمة حب ، ولم تقل لى شيئا من ذلك ، ولكنها ظلت تحافظ على مكان لى بجوارها فى

المحاضرات ، لم يحاول زميلى أن يغامر بالجلوس بجوارها ، جميعهم على علم بما بيننا ، لم يكن سرا ، ولم يسمح وقتى الموزع بين العمل والدراسة بممارسة ألعاب الشباب أو هواياتهم ومنها التنزة مع الفتيات ، ولكن كنت جادا فى رغبتى بالزواج منها ، وكان أصدقائى يحترمون هذه الرغبة ، ولكن بعد امتحان الليسانس ذهب كل منا إلى حال سبيله ولم نعد نتقابل أو حتى كأن شيئا لم يكن بيننا .. ذهبت وذهب الحب كأنه لم يكن !

الله لا أحصى ثناء عليك ، حاولت أن أتذكر أسماء الله الحسنى ، عالم خالق خلاق عزيز متكبر متجر رازق حليم شهيد مجيد رحمن رحيم وهو الأول وهو الآخر وهو الملك وهو المعين ، وهو الشافى وهو الله وهو البارى الخالق المصور الواحد الأحد الفرد الصمد ، الله لا أقدر على مزيد شكره وحميد صنعه هو البارى هو المصور له الأسماء الحسنى ما نعلمه وما نجهله يا الله يا شافى أخاف ، ألجأ إليك ، أسيد أتمتم باسمك ، يحيط بى الأطباء ، أمسك بيدى لا أريد أن أتألم ، أقول الله ، صدقت يا عمرو أن الله خير ولا يصنع إلا الخير لخلقه ، ولكنا بشر نتألم ونسعد ونشعر بالحر والبرد ، نشعر بالساخن والبارد وهذه عظمة الخالق وإلا ما خلقنا بشراً سويا ، نتلذذ دائما عندما نشرب كوب الماء البارد ونستمتع حينما نشرب كوب الشاى الساخن . الصيف لنا ملاه وملاعب ونقول أن الدنيا حر ، كيف عرفنا أنها حر إذا كنا قد جربنا البرد نحن نشعر فنحن خلق ، ونحن خلق لأننا نشعر !

أقص عليكم من باب التسلية ، تسلية نفسى ، أولا بصفتى أنانى فأنا الجالس الآن ، أحملق فى التليفزيون البريطانى ، حيث يقدم عرضا لبالية حيث به تشنجات رقصيه تبدو جميلة ولكنى لم أستطع أن أنتبه إليها جيدا ، وجدت نفسى والطنين يملأ رأسى أبحث عن شئ يسلينى ، عن تذكار جميل فى حياتى مثلا ، أو أن أحصى أسماء الله الحسنى أو أن أستمع إلى القرآن الكريم ، أو أن أكتب إليكم قصة طريفة ، أنا لست برئيا ، وأيضا لست ظالما ، أنا فقط إنسان ، المسرح الذى يعرض علينا البرنامج الثانى فى التليفزيون البريطانى يصبح مربعات بيضاء وسوداء ورجال ونساء يلعبن ، يبدو التصوير جميلا والحياة جميلة هذا التليفزيون الملعون يجعلك كمريض تشعر أن هناك حياة أخرى غير تلك التى تحياها مع ممرضاتك ، ودكاترتك ، بين الأدوية وبين الضوء الساطع مسافة طويلة ، أنا الآن فى بداية أعوامى العشرين ، شاب فى وظيفة لها كيان ، تقود وتكسب وتغمر وتعيش فى بحبوحة ، الكل هنا معجب بى ، جميل الطلعة كما يقولون ، أسكن مع أحد أقاربى الذى يشرف على طعامى الذى أجده بعد عودتى معدا أعداد منزليا جميلا ، سفرياتى لا تنقطع ، ما أكسبه يزيد عن حاجتى ، وفرة فى المال ووفرة فى الملابس ووفرة فى السكن ووفرة فى الطعام ووفرة فى السلطة والمركز أعمل من التاسعة إلى التاسعة وأحيانا يمتد عملى إلى الثانية صباحا ، عملى يحلو لى ، كل ما يخطر بذهنى أو كل ما

أحلم به من مشروعات أنفذها توا ، أقصد فى الحال ، أنا الذى أخطط وأنا الذى أبدأ المشروع وأنا الذى أنفذ ، عندى فى مركز الشباب ثمانية عشرة ألفا من الأعضاء بين رجال ونساء وفتيات وأطفال فإذا أردنا أن نحسب عدد الفتيات فإنهن يقتربن من ثلاثة آلاف فتاة فى عمر الزهور ومثلهن فى عمر القرشانات والويل كل الويل من القرشانات (القرشانة) هى تلك التى تجاوزت (أنوثة عمرها الافتراضى !) .. وكنت أضع كل مرحلة سنية فى خانة ، لهذا كنت أعلم عدد كل فئة سنية ونوع جنسها وكل هؤلاء جميعا يعرفوننى وبالاسم طبعا وأن كنت أنا لا أعرفهم ، كلهم أو كلهن وبدأت حربى مع القراشانات ، والسؤال المطروح على ألسنتهن ليلا ونهارا صباحا ومساءا سواء كن فى رحلة أو داخل النادى فى مطعم أو ندوة : لماذا لا تتزوج ؟ تأخذنى (قرشانة) لتسأل ما هى شروطك فى العروس أردد بلا وعى ولا أهمية ، أن أحبها ، تقول ماذا لو رشحت لك واحدة هى الأفضل ؟ ؛ أقول : حسنا لكن دعى هذا الأمر الآن ثم أنادى على أحد من الناس حتى لا تنفرد بى هذه (القرشانة) ويبدو أنها تنشد شيئا من الأهمية لتكسب نوعا من الخصوصية أو على الأقل توحى للناس أن هناك ما يربطنى بها ، وقد تعلمت هذا الدرس بفطرتى ، فلا أقرب أحدهم منى حتى يبدو وكأنه مصدر سلطة فإذا حدثنى أحدهم أو حدثتنى فتاة وخاصة الفتيات فإننى أنصرف فورا أو أنادى على أحد يكون شاهدا على حديثى معها وكثيرا ما قطعت هذا الحديث باندفاعى السريع إلى مكان آخر فيه تجمع أنضم إليه ، وهكذا إلى حد ما نجحت ، انطلق ساعيا إلى مكان آخر ، ولكن ما أكاد أفعل حتى تسألنى قرشانة أخرى نفس السؤال وتقترح نفس الإقتراح ، وبطبيعتى وهذه نقطة ضعفى فأنا خجول جدا ، خجلى هذا يبدو واضحا على وجهى ويستغله الآخرون حتى أن السعاة فى مكتبى يسرقون أقلامى ثم فى اليوم التالى يبيعونها لى ، وقد قلت مرة لأحدهم ، يا أخى أرحمنى ولا تسرقه وخذ ما شئت من مال ، لم يبتسم ولم يعتذر ، ظل يسرق القلم وظللت أشتريه منه خجلا من أن أقول له لا ، سرقة الأقلام تكررت فى قصص الزواج ، حتى جاءت أول قصة تحولت إلى حياة ..

فى إحدى الرحلات وكنا ذاهبون إلى أسوان وكنت دوما فى رحلاتى التى أنظمها بمهارة شديدة كنت أستعد للرحلة قبلها بزمن طويل فتجرى الاتفاقيات وتجرى الترتيبات قبل تمام الرحلة ، وعندما تتم الرحلة ألهو معهم وكأننى غير مسئول ولا يبدو الأمر لأى غريب أننى القائد فتتم المواعيد كما ينبغى دون تقديم أو تأخير وأكون أنا أول من يجلس إلى الطعام ويشكو منه وأكون أول من يجلس فى السيارة ويغنى وأول من يدخل المعابد ويشرح وأول من يقف فى حلقة السمر لكى يلقى النكات ، فالترتيبات قد تمت وكل من استأجرته أو اتفقت معه يعرف طبيعتى ، فأنا عندما أقول سنرحل فى السابعة تكون السابعة .

بهذا المنهج نجحت وأنا أقولها متباهيا ، ولا يضيرنى الآن بعد مضى أكثر من عشرين عاما

على تلك الأحداث ، أنا أقول أن منهجى هذا الذى طبقته والذى درسته بالجامعة وكتبت عنه العديد من الدراسات والأبحاث وقدمته فى كتبى ، هو المنهج المثالى للقائد أن نبذل الجهد الجهيد فى الإعداد الجيد ، مثل الحرب ، ونحن ذاهبون نحو (معبد الكرنك) وقد كنت أقيم لهذا المعبد احتفالا كبيرا ، نركب الحناطير ونغنى ونتسابق وأضع الجوائز لمن يغنى أفضل ولمن يسرع قبل الآخر وهكذا يتحول مهرجان الذهاب من الفندق إلى معابد الكرنك إلى لون من ألوان الترفيه سواء لنا نحن أو لأهل الأقصر ، تصور معى أكثر من ثلاثمائة عضو من أعضاء الرحلة معا بملابسهم الجميلة الأنيقة الأوربية ، هم يسيرون جريا أو يتسابقون مع غيرهم أو يغنون فى الشارع فى مظاهرة مرحة أنيقة نحو معبد الكرنك ثم إذا وصلنا إلى المدخل يكون السكوت قد عم والصخب، قد انصرف بعد أن أخذت شحنة الانفعال التى من الممكن أن تعكر علينا صفو معرفتنا بهذه التحف التاريخية والمعابد الأثرية الخالدة التى يأتى إليها الناس من أطراف الدنيا ، كنت دارساً للتاريخ الفرعونى القديم بفنونه وطبه وبالتالى معابده وأسرار لغته ، فندخل المعبد بانتظام كامل لا يكاد يسمع لنا صوت ، وندلف من البوابة الرئيسية ثم نقف فى بهو الأعمدة لكى أقدم لهم شرحا وافيا لتلك المعابد مقدما تفسيرا سهلا ميسورا للغة الهيروغليفية سواء بكل مستوياتها وتطورها ومعنى الرسم المحفور ، يتحرك الجمع المكون من مجموعات صغيرة كل مجموعة لها مسئول هو عضو منهم أما مسئوليات المال والإنفاق وما إلى ذلك ، يتحملها كبار السن وذوى الخبرة ، حتى لا أحمل نقودا ، بل هم الذين يحملون مصروفات الرحلة ويتولونها ، هم فى العادة يجيدون عد النقود ودراسة المستندات المالية ، ولا يكون لى إلا جمعها فى نهاية الرحلة ، لكى أقدمها إلى المحاسب العام الذى يبدى دهشته من سرعة التسوية ويدهش لأننى أعيد إليه مالا بينما جرى العرف ألا تعيد للحكومة مالا وقد صرف لك ، بينما أسير مع طاقم الغناء بين مكان للنسحة وآخر للفرجة ، اقتربت (منى) وقالت : هل يمكن لى أن أسألك سؤالا ؟ قلت : نعم ونظرت حولى فلم أجد أحدا وأسرعت الخطى حتى أكون بجوار مجموعة من المجموعات فقالت : فقط استمع لى فأنا أخجل من السؤال ولا أريد أن يسمعنى أحد . قلت : إذا كان السؤال يجعلك تخجلى فلا تسأليه ، لأننى لا أكتم أسرارا ، قالت هو سؤال بسيط ، قلت اسأليه إذن ، قالت ما عملك ؟ وضحكت ، السؤال غريب الجميع هنا يعرفون عملى ، عشرون ألفاً من الأعضاء يعرفون بالضبط من أنا وماذا أعمل ، ضحكت .. نظرت إلى الكتيب الذى فى يدها به مواعيد الرحلة بالتفصيل فى كل ثانية ماذا سنفعل ، عليه أسمى ومنصبى الإعلانات الضخمة عن مهرجانات كنت أنظمها مثل (عيد الأسرة) الذى سبقت فيه كل مؤسسات الدولة وكنت أحتفل فى السادس والعشرين من يناير كل عام بهذا العيد ، عيد الأسرة وليس عيد الأم أو الأب أو الطفل وكنت أقيم فى هذا اليوم مهرجانا ضخما كبيرا على مساحة المائة والخمسين فدانا بحيث يشمل كل ألوان الترفيه والتسلية ، وندوات ومحاضرات ومسابقات ومعارض الكتب

والمسارح ، وكل ألوان الحياة بدءا من كرة القدم ونهاية ما يسمونه مسابقات القراءة والإطلاع وما إلى ذلك حيث يشترك هؤلاء الثمانية عشر ألفا فى تلك الأنشطة فى يوم واحد ، يوم جميل ، يطلق عليه عيد الأسرة وبالتأكيد كنت أعد لهذا العيد قبلها بثلاثة أشهر ويعلم الناس كافة بواسطة إعلانات ضخمة كنت أصر على وضعها فى جنبات النادى بأن العيد قد اقترب وأن عليهم أن يقدموا كافة المقترحات والمسابقات ، فهناك مسابقة فى تقديم أحدث بحث عن الأسرة سواء من الناحية الاقتصادية أو النفسية أو الاجتماعية أو الطبية ويقام من أجل هذا إعداداً كافيا لكى تقرأ الأبحاث الفائزة وتوزع يوم العيد ، إذن لا بد أن تقدم مبكرا ، ومسابقات فى الرياضة بحيث يتم رعايتها فى هذا العيد وهى تحتاج أيضا لوقت ، ومسابقة الشطرنج وما إلى ذلك من هوايات أظن أنها مفيدة للإنسان ، لأننى كنت مؤمن بأن المصرى يجب أن يحظى برعاية أفضل يُخرج فيها كل مهاراته التى استطاع بها أن يبنى الهرم الأكبر ، أجدادكم صنعوا الهرم الأكبر وأجدادكم صانوا الإسلام وتعلموه وكانت مصر دائما ودوما من الموحدين بالله منذ فجر التاريخ وحتى الآن ، فالإيمان بالله هو الدافع الأساسى لكى نبذل الجهد فى لعبة أو مسابقة كانت رياضية أو ثقافية أو علمية ، أعتقد أن الآلاف من هؤلاء الشباب الذين تخرجوا فى هذه الجامعة ، وأقول الجامعة لا مركز الشباب لم تكن لهم فرصة الحصول على تلك المراكز إلا عندما استجابوا لندائى فى نهاية الخمسينات عندما بدأت الإشراف على هذا المكان ، ولا داعى لذكر الأسماء فقط مجرد أمثلة لإثبات ذلك ، فسفير الكويت الأسبق كان مجرد عضو شاب فى هذه المجموعة وأكبر تاجر أو أكبر صاحب مصنع ومصمم للأثاث كان عضوا شابا مساعدا فى هذه المجموعة ، أكبر ممثل فى مصر كان عضوا شابا مساعدا ، أكبر أستاذ فى اللغة العربية بالجامعة الأمريكية ، عندما أتحرك أسمع كلمة بابا وأفاجأ بأن الذى قالها سفيرا أو وزيراً أو عميداً فى إحدى الكليات أو ممثلا كبيرا يشار إليه ويعرفه الناس فأنتبه وأنظر إليه فيقول نسيتنى يا بابا ولكنى لا أنساك أبدا ، فتدمع عينى وأنا أنظر إليه وأسعد لأننى استطعت أن أعطيه الفرصة ، فقط مجرد فرصة وهو يبرق كالبرق لأنه استفاد بهذه الفرصة ، دار هذا كله بذهنى عندما سألتنى ما هو عملك ؟ بعدها أحمر وجهها خجلا ، وكادت تذوب فى ذلك الخجل ، وتباطأت خطواتها وسرنا نحن حتى ابتعدنا ولم آراها طول ذلك اليوم ، ولكن بعد يومين رأيتها فى المركب الشراعى الذى يحملنا إلى مقابر الأغاخان منكمشة على نفسها قابعة داخل قاع المركب وكأنها لا تريد أن ترى الماء وكان المنظر خلابا فوق سطح النيل ، عريض ممتد إلى مساحات شاسعة ، مراكب شراعية ترفرف مثل حمامات بيضاء على سطح النيل الجميل فى أسوان ثم صخور ناتئة وكأنها تماثيل فرعونية تقف فى مياهه وسط النيل وندور حولها حتى التل فى البر الغربى مرتفعة شامخة تعلوها قبة المقبرة للأغاخان ، نحن نطوف بآثار مصر ، ربما نكشف أسرار الحياة عند الفراعنة من المقابر والمعابد عرفت كيف كانوا يحاربون ؟ كيف كانوا يعاملون أسراهم

وأين يكون موقع الملك أو القائد الأعلى ؟ إنه فى أول صف ، يحارب فى مقدمة جيشه ومن حوله القواد والأمراء ثم يأتى بعد ذلك الجند ، كما يكون القائد حريصا على أن يتأكد قبل الحرب من أن كل جندى يحمل من الزاد ومن الماء ما يكفيه ، هذا هو القائد أو الضابط المصرى خريج جامعة الكرنك أقدم جامعات العالم قاطبة فى التاريخ ، وكان يتخرج فيها الأطباء والضباط والصيادلة وأيضا الحانوتية ، نعم كان الحانوتى متخرجا فى جامعة الكرنك ، كل ما فى الأمر أنه رسب فى الامتحان النهائى لكلية الطب جامعة الكرنك ، لهذا يتحول إلى حانوتى متخصص فى دفن الموتى على الطريقة المصرية القديمة ، هاهو المصرى يقف أمام مقبرة زوجته ليحصى على نفسى أخطاؤه وذنوبه ونجاحا ته متباهيا أحيانا متذللا أحيانا وكأن الزوجة لم تمت بعد ، أنها حية ترزق فى البر الغربى ، هذا هو الزوج المصرى الذى لم يعرف الزنا طريقا إلى نفسه ؛ وبالتالى لم يعرف أمراض هذا العصر ، لقد كان من المعتقد أن المرأة التى تخون زوجها تتحول فورا إلى تمساح فى النيل أو فى البحيرة المقدسة وكانت الفتيات يتزوجن فى الثانية عشرة من عمرهن وتبدأ حياة الفتاة شاقة لتشق لزوجها طريقا للنجاح وكان هو أيضا فى الثامنة عشرة من عمره يبدأ حياة زوجية جديدة ، لقد قرأنا آلاف القصص من الحب والود والمودة ما بين الزوجين بل أن تعاليم فلاسفة وعلماء ذلك العصر القديم تشبه إلى حد ما أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ومن احترام الزوجة وملكية أموالها والحرص عليها والتعامل بالمودة والود والتراحم والألفة ، وقد كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حريصا على أن يبين حقوق الزوج وأيضا حقوق المرأة وأيضا يبين واجباتها وعلى الزوجة أن يفى بعهدها وعلى الزوج أن يفى هو أيضا بعهده ، وأن يتعامل فى رفقة ومودة ولم نر فى تاريخ مصر القديم إلا تلك الصورة الجميلة لزوجة جميلة أنيقة يفوح منها رائحة العطر بشتى الوسائل والصور ، تعرف كيف تتجمل لزوجها وكيف تتصرف وكيف تعمل بجواره ثم هذا الرجل الريفى الفلاح كيف يعمل وكيف إذا ماتت عنه زوجته يذهب إلى قبرها ويحكى لها طوال غيابها ما حدث معترفا بذنوبه أو متباهيا إذا استطاع أن يحصل على مرتبة أعلى فيقول أن هذا بفضلك أنت ؛ وبفضل تشجيعك غنامى فى سلام بجوار الرب ، هكذا كانت مصر القديمة .

أخذتها إلى فرق وحاولت أن أشجعها على التحاور ولفت نظرها إلى جمال ما حولها ، انظرى هذا المركب سوف يلحق بنا ، ألا ترين أن شراعها يذكرنا بفردة حمام طائرة ، انظرى إلى هذه الصخرة الواقفة فى شموخ لقد سموها العرب بالفيلة ، لأنهم كانوا يظنونها أفيال تقف هكذا فى النيل وسموها الرومان بأسماء أخرى وقال (هيرودوت) عندما رأى هذا المنظر ، مصر هبة النيل وأن كان قد أخطأ علميا بعض الشيء ، فمصر والنيل هبة من الله ، لولا مصر ما كان

النيل ولولا النيل ما كانت مصر ولولا الخالق الأعظم الذى أوجدهما ، ما كانا على الوجود ، مصر ذكرت فى القرآن مرارا وذكرت فى أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) موصيا بأهلها ، ابتسمت وسعدت ونظرت إلى أعلى وسألتنى ما هذا ؟ قلت لها : الأغاخان ، وهذا رجل من المفروض أن يكون مسلما ، فهو صاحب طائفة من الطوائف الشيعية تسمى طائفة الإسماعيلية وكان يوزن بالذهب كل عام وتضخمت ثروته وذهب إلى أوربا لكى يستمتع فمات وكانت زوجته من نجوم السينما الشهيرات ، فأثرت على نفسها أن تبنى له مقبرة فى أجمل بقاع العالم ، وبحثت فوجدت أن هذه المنطقة أجملها وأكثرها ملائمة للصحة ، كنا قد اقتربنا من مسكن حرم الأغاخان فقلت لها هذا هو مسكنها ، فهى تأتى فى الشتاء تقضى أربعة أشهر من كل عام بجوار زوجها ، وكأنها تذكرنا بالزوجة المصرية القديمة التى كانت تذهب إلى مقابر زوجها وتتحدث معه فى شئون الأسرة وتأخذ رأيه على الرغم أنه لا يسمعها ، ولكنها تتصور أنه يسمعها لأنه حى يرزق ، وسوف يحاسب يوم القيامة فنظرت إلىّ نظرة دهشة وتعجب وقالت : هل القدماء كانوا يعرفون يوم القيامة ؟ قلت نعم ، ألم نتحدث عن ذلك فى المعابد ؟ حيث كانوا يرسمون لنا كيف يحاسب الإنسان يوم القيامة وكيف يصل إلى العدم عندما يكون مخطئا وكيف يصل إلى الجنة إذا كان قد فعل بدنياه الحسن هذا هو الذى بنى الحضارة المصرية القديمة ، والله لو كانت الحضارة المصرية القديمة تسعى إلى دنيا تصيبها لكانت غير ذلك ، ولضاعت كما ضاعت إمبراطوريات كبيرة ، ولم يبق منها سوى التاريخ للذكرى أما نحن فإن مصر القديمة قد تركت لنا وترك أهلها الذين كانوا يؤمنون بالله الواحد والبعث يوم القيامة والحساب أمام الله هذا الفيض الكريم من مظاهر هذه الحضارة ، ابتسمت وقد زال عنها توترها عندما سعدت بأن أجدادها كانوا أيضا من المسلمين ، وصعدنا الجبل وأنا أضحك وأبتسم ولا أدرى سر سعادتى بعد أن تحدثت معها ، ومرت الأيام ، بعد عدة أشهر كنت أعد رحلات إلى سوريا وقد كُلفت أن أكون المسئول عن برنامج التبادل الثقافى بين شطرى الجمهورية العربية المتحدة ، وكلفنى الزعيم عبد الناصر بأن أمثله فى هذا البرنامج الذى يهدف إلى دمج الشباب المصرى والسورى حتى يصير شبابا واحدا للجمهورية الوليدة ، وبدأنا بأن يذهب ألف شاب من مصر إلى سوريا ، يقيمون فيها فترة ما يشاهدون معالمها ويندمجون مع شعبها ويعودون بذكرى جميلة وطيبة وأيضا يحدث لونا من ألوان الشراء والتبادل الاقتصادى فتموج الحركة الاقتصادية والسياحية بالإضافة إلى الحركة الإنسانية التبادلية ، وتوالت الرحلات وذات يوم وجدتها أمامى ، اقتربت من مكتبى فى خجل ، وسألتنى هل اسمى فى رحلة سوريا ، قلت : نعم ، قالت : ما هو المبلغ المطلوب تغيره إلى العملة السورية ، وكان من المفروض أن يغير كل عضو عشرين جنيها ، هل من المعقول أن يقضى شاب أكثر من عشرة أيام فى بلد ما وليس معه سوى عشرين جنيها ؟ وكان على أن أجمع من كل منهم مبلغه ثم أضعه فى البنك المركزى لكى

يعطونني شيكا أحوله إلى عمله سورية فى دمشق ثم أعطى لكل منهم نصيبه بالتمام والكمال ، تجمع المبلغ عندى ، قالوا إنك المسئول والصراف نبذا البرنامج ، تعجبت كيف ؟ أنا أجيد حمل النقود علاوة على أننى لا أجيد حصرها ، ودائما أكلف الآخرين فى رحلاتى لكى يفعلوا هذا بدلا عنى ، جمعت المبلغ ومضيت ، طول الليل أحصى فيه وأعده ، وأجعله رزما وأجعله جنيهات ، هكذا طوال الليل ، أمى كانت فى زيارتى ، تنظر إلى هذا المال وتقول يا ولدى من أيـن لك هذا المال صارحنى ، ولم تنم ليلتها لأنها اعتقدت أننى أمتلكه دون علمها ، أقول لها ضاحكاً يا أمى لا تخافى ، هذه أموال الأعضاء ، تقول وهل تعمل صرافا بعد كل هذا العلام شى لم تسمع عن سوريا هذه ، (مصر هى مصر حتى آخر الزمن تغيروا اسمها ، اسمها اللى نزل فى القرآن ، طب إيه رأيكو اسمها الجديد ده مش حيقعد) ، أخذنا نضحك من أمى التى لا تؤمن بالقومية العربية تقول لنا : (وحياتكم يا أولادى هى ، مصر ح تكون مصر وإلا ما ذكرها القرآن صريحة واضحة بالاسم فى القرآن الكريم الذى لا يتغير أبدا) ، ونامت وظللت قلقا حقا ، لا يجرؤ إنسان ما على تغيير اسم جاء فى القرآن ، كيف يقدم زعيم بلد على تغيير اسم بلده لمجرد السعى إلى الوحدة ؟ ، وكان الصباح قد لاح .. فكلفت أختى أن يشرف على إفطار أمى ولا يتركها تمضى حتى أرجع من البنك ، ذهبت مسرعا ولم أكن قد حملت بعد حقيبة للأوراق ، كنت أذهب إلى الجامعة وأنا أحمل كتبى بيدى وأحيانا كنت أذهب إلى الجامعة ولا أحمل كتبا على الإطلاق ، فالمكتبة مليئة بالكتب ، وأذهب إليها وقتما أشاء ، فوضعت النقود فى جريدة ركبت أتوبيسا ونزلت ومشيت من ميدان التحرير إلى أبعد من ميدان سليمان باشا وأنا أحمل الجريدة وبها ثمانى عشرة ألف من الجنيهات ، وصلت إلى المبنى المكتوب عليه إدارة النقد الأجنبى وصعدت سلمتين وما كدت أصعد الثالثة حتى انفجرت الجريدة التى أحملها وتبعثر كل هذا المال من حولى ، توقفت ولقد أخذتنى المفاجأة وتجمع الناس ، فطن ذهنى بسرعة شديدة إلى أننى يجب ألا انحنى وأن أفتح جزءاً من الجريدة التى لم تتمزق لكى يجمع الآخرون المال وأنا أنظر إليهم ، أناس لا أعرافهم يجمعون الأوراق النقدية ذات العشرة جنيهات حتى تأكدت أنه لا توجد أوراق مالية باقية على الأرض ، ذهبت إلى البنك وأنا أحمل اللفافة وبها الأوراق غير منتظمة فصرخ الصراف وقال أذهب وأحصها أنا لن آخذها منك هكذا ، كان التوتر والغضب .. والحزن من ضياع المال قد تملكنى ، والسهر طول الليل فى عدها ، فصرخت فيه ، فجاء على صراخى مدير الإدارة وقف هو أيضا أمامى مذهولا وقد تبعثرت الأوراق واتسخت وبدى منظرى أننى فى حالة رعب كامل ، أدخلنى إلى حجرته فى رفق وأتى بمجموعة من الصرافين الذين أخذوا يحولون هذه الكومة المهروسة إلى مبالغ مرصوصة ومعدودة بانتظام وتأكدوا أن المبلغ لم ينقص سوى أربعين جنيها فحمدت الله أن معى فى جيبى الخاص تلك الأربعون من الجنيهات فدفعت بها إلى الصراف ، كنت أظن أن الخسائر ستكون أكبر لأن الذين جمعوا المال كانوا

كثيرون فقلت ربما أنا الذى أخطأت فى العد فلم يأخذ أحد أمامى شيئا ولا أظن فى الشعب المصرى الكريم الذى ساعدنى دون كلمة شكر واحدة وتعاونوا على جمع المال فى مدة وجيزة أن أحدهم يفعل بى سوء ، وعندما عدت إلى مكتبى اكتشف أننى لا أملك شيئا وأمى تنتظر فى شقتى لكى أصحبها إلى السيدة زينب والسيدة عائشة والهرم وغير ذلك من معالم القاهرة هذه أول مرة تزورنى أول مرة تخرج من بيت أبى إلى القاهرة ، أنها فى مصر فكيف لا تتفرج على مصر ؟ ضربت أخماسا فى أسداس ، أنا فى حاجة إلى الجنيهات الأربعين ، ورفعت السماعة بتلقائية ولم أشعر إلا أننى أطلبها ، فأجابنى صوتها نعم ، قلت أنا فلان ، فشعرت بسعادة غامرة فى صوتها فقلت هل تحضرين الآن إلى مكتبى ومعك أربعين جنيها ، قالت : نعم ، وما كدت أضع السماعة حتى رأيتها واقفة أمامى صارمة الوجه وهى كذلك فى كثير من الأحيان تتعامل مع الحياة وكأنها جندى محارب يوشك على دخول معركة ما ، ليس لديها اللون الرمادى ، إنما الحياة عندها أبيض أو أسود ، لا مجاملة .

توقفت عن الكتابة ثلاثة أيام ، فجأة ارتفعت درجة حرارتى وجاء القىء ، والارتعاش والحمى ، وبدأ العلاج مكثفا ، ومؤلما أيضا ، فالقىء يؤلم صدرى ويجعل الجرح فى صدرى لم يلتئم والتحليل لا يبشر بخير ، ولقد انزعج الدكتور يعقوب ومساعدوه وبدوا يحاولون محاصرة المرض الجديد أو النكسة الجديدة التى جاءت وبدلا من أننى كنت أسير بضع خطوات إلى مدخل المستشفى فى خلال اليوم أو أذهب بمفردى إلى الحمام ، لم أعد أستطيع ذلك من كثرة الأسلاك التى تحيط بى وكأننى أصبحت حبيس تلك الأسلاك الممدودة والزجاجات الموضوعة ، والحقن المتتالية ولهذا لم أستطع الكتابة ولكنى اليوم تحاملت على نفسى ، فأنا لا أكتب هذه الرواية لكى تنشر أو لا تنشر ، إنما أكتبها لأشعر بأننى مازلت قادرا على الحياة ومازلت قادرا على مزاولة هوايتى المحببة وهى كتابة الروايات وأن كنت أظن أن هذه الرواية ليست كما تعودت الكتابة بعقل ورؤية ، فأنا أكتب ما يعن لعقلى وما تأتى به ذاكرتى ، فالمريض يكاد يذوب فى ذاته تماما فآلامه تذكره دوما بنفسه وأعتقد أن لم تكن خانتنى ذاكرتى أننى تحدثت فى الصفحات الماضية عن الزوجة الأولى وليس عندى مبرر كامل أسوقه للناس دفاعا عن نفسى ، لم أهجر زوجتى الأولى وظللت طوال حياتى معها حريص على الحرص على أن تشعر بالأمن والأمان بجوارى وأيضا الحب .

ولكننى اعترف رغم حرصى الشديد على إظهار الحب لها والمودة والاحترام والتى أحرص عليها ، أننى لم أحقق معها نجاحا يسعدنى ويبعدنى عن التفكير فى الزواج من أخرى ، وظلت هذه القرحة فى قلبى تؤلمنى ، فقد كنت أتمنى أن ينجح زواجى ولا أتزوج بأخرى .. ولكن هكذا شاءت مشيئة الله سبحانه وتعالى !

يجب أن أكون مقاتلا ، أقاتل المرض ؟ منذ أن جئت إلى هنا وأنا أقاتل ، أتجلد ، أتخيل أشياء عجيبة أصرف ذهنى عن الألم أحاول أن أتذكر وأحاول أن ابتسم كل من يجيء إلى غرفتى ابتسم له ، وأتضاحك ، يدى ترتعش وأعصابى تخمد وقواى تخور ولكن رحمة الله واسعة وأشهد أنها لكذلك وأنه غفار الذنوب وأنه رحيم رحمن ذلك هو الجو الذى أكتب فيه لقد وجدنا ميكروبا فى البول يجب أن نزيد كمية المضاد ، وجدنا أنه يجب أن نضعك بهذا القفص اكتشفنا أن عظامك لم تلتئم ، أقول نعم يبتسمون ، ويقولون أنك من .. المرضى المثاليين ابتسم بينى وبين نفسى والله لو تعلمون كم أنا خائف وكم أنا أكاد أجن من الخوف عندما تقترب الممرضة وفى يدها حقنة أغمض عينى لكى لا أشعر بالألم أحس بغرزه الإبرة تنغرز فى لحمى أستنجد بأسماء الله ، يل عظيم يا شافى اللهم أشفنى شفاء لا سقم فيه بعده وأصلى ، وأستغفر ، أبتهل ، حتى تمضى عملية تغيير الجرح وهى عملية مؤلمة لم يستطع من يراها أن يشاهدها إلى النهاية ولكنى أحاول أن أبتعد بذهنى عنها أتخيل الكعبة ، أصلى أتخيل مسجد الرسول ، أتخيل جلستى فى النادى ، يقولون نحن آسفون أقول لا لم أشعر بشىء يبتسمون ، والله لو تعلمون كم أنا أرتعد من الألم وكم أنا أرتعد من الخوف وأقسم أننى أشد المرضى خوفا وأشدهم هلعا وفزعا ولكنى أتحمل وأتجلد وابتسم فى وجه ابنتى التى بكت أمس بكاء مرا لأننيا مرضت وضعفت ووهنت وظهر هذا جليا عليها قلت لها أبكى يا ابنتى لأنك لست فى حاجة إلى التظاهر أمامى ، أبكى ما شئت وما شاء لكى البكاء ، طفلة دفعوا بها لكى ترافق رجلا مريضا ، لا تتحسن حالته ، هنا مرضى يقيمون أسبوعا أو أكثر ثم يمضون ، جاءوا لا يستطيعون المشى مشوا وذهبوا إلى الأسواق وزارونا ، وهم يحملون الأشياء التى اشتروها ، أتوسل إليها أن تذهب ، لتشترى فلا ينقصها المال هذه المرة ولكنها تمضى وتشترى لأخواتها ، لدى خمسة أطفال ، اثنتان كبيرتان ، يظنان إننى سوف اكتفى برعاية الثلاثة الصغار ، ولا يدرون أنهم جميعا فى محبة واحدة ، وفى معزة واحدة ، فالأب واحد والعطف واحد والحنان والرعاية واحدة ، تزوجت فى ليلة جميلة وفى فرح ساده جو الشباب ، وبالفعل كان مهرجانا وليس فرحا ، وسعد الناس ، ولكن أبى لم يسعد ، فقد كان معارضا لزواجى ، فى البداية رفض ولا يملك شيئا غير الغضب ، فهذه هى المرة الثانية التى يشعر إننى أخذله فى المرة الأولى عندما أصررت على استكمال تعليمى وكان يرغب فى أن أعود إلى بلدتنا وأعمل معه فى التجارة وظل هذا يراوده طوال حياته وأذكر منذ سنوات قال وقد جمعنا لأمر هام ، أنا لا أحمل هما لأولادى إلا همك أنت ، وكأن خيبتى ثقيلة ووضعى الراهن لا يسر عدو ولا حبيب ، فأنا مجرد موظف وفى ذلك اليوم بلغ غيظى مبلغه ، وقمت حتى لا أقول كلمة تؤلمه وأنا أحبه حبا شديدا أكثر مما يحب الابن ابيه فهو صديقى وأخى وابنى وأمى أيضا (يكح بصعوبة) وقد زاملته وصادقته وكنت عونا له أعواما كثيرة ، ولم أبخل عليه بجهد وهو لم يبخل على العطاء ، وكنا صديقان وكانت الصداقة بيننا متينة ، أعرف أسراره

كلها وأعرف أنه (دون جوان) يجب أن يتقرب بحول النساء ، ولكنه اعتقد هذا جازما من كثرة مصاحبتى له ، لم يرتكب فاحشة إنما هى إعجاب النساء بالنفس يراها فى عيون السيدات والفتيات بشكل خاص فيأخذه الغرور ، وكان حقا جميل الطلعة بهى النظرة ، آسر الابتسامة ، حلو الحديث ، ذو شعر أصفر لامع ووجه مستدير أبيض وحمرة وطول معقول وقوة فى الصوت وجمال فى اللفظ ، ماذا يريد الرجل أكثر من هذا بالإضافة إلى وضع اجتماعى مميز ؟ أحببته واعتقد أننى ظلمت أمى لأننى لم أعطها حنانا كافيا ، ولا وقتا لكى تدللنى ، كنت أظل طوال اليوم ، بجانب أبى ، ونذهب ونروح ونسافر ، ونتبادل الحديث ونتصارح ، أكثر مما أفعل مع أمى التى لا أراها إلا نادرا وعندما أذهب للنوم ، وأصبحت كما يقول موظفا . هو غير راض كل الرضا ، لأنه يعتقد أن الموظف فقير إلى الأبد أما التاجر فهو مرة فقيرا ومرة أخرى ثريا وهذا ما يحدث فى الغالب أن يكون ثريا ، وقد جرب التجارة كما جرب فى أول حياته الوظيفة التى سرعان ما هجرها وذهب إلى ميدان التجارة والتى أفسحت له مجالا فى جميع الاتجاهات حتى كاد يعمل فى تجارة كل شىء ، وصار إلى حد معقول من أثرياء البلدة واستطاع أن يحل محل أبيه عندما مرض ، وأن يشق لنفسه طريقا للحياة ولاخوته أيضا ، هذا فضل من الله وعطاء ومنحة ، أما أنا قد توظفت ، ثم بعد ذلك أتزوج من موظفة لا تجيد صناعة فنجان من القهوة ، موظفة تصحو من النوم قبلى وتذهب إلى العمل وأصحو أنا بعدها لا أجد طعاما للإفطار ، أذهب إلى عملى الذى كان يبدأ فى العادة فى وقت غير مبكر ، وأظل فيه إلى وقت متأخر وتأتى هى إلى البيت عصرا لتذهب بعد ذلك إلى بيت أمها حتى يحين موعد عودتى ليلاً وفى الليل أكون أنا منكبا على القراءة وتكون هى نائمة ، نفرت منذ البداية من العلاقة الحميمة التى تربط الرجل بزوجته والتى كان من الممكن أن تزيل فوارق السن ، وتجعلنى أكثر حبا لها ، وسوف أكون صادقا لم تقل لى لا ، ولم تضن بنفسها على ، ولكن ما كنت أشعر بالحب معها ، إنها تتصور تلك العلاقة بين الرجل وزوجته شيئا بغيضا ولولا الواجب ومعرفتها بالإسلام وما يجب على المرأة المسلمة لرفضتنى ، هذا الشعور جعلنى أبتعد عنها رويدا رويدا ، كانت هى جافة المعاملة ليس لأن طبعها جاف ، فهى عطوفة جدا ولكن هى هكذا من الخارج تبدو صارمة كلماتها حادة ، تتحدث فى نبرة عالية جعلت أخوتى وأسرتى لا يأتون إلينا ظناً منهم أنها لا تحبهم ، وخاصة أن أبى قبل زواجنا كان يرفض فى البداية ولكنه حضر العرس وحضر بعد الزفاف وبعد ليلة الدخلة ذهب إلى المسجد لنصلى الجمعة جماعة وهو يكاد يسألنى ، والليلة الماضية ماذا فعلت ؟ وتضاحكت أمى بعد أن صلينا وقالت تصور أن هذا الرجل يقول أنك لا تفهم فى أمر الزواج ، تضاحكت وقلت نحن مسافران إلى الإسكندرية .

اليوم ، يوم الخميس ، كنت أعمل فى مكتبى وجاء (فخرى) وجلس أمامى وشرب القهوة

وبدأ حديثه بأنه كان ينبغي أن أستريح في البيت استعدادا لتلك الليلة الكبرى ، ليلة الدخلة ، فقلت وهل يستعد الرجل لهذه الليلة قال : كان يجب أن تستشيرني أو تستشير من هم أكبر منك سنا ، فضحكت وحاولت أن أداري لخمتي بين مجموعة الأوراق التي قدمها لي لاعتمادها ، ومضى متحدثا عن أحد أصدقائه الذي غرر بفتاة وكانت بكرا ، انسال منها الدم ، ارتبك صديقه ارتباكا شديدا ، أخذها ووضعها في حوض الاستحمام في بيته الدم امتزج بالماء وأصبح الماء أحمرا قانيا ، فكيف يتصرف ؟ لا أذكر بقية القصة كيف تصرف صديقه إنما كل ما اذكره هذه الدماء التي تفجرت من الفتاة البكر نتيجة اعتداء صديقه عليها وكيف راحت في غيبوبة والدماء تسيل واللون الأحمر يعلو في حجرتي ، وصل الآن إلى المكتب ثم غمرني حتى وصل إلى ذقني ، لا أذكر كيف انتهت هذه القصة التي يرويها فخري ؟ كان رجلا نصف أجنبي . وجاءت السادسة ، وعدت إلى بيتي وكان أخي في انتظاري وارتديت ملابسي وذهبت أنا وأخي سمير فتظ إلى منزل العروس ، كنت تقريبا مبدما من الداخل والخارج ، أثر الدماء الحمراء في نفسي يفوق كل تصور ، والجهد الذي بذلته لكي أداري خجلي يأخذ جسدي بضعف شديد ، في منزل الأسرة ، اقترح أخوها ان نمضي إلى مسرح ، وهناك أخذ الناس يتضاحكون ، ولكنني كنت فاقد الوعي . الدماء الحمراء تسيطر على المسرح كله والتعب والإجهاد العقلي والجسدي جعلاني أغوص في الظلمة ، حان الوقت للانصراف إلى بيتنا الجديد الذي أعددناه ، لم أستطيع الكلام ، وكان الفجر قد لاح فما أن رفعت عني ردائي ودخلت في بيجامتي حتى دق البــاب ، وجاءت أمي وأبي وأخواتي جميعا ثم أخوالي وأعمامي وأخوالها وأعمامها وامتلأ البيت حتى حان موعد صلاة الجمعة فقلت يجب أن نذهب لصلاة الجمعة ، ومضت الحياة .. وارتديت أنا قناع اللامبالاة ، هم لا يرون الإنسان من الداخل ، يرون مظهره وكنت في أيام عملي برعاية الشباب أظل طوال اليوم من التاسعة إلى التاسعة أعمل وأحيانا إلى الثانية صباحا ثم أعود إلى البيت وإذا عدت أكون متعبا إلى درجة كنت آخذ عشائي نصف نائم أو أذهب إلى مكتبي لكي أضع خطة جديدة لموسم جديد .

وساهمت في هذا الميدان مساهمة كنت أدرس في الجامعة وأعد الأبحاث في هذا الميدان لكي أنفذ ما أستفدته من دراساتي ، وساعدني في ذلك رحلاتي إلى موسكو وروما للتعلم . ثم عدت أقدم حماسي كشاب إلى هذا الميدان ، الذي ظللت أخدمه ما يقرب من خمسة أعوام كاملة حتى جاءت الصدمة وأخطروني أنني شبه خائن أو كما جاء في تقريرهم الفاسد الأول لشباب مصر ، والحقيقة أنني لم أقتنع بفكرة المنظمة نحن شعب متدين لا يمكن إلغاء الدين من حياتنا سواء حياتنا التوبية أو حياتنا الفردية ، أما عبد الناصر فقد كان متشبثا كل التشبث بتنفيذ منظمة الشباب وفقا للتنظيم المعمول به في موسكو ، وجاء إلينا خبراء من ألمانيا الشرقية ومن الصين

ومن روسيا ذاتها وزارنا كل وزراء الشباب فى الكتلة الإشتراكية وبالطبع كنت أول من يقابلهم ، ولكن تهمتى أننى :

كنت أقيم المساجد وأصلى الجمعة فى الملاعب الكبيرة ، ولا تقام أنشطة خلال صلاة الجمعة ، كان تشبثى بدينى هو نقطة الخلاف بيننا ، أقيمت منظمة الشباب وبداخلها التنظيم الطليعى ، الذى كان سرا ثم انفجر هذا السر فى ١٥ مايو ، كنت فى منظمة الشباب من القادة البارزين فى بداية إنشائها ، وكنت فى هذا الموقع مؤهلا لكى ألعب دورا هاما فى ذلك التنظيم ، ولكننى لم أحبه وخاصة عندما بدأ تطبيقه وكنت مديرا لأول معسكر يأتى إليه الشباب أفواجا كل خمسة عشرة يوما لكى يلقنهم الرواد دروسا فى الاشتراكية وكيفية الحوار وآدابه وكيفية السيطرة على الجماهير وتنفيذ الأوامر الصادرة إليهم من القادة دون تأخر وأيضا محاورة ، أى أنهم يعلمونهم كيف يتحاورون ثم كيف ينفذون أوامر السلطات العليا فى التنظيم دون محاورة ، وكان من عادة هؤلاء الرواد السخرية من الدين والمين المميزة ، لم أدخل إلى المنظمة باعتبارى فيلسوفا أو رائدا أو محركا بل باعتبارى من رواد التنظيمات الشبابية وأديرها كموظف تؤهلنى ثقة مجلس قيادة الثورة ، فقد كانوا يشعرون أننى أقدم إليهم مشاريع حقيقية جديرة بالتنفيذ ، وسهل لى الأمر أن أكون قريبا منهم وبالتالى أدخل فى التنظيم الذى كان يعد تنظيما خاصا لزعيم الثورة ، لقد كان الهدف اختيار عناصر تؤمن بعبد الناصر شخصيا ، وهذه العناصر تحميه فى كل الأوقات من كل تقلبات المزاج الجماهيرى وبحكم عملى أدخل إلى قاعة التجمعات التى تدار فيها المحاورة فأجد الرائد أو المحاضر ، وهو ليس إلا عاملا بسيطا ، ولا يعيب الإنسان أن يكون فراشا أو عاملا ، ولكن ما يعيبه عدم الإلمام وقلة الثقافة بالإضافة إلى الإحساس بأنه فوق الجميع لمجرد أنه داخل تنظيم ثورى ، وأدخل هذا العامل وقد تعالى على القوم جميعا فهذا معلم طظ ، وهذا طبيب طظ ، هذا تاجر طظ ، وهذا مهندس طظ لأنه لا يؤمن بكل هذه الأعمال والمطلوب أن يزيل عنهم كل ما كانوا يعتقدونه ، فأنت لست من قرية كذا بل أنت ابن الثورة وأنت لست مهندسا بل ابن الثورة وأنت لست أبا ولست أخا ولست شيئا على الإطلاق ، يجب عليك هنا أن تعلن أنك ابن الثورة ويجب أن تحفظ قانون الثورة وأن تكون اشتراكيا وأن تأكل الدجاج . كان فى مصر أزمة دجاج ، ومن يذهب إلى معسكرات المنظمة يأكل دجاجا ، ثلاث وجبات دسمة للسادة المشتركين . ودخول المرحلة الأولى فى منظمة الشباب سهلا للغاية ، مجرد أن يوصى بك عضو فى الاتحاد الاشتراكى ، سهل جدا ، أقمت المعسكر الأول بحلوان ثم أقمت معسكرات بعدة محافظات واتسمت العملية وأصبحت وكأنها مظاهرة ، أو ظاهرة كاسحة ، ووجد الشباب طريقهم إلى أكل الدجاج وللتغذية الحسنة لمدة خمسة عشرة يوما ، والمباهاة فى أعمالهم أو فى وظائفهم أو فى جامعاتهم بأنهم أعضاء منتسبون إلى منظمة الشباب ، أما أنا فقد

بدأ الاضطراب النفسي يعتصرني وحدثت المواجهة فلم يجدوا بدأ من أن يسيئوا إلى سمعتي ويقدموا الأدلة على أنني خائن لهذا كنت مصراً على أن يحققوا معي لأني كنت أعرف السبب أما أقربائي وأصهاري لم يكونوا على دراية كافية بالحقيقة ، أنا أروي هذا الحديث لا للتأريخ السياسي ولكن لتأريخ علاقاتي الأسرية . خلال هذا لم تكن علاقتي بزوجتي علاقة حميمة أليفة ، حتى عندما أنجبنا ابنتنا الأولى التي ظلت في بيت جدتها حتى بلغت من العمر ستة أعوام ، كان ميلادها في الوقت العصيب الذي مررت به ، وجاءت الثانية في نفس الوقت من العام التالي وفي نفس الظروف العصيبة ، وكأن علامة الإنجاب عندي أن أكون في محنة ، كان اختباراً من الله ، ومع هذا كان رزقي واسعا ضنوا على بالمرتب ، ولكن الله كريم أسعفني بمبالغ تزيد عن مرتبي كثيرا من جهات متباينة ومن أعمال نبهتني إلى أنني لم أخلق إلا لكي أكون كاتبا وروائيا ، وأن تلك المحنة جاءت لتوقظني وتوقظ مشاعري وتجعلني أحن مرة أخرى إلى القراءة والكتابة التي كدت أنصرف عنها إلى ذلك العمل الشاق المضني في رعاية الشباب ، فلما أفقت من ذلك وجدت نفسي في محنة مثل محنتي الأولى فأخذت في كتابة روايتي الأولى ثم الثانية ، كنت أذهب إلى المحقق في الصباح فأقضي معه وقتا ربما ساعة أو بعض ساعة يسألني وأجيب إجابات أجرب فيها حظي في اللغة والحوار والفن القصصي ، ولا أبتغي أن أدافع عن نفسي بقدر ما أنا أحاول أن أجرب ، فأنا أعرف أنهم يريدون إدانتي بأي شكل من الأشكال فلماذا التعب ، كنت أغض العين من مقالب زملائي الذي يتصورون غبائي ، ويتصورون أنهم قد استغلوا هذا الغباء في الحصول على عشاء أو غذاء على نفقتي ، وظن بي بعض زملائي هذا الغباء وعدم المبالاة ، فأخذوا يستغلون هذا ، هذا الغباء جعلني أستطيع أن أفعل ما أشاء ، وكنت إذا أردت أن أسخر من أحدهم أكشف أمامهم ما أعرفه يدهش هو كيف عرفت وأنفجر ضاحكا ، وأقول الغبي يفهم أكثر لأنه يعرف أنه غبي ، ألم يعلموك هذا في الجامعة ؟ أعود إلى قصتي ، آسف ، لا أدري إذا كنت قد أتحدث إليكم عن أكسفورد المستشفى أم أكسفورد الجامعة أم غرفة العمليات (التياترو) أو عن الدكتور (بانديا) الذي يأتيني ساعتين أو عن (شورم بورم) ، الطبيب الذي سمته ابنتي هذا الاسم واسمه في الحقيقة يشبه هذا ولكنه بالهندية ، حاولت أن أحفظ اسمه رغم تكرار نطقه على ألسنة الممرضات إلا أنني لم أستطيع ، كنت أتحدث عن ابنتي ؟ هل تذكرون أنتم ؟ أنا لا أذكر ولو أنني أسجل هذا الحديث كله في ليلة واحدة ، أروي لكم ذكرياتي ، وأتحدث عن هذه القدم اللعينة التي تؤلمني أود أن أخرسها بقدمي الأخرى ، مجموعة من الإبر تحيط بيدي تجعلني لا أستطيع الحركة ويدي الأخرى نصف مشلولة ، وأمامي كوب ماء ولابد أن أشرب كثيرا ، كل من يأتي إلى غرفتي من أطباء وممرضات ينظرون إليّ في أسى ويقولون لي أشرب ، لا أستطيع البلع فأنا أشرب مثل طفل رضيع ، أشرب كوب الماء في نصف ساعة ، أدوية كثيرة وحقن تئن في رأسي وتغز في جسدي ، كلما وضعوا مجموعة إبر لكي تظل في كتفي أو عنقي يضطرون إلى

تغيير الوضع ، وكلما حاصروا داء ظهر داء جديد ، والحمد لله ولا يحمد على مكروه سواه .. فهو ابتلاء منه وامتحان بإذنه تعالى أعود إلى بيتي إن شاء الله ، هذا أمل أرجو أن يحققه ، الله توسلا إليه ، سلكم الله ، وظلت علاقتي بزوجتي زمنا طويلا ، ولا أذكر عاما على وجه التحديد ولا تسألني اليوم عن تحديد تواريخ أو ذكرى ، فقط أحاول أن أتشبث بمهنتي الأساسية وبهوايتي الدائمة وهي الكتابة ، وأتصور أن هذه الرواية التي سميتها تراجيديا الحزن والمسرة ميت برة القاهرة - أكسفورد ، هل أظل على هذا العنوان وأحتفظ به أم أغيره أو يغيره غيرى ، هل تصل إليكم هذه الرواية ؟ أو لا تصل لا أدرى ؟ من يفرغ الأشرطة : من يكتبها ثانية ؟ من يعطيها للناشر ؟ ولأنني لا أدرى أقول كل كلامي صراحة ، فجأة ظهرت في حياتي (..) ، كنت ذات مرة قبل زواجي الأول ، قد اقترحت على زميلة لي الزواج ، كان مجرد اقتراح ، أعتقد والله أعلم أنها هي التي اقترحت ، ومضيت الأيام ، وعندما سألتني ، قلت لها فعلا أنا الذى اقترحت ولم أكن قد اقترحت قط ، ها أنا تذكرت ، فقد كانت غير جميلة إلى الدرجة التي تهفو إليها نفسى ، وقد كنت قديما أتخيل زوجتي بيضاء ملفوفة القوام ذات شعر أصفر وعيون خضراء ، وعلى الأقل تكون جميلة ولطيفة وأحبها وتعشقني وتتركني أزاول مهنة الأدب أو هواية الأدب التي تأخذ من الكاتب كل وقته ، فلما رفضت ، قلت إذن جاءت منها ولم تأت منى فأكون أنا برئ من هذا الأمر ، سواء كنت قد اقترحت أم هي التي اقترحت ، وظل هذا الأمر يؤلمها ولم تفعل شيئا إيجابياً في حياتها على الإطلاق وحتى عند طلاقنا لم تفعل سوى أن أمرها أخوتها أن تطلب الطلاق ، فطلبت وتشبثت به كانت قد ظهرت في حياتي ثانية ، أعتقد قبيل الحرب وكنت وقتها أعمل لمجلة وتصادقنا ، كانت هي محبطة من تجربة خطوبه كادت تتم ولكن الرجل فر في آخر وقت ، تصادفنا وتحولت الصداقة إلى حب جارف من جانبها وشعرت به شعورا حقيقيا ، كان الفارق بينها وبين زوجتي فارقا كبيراً في تلك المعاملة وإن كانت تكبرني أيضا ولكن العاطفة المشبوبة التي كانت هي محرومة منها والتي كانت تطمح إليها ، دفعت بها أن تظهر من الحب مالا يوصف ، وأن تعاملني كملك ويتوج على قلبها تماديت أنا في صداقتي وتمادت في حبي ، وذهبنا معا إلى أماكن كثيرة ، واندمجت في الكتابة وصارت لي أعمالا معروفة وصرت كاتبا مسرحيا وتليفزيونيا وأيضا كاتبا روائيا ، حصلت على جائزة كبيرة ولي أبحاث في الجامعة ولم أكن مستعدا لإعادة مغامرتي في رعاية الشباب ، فكنت أذهب إليها نصف ساعة فقط لكى أدير العمل كما يحلو لي ، ويجد الناس أنني قد فعلت الأفاعيل في تلك النصف ساعة ، أسعد بذلك لأن من حولي يحصلون على مكافآت بسبب مقتنياتي ، لكى أعود أنا لإدارة مجلة القصة ولكتابة رواية ولكتابة قصة ،ولكتابة سيناريو والاندماج في الفرق المسرحية التي بدأت تزدهر ، فأكتب هنا سيناريو وأنتعش ، ثم أذهب إلى البيت لأتأكد أن أولادى بصحة جيدة ، ويذاكرون ويتدارسون وأطمئن تماماً إلى وجودهم ، شد أفعالهم والصلاة يقيمونها ، والصيام

يقضونه والزكاة وكل أركان الدين ، حاولت جهد طاقتى أن أكون معهم رغم مشاغلى الكثيرة وأعمالى التى بدأت تأخذنى منهم ، فهناك آلاف الكتب التى يجب أن تقرأ ، ولكن كل هذا يحدث وأنا موجود فى البيت ، أكاد أشم من بعد رائحة بناتى وأعلم بالضبط أين هم الآن وزوجتى قابعة ساكنة وكأنها حارس أمين على البيت وازداد إعجابى بها عندما وقفت بجوارى فى المحنة الأولى ثم المحنة الثانية ، تشبثت بى بشكل لم أستطع معه إلا أن أتشبث بها أيضاً ، وعندما تعمقت علاقتى بالأخرى وكان لابد من زواجى منها ووجدت أن هذا الأمر قد يحزن زوجتى الأولى ولكن فى نفس الوقت أحسست بحاجة شديدة لوجود الفتاة التى أحبتنى ، خاصة فى تلك الأيام ، وزوجتى لا تظهر بعض الحنو على ما أفعل بل قالت ذات مرة ، والإنسان ينطق بجملة واحدة وينساها بعد أن يقولها ولكن لا يعرف أنها قد أثرت تأثيراً كبيراً فى من قيلت له ، قلت لها ذات مرة أرجو أن تسمعى هذه القصة وتقولين لى رأيك وقرأت لها القصة قالت بعد إلحاح منى لكى تقول رأيها ، أن اللغة العربية عندى .. وضحكت ثم ذهبت لتنام ، إنها بالتأكيد نسيت هذه الجملة ، ولكنى لم أنس فلم أقرأ عليها قصة أبداً بعد ذلك ، ولم أسألها بعد ذلك أبدا ، إنها تقرأ فقط الكلمات المتقاطعة ، وعوضنى الله بابنتى فقد كانت شديدة الولع بالقراءة ، ولديها الصبر ، فتجلس وترتب المكتبة وتجعل لها فهرسا وتنظم أعمالي ، فأحاطت بهذا الأمر إحاطة كاملة واحتفظت لى بالكثير من أعمالى المنشورة وأن هذا جاء متأخراً بعض الشئ لصغر سنها فى البداية ولتلمذتها بعد ذلك واهتمامها بالمذاكرة ولكنها اهتمت بهذا العمل فى السنوات الأخيرة ، وبعد أن ذهبت إلى بيت زوجها ، من الذى يقتطع من الصحف ما ينشر لى أو عنى ؟

بين حشرجة تصدر عنى الآن وبين صوت واضح النبرات ، قلت لم تعد الأشياء كما كانت ، أو أن الأشياء تبقى كما هى ولكننا نحن الذين نتغير ونتبدل ... دنيا !



الفصل الحادى عشر

المساء هنا يحمل سمة الحزن ، حتى أن الأشياء تبدو حزينة ، وتبرق الأكواب تحت ضوء المصباح الكهربائى وكأنها تبكى ، الطعام يرقد على المائدة فى يأس وكأنه قد ذبح ، السرير ، يبدو متكمشا على نفسه يتقلص إلى الداخل بالعرض ، ويستطيل مثل دكة محاكم عابدين ، يشبه الدكك الخشبية التى يضعونها فى قاعات المحاكم ، التى تبدو كأنها أحجار قديمة ملدة ، متسخة هو الآخر يبكى ، المقعد الخلفى الوحيد يبدو مكتئبا ، أتلهف إلى سماع صوت أقدام فى الطرقة الخارجية ، يبدأ اهتزاز الصامت من الأشجار التى تحيط بالمستشفى وكأنه هزيز الطائرات الحرب العالمية الثانية ، أسمعها طفلا وأخاف من صفارة الإنذار أنتظر فى ترقب وصول الممرضات . وأتذكر أشياء وتتور فى ذهنى أشياء، تأتى جملة عربية سليمة وصحيحة فى رأسى فأفكر فى كتابة الشعر ، أرقب المطربة وهى تغنى أغنية عاطفية ، هى ومن معها يتلوون مثل الأفاعى ، صور متراكمة ومتداخلة وكأن المخرج يقصد بها أشياء لا نفهمها ولابد لكى ينجح أن يجعلنا لا نفهم . فإذا ما فهمنا لا نستسيغ ما نراه ، أدور فى دوامة تسحقنى ، تدفعنى إلى أسفل ، أنتفض مثل رجل يائس على حافة الدوامة ، ثم تأخذنى الدوامة رويداً رويداً إلى القاع ، أنتوى أن أقف وأن أتخلص من الدوامة ، ولكن النية الحسنة لا تفعل بى شيئا ، فلا أستطيع حراكا أتصور نفسى وقد وقفت وذهبت إلى دورة المياه ولكن لا أفعل ، ثم أتصور أننى أغلقت الستائر حتى لا أرى سماء لندن وسحبها السوداء القائمة ، فلا أفعل ولكننى أفعل كل ذلك فى خيالى : أسألها فى هدوء لماذا فعلت كل هذا بنفسك يا زوجتى ؟ لقد تحاببنا سنوات بل لقد تحاببنا عمرا من الدهر ، وكنت تقولين لى كلمات لم يقلها لى شخص آخر وتذكرين يوم ذهبنا معا إلى الحج وكيف تلقيت الخبر ، وذهبنا معا نرتدى ملابس الإحرام وركبنا الطائرة ، ولم أكن أعلم عن مناسك الحج شيئا ، كنت فرحا عندما كبر الجميع فى الطائرة وكبرنا وكبرت أنا بحماس شديد فأنا الآن حاج إلى بيت الله الحرام ، ثم بدأت الطائرة تهبط فى مطار جدة ، وصلنا بسلامة الله ، الحجاج فرحون ، المصريون فى المطارات غير كل الناس لا يزحفون إنما ينقضون ويتزاحمون ثم يستسلمون لدوامة العنف من الآخرين يصيبهم الإحباط ، لم أستطع أنا حراكا بملابس الإحرام فأنا أرتديها لأول مرة دفعوا بى دفعا نحو الباب ، حاولت أن أحمنك معى حتى لا تسقطى ..!

أرض الطائرة أو من السلم وهم يدفعونني إلى الخارج ولم أتوقع أن أجد هذه الحرارة الشديدة وكأنني دخلت فرناً : لفحني الحر لفحا حتى كاد أنفي وفمي ينغلقان ، ترددت في الهبوط دفعني الرجل الذي كان خلفي ، نسيت التكبير ونسي الناس التكبير وأن لا إله إلا الله وأن لبيك اللهم لبيك بل كل واحد منا قد انفرد بنفسه وأخذ يلطم الآخر ويدفعه كي يصل إلى الأتوبيس الذي يوصلنا إلى محطة المطار وكأننا في سباق ، كانت حرارة الشمس تزيد من غضبي فأنكمش داخل نفسي خائفا وممسكا بك وأنت مذعورة نركب العربة التي توصلنا إلى منطقة الجوازات ، أخذت منا تلك المنطقة ساعات ، والزحام يشتد نتلهف على الدخول ، على الأقل دخول المنطقة المكيفة الهواء ، وأخيرا دخلنا أمسك بيدك في شدة أخاف عليك من أن ينزعك مني أحد ، الخوف يشل حركتك : أتذكرين ؟ كنا قد تاهبنا لتلك الرحلة بحمل حقائب ثقيلة ، وملابس للسهرات وملابس للطواف وأخرى للسجود والصلاة وهكذا تصورنا أننا ذاهبان إلى جنيف أو إلى لندن أو على الأقل إلى الإسكندرية ، فأخذنا كل مستلزمات تلك السفريات ولهذا كانت حمولتنا ثقيلة ، وكأن الله أراد أن يحملنا ذنوبنا التي فعلناها : وكم من ذنوب أرتكبناها أنا وأنت يا أختاه : ألم نسبر معا ، ونرقص معا ، ألم نفعل فعل الشباب ومرحه ونعيش في دنيا الحب ؟ وترددين دوما أنت زوجي وأخي وأبي ، أنت سعادتي وأنت الدنيا وما فيها : الآن يسألك المأذون هل تريدين الطلاق ؟ فتوقعين قبل أن أوافق أنا وقبل أن أوقع أنا ، وأنا كاتب المأذون ومساعده : وأنا أيضا أساعدك الآن في الحج نبرع إلى الصديق الذي أكرمنا بأن ساعدنا في إجراءات الحج نصل إليه تسأله ثم ماذا بعد فيقول نحن نفترق الآن أنا ذاهب إلى (جدة) لكي أزور أسرتي وأنتما ستذهبان إلى مكة مباشرة ، وها هو العنوان الذي يجب أن نتقابل فيه بعد بضعة أيام (التكية المصرية شارع المسفلة) ، حسنا يا أخي يرحمك الله فأنت السبب في أن نأتي إلى هنا ، انضم إلينا ثالث يعمل في إحدى مدن .. السعودية ، أرسلت إليه لكي يقابلني وربما قابلني ، انتظرنا لأنني أيضا قد أرسلت إلى ابن عمي لكي يقابلني ، جلسنا حتى يأتي أحدهما .

بعد طول انتظار جاء شقيق رفيقنا الثالث ولكنه أيضا لا يعرف عن مراسم الحج شيئا ، بل لا يعرف أين تقع مكة ، كل ما يعرفه أن هناك سيارات أجرة إلى كل المناطق بالسعودية وقد جاء من منطقة نائية بالشمال تبعد آلاف الكيلومترات عن جدة ، وإذا برجل يقترب منا ويصافحنا ويقول، أنا على استعداد لتوصيلكم إلى محطة الركاب بجدة وهناك تأخذون عربة إلى مكة وهذا أفضل ، كنا في حاجة إلى التحرك لأن الشمس قد بدأت تزيد من لهيبها ، وقد بلغ بي الجوع والعطش مبلغا كبيرا وخاصة أنني غير متعود على الحر الشديد وقد جئت لتوي من مدن أوربية كان بها الجو لطيفا أو باردا ، ركبنا سيارته الصغيرة واتحشرنا نحن الأربعة ولا أدري من ذلك الشخص الذي عرض علينا التوصيلة ، ولكن حسنا كله بثوابه وبدأ الرجل يحكي عن أمجاد السعودية

وكيف أنها فعلت وفعلت وأن مصر لا تفعل شيئا سوى خراب الديار ، فتأففت ثم كتمت غيظى [illegible] إلى الله ولا يجب الاشتباك مع أحد ولكن ضاقت نفسى وأحسست أننى أفقد ثوابى للحج المبارك فقلت له أرجوك توقف هنا ، وكنا وسط صحراء شاسعة ولا أدرى أين أنا بالتأكيد ، قال الرجل ولماذا الغضب ؟ قلت : أنت تحب بلدى وأنا صامت وأحترم نفسى فى ملابس الإحرام ولا أحب أن أرد عليك ، فيكفى هذا والله الغنى عن تلك التوصيلة التى ربما سحبتنا إلى جهنم ، فضحك الرجل وهو يرفع غطاء رأسه ويقول أنا مصرى يا أخى مثلك ، أنا من مدينة الفيوم ، فقلت : بالله عليك لماذا تسب وطنك يا أخى ؟ ، لا داعى لهذا ، فأنت قد هربت وجئت إلى هنا وفتح الله عليك ، هذا من فضل ربك فلا يجب أن تكون قاسيا على أمثالنا لأننا اكتفينا بأن نعيش على زاد قليل ، فتبسم الرجل واعتذر وقال : نحن أصدقاء وإلا ما دعوتكم لركوب سيارتى ، وبالفعل وصلنا إلى محطة الركاب وهناك تركنا وقال لا أستطيع أن أفعل غير ذلك فإننا مرتبط بعدة مواعيد ووجدنا سيارة أجرة ركبناها ، السيارة مثل فرن ساخن أتحشرنا فيها ، آذان الظهر يقترب ونحن يوم جمعة وبدأ السائق زحفه فى (طريق جدة – مكة) ، كان يزحف زحف السلحفاة ، ونار الشمس تدق فوق رؤسنا دقاً ، والعرق يتصبب منا حتى كدنا نفقد الماء فى أجسادنا : اليوم بلغت كمية المياه التى سقطت منى ما يقرب من لتر ونصف أفقدها يوميا ، أفقد مثلها بالنيل لا أهتم كثيرا بما يقوله الأطباء فكأن جسدى لم يعد جسدى وكأن ما بى من آلام أو جرح ، الألم يمنعنى من الاسترسال : السعال مثل ألم الذبح ، أحاول أن أكمل ، توقف الرجل عند أحد الكبارى المرورية وقال لابد أن أصلى الظهر ، فقلنا يا رجل بقى وقت على صلاة الجمعة ماذا لو أسرعنا قليلاً حتى نصلى الجمعة فى الحرم ، لم يمهلنا الرجل ولم يسمع بقية السؤال مضى دون إجابة ، لم نفهم ، إلى أين هو ذاهب ؟ ومكثنا نحن الأربعة نتشاكى ، وكان يجب أن نجلس ونقول لو .. لو إلى آخر هذه الأشياء التى يهمس بها الشيطان النفس ويقول لو أنك وهذا من وسوسة الشيطان والعياذ بالله ، قالت لى ابنتى منذ ساعات بأن الوسوسة تطن فى رأسها هذه الأيام ، ولم أمهلها حتى تقول لى ما هى الوسوسة بل أسرعت فى السخرية من الوسوسة الذ[illegible]انية ، وقلت بل هى وسوسة نفسك وليست وسوسة الشيطان لأن الشيطان لا يوجد فى لندن فقد رحل منذ زمن طويل ولم يعد فى حاجة إلى عمل هنا وقد أصبح وجوده غير ذى بال ، والبطالة هنا فى إنجلترا تعصف برقاب الشباب وخريجى الجامعة بوجه خاص ، وهذا ما سمعته من الممرضات حول أولادهن ومستقبلهن الغامض والباحث دوما عن وظيفة ، فالممرضة هنا تعمل فى عدة مستشفيات رغم أن هذا يرهقها إرهاقا شديدا ولكن ماذا تفعل لكى تحافظ على أسرتها ولكى تنفق على نفسها ، والكثير منهن غير متزوجات لهذا السبب ، وليس عندهم مانع من فعل أى شئ ، ولأن كلمة الحب لا تعنى عندهم غير الاتصال الجسدى ، حتى أننى أخطأت ذات مرة

وقلت لمرضة حبيبتى فنظرت إلى فى دهشة وبانت الدهشة فى عيون الأخريات فقلت هل أخطأت فى شئ إنها مثل ابنتى ، لا تقل هذا اللفظ مطلقا لأحد ، قلت ولكننا نقوله فى بلدنا لمن نحبهم ، قالت المرضة (لولا) أن هذا اللفظ معناه العلاقة الجسدية ، لا يوجه شخص هذه الكلمة إلى امرأة إلا إذا كانت بالفعل صديقته فى الفراش ويتعاملان كزوجين فقلت وهل كلهن لهن أصدقاء ؟ قالت نعم ، هذا أمر مألوف ، أصدقاء كثيرون يأتون إلينا ونتفاهم معهم بحيث نقضى علاقتنا معهم على شكل زوج وزوجة وينفض هذا بعد يومى الأجازة أو العطلة ونبحث عن أصدقاء جدد فى الأسبوع التالى قلت لابنتى : الشيطان لم يعد مسئولاً عن تلك المنطقة الأوروبية وقد شاهدت هذا بالطبع فى سويسرا وفى ألمانيا وفى العديد من البلدان التى كنت أزورها وأمكث فيها بعض الوقت فهنا فى أوربا يتعاملون مع الجنس على أنه مجرد دعوة لشرب الشاى ، تعالى معى لنشرب الشاى ونتجاذب أطراف الحديث ، الجنس هكذا ، أنا أحتاج للجنس وأنت تحتاج فلماذا اللف والدوران ؟ هيا نفعل ثم يمضى كل منا لشأنه ، فلماذا يفعل الشيطان ؟ ، هل يأتى ليقول لهم ألا يفعلوا الحب بمثل هذه الطريقة ؟ سألتنى (جيسى) هى سيدة لطيفة المعشر ، لها ابن وحيد يدرس فى كلية الكومبيوتر وتتلهف على توظيفه وتخاف خوفا شديدا من بطالته وهى سيدة مثقفة ، تقرأ عن الأوبرا وتقوم بعملها هنا خير قيام وهى رئيسة (السيستيرات) ويحترمونها إحتراماً كبيراً ، وتسألنى فى شك ، ألا يوجد عندكم مسألة زواج رجل برجل ؟ فقلت لها : لا ، فنظرت إلى فى رعب وكأننا بشر غير البشر ، قلت لها أعلم أن هذا مباح فى إنجلترا وفى أقطار عديدة أن يتزوج رجل برجل ، قالت ماذا يفعل رجل أحب رجلا آخر ، ويريد أن يتزوجه ؟ قلت : لا إن هذا عيب وإن هذا محرم فى الدين ، وأخذت أشرح لها بعنف حتى قالت لى : يجب أن تسكت ، حتى لا تتوتر أكثر من هذا فأنت مريض يجب أن نحافظ عليك ، ماذا يفعل الشيطان فى بلد أباحت كل أنواع الشذوذ ؟ القانون فصلوه ليقوم على حمايته بقوة البوليس وسألتنى فى اليوم التالى ، إذن كيف تفعل سيدة أرادت الزواج من أخرى ؟ قلت يا للمصيبة أيوجد عندكم أيضاً مثل هذا اللون من ألوان الشذوذ ؟ أن تتزوج سيدة بسيدة أخرى . ألا يوجد رجال ، حتى يردن أن يتزوجن النساء ؟ ، ألا تجد رجلا صالحا تتزوجه أو غير صالح ؟ قالت : نحن نفعل هذا . إذن ماذا يفعل الشيطان ؟ ، السرقة مباحة ، الرشوة مباحة ، الشذوذ مباح ، الجنس على قارعة الطريق ، ماذا يفعل الشيطان ؟ ويقولون أوربا متحضرة وأنهم مسلمون بغير إسلام ، يا أخى هنا العمل ، أنت تعمل فإذن أنت تأخذ أجرك وإذا لم تعمل لا تأخذ أجرك ، يجب أن تؤديه وهذا ما فعلته فى الصباح ، فقد شكوت إلى (جيسى) قلت لها أشعر بإهمال الممرضات ، وربما لطول بقائى وربما لمعاملتى الحسنة وربما لابتسامى الدائم وربما لإهمالى أيضاً ، فقد أهملت فإذا لم يتوقف هذا الإهمال سوف أشتكى لمدير المستشفى ثم أطلب من سفارتى أن تنقلنى إلى مستشفى

آخر ، وقد سبق أن فعلت ، فإذا بالجو العام قد تغير وأسرعت كل واحدة نحوى تسألنى هل أنا المقصود بتلك الكلمات ألم أفعل لك كذا ، وأنا تحت إشارتك ورهن أمرك ؟ واعتذرن اعتذاراً شديداً حتى أنهن عندما يقتربن من حجرتى لا يبتسمن فإذا ابتسمت ابتسمن ، فى هذا اليوم شعرت أنهن على وشك الفصل ، هنا العمل ، أنت تعمل إذن تأخذ أجرك ، فيجب أن تعمل ، وإلا تعرضت للفصل ولا توجد لك أى حماية ، فإذا كذبت مثلا يكون كذبك هذا مدعاة للفصل ، وإذا أهملت فأنت لن تجد طعاما تتعشى به ، الفلسفة هنا فلسفة برجماتية بحتة لا يحدها إلا المنفعة ، الدين هنا هو المنفعة إنهم هنا فى إنجلترا يشكون من البطالة ، من الأمراض الاجتماعية والنفسية والاقتصادية ، وقد رأت ابنتى فى شوارع وسط المدينة ما أذهلها وأشياء لم تكن تتخيل أن لندن بمجدها الذى سمعته به طوال حياتها بهذه البذاءة وهذا الاتساخ والوجه القذر .

جاء السائق وركب السيارة فى تأفف بعد أن أدى صلاة الظهر ، كنا ثلاثة رجال بملابس الإحرام وأنتِ يا زوجتى بملابسك البيضاء وقد جلستِ والعرق يتصبب من وجهك وتتألمين ، وأخيراً وصلت بنا السيارة إلى مدخل المدينة المباركة التى ازدانت بحب الله سبحانه وتعالى وبدأنا ندعو الله دعاء دخول مكة فإذا بالرجل يقول اهبطوا ، فقلنا بالله عليك يا رجل ، اذهب بنا إلى ذلك العنوان ، قال : لا ، قلنا سنزيدك أجراً ، هذا يوم الجمعة ، ولا تسمح الشرطة بالدخول ، ماذا نفعل ؟ قلنا لا بأس فليتحمل كل منا ما يستطيع حمله من حقائب ، وبدأنا السير بعد عدة أمتار شعرت بالتعب وبدأنا نسأل أين التكية المصرية ، الجميع يقول لنا لا أعرف ، أين شارع المسفلة ؟ لا أعرف وكنا بالفعل داخل شارع المسفلة بعد أن ظللنا نطوف حوله ثلاث ساعات وأشعة الشمس فى شهر يوليو تلهب رؤوسنا العارية وأجسادنا مبتلة بالعرق سألنا رجلا يبيع الحقائب : يا أخى أين المبرة المصرية ؟ أو سكن الحجاج المصريين ؟ قال : لا أعرف جلست مهدودا بعد اللف والدوران طوال خمس ساعات وإذا بى أرفع رأسى وأجد لافتة صغيرة كتبت بحروف دقيقة ، وزارة الأوقاف واختفت المصرية خلف حقيبة من حقائب الرجل الذى سألنا منذ قليل وقال لا أعرف ، دلفنا إلى مدخل العمارة وصعدنا إلى الدور الثانى ووجدنا رجلا طيبا أسمر الوجه ، فلما سألناه قال نعم لكم أماكن هنا فأسرعنا إلى وضع حقائبنا حيث أشار واستلم كل منا سرير لكى ننام ولكنى قلت إذ كان الله قد هدانا إلى هذا ومكننا الوصول إلى المكان فنقم بعمرة ليغفر الله بها ذنوبنا ونشعر أننا بالفعل قد جئنا من أجل هذا لا من أجل النوم وتصايحوا جميعا فى فرحة شديدة ، واغتسلنا ثم ذهبنا إلى الحرم ولكن كيف تتم العمرة ؟ كيف تكون مناسكها ؟ لقد عدت منذ أيام من أوروبا ولم يكن لدى فى ذلك الوقت أى معلومات عن الحج أو العمرة أو حتى مناسك دخول الحرم الشريف فلم أره قبل هذا اليوم ولم أقرأ كتابا فى الحج ولا فى مناسكه ولا

فى العمرة ولا مناسكها فسألت زميلى ، فقال لا أعرف ونظر الجميع نحوى باعتبارى أستاذا ! ماذا نفعل ؟ أدخل بنا ونحن معك ودخلت الحرم فهللت وكبرت وفعلوا مثلى ؛ ولكن هنا اكتشفنا أننا لا ندخل مسجد السيدة زينب أو مسجد الحسين أو مصلى على قارعة الطريق بل ندخل إلى الحرم الشريف .. ويدخل معنا آلا لاف ، ندخل الدوامة ؛ بعد لحظة واحدة تشتتنا وسط تيار من البشر يتدافعون من كل الأمم هذا أسود وذلك أحمر ، هذا يرتدى ملابس عادية وهذا يرتدى ملابس الإحرام ، يتدافعون ويدفعون الناس أمامهم ووجدت نفسى وحيدا فخفت أن أفتقدك فى تلك الدوامة السائرة نحو الكعبة ، وتلهفت عليكِ فى رعب شديد ، واتجهت إلى الله بدعائى أن أجدك أمامى والناس يدفعوننى يمينا تاره ويسارا أخرى حتى وجدتك وأمرتك أن تتشبثى بى مهما حدث فإننا لم نكن نعرف أن المسجد الحرام به كل هذا العدد الهائل من الناس والحر شديد والمراوح الكهربائية تطن بهواء ساخن ولم أجد عقلى ولم أجد كل ما كنت أتصوره من هدوء وسكينة وراحة ، كنت أشعر بذلك كله عندما أدخل مسجد بلدتنا أو أدخل مسجدا فى القاهرة ، تدخل وتجلس حيث تشاء فى المكان الذى تشاء أما هنا فأنت مجبر يا أخى ، تزحف مع الزاحفين وهذا الحر الشديد القاسى وكم تمنيت ساعتها أن أفهم ، أن يتصل وجدانى بعقلى وأن يتصل عقلى بجسدى ولكن الوجدان وحده ، والعقل وحده ، والمسجد وحده يجب أن دور مع الدائرين وأطوف مع الطائفين فلما فرغنا من الطواف وجدت صديقا أرشدنى إلى ما يجب فعله وصلينا ركعتين ثم نظرت حولى فلم أجد صديقى هذا ؛ ماذا أفعل ، ووجدنا لافتة كتب عليها زمزم ، بئر زمزم فقلت متلهفا ندخل زمزم ونتوضأ فقد يسعفنا الوضوء بما نفعله ، وأخذت أغتسل وأتوضأ ، أبلل ملابس الإحرام ، أضع الماء على رأسى ، على جسدى ، وأردد الله أكبر ولا إله إلا الله ثم صعدنا ، قلت تعالى نرى ماذا نفعل بعد هذا ؛ فإذا بصديقى هذا يظهر فجأة كما ظهر أول مرة ، فقال : هل توضأتم فى زمزم ؛ قلت : نعم ؛ قال : اتبعانى لكى نسعى ، قلت له أرجوك لا نريد أن نفقدك مرة ثانية تبسم ؛ وقال : فقد اتبعانى ؛ وتبعناه بصعوبة شديدة ، فالناس يتخبطون ؛ كل منهم يطوف مع نفسه ويطوف مع الآخرين ، وكأنهم سحب متراكمة متلاطمة ، وصلنا إلى بداية السعى فأشار بيده إلى الكعبة فأشرنا فكبرنا ثم أسرع مهرولا فأسرعنا ، قال : يجب أن نفعل هذا سبعة أشواط ؛ فى الشوط الثالث فقدناه وشعرت بإرهاق شديد ووجدتك أنت وقد اصفر وجهك وبدأ الألم واضحا على وجهك ؛ فى نهاية السعى السابع وجدنا صديقنا هذا للمرة الثالثة ، فقلت له يا أخى لقد سعينا سبعة أشواط ، قال مبروك حان وقت التحلل يجب أن تحلق وتقص لزوجتك بضع شعرات ومضى ، ومضينا نحن إلى مسكننا ، وتعشينا ، وقررنا النوم لأن التعب قد أخذ منا كل ما أخذ وبالفعل نمت أنا نوما عميقا ثم صحوت قد أمسك بى العطش أتوق إلى نقطة ماء واحدة وأخذت ابتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن يسقينى ؛

لا مفر من ذلك فنحن فى صيام ويجب أن أصوم حتى آذان المغرب وكيف أفطر ، وأنا أسكن بجوار الكعبة ؟ ، لا يفصلنى عنها سوى عدة أمتار ، حاولت أن أتحمل وأن أصبر مستعينا بذكر الله تعالى ، أتقلب على فراشى وأنظر نحوك فإذا بك تنامين نوما هادئا ابتهلت إلى الله سبحانه وتعالى أن يسقينى .. بمعرفته كيف أشرب وقد أذن الفجر لا أدرى ؟ كل ما أدريه أننى ابتهلت إلى الله وبعد ساعة سمعت الباب يدق وصوت رجل ينادى يا حاج كيف تنام مبكرا هكذا قم يا رجل وخذ منى هذه (الدندرمة) دندرمة ؟ ماذا تقول ؟ قال صنعتها بنفسى ولم أرد أن أكلها ؟ وحدى وهذه لك أنت وزوجتك فقم وكلها ، فقلت دندرمة ، فقال أنت تسمونها أيس كريم ، فقلت ولكن الفجر قد أذن ، فقال لا لم يؤذن الفجر بعد ، فقلت وقد فتحت الباب ، وكيف هذا وقد سمعت بأذنى آذان الفجر ، فضحك الرجل وقال : هذا آذان السحور وليس آذان الفجر سيتلوه آذان آخر معناه الإمساك ، ثم آذان ثالث معناه أن صلاة الفجر قد حانت وقد بقى على صلاة الفجر ثلاث ساعات فقلت والله لقد سقانى الله وأخذت منه الدندرمة وضعتها على مائدة بجوار فراشى وأيقظت زوجتى وقلت تهللى فقد سقانا الله ، وذهبت إلى الثلاجة ووجدت بها إناء ماء يشبه الصفيحة فرفعته إلى فمى وأخذت أشرب حتى ارتويت ، وحمدت الله وذهبت إلى الحمام واغتسلت وتوضأت ، فقلت إذا كان الله قد سقانى فيجب أن نصلى له وأن نذهب إلى الكعبة ولم يعد هناك وقتا نضيعه فى النوم بعد أن فعل بنا الله هذا الفعل الكريم ، فلنشكره ونحمده ، وذهبنا إلى المسجد فإذا به قد أكتظ عن آخره بل زاد امتلاء وجدت أن الحر قد ازداد وأن ضوء النيون قد حول ليل الكعبة إلى نهار وأن هذه المراوح فى السقف وفى الحوائط تزيد من حرارة الجو ، وحاولت أن أجلس فى ركن هادئ وأن أصلى ركعتين ولكننى لم أستطع ، ووجدت نفسى مسافرا مع الآخرين حتى جلست فى مكان وفقنى الله إليه وأخذت أصلى واقرأ القرآن ومضت الليلة الأولى هكذا فى الكعبة ، وبعد عدة أيام قالوا سنذهب إلى المدينة للصلاة بالمسجد النبوى الشريف وزيارة قبر النبى علية الصلاة والسلام ، حملنا [illegible] نبنا إلى السيارات المكيفة التى سارت فى طريق ضيق وملتوى وبه الكثير من الحوادث ، كنا نراها من نافذة السيارة ونفاجئ بأن الكثير من السيارات سقطت على جانبى الطريق ، فكنا فى رعب دائم حتى هلل القوم وقالوا ها نحن قد وصلنا إلى المدينة .. طلع الفجر علينا وبدأت أبكى شوقا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكأننى سوف ألاقيه بالفعل وأرى وجهه الشريف ، وألثم يده الكريمة ، وأجلس بجواره ، وأتحدث إليه ، وغمرنى الشعور بالسعادة والراحة والألفة عندما رأيت بيوت المدينة ، ذهبنا إلى المساكن التى أعدت لنا وأخى (محمود) رحمه الله يسوقنا إليها دون سابق معرفة فلم نجد إجهادا فى ذلك رغم سفرنا الشديد الذى كان يتسم بالفزع من حوادث الطريق وعوارضه ، وقالوا لنا النساء فى جانب والرجال فى جانب ، فقلنا حسنا ونمنا فيما يشبه العنابر لا يمكن وصف ذلك الأتساع الباهر لتلك العنابر

التى بناها (محمد على باشا) والنوافذ الواسعة والحوائط التى يكاد يصل عرضها إلى عدة أمتار والسقف يبدو كالقباء والأسرة المفرودة ، تبدو مثل تلك التى فى مستشفى العجوزة الخيرى ، بيضاء متسخة وقذرة والذباب يطوف من حولك فى بلادة وتزحف على الحوائط حشرات لا أدرى نوعها ولكنها من كل لون ، وصنف ، ونوع ، ومع ذلك لم أشعر بالخوف ، ونمت أنا وزميلى فى عنبر واحد ، لم يكن معنا فى تلك الليلة أحد ووضعنا حقائبنا ، وتوضأنا وقلت لزميلى هيا بنا نذهب إلى المسجد النبوى الشريف لنسلم على سيد الخلق محمد (عليه الصلاة والسلام) ، فذهبنا ومعى زوجتى وكانت المسافة طويلة والحر شديد فأخذنا نضع الماء على ملابسنا وكلما جفت وقفنا بجوار حنفية المياه المخصصة الشرب وأخذنا نبلل ملابسنا حتى وصلنا إلى المسجد الشريف فإذا بى أجرى مسرعا وأترك زوجتى ، وزميلى عند منتصف الطريق ، قالوا ها هو المسجد النبوى الشريف ، فجريت وأنا أمسك زيل جلبابى مثل أطفال قريتنا ، وأدخل المسجد وقد أخذنى الجلال والإكبار لمسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وذهبت إلى حيث يذهب القوم فى خشوع يسلمون على سيد الخلق محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وشعرت لأول مرة منذ أن جئت إلى الحجاز بالهدوء والسكينة والراحة ، وشعرت أننى أخيرا وجدت نفسى وظللنا بجوار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما يقرب من ثلاث أسابيع وأنا لا أريد الرحيل وقد أحببت المدينة وأحببت كل ما يحيط بها وكل ما بداخلها من مساكن وشوارع ومتاجر ، كما أحببت الحرم حبا ملك على فؤادى وأحببت تلك المنطقة الطاهرة (الروضة الشريفة) وكنت لا أصدق نفسى أحيانا وأنا أجلس فيها وأسكن فيها سكينة تملأ على فؤادى أصلى الصلوات الخمس وأزيد عليها ما أستطيع ولا أفارق الحرم إلا سويعات أنا متواجد وجودا نفسيا وعقليا وروحانيا وجسديا ووجدانيا فى تلك البقعة المباركة الشريفة وعدنا بعد رحلة قدسية طاهرة أسعدتنا كثيرا وظلت فى ذاكرتى حتى الآن ولم تطمسها تلك الرحلات المتتالية التى تلتها للحج أو للعمرة ، وكان بعضها بدعوة من ملك السعودية وبها من الترف ما بها أتذكرها عندما رحلت بمفردى لأداء العمرة فى رمضان أبحث عن مكان أبيت فيه ليلة واحدة وأنا أحمل حقيبتى الثقيلة ولا أجد مكانا للإقامة ونمت فى الكعبة وعلى السجاد حتى لفحتنى الشمس وقمت مذعورا وبحثت عن حقيبتى التى وضعتها فى بهو أحد الفنادق ولما وجدتها قالوا : أنهم يبحثون عنك لأنهم قد وجدوا لك حجرة ، فى تلك الرحلة المتفردة فى ذاتها وجدت حجرة فى فندق بها أربع أسرة وبها مكيفان وبها جهازين للتليفزيون وبها ثلاجتين وأقمت فى تلك الغرفة الواسعة خمس ليال وستة أيام ، ووجدت أن من المناسب أن أذهب إلى المدينة للسلام على رسول الله وأقضى بقية رمضان بجوار حبيبى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ،وهناك اهتديت إلى الفندق بسهولة : هذه المرة ومن الطريف أن فندق مكة أصر على أن يأخذ فقط مائتى وخمسون من الريالات وهذا سعر

فراش واحد فى ليلة واحدة فى العشر الأواخر من رمضان ، ورفض أن يأخذ أكثر وفعل مثله صاحب الفندق فى المدينة المنورة على الرغم أن إقامتى امتدت أسبوعا بأكمله ولا أعرف لهذا سببا ، حاولت أن أدفع أكثر ولكنهما فى الفندقين رفضا بإصرار ، وشكرت الله وحمدته وعدت إلى جدة ، ومنها ركبت الطائرة إلى القاهرة ، وكانت هذه أسعد رحلاتى ، زوجتى هل تتذكرين هذا الرجل الضرير يسألك تريدين الطلاق ؟ أبعد كل هذا تريدين الطلاق ؟ ربما يكون معى حق فى أشياء لم أذكرها لأننى أدافع عن نفسى ، ومهما قلت فإن هذا يعد دفاعا عن النفس ويعد تجنى على ، لماذا إذن تحكى ؟ ألم أقل لكم أننى سوف أحكى حكايات ليست ذكريات ومذكرات وليس لها مستندات وليس فيها بطولة ولا ثورة ولا تمجيد لزعيم . إن الأيام تمر وأنا لا أستطيع الحراك ، لا أستطيع الفكاك ، فإذا سألنى الطبيب لماذا أنت شجاع ؟ أقول له هل يمكن لى غير ذلك ؟ هل فى إمكانى أن أقول لك أرفع يدك يا أخى وكف عن إيلامى بمشرطك وأقول للممرضة أرجوك لا تعطينى كل تلك الحقن وأقول لمن يدس الحقنة فى ذراعى الممدود أمامه ويعلم أنه نصف مشلول ثم يدور بإبرته فى تجويف اليد باحثا عن عرق يضع فيه حقنته هل أستطيع أن أقول لك كف يدك عنى ؟ إنه يقولون نحن آسفون ، وماذا يفعل الأسف . يمنع عنى الألم ، إننى أترك الألم فى جسدى وأحلق فى الفضاء متذكرا الكعبة محاولا أن أصلى فى الكعبة واقفا بجوار بئر زمزم أشرب أرتوى أقف بجوار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) واصلى ، أذكر الله كثيرا فذكرى لله سبحانه وتعالى يثبت القلب ، أسأله الشفاء ، فهو الشفاء وحده ولا شفاء إلا بإرادته ، ماذا أملك يا طبيبى العزيز ، ماذا أفعل لكى أكون شجاعا ؟ يبتسم الرجل ويقول والله إنك رجل شجاع ، ما تراه أنت شجاعة فى الحقيقة هو انقسام فى شخصيتى فأنا أترك جسدى لكى تشقه نصفين وأحلق فى ذاتى الداخلية وأمر بها فى أماكن أخرى أحبها وأفضلها الكعبة ، حول الكعبة وبجوار الحوائط أجلس لأشعر ببرودة البلاط وأصلى ، أهرب إلى هناك ، وأدعو مبتهلا إلى الله أن يلهمنى الصبر فى المحنة وهو الرؤوف الرحيم ، لقد جلس طبيبى (بانديا) معى أمس ساعة كاملة وهو يتحدث معى كصديق ، لقد أحببته حبا شديدا لأنه جاء فى وقت راحتى وكان يجلس معى سعيدا ويسألنى كيف أكتب مسرحياتى ؟ ويسألنى عن الأدب والأدباء فأسعدنى الحديث وأخرجنى من وحدتى . جراح يهتم بالأدب ، هندى مقيم فى إنجلترا يهتم بالأدب ، ويتحدث عن غاندى ونهرو وجمال عبد الناصر ، وقضية الشرق الأوسط ، وتدور بى روح الذكريات ، ذكريات عن الفول المدمس وسندوتشات الفول المدمس ، وأشعر بالحنين إلى زوجتى الثالثة ، وأشعر بالحنين إلى أطفالى عمرو ومحمد ومى ، حدثتنى ابنتى عنهم كثيرا إنها تحادثهم بالتليفون كلما ضاقت بها الأمور هنا ، أحدثهم أنا أحيانا لكن صوتى لا يكاد يصل إليهم فأستمع إليهم فقط ، الليلة استمعت إلى أبنى عمرو وهو يقول : كيف حالك يا أبى ؟ وابنتى العزيزة مى

وهى تقول : سلامتك يا بابا ، وفى إحدى المرات سمعت محمدا يقـول بابـا ، يـا الله لقت عشت حياتك بالطول والعرض ، كم مرة سبحت فى بحر مرسى مطـروح ، ميـاه زرقـاء وشـباب يحمـل أحيانا أحجارا لأن قوته لا تريد أن تنفذ ، يظـل مسـتيقظا طـوال اليـوم والليلـة ، ذهبت عندمـا تزوجت زوجتى الثالثة إلى مرسى مطروح أحب الأماكن فى مصر إلى قلبى تختلط المياه الزرقاء فى بحر مصر ، بماء الكوب البارد وهو يتدفق فـى فمـى ، أغـوص ، أسـتعذب المـاء ، أطفـو ، أعـبر أخدود المنتزه بالإسكندرية ، وأعبر نيل الجربى ، وأشرب مـن مـاء النيـل عنـد خـزان أسـوان ، واركب مركب صغيرة تعبر بى بحيرة ناصر حتى معبـد فيلـه ، سـاعات مـن التجديـف ، والمـاء يحوطنى من كل مكان ، وأغمض عينى ، وتوقظنى المرضة ، مؤنبة لأنى لا أشرب مـا يكفـى مـن الماء ، ماذا أفعل كى أشرب أمد يدى إلى الكوب ، لا تكاد شفتاى تلمسـانه حتـى أسـعل ، وأشـعر بحدرى يتمزق ، أترك الكوب ، وأعيش فى ارتواء خيالى وأنا أمسك بالماء فى يدى !

أعلم يا أخى أننى لا أتوخى توالى الأحداث ، ولا أميل إليها فى أعمـالى الروائيـة ، فمـا بـالك وأنا أكتب هذا تحت تأثير عشرات الأدوية واعصار الألم الـممض ، ودوامة العقل المشتت الـذى لا أعرف كيف أدربه على الترتيب ، شاغلى رغم الألم أسرتى ، قد ذكرت لك ، أو لم أذكـر فأنـا لا أدرى ، أننى تزوجت من ثلاث نساء ، واتهمنى الناس واتهمت نفسى كذلك بأننى مـزواج ، ولا يهمنى الاتهام ، إن ما حدث قد حدث ، عقلى لا يدور مثل آلة الحقن المعلقة فوق رأسـى ، وأرى المحلول يهبط منها نقطة ، نقطة ، أتابعه أحيانا وأشرد أحيانا أخـرى ، أتذكـر يـوم ذهبت إلى (الحـوض المرصود) وهـو مكان بحـى السـيدة زينـب ، وكنت منبـوذا بعـد خلافـى مع منظمـة الشباب ، فأرادوا إبعادى عن الشباب وهكذا ذهبت إلى إدارة الإسـكان وكـان مكانـها (الحـوض المرصود) فى أول يوم وجدتهم جميعا فى المقهى المجاور ، وفى اليوم التالى حضرت حفل الإفطار الجماعى ، جاء السـاعى ومعه قرطاسا كبيرا مـن (الطعميـة) و (حلـة) مـلآى بـالفول المدمس ، وعلى ذراعه الأخرى (رصة) عيش طازج وقام شوقى بتوضيب المائدة التـى تكونـت مـن مجموعـة دفاتر وسـجلات الإسـكان ، وكذلـك المقـاعد ، ثـم وضـع (حلـة الفـول) وراح يخـرج مـن جيوبـه زجاجات وأنابيب بها (لوازم الفول) زيت وليمون ودقة وغيرها ، ثم أشار إلينا أن نبدأ بالفعل ، تسـابق الجميع ولم تمض لحظات حتى تلاشـت كـل أكـوام العيـش والطعميـة ، والطمـاطم وخلت (الحلة) من الفول ، لم أكـن متعودا على هذه الطريقة فى الطعام ، ولم أعد إليها بعد ذلـك ، فقد اكتشفت أنها لا تناسبنى ، وقد سبق وأن تعرضت لمثلها فى أول أيامى الجامعيـة ، .. جـاء أحـد الأطباء للفحص ثم قام بعمل جراحة فى الصدر ليتمكنوا من وضع (الكانة) وهى تمثل المبسم يظـل فى العرق حتى يمكن استخدامه للحقن ، شعرت بإرهاق شديد بعد الجراحـة ، تذكـرت حكايـة الأرقام التى كتبتها فى إحدى رواياتى وعن البطل الذى كرر حرمان العالم من الأرقـام ، فجمعـها

وضعها فى بئر واغلق البئر وجلس فوقه حتى لا تتسرب الأرقام ، واستراح البطل عندما فعل هذا ، أسعدنى كثيرا تذكرت هذه الحكاية ، قالت الممرضة أن (الحقنة) الواحدة تساوى ما يقرب من نصف ألف من الجنيهات ، أخذت أفتش فى عقلى عن الأرقام ، منذ يوليو الماضى وأنا راقد هنا ما بين جراحة وعلاج – يا ترى كم سأدفع ، ماذا لو قالوا أن المركز الطبى لن يدفع وطالبونى بتسديد الفاتورة كاملة ، سألت ابنتى عن النقود التى نملكها ، قالت : لا تتعب نفسك بهذا الأمر ، كنت قد حولت ثمن سيارتى وسحبت كل مدخراتى عندما أرسلونى إلى هنا ، ولكن تكاليف إقامة ابنتى ومصروفاتى الأخرى غير العلاج أخذت ما جمعناه .. دخلت فتاة تحمل فاتورة التليفون ، قامت ابنتى بسدادها ، لابد أن اسدد شهريا المكالمات التليفونية وندفع ثمن المشروبات وأيضا نسدد مقدما إيجار السكن الخاص بابنتى ، أرقام أرقام .. أبتسم زميلى فاروق وقال : لا يهمك قلت بصوت واهن : أنا شخصيا لا أهتم لأننى لا أدرى ما إذا كنت سأخرج من هنا على قدمى أم لا ، ولكن لو أمكن سرقت الأرقام وحرمان العالم منها، قال الدكتور يعقوب (أنا لا يهمنى النقود ، أنا مهتم بك أنت) ، ابتسمت – رأيت الصدق فى وجهه – قالوا أنه يقوم بإجراء جراحات بدون أجر لبضع الناس ، فعلها عندما تكلمت معه بخصوص أحد المصريين ، وكان ودودا ، الممرض (سليمان) يتحدث بعنف أسود الوجه غليظ القلب ، ولكنه ماهر ، عندما رزقنى الله بولدى عمرو – رغبت فى اصطحابه هو وزوجتى إلى الكعبة أردت أن أطهره وأطهرها بماء زمزم ، وحلقت الطائرة بنا ، وكبر الرجال ملبين ، وضحك ولدى عمرو فى سعادة وهو يستمع إلى التكبير ، وكانت عمرة موفقة حيث قضينا النصف الأخير من شهر رمضان المبارك ، وأيضا قضينا العيد وليلة العيد قضيناها فى رحاب الكعبة، كنت أبكى من الفرح ، وأنا أرى البخور وهو يتصاعد من كل الأركان ورائحته الذكية تملأ المكان الحبيب إلى القلب ، وطعمت من الحلوى وشربت من شراب السكر ، كبرت مع المكبرين ، وصليت ثم أخذت ولدى لأطوف به ومعى زوجتى التى أكرمنى الله بها ! .. ولا أدرى لماذا ترتسم صورة زوجتى وأبنائى الثلاثة وهم وقوف أمام المستشفى وسيارة الإسعاف تحملنى إلى المجهول الذى أعيش فيه حتى الآن ،.. أهدانى صديق مجموعة من شرائط القرآن وبعض الأحاديث ، أسعد كثيرا عندما أنصت إليها ياه .. لقد فاتنى الكثير ، ولا أدرى كيف أحكى ، كان نهرو وماو وتيتو وعبد الناصر قمة للزعامة ، كنت غارقا فى حبهم ؟، متشيعا لهم ، سافرت إلى موسكو لكى أتعلم ، وعدت لكى أشترك فى بناء منظمة الشباب ، كان إحساسى أيامها أننى أشارك فى صنع التاريخ ، وعندما أصطف الشباب بطول الشارع لكى يصفقوا لزعيم روسيا (خروشوف) كنت سعيدا ، ولكن صدمنى الإحساس بالإحباط عندما طلبوا منى أن أوزع على كل شاب نصف جنيه ، وتضاءلت المنظمة وتضاءل رجالها وانزوى شبابها وأشعرت بالقهر ، وكان السؤال أى تاريخ أساهم فى صنعه ، كل شئ لا أهمية له

(المشير) وهو يجلس فى اتحاد الكرة لكى يدخن وحوله الحواريون يتراقصون ، هل هذا هو الذى يقود ؟ – أنه يطالبنا أن نضع خطة لإعادة الرشاقة إلى ضباط جيشه ، المترهلون الطامعون ، ونحن لا نجد رطلا من العسل الأسود ولا (وركا) من دجاجة ، وأيامها أكلنا كل الطعام الفاسد الذى صدرته أوروبا واختلطت فى علقى الصور ، (سكر) الفتاة التى تاجرت بشقق المساكين وبالمخدرات والذمم كيف واجهتها ودفعت بها إلى السجن ، لماذا فعلت هذا ، لماذا تعرضت للضرب وكدت أفقد حياتى فى دمشق ، وكيف رأيت معسكرى والنابلم الإسرائيلى يحرقه ماذا لو تأخرت فى إعطاء الأوامر بإخلائه ، لماذا يكذب المحافظ ، ويدعى الفيلسوف الاشتراكى العفة والفضيلة الاشتراكية وهى يتبادى فى ملابسه الحريرية ، وخواتم ذهبيه تلمع فى أصابع يديه وسيارته وسائقه وبيته ، ثم وهو يدعبنى لاحتساء الشاى معه فى شرفة القصر الخاص به ، ثم أذهب إلى بلدتى لأجد أن القرن الحادى عشر الميلادى لا يزال قابعا ، والنساء متربات متسخات والرجال يتحدثون عن (العيش القمح) الذى يحضرونه من البندر ، وأرسلت أمى إلى كل الجيران من أجل الحصول على طبق من الجبن القريش الذى أفضله ودفعت ثمنا مرتفعا حتى حصلت عليه ، لم أذقه وعدت مكلوما إلى مدينتى ، لا أدرى هل أصدق الزعيم أم أصدق (عم أحمد) البقال الذى يرفع لافته (لا يوجد) عندما نسأله عن شئ ، وفصلت من عملى وجلست فى البيت ، لا أدرى كم مرة أجد نفسى مفصولا ، فى كل مرة أجلس وأفكر ، وكلما فكرت عرفت أننا لم نفعل شيئا يستحق الإشادة منذ أن ثرنا على عسكر الفرنسيس بعدها لم نفعل شيئا أصبحنا مثل (تلامذة المدرسة الأميرى) .

نأكل ما يقدمونه لنا وندرس ما يتكرمون به علينا ، نحن لا شئ ، أنا لا شئ ، كنت أظن نفسى أخطط لكيان شبابى مصرى خالص ، ولكن اكتشفت أننى مجرد (حاجة وخلاص) ، وعندما ذهبت إلى الإسكان ،ظننت أننى جئت لكى أضع للعدالة ميزانها المفقود ولكن أيضا اكتشفت أننى مجرد (موظف) ، عندما كتبت ، ظننت أننى أعبر عن ذاتى وعن الآخرين ، ولكنهم جاءوا إلى المنزل لكى يسألونى أن أفسر لهم كسوف الشمس ، وهبوط ماء النيل ، ماذا أفعل ، عندما شكوت الألم قدموا لى حبوب قاتل الألم ، وحبوب منومة ، ولم أعد أعرف هل أنا نائم ، أم فى يقظة هل أنا حى أم ميت ، لا أحد يريد أن يقول الحقيقة ، الحقيقة غابت . هل البروفيسير يعقوب على حق أم الطبيب الآخر الذى فعل بى ما فعل قال لى (بانديا) أن الأمور تسير إلى الأحسن ، وسألنى أن أترجم له ما أقول فى التسجيل ، ولكنى سألته عن الهند ، قال وصلت من أجل العلم ولكننى فقدت أولادى هنا فى حادث ، لم استطع مواصلة الحديث ، وقلت :

– لم أكن أقصد إيلامك .

قال :

– كل شئ مكتوب .. ولا مهرب مما هو مكتوب لك .

من يوليو وحتى الآن ، ولا ندرى لأمرنا نهاية ، ربما يرى النقاد فى تلك الرواية أنها مجرد تسلية مريض ، كتبها أيضا عقل مريض وربما يرى فيها البعض الآخر أن بها المساس بأسرار خاصة جدا لا يجب البوح بها ، ورأيى أنها فرصة للترفيه عن النفس للقضاء على الوقت الممل والطويل عندما أجد نفسى بمفردى وسط حجرة كئيبة وأمل محدود وابتهال إلى الله سبحانه وتعالى أن يعطينا الصبر والأمل وأن يلهمنا الدعاء المستجاب ، لا نملك من أمر أنفسنا إلا هذا . أحيانا تكون حالتى المزاجية عالية ومسكنات الألم تعمل بجدية شديدة ، أضحك وأنا أستمع لزوارى وفى أحيان أخرى لا يختزن عندى من المزاج ما يسمح لى بأن أتفوه بحرف . تأملت الجهاز الذى يرقد على يمينى ، أنه طلمبة ضخ عملها أن تدق السوائل فى جسدى ، ليس لها صوت بها أكياس المحاليل ، نقطة نقطة وكل ساعة تدق جرسا فيأتى الممرض أو الممرضة لكى تدفع بالسائل وتدير الطلمبة ساعة أخرى ، يدى اليمنى نصف مشلولة ، ويدى اليسرى مربوطة برباط ضاغط لكى تتمكن الطلمبة من ضخ السوائل أخبرنى الممرض اليوم أن مادة الحقن تأتى من أمريكا وهى غالية الثمن ويجب حقنها كل ساعة ، لم أعد أذكر الأرقام تتلمذت على يد زكى نجيب محمود وتوفيق الطويل وغيرها من أساتذة وفلاسفة العصر العظماء ودرست كونت وبيرجسون وأفلاطون وأرسطو ودور كايم وغيرهم من علماء الفلسفة على مر التاريخ الرومانى والبيزنطى والفلسفة الأفلاطونية والبرجماتية والواقعية الاشتراكية والوسطية وكل ما هو فلسفة حتى أن عقلى أصبح الآن يقول أنا أفكر فأنا موجود ثم أعين فى وظيفة كاتب أرشيف يجلس طول يومه لكى يأخذ الأوراق ويسجلها فى دفتر برقم ثم يذيل الورقة أو يضع على رأسها ذاك الرقم لكى تحفظ فى الأرشيف لكى يعودا إليها وقتما شاؤا هذه هى وظيفتى بعد أن درست ، كم قدما للدجاجة وكم يوما تستغرقه الرياح الشمالية الشرقية لكى تأتى إلى مصر بالمحاصيل التى تنبت فى أرتيريا وعاصمة كوالا لمبور ثم علوم الطبيعة يد كب فى ألف س ، وعالم الجبر أس اثنين تساوى أس ثلاثة ، والهندسة والميتافيزيقا ثم يصبح كاتب أرشيف لا عمل له سوى أن يكتب الأرقام المسلسلة فيحلم بأن يصنع بئرا عميقا ويجمع فيها كل أرقام الدنيا ثم يخبئها فى ذلك البئر ، ويسده ويجلس هو على سدادته حتى لا يستطيع أحد من الناس الحصول على رقم ، كتبت هذا من قبل ولا أدرى لماذا تذكرته ، لأن تكاليف علاجى عندما حاولت حسابها وصلت إلى أرقام فلكية ، وأخبركم الآن أننى خفت من تلك الأرقام وخشيت أنهم لم يسمحوا لى بالخروج إلا بعد أن أدفع تكاليف الفاتورة ، وماذا أفعل ساعتها ؟ ثم ضحكت وقلت سبحان الله وهل أنا متأكد تماما من أننى سوف أخرج وسوف يحاسبوننى يا رجل ؟ إن أكثر الناس هنا تفاؤلا يقولون لك لا نستطيع

أن نحدد الفترة الباقية لك تحت العلاج ، كل ما نملكه أن ندعو لك بالشفاء ، حتى ابنتى تقول هذا ، أى أنهم جميعا مع الاعتبار بأن منهم متفائلون كثيرون ، يضحكون فى وجهى ربما يبكون بعد ذلك : كما بكت (الميسترسوى) بكت بشدة عندما وقفت لتحضر عملية التغيير على الجرح الرئيسى فى صدرى وأمسكت بيدى وشاهدت دموعها تتساقط وتتألم أكثر منى وليتها تألمت بشدة ، تألمت لأنها تألمت ، وتمنيت أن أقول لها كلمة مضحكة حاولت جاهدا البحث فى عقلى عن نكتة مصرية أترجمها لها أحيانا أترجم لهم بعض الأشياء عن قاهرتى وأكلاتها أو عن أسرتى . يحلو لى الحديث عن أولادى وعن تلك الذكريات المسائية التى تجمعنى وقد قصصت على ابنتى كيف ذهبت أنا وابنى عمرو وزوجتى ماجدة إلى الحجاز وكيف حصلت على جواز السفر قبيل رحيل الطائرة وتأهبها للإقلاع إلى السعودية بمعجزات واستطعنا بصعوبة اللحاق بالطائرة ، فالله سبحانه وتعالى هو الذى بيده الأمر فإذا ما شاء كانت مشيئته هى الأولى والأخيرة ، وإذا لم يشأ فإنك مهما فعلت فلست مستطيعا أن تبلغ مناك أو مرادك ، فى تلك الرحلة بالتحديد كنت قد حددتها منذ ثلاثة أشهر ، أى أننى أخذت وقتا طويلا فى الإعداد ودفعت قيمة الاشتراكات وسلمتهم الجوازات قبيل الموعد بشهرين وجهزت ملابسى فقد نذرت أن نذهب أنا وزوجتى وولدى بعد أن يولد إذا كان ذكرا إلى الحجاز ، وأطهره هناك وأغسله بماء زمزم ثم نقضى معا عمرة فى أواخر شهر رمضان المبارك فى تلك السنة كنت متلهفا على العمرة ، لذلك بدأت الإعداد للرحلة قبلها بوقت طويل فاشتريت ملابس لزوجتى التى ارتبكت واضطربت عندما أخبرتها بأنى نذرت لله وعاهدته بأن أخذها لتتطهر بماء زمزم وأن تؤدى العمرة كما يجب أن تكون وأن تقضى أيام نصف رمضان بجوار الكعبة صائمة قائمة مصلية داعية قارئة القرآن تبتهل إلى الله أن يجعلها طاهرة شريفة إلى أبد الآبدين وأن يبارك لها ولدها نذرت لله أن آخذ ولدى الذى رزقت به بعد طول زواج إلى الكعبة المشرفة لأطوف وابتهل إلى الله أن يجعله عبدا مؤمنا بالله يؤمن بالله الواحد القهار وأن يكون من المتقين ، ويعود السؤال :

لماذا تزوجت من ثلاث ؟ وقبل أن أمضى فى رحلة العمرة هذه ، لأن حديث العمرة يطول أرى الكعبة ، ولا أمل من النظر إليها لا أمل الترحال إليها ويطيب لى المقام وأتصور أن أيامى الوحيدة التى أعيشها فى الدنيا هى تلك الأيام التى أقضيها بجوار الكعبة سواء فى الحج أو فى عمرة أو فى زيارة ، المهم أن أكون بجوار الكعبة ، لهذا سوف أقص عليكم قصة زواجى من الثالثة ؛ لأننى كما يقولون رجل مزواج يحب أن يطلق ويتزوج وبما أننى قد قصصت عليكم قصة طلاقى وبرهنت بكل براعة على أننى حمل وديع لا يمكن أن تصدر عنه تلك الفعلة الشنعاء وهى الطلاق وأعتقد أن القارئ به من الذكاء ما يجعله يفهم ما إذا كنت مخطئا أم لا ، فإذا لم يكن مستعدا لتصديقى فليسألها والأمر مباح طالما أننى نشرت ذلك حتى لو قلت أنها أوهام أو ذكريات مؤلف

على وشك الرحيل ولا أدرى ما إذا كانت هذه الرواية سوف تنشر خلال حياتى أو بعد مماتى ، المهم أننى ذكرت ما ذكرت لأنى أردت ذلك وليقل القوالون ما يشاءون ، لا يهمنى تعليق يصدر من ناقد ، كتبت ما يقرب من اثنتى عشرة رواية حتى الآن وأكثر من ألف قصة قصيرة ، وأكثر من عشرين مسرحية ولم يهتم بى النقاد أحدهم سألنى أن أعطيه رواية من رواياتى وأعطيته فإذا به بعد شهر ونحن نتقابل تقريبا كل أسبوعين فى اللجنة وأحيانا كل أسبوع فى لجان متفرقة من المجلس فأجده يقول لى أنا آسف لأننى قرأت الرواية ولم أفهم أقول مبتسما ، ولا يهمك يا دكتور وقلت فى نفسى : اشمعنى النيا[رد]ة ها تهتم بى يا دكتور أنت لا تهتم إلا بنفسك وشلتك ولله الأمر من قبل ومن بعد وأعطيتها لزميل يجلس بجوارى فى الأهرام ويقف عندما أحضر ويقف عندما أنصرف ويقابلنى هاشا باشا ، وأعطيته الرواية وقلت له أتحداك أن تكتب عنها حرفا واحدا ولو بالذم ولم يكتب كثيرون هؤلاء الذين يكتبون لأن علاقاتهم تقتضى ذلك ، لا داعى للخوض فى تلك البحيرة المرارة أو البقعة السوداء فى حياتنا الثقافية لأنها تثير الغضب وترهق الصحيح والسليم فما بالك بالمريض ياه .. رحلة طويلة قطعتها منذ أوائل الستينات وحتى الآن ما يقرب من ثلاثين أو خمسة وثلاثين عاما أكتب ، ولا أجد صدى عما أكتبه عند السادة الأساتذة النقاد ولكن الله أرحم بى منهم فقد أسعدنى مثلا أن تقرر كتبى على طلاب الكليات وأن تدرس فى مادة النقد التطبيقى وأن أحضر مهرجانات تكريم ، وأقامت لى إحدى الجامعات حفل تكريم جميل ، قالوا عنى كلمات ما أتصور أنها تقال فى مثلى ، المهم أن الله أعطانى الكثير ، الله هو المعطى ويهب لمن يشاء الإناث ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوج بينهما ويرزق من يشاء ويحرم من يشاء بيده الأمر لا بيد ناقد ولا دارس ولا غيره ، الآن بدأت أنسى الأسماء وأصارحكم القول ، لا صداقة فى الأدب فى مصر ولا فى العالم العربى كله ، أنت تكتب ولا أحد يقول لك ماذا كتبت ، أو فى اليوم التالى لا تجد أنك كتبت شيئا رغم أنهم قرءوا وفهموا وأطلعوا ولكن يضنون عليك بكلمة طيبة واحدة هذا هو الحال كتبت عن صغار الكتاب وشبابهم ، كتبت عن مظلومى الأدب ، كنت أرى أدباء بلغت بهم الشيخوخة ولم يكتب عنهم أحد فإذا بهم ينظرون نحوى وعلى وجوههم الدهشة ، وأيضا السعادة التى لا يمكن وصفها لأنهم فجأة وجدوا رجلا لا يعرفونه يهتم بهم ويكتب عنهم بصدق ولاحظت بعد مرضى أنهم كانوا أول من وقف بجوارى عندما تعرضت للمحن الصحية التى أعانى منها حتى الآن ، وهذا فضل من الله ، ماذا كنت أقول ؟ والطلاق فى حياتى حدث مرة واحدة ، أما الزواج فقد حدث ثلاثة مرات ، فى بلدنا يرى بعضهم أننى بعد طلاق زوجتى الثانية سوف أدور فى الحلقة الفارغة ، التى كنت أحياها خلال الزواج الأول ، وإننى بدأت أستشعر الوحدة وخاصة أن بناتى كبرن وبدأن يتلهين بحديث الزواج ، يؤديان الفرض والسنة على أحسن ما يكون ويقرآن القرآن بالليل ، وشعرت بسعادة وراحة كبيرة

جعلتنى أتهيأ ما أفسده الزواج الأول بى وليس هذا معناه أن زوجتى الأولى بها عيب من العيوب كل ما فى الأمر أننى اخترتها ولم أكن على صواب ، لهذا كنت أتحمل فوق طاقتى لأنها كانت غلطتى أنا وليست غلطة الآخرين ، ثم أننى عاهدت نفسى أن أكون معها طول حياتى وحتى الموت وفى نفس الوقت ولم أكن على استعداد أن أبيت وحدى طوال عمرى لهذا عالجت الأمر بزواجى للمرة الثانية كى تكون لدى من تقف بجوارى كما كنت أحبها وتعاوننى على الحياة ، وقد كانت زوجتى الثانية نعم الصديق والأخ ، والأم التى وقفت بجوارى بالفعل ولولا تلك المحنة الشنعاء وتلك الزوبعة العاصفة التى عصفت بزواجى الثانى ما كنت أتصور نفسى زوجا للثالثة ، قابلتها ذات يوم وهى قادمة راغبة فى العمل كنت فى أشد الحاجة إلى مدير أعمال أو كما يقولون إلى ما يعاوننى فى أشياء روتينية تأخذ من وقتى الكثير ، مثل تصوير حلقة من الحلقات وتسليمها للمختص بأستوديو أو شركة أو السؤال عن مستحقاتى أو الذهاب إلى مصلحة الضرائب أو تحصيل مبلغ ، هذه الأشياء كانت تأخذ منى وقتا أبحث عن شاب يفعل لى هذا وأجرب كل شهر وكل عام واحد من وهؤلاء فلا يستمر معى إلا يوم أو يومين يسرقنى فيهما ويمضى أو لا يستطيع أن يفعل شيئا فأجد نفسى مضطرا للاستغناء عنه أتصور أنه يجب أن يكون هناك مديرا لأعمال أى كاتب يذهب للناشر يساومه ، يتولى مراجعة أعماله ، مراجعة عقوده ، والاحتفاظ بتلك العقود وتحصيل أقساطها فى موعدها لأنى قد خسرت فى ذلك نقودا كثيرة ، كان العقد يقضى بأن أستلم عند القبول كذا وأتكاسل وأنشغل وأذهب بعد ذلك عدت مرات ربما حصلت على القسط الثانى وربما لم أحصل ، كما حدث مثلا فى مسرحية عشرة على باب الوزير ، لم أحصل على أى مبلغ رغم أن تلك المسرحية كان إيرادها ما يقرب من مائة آلف عندما أقاموا لها العرض الأول فى مسرح الهوسابير ثم بمسرح الجلاء ، وتزوجتها بعد أن عرفت عنها كل شئ ، فقد أحسست أن الله هدانى ما كنت أبحث عنه ، سمعت منها ما جعلنى أعرف أن الدنيا بها الكثير من الخير وبعد عام وجدتها هى تبشرنى بأن هناك من فى الطريق إلينا لينضم لأسرتنا وشعرت بسعادة بالغة فلم أكن أتصور نفسى والدا لطفل جديد ، وهكذا عاهدت نفسى أنها ما وضعت طفلا أو طفلة أذهب معها إلى الكعبة تلك الفتاة التى أحببتها كثيرا حتى أننى الآن عندما أتذكرها ربما سقطت دموعى على جهاز التسجيل لأننى أحببتها حبا لم أحبه لأحد من قبل وقد أحبتنى هى حبا أستشعره فى كل لحظة ، وفى كل لقمة وفى كل نظرة أراها بعينها ، وما كاد العام الثانى ينتظم ألا وجاء عمرو ابنى العزيز ولا داعى الآن لذكر كل الأشياء المتصلة به حتى لا تهيج عواطفى وتعصف بى أشوق من الأب إلى أبنه ، بعد أن حرم من رؤيته لمدة طويلة ولا يعرف متى يعود إليه لينظر إلى وجهة الملائكى ، عمرو هذا ولد جميل لطيف ، ذكى وشقى وبه لمحات الأطفال الأذكياء التى بعم شقاوة هذا العصر الذى نعيشه وعشت معها حتى الآن ما يقرب من أكثر من

عشرة أعوام ووجدت بها مزيجا من زوجتى الأولى بهدوئها وسكينتها وطيبة قلبها وبين روعة الشباب وجماله ورونقه وحيويته ورغبته فى حياة مستقرة آمنة ، هذه قصة زواجى الثالثة ، ربما لا تعجب القراء ربما لا يجدون فيها الجديد ، ولكن أى جديد ؟ هل يجب أن أحكى قصة دامية لكى تكون جديرة بالذكر ؟ أنها حياتى أقصها وأنا جالس فى سريرى فى غرفة منيرة فى مستشفى الأولد كورت ، لا أحد يسأل ولا أحد يأتى والصمت يرن رنينا غريبا ويطن فى أذنى كأنه محرك طائرة نفاثة ، وصدرى يصدر أصواتا مزعجة ولا أدرى الإجابة على كل الأسئلة التى تدور فى رأسى وأقص عليكم رحلتى إلى الكعبة متخلصا من تلك الآلام وكيف صعدنا إلى الطائرة ثم إذا ركاب يكبرون ، فما كادوا يكبرون إلا عاصفة من الضحك من ولدى عمرو ، يضحك بشدة لا أدرى لماذا يضحك ؟ حاولت إسكاته لمهابة الموقف ولمهابة التكبير ولكنه أبى ، وهكذا قضى رحلة الطائرة وهو يضحك والناس يكبرون ، أما هى فقد جلست خاشعة بجوارى بالطائرة حتى وصلنا إلى مطار جدة ، وكنت أعلم أننا سوف نبقى فى المطار زمنا كما هى العادة ولكن هذه المرة خرجنا بعد خمس دقائق من وصولنا للمطار ، وجدت نفسى فى الهواء الطلق فى ليل جدة وقد برد الهواء قليلا ، رغم أننا كنا فى شهر يوليو أيضا فلما سألنا عن سيارة الشركة وجدنا سائقها يقول تفضلوا وأجلسنا فى المقعد الذى خلفه وجاء لنا بطعام الإفطار وقد وصلنا بعد الإفطار بقليل ، وأكلنا بالفعل مع السائق وهى جالسة ساكتة لا تسأل وعمرو ولدى يضحك كلما فعل السائق شيئا ، ثم نام نوما هانئا وظللنا بالسيارة ثلاثة ساعات حتى جاء ركاب الرحلة الذين تم حجزهم بالمطار لأن السادة المشرفون على الجوازات بمطار جدة كانوا يتناولون طعام الإفطار ويصلون المغرب والعشاء ولم يقوموا بأعمالهم ألا بعد أن أدوا صلاة العشاء ، وعلى المصريين القادمين من القاهرة الانتظار فى بلحاء المطار ولا ماء ولا دورة مياه ولا يحزنون بل إنهم يحزنون ، وأخيرا جاء الركاب وقد انتصف الليل ومضت بنا السيارة وأنا أشرح لها الطريق الذى كثيرا ما قطعته مجيئاً وذهاباً ، وكنا ذاهبون مباشرة إلى المدينة ، حيث مقام حبيبى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهذا له حديث آخر ، فقد كانت بذهنى ذكريات فترة من فترات حياتى ، حاولت نسيانها ولكن لا فائدة ... الدكتور باندبا المتحمس لنهرو وعبد الناصر يذكرنى بها ، تداخلت الأحداث تداخلات غير منطقية وأصبحت أنا ومجموعة أخرى لا نفهم ما يدور فى منظمة الشباب التى أنشأتها من أجل رعاية الشباب فى تنظيم يضم صفوة الشباب يحققون الأمل فى مستقبل أفضل ، هكذا كانت تعاليم عبد الناصر وكنا فى غاية الحماس لتنفيذ ذلك أو على الأقل كنت أنا وكأننى أبنى مستقبل مصر ، وكانت أسماء غاندى ونهرو وتيتو وعبد الناصر مثل نجوم ساطعة فى سماء الشباب ، كان غاندى هو المثل الأعلى للشباب فى النضال الوطنى التحررى بالمشارق والمغارب وثارت الجزائر كما ثار اليمن كما ثارت عمان ودول الخليج وعرفوا أنهم

مستعمرون بهؤلاء البيض الحمر الذين يسمون بالإنجليز وكانت خطب عبد الناصر فى ذلك الوقت مثل مشاعل مضيئة فى ليل مظلم ، مهما طالت ومهما جلسنا حول المذياع بالساعات فأن لحديثه سحر يجعلنا نحن الشباب فى قوة ورجولة وعزم ، ننفض من حول المذياع بعد انتهاء الخطبة لنقود بثورية عفوية الشباب كله لكى ينتظم فى تلك المنظمة التى كنا نأمل أن تقوم بدور فعال فى محاربة الفساد والرشوة وكل أنواع الذل الذى تعرض لها الفلاح المصرى والموظف المصرى والعامل المصرى خلال سنوات طويلة وكنا نقول أنه أول حاكم من دماء مصرية يأتى بعد هؤلاء الملوك الذين حكموا مصر وقادوها إلى الظلام ، كانت هذه أحلامنا ولما وضعنى الله سبحانه وتعالى فى هذا العمل ، وقادتنى قدماى ذات يوم إلى المكان المخصص لمركز الشباب فإذا بى أقابل كمال الدين حسين عضو قيادة الثورة ووزير التربية والتعليم وكان له شخصية آسره ، قابلته فإذا به يعيننى مشرفاً عاماً على ما سمى بعد ذلك بمركز الشباب ، وقلت أن هذا المركز يجب أن يعمل على ثلاث محاور متشابكة لا تنفصل ، والإيمان بالله هو المبدأ الأساسى ، الإيمان بالله الواحد الأحد والفرد الصمد لا شريك له فى الملك ، ثانيا : الإيمان بالوطن ، ثالثا : الإيمان بالنفس والإيمان بالنفس يرتبط بالواجبات والحقوق ؛ فالشاب المواطن الصالح والمؤمن بربه والمؤمن بوطنه والمؤمن بنفسه وبالتالى مؤمن بأن عليه واجبات يجب أن ينفذها ويجب أن يكون إيجابيا ، سواء كان طالبا أو عاملا أو مزارعا أيا كان موقعة وله أيضا حقوق يجب أن تحترم ويجب أن يدافع عنها دفاعه عن واجباته ؛ هذه المحاور الثلاثة متداخلة وكأنها عهود واحدة توضع فى رقبة الشاب ؛ وكان ما كان وتكون المجلس الأعلى واستطاع كمال الدين حسين بمهارته وثقته فى مساعديه أن يجعلنا نعمل ونتجه نحو نصر تلو نصر ، فلما جاءت فكرة منظمة الشباب وبداخلها فكرة الطليعة حقيقة كنا فى أشد الحماس لها وكنت أنا أول من تحمس وأول من بنى معسكرات مستقلة وأن يجند لها كل الشباب .. الذى وثق فيه خلال عمله فى بداية عام ١٩٥٨ ولكن للأسف وأنا لا أؤرخ تاريخا للثورة أو تاريخا لمنظمة الشباب فهذا يمكن أن يقوم به غيرى ، بدأت أشعر أن هناك تداخلات فكرية لم يكن لدينا نحن الشباب اتصالات تزيد عن علاقتنا بروسيا وقيل أننا أصدقاء ولهذا كنا نستقبل دائما وفودا من روسيا ووزراء للشباب من ألمانيا الشرقية ومن الصين ومن بولندا ومن المجر كنا على صلة بهم نتبادل معهم الرحلات والزيارات ودائما وأبدا نصطدم بنظرية الدين ، لكنهم كانوا بذكاء شديد يحاولون إخفاء هذه العداوة للدين وخلال تلك الرحلات المتبادلة مع الاتحاد السوفيتى عرفت أنهم لا يؤمنون بكل ما يقال عن الثورة الاشتراكية ومحنة الطبقة العاملة ولكننى كنت أحب وطنى وأحب تلك المنظمة وأحب عملى وأحب عبد الناصر حتى أننى بكيت بكاءا شديدا عندما أعلن تنحية فى التاسع من يونيو ، وقد وقعت فى براثن زملائى فأخذوا يلفقون لى التهم وكانت المحنة التى حكيت عنها من قبل والتى انتهت بنقلى تماما إلى

إدارة الإسكان ، ذهبت إلى إدارة الإسكان هذه فى منطقة تسمى بالحوض المرصود ولأسف اكتشفت أن ذلك الاسم يطلق على منطقة كانت بها مستشفى العاهرات يذهبن إلى هناك ليأخذن الرخصة ، ذهبت إلى هناك ولا أدرى ما هذا الحوض المرصود ولماذا سمى بهذا الاسم ، قابلت عم متولى ، صالة كبيرة فسيحة بها العديد من المكاتب والدواليب والأوراق ممزقة وملقاة على الأرض فذهبت إليه ظنا منى أنه مدير هذا المكان وقدمت له ورقة تعنى أننى قد قبلت العمل بهذا المكان فنظر نحوى مستفسرا : ماذا فعلت يا بنى ؟ قلت : لا شئ ، قال لا شئ وأنهم لا يرسلون إلينا إلا موظفى الجرائم والرشاوى وما إلى ذلك وقلت له أنا لست كذلك يا عم متولى فبتسم ضاحكا وقال يا ولدى أنا مجرد موظف ضابط الوقت هنا أى مكلف بحصر الأسماء للحضور وحصر الأسماء للغياب وهذا عملى ، فتلفت حولى وقلت له وأين بقية الأخوة وقال : فى القهوة أنهم يحضرون فى الثامنة وينصرفون فى التاسعة ثم يعودون فى الواحدة ثم ينصرفون فى الواحدة والنصف ، ويجب أن تعلم هذا وتعرفه حتى تكون متضامنا مع زملائك ، أما المدير العام أسمه أيضا متولى ، ولكنه رجل خشن الطبع سيئ السمعة وسوف ينالك منه كل ما هو رذيل ، ويبدو عليك يا ولدى أنك من أسرة طيبة فمن أين أتيت ؟ هل جئت من وزارة الخارجية ؟ ، وقلت له لا والله أنا كنت أعمل فى رعاية الشباب وأعمل أيضا فى الصحافة وحرمت من هاتين الوظيفتين وجئت إلى هنا ، قال حسنا كان يجب أن تأتى فى آخر النهار حتى يحسب اليوم لك ، وأخذ يحدثنى عن أفعال هذا المتولى أو المدير العام ولو قابلت هذا المتولى فى تلك الساعة لقتلته من كثرة ما قاله أخيرا فى الواحدة بدأ الموظفون يأتون فرادى وجماعات يتحدثون عن أدوار الكوتشينة أو التسلية أو ما شابة ذلك ووقعوا وهم يتضاحكون مع عم متولى فقلت أنا الموظف الجديد ضحكوا وانصرفوا ، وتعجبت لماذا يضحكون ؟ ! فإذا بعم متولى يقول : لا تحزن يا بنى غدا تعرف كل شئ وفى اليوم التالى جئت مبكرا وأردت أن أتقرب إليهم ، ولكنهم بدءوا يتوجسون منى فلم يحاول أحدهم أن يتقرب إلى ، إلا الموظفون الذين يدينون بالدين المسيحى على اختلاف ملاتهم فقد تقربوا منى وأسروا إلى بمجموعة من الأقوال والأفعال ما كنت أعرفها على الإطلاق ولكننى فسرتها أنها مجرد عادات خاصة بالمسيحيين أجهلها أنا بالطبع ، وفجأة أكتشف زميلى أننى مسلم فإذا به يعلن الخبر وأنفض . حولى الجميع سألنى (باندبا) وأنا أحكى له حكاية تنقلى كثيرا بين عدة أعمال ، لماذا لم أحاول الدفاع عن نفسى ؟ قلت : لأننى كثيرا ما أفشل فى الدفاع عن نفسى ، فأنا دوما مستغرق فى تفكير لإجابات عن أسئلة سبق طرحها ولم أجب وقتها ، فلما عرفت إجابات الأسئلة كانوا قد مضوا ، اتهمونى بالغباء ، ولا اكتمك يا صديقى فأنا فعلا أتصف بالغباء الشديد ولا أحسن التفكير السريع ، كل شئ عندى تحول إلى خيالات لا تخصنى ، حتى أنا نفسى لا يخصنى منى شيئا ، كل شئ زائل إلا وجه الله ، فلا داعى للحكمة ولا للبلاغة ، ولا حتى للكلام

فكل شئ هباء ، أنظر أين أنا الآن ؟ وماذا أفعل ؟ أتكلم معك ، ثم أتكلم مع نفسي ، ثم أتكلم مع شخص أخر لا أدرى إذا كنت أنا هذا الشخص أم لا ، حتى أنسى المطبوع في الجريدة التي أحضرتها لى فاروق هذا الصباح ، أشعر أنه لا يخصني ، أتوق إلى شربة ماء ، أمد يدى اليسرى ، ولكن حلقى مغلق ، لا أكاد أطيق ابتلاع الماء ، أضع الكوب وأنظر إليه بحسرة ثم أغوص في عمق بحر مرسى مطروح ، الزرقة والماء البارد ، أغوص ، أغوص ، وأغوص .. وأصرخ طالبا النجدة .. ولكن لا أحد يسمعني !

الفصل الثانى عشر

من يوليو وحتى الآن وأنا قابع هنا ، تحولت الأشياء من حولى إلى خيالات ، مشرفى أخذ نصف رغيف وجعل يطوف به فى حلة الفول ، لكى يمزج الطحينة بالزيت والتوابل بالملح والفلفل وهو فى كل مرة يقلب فيها الحلة ، تفوح رائحة الفول المدمس ونزدرد لعابنا بصعوبة ، وكل لحظة يخرج يده ويلعق ما علق بها من فول أو طحينة أو زيت ثم يضرب يد أحدنا التى تسللت لكى تأخذ قرصا من الطعمية ، آمراً أن نكف عن تلك الألعاب الصبيانية ومن جيب الجاكتة أنبوبة التحاليل الطبية بها عصير الليمون استطاع أحدنا أن يفتح كيس الطعمية أمامنا فإذا بى أجد هرما من الطعمية ، الكيس الآخر به هرماً من الطماطم ثم ثالثا من المخلل بكل أشكاله وألوانه ، فلما بدأ مشرفى يبتلع فى لقمة واحدة نصف الرغيف الذى فى يده أنتبه الجميع فى لحظة واحدة وفى لهفة فإذا بهم يأكلون والأرغفة تتناقص ، نسيت أن أقول لكم أنه كان هناك جوال من الخبز ، جاء به الساعى من الفرن مباشرة وحاولت أنا أن أخذ رغيفا ونجحت فى ذلك وصلت إلى الحلة وأخذت لقمة ووضعتها فى فمى فإذا هذا الطعام الجميل ينساب فى فمى كما ينساب السكر أو العسل أو ما يشبه ذلك وأحسست براحة وسعادة غريبة وأنا أكل الفول المدمس وكأننى أكله لأول مرة فى حياتى فلما أردت أن أتلوها بثانية فإذا بالحلة بيضاء وكأنها قادمة من عند مبيض النحاس فقد كانت حلة نحاسية فى هذا الوقت ، فقلت أكل طعمية فإذا الطعمية قد انتهت وكذلك جبال المخلل وجبال الطماطم ، فنظرت إلى جوال الخبز فإذا هو راقد ساكن وكأنه ... ، ونظرت نحو مشرفى فقال أسمع لا تقل كلمة واحدة ، كان الطعام أمامك مثلنا جميعا نحن أكلنا وشبعنا ، كل منا أكل ما استطاع ، قلت : وأنا رغيفى لم آكل منه إلا لقمة فقال : وما ذنبنا نحن ؟ إذ كنت تخشى على يدك أن تتلوث وتخشى على بدلتك الأنيقة أن تتسخ ، نحن لا نخشى على ملابسنا ، فنحن جرابيع ، جاء الساعى بصفيحة ، أقصد وعاء من الصفيح يشبه صفيحة الزيت وبه شاى مغلى وأخذ يدلق الشاى فى أكواب من صفيح أيضا ثم يتجشأ ون ويتمطون وكأنهم قد أكلوا زادهم الأخيرة ووزع الأكواب ومنحنى واحدة وما كدت أتذوقها حتى أحسست أننى أخسر اللقمة التى أكلتها نظر أحدهم نحوى وقال ماذا فعلت حتى يأتوا بك إلى هنا ؟ قلت لا شئ ، ضحكوا وانبروا يقصون واحد أثر واحد ما فعله ، وكلها أفعال شائنة ، وأظهروا لى المدير العام رجلا ظالما جهولا لا يهمه إلا إفساد حياتهم ثم انصرفوا وجلست

أنا وحيدا ، لا أدرى ماذا أفعل ، بعد قليل قال متولى أن المدير العام يريد أن يراك فأسرعت إليه .. رجل أسمر الوجه ضاحك الفم قصير سمين ، كنت أكتم فى نفسى الغضب منه فإذا به يسألنى نفس السؤال ، لماذا جاءوا بك هنا ؟ لا يبتلوننى إلا بكل موظف كسول أو مرتشى أو حرامى ، ماذا فعلت أنت حتى يأتون بك إلى هذه الخرابة يا ساتر ، هذا استقبال سئ ، فاندفعت إليه وبدأت أدفع بمكتبه تجاه الحائط حتى كاد يختنق وهو يردد يا ولدى لا أقصد ، أرجوك أنت تقتلنى قلت وأنا أراه ملتصقا بالحائط محاصرا بمكتبه ، أنت فعلت كذا وكذا بفلان وأنت فعلت كذا بآخر وأنت تظن نفسك هلتر أو موسيلينى أو جانكيز خان ، أنت مجرد موظف صاح قائلا دعنى أفسر لك حتى لا يؤثرون على عقلك . وخاصة أنك عينت نائبا لى ، وقلت لا والله لن أقبل وسأقوم بأجازة من الآن قال لم تكد تتسلم العمل حتى تطلب أجازه ، قلت لكى أهرب من هنا . أنا لا أريد أن أنضم لمجموعتك توسل الرجل حتى سحبت المكتب واستطاع أن يتنفس ، وأمر بكوب من الماء له وفنجانين من القهوة ، ثم بدأ يرينى الملفات التى لديه والتى تدين هؤلاء الذين شكوا منه ، وقدموا الكثير من الأقاصيص ، حول ظلمه وأفعاله فإذا بى اكتشف أنهم بالفعل مجموعة من اللصوص والأفاقين وأزعجنى هذا الأمر وظل يؤلمنى طوال عام كامل قضيته فى هذا العمل ، لقد أطلعني على التحقيقات التى تمت وحفظها هو حتى لا يخرب بيوتهم وحتى لا يقف عثرة فى طريق مستقبلهم أملا أنهم فى يوم من الأيام سوف ينصلحون لأنهم مازالوا حديثى التخرج أو فى سن غير مدركة لما يحدث حولهم ، مكتفيا بأنه يعاملهم فى عنف ويقول أن هذا أفضل من إفساد مستقبلهم ، ثم قال أنت الآن فى أجازه حتى تكتمل راحتك وحتى يكون لديك فرصة أن تنضم إلينا وبالتأكيد ليس جميعهم كذلك فبينهم طلاب فى الجامعات شرفاء يؤدون عملهم ولكنهم لا يأتون إلى هذا المكان لأنه كما قال يرسلهم فى مهام خارج الإدارة ذاتها . هم يعملون فى التحصيل أو فى المناطق الأخرى بعيدا عن حلة الغول ، وذهبت إلى بيتى لا أدرى ماذا أفعل ؟ أنا خارج العمل ولا عمل هناك ، ولا زوجة فى الانتظار ولا رائحة طبيخ تنبهنى إلى أن الطعام قد أعد ، وجلست وحدى ، المائدة ، مائدة الطعام فى الصالة أو ما يسمى بالسفرة جلست إليها أتحدث معها ، فأنا مؤمن بأن الأشياء تتكلم ألا تسبح بحمد ربها ، ما من شئ إلا يسبح بحمده ، كانت مائدة كلاسيكية فهى فخمة ضخمة ، تذكرك بأيام السرايات والباشاوات والمقاعد مكسوة بجلد أحمر تقف فى شموخ العرش الملكى فى قصر عابدين ، جلست على واحد منها وأنا أنظر إلى زجاج المائدة وأحملق فى خيالات وجهى وانعكاسات الضوء على الزجاج البلورى ، وأفكر ماذا أفعل ، أنظر إلى ساعتى ، زوجتى لن تحضر قبل التاسعة مساء ، هل أذهب إلى بيت أمها وأكون متطفلا وأتغدى مع الأولاد ؟ هل أبقى فى البيت ؟ هل أقرأ كتابا ؟ هل أذهب لأتسول عملا فى إحدى المجلات ؟ ماذا أفعل ؟ ، كان خوائى العاطفى وخوائى الجسدى وخوائى العقلى قد تم نضجه فى تلك اللحظة وبدأت أفكار الطلاق مثلا تساورنى حتى أتزوج بسيدة أو زوجة

أراها فى البيت كل لحظـة تشاكلنى وأناكفها وتداجرنى وأشاجرها وتضاحكنى وأضحكـها ، زوجة تملأ حياتى ، الباب يدق ، أفتح فإذا بخادمه جارتنا فـى قميـص شفاف أسـود تعـرى أى شاب وكنت فى ذلك الوقت فوق العشرين بقليل ، تسألنى أن أعطيها وأبور الجاز فاستعذت بـالله وقلت لها أدخلى وخذى ما تشائين ثم عادت وكان جيرانى هم أيضا موظفون لا يأتون إلا فى ساعة متأخرة فهم يعملون معا فى مكان واحد ، فعادت ودقت الباب ففتحت لها ولم تكن أكـثر حشمة بل تعرت أكثر ، وقالت بإغراء شديد أنها تريد (الإبرة) .. تعلم أننى وحيد ، وأن مخدومتها لن تحضر الآن وأيضا زوجتى ، فقلت فى غيظ أنا فى حالة نفسـية تدفعنى بقتـل أى إنسـان يقـترب منى فإذا دقـقـت الباب مرة أخرى ستكون نهايتك فخافت البنت وكـانت دون العشـرين ولم تـدق الباب ثانية ، وجلست وحدى وأطرافى ترتعد ، فأنا بالفعل أشتاق إلى محا ضنه فتاه مثلـها وفـى عمرها ولكن كيف أفعل هذا وأنا أتقى الله وقـد سجلت مواقـف الخادمـات فـى مسـرحية ممنـوع دخـول الستات ودخلـت غرفـه مكتبـى وانشـغلت بـهوايتى وكتبـت روايتـى (ثمـار الشـوك) و (الجرار) ومسرحيتى (خضـرة الشـريفـة) و (حفله طلاق) خلال انتظـارى لنتيجـة القضيـة أمـام مجلس الدولة ، وكنت قد التحقت بعدة معاهد لكى أحصل علـى عـدة دبلومـات تؤهلنـى لمواصلـة دراستى العليا وفى المساء أذهب إلى الأوبرا الشاهدة عرضاً مسرحياً أو أزور معرضا فنيـا أو أقـابل أصدقائى من الفنانين والأدباء فى جمعية الأدباء أو نادى القصة ، وكنـت وقتـها شـرها للغايـة ، شرها لكل ما يزيدنى ثقافة حتى ولو كان حفل زار ، عـدت بعـد أن انتـهت أجـازتى الإجباريـة فإذا بالمدير العام يأخذنى بصحبته لكى يدربنى على العمل باعتبارى نائبا له ، ذهبت معـه فـإذا به يعامل سكان بلوكات عين الصيرة بنفس العنف الذى يعـامل بـه موظفـى الإدارة ، فـهو يطـرد السكان ، يدخل المسكن ويطـالب بالإيجـار فـإذا لم يدفـع أو تدفـع السـيدة المسـكينة يـأمر أفـراد عساكره بقذف العفش القليل الباهت اللون القديم من النافذة وعادة تكون من نوافـذ الـدور الرابـع أو الخامس فى بلوكات عفنة خشنه لا لون لها ، رائحتها عطنه ، تشمها من بُعد وضاقت نفسـى وتحملت ما فوقها وازداد غضبى عندما قـال : هكذا يكون العمـل ، قلـت : وكيـف يكـون ؟ لقـد دخلت على سيدة ، فى حالة ولادة ثم نهرتها وقذفت بعفشها من نافذة الدور الخـامس ، قـال : وماذا فعلت السيدة ؟ قلت : دفعت الإيجار ولكن هذه يا أخى مذلـة ، فقـال : انظـر كـم جمعـت اليوم ، شعرت أن هـناك تداخلات مثلما حـدث فى منظمـة الشباب ، أن تفـهم مـالا تفـهم وأن تفهم مالا يجب فهمه ، وأن تكون أنت العروس يحرك خيوطها شخص أخر لا تـراه ، وتتشـابك الخيوط حتى تكاد تخنقك وتدور فيها لا تدرى هل تخلص نفسك مـن الخيـوط أم تبقـى بداخلـها حتى تموت ، عدت إلى بيتى حزينا ، دقت الفتاة الخادمة بابى فى ذلك اليوم وخرجت ووجدتها فإذا بى أصيح بها صيحة جعلتها تخرج من بيت مخدومتها ولا تعد ، وعدت إلى سـريرى وأنـا غاضب من نفسى ، وغاضب من هؤلاء الذين نزعونى من ميدانى وقذفوا بى إلى هذا العمل الـذى لا

يمكن أن يوصف إلا بأنه جباية الأموال ولا فرق بين الجابى فى العصر المملوكى والعثمانى وبين جابى هذا الزمن الذى نعيش فيه ، فكيف يحدث هذا فى زمن جمال عبد الناصر ، فى زمن الاشتراكية ، أية اشتراكية يتحدثون عنها ، وهم يقذفون بمتاع بيت فقير لعامل لا يملك قوت يومه ، ولا يستطيع تسديد إيجاره الذى يصل إلى جنيهين فقط فى الشهر الواحد فيتراكم عليه الإيجار سنة أو بضع سنين ليأتون إليه يفترسونه ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وعندما عدت فى الصباح لم أشترك معهم فى طبلية الإفطار هذه أو حلة الإفطار الفولية كنت أخرج وحدى لأتناول إفطار محدودا فى أحد مطاعم السيدة ، وأعود وقد بدأت أفكر ماذا أفكر ماذا أفعل ، فى اليوم الثالث كلفنى المدير العام أن أذهب إلى منطقة عين الصيرة وذهبت ، بعد عدة زيارات ، اكتشفت أن تلك المنطقة بها ألف غفير يحرسون المساكن والمفروض أنهم حراس لهذه المساكن ، واكتشفت أنهم يؤجرون الشقق الخالية من الباطن ويحصلون على مبالغ عالية ويحصلون على سكوك الإيجارات للسكن ، ويسلموها إلى من يدفع لهم والأمر الأخطر أننى اكتشفت أنهم يعملون جميعا ضمن عصابة ترأسها سيدة ، تدعى (سكر) هذه السيدة تعمل فى جميع المجالات .. المخدرات وبيع الشقق والدعارة وبيع الذمم تفعل كل شئ فى سبيل المال أنثى جميلة لا يزيد عمرها عن الخامسة والعشرين بهية الطلعة فى ميوعة تزيد الفتاة جمالا على جمال ، بدأت أجمع كل المعلومات التى أريدها فاكتشفت أننى فى مستنقع لبيع المخدرات والدعارة وبيع الشقق وتأجيرها لراغبى اللذة بالساعات أو بالليلة الواحدة وأن هذا يحدث علنا ، أمام كافة السكان الذين لا يستطيعون لتلك العصابة ورئيسها أى شئ ثم أنهم لا يملكون شجاعة المواجهة وفى أحد الأيام كنت جالسا فى مكتب المدير ، دخلت (سكر) وحملقت فى وجهى وقالت : ماذا تريد ؟ وأن كنت تريد مالا أعطيتك وإذا كنت تهوى النساء جلبت لك كل ليلة امرأة أجمل من الأخرى ، وإذا كنت تريد جواهر أو ذهب أو غير ذلك فأنا تحت أمرك سوف أعطيك ما تريده ، كان محمدين لا يزال يرتشف القهوة وعيناه الخضروان تبرقان نحوى ونحوها ، وكأنه يترقب رد فعلى ، كان طالبا بالأزهر الشريف ، فناديت على (الصول) الذى يقوم بحراستى التى تصاحبنى ، أما هى فقد جلست فى اطمئنان حضر الصول وخلفه معاونه ، فوقفا بجوار الحائط وأمرت الشيخ محمدين ، وآسف لكلمة الشيخ لأننى تعودت أن أطلق عليه هذا وهو الآن يعمل أستاذا بجامعة الأزهر ، زاده الله تمكينا ، ورحم الله (عزيزا) الذى كان ثالثنا فى تلك المجموعة التى كانت تعمل فى الإسكان فى ذلك الوقت ، وكان من الأطهار رحمة الله ، أمرت محمدين أن يغلق الباب وقلت لها : ماذا تريدين أنتى يا ست سكر ؟ قالت : أنت تعرف بالتأكيد ماذا أعمل ، قلت نعم قالت : وهل تريد أن تمنعنى ؟ قلت : نعم ، قالت : إذن تريد أن تموت وأخرجت من جيبها مطواة قرن الغزال ، وأمسكت بها متهيأة لقتلى ، قالت : وهل من المعقول أن تقومى بقتلى أمام الشهود ، فقالت : أنا لا يهمنى سأقتلك وكل هؤلاء يأخذون منى مالا فكيف يشهدون

ضدى ؟ لو ظللت هنا سوف أخسر كل شئ أقسم بالله أننى سأقتلك في الحال إلا أن تتراجع وتتركنى أفعل ما أشاء ، رفعت سماعة التليفون ، فقالت : ماذا تفعل ؟ قلت : أطلب النيابة فإذا كان من حقك قتلى فمن حقى أيضا أن أخبر النيابة فقالت : حتى تتأكد من نيتى تماما سأقتلك أمام وكيل النيابة ، قالتها بتحد فاجر وبقوة جعلتنى أهتز قليلا من الداخل فلكيف يكون لهذه السيدة هذه الجرأة الرهيبة فى زمن نحارب فيه الظلم والطغيان بعد أن حاربنا الإقطاع ورأس المال إلى أخر تلك المصطلحات التى سمعناها من الزعيم عبد الناصر ، كيف يحدث هذا فى عهده ؟ ، رفعت السماعة وقلت لوكيل النيابة لو أن لم تحضر خلال عشر دقائق أكون قد قُتلت فى مكتبى وأمام عساكر الشرطة ، فقالت : أن تتحدانى ولن أراجع ، أقسم بالله لأقتلك أمام هذا الوكيل ، فإذا بجرس التليفون يدق مرة أخرى بوكيل النيابة يطلبنى بإبلاغ الشرطة أولا السكينة تقترب من رقبتى ، قلت : أن لم تحضر سأكون من الميتين ومرت لحظات رهيبة وأنا أدعو الله أن ينجينى من شر تلك السيدة التى راحت تدور حولى رافعة السكين وقد أزداد احمرار وجهها السكين فى قبضه يدها . الأربعة الذين يقفون بجدار الحائط قد تسمروا تماما ولو قتلتنى فى تلك اللحظة وخرجت فإن هؤلاء الأربعة أنقذنى دخول مأمور القسم وبعض الضباط ووجدوا السيدة فى حالة هياج شديد ومعها المطواة ، قام مأمور القسم بالإمساك بها فارغت وأزبدت وأقسمت على قتلى بالفعل ، وتوعدتهم جميعا بالويل ، وسخرت من الجميع حتى اعتقدت أنها الأقوى فعلاً ، كان وكيل النيابة الذى حضر لتوه فأمر بالقبض عليها وأمر كاتبه أن يكتب نص شكواى وراح يمطرها بأسئلته وهى لا تريد أن تجيب إنما أجابت فى ثورة سوف أقتله أمامك ، حاولت التخلص منهم ، سقط من جيبها قطعة مخدرات وصاح المأمور أخيراً وقعت يا سكر ، وكأنها قد سقطت من عالق ارتمت باكية مولولة مقسمة على أنها كانت تفعل هذا من باب التهويش وأن هذه المخدرات لا تخصها فقام المأمور بتفتيشها فإذا به يجد قطعا أخرى كانت قد أخفتها فى جسدها وكأنها عربه محملة بالمخدرات ، وسقطت عصابة سكر وفرح الناس فرحا شديدا حتى أن بائع الطيور أرسل إلى ديكاً رومياً هدية لأنى خلصتهم من تلك السيدة التى كانت تفرض إتاوات على كل المحلات ولكنى ذهبت إلى محله وأجبرته على أن يأخذ ثمنه وأخذت الديك الرومى وعدت به إلى البيت وذقت طعم الديك الرومى لأول مرة ، فى اليوم التالى أصدر المحافظ قرار بإلغاء الحراسة على المساكن ، كان هذا العمل كافيا لكى أكون بطلا من وجهة نظر سكان عين الصيرة وبطلا من وجهة نظر إدارة الإسكان كلها بل والمحافظة بكامل عددها وعُدتها لأنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا ما فعلته ، كان هذا حافزا لكى أعمل فى إدارة الإسكان وأن أزور كل المناطق وأحاول أن أطهرها من ذلك السلوك الذى تفشى فى الفترة التى سبقت حرب يونية ، وقد ساد فساد اجتماعى عنيف بدأ مثل الطاعون الذى يسرى فى المجتمع ويجعله هشا من الداخل وأن كان فى ظاهرة قويا ، فلما انقضت الطائرات فى الخامس من يونيو كان البناء الهش مستعدا للسقوط

وكان البناء العسكرى والنقابى وكل الأنظمة التى كنا نتشدق بها وأصبحت مثل الحبال الدلاة من غير عقول تحملها انهارت الحبال وعرف الشعب أنه قد تعرى حتى من ملابسه الداخلية ، كنت أحس بهذا منذ عام ١٩٦٣ ، أشعر به وأراه فى كل لحظه أنتقل بين إدارات المساكن التى شملت كافة أنحاء القاهرة الكبرى من آخر شبرا وحتى آخر حلوان ، كنت أرى ظلما واضحا ورشوة سيطرة ومستترة وظاهرة أيضا ولا أحد يتحرك ، أشياء متداخلة تبدو وكأنها نمل أبيض اندس ينخر فى الداخل ، يدور عقلى ، تفر أوراق عمرى أمامى ، لا أدرى أى صفحة يمكن للإنسان أن يتذكرها ويدرسها ويصرخ ملتاعا وهو ساق إلى الحروب ، ماذا يعمل الفتى عندما يجد نفسه فى بؤرة الأحداث وهو لا يزال فى العشرين من عمره ، كنت غارقا إلى أذنى فى العمل برعاية الشباب وشاقنى العمل لكى أكون قريبا جدا من زعيم البلاد فى ذلك الوقت وقائد ثورتها جمال عبد الناصر ، وكنت قريبا وملاصقا للعمل مع أعضاء مجلس قيادات الثورة ، فقد كان المجلس الأعلى يتشكل من مجموعة من الوزراء فتعاملت مثلا مع كمال الدين حسين مباشرة وكان رئيسى المباشر ومنه أعتمد قراراتى التى أتخذها ليلا وأنفذها فى صباح اليوم التالى دون تأخير ، وكنت أتعامل مثلا مع عبد اللطيف البغدادى والذى كان عضوا مهما فى المجلس وكان يحضر بانتظام إلى المجلس وفى أحد الأيام جلس إلى مكتبى وكنت قد أعددت مجموعة البرامج ذات الأهداف القومية ووضعتها على مكتبى لكى أخذ موافقة بالاعتماد المالى .

فإذا بعبد اللطيف البغدادى وهو جالس إلى مكتبى يأخذ هذه الأوراق ويبدو وأنه كان مشغولا بأمر هام جدا فلم ينتبه وراح يشخبط عليها بخطوط مشوشه ولما دخلت ورأيت الأوراق التى أخذت من عمرى ثلاث ليال وأنا أعمل فيها فإذا بها لا تصلح لشئ ، بالطبع كان هناك خلاف فى مجلس قيادة الثورة كان ينعكس علينا نحن قادة العمل التنفيذى وكنت أحاول فقط أن أكسب الموافقة على إقامة مشروعات للشباب ، وميادين عمل ومناطق تصلح للمعسكرات سواء على الشاطئ أو داخل البلاد فى أن نقيم العديد من مراكز الشباب فى معظم مدن الجمهورية وكان هناك فقط فريق للأهلى وفريق للزمالك يتعاركان ورأيت ذات مرة أحمد عبود باشا وهو يغوص فى الوحل لكى يرى فريقه فريق الأهلى وهو يتدرب بجوارنا ، قام الأطباء بالفحص ووضعوا مقياساً لقياس عمق الجرح الغائر فى صدرى وقال لى الدكتور يعقوب : أن الوقت لا يزال طويلاً حتى يمكن التخلص من التسمم الذى حدث وأشار إلى ابنتى أن تخرج ولكنها رفضت فقال ما معناه : لا أمل ، وتركنا وانصرف ونعود إلى قصتنا حول عبد اللطيف البغدادى الذى جلس إلى مكتبى وراح (يشخبط) فى الأوراق ، فوقفت ثائراً وأسرع نحوى أحد الزملاء الذين يعملون معى فى المجلس ليقول لى أنه سيادة عبد اللطيف البغدادى عضو مجلس قيادة الثورة ، ووزير البلديات وقلت أنا لا يهمنى من هو ، أنا يهمنى عملى ، فإذا بالرجل يقف ويعتذر بأدب شديد

وأنه يأسف لهذا ومعى كل الحق فى ثورتى ، وذهبنا جميعاً إلى الدور الثانى حيث ينعقد المجلس وبدأت فى تقديم مقترحاتى والتى وافق عليها المجلس بإجماع الآراء ثم أخذنى كمال الدين وهمس فى أذنى كيف فعلت هذا ؟ ألا تدرى أنه عبد اللطيف البغدادى فنظرت إليه فى محاولة أن أكون طبيعيا وقلت من ؟ ، قال ألا تعرفه ؟، ثم ابتسم ضاحكاً وقال أنت لا تعرف الكذب فلماذا تكذب الآن ؟ إن الرجل قد سامحك وأعترف هو بخطأه وأمر بصرف مائه جنيه مكافأة بالتأكيد كانت المكافآت التى أحصل عليها من المجلس كانت متعددة وكانوا دائما يتصورون أننى أفعل مالا يفعله الآخرون . ولهذا لم يكونوا على خلاف على أننى قائد متميز وخاصة أن سنوات عمرى تعطينى الحق فى أن أمثل الشباب وقد حاولت خلال تلك الفترة التى عملت فيها فى ميدان الشباب أن أقدم كل خبرتى وكل ما أحصل عليه من علوم دون أن أكتب اسمى ودون أن يكون لى إلا أجرى وتلك المكافأة، وفى نفس الوقت يلتف حولى من يتفنن فى أن يحصل منى على أموال بحجة أو بغيرها وكنت أعرف أنهم يزيفون الحكايات ويخترعون مواقف تمثيلية لكى يحصلون منى على ثمن غدوة أو عشوة أو أكلة ، وكنت أنا أيضا أتظاهر بعدم الفهم ، كنت دائما مشغولا بعملى فلم يكن يهمنى مثل تلك التفاهات ، وخاصة وأننى كنت أعيش فى بحبوحة ، وفى نفس الوقت كنت أدرس وأتعلم وأذهب إلى الجامعة وأحاضر وأعلم الطلاب ، كنت أشغل وقتى كله وذلك قبل زواجى وحتى بعد زواجى كان عندى حرية كاملة فى أن أعمل وأدرس وأذهب إلى أماكن شتى ساعات الليل وساعات النهار ، وكانت أول بعثه لى إلى روما حيث سافرت إلى هناك وكانت تجربه فى بدايتها قاسية،لأننى كنت صغير السن وكانت رحلتى من أوروبا تكاد تكون عاصفة،وما كدت أضع قدمى فى نابولى حتى هاجمنى اللصوص، وكادوا يفتكون بى لولا بعض شجاعة تصورت أنها لى وصرخت فيهم فإذا بهم ينفضون من حولى وكان هذا الأمر مثيراً وغريباً وجعلنى أكثر شجاعة بعد ذلك فلم انزلق إلى الخطايا ، ولم تنزلق قدمى إلى تلك المزالق التى يقع فيها الشباب عندما يحضر إلى بلدة مثل نابولى ، بدأت عندما ذهبنا إلى إدارة الجوازات وكان هناك ما يسمى بتأشيرة الخروج أنك يجب أن تحصل على تأشيرتين ، تأشيرة تسمى الخروج أى يسمح لك بمغادرة البلد ، ولكى تحصل عليها لابد من مراجعة كشوفات كثيرة وسجلات ضخمة حتى لا يكون اسمك من ضمن الممنوعين من السفر وهم كثير، فإذا حصلت عليها تذهب إلى القنصلية لتحصل على تأشيرة دخول البلد الآخر ، وذهبت إلى مكتب الجوازات أشاروا إلى طوابير طويلة ملتوية ولا نهاية لها وكان وقتى ضيق للغاية ، فسفرى قد تحدد وأوراقى لم تستكمل بعد ، كما أن عملى أن يشغل كثيراً من وقتى ، ودراستى بالجامعة كانت تشغل الباقى وأفكارى الخاصة وخيالاتى تسرق بقية اليوم ، فذهبت إلى أول الطابور لأرى أين ينتهى ، فإذا به ينتهى بمكتب أحد الضباط ، وقد كتب على لافته المكتب اسم الضابط وأمامه آلاف الجوازات وبدون تفكير أو روية أخذت أصيح فى الناس أن يقفوا فى الطابور ويعتدلوا

بنظام وأنا أردد لماذا يسافرون ويتركون البلد خرابا ويأخذون عمله صعبة ومثل هذه الكلمات التى كنا نتعلمها من الزعيم فارتبك الناس حولى فأخذت مجموعـة مـن الجـوازات ووضعتـها مفتوحـة على الصفحة التى يجب أن يختمها الضابط ، كل هذا حدث فـى دقـائق معـدودة ، ولا أدرى لماذا فعلت هذا ؟ ثم وضعـت جـواز سـفرى أسـفل الجـواز الأول ليختـم بعـده ، ثـم رفعـت السـماعة وتظاهرت أننى أتكلم بالتليفون وناديت الشرطى الذى يحرس المكتب وقلـت لـه أيـن المقـدم فـلان استدعيه فورا فهناك مكالمة مهمة من رؤسـائه وأسـرع الجـاويش إلى حيث كـان السـيد المقـدم أو سعادة الباشا المقدم ، ذلك لأنهم بعد أن جلسوا على كرسى السلطة أصبحوا هم الباشوات ، وكـان من الصعب أن تقول لفلان هذا يا سيد ، لابد أن تلقبهم بألقاب حضرة سعادة المقدم مهرولا وهـو لا يدرى شيئا وأنا أوجه الناس وأقول كلاما من تلك العبارات الرنانـة التـى كنـا نسـتخدمها فـى ذلك الوقت جاء الضابط مهرولا فصرخت فيه ، أنت تضيع وقت الشـعب ، فـإذا بـه يجلـس علـى المكتب ويسرع بوضع خاتمه على الجوازات التى أمامه ، بسرعة هائلة دون النظـر إلى الأشـخاص وصورهم ولا إلى أسمائهم ، ودون مراجعة السجلات ، كان مرتبكا وأنـا أردد للنـاس أن هـذا ضـد الثورة تبذير وأن هذا يجعل مصرنا الحبيبة تئن تحت وطأة العملة الصعبة ،التى يتحـكم فيـها الأعداء الرأسماليون ، فلما ختم جوازى سحبته بسـرعة وأنـا أردد تلـك العبـارات حتـى وجـدت نفسى خارج المجتمع كله هذا فى خمس دقائق ، ولكن لو أننى فكرت فيه ما فعلته ولو أعيد هذا الموقف مرة أخرى لأنكرت نفسى ولم تكن بى شجاعة لأفعلها ثانية فلمـا كنـت واقفـا أفكـر فيمـا أفعل بعد ذلك وقد أربكنى الحدث أخذ منى كل قوتى وكل طاقة عقلـى وجـدت اثنـين مـن الذيـن كانوا فى الطابور يسألانى بأدب ، سـعادتك رايـح فـين عشـان نوصلـك ؟ فقلت بـلا رويـة نـادى الجزيرة ، وركبت معهما وأنا أفكر فى عاقبة هذا الأمر ولكن ها هو جواز سفرى فى جيبى وقـد حصلت على التأشيرة ، يكفى فقط أن أرسـله مـع أحـد الأشـخاص إلى القنصليـة الإيطاليـة وكنـت أعرف هناك الشاعر مصطفى عبد الله وله علاقة طيبه بالإيطاليين ووصلت إلى باب النـادى ووقفـت السيارة فحييتهما تحية مقتضبة ودخلت ، لكن لم ينتهِ الحادث عنـد هـذا الحـد ، فقـد سـافرنا جميعا على الباخرة سورية وهى باخرة صغيرة ، إلى حد كبير ، وركبنا الباخرة من الإسكندرية وكان علينا أن نقضى حوالى خمسـة أيام حتى نصل إلى مينـاء نـابولى ، ذلـك لأن السـفينة تمشـى وكأنها لا تمشى ، فلما ركبنا وجدت أن الركاب يتحاشون الجلوس معى وإذا دخلت إلى منطقة ما مثل غرف الصالونات أو المطاعم ينصرف عنى الناس جميعا ولا يتحدث إلى أحد وأصعد إلى ظـهر الباخرة لأستمع إلى أغانى أم كلثوم وأيامـها تعلمت كـثرة التدخـين فقـد كنـت أمـل الوحـدة ولا أطيقها ، فإذا ما جلست إلى أحدهم محاولا التعـرف عليـه ينصـرف بسـرعة ، ولا يحدثنـى ولم أفهم معنى هذا النفور طوال الرحلة عندمـا اذهـب إلى البوفيـه وأطلـب شيئا يسـتجاب لى فـورا وكانوا يصرفون لنا على الباخرة حلويات وسجائر وأشياء جميلة جدا بأسعار تكاد تكـون رمزيـة

فكانت علبه السجائر بأربعة قروش وعلبة الحلوى بأربعة قروش وكيلو البنبونى بعشرة قروش فكنت أشترى وأشترى أشياء كثيرة وأضعها فى الحقيبة وأنا مسافر فى بعثة لا أدرى هل أستطيع أن أوفق أو أعود خائباً وفى كل مرة أذهب إلى البوفيه يناولنى الرجل (باكو) كامل من علب السجائر ، كل هذا بأربعين قرشا اتضح بعد ذلك أن هذه (الأروصة) تباع فى إيطاليا بما يوزاى ثلاثة جنيهات إسترلينية ، كنت أحصل على ما أريد دون مناقشة من البائع ، بينما جارى إذا سأله علبه يقول له هل معك كابون ؟ هل صرفت اليوم علبة ؟ فكل يوم لك علبة واحدة فأقول له كيف تمنعه أن يشترى إلا بكابون وأنا لم أعطيك كابونا ؟ ، وطلبت منك علبة وأعطيتنى عشرة فلماذا تفعل معى هذا وتمنع عن زميلى ؟ فيتكهرب الجو ويرتبك البائع ويعطيه ما يطلب ، حتى أن بعض الركاب يقفون على مبعدة وإذا اقتربت من شباك البوفيه ينقضون على البوفيه لكى يسألونه طلباتهم أمامى فيعطهم ما يشاءون ويغلقون البوفيه حتى أنصرف ولاحظت هذا وعدة مرات فكنت أطيل الوقوف أمام شباك البوفيه حتى يحصل أكبر عدد من الناس على طلباتهم وأنا لا أدرى لماذا يخاف منى هذا البائع خوفاً شديداً ، وكان من العادة أن يدعوا القبطان إلى برج المراقبة أو غرفه القيادة ، مجموعات من الركاب لاحظت أنه دعى كل المجموعات إلا أنا ، فى أحد الأيام جاءنى طلاب الكلية الذين يتدربون على قيادة البواخر ، وجاءونى على سطح الباخرة حيث كنت أجلس وحيداً أستمع لأم كلثوم وهى تغنى للحب وأظل أبكى لأننى كنت متزوجا حدثيا أتذكرها وأبكى مع أغانى أم كلثوم أخذ يشكون من القبطان وأنا لا أردى لماذا يشتكون إلىّ أنا ويحكون عن سرقات حدثت وفواتير تزور وأشياء من الممكن أن تضع القبطان تحت طائلة القانون كما أنه يعاملهم معاملة قاسيه ، بعد أن سمعت هذا غضبت ولكن ماذا أفعل أنا مجرد راكب ، ليس لى أى سلطان ولم أجد مفرا أن اهدأ من روعهم ليكونوا صابرين حتى يأذن الله بالحل وانصرفوا شاكرين جلست وحيدا أفكر وفى اليوم التالى جاء ضابط كان قد أحيل إلى الاستدعاء وجلس بجوارى وقال أنا اتحدى من يلاعبنى الشطرنج ، فإذا فاز على سأقدم له مكافأة وبالفعل تقدم إليه مجموعة من الشباب ولعبوا معه وغالبهم واحدا أثر واحد ، فانفعلت أنا ودعيته أن ينازلنى وأن يكون هذا النزال أمام بقية الركاب ، فقال فى ثورة حتى الشطرنج ، لا تريدنا أن نلعبه ؟ ، فقلت يا رجل أنا أريد أن تلاعبنى فإذا غلبتك لا أريد شيئاً وإذا غلبتنى أدفع لك المكافأة التى تحددها ، وبالفعل تحدانى الرجل فى غلظة وكأنه يقول للناس انظروا سأنتك بهذا الذى تظنونه مركز قوة ولم أفهم ما يعنيه الرجل وقتها ، ساعات ، وانتهى التحدى بهزيمته وانتصارى وقال الرجل ، آه لهذا اختاروك أنت بالذات فأنت شاب ذكى ، لم أفهم أيضا وقدم لى تذكارا بهذه المناسبة اعترافا منه بالهزيمة وسعدت بالتذكار ، واحتفظت به إلى الآن ، وعندما دخلنا نابولى أنذرنا القبطان بأن بهذه مدينة لصوص وإننا يجب أن نكون فى حرص بالغ ونحن نهبط إلى الميناء ، وبالفعل عندما دخلت غرفتى لكى أحمل حقيبتى إلى الخارج إذ بى أجد

مجموعة من البلطجية يحيطون بى ويطالبوننى بما أحمله من نقود ؛ وسجائر وأحاطونى وفى أيديهم أشياء تشبه المطاوى ويحملون أشياء أخرى لم التفت إليها ساعتها ، ولقد اربكنى الخوف ففزعت فزعاً شديداً وصحت صيحة خوف ، ذكرتنى بما فعلته عندما كنت صغير السن أذهب إلى مسجد بلدتنا قبيل الفجر وذات ليلة فى إحدى الحوارى المظلمة وحولى مجموعة من الكلاب التى تبرق عيونها فى شراسة وتلفت حولى فإذا بحلقة الكلاب تضيق وهم يصدرون صوتا فحيحاً صحت فى فزع ، فإذا بتلك الكلاب تنفض من حولى ذكرنى هذا الحادث بمجرمى نابولى الذين انفضوا من حولى كالكلاب وحملت حقيبتى بسرعة وذهبت إلى سلم السفينة وهبطت إلى الميناء وأنا أكاد أرتعش خوفا وقلت لنفسى سأركب القطار وأتوجه فورا إلى روما ، مباشرة ولا داعى للبقاء فى نابولى مع أن البرنامج أن أظل ثلاثة أيام بها ، لكى أشاهد معالمها ثم ألحق بالمعهد التابع للأمم المتحدة فى موعد معين وكان معى زميل مصرى لم أره على الباخرة ، فأقترب وعرفنى بنفسه فقلت يا أخى أنت تركب نفس الباخرة وتتجه نفس الاتجاه فلماذا لم نتقابل ؟ قال : هو أنا مجنون عشان أقابلك على الباخرة ؟ الآن نحن فى بلد حر وديمقراطى وبعيد عن مصر فهل تشى بى لدى المخابرات ، فقلت فى دهشة ماذا تقول ، قال ألا تعمل فى جهاز المخابرات الخاصة بالرئيس ؟ قلت أنا مجرد موظف برعاية الشباب ولا أملك أية سلطة ، فحكى لى قصة الواقعة التى حدثت بالجوازات والتى نقلها الراكبان ، وحذروا الجميع من التعامل لأننى مرسل لمراقبة المصرين فى الخارج ، وكنا فى ذلك الزمن الذى يمكن أن يشى الأخ بأخيه ، والأم بابنها وبزوجها ولا أحد يتورع أن يفعل ذلك فى سبيل مصلحته الشخصية ، وللأسف الشديد كان هذا واقعا نعيشه وأقسمت أننى لست كذلك وأن هذه الواقعة مجرد حيلة لكى أحصل على التأشيرة فعلتها من باب العفوية التى تصدر من شاب أحمق وضحك وضحكنا ، وبدأنا نتعرف على مدينة نابولى بعد أن سكنا فى أحد الفنادق الصغيرة عند سيدة كانت تحذرنا من استخدام المياه وندفع فى مقابل دخولنا دورة المياه ما يقرب من مائتى ليرة أى عشرين قرشا فإذا استعملنا الدش دفعنا خمسمائة ليرة ،أى خمسين قرشاً ، وانطلقنا إلى الشوارع نتسكع طوال الأيام الثلاثة الباقيات على دخول المعهد ، وفى إحدى الليالى جاءت لنا امرأة وقالت بالإيطالية كلاما كثيراً وكان الموقف بالنسبة لنا موقفا عصبيا ، ثم أشارت وتفوهت بعدة ألفاظ جنسية صارخة ، فضحك زميلى وأخذ يساومها حتى وصلت المساومة إلى أجر حمام عند تلك السيدة التى تسكن عندها فاصطحبنى وأنا متردد وهو يشجعنى على ان نفعل هذا مرة واحدة لنجرب ، فدخلنا أحد الفنادق المخصص للدعارة والسيدات يدخلن خلفهن الرجال وما تكاد السيدة تدخل الفندق حتى تخلع ملابسها ، وكانت النساء فى ذلك الوقت يرتدين ما يسمى بالشوال ، فستانا لا رأس له ولا قدم ، انه جوال مثل جوال السكر والدقيق فتخلعه بسرعة وتسير عارية وخلفها الرجل لاهثا مثل الكلب حتى يدخل خلفها ليخرج بعد دقائق دخلى زميلى خلف إحدى الفتيات وانتظرت أنا ومعى البطاقات

والأموال ولكن ما كدت أجلس وأرى هذا المنظر حتى أفرغت ما فى جوفى وخرجت ولم يذهب القيئ عنى إلا بعد أن وجدت نفسى أشم رائحة الشارع ، ويصدمنى البرد ووقفت متأففا حتى جاء صديقى بعد برهة قصيرة وهو يصيح كيف تفعل بى هذا ؟ كيف تتركنى وحدى وتأخذ أوراقى وأموالى ؟ قلت أنا لم أطق البقاء حتى تفرغ أننى مريض للغاية ، وسوف أظل فى البيت حتى يحين موعد الرحيل ، وبالفعل كانت تلك الحادثة وكأنها انذار لى فلم أفعل الفاحشة طوال فترة إقامتى فى أوروبا .

وطوال ترحالى فى بلداتها التى تعددت بعد ذلك وكثرت ، وتنقلت من إيطاليا رومانيا إلى أسبانيا إلى كل ربوع أوروبا فى فترات متقاربة أو متعاقبة أو متباعدة ، وذهبت إلى روما وتفرغنا للدرس ولكن ما أسعدنى عندما كنا نخرج فى رحلات نحددها مع بقيه الأصدقاء من باكستان والهند وجنوب أفريقيا ولأن المعهد كان يضم من كل بلد فرد أو اثنين وكنت أتباهى بأننى مصرى ، دارت الأيام ، مع برنامج المعهد الذى أعد لنا دراسة فى القادة ، كنت أخرج مع زملائى فى رحلات نزور بلدان أوروبا بقروش قليلة ، وقد كانت مصروفات البعثة قليلة ، نحاول أنا وزميلى الادخار ولكى ندفع الاشتراك فى الرحلات التوالية كل أسبوع إلى بلد من بلاد أوروبا وفى نفس الوقت يجب أن نظهر بمظهر جيد حتى لا يسخر منا الوفد الإسرائيلى المكون من ثلاثة يبذرون وينفقون كما يشاءون وكان المعهد ، مقام باستاد روما حيث الملاعب وحيث المدرجات وحيث قاعات فسيحة فكنا نستغل كل شئ لكى نقيم يوما لمصر كل شهر ، وكان يوما مشهودا نصنع فيه الفول والبصارة ونرقص ونغنى ونقيم الحفلات ونكسب وقد حصلنا على ست جوائز تقريبا من ذلك المعهد ، قدمها لنا سكرتير عام الأمم المتحدة فى ذلك الوقت ، أفادتنى الرحلة الأولى إلى أوروبا لأننى رأيت الأندلس وبكيت كثيرا على مجد زال وأن ظلت آثاره باقية خالدة ، وقابلنا فى إحدي الرحلات أستاذا كان يعيش فى بولاق وحدثنا عن مصر وبكى عندما تذكر مصر وكان متأثرا جدا لأنهم استغنوا عنه فى العمل بمصر .. وكل أمنية أن يعود مرة أخرى .. واصطحبنا إلى بيته وأقام لنا حفل شاى سعدنا به كثيرا .. وأن عكرة غضبه الشديد من ثورة العسكر فى مصر .. أيامها لم يكن الشباب فى أوروبا يعرف كلمه (مصر) ولكنهم كانوا يسعدون عندما نقول أننا من بعد (ناصر) فيهتفون بالإيطالية يعيش ناصر ...!

أدارت ابنتى مفتاح التلفزيون وكانت البنات يرقصن وشعورهم مرسلة تتماوج وترقص ، والمغنى الخليجى صوته جميل ، وأن لم أفهم كلماته راقبت شعور البنات ، الشعر أسود فاحم ثقيل طويل ، وبشرة الوجه سمراء تذكرك ببطلات الأفلام الهندية بل أن (الرتم) يقترب إلى اللحن الهندى ، اختفت الفتيات وظهر مطرب ضخم الجثة وصوته ناعم يغنى لمحبوبته التى أذاقته فنون الهجر واللوع والسهاد ، ثم ظهرت فتاة صغيره وهى تمسك قرصا وتسحبه نحو

الشاطئ جرى خلفها المطرب الضخم وهو لا يزال يغنى عن لوعة الفـراق ضحكت لأن هذه الفتـاة التى لا يقترب عمرها من الرابعة عشرة تصيب هذا (الفحـل) الحـيرة والألم ، وهـو يغنـى وهـى تداعب فرسها الذى تغوص قدماه فى ماء الخليج ، قلت هذا هو الحال ، فتـاه فـى عمـر الأحـلام تصيب رجلا فحلا فى مقتل ، دخلت (جولييت) وهى عراقية الأصل تعمل فى حسابات المستشفى لا تزال تحمل سمات الأنثى وأن تعدت الخمسين ، قالت فى دلال أنثوى : ما رأيك فى ثوبـى ، حاولت أن أرفع رأسى متأملا ، وقلت فى نفاق ، يا الله .. ياله من ثوب جميل ، لابد أنه مرتفـع الثمن وأعتقد أنه كلفك الكثير ، ضحكت فى ميوعة وقالت بل عدة جنيهات فقط ، اشـتريته منـذ أعوام من أحد الباعة بالأسواق الأسبوعية ، الأسواق الأسبوعية تقام فى شوارع ضواحـى لنـدن ، لكل حى أو منطقة يوما فى الأسبوع ، حيث يباع كل شئ بداية من الملابـس الفـاخرة إلى الأطعمـة وبأسعار زهيدة للغاية ، فقط عليك أن تدقق أنه سوق الكانتو فـى بـولاق ، رأيـت مثلـه فـى دبـى يسمى (سوق المعيز) وفى بودابست (سوق الخيش) حيث أن السـوق مغطـى بـالخيش ويبـاع فيـه أشياء تافهة للغاية وجميعها واردة من الصـين ماكينـات حلاقـة عمرهـا عشـرات السـنين أمشـاط تشبه تلك التى كانت تباع فى سوق بلدنا منـذ خمسين عامـا ، اسمـاك السـردين بـالبصل ، كـل سمكه بما يساوى جنيها مصريا ، تأكلها مرة واحدة ثم تتلوها بحفنة بصـل مبشـور ، هكـذا فـى الشوارع ، وفى موسكو ، وقبل الغزو الأمريكى كانت الصور العارية والدولارات والساعات تبـاع فى الشوارع المظلمة ، وبعد الغزو الأمريكى أصبح كل شئ فـى موسكو للبيـع بدايـة مـن الأولاد والبنات إلى نياشين القيصر والقادة والعلماء ، ورأيت فى (لاهاى) التى تسـمى (هيج) الحشـيش يباع على أرصفه الشارع ، فى المقاهى وعند باعة السجائر واللبان ، وفى قبرص يباع كل شـئ فـى السوق التركى القديم ، فى كل عواصم العالم هناك ودائما سوقا (للكانتو) أو سوق (للحـراج) مثـل الذى يوجد فى الرياض ، وفى ميدان (البطحاء وبالرياض) يباع الرجال كايدى عاملة رخيصـة لا حقوق لها إنما عليها أن تعمل وتحصل على القليل ، وهنا فى لندن تقام الأسواق فى الشوارع وما يباع فى المحلات الكبيرة يباع فيها ولكن بثمن زهيد لا يقارن ، رأيت الرجل الفحل يغنى وهـو يكاد يبكى فقد فرت منه الفتاة الصغيرة بفرسها ، لابد أنها ذهبت إلـى المدرسة وتركته وحيدا يغنى قلت لجولييت ، ساعدينى فى تناول طعام الإفطار ، لم أكن اقدر على فتـح علبـه (الكـورن فليكس) أو كسر البيضة ، ولا يزال الوقت مبكرا على حضور ابنتى ، قالت أنهم فـى العـراق لا يجدون الطعام ، ولم أذق الأكل علـى الرغـم أنـها قـامت بـإعداده بطريقـة يسـهل تناولهـا بيـدى اليسرى ، جاءت ابنتى وقلت لها اغلقى التليفزيون فقد تعبـت مـن أغانيـه الهابطـة .. أخذتنـى بمعاونه المرضات إلى الحمام ، وضعونى فى حوض الحمام وبدأ الماء السـاخن المـزوج بالمطـهرات أو المطهرات التى مزجوها بالماء يتدفق حول جسدى كل شئ بحساب ، الصدر مفتوح وعليه غطـاء من البلاستيك ، وكذلك اليد اليمنى ، والأجهزة المغروزة فى جسـدى .. أنـا أحـب عجـول البقـر

الصغيرة التى تذكرك بالأطفال دفعنى العجل الصغير إلى النهر وسقطت فى دوامة ، صارت الدنيا من حولى سوداء ، هبطت وهبطت إلى الأعماق والظلمة تزداد ، تزداد ، تزداد بل لم يدفعنى العجل الصغير ، دفعنى (وسبى) جراح القلب ، بجامعة أكسفورد دفعنى إلى الظلام ثم صارت الدنيا من حولى ظلاما فى ظلام ، لم يدفعنى استيفين وسبى ذلك الجراح الشهير بجامعة أكسفورد ، دفعنى إلى أسفل ، إلى الظلام ورأيت لا شئ ، رأيت العدم رأيت السواد ، دوائر من السواد دوائر من العدم ، بل لم يدفعنى وسبى بل دفعنى القطار إلى أسفل ، الدنيا ظلام ، أحاطت بى الكلاب فجأه كنت ذاهبا لصلاة الفجر رأيتهم من حولى متوحشون ، عيونهم حمراء تبرق فى الظلمة وعوائيم يطن فى أذنى ، أستدير أرى المزيد من الكلاب تحوطنى ، أدخل دوامه الظلام أدخل دوامه العدم ، صحت صيحة أنكرتها على نفسى ، لست أدرى كيف ذهبوا ، تمالكت نفسى ، شعرت بالخوف ، لم أكن أشعر به من قبل ، وأصلت السير إلى المسجد وأنا أستعد للىء الخزان صلى الأمام بنا جماعة فأخذت وأبكى والناس يظنون أننى متأثر بالصلاة لا أدرى إذا كنت أنا كذلك أم أن بكائى كان من الخوف ، لم يبق على امتحان التوجيهية أو ما يسمى الآن بالثانوية العامة إلا أسبوع واحد ، يا للقسوة ، يجب أن أنجح ، إذا لم أفز فى هذا الامتحان فان مصيرى هنا ، سأظل معلقا بإرادة أبى الذى يريدنى بجوارى فى تجارته لن أصل إلى مبتغاى ، لن أصل إلى تحقيق آمالى وهوايتى فى الأدب كنت نائما فى انتظار موعد طعامنا السحور قبيل الفجر ، فإذا بثعبان هائل يقترب منى فاتحا فاه ، أشعر بفحيحه بجوار أذنى ، انتفضت صائحا فإذا بأمى تأخذنى بين أحضانها ، يا ولدى ، يا مسكين ماذا بك ؟ أنه الإجهاد يا ولدى ، أنت تعمل طوال الليل والنهار بجوار أبيك فطنت إلى إننى لازلت فى البيت جالسا مع أمى ، أنتظر السحور وننتظر أبى ، ذهبت إلى المسجد ، أسرعت لكى املأ الخزان ، رأيت حياتى بين الثعبان والعجل الصغير . كلاب الظلمة ، ومستر استيفين ويسبى والقطار أزمنة مختلفة ولكنها تكاد تكون لحظة واحدة ، اندفعت نحو الخزان بكل قواتى ، ملأت الخزان فى دقائق ، توضأت وصليت ، صليت وبكيت ، بكيت وصليت ، ثم ذهبت إلى النهر نفس النهر الذى دفعنى إليه العجل الصغير ، نفس النهر الذى عبرته وأنا متعلق بأخر قطعة من القطار ، يعبر الكوبرى الذى يفصل بلدتنا عن مدينة بنها ، انزلقت ، فشلت يداى الإمساك بتلك القطعة الخشبية ، سقطت فى النهر سقطت فى الفشل وسقطت فى براثن أبى لن أذهب إلى مكان آخر ، سأظل حبيس تلك الأدراج والأجولة أبيع الفلفل الأسود واشترى القطن وأبيع الزيت واشترى الفول والعدس والعسل الأسود ، أبيع الصابون ، أتعامل بكم هذا وما الباقى وسعر المحصول تقدمت منى (لولا) لكى تزيد من سرعة الحقن الآلى ، يبدو أنها غير مستريحة لما تراه ، دفعت التسجيل بعيدا ، ولكنى عدت وجلست أذاكر سبعة أيام لكى احصل فى نهايتها على صداع فى رأسى وضعف بعينى اليسرى وذهبت إلى طبيب ومن الطبيب إلى آخر وزادت الظلمة ، ازدادت الظلمة

من حولى ، لم أعد أرى شيئا ، اسمع الأصوات يتهامسون يتحدثون وأسمع كلمات الشفقة ، كل من حولى يتحدث عن الرحمة ، صحت فيهم لست أعمى ، أيها السادة لست أعمى ، أقسم أننى أرى ، أقسم أننى أفهم ، لا تحاولون أن تخدعونى ، أنا الذى أخدعكم تتهامسون من حولى وأنا أسمع فحيحكم ، أسمع همسكم الدائم ، أسمع مؤامرتكم ، تتصورن أننى لا أفهم ما تحيكون ولكننى أتغابى ، أظل فى الظلمة بإرادتى ، رأيتها عندما كنت فى الرابعة ورأيتها عندما كنت فى الثامنة ، ورأيتها عندما كنت فى الخامسة عشرة من عمرى ، ورأيتها بعد ذلك عندما قذفوا بى من مكتبى ووصمونى بكل الجرائم والفواحش والسلب الإنسانى ، أنا الذى بنيت وشيدت وأقمت هذا الصرح ، يتقولون عنى ، يثيرون الزوابع من حولى حتى صارت الدنيا ظلاما ، ولكن ما هى بظلام ، ثرت وهددت وقررت ، يجب أن أخرج من المستشفى ، يجب أن أخرج من هذه المستشفى ، مأمونة يا أكسفورد ، أشعر أننى منتهيا وأن موتى محقق ، إذ يقيدونا فى ذلك السرير وفى تلك الحجرة ذات الرائحة الكريهة ، وهذا (الكوتش) الذى يطن بجوارى ، تصورت أننى أسمع آذان الفجر ، كل لحظة أستمع إلى آذان الفجر ، أتلفت حولى من أين يصدر هذا الأذان هنا ملحدون ، الدين هنا ليس له مكان ، النفعية هى التى يتعاملون بها ، بيض الوجوه سود القلوب ، السواد فى قلوبهم والبياض فى وجوههم ، ولا يأبهون بشىء أنت مجرد حالة مرضية ، رجل كسول لا تفعل لنفسك شيئا ، يطن الميكروب فى جسدى يأكله أكلا ، أسير مهددا بالموت ، لكن لا شئ يحدث ، أنت كسول ، أنت تدعى المرض بين معامل تبدو شاهقة وأطباء يحملون أوسمة عالمية وأسماء رنانة آلاف من الممرضات بيض الوجوه سود القلوب ، صحت صيحة الكلاب وصيحة القطار وصيحة النسر ، تجمعت كل الصيحات فى صيحة واحدة وقررت الرحيل ، مهما كان الثمن ، فى الفجر ارتديت ملابس ، كانت ابنتى بعيدة فى غرفتها ، ما أن جاءت أول سيدة إلى غرفتى وهى التى تحمل فى العادة إفطار الصباح حتى طلبت منها أن تتصل بأخى ، فى هذا الرقم ، أخى (جلال شلبى) ، ونعم الأخ ونعم الصديق ، جاء من بلدة دمياط ليقيم هنا منذ أكثر من ثلاثين عاما ، كون أسرة وصدقات عديدة ، رجل باسم ضاحك أبدا ، كل شئ عنده حسن ، وكل شئ عنده خير ، قلبه أبيض ، ووجهه أسمر قلبه ابيض لأنه يحب كل الناس ويقدم يد العون إلى كل من يعرفه ، جاءنى صوته ضاحكا مبتسما كان قد اعترض على دخولى تلك المستشفى ، طلب بإلحاح شديد عندما جئت إلى هنا أن أغادرها ، إلى صديقه البروفيسور مجدى يعقوب ولكن كيف أغادرها والأوراق والتوصيات التى معى تصمم وتصر على (استيفين ويسبى) هذا ، العبقرى كما يقولون ، والآن يا جلال أنقذنى ، إذ كنت تحبنى حقا ، أنقذنى من هنا ، أدركى يا أخى ، وبكيت ، قلت له فى كلمات قاطعة الساعة الآن التاسعة ، فى الساعة العاشرة يجب أن أكون خارج المبنى ، المسمى بجامعة أكسفورد يبدو أنه أحس بلوعتى وبجديتى وقال حسنا سأفعل وضع الساعة ، بعد قليل جاءنى عاطف زميلى فى العمل ، نظر

نحوى فى هلع وصاح ، جئت إليك زائر أو لا أدرى أن حالتك ساءت إلى هذه الدرجة ، قلت يجب أن أخرج من هنا ، قال قطعا ، جاء الأطباء يقدمون أمالا ووعودا سوف نعطيك ، سوف نقدم لك لا شئ اذهبى يا امرأة يا ذات الوجه الأبيض والقلب الأسود ، أنتم أغبياء أيها الإنجليز كتب زملائى الأدباء فى أوروبا يتندرون ويسخرون من أبناء الخليج يصفونهم بأنهم يسيرون وراء اللذات وأنهم متخلفون هؤلاء لم يروا الجانب الأخر ، لم يكتشفوا فى الخليج قلوب الناس ، دخلت بيوتا بالرياض ، بيوتا كثيرة ورأيت الطيبة بعينها ، بل رأيت الخير كله والفعل الحسن وصفاء الروح ، رأيت كيف يكون الوجه أبيض والقلب أبيض واليد بيضاء والفعل أبيض ثم رأيت هنا سواء فى ألمانيا أو فى إيطاليا أو فى إنجلترا حيث كانت إقامتى طويلة فى تلك البلاد ، ورأيت الغباء ، والغباء الميرى كما نقول عنه فى بلدتنا ، غباء لا يمكن وصفه لا بالغباء التام أو كما نقول فى علم الفلسفة الجهل المركب ، أى أنهم لا يعرفون أنهم جهلة ، قلة منهم تعمل فى التكنولوجيا فإذا أردت أن تدخل أحد المعامل فسوف تجد أن وراء كل مختبر أو كل جهاز طبيب هندى أو باكستانى أو مصرى عبقرى قادم من الشرق الأوسط الأدنى جاء من الفلبيين طالبا العلم ، فإذا به هو العبقرى المخترع وأما الرجل الأبيض فانه فى الصورة يظهر وعلى شاشات التليفزيون ثم يقولون ها هى الحضارة الغربية قد طورت نفسها وبدأت فى نزع سترتها وهم غافلون عن تلك الأيدى السمراء القادمة من الفلبين وإندونيسيا وماليزيا وكوريا وهونج كونج والصين وأفغانستان والهند وباكستان ومصر وبنجلاديش وتونس وليبيا والمغرب ، كل هؤلاء زحفوا إلى هنا ، وعيد الزنج يقفون بالميادين ليلة كاملة يرقصون ، فى اليوم التالى ترى احتفالا رائعا يقولون نحن الأغلبية ، يكونون تحت حراسة الجنس الأبيض ، وجوهم بيضاء ترتدى حلل حمراء تمشى وكأنها كائنات جرثومية (استيفن ويسبى) طويل أبيض الوجه ذوا ابتسامة يخدعك بها كالأفعى ، مثل تلك الأفعى التى هاجمتنى عندما أقترب موعد امتحان التوجيهية ، اقترب منى فى تسلل شعر بأنه أمام رجل من الممكن أن يستفيد منه إعلاميا ، شرح لى كل شئ ، شرح لى أنه عبقرى وأنه الأفضل وأنه جيد حديث وذو علم غزيرا أخذ يتباهى بعلمه ، انسقت له ، شعرت بأنى بالفعل أمام عبقرى فذ ، غلبنى الوهم فى هذه المرة وكنت غبيا بالفعل ولست متغابيا أنكر جلال شلبى كل هذا ، صاح أن احول أوراقى إلى المستشفى الذى أجريت فيه أول عملية لى منذ أربعة أعوام هناك يعرفون أدق أسرار تنبى ، فلماذا أذهب إلى غيرها ؟ توسل ، ضحكت ، أرسل إلى الدكتور مجدى بأوراقى ، إجابة الأخير بأنه يسعده أن يقابلنى وأن يقرر بعد ذلك ماذا يفعل ، اخبرنى فى اليوم التالى ، لم أوافق ، قلت سأجرب مهما يكن ، سأجرب فى قلبى يا للأسف بعد خمسين عاما صرت فيه بالفعل غبيا من كثرة ما ردده عن غبائى ، سقطت فى هوة الغباء ، الغباء الأسود ، أسلمت نفسى ، أفقت من العملية الأولى ، ما كدت أفيق ، وما كدت أتحرك حتى شعرت أننى لست أنا ، أنا رجل ضعيف ، لا أستطيع

القيام أو القعود ، لا أستطيع الكلام ، صوتى اختفى ، أعصابى تهتز ، يدى مشلولة بعد أيام ستكون فى أحسن حال ، بعد أيام نقلونى إلى (السيستر) مسرح العمليات ، وقاموا مرة أخرى بإجراء عملية أخرى ورأيت السواد والظلام مرة أخرى ، أفقت منها على وجه ابنتى تتحسس صدرى المربوط ، تبكى ، نظرت إليها وابتسمت ، قالت أنت بخير يا أبى لقد انتهت العملية الثانية بسلام ، الثانية ؟ خلال عشرة أيام عمليتان فى قلبى ، حاولت أن تماسك ، حاولت أن أبذل قصارى جهدى لكى أشرح لتلك الطبيبة المتآمرة إنها غبية وأننى قد قررت الخروج من هذه المستشفى ، بعد شهر كامل وأنا أعانى من الهزال والضعف والشلل وسوء المعاملة وانعدام الصوت أفقت على صوت عاطف وهو يقول ، لقد قررنا نقلك إلى مستشفى آخر أعترف أن جلال وعاطف والسفير والقنصل ومدير المكتب الطبى جميعا تكتلوا فإذا بهم ينجحون فى نقلى وفقا لإرادتى إلى هنا فى (الأولد كورت) وقفزت من الدوامة السوداء ، الآن أنا محاط بوجوه صفراء وقلوب بيضاء بانديا ، قلبه أبيض وجهه اسمر جاء من الهند ليتعلم فإذا به يصبح طبيبا مساعد الأشهر أطباء القلب ، يشرف على علاجى بصبر ، ودود ، يجالسنى ، يتحدث معى ، يضحك يبتسم ، يقول لى يجب أن تتماسك بإيمانك بالله ، حاول أن تقاتل وقتالك يجب أن يكون بالدعاء لله والصبر والصلاة ، هذا الهندى ، لا دين له ولكنه يحب الاستماع إلى القرآن ، دائما يأتى ويجلس ويرانى أستمع إلى القرآن الكريم ويصمت ويسألنى لمن هذا الصوت ؟ يعرف أننى كاتب ويتعامل معى برقة شديدة ، وبأدب جم ، يخبرنى بالأشياء التى تؤرقه أحيانا أضحك عندما يقول لى بذلك ، يقول أنك تهون كل الأمور ، إرادتك يجب أن تكون هى البداية ، لا أستطيع أن أعطيك علاجا دون أن تريد ، تريد أنت الشفاء والشفاء من عند الله ويجب أن تطلبه من الله سبحانه وتعالى ، واسجد لله وألح فى دعائك ، بالله يا خالق كل شئ يا من يسبح لك الجماد والنبات والبشر والملائكة ، ما من شئ إلا يسبح بحمدك ، اشفنى ، عافنى ، أعطنى الصبر وقوة الاحتمال ، يا رب أسجد لك تضرعا ، أستغيث وأحمدك وأشكرك على ما أنعمت به على من نعم ، لا أستطيع أن أحصيها وأستغيث بك ، من هذا الوباء ومن هذا الداء وأن تعيدنى إلى بيتى وإلى استرى ، ولا أجد نفسى راقدا فى ثرى مدينة لا تؤمن بك ، يا الله ، يا لله ، يا الله ، يا الله أنت أنت ربى وخالقى وأنا عبدك وابن عبدك ، نسجد لك ، نلتمس منك الشفاء ويلتمس منك الرضا ونتقدم لك بالشكر الذى ترضاه والحمد الذى ألهمتنا إياه ، بك نهتدى وعلى دربك نسير فأنت الخالق وأنت المنان وأنت المغيث تبت إليك ، أعلم أن خطاياى كثيرة ، وأن إثمى كبير ولكننى بشر ، آدم ، لقد ارتكب آدم معصيته الكبرى ولكنك ألهمته الدعاء فتبت عنه وأعطيته زوجه وأعطيته الكعبة وأعطيته جنة الأرض ثم أعطيته حرية الإرادة فى أن يكون عبدا مطيعا أو يكون عبدا عاصيا ، والملائكة يقولون لك كيف تخلق فيها من يفسدها ؟ لكنك تعلم أن من يفسدها هذا من خلقك وأنه أفسدها أيضا بإرادتك ، ولولا أنت ما اعتدى ولولا هدايتك له ما اهتدى ، يا الله ،

علم القرآن ، الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ، يا الله ، كلماتك أعجاز ، شذى عطرى ينفذ ، فى كل مرة أستمع إلى القرآن اكتشف المزيد من المعرفة واكتشف أن هناك علما لم أعلمه رغم سنواتى كلها ، يا الله لا أمل من سماع القرآن ، الرحمن تملانى ، تأخذنى ، أبكى ، أترنح ، ازداد قوة ، يا منان أنت قلت عن نفسك الرحمن ، ورحيم وغفور وتواب وأنا عبدك آثم خطايايا كثيرة أخجل منها أبكى أتوسل إليك أن تغفرها لى ، وأن تمسحها عنى ، أن تزيل آثارها وأن يكون مرضى هذا وآلامى تلك أضحية من أجل غفرانك ، إذا كان هذا كذلك فيا ربى أطل مرضى حتى أنال المغفرة الكاملة ، أنت أنت الله أنت الخالق ولا شئ بعد ذلك ، كل شئ يزول ، يذهب ، الحياة تذهب والمال والبنون والجاه والسلطان والشهرة ، لا شئ يبقى ، قبض الريح ولكن الفعل ، الفعل هو الذى يبقى ، لا المال والسلطة ولا الشهرة إنما يبقى فعلك ، إذا كان حسنا سيبقى معك وتؤجر أو تدخل به النار ، يا للهول ، كم من أفعال ارتكبتها ، وكم من أفعال لا أدرى إذا ما كانت حسنه أو سيئة ، لكنى أعلم أننى أخطأت وأننى ألتمس التوبة وألتمس المغفرة أنا مريض وقد قلت أنك بجوار عبدك المريض ، ها أنا أدعوك لكى تغفر واشفنى وتقبل منى الدعاة واجزى كل من ساعدنى وكل من أنقذنى وكل من تسبب لى فى تلك المحنه ، الله أكبر ، الله أكبر كبيرا وسبحانك يا رب ، سبحانك اللهم ، سبحانك اللهم ، يا الله يا من أرشدنى للكلمات يا الله ، أنا مخطئ ألتمس العفو من الإيمان بالله ، أنه شئ ثابت ، الحمد الله على قدرى ، أمنت بالله ، الحمد لله تبينت أن الحياة للإنسان تدور بها الدوائر ، مجموعة هذه الدوائر تتكون الحياة ، فى الصباح قصصت على ابنتى مجموعة من القصص حول علاقتى بأبى ، لا أدرى لماذا أقص عليها كل هذا القصص ، ولكن ماذا أفعل ؟ أكتب لكم رواية هى حفريات داخل الزمن ما كنت أتصور أن أكتبها فى يوم من الأيام ، لاشك أن هناك العديد من القصص فى حياتى ولكنى لست مهيئا نفسيا ولا جسديا لكى أقص عليكم كل شئ كما يفعل الروائيون العظماء قد تأثرت بتوفيق الحكيم ، صادقته طوال خمس وعشرين عاما كنت أجلس إليه طوال وجوده فى الأهرام ، نتحدث معا ونجلس معا ونأكل معا ونشرب معا الشاى والقهوة وله معى نوادر كثيرة ، حتى إننى ألفت كتابا حوله وصار الجدل بيننا هل أكتب توفيق الحكيم صديقى وأصر هو أن أكتب توفيق الحكيم حبيبى ، وصار جدل بيننا بين كلمتى صديقى لأنها أفضل ، صديقك من صَدَقَك لا من صَدَّقَك ، أما الحبيب فهذا لفظ منفرد يجعلك تشعر بأنك تملك الأخر تملكه ملكا خاصا لنفسك ، تعطيه من نفسك الكثير وتريد أن تأخذ مثله ، ويصمم أن أكتب حبيبى ويحاول إقناعى ويترجم اللفظ إلى عدة لغات ، وأرفض أنا ولم يظهر كتابى حتى الآن ، وظل حبيس الأدراج وكنت قد أنتويت أن أنشر جانب من حواراته معى التى لم ينشرها هو فى كتاب ، حوارات خاصة جدا تخص الحياة والموت وفلسفه الطعام وكيف يأكل ، ومن نوادر ذلك أنه فى أحد الأيام جاء فرحا ومنشرح الصدر وكنت أحاول الهروب منه بالدخول مباشرة إلى

مكتبى دون أن يرانى لكى أنجز أعمالى لأن المكوث معناه إننى سوف أظل حتى انصرافه فى الثانية لا لى إلا الحديث والحوار والمناكفة من جانبى ومن جانبه ، وكنا دائما فى خصام ظاهرة لكن فى وئام باطن ، وفى عراك متصل ولكن فى القلب ما يجعلك تشعر دائما أن أمامك أبا حقيقيا تريد أن تكسبه إلى صفك ، وتشعر أنه بـأربك يريد أن يكسبك إلى صفه ، وخلال هذا العراك يخرج (نوتته السوداء) التى يسجل فيها ما يراه أو ما يسمعه أو ما يطلع عليه فى الصحف أو المجلات أو الكتب الفرنسية التى تصل إليه بشكل دائم ومستمرة ، فإذا أعجبه نص أو جملة أو مصطلح راح يسجلها فى النوتة السوداء حتى استطاع أن يمتلك عشرين نوتة لا أدرى حتى الآن ما مصيرها ، فى ذلك اليوم نادانى وقال لى هل تهرب منى قلت لا عندى أعمال لابد من إنجازها فى وقت قليل ، قال اجلس ، قلت مالك سعيد اليوم ؟ قال أنا أريد أن أعرف من أخترع تلك الشوربة العجيبة ؟ وكانت الشوربة التى يتحدث عنها هى قوالب الشوربة التى تباع فى المحلات عندما توضع فى ماء ساخن تتحول إلى شوربة ساخنة بدلا من سلق فرخه ، أو كمية من اللحم ، فقلت له أى شوربة تعنى ؟ متجاهلا أننى أعلم ، فقال ألا تعلم أن هناك قالب تشتريه من البقال بقرش واحد فتضعه فى حلة كبيرة فإذا بك أمام أناء كامل من شوربة الدجاج الساخن ، أنا أريد أن أهنئ مخترع هذه الشوربة وأن أعطيه جنيها كاملا ، وراح يعد محاسن هذه الشوربة فهى توفر عليه ثمن قطعة اللحم أو الدجاجة التى كان يشتريها لكى يشرب شوربتها طوال الأسبوع ، لهذا هو سعيد جدا لأن طبق الشوربة لا يكلفه إلا قرش واحد ! بعدها تناقشنا فى أمور أكثر أهمية لأنه كان فى ذلك الوقت يجمع ملخصا لتفسير الطبرى وقد أستحوذ عليه هذا الاهتمام الدينى وكان مشغولا به حتى أننى كنت أراجع معه بعض النصوص ، بعد ذلك بعدة أشهر كنت قد نسيت الشوربة ، وفى يوم قال لى لقد غادر الطباخ منزلنا قلت لماذا ؟ قال وهل تحتاج الشوربة ذات القالب إلى طباخ ، ماء ساخن تضع فيه قالب الشوربة لهذا زهق الطباخ وانصرف من عندى ، وهذا يوم سعد لى لأننى سأوفر أجرة الطباخ ، قلت له وهل ستظل تأكل الشوربة ، قال لا أكل الجبن وهل تحتاج الجبن إلى طباخ أنه من عند البقال ، والشوربة من عند البقال والجبن من عند البقال ، يشتريهما لى البواب أو تشتريهما لى الدادة قبل أن تنام بعد صلاة المغرب ، وكان من عادة توفيق الحكيم أن ينام بعد صلاة المغرب ، وكانت تلك حجته دوما فى عدم حضور أى احتفال رسمى سواء فى عهد جمال عبد الناصر أو فى عهد أنور السادات حتى أنه حصل على قلادة النيل من جمال عبد الناصر ، ثم من أنور السادات ولكنه ظل يعتذر فى الحضور لاستلامها لأنه ينام من المغرب ، لم يحضر زفاف ابنتى جمال عبد الناصر ، لهذا السبب واعتذار أيضا لجيهان السادات وظل يعتذر ولم يتسلم هذه الجائزة الكبرى التى تمنح للملوك والرؤساء فقط وحصل عليها بعدة نجيب محفوظ فى احتفال مهيب فى بيت الرئيس حسنى مبارك بينما ظل هو معتذرا بأنه ينام من المغرب وظلت هذه حجته لكى لا يذهب إلى أى

احتفال رسمى أو شبه رسمى ، وظل مقاطعا الاحتفالات والندوات وأى تجمعات شعبيه طوال ما يقرب من ثلاثين عاما من عمره فى الفترة الأخيرة وشاهدت معارك كلامية فى مكتبة حول هذا النمط الحياتى من حياته ولكنه كان عنيداً ولا يقبل المساومة فى رأى قاله أو قرار أتخذه، فلم يكن أبداً ذلك الشخص الطيب الذى يفرط فى حقوقه وواجباته أو يرفض واجباته إلا إذا كانت لصالحه الشخصى وأما مسألة البخل هذه فقط ظلت عالقة فى رقبته وذقت أنا منها الويل وليس مجرد حجة أو مجرد هواية أختارها هو لتكتب عنه الصحف إنما هى حقيقة واقعة،فقد كنت أدرس مادة اللهجة العامية المصرية لطلاب الجامعة الأمريكية الذين يدرسون درجة الماجستير فى الدراما جاءوا إلى مصر لدراسة هذه اللهجة،وقدمت إليهم كتاب الورطة لكى يكون مجال الدراسة والفرق بين اللهجة واللغة فى منتصف العام الدراسى سألنى الطلاب:لماذا لا نجلس مع توفيق الحكيم ، نحاوره فقد أعجبتنا المسرحية ؟ وأعجبنا الحديث عنها منك،فوجدت هذا الاقتراح اقتراحاً مقبولا ، وجئت إليه لأخبره بأن الطلاب يريدون الحديث والتحاور معه ، فقال : لكن المهم سيشربون الشاى أو القهوة أو المياه الغازية ، قلت : لا بأس إنهم حوالى الثلاثين ، قال : آه ومن يدفع ثمن القهوة والشاى وبقية المشاريب ؟ قلت له لا تخف أدفع أنا قال : ولماذا تدفع أنت وأنت تؤدى واجبك وعملك ؟ قلت : وهل نتركهم يدفعون مثلاً ؟ قال هذا أمر شائك ، أنا أريد المقابلة ولكن أعتذر عن دفع المشاريب قلت : سوف ادفع أنا قال : لا أنا و لا أنت أنهم مستفيدون منك ومنى ، قلت يتحملها الأهرام ، قال : وما ذنب الأهرام ؟ ألا يكفى أنهم يجلسون على المقاعد يستهلكون إضاءة ويستهلكون وقتا يملكه الأهرام ، فقلت : ما رأيك ؟ قال : يدفع (ثروت أباظة) ، قلت : وما ذنب ثروت أباظة ؟ قال رجل كريم ، فقلت مرة أخرى ، سأدفعها أنا ولا داعى للاتصال بثروت أباظة من أجل حفنة نقود ، كان هو قد اتصل بالفعل وأخذ موافقة ثروت أباظة على أن يقوم ثروت بدفع المبلغ الذى سوف ينتج عن شرب الضيوف القهوة فى ذلك اليوم ، بل ومشروبى أنا أيضاً، وكان من عادته أن يشرب فنجاناً من القهوة وأحياناً أشرب أنا أيضاً ، فلما حضروا وأخذوا كل منهم بالفعل مرة فنجانا من القهوة وثانية شاياً وثالثاً مشروباً باردا ، بل بعضهم أخذ عدة مشاريب وبالفعل بلغت التكلفة مبلغا كبيراً بالنسبة لتوفيق الحكيم وبالنسبة لى أيضاً ودفع ثروت أباظة ،..عندما قابلنا الرئيس أنور السادات اشتكى له وقال : تصور يا سيادة الرئيس أن ثروت أباظة يريدنى أن أدفع الاشتراك السنوى لاتحاد الكتاب ؟ فقال له السيد الرئيس رحمه الله ألست رئيساً للاتحاد ؟ قال : يا سيادة الرئيس ألا يكفى أننى رئيس الاتحاد ؟ فتبسم الرئيس أنور السادات رحمه الله وقال مداعباً لتوفيق الحكيم يا أستاذنا خلى عنك وأنا أدفع أنا الاشتراك ، فتبسم توفيق الحكيم وقال يكفى أن تصدر قراراً جمهورياً بوقف اشتراكى فلا يدفعه ثروت ولا غيره،توفيق الحكيم كان لا يأكل إلا ثمرة واحدة من أية فاكهة تقدم له ويقول أى ثمرة ثانية سيكون طعمها مكررا فلا داعى إذن

للتكرار ، وبالمثال فى كل أطعمته وخبزه وعندما نشرت الصحف خبر فوزه فى عيد السادات بعد النصر بقلادة النيل قلنا له أنا و(يوسف جوهر) مداعبان ، أنت الآن صاحب وسام من أنبل أوسمة مصر وأجلها ، ولا يحصل عليه إلا رؤساء الجمهوريات والملوك ، فقال ماذا تريدان ؟ فقلنا بمناسبة أننا أصدقاء يجب أن تدعونا إلى الغذاء ، وكان هذا منتهى الكرم بالنسبة له ، فقال حسنا هيا بنا ، وصعدنا إلى حيث يوجد المطعم الفخم بجريدة الأهرام وتغدينا اخترنا بعض أصنافه واختار هو بعض أصناف منها وأكلنا بشهية ونحن نتجاذب أطراف حديث نصفه أدبى ونصفه ضاحك مرح ، وجاء الجرسون مقدما له فاتورة الحساب وكان الأمر هينا لأن تكاليف الغداء فى ذلك الوقت لم تكن باهظة ، فقلنا له والآن يا صاحب الوسام الملكى يجب أن تدفع الحساب فأشار إلى يوسف جوهر باسما ادفع يا يوسف : الذى قال : أنت الداعى وأنا المدعو فلماذا أدفع ؟ قال هل سمعت أو رأيت أو قرأت فى حياتك عن ملكا فى جيبه نقود ؟ قال يوسف فى تردد لا لم اسمع ، قال أسمعت عن رئيس جمهورية أو ملكا فى التاريخ كله يدفع بنفسه عندما يريد شراء شئ ما ؟ فتردد يوسف جوهر وقال أتتخيل أنه لم يحدث فهناك من يدفع من حسابه مثلا ، فقال إذن أدفع عنى فأنا ملك ، مثل بقية الملوك ولا أحمل نقودا وأنت بالتأكيد تحمل نقودا دفع يوسف جوهر ثمن الغذاء ونحن لا نكف عن الضحك كان هذا مقلبا كبيرا شربناه وكنا نظن أنه صادق فى دعوتنا وأنه صادق فى دفع الحساب رحمة الله ، له معى نوادر كثيرة . لا أريد أن استرسل فى ذلك ومكانه كتابى عن توفيق الحكيم لأنى أريد الآن التحدث حول دوائرى الخاصة ، وأن توفيق الحكيم يشكل دائرة داخل وجدانى وعالمى ، قلت أن الحياة دوائر وإذا كانت الكلاب قد حوطت حولى منذرة بالغضب وسقطت من القطار وأنا أكاد اصطدم بعجلاته الحديدية ، وتوالت الأحداث ، تقترب من درجة الموت وإلى درجة الظلام بل ويشدنى ذلك الظلام الأسود والجأ إلى الله ، الله المنجى واهب الحياة لا حول ولا قوة الله إلا بالله جاءت عندى فى الثانية صباحا ، كنا نستعد أنا وزميلى محمد لامتحان الليسانس ، جاءت ترتدى قميص نوم وبوب خفيف كانت قريبتى ولكن لم أتصور أن تأتى هكذا إلى شقتى ومعي شاب آخر ، وارتبكت ولم أسألها ، ومن أين جاءت على هذا النحو ولماذا ؟ أدخلتها غرفتى بسرعة حتى لا يراها زميلى محمد وخاصة وأننا كنا نجلس فى غرفته هو والشقة ذات غرفتين ، أحدهما لى والأخرى لزميلى وعدنا نذاكر ، وهو يتملظ ويسأل ما هذا يا شيخ ؟ أخيرا انكشفت على حقيقتك ، الظاهرة إنك زير نساء ، لا أريد أن أشرح له من هى ، ولا أريد أن أتكلم ولكن الأمر واضح وظاهر تماما ، فتاة على جانب كبير من الجمال تأتى بعد منتصف الليل وترتدى الروب فوق قميص نوم خفيف ، كيف جاءت ؟ كانت قريبتى وتقطن مع بعض أهلى فى منطقة بعيدة عن منزلى ، كيف جاءت ؟ حاولت أن أنساها ، أغلقت عليها باب غرفتى ، وظللت ساهراً حتى موعد ذهابنا إلى الجامعة وقد كان لدينا موعد فى الثامنة مع الأستاذ المشرف على رسائلنا ،

فخرجت من البيت دون أن أقول لها شيئا وأجلت الأمر إلى أن أعود من الجامعة ، فقد كانت هذه المقابلة مع الأستاذ لا تتم إلا مرة كل أسبوع وكان يكلفنا بأشياء خاصة بالبحث وعليها درجات واحتفظت بهدوئى وذهبت إلى الجامعة وعندما عدت وجدت قريبا لى أيضا يجلس فى الصالة ولما دخلت وجدتها تقف فى المطبخ وقد ارتدت إحدى بيجاماتى ، وقد طبخت لنا أرزا وملوخية ولحما وقالت بابتسامة رائقة : لقد طبخت لكما ، فقلت وكيف دخل الرجل هذا الشقة ؟ قالت دق جرس الباب وفتحت له ودخل ، ذهبت إليه (رحمة الله) ، ماذا أتى بك ؟ قال : كنت مارا من هنا ورأيت أن آتى إليك ، قلت : أصدقنى القول قال جئت لآخذ الفتاة قلت يجب أن أعرف لماذا حضرت على هذا النحو ؟ قالت بعض المعاذير المبهمة فبعد. أنها تحبنى ، كان قريبى قد انصرف غاضبا وبحثت لها عن ملابس لكى ترتديها وأخذتها إلى حيث كانت تقيم ومضت الأيام ونسيت هذا الأمر ولكن ما حدث بعد ذلك كان مؤلما لقد فهم أبى على أن زواجا قد تم ، بين هذه الفتاه وبينى بعد أن وشى بى قريبى ، وأصبح أبى يتصور أننى لن أنفع للجامعة وأننى قد تركت الليسانس دون الحصول عليه بشهادة قريبى وقد رآها وهى مرتدية بيجامة وتطبخ لى الطعام ، معناها أننى قد تزوجتها جاءنى الخبر أن أبى حزين لأننى تزوجت ، وانصرفت عن المذاكرة وتحصيل الدرس إلى الزواج ، ورأى هو من قبيل أن يضغط على بألا يرسل لى نقودا ، فقدم كان من عادته أن يرسل لى كل سبت مع سيدة تبيع الزبد فى القاهرة مبلغا من المال يضعه فى كيس صغير وتأتى إلى بعد أن تبيع الزبد وتعطينى سلة مملوءه بخيرات أعدتها لى أمى . فقطع عنى النقود على أساس أننى سوف أعود إلى بلدتنا وهناك يعرف منى ما حدث ، ولكنى عاندت فلم أذهب وبالتالى تغيرت حياتى قليلا وصممت على نجاحى فى الليسانس فتركت عملى فى جريدة الجمهورية وأيضا عملى فى مؤسسة الأحداث وتفرغت تماما للمذاكرة وأعداد الرسالة التى هى بمثابة اختبار قوى لى إذا ما كنت سأواصل الدراسة فى مراحلها العليا أم سوف اكتفى بالليسانس ، والآن أبى عاندنى ولم يرسل نقودا وأنا عاندته بالتالى انقطعت الصلة بيننا وخاصة أنهم لا يعلمون مكانى الجديد وعندما جاءت سيدة بأمر أمى لكى تعلم حالتى لم تجدنى فى المكان الذى تعودت أن تجدنى فيه وقالوا لها أنه ترك المنزل بذلك انقطعت الصلة بينى وبين أسرتى تماما وتفرغت تماما للمذاكرة والامتحان حتى جاء موعد المناقشة وحمد الله استطعت أن أفوز بالليسانس خلال هذا كنت أكل فقط ربع رطل حلاوة طحينية وثلاثة أرغفة وأقسم الحلاوة على ثلاثة دفعات أضعها فى كل رغيف ثم أكل رغيفا فى الصباح وثان عند الظهر وثالث قبل النوم ، حتى لا أشعر بالجوع وظل الحال على هذا الحد حتى نفدت نقودى تماما وظللت بعد هذا دون طعام ثلاثة أيام ، فلما انتهيت من الامتحان عدت سريعا لعملى فى الأحداث وظللت شهرا كاملا أكاد أموت جوعا حتى جاءت مكافأة المؤسسة ثمانية جنيهات أخر الشهر وكنت قد مللت الغرفة التى استأجرتها بحشراتها وأيضا جيرانها هم أناس لا يجب الاختلاط بهم وأن كانوا على الرغم من

أعمالهم غير الشرفة - رحماء بى ولم يحاولوا مرة واحدة سرقتى أو إغوائى ، إنما كانوا معى جيرانا شرفاء ، ولكن تصرفاتهم فى غاية السوء وسكنت مع زميلى حسين فى شقة ذات أثاث أنيق دفعنا سويا إيجارها الشهرى خمسة جنيهات ونصف وبالتالى دفعت ثلاثة جنيهات وأبقيت معى خمس للطعام وفى نهاية الشهر التالى جاءنى صديق من الصعيد ليعرف نتيجة الليسانس ، وحان موعد الغذاء ولم يكن لدينا نقودا لكى نطعم الرجل ؟ وصار الموقف محرجا ، وازدرينا أنفسنا لأننا لا نستطيع الطعام رجل قصدنا ؟ وقفت بجوار النافذة التى تطل مباشرة على الشارع أسأل الله العون فى هذا الموقف هل أذهب إلى المؤسسة وأستدين من زملائى هناك ولكنى لم أفعل ذلك من قبل وهم يتصورون أننى أبن أحد الأثرياء لا يمكن أن يتصور أحدهم أننى فى حاجة إلى نقود ، فلا يمكننى الاستدانة منهم ، وقفت سائلا النصر من الله فإذا بى أجد أبى سائرا فى الشارع متلفتا فصحت به هرول نحوى فرحا وسعيدا ، وسألته كيف جاء إلى هذا الشارع فقال يا ولدى لقد سئمت مخاصمتك واستوحشتنى وبعد أن سألتنى والدتك كثيرا فاضطررت للبحث عنك وأنا أعلم أنك تحب السكن فى منطقة الدقى ، فركبت الترام السائر إلى الجيزة وعندما قال المحصل : الدقى ، هكذا سمعتها وقد علمت أنه يقصد الدرى ، وشاء الله سبحانه وتعالى أن أهبط فى تلك المحطة وأن أسير فى هذا الشارع وأن أراك ، وتلفت حوله وقد كان يعرف زميلى فى السكن لأنه من قرية مجاورة يعرف أهلة وعرفته على صديقى الصعيدى ثم نظر نحونا وقال لابد أنكم جوعى أعدوا المائدة حتى أحضر لكم طعاما ، فقلت لا يا أبى سنحضر نحن الغذاء ، ولكنه أقسم وتركنا وبعد قليل جاء بطعام يكفى لعشرين رجلا ووضعناه على المائدة وأكلنا حتى شبعنا وكأننا لم نأكل من قبل ثم نظر نحوى وقال أيرضيك أن تكون رجلا مؤمنا ومسلما وان تخاصم والدك ووالدتك ؟ فبكيت وقلت متوسلا ، أغفر لى يا أبى كان ذنبا عظيما قال أريدك أن تذهب معى حتى تراك أمك ، وعادت المياه إلى مجاريها ونسيت أنا هذا الأمر ونسى هو ولكن عدم حصولى على الليسانس ظل ثابتا فى عقله وأعتقد أنه لا يزال حتى الآن ، فلما حصلت على درجة الماجستير بعد ذلك بعدة سنوات ذهبت إليه لكى يسعد بشهادتى وقد كانت الجامعة قد أعطتنا وريقة صغيرة لا يبدو عليها أنها شهادة الابتدائية تشهد جامعة كذا أن فلانا قد حصل على درجة كذا وأسطر مطبوع بعضها والآخر مكتوب بالآلة الكاتبة و الورقة ذاتها عندما تراها يخيل إليك أنها مجرد ورقة بحسن السير والسلوك أو قسيمة تحصيل سلفة من بنك التسليف الزراعى نظر أبى إلى تلك الورقة قال : ألم يكن من الأفضل حصولك على الليسانس ، شعرت بالمرارة ، أنه رجل متعلم تخرج من مدرسة المعلمين ولكنه لم ينسى أبدا أننى تركته لكى أعمل بعيدا عنه .



الجزء الثانى

تراجيديا الحزن والألم والأمل ، قبض الريح ، هل هو قبض الريح فعلا ؟ هل يداى خاويتان الآن ، أجلس وحيدا وقد انفض الناس من حولى ، لا أحد ، أمامى ليل طويل أقضيه وحدى تطل على الممرضات ، هل ما فعلته هو قبض الريح ؟ اذ قلت نعم ، فأين إيمانى بالله ؟ لقد ظللت متعلقا بإيمانى بالله عند ما كنت شابا صغيرا ، أو رجلا عجوزا ، يهدده المرض ، كنت ممسكا بيد قويه على إيمانى ، ذهبت إلى المسجد وأنا صغير وملأت الخزان مرارا وبكيت وأنا أصلى آلاف المرات وصليت فى الكعبة عشرات ، بل مئات بل آلاف المرات وصليت فى الروضة الشريفة فى مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكم من مرة ناديت الله واستغثت به ودعوته فاستجاب سبحانه وتعالى ، كم من مرة رفعت يدعى وقلت هاك يدى يا الله ، يا الله هل هذا قبض ريح ؟ لا أعتقد ؟ لان الإيمان بالله لا يأتى هكذا ، أن تقرر أنت وحدك أنه يجب الإيمان بالله ، هذا لا يكفى ، نعم لا يكفى لأن الله يحب من يشاء ويهدى من يشاء ويرزق الإيمان لمن يشاء المشيئة الأولية والحتمية لله الواحد القهار الجبار الرزاق للإيمان ، الإيمان رزق ، يسوقه الله لعبادة المختارين المؤمنين المخلصين ، الإيمان بالله ليس بالإرادة البشرية ، تريد أن تأكل فتأكل ، تريد أنت تمشى فتمشى ، لكن الإيمان بالله يهديك الله إليه ، أن تؤمن بالله الواحد القهار الجبار الرزاق المنان الرحمن ، ثم إذا أمنت يجب ألا تنسى أنك مؤمن وأن الله مطلع على قلبك ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب ، لقد تعودت على ذكر الله ، لأنك إذا دعوت فالدعاء نفسه هداية من الله المشيئة وليست الإرادة ، لا راد لقضاء الله ، تعلمت هذا من صغرى وترسخ فى قلبى وازداد حبى لله وكلما نطقت وكلما التهمت العلوم فى رأسى ازددت إيمانا ، لا يا أخى ليس قبض الريح ، عندما كنت فى الرابعة كان يحلو لأبى أن يسألنى ماذا تريد أن تكون ؟ أقول سأصبح أديبا روائيا ، فليس فى أسرتى أديب أو روائى أو مشتغل بالصحافة أو بالأدب أو بالكتب ، وأسرتى من الفلاحين والتجار ومن خريجى الأزهر الشريف الذين يعملون فى مجال الدعوة ، هؤلاء أسرتى وليس فى بيتى ودارى أو فى دارنا بالبلدة مكتبة أو كتبا اللهم إلا كتاب الله يتصفحه جدى ويقرأه وبعض الصحف اليومية التى يحلو لجدى أن يقرأها دوما وهو يشرب القهوة فى الصباح أو فى المساء ، وعندما كبرت وتعلمت القراءة كان يطلب منى أن أقرأ له الصحف ليعلمنى كيف أقرأ ، وكانت زوجه عمى تشترى (البعكوكة) من قبيل التسلية فقد ظلت

فترة مالا تنجب وكانت متعلمة وتتسلى بقراءة البعكوكة حتى تثبت للآخرين أنها متعلمة وتجيد القراءة والكتابة ، فكنت أجلس بجوارها لكى تقرأ لى نكات البعكوكة القديمة وأضحك على أم سحلول وكان يعجبنى الخيال الجامح الذى لا تحده حدود لهذا الكاتب الساخر الذى يكتب أم سحلول أو غيرها من أبطال البعكوكة القديمة وقد تعرفت على هذا الكاتب بعد ذلك ، منذ أعوام قليلة فقط ، تعرفت على عبد الله أحمد عبد الله وتصادقنا فى زمن ذهب فيه الضحك ، كنت راغبا فى أن أصبح أديبا وروائيا وهذا هو السر فى أنى تحملت وخضت التجارب ، لتزداد قناعتى واقتناعى بأننى لابد أن أكون أديبا وروائيا والأديب الروائى ليس فقط يكتب القصص والحكايات المسلية إنما هو فيلسوف يرى كل الأشياء مجتمعة فى وحدة متكاملة ، لهذا يجب أن يدرس الفيزياء والكيمياء وعلوم الرياضيات وكافة العلوم البشرية بالإضافة إلى تعمقه فى أمر الإيمان بالله وعبودية الإنسان له ، الواحد ، فقرأت فى كتب التاريخ وفى كتب الجغرافيا والعلوم الطبيعية والكيمياء وكل مناحى العلم ، قرأت كل ما استطعت أن أحصل عليه من كتب ، وكما سقت إليكم من قبل كيف حصلت على تلك الكتب من محل الفسخانى الذى كان بالنسبة لى كنزا لا ينضب من المعرفة كانت رغبتى فى أن أكون روائيا هى التى جعلتنى أتحمل تلك المشقة وأنا صغير فأعمل مع أبى أكثر من عشرة ساعات وأذهب إلى المدرسة أكثر من ستة ساعات ، وأقرأ بقية يومى وأقرأ قراءة جيدة ، لم أقرأ لأى روائى عربى حتى تخرجى فى الجامعة ، كنت أقرأ فقط الروايات الأجنبية مترجمة فى بعض الأحيان ، وفى أصولها ، عرفت أن (بلزاك) ليس مجرد روائى إنما هو فيلسوف و (سومرست) لم يكن روائيا بل هو مصلح اجتماعى وكذلك (تولستوى) و (ديكنزوجوركى) ، هؤلاء هم القدوة ولابد أن أصل إليهم بالعلم فما من كتاب يصل إلى يدى إلا وقرأته وأحاول السيطرة عليه وفهمه ، وما باب للمعرفة إلا وقصدته حتى تلك التجربة مع المدعى الصوفى الذى حاول أن يستغل تلك العادة المورثة فى قرانا ، بأن يدعى التصوف ويدعى الرؤيا صاحبته شهرا ، حتى أرى حقيقة ما يفعله وأتعرف على سره وعندما تعرضت لمحنة الاعتقال أو محنة السجن لم أكن متباهيا بأنى برئ ومظلوم بل أقول لنفسى هاك تجربة جديدة تستحق التأمل وتستحق المعايشة ، وعندما اقتربت من السلطة وأصبحت قريباً جدا منها لم يكن هدفى الكسب ولا ايثار نفسى بمكانة زائفة بل كان الاقتراب من مصدر السلطة لكى أفهم وأعى ، وفهمت ووعيت واختلفت معهم ، وكان اختلافى مثل قط صغير يقف أمام فيل كبير فداسنى الفيل ، وكانت التجربة مرة وتعلمت من الظلم الذى رأيته والاستبداد الذى مسنى ، لقد تعرضت إلى محنه أن أجد نفسى وجها لوجه أمام الإلحاد ، أما أن أسايره ، فأكسب الدنيا وأخسر الآخرة ، وأما أن أتصدى له فأخسر السلطة والمال فى الدنيا أما الآخرة فلا علم لى بها وهى عند الله ، التكتل الأعمى للسلطة حاول إقناعى ، ولكنى كنت قد شعرت أن ما يفعله كل هؤلاء الناس الذين دفعت بهم السلطة هو قبض ريح ، ولا أريد أن أنكر أننى فى البداية

كنت معجبا بمنظمة الشباب والتنظيم الطليعي بالتحديد ، وتعاملت معهم وكنت في القمة ، لأنني لا أكتب ذكريات تاريخية موثقة ، فأنا أكتب همهمات لرجل مريض لا يستطيع أن يفعل إلا أن يتذكر حياته السابقة مخلوطة بحياته الخيالية ، فاليوم طويل والليل أطول ، والألم يأخذك إلى دوائر النسيان ودوائر الظلام ، زمن مر مثل كرات تتحرك في سلال مخرومة ، ماذا فعلت ؟ لم يبق في يدي شيئا لا سلطة ولا مال ولا شئ ، الفعل الذي فعلته ، لا أدري ما إذا كان يرضى عنه الله أم لا يرضى ؟ المال الذي ادخرته أنفقته الآن والعمل الذي قمت به في وظيفة أو إدارة ذهب وكأنه لا شئ حتى كتبي لا شئ لا أحد يذكرني الآن ، لا أجد اسمي مكتوبا في أية صحيفة أو مجلة وكأنني ذهبت دون رجعة والذين يتصلون بي من القاهرة قلة قليلة ، وكأن الاتصال أمر في غاية الصعوبة ألا يدرى هؤلاء الذين يقيمون في القاهرة ، وكنت معهم أبا وعما وخالا وأستاذا ومعلماً ومرشداً أن مكالمة واحدة تكفي لكي أعيش لحظة سعيدة ؟ هل أقول أين أخوالي وأعمامي وأبي وأمي ؟ هل أصرخ ؟ أصرخ من الوحدة وخاصة بعد أن احتبس صوتي أضع السماعة على أذني وأسمع صوت أولادي هم يقولون تعالى يا بابا ، وأنا لا أستطيع أن أحس بالكلمات فلا يستطعون تفسيرها ، قالت زوجتي ذات مرة لابنتي التي تصاحبني (ترجمي) كأنني أصبحت في ذمة التاريخ ، مثل تاريخ الفراعنة القدامى مجرد أسطر مكتوبة على الحائط لا يفهمها إلا المختصون ، ابنتي تقوم الآن بترجمة صوتي الهيروغليفي إلى زوجتي ، وإلى أولادي جميعا وكأنني أتحدث لغة لا تتحدث بها أسرتي ، أليس هذا ثقيلاً على قلبي المريض ؟ أين الأصدقاء الذين كانوا يتحلقون حولي ؟ منذ ثلاثة أشهر وأنا راقد مريض بالمستشفى ، تجرى لي العمليات ، هل يكذبون ويقولون لا نعرفه ؟ هل يستطيع أعمامي أن يقولوا لا نعرف ؟ هل يستطيع الأصدقاء والأخوة والأخوات لماذا لا يحدثني أشقائي إنها مكالمة لا يزيد ثمنها عن عشرين جنيها ما يعادل ثلاثة جنيهات إنجليزية أنفقها هنا في سبيل شراء فاكهة ثم لا أكلها ، أشتهي العنب فيأتونني به فما أكاد أضع حبة واحدة في فمي حتى أشعر بالغثيان كنت أتلهف على أكل التفاح فيأتونني بالأحمر والأخضر ، والأصفر وأسرع نحو التفاحة لأقضم منها قضمة من بمرارة الدنيا في تلك القضمة ، يأتي الباكستاني (محمد) بكل شئ يتصور هو أن المريض يحتاجه ، شراب التفاح وشراب البرتقال لا أدري من أين يحصل عليها مغلفة تغليفاً جميلا وأطعمة أخرى وفاكهة ، (محمد) لم أعرفه إلا هنا عندما حضر مع شقيقه لإجراء عملية جراحية فاستمع إلى القرآن في غرفتي فجاء متلهفا ودمعة يسبقه ، وقبلني وجلس يقرأ القرآن ، فإذا به في اليوم التالي يفاجئني بالزيارة ومعه أشياء عديدة ، ثم يفاجئني مرة ثانية بإحضار شرائط للقرآن الكريم بصوت أحد الباكستانيين مقلدا صوت شيخ من مشاهير مصر ، وعندما يتحدث بلغة عربية يكون حديثه قرآنيا ومن آيات القرآن وتدمع عيناه ثم يتحدث بالإنجليزية ويجلس معي ساعة أو بعض ساعة تكون مريحة لي وتخفيفاً عن آلمي وأتذكر أين أصدقائي ، أين

الذين أخلفتهم فى القاهرة ، لماذا يحاولوا الاتصال ؟ لا أريد منهم مالا ؟ أريد كلمة طيبــة ، آه ، هل الصداقة قبض الريح ؟ هل الوفاء قبض الريـح ؟ هـل القرابـة قبـض الريـح ، أفتقد الصديـق والقريب ، ماذا أفعل وقد انهدت ابنتـى مرضـا وازداد شـعورها بالإرهـاق ، ولـولا هـذا الطبيـب الهندى الذى جاء الآن وأنا فـى قمـة يأسـى لبـاحت نفسـى بـالمزيد ، ولكنـه جلـس بجـوارى ، وسألنى وأجبته : حاولت أن أكون روائيـا وتحملت غضـب أبـى نحـوى لأنـه يريدنـى معـه فـى تجارته ، وقد كنت تاجرا نشطا وتحملت سخافة التعليم الذى يؤهلك لكى تحصل على وظيفـة ، كان أبى ينظر إلى التعليم باعتباره مجرد شهادة لكى أحصل على وظيفة بعد ذلك ، فمـا الضـرورة لهذه الوظيفة من أجل مرتب محدود ، كان يرغب فى أن أظل معه وسـوف يعطينـى مـا أشـاء مـن مال .

ولكن كان ما كان ، ودخلت كلية الطب ثم أصبت بـالعمى لمدة عـام كـامل قضيتـه فـى الظـلام وكانت لحظة طويلة دامت عاما كاملا لم تكن مجرد لحظة مثل تلك اللحظات التى مرت بى عندما سقطت فى النهر أو عندما سقطت تحت عجلات القطار بل كانت طويلة وأنا أقاوم ،أردد ماذا يهم العمى ؟ لن يقف حـائلا دون أن أكـون أديبـا ، طـه حسـين أعمـى وكـان فـى ذلـك الوقت وزيـرا للمعارف ، فهل حال كف البصر عن مواصلة دراسـته حتـى أصبـح كاتبـا أديبـا يكتـب بفصاحـة لغوية محببة إلى النفس ، لهذا حولت أوراقى إلى كليـة الآداب وقلت أمسـك العصـا مـن النصـف وأدخل قسما يتسم بالعلمانية وفى نفس الوقت أكون ملتصقا بكلية الآداب التى بها جمع كبير من رواد الأدب سواء فى القصة أو الرواية واستفدت استفادة كبيرة من قسـم الدراسـات الاجتماعيـة والنفسية الذى التحقت به عندما كنت أعمى وساعدنى فى ذلك الوقت أننـى تعرفت على احـد الزملاء وكان يعمل مجندا بالقوات المسلحة .

عندما مـن الله على بالشفاء وافق أبى على الدراسة بالجامعة لأننى كنت فى ذلك الوقت مهدد بفقد البصر فلم يرد أن يكون قاسيا ويحرمنى مما أرغب وأن ظل هو مقتنعا بان التعليم لا يجـدى وأن الشهادات لا نفع فيها وأننى قد فقدت الكثير بانفرادى والابتعاد عنـه يـردد ذلـك كثـيرا ، لأننى قصدت بابا لا يرجى منه نفع وسلكت طريقا لا يرجى منه غنا ، وظـل مقتنعـا بـهذا الأمـر. وعندما تزوجت كان هو غير مقتنع بزوجتى لأنها تعمل أيضـا ، وكـان يرغـب فـى تزويجـى مـن بنات إحدى الأسر الكريمات فى بلدتنا ، ولكننى لم أفعل واخترت زوجة لا تجيد صناعة القهوة وهى فى النهاية موظفة واستطاعت هى أن تعمق الفجوة بينى وبين أسرتى لأنها كانت صريحـة للغاية لم تعرف نفاقا ولم تعرف الكلمة كيـف تقـال لأنـاس مثـل أسـرتنا مـن الفلاحـين وكـانت تتباهى عندما تزور قريتى بأنها تكره الفلاحين ، وأنها لا تحب القرى ، كان أبى يريدنى بـهى الطلعة جميل الملابس أنيقا ، وكان يحرص على ذلك عندمـا كنـت صغـيرا ، فرآنـى بعد الـزواج

أهملت ملابسى لأن زوجتى لم تكن تهتم كثيرا بذلك وفقا لنظرية (قاسم أمين) أن الزوجة ليست عبداً وليست مسئولة بأن تعد الحذاء لزوجها كما أنها ليست مسئولة عن أن تخدمه خدمة الزوجات القدامى ، وشعر أبى بأن زوجتى تعاملنى على أننى مجرد رجل زميل وليس كما تعامله أمى أو كما أرى جدتى تعامل جدى والزوجات فى القرى لسن عبيدا كما يتصور البعض ، بل هن كل شئ ، مركز الدائرة ، الزوجة الريفية مسئولة عن زوجها تقدم له الملابس وترشده للفعل وتبنى له جوا مريحا فإذا ثار كانت هى هادئة ، وإذا خاف كانت هى شجاعة ، وإذا أحس بالخطر دفعته للمواجهة ، ولكن زوجتى لم تكن كذلك ، إذا فرحت بشئ فهو لى ، إذا غضبت من شئ فهو على ، إنها مشغولة بعملها طوال النهار وعندما أنجبت انشغلت بقية النهار ببناتها ولم أر مطلقا ذلك الحلم الذى كنت أتخيله وانعكس هذا بصورة أو بأخرى على أسرتى التى كنت أحرص على زيارتهم فأنا أحب أبى حبا شديداً وأتلهف لرؤية أمى حتى أننى دوما أبكى عندما أغادرها ، كثرت زياراتى لأسرتى بمفردى أو مع أولادى البنات ، فقد كنت حريصا على أن أظل على علاقة طيبة بأسرتى وأن أوطد العلاقة بين أسرتى وبناتى ، عدت الآن إلى أمر الزواج ، وبدأت أشكو ، آه لا يهم هذا أيضاً قبض الريح ، جاءت الممرضة الآن وقامت بالتغيير على الجرح وساعدتنى فى خلع ملابسى ووضعتنى كالطفل الصغير على الفراش ولكن لا نوم هناك ، سألنى (بانديا) لماذا لا تنام قلت : بل أنام الآن ساعة أو بضع ساعة وكنت فى القديم لا أنام مطلقا حتى بلغات الخامسة والأربعين ، ثم بدأت أنام بعض الوقت فى الفراش ولكن يظل عقلى متأهبا للإجابة على أى سؤال وتعودت أسرتى الصغيرة أن تسألنى وأنا نائم عن أى أمر وأنا أجيب ، أصحو وقتما أشاء أذهب إلى فراشى وقتما أشاء ، أعطونى الحرية ولكنها حرية مؤلمة ، حرية تركتنى وحيدا لأوهامى وكم تاهت الأوهام ، واختلطت بالآمال وامتزجت بالأحلام واندمجت بالكابوس ، هل أنا فعلا قد حصلت على بغيتى ؟ وأصبحت أديبا روائيا ، منذ عام كامل ولم يكتب أحد عن روايتى الأخيرة ولم يكتب أحد عن مجموعتى التى صدرت منذ أشهر فقط ، أنا أديب بالفعل وكاتب روائى بالفعل ولى كل الكتب والمصنفات العلمية والمسرحيات والمرايا التليفزيونية وأفلام السينما وآلاف المقالات فى الأدب والنقد [illegible] هذا أشعر أن كل ذلك قبض الريح .

لا يهم الآن ، أنت الآن ترقد على السرير الأبيض فى غرفة منعزلة عن بقية الغرف قالت الممرضة : يجب أن لا أخالط بقية المرضى قالتها بجفاء إنجليزى غبى آلمنى ، وجعلنى أجلس طوال اليوم فى حجرتى نائما أو راقدا أو جالسا وقد ازداد شعورى بالمرارة وازدادت الحسرة داخل نفسى وكأننى من المنبوذين .. يا الله ، وما أنا بفاعل شيئا وما فعلت شيئا ، أنا عدم ، أنا لا شئ ، كل ما أنجزته لا شئ ، كل ما فعلته لا شئ ، أنظر إلى سقف الحجرة أريد أن أثقب ذلك

السقف أريد أن أمزق تلك الحيطان ، تلك الجدران الباهتة اللون ، أريد أن أصرخ أن أدق رأسى فى الجدار ، أن أمزق ملابسى أن أخرج واستغفر الله ، أشعر بدبيب المرض والضعف ، فقد كبلانى فلم استطع أن أحلم ، لا شئ يحدث خارجى وبداخلى أعيش كالعادة منقسم إلى اثنين أحدهما يفعل والآخر لا يفعل ، أما الذى يفعل فهو داخلى ، أما الذى لا يفعل فهو أنا ، الممرضات يعرفن هذا الرجل النائم دوما ، الراقد دوما يتألم أو يهمس إلى مسجلاته ، يسألننى ماذا تفعلى ؟ أقول لا شئ حاولت أن أكون روائيا ، كتبت تحملت آلام المرض وعذاباته ، التحقيق والاتهام وعذابات كثيرة وصادقت بداية من جمال عبد الناصر إلى ميكانيكى فى إدارة المرور ، كنت أجلس إلى كل هؤلاء ، تعاملت معهم ولكن كنت أتعامل من منظور الراغب فى أن يكون روائيا لا شئ أكثر ولا شىء أقل ، فهل أنا قدمت للرواية ما تستحق ؟ أعتقد لا شئ ، أنا لست ممن يستطيعون التسلل إلى الشلل ، أنا رابض خلف مكتبى قرأ وأكتب وأقرأ ، جاءنى المرض ، أجلس على السرير أتألم ، وأشكو لا أحد ، تصور لا أحد ، لا شئ ، سبحانك ربى سبحانك ، أنت الملاذ وأنت الستار الحليم وأنت المنان الغفور ألجأ إليك ، أحفو إليك ، أقرع بابك بكل قوتى ، أتذلل أمام بابك ، أسجد راكعاً ، أعفر دماغى فى التراب ، يلمس خدى الترب ، أشعر بنعومة التراب ولزوجة دمعى عليه ، أصرخ من أعماقى إنتذنى اشننى أخرجنى من هنا أخرجنى من عزلتى يا رب تنسال دموعى اسمع صوت طفلى ينادينى تعالى يا أبى يا ولدى كيف اشتاق إلى أولادى ، اشتاق إليهم عندما أعود سوف اجعلهم يجلسون حولى ولا يتركوننى أبدا ليل ونهاره ، يأكلون فوق دماغى ويجلسون فوق دماغى وينظرون إلى دماغى وأنا أنظر إليهم يا لله هل هذا ممكن ؟ هل ممكن أن أعود إلى مكتبى وإلى كتبى وإلى أوراقى وأقلامى وزوجتى وأولادى ، تحدثوا إلى اليوم ، لا تقولوا شيئا ، يكفى فقط تعالى يا بابا ، لأن صوتى لا يصل إليهم ، دعوت بالخير وكأنه برنامج إذاعى ، نحن بخير وسلامنا إلى الأهل ، نحن فى انتظاركم ، المحادثة التليفونية لا تقدم ولا تؤخر ، فقط الرقبة فى الرؤية وأنا حبيس ذلك الصوت الذى فقدت فى أكسفورد ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، ابنتى تجلس صامتة طوال اليوم تنظر إلى أعرف أنها قد تعبت ومرضت ، لجأت إلى الأطباء ولكن ماذا أفعل لها ؟ أريد أن أشفى من أجلها ، أريد أن أتحرك من أجلها لقد اتهمونى بالكسل ، وأنا إنسان كسول ، أنا إنسان مريض أنا إنسان أصيب بكل أنواع المرض ، ودخلنى الميكروب اللعين ، داهمنى عندما فكرت أن أكون روائيا ، تسلل هذا إلى دماغى أصبت بالصداع ثم أصابنى بالعمى ، وضاقت بى الدنيا ولكن عطف الله هو الستار الحليم وهو المبتغى ، أحببتك يا الله ،أحببتك يا الله ، ألجأ إليك ملاذى ، أنت خالقى أنا عبدك وابن عبدك ، أنا ابن عبيدك يا الله ، نجنى مما أخاف ، نجنى من عملى ، انقذنى من رواياتى ، من أحلامى ، ومن النقاد الذين لا يتورعون أن يتجاهلوننى ، وما تجاهلت أحد منهم ، تعاملت معهم فى براءة الأطفال وحكمة الرجال وشموخ الشيوخ ومع هذا لم يفسحوا لى مكان فى قلوبهم

، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا حول وقوة إلا بالله ، ولماذا أشكو ، لا أدرى ، جاءنى من يخبرنى أن هناك فى الحجرة المجاورة من يبكى لأنه فى انتظار إجراء جراحة يتصور أنها عملية مميتة ، يقول يا رب خذنى ، بكيت ذهبت إليه رغم حراسة الممرضات وقلت له يا هذا لا تبكى أنت فى عناية الله أنت فى حضن الله ، الآن يجلس بجوارك العظيم الأعظم ، ملك الملوك خالق السموات والأرض ، كل شئ يسبح باسمه ، إنك غير مؤمن ، صرخ هو بأعلى صوته ، بل صليت الفجر حاضراً ، ولكنى خائف عجوز فوق الستين ، يرتعش يبكى كالطفل لأنه افتقد زوجته وابنته يرقد ميتا فى انتظار الجراحة قلت له ، معك من هو على كل شئ قدير ، قرأت القرآن ، اتكلم ريكورد صغير فى يدى ، اكتب عليه أقص عليكم حكاية ؟ فلتكن أذن حكاية لطيفة ، بعد هذا الجزء الممل ، حكاية فى غاية اللطف ، جاء أحد المرضى ، عندما علموا أنه لا يعرف اللغة الإنجليزية يلجأون إلى وإلى ابنتى وقالوا ترجموا لنا وله ، أنه رجل طيب قال : لا أملك مالا قلنا : نعطيك قال : لا أملك رداء ارتديه ، أحضرنا له ما أراد ، قال : كيف اسددها ؟ قلنا لا يهم وبعد العملية سمحوا له بالخروج فى اليوم الأول جاء ومعه جلباب أبيض ، قال : هذه هدية قلت : مقبولة ، قال وهذا ريكوردر مثل الذى معك ، قلت حسنا يا مصطفى احتفظ به فى اليوم التالى جاء وقال : ذهبت إلى قلب لندن ، ورأيت المتاحف وبناء بيكاديللى ورأيت الحمام يسير فى بالشوارع ورأيت وكذا وكذا وكان سعيد للغاية واشتريت كذا وكذا وأرانى ما اشترى ، تليفزيون صغير .

مجموعات من المسجلات ، بعض الملابس ، فقلت له يا مصطفى أنت قلت عندما حضرت إلى هذا المستشفى أنك لا تملك نقودا ، فكيف اذن اشتريت هذا كله ؟ قال معى نقودك ، وهى مال حلال مبارك ، فى اليوم الثالث جاء شاكيا لقد حجزوا له تذكرة العودة يوم الثلاثاء ومسكنه ينتهى إيجاره يوم الأحد فأين يبيت الليلتين الباقيتين على سفره بعد نفاذ النقود قلت لقد تعبت منك والله ولم اتعب من مرضى ، فى البداية قلت ليس معى نقود ، صدقناك رحت تبذر النقود، شمالا ويمينا ، تشترى أشياء عجيبة والآن كف عن الشكوى ماذا تريد الآن ، قال أود أن أشترى فيديو ، هل يمكن أن يسمحوا لى بإدخال فيديو إلى مصر ؟ وكم تبلغ قيمة الجمارك ؟ قلت بالله عليك ألا تكف عن هذا ؟ ليس معك إيجار الغرفة وتود شراء فيديو دعنا ندبر إقامتك أولاً حتى موعد سفرك ، وعندما حان موعد سفره جاء يسلم ويودعنى فى براءة طفل وقال سأحاول أن اصل إلى الإسكندرية الليلة بأذن الله وربما أخذت عربة خاصة ، فابتسمت ، هذا الرجل الذى أدعى أنه لا يملك مالا ثم أراد يشترى كأفضل ما يكون الشراء وبمبالغ كبيرة أشياء ربما تكون مجرد أشياء ثانوية وليست أشياء ضرورية أليس هذا أمرا مضحكا ؟ نحن هنا أبناء مصر العزيزة نجعل أنفسنا مسخا مصرية أمام الآخرين ، فى إمكاننا بدافع الكرامة أن نكون من الكبار نفوسا ،

ولكن للأسف نحن كبار في الجسد صغار في النفوس وهذا أمر في غاية السوء وخاصة من الذين يقيمون في لندن يبكون على لا شئ ويشتكون من كل شئ ويجعلون أنفسهم مداسا للآخرين ، آه عدت إلى الشكوى أنا الآخر ، على الرغم من رغبتي في إضافة مسحة من المرح ، سألني زميلي (حسين) وكان قد عاد القاهرة .. ماذا حدث ؟ في الليلة الخامسة بعد العملية الجراحية الثانية وكنت قد وصلت إلى حافة الهاوية حافة الجنون ، الجنون هو أن يصل العقل إلى عدم إدراك المحسوسات وعدم القدرة على أخذ المدلول الصحيح من وقائع الأحداث فيختلط الأمر لديه ما لا يرى ويفهم ما لا يفهم ويعيش فيما لا يعاش كما تمتزج الرؤى وتصبح (رؤاه هو) التي يعيشها بخلاف واقع يعيشه الآخرون ، صحت بابنتي ، يجب أن أرى طبيبا نفسيا ، صرخت ابنتي ودموعها تتساقط ، لست محتاجا يا أبي . أنت أعقل الرجال ، قلت : لربما أنا أتكلم الآن في لحظة صفاء عقلي وما يدريك ماذا يحدث بعد ذلك ، فأنا مثلا لست أنا ، قالت : أنت أبي قلت : أنا كانوا ، قالت : وما هذا الكانوا ؟ قلت بل تنطق هكذا ، كانوا ، اسمي . وانفجر الغيظ من رأسي إلى وجهها ، ففزعت ولكني لم أهتم ، وقلت : يجب أن تعرفي اسمي جيدا ، أنا فعلا كانوا قائد قوات الدفاع وقد أحدثت ثورة منذ ثلاثة أيام ضد هذا الملك الطفل الذي جاءوا به بعد أن قتلوا إخناتون رسول الإله الواحد ، وأغلقوا معابد آتون ودمروا محتوياتها ، صرخت ابنتي ، لا أدري هل أنا والدها بالفعل أم كانوا ؟ يا إلهي لا أدري بنفسي سقطت من فراشي ، قالت يا أبي لقد أعطوك مخدرا ، لكي تنام والآن الساعة الثالثة صباحا ، قلت : لربما تتأكدي يا ابنتي أنني الأمير كانوا قائد قوات الدفاع وقد قمت بثورة فعلية ضد الملك الطفل وضد كهنة معابد آمون ، ذلك الشرير الذي امتص دماء المصريين ، سأحرر طيبة وسأكون ملكا صرخت ابنتي ارقد يا أبي أنت مجروح ، لا يمكن إجراء عملية ثالثة ، لقد أجروا لك عمليتين أجلس ، قلت : لن اهدأ حتى أحرر طيبة ، ورفعت سيفي وأمسكت به بشدة وأخذت أضرب كهنة آمون الملاعين الذين يريدون لمصر أن تعود لعبدة الأصنام لن تعود مصر إلا للإله الواحد القهار الذي خلق كل شئ هذا ما كتبه الرسول أخناتون ، الذي أماتوه ، إنهم قتلوه يا ابنتي ولن يلذ لي شراب أو نوم أو رقاد الآن ، انظري ها هم مساعدي ، انظري هذا (سينوتاي) ، الذي يقود عربة مسلحة تجرها الجياد سأخوض غمار الحرب ، صغيرتي خافت مني ابتعدت ، اقتربت منها بكيت بشدة لا أدري هل أنا الكانوا أم شخص أخر ، أنا قبائل قائد (العويفر) ،قائد العويفر ، نحن متمسكون بمحمد ومتمسكون بالخليفة أبي بكر ، أمسكت بي ، اهدأ يا أبي اهدأ فلست هذا ولا ذاك ، أنت أبي ، أنت أبي ، لا ، لست أبيك إنما أنا قائد المسلمين سوف أحرر كل البلاد الإسلامية رأيت في عينيها الخوف ورأيت امرأة إنجليزية تنظر إليها بعطف غضبت ، رقدت على فراشي ، من أكون ؟ هل أنا مريض ؟ صدري مملوء بكل تلك الأشياء القبيحة ، نظرت إلى المرآة رأيت صدري يغطيه الشعر الأسود الكثيف ، تحسست الشعر فوجدته خشنا أسودا ، قلت [illegible] قالت : يا

أبى إنها غرز الجراحة قلت : لا ، هذا ظهر بعير ، انظرى ها شعر البعير ، أنا لست كما تتخيلين ، أنا ، أنا عالم الفيزياء الشهير ، أنت لا تعرفين من أنا ، انظرى إلى معاملى ، انظرى إلى أوراقى ، انظرى إلى ما حاولت أن أفعله ، أنا الأمير كانو الذى يحارب والذى حكم عليه بالهزيمة وهم يضعونه فى المشنقة نتحرر من الدنيا ، نموت ، جاءت سيدة سوداء قدمت إلينا مشروبا ، هل بهذا المشروب سيقتلوننى ، بكت ابنتى ، توسلت ، وضعتنى على مقعد آه ، ها هو كرسى العرش ، أنا الآن الملك ، لقد انتصرت ولم يستطيعوا شنقى ، ركبت العربة ، عربة الجياد ، ستة جياد مطعمة ومصقولة بالذهب .. العربة الملكية ، سقت العربة ولكننى يجب أن أذهب إلى دورة المياه ، لماذا أترك العربة وأذهب إلى دورة المياه ، فلتسيل المياه ، وسالت ، نظرت ابنتى نحوى فى آسى وملابسى قد ابتلت والماء يسيل وأنا اضحك ، دفعتنى ، ودفعت الجياد ، عدنا إلى الدور الأول ، قدمت لى مشروبا وضعته فى يدى حاولت ابتلاع المشروب نقطة نقطة ملابسى ابتلت . الناس من حولى يدخلون ويخرجون وهم عرايا ، الماء ينسال منى ، اشعر بالماء الساخن يخرج من جسدى وأشعر بالماء البارد يتساقط على وجهى أنا الملك ، فعلا أنا الملك ، نظرت نحو موظف الاستقبال فى المستشفى شذرا ألا تعرف من أنا ؟ دفعتنى ابنتى وأوقفت العربة فى مكان فسيح وجاء كل هؤلاء عبيدى وسوف اشنق من يضحك فى وجهى أو يبتسم أو حتى ينظر نحوى فى حزن . ذهبت ابنتى وعادت لتقدم لى قطعة جيلاتى ، قلت لا ، أريد أن أجلس على عرش المملكة ، أن أجعلهم كلهم من الموحدين ابتسمت ابنتى وقالت هيا بنا نذهب إلى حجرتنا ، أى حجرة تعنى ، تصوروا أن أكون طفلا ملكا ورجلا شيخا وأبا لأبنه فى سن الزواج ولا أدرى حقيقة من أنا ؟ ولماذا جئت وماذا فعلت ؟ أى مرارة تشعر بها ، أن تنقسم إلى أربعة بل إلى عشرة أشخاص وأنت لا تدرى هل أنت قائد المسلمين أم قائد الفراعنة أم عالم الطبيعة والفيزياء أم الكاتب أم أب تلك الفتاة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله نظر (حسين) نحوى وقال وهو يمد يده بالتسجيل : يبدو أنك عانيت كثيرا ، ولكن كيف أمكنك أن تسجيل هذا ، قلت مبتسما ربما : الأنا السادس هو الذى فعل هذا ، ما الذى يحدث عندما تتصادم الأحداث والإرادات وتتشابك المصالح الفردية مع المصالح العامة ، رأيت هذا عندما كنت طالبا وكنت أتدرب فى مؤسسة الأحداث وأعمل بها فى نفس الوقت ، وعندما كنت قريبا من الرئيس محمد أنور السادات عندما كان يعمل فى دار التحرير ، الإرادات الوحدية كل منها يسعى إلى تحقيق مصلحة خاصة ، فكانت جريدة الجمهورية فى ذلك الوقت تضم كتابا من أمثال (نجيب محفوظ) و (طه حسين) و (السباعى) وغيرهم ، من كتاب الجيل الشامخ وكان لى شرف التعامل مع الكثير منهم . ثم بعد ذلك اشتغلت فى رعاية الشباب وتعاملت مع (البغدادى) و(كمال الدين حسين) وغيرهم ، لا أتذكرهم الآن بالاسم مريض يرقد مطروحا على الفراش ويتألم لأن الأصدقاء لا يسألون عنه ويتركونه للزمن يأكله ، وهكذا مرت بنا الأيام لأن المصالح الفردية تتصادم دوما

وتصطدم بالصالح العالم وقد كان هناك في ذلك الوقت صراعا حول السلطة ، هل هي ديمقراطية ، أم ديكتاتورية ؟ هل هي شيوعية أم إسلامية ؟ تصادمت المصالح لا من أجل تطبيق الشريعة أو تطبيق الاشتراكية أو تطبيق مبادئ الثورة أو تطبيق حتى الحكم الديمقراطي ، تصادمت الآراء الشخصية والإدارات صداما حادا كما يحدث لي في تلك الأحلام المزعجة التي تتقاذفني يمينا وشمالا حتى كدت أصدقها وحتى كنت أصرخ طالبا النجدة وتحويلي إلى مستشفى للأمراض العقلية ، فهل أنا كاتب أم قائد ثورى أم ماذا ؟ هل أنا فلاح ؟ أو تاجر أو موظف ؟ لا أدري كل شئ قد اختلط وكل شئ قد امتزج مثلما رأيت عندما قدمت من قريتي ، واشتغلت في أول دار صحفية صادفتني بحماس شاب يؤمن بأن العمل واجب والعمل حق وأن العمل عبادة ، ولكني اكتشفت بعد قليل أن العمل هو أن تعمل لصالحك وأن تنتج لذاتك وأن تساير الموقف فإذا كان اشتراكيا فيجب أن تكون كذلك ، وإذا كان رأسماليا فأنت أكبر داعية للرأسمالية ، وإذا كان إسلاميا فأنت ولسانك ، رأيت هذا في شارع الحلمية عندما صحبني عمي إلى اجتماع لجماعة الإخوان وكان اجتماع للمكتب التنفيذي لاختيار خليفة لحسن البنا بعد أن قتل تأثرت الجماعة بقيام الثورة وأصبح لها عدة أجنحة جناحا مع الضباط وجناحا ضد الثورة ، جناحا يحاول أن يساير الطريقة الإخوانية الذي قاده (حسن البنا) الداعية الإسلامي ، كانوا يرغبون في أن تكون الجماعة الأخوانية جماعة دينية تعرف الناس بمبادئ الإسلام ليكون الإسلام دين العمل ودين الحق ودين الواجب وليس دين السلطة والجيش، وأوجدت تلك الاختلافات إعصارا يأكل كل شئ أمامه أكلني وأنا فتى لا أعرف ما هي الحقيقة التي تتقاذفني وكأنني كرة في ملعب لا أدرى أين الصواب وأين الصراط المستقيم ؟ وألجأ إلى الله وأصلي [illegible] عندما أذهب إلى العمل أجد جميع المصالح تضطرب أجد أن هناك من يتشيع لرئيس مجلس الإدارة الذى كان في ذلك الوقت أنور السادات الذى يقال عنه أنه عقل الثورة وقائدها المعنوى الأدبي ،وهناك (ثروت عكاشة) في جانب وهناك (خالد محي الدين) في جانب و(كمال الدين حسين) في جانب . هزني صديقي حسين وهو يقول : كيف أثر عليك كل هذا ، لقد كنت طفلا فكيف وسع عقلك كل هذا لست وحدى يا حسين ، نحن أبناء هذا الجيل عشنا هذا العصر ، ولكني تميزت عنهم بأني اشتغلت بالقرب من مراكز الأعاصير ، وطالني منها أذى كثيرا ، وأن كان هذا (الأذى) منحني معرفة وعلما ومقدرة على التفكير ، أسف .. أشعر بالإرهاق وأرجو أن تغلق هذا المسجل .

الفصل الثانى

عندما انصرف الدكتور تحولت إلى مركب صغير فى عرض البحر وعندما اقتربت منى السيدة التطرية ، وقالت : لماذا لم تأكل يا ولدى ، قلت أجلسى يا أمى ، عندما كنت صغيرا كان أبى يريد أن أكون معه فى التجارة ، كان يرى مستقبلى فيها ، وكنت أنا أحلم أن أكون أديبا واصطدمت الإرادتان ، إرادة أب يريد لأبنه عالم التجارة برحابه الذى يراها مستقبل مبشر لولده البكر ، يسانده ، ويسنده ويحل محله بعده ليظل اسمه متجددا وإرادة ولد يرى أن يكون أديبا أفضل ، فى نهاية العام ينجح الغلام ويفشل الأب فى إقناع ولده بالكف عن العلام ولكن الغلام يتابع العلام ويكمل العلام ويتحمل الأب فشله فى عام سابق على أن ينجح فى عام لاحق ، وجاءت الجامعة وكانت الصدمة الأكبر لأن الغلام أو الفتى اصطدم بالظلام ، وصار فى وضع الأعمى وتوحدت الإرادتان ، لكى يحاولا الوصول إلى بر الأمان ولكن كلا من زاويته الخاصة ، وعندما جئت إلى القاهرة وصدمنى الظلام ، حاولت أن ألتفت لنفسى وأن تتوحد إرادتى ، إرادة النجاح فى السنة الأولى بعد أن حولت أوراقى إلى كلية الآداب ، ونجحت فى عبور نفق الظلام وفى عبور السنة الأولى ، وانهمكت جادا فى دراساتى وفى عملى ، كنا ندخل الجامعة رافعى الأيدى نحمل بطاقات الجامعة حتى يراها الجند على مبعدة منهم وهم شاهروا السلاح ، ولا أدرى لماذا لم يذكر أحد من هؤلاء الذين يكتبون التاريخ أو يكتبون الدراما التليفزيونية تلك الصورة البشعة التى كانت عليها الجامعة عندما دخلت لأول مرة ؟ ورأيت الجند ، يقفون على مبعدة من سور جامعة القاهرة ويتركون ثغرة قليلة نمر منها واحدا واحدا وكل منا رافعا يده ببطاقته الجامعية التى كنا وقتها ندفع فيها ثمانية عشرة جنيها ، وكان يعد مبلغا فى ذلك الوقت باهظا فإذا دخلنا فلا كلام لنا فى السياسة ، لا كلام لنا فى العلم ، نجلس فى المدرج ويأتى الأستاذ ويقول علينا أن نسجل ما يقول ، فإذا لم نستطيع ملاحقته نتجمع بعد محاضرته ليرى كل منا ماذا كتب زميله ، ونحفظ عن ظهر قلب ما قاله الأستاذ لكى ننجح ، وفى النهاية كل عام يدرك الأستاذ أننا ما حصلنا من علمه شيئا فيقول علينا أن نذاكر الفصل الأول والخامس لكى نمتحن فيهما وهذا يكفى لأن العلم فى الكراس وليس فى الرأس كما يقول ابطانة محترفى الامتحانات فى الجامعة .. وتدهورت حالة الجامعة لأن الإرادة الفردية هى المسيطرة ، وإرادة الأستاذ هى المرجع ، فلا داعى للمكتبة ولا للمصادر ولا للكتب ، وإرادة العميد فوق الأستاذ لأنه يستطيع إلغاء مادة أو مادتين لأنهما ليستا على مزاجه وقد حدث هذا تكرارا ، فإذا ما حصل فتانا على الليسانس ودخل إلى متاهات الدراسات العليا فإنه دخل بجسده وبرأسه إلى قفص الأسود

ينبشه الأستاذ ويصنع به ما حلا له ، فإذا ما أنتهى هذا الفتى بعد أن أصبح رجلا ناضجا وفوقه أعمال الأسرة حصل على الدكتوراه بصعوبة بالغة ذلك أن الأستاذ قرر منحة إياها لا عن علم إياه ولا عن دراسة أكدها الطالب ببحثه القيم بل لأغراض أخرى وكله بثوابه والأجر والصواب عند الله هكذا بعد أن حاصر جند الجيش ، وأصبحت مهيأة لكى تأكلها الديدان والحشرات والإرادات الفردية ، وأصبحت الدرجات العلمية تعطى لأبناء الأساتذة ولمن يدفع ولأبناء من يملك الدولار وكله بثوابه حتى رسائل الدكتوراه يتعهدها المتعهدون ،المنتشرون فى كل مكان يكتبون الرسائل بدلا من الطلاب لأن الطلاب مشغولون بإلقاء المحاضرات بدلا من الأساتذة والأستاذ عنده جدول فى الإسكندرية وآخر فى قنا وثالث فى أسوان ورابع فى جرجا وخامس فى بنها فكيف يستطيع الذهاب إلى كل الجهات فى نفس الوقت أذن لا بد من حيلة وفى النهاية تباع مخطوطات الرسائل فى مقابل جنيهات قليلة ، ذلك لأن الأستاذ قد ضاق بالرسائل القديمة التى لم يقرأ منها إلا صفحات معدودة لكى يهيأ نفسه للمناقشة وضاعت الرسائل الجامعية بين إرادات الأساتذة وإرادات الطلاب وإرادات الجامعة والتوسع الجامعى ، لأن كل من يريد أن يتزوج عليه الحصول على شهادة الجامعة أما إذا لم يدخل الجامعة فهى مصيبة كبرى أصابت الأسرة ، تتواسى الأسر وتتذمر ويشعر الزعيم بأن إرادات شعبه ربما تتجمع لتصنع إرادة واحدة تثور عليه ، فيبعثر الجامعات يمينا وشمالا . ويخلق المعاهد والدراسات التى يمكن عن طريقها عمل التحويلات ليدخل الجميع ساحة الجامعة ، ولأن هؤلاء جميعا يحتاجون إلى مدرسين وأساتذة فإن شهادة الدكتوراه يجب أن تكون متاحة فلا داعى لمناقشة طويلة وبحث أطول .

كان حديث اليوم مع توفيق الحكيم حول الكذب ، قال : عيبك أنك لا تكذب ، قلت : هل تعلمنى الكذب ؟ قال : نعم قلت هذا حرام ، قال : اسمع أنا لا أتحدث عن الكذب كما تفهم أى أنك تقول ما ليس هو فى الحقيقة واقع ، بل أتحدث عن المحاورة ، يجب أن تقنع المتعامل معك أنك لا تهتم بما يعرضه عليك ، بينما تكون أنت فى حاجه إليه ، يجب ألا تصر أنك فى حاجة إلى الشىء فيأتى إليك ، يجب أن تكون زاهدا فى الأشياء وفى نفس الوقت تريدها . هذا ما أعنيه بالكذب وأنت لا تفعل ذلك ، ضحكت وانصرفت عائدا إلى مكتبى وفى اليوم التالى جاء صوته عاليا، تعالى أجلس وجلست ،قال أنا ألومك بشدة ، قلت : على ماذا ؟ قال : أنت تحول كل عمل الأدباء إلى أعمال جميلة فى التليفزيون ، ولا تأخذ أعمالى مع أننى كما تدعى أباك ، وقلت نعم والله ، قال إذن خذ أحد كتبى وحوله إلى عمل تليفزيونى ، فقلت ،أختر أنت وأنا على استعداد لفعل ذلك ، قال أريد مالا كثيرا ، قلت سوف أبذل جهدى لكى تحصل على المال الكثير، قال لقد كتبت لك قصة باسمك وناولنى بيد مرتعشة ورقتين اثنتين ، فقرأت (محاكمة شهر زاد) بقلم فتحى سلامة ، فقلت كيف تكتب لى قصة بخطك أنت وتكتب عليها من تأليفى

وأنت توفيق الحكيم ،؟ قال هذا ما فعلت واقرأ القصة جيدا ، فأرجو أن تحولها إلى عمل درامى جميل ، قرأت القصة شهرزاد تعود فتحاكم كل من كتب عنها بالتحديد توفيق الحكيم وطه حسين ، فقلت له : بعد أن قرأت القصة أو بمعنى أصح ملخص العمل الدرامى الطويل ، قلت له : كيف أقدمها للتليفزيون وأنت كتبت بخطك هذه القصة وبالتالى كيف تحصل على الأجر، قال : لقد فكرت فى هذا طويلا، كل ما فى الأمر أننى أريد أن أحصل على مال ، فقلت له : أنت تتكلم بصراحة ولا تكذب الآن ، قال : معك أنت أتكلم كما أشاء ، فقلت له : حسنا سوف أفكر ، قال بل تفعل ، قلت : أنا غير مقتنع لأن هذا يقتضى منى دراسة كل الأعمال التى تناولت حكاية شهرزاد ، حكاية ألف ليلة وليلة ، وفى كل الكتب العلمية والأدبية لكى ألم بالموضوع وهذا يقتضى منى وقتا طويلا وليس عندى منه شئ أختر رواية أخرى تكون جاهزة وأنا أفعل ، فقال لى : هاك المفتاح وتعالى نستعرض الروايات أو الكتب التى تصلح للتحويل وفتحنا الدرج بمفتاح يتدلى من سلسلة طويلة كان قد ربطها بصديرى داخلى لأنه يرتدى دوما اكثر من صديرى وأكثر من جاكته ليحافظ على نفسه ثم البالطو يرتديه عندما يخرج وطبعا البرية والعصا وهو لا ينسى ذلك مطلقا ، يضع النقود داخل الصديرى الداخلى فى حرص بالغ يفعل هذا فى تؤده بعد أن يكلفنى بعد النقود وأضعها له فى جيب سرى داخل الصديرى الداخلى الملتصق بقميصه ، وأخرجنا الكتب واخترنا أن نحول يوميات نائب فى الأرياف إلى عمل درامى طويل ، وبذلك قمت بتلخيص الرواية التى أعجبتنى كثيرا وكنت أول مرة اقرأ تلك الرواية وذهبت إلى التليفزيون وعرضت الأمر على السيدة (سامية صادق) التى رحبت بالأمر فى سعادة ملفتة لتعاونها مع الكاتب الكبير ، توفيق الحكيم ووافقت على أن تقوم بإنتاج هذا المسلسل ، فقلت أن له شرطا واحدا ، أن يقبض ثمن الرواية وفورا ثم يوقع العقد ، قالت : فى صراحة وودودة نفعل هذا ولكن بطريقتنا وبالفعل قاموا بتحرير العقد وكلفوا صرافا بحمل النقود وأيضا حمل العقد فإذا ما وقع العقد يقبض المال ، وبهذه الطريقة قد نكون أرضينا الكاتب الكبير ، وذهبت مع الصراف إلى مكتبه وقلت مبشرا أياه هاك النقود يا أستاذى ، قال : كم ، قلت ثلاث آلاف جنيه ، قال : فقط ؟ قلت : أن الجميع يحصلون على ألف ونصف وأنا قلت : أنك رائد لنا يجب أن تحصل على أجرة مضاعف ، قال : حسنا ، هل أتممت عد النقود ؟ قلت نعم ، قال : بل تعيد عدها أمامى فقمت بعدها أمامه ، قال : ضعها كما تعودت داخل السرداب ، فتحت الجاكت ثم الصديرى الأول ثم الصديرى الثانى ثم الصديرى الملتصق بجسده ، ثم وضعت النقود فى جيبه السرى الذى اكتظ بالمال الوفير ، حتى أننى حرت ماذا أفعل ، فوضعت فى كل جيب رزمه من النقود ، وأغلقت الصديرى الأول ثم الثانى ثم الثالث ثم الجاكته ، واضجع هو فى سعادة شديدة وقال ها قد استرحت ، قلت : يجب أن توقع على إذن الصرف والعقد ، قال : ولما ؟ قلت له أسمع لا محاورة ولا مناورة لقد أتيت لك بالمال والعقد فإذا لن توقع فإن هذا سيكون بمثابة مقلب

كبير أشربه أنا وتشربه سامية صادق ، ووقع العقد دون أن يقرأ ، وكانت هذه أول مرة يفعل ذلك ووقع أذن الصرف همس لى الصراف بأنه يريد جنيها واحدا جديدا ، قال الحكيم هذا خسارة يا ولدى ، لماذا تريدنى أن أوقع على هذا الجنيه ؟ فقال تذكار ، قال أتحبس عندك جنيها كاملا لمجرد أن توفيق الحكيم وقع عليه ؟ قلت له يا أخى الجنيه من عنده وهذا يسعده قال ، ولكنه خراب ديار ، كيف يحبس جنيها كاملا فى جيبه لمجرد أن عليه توقيع توفيق الحكيم قلت له وقع من فضلك هذا الرجل مطالب الآن بأن يذهب إلى رؤسائه ليريهم العقد ، فكتب اسمه على الجنيه كما وقع ورقة بأنه موافقة على تحويل روايته يوميات نائب فى الأرياف إلى مسلسل تليفزيونى وأن أقوم بتحويل العمل من رواية إلى عمل درامى وأخذ الصراف كل تلك الأوراق إلى التليفزيون ، فى اليوم التالى حدثتنى سامية صادق فى مرارة وقالت كيف تكذب علينا ونحن نثق بك ؟ قلت ولما هذا الحديث ؟ قالت : صاحبك توفيق الحكيم أرسل إلى شكوى الآن ويقول أنه قد حصل على المال ولكن ليس من أجل تحويل يوميات نائب فى الأرياف ولم يكلفك أنت شخصيا بذلك ، فقلت لها يا سيدتى لقد وقع الورقة أمام الصراف ، وأنا مستعد للتخلى عن العمل لأننى شخصيا لم أقبض من التليفزيون مليما واحد ولم أوقع عقدا ، قالت : ولكننا نريد أن نحول هذه الرواية ونريد أن نتعامل مع توفيق الحكيم ، قلت : لها أعطنى فرصه لكى أتحدث معه وذهبت إليه غاضبا كيف تفعل بى هذا ؟ أنا أعلم أن هذه مناورات منك تقوم بها يوميا لكى تحصل بها على أكبر عائد من المال ، ولكن أن تفعل هذا بى فهذا ظلم كبير ، فقال وهو يعترف أرسلت إلى التليفزيون أخبرهم أننى غير موافق على تحويل هذا العمل بالذات ، فليأخذوا عملا أخر ، كنت قد عرفت توفيق الحكيم عن قرب ، فقلت عملا أخر ؟ أجر أخر ، أى عقد آخر هذا ما تسعى إليه أما سمعتى أنا شخصيا فهى لا تهمك ، واصابتى نوبة من الصراخ والثورة فقد كنت شابا فى ذلك الوقت أستطيع الثورة ولا أستطيع الصبر ، فجاء ثروت أباظة على صوتى قلت ، كيف تفعلون بى هذا أنا الذى أقدم إليكم المعروف فتجحدون وتتنكرون لى فى وقت الشدة ، وسقطت مريضا وجاء الطبيب إلى مكتب توفيق الحكيم ، وقال لى محذرا سأحملك المسئولية إذا حدث لك شئ . ضحكت كيف أتحمل أنا مسئولية ما حدث لى ؟! حملونى إلى البيت وأنا فى حالة سيئة ، كيف يفعل بى توفيق الحكيم هذا وخاصة وقد غضبت سامية صادق ولأنه أصر على رأيه فإذا ما أرادوا التعامل معه فلا بد أن يطلبوا منه رواية جديدة وأن يحصل على أجر جديد لأنه لم يرشح هذا العمل ، وبعد يومين كان اجتماع شعبه الآداب فى المجالس القومية وكان هو رئيسها وأنا عضو فى تلك الشعبة ، وكانت الشعبة فى ذلك الوقت تضم عمالقة الآداب فى مصر ، وبدأ الاجتماع ، وقام يوسف جوهر وشرح أمر الخلاف الحاد بينى وبين توفيق الحكيم ، وقال لتوفيق أن ما حدث يعد أمرا بسيطا للغاية يمكن علاجه بأن توافق ، قال لن أتراجع عن قرار اتخذته ، فقال ثروت أباظة : إذن كلفنى بالاتصال بكل الأطراف وأنهى هذا الموضوع ، لأنك

بالفعل موافق على تحويل الرواية وقد اطلعت على خطاب التحويل وهو موجود لدى السيدة سامية صادق ووقعت العقد وأخذت النقود على هذا النحو فكيف بالله عليك نقول لهم الآن ، لا أريد ؟ أنت تضع فتحى فى موقف حرج للغاية ، أما أنه قام بتزوير توقيعك وأخذ المال لنفسه ، وسيكون قد وقع فى ذنب لا يغتفر وجرم يعاقب عليه القانون ، وهذا مالا ترضاه لابنك أنا أعلم حبك له .. فقال له توفيق الحكيم : أذن أعطيك الحق فى أن تقوم بالاتصالات التى تنبى هذا الموضوع لصالح فتحى ، قال له نجيب محفوظ : يا توفيق بيه .. جاءت المرضة وانزعجت لإرتفاع نسبة الدم فى البول ، وذهبت لتأتى بالطبيب ، قال نجيب محفوظ يا توفيق بيه أخطأت فى حق فتحى وهو ابننا على كل حال وهو ابنك المدلل يكفى أن تعتذر له ، فقال فعلا أنا أخطأت فى حقه ، وطلعت منذل : دقت كلمة مغفل فى آذاننا بالعجب والدهشة ، هذه أول مرة يعترف ، توفيق الحكيم أمامنا جميعا أنه قد أخطأ بل يقول عن نفسه هذا اللفظ الجارح ، فوضعت نجيب محفوظ يده حول أذنه وقال له أنت ماذا يا توفيق بيه ؟ فثار توفيق الحكيم وقال سمعت يا نجيب ، لقد سمعت : هل تريد أن أكررها وضحكنا وانقلب الموقف إلى مضحكة ، ولكنه أثر فى نفسى كثيرا كيف يفعل بى توفيق الحكيم هذا ؟ بينما وقف بجوارى وناصرنى فى مواقف عدة مثل تحويل (الورطة) إلى عمل مسرحى وأراد أحد النقاد أن يهز العلاقة بينى وبين توفيق الحكيم فادعى أننى قد حولت رواية الورطة إلى مسرحية نجحت نجاحا جماهيريا كبيرا بينما لم تنجح الورطة وسقطت بعد أسبوع واحد سقوطا مذهلا أما الرواية الجديدة وهى مجرم تحت الاختيار والتى كتبتها من الورطة فقد نجحت نجاحا منقطع النظير واستمر عرضها لمدة ثلاثة أو أربعة أعوام على ما أذكر ، وحاول الناقد الوقيعة بينى وبين توفيق الحكيم الذى ثار وأرسل إلى رئيس التحرير مقالا مختصرا على أنه وافق على تحويل الورطة وأنه أعجبه اعجبا شديدا ، ما كتبه فتحى سلامة ، المسرحية جيدة ، الذى كان يتمنى أن يكتبها هو ، وكتبها فتحى سلامة عن جدارة تميز يعترف به ، ونشر مقال الحكيم واستطاع أن يوقف حملة ضاربه كادت تطيح بى ، تعلمت الكثير من توفيق الحكيم ولكنى لم أتعلم المناورة والمحاورة اللتان كانا يحاول أن يعلمنى إياهما ، وقد ذكرنى هذا الموضوع بموقف قد حدث لى منذ ثلاثين عاما تقريبا ، فقد أقام لنا مؤتمر للأدباء الشباب كان من بينهم أديب ناقد لامع الاسم ، يتحدث كثيرا عن الدراما وعن الرواية الكلاسيكية والرومانسية واليونانية إلى غير ذلك من أحاديث ومقالات يدبجها فنشعر أننا أمام ناقد كبير ، جهبز كما يقولون كان المؤتمر قد توزع إلى لجان وكان من بينها لجنه الرواية وكان من الطبيعى أن ألتحق بتلك اللجنة ، فجلست فى اليوم الأول ولم افتح فمى ، كنت أريد أن استمع وتصدى الناقد المشهور ليكون مقررا فأخذ يستعرض عضلاته الثقافية والفكرية فقال أنه قد قرأ كتبا كثيرة حول الرواية وأخذ يردد أسماء المؤلفين من فرنسا وإنجلترا وألمانيا وروسيا وأمريكا ، والجميع ، وكنا شبابا فى ذلك الوقت ، ننصت باهتمام بل وكدنا نفتح

أفواهنا وهو يلوك أسماء ، أجنبية لم نسمع بها من قبل . وكنت والحمد الله مطلع على الأدب الغربي وعلى الأدب الروسي وأدب أمريكا اللاتينية أكثر ما أطلعت على الأدب المصري الحديث ، وخاصة في مجال القصة والرواية وكنت لم أقرأ بعد كل أعمال (نجيب محفوظ) و (يوسف السباعي) و (محمد عبد الحليم عبد الله) ولا أعمال غيرهم من أمثال (أحمد بكثير) و(يوسف جوهر) و(سعد مكاوي) وغيرهم ، كنت ملهوفا على قراءة تولستوى وأعمال عمالقة الأدب الروسي وأيضا صفوة من أعمال الكتاب العمالقة الذين أثروا الرواية وخاصة الرواية فى فرنسا وإنجلترا و كنت معجبا شديد الإعجاب بالكتاب الروس والفرنسيين وعلمت منهم أن الرواية ليست حكاية تحكى ولا قصه تروى ، إنما هي قطعة من حياة وعلى الكاتب أن يتسلح بالعلم فى كافة المجالات . وقد أفادتني هذه الرؤية كثيرا كما اطلعت على الأعمال النقدية وخاصة الأعمال الحديثة . فأخذت أفتش فى ذاكرتي عن تلك الأسماء التى قالها زميلى القزم . وله فى قلبى منزلة خاصة فقد أحببته كثيرا رغم علمى بدجله ، وأمر النفس هذه أمر شائك . فى تلك الجلسة أخذ يلوك فى فمه أسماء فرنسية وإنجليزية وأمريكية وروسية حتى أن الجميع جلسوا صامتين خاشعين لأنهم أمام مفكر عبقرى يعرف أكثر منهم . فى الجلسة التالية أردت أن امتحن هذا القزم الناقد الفحل ، فقلت له يا أستاذنا هل تسمح لى بخلاف بسيط بينى وبينك ، لأننى قرأت كتابا للناقد الإنجليزى المشهور . ذكرت اسما من وحى خيالى مجرد اسم ألفته ، قال كذا وقلت مجموعة من المصطلحات التى يمكن أن تبدو حقيقة ولكنها ليست بمصطلحات على الإطلاق ، وبالتأكيد أفادتني دراساتي الأكاديمية الجامعية عندما كنت ادرسها فى الدراسات العليا فبلورت مجموعة من تلك المصطلحات التى نستخدمها فى الدراسات الأكاديمية وأخذت أتحدث عن البروفيسور فلان وأخذت أؤلف اسما ألمانيا وأخر إنجليزا وثالث فرنسيا يتحدثون عن الرواية والتوك على ألسنتهم ومستشهدا بمجموعة من الجمل ذات الرنين وذات المضمون غير المفهوم نظر نحوى أعضاء اللجنة بانبهار شديد . وتوقف هو طويلا وهو يتأملنى وظننت أول مرة أنه سوف يضحك أو يقول توقف ، فإن تلك الأسماء غير حقيقية حيث أنه يشير دوما أن ما من كتاب حول النقد الأدبى ظهر فى أوروبا إلا وقد قرأه فإذا كان هو كذلك ، فلماذا لم يعرف أن تلك الأسماء التى اصطنعها صنعا ليست بحقيقية . فلما انكشف هذا الناقد الفحل أمامى خرجت من اللجنة ولم أعد إليها وعرفت أن النقد لدينا منذ أواخر الستينات أى كلام . لا أدرى لماذا تذكرت هذا الموقف الآن ، لأن هذا الموقف يعد مثلا لما يحدث فى حياتنا ، ليس فى مجال النقد وحدة بل فى كل المجالات ، يكفى أن تجلس وأن تضع ساقا فوق ساق ثم تلوك بعض المصطلحات الإفرنجية مستغرقا فى تفكير عميق وتترك للسانك العنان مستخدما أغرب الكلمات وتقيم لونا من ألوان الخداع الكلامى أو اللغوى لكى تبرهن على أنك عالم كبير فى مجال الطب أو الهندسة أو الفلسفة أو الأدب ، يكفى أن تعرف مجموعة من المصطلحات ، وتدخلها فى جمل غير مفيدة .

لكى يراك الناس على أنك عالم متبحر ولأن الناس لا يقرأون فان ما تقوله هو عين الصواب فإذا قلت أن هذا الأمر نخضع لقانون الجاذبية وأنه يخضع ، لأنهم لا يعرفون ما هو قانون الجاذبية ، إلا إذا كان الحديث حول الجاذبية الجنسية فإنهم يندفعون فى حماس لكى يزيدون كلامك توضيحا أما إذا كان فى مجال الأدب والعلم والفلسفة والفكر ، فانهم ينظرون إليك فى انبهار لأن لا شئ يهم ، فالطناش ، الطناش هو الفلسفة القائمة الآن ، ولأنه كما قلت المسألة هى إرادة أفراد وليست إرادة مجموع أو إرادة جماعية فان الأمر لا يهم بعد ذلك ، الإرادة الجماعية لا يتجمع إلا فى كارثة تحل بالمجتمع كله أو فرح طاغ ، أما إذا كانت بين ذلك أو أقل فإن الأمر يهون وكل منا يبحث عن طريق وكل منا يمشى بجوار الحائط ، لا أدرى لماذا أقول هذا الكلام الآن ؟ ربما ضعفى الشديد هو السبب ، هنا فى المستشفى يروننى رجلا سعيدا ومحظوظا وشجاعا ، الحقيقة ليست كذلك على الإطلاق فأنا أجلس مهدوما ، عقلى كله يدور فى فراغ يذكر أشياء تافهة يتذكر عندما كنت فى الرابعة وجاء شرطى وقتل كلبى (فوكس) وقد كان كلبا جميلا ، من نوع الوولف أعطاه لى أبى وكنت أنا أمتطيه وذهب إلى مدرستى راكبا إياه وهو يجر ى مثل حصان فى ميدان السباق ، فإذا ما وصلت إلى باب المدرسة نزلت ودخلت وظل هو واقفا حتى أخرج فى نهاية اليوم الدراسى وأعود لأركبه ونعود للبيت معا ليأكل هو نصف أقة لحمة مفرومة أعدها لى أبى ويجلس على باب حجرتى ملبيا أى طلب أطلبه فإذا قلت له أعطينى المنديل يعطينى ، فإذا لعبت بالكرة والاعبة وأقذفها له بعيدا فيحضرها إلى ، فإذا ذهبت إلى الحقل يجرى خلفى حتى أننى اشتهرت بأننى أجرى مثله ، ولذلك كنت أسرع أطفال المدرسة ، ولا أدرى كيف تعلمتها بل وأندهش الآن أننى كنت أفعل ذلك لأننى أصبحت لا أجرى ولا أكاد أسير ، تذكرت هذا عندما ذهبت إلى مدرستى وظللت ثلاثة أعوام لا أعرف . . القراءة ولا الكتابة ، قام الطبيب بعمل ثقب فى الرقبة وأدخل أنبوبا كبيرا ثم أوصله بمجموعة من الأسلاك ، كانت الوجوه من حولى مشفقة ، لا أدرى لماذا ، وكان الطبيب نفسه ، ينظر نحوى كل لحظة ليتأكد أننى لا أزال أعيش ، أدخل الأنابيب والأسلاك فى أجهزة كثيرة وشعرت بالبرد الشديد ، قلت ضاحكا :

- لماذا هذا الحزن على وجوهكم

– ابتسمت لولا وقالت :

– لا شئ . . فقط حاول أن تتماسك

لولا من الصين وتعيش مع رجل دون زواج ، عيونها خضراء ، وهى سمراء وقلبها أبيض . . وتداخلت الصورة فى دماغى .

(الجحش) ، كنت فى طفولتى أراقب الجحش ، وهو اللفظ الذى يطلقونه على الحمير

الصغيرة إلى حد ما ، أو شباب الحمير ، وهو أكثر فاعلية لأنهم يتحملون المشاق ، وفي كل بيت جحش كبير ، أقصد حمار وهذا الحمار له أهمية قصوى ، تكاد تعادل رب الأسرة ذاته ، وهو حمال الآسية ، يعمل طوال يومه من الحقل إلى البيت ومن البيت إلى الحقل ، ومن البيت إلى السوق ومن السوق إلى البيت وهكذا ، فإذا ما أراد الفلاح أن يذهب إلى فرح أو مأتم يركبه ، وإذا أراده شاحنه فهو شاحنة ، وإذا أراده عربه ملاكي فهو كذلك ، كل ما يتغير ظهر الحمار أو ظهر الجحش ، يضع عليه ثوبا أنيقا لأنه ذاهب إلى فرح وشيطا لأنه يحمل سباخا أو رماد (وشنفه) لأنه يحمل تبنا ، تتغير الأشياء التي يحملها وما يتغير الجحش ، مطأطأ الرأس ، منكس الذيل والأذنين ، يمشي جوار الحائط لا يهش ولا ينش ، يحفظ الطريق من أول مرة وأحيانا يقرضه صاحبه إلى شخص آخر ، أرسلنا الـ[illegible] الذي جاء إلينا من الأصدقاء إلى المرضات ، كانت (الدبسة) ساخنة ضحكت المرضات [illegible] أن أمي قد أرسلت هذا الطعام الساخن من بلدنا بالطائرة ، قال بعض الزوار : أن الأسلاك الدلاة تعوقني عن الحركة ، نسيت وجود الزوار في حجرتي قال جحا : أنه أشترى حمارا فأركب جحا ولده الحمار ومشى هو خلفه ، فقال له الناس أيركب ولدك وهو صغير وتمشي أنت وأنت كبير ؟ وركبا معا وقال له الناس أتركبا أنتما الأثنان على ظهر هذا الحمار المسكين وهبط الاثنان وتركا الحمار يمشي خلفهما فقال له الناس ولماذا خلقت الحمير ، لماذا لا [illegible] ؟ [illegible] جحا وولده فحملا الحمار ، وتنتهي القصة الساخرة التي لعب فيها الحمار دورا مؤثرا في الحكايات الشعبية ، دائما تجد الجنيه التي تتحول إلى حمار إذا استطاع فلاح ماهر أن يضع في ظهرها (مسلة) يكسب الفلاح الذكي حمار قويا لا يمل من العمل ليلا ونهارا وأيضا لا يأكل وهذه أمنيه داخل كل فلاح يتمنى دوما جحشا أو حمارا لا يأكل لان طعام الحمار هم ثقيل وفي قصه اسمها (أبو الروس) ، كتبتها في زمن عبد الناصر وهي قصة فلاح ذكي لا حظ أن أهل القرية يبيعون التراب إلى أصحاب مصانع الطوب لكي يحولونه إلى الطوب الأحمر وازداد الطلب على التراب والتراب يحمل على حمير واستطاع هذا الفلاح الذكي أن يقنع الناس أن يؤجروا حميرهم إلى أصحاب تلك المصانع ، فإذا ما سلب الفلاح حماره فانه لا يستطيع الوصول إلى مزرعته ولا إلى بيته فيظل قابعا بجوار باب دارة منتظر أجر الحمار ولان أصحاب مصانع الطوب لا يدفعون إلا كل أسبوع فعلى فلاحي القرية الانتظار وتولى أبي الروس أخذ النقود جملة لكي يوزعها عليهم ولأن الحمير تحتاج لمن يقودها لتعمل أسرع ، وأيضا لكي يتضاعف المبالغ التي يجب أن يحصل عليها الفلاح فقد اقترح الفلاح الذكي أن يعمل أطفال القرية مع الحمير والرجال يجلسون أمام بيوتهم ، يلعبون السيجة ويغنون والنساء في الدار ، تتلهى بالطبخ والغسيل وإنتاج الأطفال والأطفال يجرون خلف الحمير لكي يدفع أصحاب المصانع المال إلى أبي الروس كل يوم سبت ، ولأن المال في يد أبي الروس أكثر أمانا ، فقد أقنع الفلاحين أنه من الممكن أن يشترى لهم ما يشاءون وتعود الفلاحون يعتمدوا في

كل شئ على أبى الروس ، إذا مات أحدهم يتولى دفنه وإقامة المأتم ، واستراح الرجال إلى هذا الأمر فتركوا أمورهم إلى أبى الروس الذى نشط فى همة يتحمل كل همومهم وكل متاعبهم واستراحت النساء لأنهم يرون على مقربه منهم أزواجهم لا يفعلون شيئا ، ثم أنهم بجوارهن والأكل على النار ، وبالتالى ازدادت النساء إنجابا وكثر الأطفال وازدادت القرية عزا .. فى ذات يوم وجدوا أبى الروس وقد مات على حافة النهر ، وقف أهل القرية فى حيرة ماذا يفعلون ؟ لو كان حيا لقال لهم ماذا يفعلون ؟ ولكنه لا ينطق مات أبى الروس ، ويظل أبى الروس ممددا بين جِسْر النهر ومجراه ولا أحد بقادر على أن يقرر شيئا ، نشرت هذه القصة فى مجلة الهلال وسبب لى حرجا شديدا بل أن مباحث أمن الدولة مشت خلفى شهرا كاملا ، لتدقق هل أنا شيوعى أم إخوانى أم ماذا ؟ واكتفوا بأن فرزوا خصما لرئيس التحرير لأنه نشر هذه القصة وحزنت كل الحزن عندما علمت بهذا الأمر ، وأن كنت قد تعمدت أن أنشرها على هذا النحو الذى فهمته مباحث أمن الدولة كما فهمها الناس . الجحش الذى أتكلم عنه جحش انفرد بالسلطة وقبض بيد من حديد على كل الأمور وصار أبو الكل وأبو الناس والزعيم الأوحد والزعيم المرشد والملهم ، نموت ويحيا هو بالروح بالدم كلنا فى سبيل جحش واحد ، نحن جميعا مجندون حياة وموتا اراد أن نموت فنموت وإذا أراد أن نعيش فلنعيش على خيراته وبركاته ولا حول ولا قوة إلا بالله ، الجحشنه فى دماء البشر ، فقد تحول كل واحد منا إلى جحش ، يأمر وينهى وارادته هى الفعل ودائما تجد فى كل لجنة جحش أو جحشان أو ربما ثلاثة على الأقل ، جحش يقوم بالفعل وحده ، والباقون يجلسون ويقبضون ثم ينفضون وكل منهم يفكر فى بيته وأولاده وبطنه وفرجه ، لا شئ سوى ذلك هذا ما رأيته فى كل مكان ذهبت إليه ، هناك جحش يقوم بالعمل وللأسف الشديد ، لأنى جحش كبير لم أفهم أننى جحش إلا الآن ، إلا عندما تعبت ورقدت طريح الفراش منذ أشهر لا يزورنى أحد ولا يسأل عنى أحد ألا قليل القليل ، اكتشفت أننى جحش ، كنت جحشا عندما اشتغلت فى بداية عهدى مع أبى ، كنت اعمل ثمانية عشرة ساعة باليوم الواحد وفى النهاية قال لى أبى أننى أفقر أولاده ، وأقلهم حظا فى الدنيا وأنه حزين من أجلى بعد كل هذا يا أبى تقول عنى أننى مجرد جحش ، حسنا كنت جحشا طوال طفولتى وصباى التى حرمت فيها من اللعب واللهو مثل بقية الأطفال وظللت أعمل بجوارك مثل جحش صغير ، ربما يحزنك هذا ولكنها حقيقة ، وعندما اشتغلت فى جريدة الجمهورية كنت أعمل أكثر من ثمانية عشرة ساعة فى اليوم الواحد كنت الجحش الوحيد بين بقية زملائى وفى نفس الوقت يصرون على أن أدعوهم للعشاء كل ما قبضت مكافأة ، فى الإسكان اصطدمت بسكر التى كانت على وشك قتلى ولأنى جحش لم افهم أننى من الممكن أن استفيد من سكر بدلا من أكون جحشا ، أعرض حياتى للخطر وفى رعاية الشباب اشتغلت مثل جحش بل كنت مثل عدة جحوش أن شئت الجمع ، وصنعت كل ما صنعت وفى النهاية لم أحصل إلا على إيقافى لمدة ثلاثة أعوام ، مع

المحاكمات والتحقيقات ، ألست جحشا وفى مجلة الإذاعة ، اشتغلت مثل جحش ، عندما أرادوا أن يكتبوا لنا عقود عمل أعطوا زملائى الثلاثة لكل منهم أجرا مضاعفا لأجرى ذلك لأننى جحش ، ولما طلبت المساواة على الأقل قابلوا هذا الطلب بالاستنكار الشديد ، ولأننى جحش رضيت بذلك رغم أننى كنت وقتها أعد لرسالة الدكتوراة وحاصل على ثلاث أو أربعة من درجات الماچستير أما زملائى فواحد ليس معه إلا شهادة الميلاد والآخر شهادة متوسطة والثالث شهادة جامعية ، وعندما طالبت بالمساواة وليس برفع أجرى عنهم بشهادتى لسابق خبرتى جاءوا إلى يستعطفون ويمسحون على ظهرى ، مثل الجحش عندما يمسح على ظهرة الفلاح ، فيفرح الحمار أو الجحش ولا يملك إلا أن ينهق مهللا مسرورا وفى اللجان أنا الجحش الذى يكتب التقارير الجحش ، والجحش الذى يحدد الدرجات والبركة فيك يا بابا كانوا يسنوننى فى الغيط ببابا ولكن فى سرهم مجرد جحش يعمل بلا ملل ، جحش يحتاج إلى قليل من البرسيم اقصد قليل من النقود ، عندما بعت إحدى مسرحياتى ربحت الفرقة ما يقرب من المليون جنية أرباحا صافية للمسرحية لم أحصل إلا على حفنة تساوى كيلة ذرة أو كيلة فول على أقصى تقدير ذلك لأننى مجرد جحش يكفينى كيلة فول لكى اكف عن الطلب ، لم احصل إلا على الف جنية وكانت هى العربون أو المقدم ثم لم أحصل على شىء وفى أفلامى لم أحصل إلا على العربون ، وفيلم آخر لم احصل إلا على العشاء حمام محشو بالفريك ، أكلته مع منتج الفيلم والمخرج واكتفوا بما اطعمونى ذات ليلة وسرقوا الفيلم وسرق موضوع الفيلم لعدة مسرحيات أخرى ولعدة أفلام أخرى ، تكرر هذا معى فى أفلام ومسرحيات أخذوها منى بلا مقابل وتكرر هذا الموقف فى أعمال تليفزيونية وفى مقالات سواء فى مصر أو خارج مصر ، وتكرر مع مجلات عربية وكنت دوما ذلك الجحش حتى بالنسبة لأصدقائى فأنا جحش دائم التحفز للدفاع عن أصحابى أحيانا أعتز بدور الجحش فى بعض الأمور وأغضب لدور الجحش فى أمور أخرى ، فإذا قصدنى زميل أكون جحشا لخير أفعله أكون به راضيا أما إذا أرادنى الآخرون أن أكون جحشا لشر فى نفوسهم فإن هذا يؤلمنى ، وهكذا أيضا اكتشفت أننى أنا الراقد على سرير المرض وحيدا ، حجرتى فى مؤخرة .. المستشفى ، الطرقة خالية وبقية الغرف التى بجوارى لا أحد فيها ، قد أكون معزولا وكأننى مصدر خطر أو مصدر وباء اكتشفت الآن أننى مجرد جحش وأنا الذى أقوم بإضحاك الممرضات وإضحاك الأطباء وابتسامتى تعلوا وجهى عندما تأتى ممرضة أو يأتى طبيب فإنى أسارع بالابتسام ويسألوننى هل أنت فى حالة جيدة ؟ فأقول بروح مرحة نعم ولكنى قلق بشأنك يا أختى كيف حالك وحال الأولاد ذهبوا للمدرسة وحال زوجك ؟ كنت بالأمس متعبة تشكو الممرضة بدلا من أن أشكو أنا وتستريح وأنا المتعب لا أشكو وهذا طبع الجحش ، حقيقة هذا طبع الجحش ، يأتى إلى الأصدقاء ، واكتب عنهم واحدا تلو الآخر ثم يأخذ ثالث فى لومى يا أخ ، لماذا لم تكتب عنى ، وهل كتب عنى أحد ؟ ألست أحد الكتاب ، ألست أيضا كاتبا ولى إبداعاتى

المختلفة ؟ لم يكتب عني أحد ؟ يأتي إلى أحدهم شاكيا باكيا أنت لم تكتب عني ، وقد أعطيتك ثلاثة كتب حتى الآن : أقول له يا أخي أنت تنشر كل أسبوع كيف يلاحقك النقاد أو كيف ألاحقك أنا هل أكتب عنك كل أسبوع ؟ أليس هناك آخرون ؟ وأحيانا تأخذني الجحشنه فأثور عليهما وأصبح حمارا حصاويا يبرتع وأقول أنا أيضا كاتب يا أخواني ، لم يكتب عنى أحد ألست أنا أيضا مبدعا أليست رواياتي التي تربوا الآن على نحو خمسة عشرة رواية تستحق منكم إشادة ؟ أنكم تبخلون على بذم أو مدح ، يااااه الكثير من المواقف أكتشفها الآن وأنا جالس هنا ، جحش كبير ، ألم يضعون في عربة ثم في طائرة ثم في مسرح العمليات لكي تجرى لي عملية جراحية ثم أخرى خلال عشرة أيام استط في بحر المرض ولا أدرى ما هو الصواب ، هل الطبيب في مصرى على صواب عندما قرر لي العملية الجراحية ؟ هل كان (مستر ويسبى) على صواب عندما قرر لي العمليتين هل كان مجدى يعقوب على صواب عندما أرقدني في هذه المستشفى طوال هذه المدة من منهم الذى كان على صواب ؟ عندما أسمع هنا في المستشفى أن كل مريض له حكاية وكان جحشا في الدوائر المغلقة بين طبيب وطبيب، وهذا أستاذ في طب عين شمس وذاك في القصر العيني وأخر في جامعة الزقازيق وخامس في جامعة المنصورة وسادس في الإسكندرية كل منهم يقول رأيا ولكن لا يقول قاطعا (ويقوله بعد أن يسفك دمى ويشترى منى الجديدة التي صرت عليها وأخيرا يسمحون لى بان أسافر إلى لندن لإجراء جراحة في القلب وأكون قد عانيت من ذلك معاناة تفوق حمل البشر فاستط في البئر جحشا ، ماذا يقول) هل الأستاذ بالمنصورة على حق ؟ أم أستاذ طب القاهرة أم أستاذ طب أسيوط أم أستاذ طب الأزهر أم أستاذ طب الوادى الجديد ؟ من منهم على حق وإذا كانوا فلاسفة إلى هذا الحد وإذا كانت أجورهم تصل إلى الآلاف فلماذا لا يجرون لنا العمليات ؟ إذا كانوا بهذا النظنة وهذه الحكمة ، كرهت كل الأطباء ، ولا أحد يلومنى أعد أثق فيهم جميعا صدقتهم ولكنك كذبوا ، كادوا يحلون بى إلى القبر وما أنقذني ألا ربي .. أنقذني الله سبحانه وتعالى ، ولان الحمير لا تكسب الجوائز ولا تضع نفسها تحت الأضواء ، فان الأضواء تذهب إلى راكبى الحمير وتنسى الحمار ذاته ، هذا من أصول الجحشنة والجحشنة صفة غير مكتسبة ، أنها صفة فطرية أو موهبة ولا يستطيع أحد من الناس أن يقرر سيصبح جحشا إذا اراد ، ألم تروا معى أنها موهبة مثل الموسيقى والأدب والغناء وما إلى ذلك ، موهبة من تلك المواهب القديمة ، مثل موهبة (شوقى) في الشعر مثل (عبد الوهاب) ، ولأن مطربينا الآن صاروا ينهقون مثل الحمير وما هم بحمير فلم يرزقوا نعمة الجحشنه ، لان الجحش لا ينهق ، ومن النادر أن تجد حمارا ينهق ، وقد كنت اكتب كتابا وهبها أولته على كيفى وعلى مزاجي وأنا طالب في الجامعة اتخذت له اسما تراثيا مثل (تحليل الأسماء عند أبي العلاء) أو كنت اسمية أحيانا (الواضح في أسماء الناس والمناطح) لابن أبي سلامة الشهير بفتحى سلامة أنه في الجزء التاسع من الطبعة البولاقية وتحت كلمة (جيم ميم ألف راء) أيضا في

الطبعة الاستنبولية الموجودة فى استنبول تحت رقم خمسة واحد اثنين ثلاثة (كاف ميم لام) تجد أنه فى البولاقية الجزء التاسع فى الصفحة رقم سبعمية واتناشر تحت حاء وميم ألف راء وتجده فى الجزء العاشر من الطبعة الاستنبولية أو التركية الموجودة الآن فى مكتبة استنبول فى صفحة خمسمية واتناشر حاء ميم وتفسير ذلك وعلته أنه قد عقد مؤتمر للحمير ذلك كان فى عام ستمية اثنين وسبعين قبل الميلاد وفى مدينة جحشون المطلة الآن على وادى علقه انعقد المؤتمر الأول للحمير ورأت الحمر بسابق خبرتها وفطنتها وأنهم لا يذهبون إلى السوق أو إلى الحقل عندما تمطر السماء لأن الفلاحين يخشون عليها من السقوط أو كسر أرجلها فيكتفون بإطعامها وحبسها فى الدار ولأنهم يريدون البقاء مدة طويلة فى الدور بدلا من ذلك العمل المتواصل فانهم قرروا أن يجعلوا الأرض طينه ، فماذا يفعلون ؟ يتبولون ، كل منهم يتبول على بول غيره ، هكذا تصير الأرض طينة فيقلق الفلاحون وفى الدور فابعون حابسون حميرهم يخشون عليها من الانزلاق ، وتقرر هذا الأمر وبدأت الحمير فى تنفيذ هذا القرار ولهذا لا يزالون فى حالة تنفيذ القرار الأول وهو أن يجعلوا الأرض طينه ، ببولهم وعندما يرى الجحش بول غيره فإن عليه أن يتوقف ويبول عليها ثم يتشمم الهواء لكى يعلن للحمير الأخرى أنه نفذ الاتفاقية وذلك حتى لا يقع تحت طائلة المسئولية فلا يقوم حلف الأطلنطى بدق رقبته بالقنابل الذرية أو تقوم أمريكا بعزله عن بقية الحمير ، أو يأكل الصرب الحمير كما فعلوا بأهل البوسنه و الروس بأهل الشيشان وأفغانستان أو أن يأكلوا بعضهم البعض أو كما يفعلون فى الجزائر ولا حول ولا قوة إلا بالله ، انتهى ، أى انتهى الجزء المأخوذ من الكتاب المسمى فى بعض الأحيان تحليل الأسماء وتفسير الأعلام لابن أبى سلامة وقد قام بعض المحققين بدراسة الكتاب ونال بعضهم أيضا درجة الدكتوراه حول تحقيقه واعادة دراسته وتقييمه بل قام المترجمون بترجمته إلى لغات مختلفة وجوته ذات نفسه الذى كان شاعرا ألمانيا أخذ بعض تعاليمه وقصصه وسرق بعض افكاره ولم يأبه إلى أن يقول ذلك فى كتبه ومن الحق أن نعترف أن بعض الكتاب والنقاد والدارسون فى الجامعات الأمريكية إعترفوا بفضل ابن أبى سلامة وقرروا الاشادة به وذكر مرجعته كمرجع علمى أساسى لتحليل الأسماء فعندما يسأله السائل لماذا مثلا سميت الدقى ؟ أقول لك عند إلى ذلك المصدر الذى اختلفت النقاد والمؤرخون والمحققون فى تسميته الأصلية لأنه ترك بلا غلاف نقول وبالله التوفيق ، أنها فى الجزء الخامس من الطبعة البولاقية التى بين أيدينا الآن والتى حققها عن جدارة ومهارة علامة شهير يدعى بالمدير الذى كان فى زمنه بالعلوم مفكر خطير ، وبأبحاثه ليس له نظير ، نقول أن بالرجوع إلى ذلك الكتاب القيم والسفر العظيم النافع ، أنه فى الجزء الخامس وفى الصفحة ثمان مائه اثنين وتسعين وتحت كلمة (دال قاف) وهى للأسف الشديد صفحة تكاد تكون فى الأصل مقطوعة فصححها ذلك الباحث القدير واستطاع بذلك أن يصحح بعض أرقامها وأن يحقق عن جدارة ومهارة كل ما جاء فيها من علوم وأسرار لأن بها من الأخبار

مالا يمكن حصره أو وضعه فى كتاب واحد ، نقول أنه بالتحقيق تحت كلمة دال قاف ياء ، أنه عندما حضر الملك سعود بعد نفيه من المملكة إلى مصر فقد نزل إلى بر مصر عند المنطقة المسماة الآن بكوبرى الجلاء وما كان اسمها كذلك فى القديم ، لأنه لم يكن هناك كوبرى ولا يحزنون ؛ يقول الكتاب أنه جاء بمركبة إلى تلك المنطقة التى هى الآن موقع الكوبرى ، وكان فى سفينه كبيرة وبجواره شكوكو وإسماعيل ياسين ومن حوله الأمراء والخفراء والجوارى والعبيد والخصيان ولما وصل إلى البر جاء إليه ناس كثيرون وقال عمدة تلك المنطقة وكان ذو شأن كبير ، يعرف الأخبار . فقد علم أن هذا الرجل هو الملك سعود ذات نفسه الذى كان موضع تمجيد من أهل أمريكا الملاعيين ، أن العمدة عرف أن هذا الرجل يملك مالا وفيرا وأنه سوف يبعزق ماله على كل الناس ، فجمع أهل بيته وجمع الناس من حوله وجاء بالمزيكا وعندما رفع الملك قدمة إلى البر ووضع الثانية قال العمدة ، دقى يامزيكا ، دقى يامزيكا ، فضحك الملك وقهقة وكذلك فعل شكوكو واسماعيل ياسين وهذا ما لا يعرف المؤرخون إنما يعرفه قلة من الناس ، حتى لا يذهب بهم الوسواس فيشتكوننى أو يدفعوننى إلى الجنون فقد حدث هذا بالفعل ودقت الموسيقى وضحك الملك وهاص شكوكو ، لا يدرى أى نكته يقولها وقد كان مكلفا بالترفية عن الملك ، عندئذ قال الملك فى صوت غليظ ، أه دقى ، أذن نحن فى الدقى وهكذا صارت تلك المنطقة محرفة لكلمة الدقى ، عندها كنت فى زيارة لاحدى المناطق الأسيوية وأراد أحدهم أن يضعنى فى موضع الحرج وأن يتهمنى بالساداتيه ، وبخيانة الوطن لأننى لست ناصريا ولما كان هذا الإحراج أمام جمهرة من المثقفين أو أمام هؤلاء الذين يدعون أنهم من المثقفين وما هم كذلك للأسف الشديد فلأنه سألنى أنت تدعى أنك كاتب كبير قد ألفت مرجعا عليما ليس له نظير .

وفى الأسماء كلها له تفسير فما قولك لماذا سمى هو شيمنه ؟ فنظرت إليه مليا وقلت له رجل أنا احفظ كتاب جدى حفظا من ظهر قلب ، وأنا أحيلك إلى المرجع ذاته الذى ذكرت ، ففى مكتبة قنطرة الطبعة العاشرة من كتاب جدى الذى مضى وفى الجزء التاسع عشر من هذا السفر الكبير وفى صفحة محددة هى بالتأكيد صفحة مئتان واتناشر بعد الألف الأول وتحت كلمة هاء واو : أقول وبالله التوفيق أنه جاء فى الكتاب أن أم هوشيمنه كانت حاملا فى هوشيمنه ، فدعاها الملك ، ملك مصر فى ذلك الوقت لزيارة القطر والفرجه على تلك المسخرة التى فى الأقصر فهناك تماثيل تكاد تنطق بأنها من صميم البشر بل ظن بعض الناس أنهم مسخوطات أنهم كانوا بشر وجعلهم الله من المساخط فأرادت رؤية تلك المساخيط وخاصة أنها ليست فى أى بر أخر غير مصر ، فجاءت السيدة وابنها فى بطنها فلما رأت المدعو أمون ثم من بعده المدعو رع انفلت الغلام وهبط بسلام وصرخ صراخا حادا فلما رأت الفتيات والسيدات ذلك اتين بالدفوف ورقصن حول الأم الولود معجبات بتلك السيدة الخواجاية التى ولدت بجوار المساخيط وغنوا خشى يا ختى

يقيتى منه ، ذلك كانوا فى أول الأمر وبدايته يغنون لفتاة تدخل لأول مرة بيت زوجها أو بيت عرسها ومن عادة الفلاحين منذ الأسرة السابعة وقبل مجيئ رمسيس كانوا يغنون للفتيات عندما يدخلن دور الحماوات حتى يشعرون بأمان فى بيت العائلة وليسوا من الأغراب اللئام ، كانوا يغنون ختى يا بت بقيت منا أى أنك أصبحت من تلك العائلة وليست غريبة كما كانت حالة طيبة القديمة ، تنظر إلى الغرباء أنهم وباء يجب أن يتحاشوهم ولا يختلطون بهم فدقوا الدفوف وغانوا لهذه السيدة الخواجاية تلك الأغنية حتى تصير منهم وتألفهم ولا تخاف ، لأنه إذا خافت الوالدة عند ولادتها فإنها لا تحمل أبدا وهذا له اسم آخر لا يجب اللجوء إليه الآن لأنه له تعليل ربما يغضب بعض الحضارات ، يقول الكتاب أنه عندما سمعت الأم ذلك الغناء صرخت وقالت فليصبح هوشمينه : هذا الغلام يسمى هوشيمنه ، ولأنهم خواجات من آسيا وليسوا خواجات من أوروبا فهم لا ينطقون حرف الخاء ولا ينطلق إلا فى روسيا الشيوعية أو فى أوروبا الخواجاية الإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية ، فاصبح أسم هوشيمنه بدلا من خوشيمنه ، ثم ظهر هذا الغلام فتى عظيم الشأن وأصبح من كبار الأعلام والله على ما أقول عالم وعليم ، ولما سمع منى زميلى الذى أراد أن يجعل كبش فداء يسبح فى مقابر الرياح ، غضب وصاح بل أنت جاسوس ، قلت له لقد سكت عليك كثيرا أنا فعلا جاسوس من وجهة نظرك أما فى الحقيقة فانا فرعونى الأصل عربى القويمة مسلم الديانة أبن (مينا) موحد القطرين وابن (خوفو) بانى الهرم وابن (رمسيس) الذى أذل العالم وابن (سعد زغلول) و (عرابى) و (محمد نجيب) و (جمال عبد الناصر) و (ابن السادات) يا أخى أنا ذلك الفتى الذى ولد منذ آلاف السنين ، فوحدت البلاد وعمرت الوادى بالزراعة ، وجعلت نظام الرى لا يمكن لأى بلد أن تقلده ولا يمكن إنكاره ، بنيت الأهرام والتماثيل والمسلات ما يعجز عنه الآن أبناء المنجزات العلمية ذات القوى التكنولوجية التى لا نراها إلا بالرسوم المتحركة ، ولتذهب أنت وأهلك إلى حيث تشاءون ، فانا ذلك الفتى وافتخر بذلك وأتباهى فلتكف عن الحديث فلم يحولنا إلى جحوش إلا ذلك الملك المكنوش الذى جاء باسم الثورة وانتهى به الأمر إلى النكسة وذلك فرق كبير بين حرف النون وحرف الثاء ، وأنت شاعر تدرك سر الحروف . جاء الدكتور باندیا ووقف يستمع إلى ما أقول ، طلب منى أن أترجم له ما نطقت به وسجلته فلما عرف سألنى فى لهفه :

ولكن ما علاقة كل هذا بنظرية الجحشنه ؟ قلت : اذكر أن الجحش أنقذنى ذات مرة من موت مؤكد ، ذلك لأننى كنت أحبه جدا ركوب الجحش فى صغرى وكنت أسعد كثيرا عندما أركب ويسرع بى وكأنه حصان فى ميدان السباق وامسك بشعر رقبته الطويل ونسابق الريح كان يشعر بى وكنت أكلمه عندما أريد وقد كان مهيبا كبيرا ذا سيقان عالية وظهره عريض منبسط وأذنان كبيرتان وعيون مبحلقة دوما ولكنها حزينه ، كنت أصعد إلى نافذة بيتنا التى شغلت

بالحديد شنالا عربيا يسمح لأمثالي من الأطفال الصغار يتسلقبا وكأنها سلم . وأصعد إلى مستوى ظهره الذي يقترب بمفردة للنافذة وأقفز إلى ظهر الحمار وأسعد بتلك القفزة سعادة طاغية وننطلق لا أحمل أنا هما للدنيا ، وهو أيضا ونجرى نحو حقلنا وكان هذا الحقل على مبعدة كبيرة من بيتنا بحيث كانت المسافة تستغرق ما يقرب من ساعة ، لهذا كنت استمتع بركوب الحمارة فترة طويلة حتى نصل إلى حقلنا فيأتي عمى ويأخذنى بين أحضانه سعيدا فرحا فيجرى الحصان قصدى الحمار مهرولا نحو الحقول ليأكل فإذا أردت العودة فإن عمى يحملنى لأنه لا توجد نافذة ويضمنى على الحمار وهو يسألنى هل تستطيع العودة بمفردك ؟ ونكرر هذه النزهة الجميلة وهذا السباق مع الريح كلما .. سنحت الفرصة أحيانا كل أسبوع وأحيانا كل شهر ولا زالت تحمل تلك الرحلات الجميلة ذكرى عطره كما احمل للبرسيم وزهوره الصغيرة الصفراء ذكرى جميلة وأغمض عينى وأتخيل البرسيم وهو يموج فى موجات مثل البحر الأخضر ومثل سحابات خضراء صغيرة كنت أجرى وأحتضن البرسيم وأنا أتكلم وأحكى معه ، وهو يسمعنى أما إذا ركبت ظهر الحمار فأننى أخاطبه لكى يسرع أو لكى يتوقف لأننى أريد أن أخطف تلك الليمونة الصفراء التى تتدلى من حديقة (أبى كريم) وعند تلك المنطقة المسماه بحديقة ليمون أبى كريم ، كانت هذه المنطقة تضم حديقتين متقابلتين ويكاد الطريق بينهما مظلما من كثافة الأشجار التى تحجب ضوء الشمس ، وذات يوم وأنا أعبر هذه المنطقة ، أحمل عصا صغيرة أشير بها وكأننى فارس بنى هلال العبسى يحارب الاعداء فلما امتطى (ابو زيد الهلالى سلامة) ظهر حصانه رفع سيفه فقال : تم يا (زناتى) ، هات ، أرنى عصاك فأنى اليوم أعلمك بأنك لست ندا لى ، يزوم الزناتى رافعا سيفه خسئت يا أسود ويومك اليوم أسود ، كنت أراقب عمى وهو يقرأ الهلالية وأنا سعيد كل السعادة وها هو أبو زيد يهجم هجمة شرسة على الزناتى خليفة الذى كان صديقة ورفيق رحلته إلى تونس ولكن هاهما اختلفا ويا للأسف ، بنى سلامة يختلفون وينشقون ويتحالفون مع غيرهم وكأن الساحة ، ساحة اليوم هى نفس ساحة الماضى تشاجر العراق مع الكويت وتتخاصم سوريا مع العراق ، وتصطدم ليبيا بمصر وفى إريتريا مشاجرات وفى اليمن خناقات وفى الحبشة مشاحنات وفى السودان مجاعة (وكأنك يابو زيد ما غزيت) وكأن رحلة قومى الأقدمين بنى سلامة لم تسفر إلا عن مشاحنات حول (ناعسة ويونس وأبوزيد) الذى يحارب من أجل البطولة بعد أن كان يبحث عن ماء وطعام لقومه فإذا به يبحث عن مجد زائل ، وبطولة زائفة ويحاول قتل رفيقه الزناتى خليفة الذى يقتل ملك تونس ويتزوج زوجته ويعتلى عرشه ويحارب من أجل هذا العرش الزائل ، فأين أنت يا زناتى ، ألست جحشا كبيرا يا بنى ؟ أنت يا أبا زيد يا فارس بنى عبس يا فارس بنى هلال يا فارس بنى العرب يا فارس من بن سلامة أين أنت يا رجل ، ألست مجرد جحش صغير ركبك قومك فصرت تحارب بسيفك وكأنك حمار يتباهى بشعر رقبته ، فأحيانا يفلت الشعر هكذا مثل سيف مسلول وأحيانا يغمطه فينزلق على رقبته ناعما ذى بريق

تحت وهج الشمس ، ذات يوم يا أبا زيد ركبت حمارى ورفعت عصاتى ملوحا بها وكأنها سيف مسلول أنشدت الزناتى خليفة أنى قاتلك اليوم فهذا هو اليوم السابع فى نزالنا يا زناتى وحمارى أقصد حصانى يجرى مهرولا فى قفزات سريعة الخطى ولكنه يتوقف فجأة ، يبدو أن الزناتى يهاجمنى من المؤخرة ويستدير الحمار فأجد حولى مجموعة من الرجال االثمين لا أرى إلا بريق عيونهم وأيديهم ممتدة استدار الحمار وركل الرجال بقدميه الخلفيتين فيسقط أحدهم ويزداد إصرار الرجال ولكن الحمار ستدير دورة كاملة واقبض أنا عليه بشدة ، بعد أن سيفى على الأرض غصن الليمون الذى كان معى ، وتلتف قدماى الصغيرتان حول رقبته بشدة وهو يستدير كأنه لاعب الباليه ، يرقص ويركل وفى كل ركله يهوى أحدهم ويبتعدون ولكن ليعودوا ليهاجموننى . وأنا اصرخ فى رعب وقد أخذ الخوف منى ما أخذه ، ويصارع حمارى هؤلاء الرجال فى بطولة مستبسلة تى سمعت صوتا من بعيد يأتى تقريبا من عند جميزة (عم عباس) الجناينى يقول جايلك ، أى أنه فى طريق النجدة وينفض الرجال فجأة من حولى عند سماعهم صوت الرجل ويندسون مختفيين فى حديقة الليمون تخفيهم عنى تلك الأشجار الخضراء المحملة بثمار صفراء ويعدو حمارى مسرعا إلى دارنا ، يجرى خلفنا الرجل بحماره أيضا وعندما نصل إلى أبى يتوقف الحمار فجأة وكأنه يقول له ، خذ ابنك فقد ضقت به وتعبت من تلك المطاردة ويأخذنى أبى بين أحضانه وأنا أبكى بشدة فقد كان الخوف لا يزال مستوليا على قلبى كما هو يستولى على قلبى الآن ، الخوف من المطاردة والخوف من المرض يتساويان ، آه لقد أنقذك الحمار من موت محقق قالها الرجل لذى كان يجرى خلفنا ، قالها لى وأبى يحتضنى بشدة ويبكى هو الآخر غير متخيل أو غير متصور أن أحدا من الناس يكرهه إلى مثل هذا الحد فيحاول قتل وحيده ، كان أبى رجلا شهما طيبا كريما محبوبا بين قومه ومحبوبا بين أهل قريته رغم قسوته أحيانا إلا أنه كان كريما إلى حد كبير فأحبه الرجال والنساء فلما ذهبت إلى أمى وجاءت جدتى نسيت الأمر كله تذكرت حمارى وأخذت كمية كبيرة من الفول وكان لدينا الكثير بطبيعة الحال لاشتغال والدى بالتجارة كميات كبيرة هائلة من الفول بحيث أنه من السهل جدا الحصول على هذا الفول بالليل والنهار ، حملت كمية كبير وذهبت بها إلى زريبة بيتنا ووضعتها بحرص شديد وامتنان أشد إلى حمارى الذى اقدم على الفول بجرشه فى سعادة ثم يرفع شفته العليا وينظر نحوى وأنا أضع يدى الصغيرة فوق أرنبة أنفه وأقول له شكرا يا حصاوى وقد كان اسمه بالنسبة لى (حصاوى) لقد أنقذت حياتى وأنا ممتن لك بذلك ، غريبة ، وما الغريب فى هذا الأمر ؟ كلبى أنقذنى من الغرق ، وجحشى أنقذنى من الموت أو القتل على الأقل ولكن حاول قتلى جحش أخر يدعى (ويسبى) من جامعة أكسفورد وكذلك هناك جحشا أخر وضع مستقبلى على حافة الهاوية وكاد يدحرجنى نحو القاع ، وهذا الجحش أيضا لا يستحق رتبه الجحشاويه ، آه ، أسف فالجحش مفيد والجحش أنقذنى وبالتالى هذا لا ينطبق على مستر ويسبى إنما الذى

ينطبق عليه الجحشنه هو ستر يعقوب الذى يحاول الآن إنقاذ حياتى ، أذن فالجحشنة أيها السادة لون من ألوان البطولة فليس الجحش معيبا إلى هذا الحد وعندما نقول أن هذا الرجل حمار لا يعنى هذا أنه رجل تافه أو سئ لأنك تصفه بالوصف الجميل فهو جحش حمال الآسية حمال الهموم منقذ البشرية ، كم حمارا فى مصر ، من يعمل ، هل رأيت ذات مرة حمارا فى أجازه ؟ هل رأيت ذات مرة حمارا يزوغ من الشغل ؟ هل رأيت حمارا كسولا لا يعمل أو حمارا يعمل فى عدة أماكن فى الوقت ذاته ، فى الوقت نفسه لكى يحصل على أجر كل الأماكن التى يجب أن تعطيه نقودا وهو فى نفس الوقت فى مكان واحد ، هل وجدت مثلا حمارا يأخذ من المرضى آلاف الجنيهات بدون وجه حق وبكلمات إنجليزية لا يفهمها عم مبروك ولا عم تبارك ولا عم عباس ولا عم حلوانى ، فقد أخذوا من رملائى المرضى آلافا من الجنيهات وطاروا بهم من معمل إلى معمل ومن فحص إكلينيكى إلى آخر بيزينطى لكى يقولوا لهم فى النهاية أن قلبك يحتاج إلى عملية كبرى ، إلى عملية ذات أهمية يجب أن تجريها ولا يعطيك بعد ذلك ما ينفعك رغم كل ما دفعت ، هل رأيت حمارا يفعل ذلك ؟ هل رأيت حمارا يكذب ، يخادع ينافق ، يقول لك ما لا يؤمن به ، ويقابلك فى بشاشة ثم إذا ذهبت يقول عنك ما لا يقال ؟ هل رأيت حمارا لا يخجل ولا يستحى ؟ هل رأيت حمارا لا يعرف الطريق ؟

أذن فلماذا تغضب يا صديقى من قولى أنك جحش أو أنك حمار أو أنك معى فى مذهب الجحشنة عندما قلت أن تلك اللجان التى تعقد لتنفض وتنفض لتعقد من أجل مبلغ لا يساوى يومية خفير ولكن يتنافس المتنافسون ويأتى المتصارعون يتصارعون على هذا الأجر القليل ثم لا شئ بعد ذلك فيتولى الجحش فى تلك اللجنة مهمة رفع الأثقال وحمل الهموم وكتابة التقارير ويا عم البركة فيك ثم لا يأخذ إلا نفس الأجر الذى حصل عليه الزملاء الذين جاءوا ولا حول لهم ولا قوة بل ولا يقدمون ولا يؤخرون من الحمار أذن أليس هذا صحيحا هذا كلام موزون ، وليس كل مسئول يأخذ فى اليوم الواحد أكثر من عشرين دواء منهم من ينام به ومنهم من يهدأ أعصابه ومنهم ما يصل إلى قلبه ومنهم من يفتك بالداء به أنا لم أقل لكم أن هذه رواية حمقاء ؟ ألستم معى أن الجحشنة يجب أن تسود ؟ وأن ننادى معا وأن نقف فى ميدان التحرير ونقول تحيا الجحشنه ؟ نتحول جميعا إلى جحوش إلى حمير ، يا ريت ، اذهبوا إلى أى مكتب ، إلى إدارة التموين ، إلى إدارة المرور ، إلى أية إدارة أو إلى شركة تحبون فإنكم تجدون والله ، وأن الحمير هربت من قسوة أصحاب الإدارة الذين يتباهون بمناصبهم ألست معى يا دكتور بانديا .

نظر نحوى وقال : حاول أن تتماسك نحن نشق جرحا فى رقبتك ، أمسكت بى (لولا) الممرضة ، ضحكت لأنها تعيش مع رجل لا يريد أن يتزوجها وتدخر لتسافر إلى أمريكا ، ظهر وجه صديقى فاروق ولكنه توارى عندما شاهد الجراحة التى تتم فى حجرتى ، حزنت لأنه

سيتألم ، سوف أقص عليه (نكته) ألفتيا الآن عن الحمير : أفكر في أن .. أن ، أفكر .. ولكن يبدو أن عقلي لا يرد أن يعمل الآن .. هددني مدرس الكيمياء بالطرد من الفصل لأنني كثير الأسئلة ، وقال مدرس اللغة العربية أنني سليط اللسان وقالت أمي لجارتنا أبني خجول مثل البنات ..

الفصل الثالث

أوهام المغترب فى دنيا العجم والعرب ، لقد فكرت فى تغيير اسم الرواية بعد أن مضيت بها على هذا النحو ، فجاء فى ذهنى أن أسميها أوهام المغترب ، فى دنيا العجم أو فى بلاد العجم والعرب ، لا داعى الآن للاسترسال حول التسمية فإن كل اسم له دلالته وفى الإمكان تعليلة بكل العلل على نحو ما ولكن أيضا أن كلمة أوهام من كلمة هموم وهو اسم كتاب صدر لى وهو كتاب نقدى ، ولكن أوهام أقرب إلى طبيعة العمل وإلى طبيعة الرواية إلى حد كبير والتى أقوم بتسجيلها كل يوم ساعة أو بضع ساعة عن طريق شريط جهاز الريكورد الذى احمله فى يدى رغم ضعف يدى وهو صغير الحجم وابنتى تمدنى بالشرائط فأخذ فى تدوين ما يجرى فى رأسى فى الحال لأن الأفكار تسبقنى فأقوم من الألم إلى ألم وأركب سحابه الألم إلى أخرى وانطلق مع مدفع الألم من نقطة إلى أخرى ، ساعة أكون فيها فى أحسن الأحول وترانى الممرضات وأنا ألوح بيدى ، المصابة وكأننى أرقص فيتضاحكن من حولى وكأنى من بلاد العجائب ، بعض الممرضات هنا زرن مصر ويتحدثن بشغف شديد عن الملوخية وعن الهرم وعن قزارة المكان عند الهرم ، ولا أدرى ما علاقة القذارة بالهرم ، الهرم بناء خوفو ، أما القذارة فقد حدثت من الحصان أو من الجمل أو الجحش ألم ننتهى من مسألة الجحش، هذه الممرضات يتحدثن بإعجاب عن الأهرامات وعن قذارة المكان واسمع أن وزير الثقافة ذهب فى وفد كبير من المسؤولين ليروا كيف يستريح السواح هنا ويتفرجون بعد أن أصبح المكان لا يليق لا بخوفو ولا بالحمير وأخشى ما أخشاه أن ينفض هذا الموكب عن منع الحمير ، مع العلم بأن الحمير لا تأكل بالنهار فكل أكلها بالليل ولهذا فكل برازها بالليل أيضا أو أنها لا تخلف تلك المخلفات التى للحصان الذى يأكل طول النهار والجمل أيضا ، مدافعا عن الحمار الذى يركبه السواح ، وأن كانت صلتى بالحمير وركوبى الحمير ارتبط فى ذهنى بقصص الهلالية وأبو زيد سلامة وناعسة ويونس قصص محببة إلى نفسى أسمعها فى شغف شديدا أخوالى يجيدون الحكاوى التى تدعو إلى التفكير ، وكان خالى (عبد العال) يجيد رواية الحكاوى والقصص وكنت شغوفا بذلك كل الشغف ومن تلك الحكايات التى لا زالت فى رأسى ، تلك الحكاية الطريفة التى قصها على أحد أخوالى رحمة الله وافسح له مكانا فى الجنة كثيرا ، ضمنتها رواياتى ومن حق أخوالى أن أشيد بهم ، فما زلت أذكر مثلا قصص ألف ليلة وليلة ، التى كان يقصها على من كتاب أصفر وما زلت أذكر تلك الجنية العجيبة التى تأتى دوما

للشاطر حسن أو الشاطر على أو أى شاطر فى تلك القصص ، لتنتهى المحصور فى آخر لحظة وتقرب البعيد وتأتى لهم بالحبيب وهذا أمر كان عجيبا على عقل هذا الطفل الذى يسعى سعيا لسماع تلك الحواديت بشغف شديد فلا ينام إلا بعد أن تتم القصة ، وسمعت فى سن مبكر قصص آل نجد الذين حاولوا الحصول على طعام فإذا هم يتبعثرون فى البلد أنت أمدتنى تلك القصص عن ملكة طيبة وأميرة وأمير ، ثم جنية شريرة يقابلها وتنافسها جنيه طيبة ، من هذا المربع توجد الحكايات ، فالملك يبحث عن زوج لابنته أو يبحث عن طريقة لإنقاذها أو يكيد له العداء فيخطف ولده الوحيد ، المهم أن يكون هناك ملك وملكة ثم أمير أو أميرة وكأن ملوك زمان كانوا يعرفون تحديد النسل حاولت أن احفظ تلك الحواديت ، فلما كبرت قليلا أخذت فى البحث عن تلك الكتب الصفراء وقرأتها جميعها فإذا بها مختلفة فى روايتها للأحداث ، كل كتاب يروى بطريقته ، عن انتصار لأبى وأخر يشيد ببطولة الزناتى وثالث يشيد بالأمير حسن ولكن الحق يقال أن تلك الحواديت قد خلت من الجنية سواء الشريرة أو الطيبة التى تعرقل قوة الشاطر أو تساعده تقوم المعارك وتنفض ولا يزال الخير ساعيا كما أن الشر لا يزال يقف خلف الستار منتظر الانقضاض ، أخذت حقنة المضاد الحيوى ، جنيه خير تسعى إلى القضاء على جنيات الشر أو السموم أود من الكاتب الذى سيكلف بتحويل هذا العمل من كتاب مسموع إلى كتاب مقروء أن يراعى أن تلك الأوهام فنية تماما فلا يصح العبث بها ، وهذه وصية لمن كان بعدى لأنه يجب نشر الكتاب على هذا النحو من اللخبطه ولهذا أهمية كبرى من وجهه نظرى ، فقد روى توفيق الحكيم حياته فى قصص كثيرة كل ما فى الأمر أنه قد أخفى اسمه ربما لبراءته الشديدة وربما أيضا لخوفه الأشد ، فقد تعامل توفيق الحكيم مع الحمير مع الحمير وله كتاب مشهور أسمه حمار الحكيم وعندما تم تعيين سكرتيرة له جاءت إليه فى أول يوم بمجموعة من التماثيل الصغيرة الطريفة لأنواع من الحمير ووضعتها على مكتبه وضاق بها كل الضيق وحنق على السكرتيرة ثم رفع تماثيل الحمير ورماها من النافذة ويومها علمت أنه لم يكتب رواية حمار الحكيم إلا كبدعة من البدع ، وأحسست أنه لم ير حمارا من قبل ولم يعامل حمارا من قبل وإلا كان أحبه حبا شديدا ، كما أحببت أنا الحمار ولا زالت أحبه حتى الآن أتمنى لأطفالى أن يركبوه ، ودائما كنت أتخيل نفسى عندما أبلغ الخمسين من عمرى سأكون غنيا ومشهورا فأكف عن العمل واشترى مزرعة فى الجبل ، أزرعها عنبا لأننى شديد الولع بالعنب ، ويا جمال هذه الحبات المضمومة فى عنقود يتدلى ، من شجرة صغيرة رقيقة وهو يضوى تحت الشمس كأنه حبات كهرمان ، اصطادها غواص ذكى ووضعها فى ضوء الشمس لتجف فينعكس عليها ضوء الشمس فتبرق فى إشراق ولكن نفسى الآن تعافها ، كم أتمنى قرصا من الطعمية أو أمسك بيد واحدة سطلا من الماء العذب ، ماء نهرنا وأشربه دفعه واحدة ، لا أستطيع الشرب ، الآن مثل

طفل لا يزال فى سن الرضاعة ، يشرب جرعة جرعة فلا تشفى غليله من العطش ، ولا تروى ظمأ ، وأحلم بكوز من الماء البارد من بير الجنايني ويعطيه لى عمى وأمسك به بيدى الاثنتين وأضعه على فمى وأشعر بالماء ينزلق إلى جوفى يروينى ولسانى يستطيب طعم الماء وحلقى قد ذهب عنه جفافه ، وأرتوى حتى أشبع ثم لا يزال فى الكوز ماء ولا يزال فى البئر ماء ، ماء عذب أمسك بالقلة الفخار تضعها أختى الصغيرة على نافذة دارنا وتغطيها بغطاء أصفر اللون ، مزركش عليه عصفورة جميلة ذات جناحين وقد همت بالطيران وغطاء أبيض جميل شفاف يضم القلة فى وداعة وكأنها عروس (حسن عبد المنعم) الذى كتب قصه عن فتاة ظل هو يحبها سنوات ثم يكتشف بعد السنوات الطويلة أنها مجرد قلة ، قد غطتها صاحبتها بملاءة بيضاء وراحت أحلام عمنا المرحوم حسن عبد المنعم ، وقد حزنت حزنا شديداً عندما كتبت نقداً قاسيا حول تلك القصة وقصص أخرى كان قد نشرها الأديب حسن عبد المنعم الذى شغل فى آخر أيامه رئيسا لاتحاد الإذاعة والتليفزيون ، جئت إليه بعد أن نشرت مقالى القاسى فى مجلة الثقافة وكان لى مطلب عنده فأجاب مطلبى وأشر على أوراقى بما أسعدنى ، ولم يناقشنى فى مقالى النقدى فأعجبت به إعجابا شديدا وعدت لقراءة تلك القصة ، قصة القلة وأن كنت لازلت حتى يومنا هذا أتعجب من سذاجة القصة ولكنى بعد أن قرأتها مرة ثانية وثالثة أحترمه احتراما كبيرا وقارنته بهؤلاء العباقرة الذين يكتبون عن العجب العجاب ، الذى يجرى فى مصر بالذات وكان مصر فعلا بلد العجائب الغريبة والشذوذ وكل الأفعال الغريبة ، يكتبون عن هذا أدبا مكشوفا ويقبضون أحيانا بالدولار وأحيانا بعملة سمعت أنهم لغوها تسمى الروبل أعود إلى نظام البحشنه وأعود إلى تدليل الحمير وكيف لعبت دورا فى قصص الأولين ، كيف كانت فى قصص ألف ليلة وليلة ، كيف لعبت دورا كبيرا فى كل الحواديت الشعبية ، سمعت قصة الجنيه التى تحولت إلى حمار وكيف خرجت من البحر على هيئه حمار فرأتها عم (مغاورى) الذى كان جارنا بجوار النهر يحرس أرضهم من الفيضان فعلم بذكائه أنها جنيه ، فأسرع بغرز المسلة فى ظهرها فظلت هكذا حمارا ، ولما سمعت تلك القصة من خالى عبد العال ، وكان مجاورا لعم مغاورى ظللت طوال مدة تزيد عن أسبوع وأنا أحملق فى كل الحمير التى أراها ، وأسالها فى عبث ، هل أنت الجنيه ؟ كنت أود أن أنزع المسلة لتعود الجنيه إلى أولادها ، ذهبت لأرى حمار عم مغاورى وكانت خيبتى ثقيلة عندما اكتشفت أن عم مغاورى لا يملك حمارا ، فلما سألت خالى بعد ذلك ، ضحك ولم يجب ثم روى لى قصه أخرى بها حمير أخرى قلت : لم ألا يوجد فى قصصك ألا الحمير ؟ قال : بل والثيران قال أنه فى ذات يوم من الأيام عندما كانوا يقيمون صوامع الغلال ، فإذا بأرنبين صغيرين يتسللان داخل مخزن الغلال خلسة وعندما امتلأت المخازن أقاموا عليها الحراس والخفر وبعد عام إحتاجوا إلى الغلال فأخذوا يحفرون المخازن ويرفعون الغطاء عنها فلما فعلوا ذلك إذا

بثورين هائجين يخرجان في شراسة وعنف وفر الفلاحون خوفا وهم ينظرون خلفهم ويتعجبون من أين أتت تلك الثيران هل أتت فعلا من مخازن الغلال ؟ المدورة المصنوعة من الطين أم أنهم جنيات فلما سألت خالى من أين تلك الثيران فعلا ؟ وكيف ظلت حبيسة على هذا النحو وهى بهذا الحجم الذى تخيلته قال ألم اذكر لك أنهم كانوا فى الأصل أرانب صغيرة ، أكلت من القمح ما شاء لها فتحولت من أرانب إلى ثيران، دخلت الممرضة السمراء ، كانت تقوم بعملها فى صمت وغضب ، ولكنى اكتشفت بعد أن أعطيتها الفرصة لكى تتحدث عن نفسها أنها سيدة طيبة القلب عطوفة لديها ولدان فى المدرسة ، وأنها تحب الزهور ، جاء الأطباء لأخذ عينه دم وكان لابد من أن أترك جسدى لهم أدخل فى ذكرياتى فأذهب بعيدا إلى طفولتى وكان أول مصدر للمعرفة هى جدتى ، التى تتحدث عن تلك الفترة التى عاشتها فى بور سعيد حيث كان يعمل جدى وكيف كان رجلا وقورا ومشهورا وموظفا مرموقا فى تلك الشركة الكبيرة التى تدير وتملك قناة السويس وكانوا يسكنون فى منطقة جميلة بها حدائق مزهرة وكيف ترعرع والدى فى تلك المناطق الجميلة ، وكيف كان يأكل الشيكولاته ثم تتحدث جدتى كثير عن طهو أنواع السمك الجمبرى والأستاكوزا وغيرها التى أسمع عنها الآن ولا أراها ولا أستطيع بالتأكيد شرائها جدتى . سيدة واقعية جدا لا تملك خيالا تعطيك أياه ، إنما تملك بعض الأمثال الشعبية تقولها كل حين وكانت جدتى بيضاء بياضا يشبه وجوه الملائكة لها وجها جميلا بهى الطلعة مستديرا به حمرة قليلة تذكرك بتلك الأيام الخوالى لأميرات السلاطين وكان جدى يسمع كلامها ويعاملها فى حرص بالغ وهى حريصه عليه كل الحرص حبيبة إلى قلبه وعندما يطلب (العجوة) التى كان يحبها لا تعطيه بسهولة بل تقول له أنها نفذت وأعلم أن فى صندوقها الكثير من (العجوة) وعندما يلح جدى وتحضر القليل منها وبالطبع أكل أنا وهو فى تلذذ ثم يصنع قهوته فى كنكة نحاسية كبيرة موضوعه على جمر فى أناء فخارى وكان جدى لا يحكى الحواديت التى تغرى طفل مثلى بأن يجلس بجواره لكن كانت الفائدة الأولى أن أجلس إليه واستمع إلى كل ما يقوله واحفظه عن ظهر قلب وكان لجدى اهتمام بالسياسة فهو قد عاش زمن سعد زغلول والثورة المصرية أم ثورات مصر والعالم العربى متحيزا لها يأخذ فى قراءة الجريدة اليومية (المصرى لسان حزب الوفد) ويشرح لى كل الأحداث وتاريخ أهم أبطالها ، هذا هو (النقراشى باشا) وذاك هو (أحمد عبد الهادى) ويتحدث عن (حسن البنا) فى إشفاق وحب وأنا جالس أنصت وهو يتحدث معى وكأننى قطب من أقطاب السياسة ، أفهم الدوافع الخلفية لمرامى السياسة المصرية ثم يشرح لى كيف استعمر الإنجليز العالم وكيف قسموه إلى مناطق نفوذ بينهم وبين فرنسا ويقول أن تلك الدولة البعيدة والمسماه أمريكا سوف تقوم بدور كبير فى المستقبل القريب أحيانا يدخن (الجوزة) وكنت اندهش تماما من رؤية رجلا مثقفا ومتعلما وكان موظفا كبيرا يجلس هكذا مثل الفلاحين ويشرب

(الجوزة) ، هى نفس الجوزة التى أرها فى يد فلاحين مثل (أبو اليزيد) و (العجمى) و (عباس الجناينى) ، كيف يعمل ما استنكره أنا على الفلاحين الأجراء الذين يعملون فى حقلنا أو فى دور الآخرين وحقولهم ولكن جدى لم يكن له هواية إلا أن يجلس هكذا يصنع القهوة بنفسه ويشربها فى تمتع وتلذذ ، ثم بعدها يمسك بالجوزة ويشد الدخان ليخرجه حلقات متتالية من دخان أبيض له رائحة نفاذه ، فأسعل أنا بشدة وأرتعد ، فتأتى جدتى سريعا على سعالى وتبعدنى وتقول له يا رجل كف عن هذا ، لم يكن بك تلك العادة عندما كنت شابا ورجلا ، فيضحك جدى ويقول لها لم أصل بعد سن العواجيز ، ويضحكان وأشعر أنا بالخجل وكأننى أمام عرّوسين فى ليلة زفافهما كما شاهدت بعد ذلك هذا المشهد مرارا ، مع عمتى وزوجها العريس أبن عمتى أيضا ، جدتى لعبت دورا كبيرا فى حياتى حتى حصلت على التوجيهية ، فقد كنت أنام فى حضنها منذ أن ولدت إلى أن شببت عن الطوق وأصبحت حاصلا على التوجيهية ولكن أغلب الأيام وأغلب الليالى وخاصة فى الأجازات حيث يكون لى فراغا من المذاكرة أو العمل أو القراءة ، أذهب إلى حجرتها وأجلس معها وأنام فى حضنها وقد أحببت جدتى حبا شديدا فهى كريمة اليد معطاءة جميلة البشرة كأنها ملاك ، تتعامل مع كل الناس بحب شديد ولا تعرف مطلقا معنى الكراهية ، فهى دائما حبيبة لبيبة ذكية مع كل الناس ، تحلب اللبن وهى التى تشرف على البيت كله ، هى التى تعد الطبيخ وتعد الطعام وتعد الخزين ولا أحد سواها ، أشعر برغبة شديدة فى البكاء ، اعتذر الطبيب معتقد أن نصله الحاد هو سبب بكائى ، ولكنى تذكرت جدتى التى ماتت وتركتنى وحيدا أناضل من أجل الحياة ، ياه .. أحاول أن استمر وملكة البيت فهى جدتى ملكة متوجه ولكنها ليست مثل حتشبسوت التى اغتصبت الحكم من أخيها وحاولت أن تمحوا اسمه من كل المعابد ، كتبت اسمها وحكمت بقبضة من نار شعب مصر وصارت فرعونا ، جدتى لم تكن فرعونا ولم تكن مجرد ملكة بل سيدة كريمة ، ذات يدين ملآى بالخير ينقر الحمام الـ... وتلتقط العصافير أكلها ويرتوى العطشان وتلمس المريض فإذا هو يشفى وتعطى بغير حساب ، فهذا يأكل حتى يشبع وذاك يسأل ولا أحد يقول له لا ، فجدتى لديها دوما طعاما لمن يطلب لديها كساء لكل من يطلبه ومن لا يطلبه ، كانت جدتى لا تفرغ من عمل القهوة ، وبراد الشاى لا يفرغ من الشاى ، لا تروى الحواديت فقط تضرب الأمثال وتنصح النساء بالابتعاد عن الكلام ، السيدة يجب ألا تتكلم ، أن تهتم بأمور بيتها وأن تكون سيدة لا أن تكون ثرثارة ، ترعى بيتها كما ترعى حقوق الله ، وهى تعطف على أمى وتقول لها دوما يا عمتى ، وقد احترت ذات مرة فسألت جدتى أنك أمى ولكن تلك السمراء كيف تكون أمى وأنت أيضا أمى ؟ تبسم وجهها وأضاء مثل لمبة كبيرة من لمبات نمرة عشرة وقالت هى أمك وعمتى أيضا وأخذت تشرح لى تشابكات أسرية لم أفهمها وقتها ، فخالى يقول له أبى يا خال وجدتى تقول

لأمى يا عمتى وعندما كبرت فهمت أن تلك الأسماء يطلقونها على سبيل الاحترام ، وأن كانت الحقيقة التى عرفتها فيما بعد أن تشابك المصاهرات فى أسرتنا أدت إلى هذا ، فأصبحت أمى عمة لجدتى فى المنزلة ولكن ليست عمتها المباشرة وخالى هو فى نفس الوقت خال أبى توحدت الأصول واختلفت الفروع ولكنهم ما نسوا أبدا أنهم من نسل واحد فتمسكوا بتلك القربى وازدادوا لها تمسكا مع الأحداث ، واذكر أنه ذات مرة اشتبك عمى فى مشاجرة عنيفة وكنا فى شهر رمضان وسمعنا ونحن نتناول طعام الإفطار بعد يوم عمل شاق أن عمى قد طعن ، وكنت أدرك فى ذلك الوقت معنى الأشياء إلى حدا ما فرأيت أبى فارسا مثل أبى زيد الهلالى يرفع سيفه ومن خلفه الأعمام والأخوال وأبناء الأخوال فى ضراوة الاسود وكان فى شر مستطير ، وعندما رأت تلك الأسرة الثورة العارمة التى ثارها أبى ومن خلفه بقية الأسرة فروا فرار القط أمام الأسد وذهبوا إلى الحقول وأبى يرفع قضيبا حديدا طويلا وأخذ يلوح بها فى السماء رافعا إياها وكأنها عصاة رفيعة يستهان بحملها . فخاف الناس أشد الخوف ، واستطاع بعض العقلاء الذين لا ينضمون إلى أسرة من الأسر أن يأتوا بعمى (سليما) معافا وهو يصيح فى أبى (يا أخى أنا بخير وكل ما حدث بينى وبينهم مزاح شباب طايش) وتوقف أبى ونظر إليه فوجده سليما معافا يبتسم فى هدؤ فصفعه صفعة قوية القته أرضا وأبى يردد لقد كدت أقتل الناس بلا جريمة والعياذ بالله ، وكان الناس من خوفهم قد تهربوا إلى الحقول لما عرفوه عن أبى من شدة وقسوة ، ولكنه هدأ وراح يناديهم حتى يعودوا ، وأقسم ألا يفطر حتى يعود الناس ، أوحشتنى يا أبى .. أعلم أنك لم تعلم بمرضى ولا بسفرى .. ذهب الطبيب بعد أن أنهى الجراحة جدتى لعبت دوراً حيويا فى حياتى وأخوالى كانوا مصدر الحكايات الخيالية والأسطورية الشعبية وكانت جدتى مصدر الواقع الذى نعيشه ومثالا للعطاء والكرم والجود وحسن المقابلة وأيضا الكثير من التقوى ، تقوى الله والتمسك بالدين وكان جدى مصدرا لما يمكن أن يسمى بالحس الوطنى الذى تفجر فى صدرى منذ أن كنت صغيرا وعندما بلغت مبلغ الشباب كنت من المتطوعين لمحاربة الإنجليز ، كان الحس الوطنى يدفعنى لكى أتدرب والتحق بكتائب الفدائين ، ودفعتنى أحوال جدى وما حدث له على يد الإنجليز ، عندما كان يعمل فى شركة قناة السويس ، وعند أول حادث حدث له تخلوا عنه ، فعاد إلى قريته وهو لا يملك شيئا بعد أن سلبوه كل شىء ، وعلمنى جدى أن الثورة فى القاهرة والإسكندرية والسويس ودمياط وأسوان فى ساعة واحدة وكان بينهم اتفاق وصوت واحد (هبوا أيها المصريون وأنزعوا عنكم القيد الحديدى) رأيت أهلى فى بلدتنا وهم وقوفا مثل أحجار سد عالية بأجسادهم وأيديهم خالية ليمنعوا طوفان النهر فى مواسم الفيضان ، يقف كل شاب منهم فى منطقة يرعاها ، يتصايحون ليل نهار يسدون الثغرات فلا يستطيع النهر أن يهزمنا وأحيانا يفشلون وعندما يفشلون لا يتركون أرض المعركة يسرعون إلى القوارب ينقذون ما

يمكن إنقاذه من النباتات والمحاصيل ولا يهم زرع من ومحصول من ، الكل يعمل رجالا ونساء وأطفالا ، كلنا فى وقت واحد أيدى تحصد ، أيدى تجمع ، أيدى تدفع القوارب ، أيدي تأخذ من القوارب وتضع على الجسور ، لا أحد يسأل لمن هذا المحصول ؟ عليه فقط أن ينقذ ما يمكن إنقاذه ، ثم إذا فعلوا ذلك قسموا ما استطاع تقسيمه ولم يفلح أحد أن يجعل الجماعة تترك الأرض وزراعتها ، ولكن للأسف منذ عشر أعوام أحسست أن هذا المعنى قد بدأ ينهار ، هذه أرض خصبه جدا ، يملكها مجموعة من الفلاحين موزعون على أسر القرية عندما تغرق فى الفيضان ثم ينحصر عنها وتركها أرضا ملساء فى نعومه جلد الأطفال ، تبرق فى الشمس مثل وهج الذهب وكنا نحن الأطفال نجرى عليها وأحيانا ننزلق عليها ونحن فى قمة السعادة نتضاحك ونتبادل الأماكن ونقول من يصل إلى الشجرة يكون ملكا ولا ندرى لماذا دائما صورة الملك القادر على فعل أى شئ يعجز عن فعله الإنسان العادى ، من يتزوج أم كلثوم لابد أن يكون ملكا ، والملك يستطيع تحطيم هذا الحجر ، فالملك عندنا يأكل خروفا محشوا بالحمام ولدية سريرا مفروشا بريش النعام وحوله الوزراء والجند يأمر فيطعيون وأحيانا يكون حكيما بارعا متفوق فى الذكاء ، هذه هى صورة الملك فى عقولنا نحن أطفال البلدة فمن يستطيع أن يهزم فلانا الذى يلعب بالعصا مثل رضوان غير الملك ؟ من يستطيع أن يتفوق فى لعبة الضمة إلا الملك ؟ من يستطيع القفز إلى نهر النيل عند منطقة الجسر إلا الملك شخص وحيد اسمه (سمك) يغوص فى تلك المنطقة التى تلتهم شابا كل شهر لأن بها جنيه كبيرة تبتلع كل من يحاول أن يدخل إلى بحرها ولكن (سمك) يغوص بها فى عز البرد ويأتي إلينا بسمكة رعاشة دسمة تطبخها أمى فى أناء فخارى تضعه فى الفرن ليخرج إلينا طعاما طيب الرائحة ولذيذ الطعم ، ودوما يأتى خالى (سمك) حاملا أناء يحتوى على هذا النوع من السمك كل أسبوع تقريبا فيقدمه لأمى فى الفجر حتى لايراه أحد ، ترك جدى العمل فى بورسعيد ، وقعد فى البيت وهو لا يزال عنده الكثير من الفتوة ، يقبع خلف ال... د الذى يدس فيه كنكته ليصنع القهوة السوداء ، ثم بعد ذلك يشرب الجوزة ، فاقبع بجواره ولا حديث له عن ثورة ١٩ وما حدث لها وكيف صارت إلى ما صارت إليه ، مجموعة من الأحزاب تتناحر والملك يفعل ما يشاء ، والوزارة تقبض على الإخوان مرة على الشيوعيين مرة على ناس أبرياء كثير من الأحيان ، وكنت أنا صغير السن أفهم ما يقوله جدى وأحيانا لا افهمه يتحدث بلغة غريبة يغضب سألت جدتى ماذا يقول ؟ كانت تضحك وتقول : عندما يكون غاضبا يتحدث بلغة أسياده يتحدث بالتركمانية حتى لا يفهمه أحد وأحيانا يشتمنا بلغة فرنسية ولكنه أثرى عقلى وجعلنى ألتفت إلى كل العلوم فأحببت الرياضيات كما أحببت علوم الطبيعة والكيمياء والأدب بكل ألوانه كنت أبارز من كان أكبر منى فى شعر أبى العلاء والمتنبى وامروء القيس وغيرهم لأن جدى كان مولعا بهولاء فدفعنى إلى حبهم لم يكن فى

بيتنا أطفال كنت الطفل الوحيد المدلل ، فى تلك الأسرة الكبيرة التى كان لا يـزال معظم أفرادها من الشباب أو الذين تزوجوا ولم ينجبوا فأصبحت أنا المدلل بينهم أتجول بين أحضان جدتى لأمى وجدتى لأبى أو زوجات عمى أو زوجات خالى فأنا لى فى كل بيت حجرة ولى فى كـل بيت مطلبا فإذا لم ترضخ تلك الأسرة أو زوجه العم أو الجدة بما أطلب أخرج غاضبا ألتمس الشئ نفسـه فى بيت عم لى أو خال أو جده وكثيرا ما لبت جدتى نفس الطلب فى نفـس الوقت فـأطلب مثلا أرزا معمرا وكان يطيب ، فاذهب إلى حليمة وأقـول لها يـا حليمـة هـل لديـك أرزا معمـرا ؟ فتجيب بالإيجاب وأرى صنية الرز المعمر أو طاجن الرز المعمر وقد خرج توا من الفرن ، تتضعه أمامى ثـم تدس يدها فى وسطه فتخرج قبضه وتضعها فى الطبق ثم تطعمنى إياه قطعة قطعة وعندما أضيـق بها أجرى جريا إلى جدتى ست أبوها فـإذا بـها وكأنـها هـى نفسـها جدتـى حليمـة قـد وضعت قبضتها فى طبق الأرز ساخنا تفوح رائحته الذكية ويسيل لعابى مرة أخرى فتضع فى فمـى بضـع حبات منه أتذوقها فى تلذذ وأنعم بالنظر إلى جدتى وأحيانا كنت أنام تـوا على حجرها التدلـل يدفعنى للغضب أو التظاهر بالغضب لكى أحظى بالمزيد من التدليـل مـن زوجـه أخـوالى وأعمامى ويأتى عمى ويقول يجب إلا تجلس مجالس النساء فأنت رجل ويجب أن تجلس مجالس الرجال أبى لا يجلس مجالس النساء ولم أره قط يجلس مـع أمـى أو جدتـى أراه فـى البيت أمـا نائما أو مصليا أو فى عمل لم أره قط يجلس مجالس النساء فهو فى الفجر حتى منتصف الليـل ، لا يـأتى إلى البيت إلا لكى يأكل ثم يصلى ثم ينام ثـم يصحو ليصلى ثـم ذهب إلى تجارتـه فليأكل هنـاك إفطاره وبعد أن كبرت قليلا كنت اللازمة ، وكان أبى يحب الشاى حبا شديدا ، وقـد أخـذت عنـه ذلك فكنت ولعا بالشاى إلى درجة غريبة ولأن الشاى فى محلانا لا يكلفنا شراءه لبذا فـأن وأبـور السبرتو تراه مشتعلا دائما أسفل البراد وكوب الشاى الثقيل جدا ، مر المذاق باستمرار يكـون فـى يدى لا يفرغ أبدا ، وقد تولى (العجمى) ذلـك لعـدة سنوات ، هذا العجمـى الذى كنت أسميـه ترباس الفقر لأنه يقال أنه عندما ولد أشهر أبيه إفلاسه بعد أن كان من أغنى الأغنياء فى بلدتنـا ولأنه عاطل لا يعمل إلا أن يجلس بجوارى لكى يحضر الماء البارد ويصنع لى الشاى عندمـا أطابـه فى مقابل قروش زهيدة من أبى ، وكنـت أقـول لـه أنـك تربـاس الفقـر ولكـن الرجـل أصبح الآن صاحب عربات (اسكانيا) ثمن الواحدة منها مليونا من الجنيهات ولدية العديد منها تقدم (أحمد القطرى) وهو ابن جارتى فى المستشفى ووضع أمامى برادا وكوبا وأخذ يصب لى الشاى ، حـاولت أن اشرب ولكنى لم أستطع يبدو أنهم أحدثوا بحلقى جرحا لا أقدر علـى البلـع ، حـاول هـو أن يسـاعدنى ، أنه يدرس السياحة ويشعر أننى قريب منه ... تعلمـت مـن جدتـى كيـف كـان مينـا موحد القطرين عظيما وكيف كان حكمته إذا نظر من نافذة بيته وقال يا الهـى لا تحاسبنى علـى جائع لا أراه أليس هذا مـا قالـه أيضـا (عمـر بـن الخطـاب) ثـم يقولـون أيضـا أنـه حـاكم مستبد

(بريستد) عالم الآثار المشهور أمريكانى الجنسية يثبت لنا أن خوفو الفرعونى الذى أسس الأسرة الرابعة وبنى مجد مصر القديمة كان حكيما وعادلا وبلغت مصر أرقى درجة من درجات الحضارة لم تصل إليها بلد بعدها علمنى جدى كيف أكون تحتمس وأحمد عرابى وسعد زغلول فى آن واحد ، كيف أكون مصريا كيف أعشق النيل وتراب الأرض وزرع الفلاح ، كيف أغمس جسدى كله فى قريتى ملتصقا بدارى ولهذا لم أغادر بلدى رغم المعاناة ، لم أعمل فى الخارج على الرغم من كل الاغراءات ، سافرت إلى بلاد العالم وشرقية أو غربية ولكنى دوما أشعر بالحنين فأعود سريعا ذات مرة أنا أعبر ميدانا كبيرا فى نابولى سمعت صوت عبد الوهاب وهو يتغنى بالجندول وتوقفت وكادت السيارات تصدمنى فلما تنبهت عبرت الميدان بسرعة ثم أخذت أدور فى الميدان بحثا عن المقهى التى تذيع أغنية الجندول وطالت دورتى ولم انجح فى الوصول إلى مصدر تلك الأغنية ثم اكتشفت بعد ذلك أن هذا الأمر يتكرر معى فى أماكن كثيرة فطنت إلى أنه قادم من أعماق رأسى أنا ، وعلمت أن هذا ما علمنى اياه جدى الذى كان يعشق الموسيقى والغناء وكان لديه (جرامفون) يضع الأسطوانات فيشدو عبد الوهاب بأغانيه القديمة وأطرب مع جدى ونتحد مع الموسيقى وعندما كبرت كنت لا أترك حفلا موسيقيا إلا وحضرته وذات مرة ذهبت إلى حفلة للموسيقى العربية لفرقة تركية لم أسمع إلا المقدمة وفى نهاية الحفل ومع تصفيق الجماهير صحوت وأنا فى شدة الخجل وفى شدة الغيظ أيضا ويتكرر هذا فى سوريا حضرت الحفل وكانت أيضا موسيقى عربية تعزفها فرقة تركية صحوت كأننى كنت فى حلم ، لهاتين الحفلتين بموسيقى وردية فى نفس ألجأ إليهما كلما حل بى الألم ومنذ قليل أعطونى حقنا وحملونى من السرير إلى المقعد وأردت أن استعيد نشاطى ولكنى لم أفلح ، فقط سمعت الموسيقى ، تعلمت عن جدى هذا الذى لا يتحدث عن ماضية وكأن الشركة التى كان يعمل بها فى قناة السويس لم تفعل به شيئا ، لم تطرده بعد أن تحطمت ضلوعه فى العمل لم تعطه أجرا ولا تعويضا ولم تعالجه بل شطبت اسمه من السجلات وعندما سأل أبى عنه قالوا أنه لم يكن يعمل هنا ، أبى كان يعرفهم واحدا واحدا وكانوا كثيرا يتملقونه ويجلبون له الشيكولاته من هولندا وفرنسا وإنجلترا من أجل جدى ولكن بعد أن طردوه ونقله المصريون إلى أحد المستشفيات الأميرية فى الحى العربى قالوا لا نعرفه مكث شهرا ثم عاد إلى قريتنا مريضا مهيض الجناح لا مال ولا ادخار وكأنه لم يكن يعمل فى شركة عالمية كبيرة تربح الملايين ، أبى كان يقص على تلك القصة مرات عديدة وفى كل مرة بأشكال مختلفة حتى أنك فى كل مرة تسمعه يحكيها تظن أنك تسمعها لأول مرة فهو حكاء شديد الذكاء من الممكن أن يحكى عن شىء تافه جدا وحكاية لا تستحق الرواية إلا أنه يحكيها بطريقة تجعلك تظن أنها أهم حكاية فى حياته وفى حياتك أنت أيضا ، يدخل (بانديا) ليعاود أخذ عينة من الدم ويقول : يجب أن تصبر وأن تتحمل ، وراح

يبحث عن موضع يصلح لوضع الحقنة واستمر ذلك طويلا ، أبى يحكى قصة جدى بطريقة مشوقة وكل مرة يضيف إليها العديد ، وقد سمعتها عنه عشرات بل مئات المرات وفى كل مرة اشعر كأننى أسمعها لأول مرة ، تعلمت من أبى أيضا كيف كان أمرؤ القيس شجاعا وكيف كان عرابى قائد شجاعا وليس خائنا كما كانوا يقولون تعلمت من أبى شجاعة الحزم وشجاعة القرار ولم يتراجع أبدا ، وأيضا تعلمت منه كيف يكون العطاء جميلا للنفس وليس لأنه مجرد عطاء وكرم بل هو مثل جمال النفس عندما تسمو وتشعر بها الذات فقد سمت هى أيضا وقد تعلمت من أمى الحلم والرقة وكيف أعامل الناس وأنا ابتسم وأن كنت أتألم من الداخل وتعلمت الإيمان من جدتى ، كيف يكون الإيمان مطبقا لا ريبة فيه ، ولا حكمة ولا فلسفة بل هو إيمان مطلق بالله لا تزعزعه شائبة شك وكيف تكون صلاة النفس جميلة تروى النفس بالكثير من الاحساسات المبهجة والسعيدة تعلمت من جدتى أيضا كيف يتحمل الإنسان الألم مهما كان هذا الألم عظيما وتعلمت من أخوالى الحكمة فقد سمعت منهم آلاف الحواديت والقصص التى توحى بذلك وتعلمت من أعمامى أشياء كثيرة نعلمت من أعمامى أشياء كثيرة تعلمت كيف أصنع لنفسى مركبا من الحشائش وكيف أصنع أرنبا وحصانا من طين الأرض ، وكان لى عم يسجن كثيرا رحمه الله بسبب انضمامه لجماعة الأخوان وفى سجن القلعة كان يصنع لنفسه شطرنج من لقم الخبز ويصنع مثله لزملائه ويصنع الكثير من الأشياء البسيطة وكان يعلمنى كيف أصنع من الأشياء التافهة أشياء نافعة فإذا ما كبرت وجدت الكتب فى دكان الفسخانى ورحت التهمها التهاما ، كنت أطوق إلى المعرفة مكتوبة فلما عرفت القراءة والكتابة حتى بدأت علاقتى بالكتاب وبالكلمة المكتوبة دائما أهرب إليها واقض مع الكتب ساعات وساعات بل كنت أتحمل من أجل هذا الكثير من المعاناة وأن كان وقتى مقسما إلى ثلاث ، الذهاب إلى المدرسة وهذا واجب ثم معاونة أبى فى تجارته وهذا أمر حتمى لا يمكن أن أتخلف عنه وكان يستغرق منى نفس الوقت الذى تستغرقه الدراسة فلا يبقى أمامى إلا وقت النوم فأسطو عليه لكى اقرأ المزيد .. نجح الدكتور فى أخذ عينة من دمى كان أحد زوارى فى انتظار السماح له بالدخول ، فأذنوا له ، فأخبرنى أن مقالاتى التى كتبتها قد بدأت تنشر فى الاهرام ، وأن أحد كتبى يباع هنا عند ناشر عربى ، حاولت الاتصال بأصدقاء لى فى دبى ، ولكن يبدو أن شيئا ما قد حدث ، لانهم تغيروا من ناحيتى ، لا أدرى لماذا أخسر الأصدقاء بسرعة ، كانوا يتعاملون معى بود خالص ولكن تغير الحال ولم يعودوا كذلك ، كنت أعرف أن لا شىء يهم ، لم تعد للحياة فائدة مأمولة ولكنى أحارب هذا الأمر فى داخلى ، أتظاهر بالمرح والتماسك ، على الرغم من الخواء الذى أعيشه ، لم تعد للأشياء مذاق . كما لم تعد للحياة معنى ، وأخيرا سمعت صوت زوجتى ...

المغترب فى بلاد العجم والعرب أنا ذلك المغترب أشعر تحسنا ظاهرا فى حالتى أبدو من

الخارج متماسكا إلى حد ما ، والحمد لله له الشكر هو الشافى قالت الممرضة ، عندما رأتنى فيالصباح ، أن الله معك ، ابتسمت فى سعادة لأنها تعرف الله ، الجميع هنا من جنسيات مختلفة يدينون بأديان متعددة ويبدو الدين فى الاعماق مستترا ، المشاكل هنا كبيرة تكاد تعصف بحياتهم عصفا ، ويتصورون أنهم مواطنون درجة ثانية رغم أن بعضهم قد ولد هنا فى لندن، فأقاموا مساكنهم ، وأنشأوا مزارعهم ، وعملوا فى جد واجتهاد ، فى مصانع إنجلترا وغزوا شرايينها بالمال، فجاء أبنائهم لكى يرثوا عنهم العمل الشاق والاجتهاد وعلو المكانة أيضا خصوصا المكانة العلمية وهنا اشهر الأطباء من المصرين وأشهر الممرضات من بنجلاديش ومن ماليزيا واندونيسيا وإيران وباكستان وغ برها من البلدان ، الزنوج كما قلت كثرة ، الجميع هنا يعمل باجتهاد ولكن عندما تجلس مع إحداهن أو بعض الأطباء المشاهير فأنك ستجد أن فى الأعماق آلاما مدفونة ومشكلات تحيط بهن وبهم لا حدود لها مثل أمواج البحر الذى يعصف بالجزيرة الإنجليزية ذاتها ، بل أن الإنجليز أنفسهم يعانون من المشكلات وليسوا كما يحلو للبعض أن يصورهم، ففى أوروبا لم يوافقوا على الواحد وتراجعوا إلى قومياتهم ، فرنسا تحرم استخدام لغة غير الفرنسية ، وإيطاليا كذلك ، أنهم يخشون على أنفسهم من الذوبان فى أوروبا الموحدة ، الانجليز هنا يتحفظون والجميع يعيشون فى حالة اضطراب قاس ، الذين يقولون لك غير ذلك أقاموا أسبوعا أو أسبوعين جاءوا لكى يشاهدوا ميدان بيكاديللى ويتنزهون فى هايدبارك ورأوا العجب العجاب ثم عادوا ليروا القصص والحكايات ولكنى أعيش الآن منذ زمن طويل نسبيا أشهر طويلة كافية أن أتأمل وخاصة أننى لم أر بيكاديللى أو غيره كما اسمع من زملائى المرضى الذين خرجوا ثم عادوا ليعيدون الكشف كيف انبهروا بالحمام وهو يروح ويغدو فى سلام وكيف أن القطار تحت الارض يسير بسرعة هائلة ويصل إلى عدة أماكن ويضحكون ، قد ينفقون كل المال على ملابس وأشياء تافهة مصنوعة فى ماليزيا وإندونيسيا وهمنج كونج ، حتى الطعام القادم من تلك البلدان ، ومن هولندا والباكستان والهند ومصر ، كل الاطعمة اتو بها من بلدان مختلفة ، ثم لا شيء بعد ذلك ، أهم مشكلة تواجه الفتيات الإنجليزيات أو الاجنبيات الائى يتجنسن بالجنسية البريطانية هى الزواج فلا احد يتزوج ، لا يريد الشباب أن يتزوج ، أن كل شيء مباح ومتاح العمل والطعام والجنس فلماذا يتزوج ، الشقة موجودة ولكنها لا تسمح فقط إلا بدخول الصديقة ليلة أو ليلتين إذا أرادت أو أراد هما الاثنين وربما تقيم معه إقامة كاملة يتعاونان ، كل منهما يطهو الطعام فى يوم راحته ، أو يطهو بدلا من صديق يعمل ليلا أو نهارا ويتبادلان النكت يتبادلان الجنس ثم لا شيء بعد ذلك ، هذا أمر طبيعى ، تسألها ولما تسألينه الزواج ؟ فأنت تقيمين معه إقامة كاملة مثل الزوج والزوجة ، تقول لى هذا معناه أن يخرج من حياتى ولا يعود ، كيف أعيش أذن وقد اقتربت من الأربعين ، كيف

اطلب منه الزواج هذا معناه أن يرحل إلى واحدة أصغر منى وأجمل فى عالم يضج بالفتيات الائى يتحفزن للانقضاض على الرجال ، والرجال يتقاذفون البنات كما يتبادل لاعبى الكرة فى الملاعب ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، كثيرا ما جلست مع آباء من كل الجنسيات ، يتحدثون بمرارة عن البنات ، كلهم يرغبون فى تزويج بناتهم سواء كانوا من المسلمين أو من هؤلاء الذين لم يعودوا يؤمنون بأى دين ، أنهم جميعا يعانون من هذا الكابوس الذى يسمى الزواج ، فلا زواج ولا يحزنون بل هناك من المآسى ما يندى له الجبين ، هناك نظام تبادل الزوجات وهذا معمول به ومشهود للعيان وهناك زواج الشواذ مسموح به قانونا فى داخل الكنيسة ، الشيطان هنا رحل منذ فترة طويلة ، لم يعد له مكان لأن الإنسان تحول إلى شيطان ، تقول لك الفتاة أنا أعمل طوال الأسبوع عشر ساعات وأحيانا أكثر ، ثم أعود إلى غرفتى ، كيف نعيش ؟ لا تسلية ولا يحزنون ، إذن أذهب إلى أى طريق وآتى بالصديق فكلنا هنا مثل العبيد ليسلينى ليعاشرنى ثم يذهب ، وأعود لكى أفعل ذلك فى اليوم التالى ، فلما سألت أذن ما المصير وإلى أين ؟ ابتسمت ، ولكنى لمحت فى دمعة تسقط فى حزن وهى تقول ، أنت رجل وأب كريم ، وقد بلغت الأربعين ثم لا ولد ولا بنت رأتنى متكدرا صاحت فى تهلل سأسافر بعد أسبوعين إلى كاليفورنيا قلت : وصديقك ، قالت : يذهب معى ، نسافر لأرى ابن أخى الذى رزق به بعد طول غياب وعمره الآن أكثر من شهرين هى متلهفة لرؤيته وسوف تتكبد مبالغ باهظة للسفر من لندن إلى كاليفورنيا وتقيم شهرا عند أخيها ، لقد دفع كل منا ثمن التذكرة ، قلت وهل صديقك هذا يقيم معك منذ فترة ؟ قالت نعم ، قدمت إلى الطعام ، اكتفيت بأكل قطعة سمك حضر الآن الدكتور (شرم برم) آسف لاستخدامى هذا الاسم فأسمه ليس كذلك ولكنى اقترحت أن أسميه به لغرابة أسمه الأصلى ولما سألت عن جنسيته قالوا أنه من جنوب الهند ، من تلك الجماعة التى تناضل من أجل الانفصال عن الهند وتشكل جمهورية مستقلة هناك يقتلون المسلمين ، كرهته لأنه من طائفة تدعو للقتل ، أما هو فرقيق الحال ورقيق المعشر ولطيف ومجتهد ويعد من الأطباء المشاهير هنا لمهارته ، ينادونه (شرم بروم) كما أطلقت عليه الاسم منذ أن قدمنا ألى لندن وكل الناس هنا يقول لك الطبيب شرم برم ، فنضحك وهم لا يعلمون ما مدى ما يحمل هذا الاسم من دلاله فى اللهجة العامية المصرية ، اللهجات هنا متعددة فأنت تسمع الإنجليزية بلهجات مختلفة ، أحيانا لا تفهم وأحيانا تفهم ولكن الكل يعمل ولا أحد يتوقف خوفا من البطالة التى بلغت بين الشباب إلى خمس وعشرين بالمائة من تعداد خريجى الجامعة والمدارس وكبيرة الممرضات لديها ولد يتعلم فى معاهد عليا فى الكمبيوتر للحصول على درجة الدكتوراة ومع هذا يأخذها الآسى عندماتسألها عن عمله ؟ تقول لا يعمل ولا أمل فى عمله فى المستقبل وتذكرت عندما قدمنا إلى مطار هيرثو كان الغضب باديا على وجه أحد العمال ، الذى قال بانفعال أن ولده عمره ثمانية عشرة

من الأعوام لا زال لصيقا به يأكل ويشرب على نفقته ، نعيش فى عالم مليئ بالمآسى ، حضرت سيدة وقالت : أكثر من ثلاثين سيدة هندية سوف يقيمون فى الغد ما يمكن أن يسمى بحلقة ذكر ، لختم القرآن الكريم ، يقرأون فى خشوع وتذلل إلى الله سبحانه وتعالى وسوف يستمر هذا الذكر من الحادية عشرة ويأخذ وقتا طويلا وربما يمتد حتى ما بعد صلاة العصر لكى يتوسلون إلى الله لشفائك ولشفاء بقية نزلاء هذا المستشفى من المسلمين ، ولما ظهرت الدهشة على وجهى لان هناك من السيدات الهنديات من يؤمن بالله ، ورسوله ، ويقيمن الصلاة والذكر هو حلقة ذكر ، ذكرتنى بتلك الأمسيات الجميلة التى كنت أقضيها فى (ضريح سيدى يوسف) الذى يقع أما بيتنا مباشرة وكنت أحضر حلقات الذكر هذه ، وأسعد بها ولا يزال ذكراها فى عقلى وفى خيالى ألجأ إليها أحيانا لألتمس الراحة بل أننى عندما أخبرونى هذا الخبر أختلط الأمس بالماضى واختلطت لدى ذكريات عبقة من ذكريات تلك الأمسيات الجميلة التى كنت أقضيها دوما مندسا بين أرجل الرجال وهم يرددون بصوت متهدج الله الله ، وينشد المنشدون بصوت جميل عذب مديحا فى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، تبدأ الحلقة بذكر الله فى تؤدة ، على صوت المنشد الذى يقود حلقة الذكر بصفقة يصفقها بيديه فيحدث الإيقاع الذى يجب أن يتناسب مع ذكر اسم الله جل جلاله ثم يبدأ المنشد بإنشاد مديح فى رسول الله أو دعاء إلى الله سبحانه وتعالى ، كنت وأنا صغير لا أفهم ما يقوله ولكن قلبى كان يفزع وعينى كانت تدمع ، أذكر الله سبحانه وتعالى ، ثم يبدأ المنشد فى الإسراع مع ارتفاع الإيقاع تدريجيا حتى يصل إلى الذروة فإذا بالرجال يتطوحون فى سرعة مبهرة وكأنهم يدورون حول أنفسهم واسم الله جل جلاله يتردد بسرعة فى دوران وكأنه دوران الأرض ثم دوران الكواكب وهكذا وكأن العالم كله يقوم على ميزان واحد ميزان صنعه الله ، مع إسراع المنشد مع إسراع الدعاء مع إسراع الحركة دوران الأجساد والرجال ، أشعر أنا بأنى مجرد سحابة وسط الحلقة العملاقة من رجال يدورون فى سرعة ، وتدور الدنيا تمضى ، ولا يبقى إلا الله .. الحى القيوم .. الحى القيوم .. تدمع عينى .. تمسك بى ابنتى والسيدة تصف ما كان يحدث من ... فون ، وكأن الزمن يعود إلى نفس النقطة فى البداية ، وأن أختلف الناس من هنود نيودلهى إلى رعاة الأغنام فى الواحات الكل متحد فى ذكر الله ، أليس هذا يحتاج إلى تدبر وتفكير ؟ تعود التقاليد الإسلامية فى غاية الرقة والعذوبة إلى ما كانت عليه منذ قديم الزمان تتكرر حلقات الذكر كما كانت تتكرر فى الماضى بنفس الطقوس بنفس العادات ،وان كان العالم من حولنا ، قد تطور تطورا علميا مذهلا ، الذين كانوا يقيمون حلقات الذكر فى الماضى كانوا مجرد فلاحين أجراء لا يفقهون من أمر دنياهم إلا أن يعملوا بأيديهم فى الحقول ثم يعودون مجهدين إلى دورهم فإذا ما دعوا إلى حلقة ذكر فإذا بهم يسرعون إلى ذكر يأخذ منهم جهدا كبيرا حتى يتساقط الرجال بعد أكثر من ثلاث ساعات من الجهد العضلى والذهنى ، الآن

نفس الرجال والنساء وأن كانوا يحملون شهادات الدكتوراة يفعلون هذا . يدفعنى هذا إلى التأمل ونحن نتحدث فى هذا الفصل عن مصادر المعرفة وهل المعرفة يمكن أن تكون فطرية أى موجودة فى عقل الإنسان وفقا للتفسير الدينى أن الله خلق الإنسان وعلمه والإنسان مطلق أى أنه آدم ومحمود وعلى وحسين وجورج وثريا وأمنيه ويشبنه وهكذا . الاسم الذى حدده فى القرآن هو آدم وادم نسخة تتكرر فأنت الآن فى نهاية القرن العشرين ومع هذا أنت آدم ، آدم بشحمة ولحمة وبخصاله وطبيعته وفطرته علمك الله كما علم جدك الكبير آدم تتكرر النسخ وتتكرر المنسوخات كما اراد الله وكما خلقها الله ، فالمصدر إذن واحد وما تعلمه آدم تعلمته فالتسليم بوحدانية الله أمر من الله سبحانه وتعالى فطرى فى الإنسان ربما يردد جسدك وأنت لا تدرى لا اله إلا الله ، فما من شئ إلا يسبح بحمده و خلاياك تسبح بحمد الله والكفار أيام قريش كانوا يقسمون بالله ، دخلت مسجداً به ضريح مقام لأحد أولياء الله الصالحين . هكذا يقولون ، يدور الناس حول المقام سبعا ويقرأون سورة الفاتحة سبعاً ثم آيات من ذكر الله ثم يتوسلون إلى هذا المقام وإلى صاحبه لكى يشفى مريضهم أو ينجح ولدهم أو يحل لهم مشكلاتهم وما أكثر المشكلات ويقال أن صندوق النذور فى أحد الأضرحة بلغت حصلته أكثر من خمسة ملايين من الجنيهات ، الناس يدفعون لأولياء الله الصالحين لكى يتوسلون بدورهم إلى الله كان هذا منذ سنوات وربما لا يزال ولكن الأغلبية الآن تعود إلى مصادر المعرفة الحقيقية فيتحلقون فى حلقات ذكر تقام فى القاهرة فى ضواحى فينا وبرلين وميونخ وموسكو واز باكستان ، اللهم لا اله إلا أنت لك دينك ، نصرته وحفظته ونحن مجرد عبيد لك ، نعود إلى مصادر المعرفة ولكن يلهينى الحديث دوما حول تلك النقطة التى تكاد تأخذ بتلابيبى حول مصدر المعرفة ، الله سبحانه وتعالى هو العارف والذى يلهم الإنسان فكيف يؤلف المؤلف أشياء لم يرها ؟ وكيف يكتب الشاعر أشياء لم يدركها بالمحسوسات العقلية أو المحسوسات الإدراكية ؟ كيف يتصور صور لم تحدث وكيف يتخيل أخيلة لم تحدث ؟ لابد أن هناك مصدرا من مصادر المعرفة ومصدر المعرفة هنا هو الله ، علم الإنسان ، علم الإنسان مالا يعلم ولنا فى ذلك حديث آخر ، فقد جاء الأطباء يبدو أن الأمر خطير وجوههم توحى بخطورة ملموسة يقدمون عليه الألم الحاد يعصف بى يا الله .. مد إلى مددك ادركنى برحمتك .. يا الله .. دخلت مندرة سيدى يوسف يمتلئ المكان بالبخور ذى الرائحة الجميلة يتصاعد من الموقد الفخارى المملوء بقطع كبيرة من جمر نتج من إحراق عدة أفرع من شجر الليمون وضعوا عليه ذلك البخور الجميل الذى يصنعه عم (عبد الصادق) وهو حارس مندرة سيدى يوسف صناع العطور ، يصنع ماء الورد وعطر الياسمين وعطر الورد تتصاعد الروائح الطيبة من تلك الأجهزة الصفيحية المتراصة فى ركن من المندرة والتى يصنع فيها عم عبد الصادق عطورا متعددة ذات الروائح الفواحة عندما دخلت أعطانى أحدهم زجاجة صغيرة بها

مقدار قليل من عطر الليمون ، شعرت به انتشيت دائما ما أنتشي عندما أدخل إلى حديقة من حدائق الليمون في موسم ظهور زهوره الصغيرة الدقيقة البيضاء رائحتها توحى إلىّ بالسكينة أذهب معها إلى عوامل متعددة ، جلست في نهاية الصف على الحصير ثم جاء الشيخ رائد حلقات الذكر وهو رجل رفيع جدا أسمر الوجه ذو لحية بيضاء يرتدى جلبابا واسعا وقام الجميع وراحوا يقبلون يده واحدا تلو الآخر حتى جاء دورى وقبلت يده ، فنظر إلى في دهشة ، جلسوا بعد أن جلس ، جاء عم عبد الصادق بفناجين القهوة ، فنجان دقيق صغير لا يتسع إلا رشفة أو رشفتان ، قدم لكل رجل منا فنجانا ، وأعطانى أنا أيضا ، أعامل معاملة الرجال أسعدنى هذا ، لسعنى شراب القهوة الساخن جدا تحملت ، شربت الفنجان على دفعة واحدة وضعته بجوارى وجاء عم عبد الصادق وجمع الفناجين القهوة الفارغة ، نظر نحونا الشيخ وبدأ الإنشاد (بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين وأشهد أن لا اله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وأستغفره وأتوب إليه باسمك اللهم باسم أسماءك الحسنى التى نعلمها والتى لا نعلمها أو التى أخفيتها عن عبادك نسألك الخير كله والزاد كله والحب كله ، (يا منان) ونردد خلفه الله الله الله الصمد الله الله الله الواحد الله الله الله الأول الآخر الجبار المنتقم العاطى الوهاب الرزاق نسرع إذا أسرع ونبطأ إذا بطأ يا رسول الله " صلى الله عليه وسلم " يا بهى الطلعة يا حلو اللسان ، يا نصير الضعفاء ، يا سيد البشر يا محمد ، نردد خلفه عليه الصلاة والسلام سعيد جدا أطير من الفرحة أتصور نفسى حاجا إلى بيت الله أركب جملا كما رأيت جدى يركب جملا أحمل الزاد والزواد ، أكياس من تمر وأكياس من قمح وأكياس من شعير وأكياس من سكر وأقداح من زيت وأقداح من عسل ، وعاد جدى ويسمنا الجمل الذى ركبه وجلس جدى في المندرة ووزع السبح المزركشة والجلاليب والعباءات البيضاء والناس تقبل يده وهو يحكى كيف ذهب ثم كيف عاد ، كان يعطى كل من حوله حفنة من قمح فيجرشها بأسنانه ونحن ندهش كيف يأكلون القمح دون طحن يبتسم ويقول جوعى ماذا يفعلون ؟ وأبكى لماذا هم جوعى وهم بجوار الكعبة ؟ يا ليتنا نعيش هناك ، وذهبت إلى هناك منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما وبدلا من الجمل ركبت طائرة وبدلا من الأرز والزيت والسكر والشعير والقمح حملت معى كما أمرتنى زوجتى خبزا طازجا وكحكا وفطيرا تمرا وسكرا وذهبت محملا بالزاد والزواد كما فعل جدى وان أختلف الزاد وأختلف الزواد ، فلم أحمل قرب الماء ولا زيت الزيتون ولا الشاى ولا السكر بل حملت خبزا وكحكا وفطائر وعجائن ولدائن صنعتها زوجتى واستغرقت في صنعها زمنا ولكنها سعيد كل السعادة لذهاب زوجها الشاب إلى الحج كما فعل أجداده ، كانت تتمنى أن ترافقنى ولكنى ذهبت بمفردى ذهبت وكلى شوق لكننى لا أدرى ماذا أفعل ؟ لم أقرأ كتابا عن الحج ، لم أحفظ المصحف الشريف ، لم أكن مشغولا بهذه الأمور شغلتنى تجارب كثيرة وعديدة في الحياة كانت صلتى

بالصلاة مثل سائر المسلمين ، أؤديها في مواعيدها ونحفظ قل هو الله أحد وإذا جاء نصر الله والفتح ، وأنا أعطيناك الكوثر ، ألم ترى كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، هذا يكفى لصلاة الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء وأيضا النوافل ، أعلن أحدهم أن التليفزيون سيذيع صلاة الجمعة من مكة مباشرة على القناة الفضائية العربية ، أسرعوا وأداروا القناة المقصودة ، ورأيت الكعبة كم مرة رأيتها كم مرة جلست قبالتها وطوفت حولها ، وسعدت وأنا أراقب حمام الكعبة وهو يدور حولها فى دوائر . جاء الدكتور (باندبا) وقال ماذا حدث ، كنت مشغولا بالنظر إلى صورة الكعبة ، الأوامر ألا نحمل نقودا إلى الخارج تكفى مائة جنيه هل تكفى مائة جنيه ؟ لكى تنفق على أنفسنا خلال وجودنا وأين ثمن الذبيحة التى سوف نذبحها ذهبت لأحد أصدقائى أستشيره قال لماذا نقول لهم أن معاك كذا أقول : أبدا حجتى بكذبه ؟ قال لا تقل شيئا إذا سألوك ، قلت لكن النية قال لا تكن أحمقا ، خذ معك ما يكفى من نقود تمكث شهرا أو يزيد حملت زادى وزوادى وبعض نقود وقلت إذا أخذوها منى يكون ذلك زكاة وإذا بقيت أتزكى بها فالله عنده حسن الثواب وانطلقت بنا الطائرة ودخلت مطار جدة وصدمتنى درجة الحرارة ودرجة التقدم والتكنولوجيا فى المطار ثم بعد ذلك لم أرى إلا صحراء جرداء وجبال سوداء مرتفعة ذات رائحة غريبة تمنيت أنا أقابل عم عبد الصادق صانع العطور ليعطينى (زلعة) مملوءة بالعطر أضعها حول أنفى فالجبال تنفخ فحيحا ذى رائحة غريبة ، وتذكرت أن من صفات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) استخدام العطور قبل أن يذهب إلى مسجده ويستخدم السواك لفمه ويرتدى دائما نظيف الثياب وأجمله وقلت: ما أصدقك يا رسول الله أن تكون مثالاً للإنسانية منذ أن خلقت وحتى نهاية العالم فأنت تقول للإنسان أن ترتدى أجمل ملابسك وتأخذ زينتك عند كل صلاة وأن تتعطر وأن تبدو أنيقا منسقاً جميل الوجه ما أحلاك .. يا رسول الله وما أجملك ، هبطنا إلى مكة دخلنا الحرم تلسعنى درجة الحرارة لم أعد أتحملها لم أتحمل طنين المراوح ، رددت الدعاء ، فعلت كل ما يجب عمله وأنا أدور وأهبط وأنزل إلى ماء زمزم أرتشف الماء فأشعر بالراحة نتشاجر ونختلف فنحن هكذا فى كل مكان نختلف حتى حول سريرى و أنا مريض أشعر بتعب شديد للشجار الذى دار حولى لأن الطبيب أجل عملياته الجراحية اليوم وأصبحت أنا مصدر المعلومات الموثوق به فأنا أقيم هنا منذ زمن طويل وكل يوم الجمعة وبعد الصلاة يأتى المرضى وأغلبهم من إخواننا المصريين وتسرع الممرضات والأطباء نحوى من لا يعرف الإنجليزية ترجمت له ومن كان خائفا طمأنته ويقولون : لماذا أنت هكذا أقول لأننى جنس آخر عملياتى الجراحية أجريت لى فى مستشفى غير هذا وتكثر الأسئلة ، وصوتى لا يسعفنى ، لماذا وضعوك هكذا ولماذا هذه الأسلاك الكثيرة وهل سيفعلون هذا بنا وهل أنت متألم لماذا تبتسم ؟ أقول بعد أسبوع ستخرجون من هذا المستشفى معافين أصحاء إن شاء الله ، افتح تسجيلاتى لكى يسمعوا القرآن الكريم ها هى أول

سورة البقرة "اسمعوا أيها الإخوة لا تكونوا إلا مع الله ، الله أكبر إنتهى الحج يا حجاج بيت الله " سنذهب إلى مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أردد طلع البدر علينا من ثنيات الوداع يا جماله يا حلاوته يدق قلبى فرحا تفرح نفسى ياه .. أنا ذاهب إلى رسول الله فى المدينة ندخل المدينة به جبال عالية سوداء جهمة ، قالوا من هنا كانت رؤية الرسول " صلى الله عليه وسلم " وهنا غنى الرجال والفتيات والنساء طلع البدر علينا من ثنيات الوداع ، إذن هذه ثنيات الوداع ، لا تكونى ثنيات الوداع نحن ندخل مدينة رسول الله ، ندخل إلى قلب رسول الله ، نحن أبناء أمة رسول الله أتباع رسول الله نخن فى حمى رسول الله ، دخلنا مدينة واسعة متسعة الأرجاء قالوا نُجلس حتى آذان المغرب الحرارة شديدة تصل إلى ما فوق الخمسين ، صحت انجلس دون أن نستأذن من رسول الله ، قلت لرفيقى : هيا إلى رسول الله " صلى الله عليه وسلم " لنسلم عليه ونستأذنه ثم نعود ، هكذا تكون الضيافة فنحن فى مدينة التى دعا الله سبحانه وتعالى أن يحببها كنا يحببها حب ولن أطعم طعاما ولن أضع جسدى على الأرض ألا بعد أن اسلم على رسول الله ، وكان كان يفعل(كساب) فى شارع سيدى يوسف الذى كان دوما فى جرى مستمر يضع جلبابه بين أسنانه ويجرى خلف الحمار ليمسك به ، ثم إذا أمسكه انطلق قافزا على ظهره سعيدا مرحا كأنه يركب طائرة حربية ذاهبة لقتال ، جريت حتى وقفت أمام مقام رسول الله "صلى الله عليه وسلم" أردد فى نفسى لاهثة ها أنا قد جئت يا رسول الله السلام عليك يا رسول الله ، ماذا أقول بعد ذلك ؟ اختفت الكلمات كل ما حفظنى إياه الشيخ ضاع .. بعد أن ادخل من باب السلام أفعل كذا كل هذا ذهب ولم يبق إلا أننى فى حضرة رسول الله لأول مرة وأننى فرح أشد الفرح لا أحد يستطيع أن يسابقنى وكأننى أنا الوحيد الذى يقف بن يديه وليس هناك عشرات بل مئات يقفون بجوارى والمكان يضيق بهم ،انهم يرددون الأدعيات ويدعون بكل الألسن ، بكل اللغات نحن اتباعك يا رسول الله وأنت المشفع لنا يوم القيامة ، صلى الله عليه يا رسول الله جذبنى أحد ودفعنى بعيدا لأن صوتى كان جهيرا ، تأدب يا رجل فأنت فى حضرة رسول الله تأدب وجلست على مبعدة ، لكننى أشعر أننى لست موجودا وإننى أحلم انقسم إلى اثنين ، أحدهما يظل قابعا وراقدا مكانه يبحلق فى الا رين ويسمع صوتهم والآخر هناك فى أماكن متعددة أنا الآن نصفى الثانى ، ولكن أين النصف ..؟ حاولت البحث عنه ، أنا لا أرى النصف الأول ، أنا لا أرى يقينا أنا لا أرى نصفى ، لا أرى إلا المنمات الخضراء الجميلة فى مسجد رسول الله المصابيح المزركشة من القرآن الرابع ... من الخامس والسابع ، منمنمات ومزركشات ، هذا بناء السلطان(قلاوون) سلطان مصر والعرب والمسلمين ، إذن هذه حقيقة أنا اجلس فى الروضة الشريفة ويقال أنه إذا جاء أحد وألقى السلام على رسول الله يحيه الله ليرد السلام إذن فأنا فى حضرة رسول الله ورأيت رسول الله وألقيت عليه السلام وأحياه الله ورد السلام ، ما أعظمنى إذن ، يا

فرحتى سوف أقص ذلك على أولادى ، يا الله لقد رأيت يا جدى مقام رسول الله ، ذهبت وجئت ولم أجدك يا جدى ولم أحك لك الحكاية ، لقد حكيت لى عشرات الحكايات ، كيف كنت تشترى الخروف بعشرة مليمات والجاموسة بعشرة قروش وكيف كنت تقبض فى الشهر الواحد أربعة جنيهات تنفق منها على أسرتك وكيف كان المليم ينقسم إلى عشرة برنزات تشترى ببرنزة بنا وسكرا وشايا وتصنع للضيوف وتكرمهم ، .. آه يا جدى لقد جئت هنا وكل شئ بالريال والريال فى ذلك الوقت كان بضعة قروش ، تصور يا جدى أن الجنية الآن يساوى ريالا ، هكذا يا جدى صار الغلاء ، آه يا جدى لماذا أخذتنى ؟ إلى الحديث معك وأنا بجوار رسول الله ، لا يا جدى لقد تعبت من الحديث عن (النحاس باشا) و(عن سعد زغلول) وعن (مصطفى كامل) وعن (أحمد عرابى) وعن (عنترة) ، لا يا جدى يكفى هذا ، يجب أن أتعلم من غيرك ، وذهبت إلى روما وتعلمت الإيطانية وتعلمت علم القيادة وأخذت درجات علمية ، ثم عدت يا جدى ورويت لأبنائى من الشباب وقصصت ودرست واشتغلت ولكنهم يا جدى اتهمونى بسرقة سبعة قروش ونصف بعد كل ما فعلت ، اتهمونى لأننى قلت يجب أن تؤمن بالله وكتبه وبرسله وبأنبيائه ذلك لأننى قلت أننى عبد الله ، آه يا جدى لا تسرقنى مرة أخرى فى الحديث عن أشياء مضت ، أنا الآن فى حضرة رسول الله يجب أن أتحيلها يا جدى أود أن أصلى فى مسجد رسول الله فى درجة حرارة مساوية لدرجة حرارة المصلى الذى أقمته أنت على الترعة أتذكر هذه الترعة يا جدى ؟ أتذكر تلك المصلى الصغير الذى لا يتسع إلا لثلاثة أو أربعة رجال كنت تصلى بهم العصر جماعة وأصلى خلفك ، حصير قديم متهالك ، ومجموعة من الأحجار تصل إلى منتصف الترعة لكى يتوضأ الرجال عليها وتجلس أنت فى صمت ومعك مسبحتك تذكر الله عليها فيأتى الرجال ، الجناينى ومبليحى وعم محمود وتكبر أنت الله أكبر نويت صلاة العصر أكبر خلفك يا جدى وأنا أرتعش من السعادة ها أنا أصلى خلف الرجال أنا أصلى إذا فأنا مؤمن ولأننى مؤمن فأنا عبد من عباد الله وأستحق ذلك أنا إنسان وعبد مؤمن أنا من عبادك ومن المؤمنين بك يا الله وإنسان خلقته كبشر أخطأ وأصيب وأنجح وأفشل نجحت يا جدى فى الدراسة ولكنى فشلت فى الحياة أهلمونى هددونى بالسجن بالمعتقل طردونى كلما ذهبت إلى عمل أجيده يا جدى ويضطرون لفصلى فصلت ثلاثة عشرة مرة ياه يا جدى لقد أخذتنى مرة أخرى قلت ليكفى علمك وتعليمك يكفى أنك أصبت فى بورسعيد ففصلوك مرة واحدة يا جدى فعدت إلى بلدتنا لا تخرج من البيت إلا إلى الحقل ومن الحقل للمسجد ، أما أنا فقد ذهبت إلى برلين وموسكو وإلى روما وإلى بلاد فرنسية وإنجليزية وتعلمت هنا وهناك وألقيت محاضرات هنا وهناك فى نيودلهى ودبى والرياض ومكة وفى تونس وليبيا والسودان وما أدراك ما السودان يا جدى ذهبت فى زمن التحط فى زمن الفقر الدكر يا جدى لماذا تستولى على هكذا دعنى أحكى الحكاية ، دعنى أحكى حتى استريح سأخبرك فى

البداية إننى الآن فى عمرة لا تسألنى متى ؟ لا تسألنى عن عدد العمرات أنا اذهب كلاما اشتقت وأنا اشتاق لذلك كل يوم ولكن ما باليد حيلة كما ادخرت مبلغا من المال ذهبت واسعد بذهابى وأغضب لعودتى أنا الآن أنا وابنتى الصغرى وصلنا إلى المدينة بعد رحلة شاقة طويلة بالسيارة فى ذلك الطريق الضيق الذى تهددة الحوداث لا تسألنى عن التوقيت والعدد والأرقام دعنى أحكى الحكاية كما يحلو لى . الدم ينبثق من صدرى بعد يوم كامل من السفر الطويل ابنتى تجلس بالحجرة فى فندق جميل وها هو التليفزيون يعرض أشياء جميلة الثلاجة عامرة إن شاء الله وملبسنا فى دولاب محفوظة وسرائر ممدودة والأرض مفروشة بسجاد ناعم وكأنه فرو الإبل والتكييف يجعل من الحجرة ربيعا كاملا وكأنه ريف قريتنا كل شئ هنا جميل بالفندق تركت ابنتى وقلت لها ذاهب للسلام على رسول الله واتجهت خارجا أخذت كل الأموال التى كانت معنا لكى أغيرها إلى عملة سعودية ولأشترى أيضا حاجات الإقامة وطعاما لى ولابنتى اتجهت نحو المسجد قال له : يا عمر أجبنى فقال عمر : نعم يا رسول الله قال الرسول أكثر من نفسك صمت عمر فقال رسول الله " صلى الله عليه وسلم " أنت لم تؤمن بعد يا عمر وبعد فترة من زمن أعاد رسول الله "صلى الله عليه وسلم " السؤال مرة أخرى أتحبنى يا عمر قال : بلى يا رسول الله أنت بأبى وأمى يا رسول الله قال أتحبنى أكثر من نفسك قال بلى يا رسول الله أكثر من نفسى قال رسول الله "صلى الله عليه وسلم " : الآن آمنت يا عمر ، فما أنا بعمر . جريت ودخلت المسجد مباشرة حيث يوجد رسول الله " صلى الله عليه وسلم " ألقيت السلام أخذتنى رعدة ، هذه ليست أول مرة ولا ثالث مرة ولا عاشر مرة ، بل ربما هى الألف أو تزيد التى أقف فيها أمام رسول الله ، الطفل يتمنى بين الرجال وهم ينشدون صلوات الله على محمد " صلى الله عليه وسلم " وأنا أردد مثلهم ، وعينى تبكى وجسدى يرتعد ويرتعش ؛ وتقفز فى ذهنى صورة نقودى رفعت يدى لحظة واحدة ثم أعدتها إلى جيبى ، الناس يتزاحمون ، يتلاطمون ، يتقاذفون ، الكل يندفع تجاه قبر رسول الله ، رأيتك يا رسول الله مرتين وسمعتك مرتين ، هل أراك مرة ثالثة ؟ هل فى العمر بقية لأن أراك . هل أراك فى الآخرة ؟ يا الله يا باسط يا عفو يا كريم يا الله يا مرسل الرسل ، رفعت يدى لحظة وخفضتها ، لم أجد النقود ، صرخت من أعماقى يا الله يا الله كن معى حتى لا أغضب ، ولا أحزن ولا أيأس ، كل النقود ضاعت فى لحظه لاتهم النقود ، هل أنا على خطأ ، خفت على نفسى من الإثم وخفت على نفسى من فعل يغضب الله ورسول ، جاءنى رجل من هؤلاء الذين يقفون بجوار قبر رسول الله ، ينظمون سيرة الحشد القادم إلى المقصورة ، قال : أضاع منك شئ يا ولدى هززت رأسى قال عليك بالضابط ، قلت فى نفسى ، ماذا يفعل الضابط أنا الجأ لمن هو أقوى ، وأكبر وأعظم من الضابط أنا ألجأ إلى الله أخشى من أن أخطأ أمام رسول الكريم ذهبت حتى مؤخرة المسجد ، جلست وحدى ، عقلى مشتت ، جسدى يرتعد لا أدرى هل أنا حزين على المال

أم حزين على نفسى ؟ أم حزين على أن ما حدث يعد أمرا يعاقبنى به الله لإثم قد ارتكبته ، حاولت أن أتذكر أسم الفندق ولكنى لم أستطيع . تلبسنى شئ غامض ، حيرتنى الأفكار ، لا أتذكر الشوارع ، لا أتذكر أسم الفندق الذى تركت فيه ابنتى لا حيلة لى ، ماذا أفعل ؟ سرقت نقودى ، كلها وبقيت أنا وابنتى وحيدين ، ماذا نفعل ؟ كيف نأكل ونشرب ؟ كيف نفى بوعودنا ؟ ماذا سيحدث ؟ ولماذا حدث ؟ ها أنا قد أصبحت فى الإثم ، يا جدى ، كم نصحتنى دوما بأن نفى بالوعد ويجب ألا ييأس الإنسان من رحمة الله ، ويجب ألا يحزن على شئ ضاع . كم أطعمت من رزق بيد الله ، ولكن يا جدى أنا حزين لأننى سرقت أمام رسول الله " صلى الله عليه وسلم" أنا إذن إنسان آثم ، إنسان قد ارتكب معصية ، ظللت طوال الليل أصلى فى مكان ، واذهب إلى مكان آخر ، أنام هنا وأرقد هنا ، وأج... هنا يلتبسنى الخوف الحزن ، الضياع ولا تعرف قدماى الطريق إلى الفندق ولا يتذكر عقلى اسم الفندق الذى سكنته . اليوم الخميس وجدت نفسى أدور فى مسجد رسول الله ، طوال الليل ، ليلة الجمعة ، حتى صلاة الجمعة ، صليت فى الشمس عاقبت نفسى بأن أجلس فى الشمس والحرارة هائلة والجو صيف ، عاقبت نفسى لأننى آثم ، أبكى ما ضاع ، على الرغم من أننى لم أبك على شئ أبدا ضاع منى ، فقدت الكثير والكثير عندما تعاقدت على أعمالى اكتشفت بعد ذلك أن من أخذ أعمالى ظل يساومنى ويراوغنى ويتهرب منى حتى أننى لم اسأل عن حقى بعد ذلك ، تكرر هذا كثيرا ، جدى : المعرفة تأتى من الله سبحانه وتعالى يعلمك ، بالتجربة يعلمك أشياء لم تكن تحلم بان تعرفها انتهت صلاة الجمعة لو سمعوا قول الإمام وعملوا ما صار أمرى هكذا ولكن ها هم يجلسون فى تأثر وصمت وبعضهم يبكى فى حرارة وبعضهم يجلس فى خشوع تام ثم لا شئ بعد ذلك ، ينتهى الإمام والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، الأبواب تكاد تسد بطوابير مزدحمة من الرجال كل منهم يحمل حذاءه وينصرفون بعد قليل الشوارع بجوار المسجد مليئة بالبشر يشترون ويساومون ، ويضحكون ، ويتندرون ، ويسألون عن أسعار العملة ، ليس معى المال ما أساوم به اكتفى بالجلوس ، رأيت شيخى الذى كان يقف فى أول الصف عندما كنت صغيرا بذقنه البيضاء المحببة وجلبابه الواسع رأيته يقول للناس كلاما جميلا خيط من الكلمات الجميلة التى تهدى النفس ، عندما انصرف الناس من حوله ، اقتربت منه ، كنت ابحث عن من أحادثه أقول له ما يشغلنى لعلى أخرج من حالتى ، مضى وقت طويل وأنا أتحادث مع جدى أقول له عن أشياء يضحك منها وأقول له يا جدى بدلا من أن أحادث نفسى وأتحدث مع جدتى أقول لها انظرى يا جدتى ها هى علبة الكبريت افتحها من هنا تدخل الذبابة ثم نفتحها من هنا تخرج ، علبة الكبريت يا جدتى هى الدنيا تنظر إلى فى أسى تقول يا ولدى من سيموت فى أسرتنا أهز رأسى وأضحك ثم أجرى مسرعا منفلتا خائفا من نظراتها التى تفضح رغبتى فى البوح بسر ما لا أدرى هل هو سر أم أننى مفضوح ، هكذا كل ما

افعله يبدو وعلى وجهى كلما مررت بأزمة أو قابلت مشكلة سألنى صديق ما بك ؟ ما بى هذا يبدو واضحا إلى هذا الحد ذهبت إلى الرجل الأسمر ذى الجلباب الكبيرة الواسعة ، يا عبد الله لقد حدث معى كذا وقصصت بعض القصة فإذا به يخرج ريالا من جيبه ويعطيه لى ، أشحاذ أنا ؟ ما أن رأيت الريال فى يده حتى هالنى الموقف وقفت مندفعا ووضعت جلبابى بين أسنانى كما فعلت أول مرة عندما جئت للمسجد وجريت ، جريت فزعا ها أنا قد صرت شحاذا متسولا ، ها أنا يا ربى قد صرت شحاذا هل انزلقت إلى هذا المنزلق ؟ لا إله إلا الله ، وذهبت إلى رسول الله " صلى الله علية وسلم " ووقفت أمامه وسلمت عليه وكأننى اشتكى حالتى ، صامت أنا ، قلت : لن أغادر هذا المكان ، حتى أرى علامة لقد نجح الشيطان فى أن يجعلنى انزلق إلى الإثم فلأجلس هنا قعيدا ولن أخرج ، وانطلق بكائى شلالا يتدفق على خدى ، بكيت كما لم يبك طفل حرم من أمه ، بكيت عندما ضربنى الشيخ فى الكتاب ، لسعنى لسعة كبيرة وهو يحفظنى قل هو الله أحد ، جريت منه ، هربت وأقسمت ألا أعود إلى هذا الكتاب ، أيضربنا ونحن نقول قل هو الله أحد ، كيف نتعلم أن الله واحد وهو يضربنا ؟ نحن عبيد هذا الواحد سواء كنا كبارا أم أطفالا يا رجل قبل أن تضربنى بشدة يجب أن تعرف كيف تقول كما أمرك الله ، جريت من هذا الرجل ولم أدخل الكتاب ثانية وجريت من الشيخ عبد الله عندما أظهر الريال ، يا شيخ عبد الله ؟ أقول لك حكايتى لكى تعطينى ريالا يا رجل ؟ أهذا منظر رجل شحاذ ؟ كفت دموعى ، رأيت عقلى صحوا ونفسى راضية وكأن ذلك الذى حدث لى أمس قد حدث منذ عشرين عاما أو يزيد ، مجرد ذكرى حزينة حدثت قديما ، وإذا بالفندق أمامى والطريق إليه سهل ميسور وذهبت إلى غرفتى بالفندق ووجدت ابنتى لا تزال نائمة ، أخذت انظر إليها ، اقتربت صلاة العصر ، ويجب ألا يفوتها أكثر من صلاة .. ، ناديت عليها ، كانت صغيرة السن واستيقظت فقلت له فى هدوء يا ابنتى قد حدث أمر ليست له أهمية إنما يجب أن تعرفيه ، ليس معنا نقود ، قالت فى دهشة ، وكيف ذلك يا أبى أنا معى عشرة ريالات قلت أن ما معنا من نقود جئنا بها قد سرق قالت هذا لا يهم ؟ الثلاجة مليئة بالطعام وأنا معى عشرة ريالات ومعنا تذاكر العودة فهل نحن فى حاجة إلى نقود بعد ذلك ؟ ، ابتسمت ورضيت أنها راضية وغير قلقة ماذا نحتاج الثلاجة بها أكل يكفى عشرة أيام إذا كان الأكل ثمرة واحدة وقطعة من تفاح هذا يكفى كل إفطار وكل سحور ثمرة واحدة هذا معناه أن نعيش عشرة أيام كاملة على كيلو من التمر وكيلو من التفاح ، لأن الثلاجة صغيرة لا تتحمل غير ذلك كما أننى كنت قد اشتريت لها باكو من البسكويت ، هذا يكفى فعلا لفتاة صغيرة طوال عشرة أيام ، صدقت ، يا ابنتى المال غير مهم كما ضمن مجموعة كبيرة فلما جاء موعد الإفطار وكنا دوما ونأكل معهم ولكن الآن ليس معنا عشرة ريالات والغذاء مع المجموعة يتكلف أكثر من خمسين ريالا ، ذهبنا إلى الفندق وقسمنا التفاح والبلح والتمر إلى مجموعات صغيرة لكى

نأكل فقط ما يسد الرمق ولا نطلب حاجة من أحد أكلنا وشبعنا وذهبنا إلى المسجد نصلى ، وتكرر هذا لمدة ثلاثة أيام فى شهر رمضان المبارك وفى اليوم الرابع قالت ابنتى هيا يا أبى نعد الحقائب لتكون جاهزة فنحن لن نشترى شيئا ومن الممكن أن نعدها من الآن ، وتكون جاهزة ، فتحت حقيبتى ، ملابس الإحرام موجودة اخرجتها ، وضعت ملابس الإحرام على سريرى ، تناولت حزام الإحرام ، هذا الحزام الذى اشتريته منذ أكثر من ثلاثين عاما ، وحججت به وجئت به مرات ومرات ومرات ، أنه لا يريد أن يطوى كلما أجبرته على الطى اعتدل وكأنه ثعبان حاوى هندى ، كلما وضعته رفع نفسه ، ضحكت ابنتى ، كان ذلك مسليا ضغت على الحزام إرتفع ثانية حتى أصبح مواجها لوجهى ، قلت هناك شئ ما ، أخذت أدس يدى فى جيوبه أنا لا استخدم الحزام فى حفظ النقود وجواز السفر والتذاكر وما إلى ذلك ، لقد صنعوا له جيوبا داخلية حتى لا يسرق الحجاج ومع هذا فأننى اسمع كثيرا عن السرقات ، أنهم يقصون الحزام : يقصونه بمطواة أو خنجر يمنى ويأخذون النقود ، يأخذ اللص لا أحد يشعر لأن الطواف حول الكعبة يلهيك عما سواه ، وهم يفعلون ذلك وسمعت الكثير من الحكايات فالعذر مقبول يا شيخ ما إذا كانوا فعلا صادقين أم كاذبين ، حسنا يا ابنتى ادس يدى فى جيوب الحزام ، تصطدم يدى بأوراق وإذا بها رزمة من الدولارات تساوى ضعف المبلغ الذى كان معى ، يا الله من أين جاءت من أين جاءت هذه النقود ؟ من دسها فى جيب الحزام ؟ ضحكت ابنتى وقالت أن الله سبحانه وتعالى قد رزقنا من حيث لا نحتسب ، هيا يا أبى نصلى لله شكرا وحمدا أشارت ابنتى إلى الجراح الإنجليزى وقالت له لا تبدأ حتى أعطيك إشارة ، لم يفهم ، قال الدكتور بانديا انتظر : هذا يحدث كلما اضطررنا لإجراء جراحة ونظر إلى الطبيب الهندى بانديا وإلى ابنتى وقال : حسنا ولكنه سوف يتألم كثيرا لأنى احتاج تركيب (أمبوب) فى الرقبة ، قال بانديا : فقط انتظر حتى تعطينا ابنته الاشارة ، فقد رأيت هذا منبما كثيرا ، قال الطبيب فى سخريه بضعه كلمات حول التخلف المصرى الهندى الشرقى .. وأعطته ابنتى الاشارة وابتعدت أنا عنه لكى اغتسل فى زمزم .

الرزق ساقه الله إلينا فلنعد إلى ما كنا قد تعودناه فى كل عمرتنا وسابق زيارتنا للرسول "صلى الله عليه وسلم " ، فلما سألتنا جماعتنا هل ستذهبون إلى الفندق للإفطار كالعادة ؟ قلنا لا سوف نتناول طعام الإفطار معكم الليلة وقضينا بقية الأيام سعداء بتلك النقود ، التى هبطت علينا من الله سبحان وتعالى والرزق كله بيد الله ، كما حدث لى وجدت الرزق فيضا ، عندما سافرت إلى المعتقل ومنعوا عنى راتبى ومكافأتى كسبت أكثر من كل ذلك لا أدرى من أين حصلت على النقود ؟ ولكنى ظللت أكثر من عامين أنفق أكثر مما تصورت أن أنفق على بيتى ، تأتينى النقود من شتى الأماكن ولم أكن فى يوم من الأيام أغنى من تلك الأيام التى قضيتها فى تلك المحنة وهكذا عندما جئت إلى هنا لم يكن معى من النقود ما يكفى ومع هذا لم يحدث لى أننى

إحتجت مالا من أحد وقضى الله سبحانه وتعالى أن أظل هكذا محافظا على كرامتى لا أطلب نقودا من أحد ، ولا أسأل أحدا ، ها هو يا جدى قصصت لك حكايتى ، حكاية لطيفه حدثت لى وتكررت معى آلاف المرات عندما أفتقد شيئا لا أبكى عليه ولكنه الإنسان إنسان ، سواء مؤمنا أو كافرا أو مشركا هو فى نفس الوقت إنسان ، تنتابه الهواجس والعواطف والمخاوف والأحاسيس المضطربة ولكنه لا ينسى بفطرته لإيمانه بالله ، والسؤال يا جدى الذى حيرنى كثيرا عندما أجد الناس فى الشوارع والمقاهى وفى كل مكان يتحدثون بلسان ثم يذهبون إلى المساجد ويتحدثون بلسان آخر ، جئت إليك وليس لى يا أخى إلا أنت والله ، يجعلك مساويا لله الواحد الأحد ، ماذا تفعل يا أخى ؟ يقول لك أهو زمن وخلاص ، أهى عيشه وخلاص ، تتردد تلك الكلمات وغيرها ، لماذا لا تعمل جادا ؟ يقول لك هذا يكفى ؟ بنقودهم أى أننى أفعل ذلك لأنهم يعطوننى راتبا وأجرا ضئيلا أنا قدرت لنفسى كذا وهم يعطوننى كذا ثم اذهب إلى مكان آخر بأجر آخر ، عندما تراه خارج مكتبه وتسأله أنت ذاهب يقول لك لصلاة الظهر أو لصلاة العصر يبقى فى المسجد ساعة أو أكثر وعندما تقول له لماذا لا تجلس فى مكتب ، وتقضى حوائج الناس ؟ يقول لك على قدر أجرى أى أنه معترض على الأجر على الرزق والرزق من عند الله ، هو ليس مسئولا عن رزقه بل مسئول عن عبادة الله ، أما الرزق فيأتى من عند الله الإنسان المصرى على مر الأيام يعمل لدنياه كأنه يعمل لآخرته فهو يزرع ويحصد ويتعلم ويتزوج ويمشى ويأكل من أجل الآخرة لا الدنيا لهذا بقيت كل أعمالهم كما تزخر البرديات بالحديث عن الوفاء والحديث عن يوم القيامة والصراط المستقيم ويوم الحساب أن المصرى القديم كان يعمل لآخرته ولا يزال يعلم أن دنياه ما هى إلا امتحان ، يجب أن يسعى جيدا لأن الإله يراه ، عند الموت .. يحاسب حسابا عسيرا ، أما أن يدخل الجنة ويدخل النار أما أن يفنى أو يخلد ذلك الإنسان المصرى الذى برع فى الفلك والطب والعلوم والهندسة والحروب وكل مناحى الحياة ، الحياة عنده مجرد امتحان عبادة ، العمل عبادة ، الدراسة عبادة الأكل عبادة الزواج عبادة ، كل ما يخص الحياة هو فى نفس الوقت طريق ووسيلة إلى حياة أفضل فى الآخرة واستعمرت مصر أزمنة طويلة ، دخل الإيمان داخل القلب وبقى على الظاهر تلك القشرة التى يغلف القلب ولكن الآن هناك العامل الذى يتكاسل لأنه ينظر إلى البشر ولا ينظر إلى نفسه ولا ينظر إلى الله ، أصبح هناك الفلاح الذى يذهب إلى بلاد بعيدة من أجل لقمته وهو يعلم أنه سوف يخسر أرضه وأولاده التراث الإنسانى لأجدادنا لم يصل إلينا ، كتاب الموتى) لا أحد يعرفه ، أقوال حور محب لا أحد يعرفها ، كل المعارف مكتوبة فقط فى لفائف البرديات أو على حوائط المعابد ، وبلغة لا نعرفها الآن ويجب أن تترجم أولا ، وبالتالى أصبحنا معزولين عن معرفة الأجداد وتلقينا العلم عن طريق الرومان وهى أسوء الحضارات وعن طريق الإنجليز الذين حولوا التعليم إلى مجرد شهادة للتوظيف وعن طريق كل استعمار جاء

ليقضى على ذات النفس المصرية المؤمنة لهذا تفشى فينا هـذا العيب القاتل الـذى يعيب القدر ويسب الزمن ، يقول لك (دا زمن أغبر) ، (دار الدنيـا مـا تسـتحقش) ، (أهـى عيشـه والسـلام) ساعة لقلبك وساعة لربك ولا أدرى كيف تكون الساعة للقلب وساعة للرب مع أن سـاعة القلب لا يملكها إلا الرب وهكذا يا جدى تحولت الأشياء إلى نقيضها وتحول النـاس إلى جمع المال لـذات المال وليس للطعام أو الشراب وحتى للنفقة أو لحماية الجسد من العورة بل أصبحوا يقتنـون المـال وكلما أصابتهم مصيبة يقولون ليه يا رب ولو تأمل أحدنا ما حـدث لـه بعـين الحكمـة لوجـد أنـه يستحق ما حدث له وزيادة شويه ، لأن العلة موجودة ولكنه تغافلها ، تجد سيدة تنبش أعراض الناس ، ثم إذا حدث لها مكروه تقول نحن أناس طيبون لمـاذا حـدث لنـا هـذا ؟ اسـألى نفسـك يـا سيدتى لماذا حدث هذا ؟ ورأيت بعين رأسى هذا الرجل الـذى حفـر لى حفـرة المحنـة الأولى ، لا شماته يا ربى ، رأيته وهو يتحول إلى شجرة زبلت ، أصبحـت فـى أشـد الحاجـة إلى نقطـة مـاء ولكن من أين يأتيها الماء بعد أن قطعت الأنهار عن البشر ، رأيت بعين رأسى الظالم الذى ظلمنـى وهو يتألم ويبكى بل رأيت منتجا كان قد أخذ منى أحـد المسـرحيات التـى حققت نجاحـا ماليـا هائلا وأقبلت عليه الدنيا لكنه ضن على مكافأتى وكذب تهربا منى فإذا به يصاب فى بيتـه يفقد ولديه وزوجته تكبد خسائر كثيرة وأيقنت أن هناك قاض عادل ، اخش الله فـى نفسـك اخش الله فى نفسك ، يخشاك هو ، اعتصم بحبل الله تنجح فى الدنيا والآخرة ، والله رأيـت قصصـا عديـدة على هذا النحو تأمل فقط ما حولك ، انظر إلى نفسك ، ومن تجاربى أننـى تعلمـت أننـى كـل عـام أجلس بمفردى أحصى بقدر استطاعة الذاكرة أن تعى كل ما فعلت فأكتب كل شئ وأحاسب نفسى واستغفر ربى وأتوب إليه ليس هذا من باب تزكية النفس ، إنما تجارب إنسان يرقد على فـراش المرض ويرقد بين يدى الله لا يريد فى أيامه الأخيرة أن يكـذب ، يطلـب الرحمـة ويطلـب الشـفاء ويطلب لغيره ، الدواء موجود وميسور لدى الإنسان ، إذا أديت عملا فلتتمه بنجاح ، لا تنظر إلى أجرك عند الله ، هناك أناس غيرك يتقاضون أقل منك ومع هذا يعيشون فى طمأنينة نفس ، تـأمل يا أخى القرآن الكريم ولا تأخذ منه آية ثم تجلس لتنفذهـا على كيفك ، ولكـن خـذ القـرآن كلـه والقرآن أحكام شرعية ، فرائض فرضها الله لا حاجة لك إلى المناقشة ، يجب أن تنفذهـا كمـا هـى القرآن به من القصص والعبر ما يجب أن تتعظ به ، وأن يكون لك هاديا ونـورا ، تجـد الإنسـان الذى ولد بغير أب والإنسان الذى ولد من امرأة عجـوز عـاقر تجـد كـل أصنـاف ذلـك فـى القـرآن الكريم وتجد كل أنواع التعذيب لمن كفروا وجاروا إنـما عظـه وعـبرة ثـم هـى موجهـة إلى أهـل الكتاب أى الذين سبقونا إلى الإيمان بالله ولكنهم نسوا الله ونسيتهم وأهملوا كتابه فأهملـهم هـذا هو القرآن وليس القرآن كتابا يشرح وفقا للنظريات العلمية لأن العلم من عند الله يهديه من يشـاء يهدى العلم وفقا للدرجات تحضر الأمم ويعطى الأمة قدر حاجتها فلا تقيـس المتغـير بالثـابت ،

هل يكفى أن تقول أن نظرية خلق الذرة أو كسر الذرة أو تحطيم الذرة موجودة فى القرآن ؟ ماذا لو حدث واستطاع العلم أن يأتى بنظرية أخرى حول تحطيم الذرة ؟ وإلغاء فكرة تحطيم الذرة ؟ هل تقول أن القرآن أصبح قديما ؟ لا يحق لك أن تفسر القرآن تفسيرا علميا أو تاريخيا أو أن تقول هذا ، والفرعون المذكور فى القرآن لا يحق لك أن تحدده برمسيس أو تحتمس أو غير ذلك من الأسماء فرعون تعنى باللغة الهيروغليفية البيت الحاكم مثل البيت الأبيض فى أمريكا فلا يكفى أن تقول أن فرعون رمسيس السادس أو السابع أو الثانى ، هذا تأويل من عندك لا تقبله ولا يقبله القرآن ، وبه مساس بالقرآن لأن علم التاريخ مجرد علم يتطور وينكمش وينمو وتدخل فيه عدة نظريات وبما تأتى نظرية تاريخية تمحو ما قبلها فلا تفسر المتغير الثابت ، القرآن الثابت ، وكل الأشياء متغيرة ، الدنيا ذاتها متغيرة أن تترجم الكتب عن نشأة الكون ويقول لك أن خلقها الله يوم كذا بالتحديد ، هذا لا يصح ، مهما حاول العلماء ، لقد قرأت أخيرا كتابا ألفه رجل روسى لم أعد أذكر اسمه وحدد كيف بدأ العالم وكيف سينتهى وكأنه قرأ علم الله ، وتدخل فى الذات الالهيه ، وكيف خلق الله العالم ، لا ندرى ولا أحد يدرى ولن يدرى بذلك أحد ، والعلم عند الله، فقط نعمة العلم يعطيها الله لبعض عبادة ولكنه علم إلهى محدود بقدرة العقل البشرى ، تقدمت الممرضة البيضاء ، وأزالت آله الحقن الآلية ثم وضعت أمبوبة أخرى داخل الآلة ، واعادتها ، شعرت بألم حاد ، قالت الممرضة فى برود : أسفة ، جاء الطبيب ، نظر نحوى وقال لابد من خلع هذا الدبوس الحديدى فى الصدر لأن العظام تآكلت .. وكان لابد أن أتحمل .

****

الفصل الرابع

هذا فصل جديد يسمى دغش ، والدغش لا أدرى معناه ، يمكننى إذا أعاننى الله وشفانى أن أكشف عن هذا اللفظ فى قواميس اللغة العربية ولكنه قفز إلى ذهنى ، لقد شاهدت الآن حفلا راقصا وقلت فى نفسى ، كانت لى أيضا بعض الدغش ، أعجبتنى الكلمة وأعجبنى تناغمها ، ولأننى أسجل كتابى هذا تسجيلا صوتيا فقد سعدت بالكلمة كل السعادة ، واقصد بالـ (دغش) أننى لم أكن هكذا أقرأ وأتعلم وأدرس وأجلس إلى جدى وأجلس لأولادى كما صورت نفسى وكأنى قديس يتباهى بإنجازاته الرائعة فى جميع المجالات ، بل ارتكبت بالفعل بعض الدغش ، والدغش فى طفولتى كأن لا يتعدى الذهاب خلف فرقة موسيقية يصل عدد أفرادها إلى ثلاثة ، أحدهم يغنى ويدق الطبل والأخر معه مزمار والثالث معه طبل أكبر قليلا وكنت أذهب لأستمع إلى المواويل والحكايات وأسعد عندما أن أراهم وهم يقدمون فصلا مسرحيا أو تمثيليا ، كانوا يقدمون الكوميديا الإرتجالية فى كل ليله يرتجلون موضوعا ما ثم يقومون بتمثيلية ويشركون الحضور فى تأدية بقية الأدوار وفى حل المشكلة التى يطرحونها الملك ووزيره والسياف وهم الثلاثة ولكن يبقى هناك الأمير أو الأميرة أو الخياط وزوجته أو من يقف بباب الأمير أو بباب الملك ثم تبدأ الحكاية هكذا وتتطور مع تطور ما يتوله كل منهم حسب هواه وكان هذا يعجبنى كثيرا أظل قابعا حتى يأتى هذا الممثل (قلش) وهذا هو اسمه ، قلش ، قاف ، لام ، شين قلش وهو بالنهار يعمل ماسح أحذية وبالليل أشهر مطرب فى بلدتنا ، يذهب لإحياء الأفراح والليالى الملاح وأيام العرس وأيام الطهور وكل المناسبات السعيدة ، يترك صندوق البوية ويذهب لتلميع عقولنا بغنائه وصوته العذب وقدرته الفائقة على صناعة المواويل لكى يقول لكل من يعطيه نصف قرش أبياتا من شعره المرتجل عن كرمه الحاتمى فهذا شجاع وهذا كريم وهذا ابن ناس وذاك فارس مغوار ، فأحببته كل الحب ، وعلى الأصل دور وكنت طبعا ألاقى الأمرين وعندما أعود فى منتصف الليل ، وكالطفل يتسلل إلى حضن جدته التى لا يسعها إلا احتماله وإخفاء سرة عن الجميع ، فنحن فى بلدتنا لا تتكرر الأفراح كل ليلة وهى تعلم سر عشق وحبى لهذا القلش فأحيأنا ترسل معى عمى أحمد وأحيانا أخرى أتسلل أنا وحدى لكى تبهرنى افعال قلش سواء غنى الموال الذى يرتجله ، ويرتجل مسرحية جميلة حول المال أفضل أم الصحة ؟ هل النقود من الممكن أن تكسب الإنسان الحب والاحترام ؟ هناك راضة فكرية يلقيها على الناس ويبدأ التمثيل

، ودوما يبدأ بالملك والوزير ولذلك التمست في هذا القلش أجابه لبعض الأسئلة التي كانت تحيرني ، سميت هذا الباب دغش بدلا من قلش ، وحولت الاسم إلى هذا لأنني سرت بعد ذلك في هذا الميدان القلشي ، أو الدغشي مسافات طويلة وبعيدة وفي مراهقتي الأولى ، أحببت تلك الفتاة التي قصصت قصتها وذهبت إلى دار ذلك الساحر اللئيم أو الذي يتظاهر بالصوفية وعلمت سره وقضيت أياما طويلة بجواره ، وأسمى تلك الفترة بدغش لأنني لم أر حقيقته إلا بعد مرور وقت كان قد ضاع مني وكان قد سلب مني وما حببت رجلا كان ماسح أحذية فسول له الشيطان أن يدفعني دفعا إلى عشق ابنته وكان هذا أمرا عجيبا أن يدفع إنسان كبير فتى طائش في أول سن المراهقة لاحضان ابنته لا أدرى لماذا ولكن هذه الفتاه سرعان ما اكتشف براءتي وعدم علمي بالحياة وكانت هي على دارية كافية لأن والدها يبيعها لمن يدفع الثمن ، فنهرتني في رفق ثم صارحتني لتكشف لي أن أباها لا يريد إلا مالي تمنيت أن أموت لأنني كنت واقعا تحت سيطرته ، واسمى تلك الفترة لأنها كانت دغش في دغش والعياذ بالله ، أكرمني الله بموت الرجل فلم أقرب الفتاة ولا أي فتاه في الحرام ، أبدا وربما هذه الفترة الدغشية قادتني أيضاً إلى فترة أكثر دغاشة عندما صرت رجلا وعندما لم يحالفني الحظ في تحقيق مآرب معينه بالزواج و هي مآرب خاصة بالشباب في سن العشرين فهربت إلى مجموعة دغش أخرى غشيتها مجموعة من الشباب كانوا يفعلون ما يحلوا لهم ويتسابقون في النيل مع البنات والنساء ولكني فشلت فشلا سريعا في هذا الأمر سبب حرجا لرفقائي فتركوني لأنني وش نحس عليهم فدوما تفشل مناوراتهم بسبب وجودي معهم وصارحوني بذلك ، فأن كل الآلات التي أتوا بها لعرض الأفلام المخلة بالآداب وتعمل طالما أنا موجود وإذا كانوا في سبيلهم إلى اصطياد صيد يفشلون ، فتخلوا عن صداقتي ، ولم تبق إلا مجموعة اصدقاء صغيرة تمسكت بهم ، ولأنه لابد أن يكون هناك دوما من الدغش في حياة الإنسان يجرب لونا من التمرد ، أنه مجرد إنسان تهوى نفسه أكل الزيتون والمخلل والطرشي وإلا ما صنعوا لنا هذا السردين والمملح والرنجة والملوحة والشطة ، كل تلك الأكلات الضارة ولكن نأكلها على سبيل التحريش أو الدغش ، صادقت مجموعة ظللت متمسكا بها لأنهم ما كانوا يفعلوا ما فعلت الجماعات الأخرى طابعهم صرح برئ يأخذ أحيانا طابعا خشنا وقد اتفقوا جميعا على أن كل واحد منهم يلهو في وسط جماعته بطريقته فلا يعارض أحد ، من كان يريد شرابا فليشرب ومن كان يدخن الحشيش فليدخن ولا يعترض أحد يجب أن يأخذ كل واحد منا مزاجه الخاص ، ومن هذه المجموعة تاجر للجمال من أصل سعودى ورجل سوداني يعمل أيضاً في تجارة الجمال ، ثم الميكانيكي (محمد الباشا) وزميل لي في العمل و مخرج سينمائي ، ثم عم (عزمي) البقال متنافرون ، فمنا تاجر الجمال الذي لا يفقه شيئا إلا في تجارته وعلى ثراء واسع ثم منا من يعمل بيديه كمحمد الباشا ولا يملك شيئا ثم منا من يعلم في الفن ومنا من كان يشغل منصبا إداريا عاليا وهو زميلي وأنا بجانبهم لا شئ ، أنا فقط أتسلى بالتواجد وسطهم ،

ليس لى مزاج خاص ، هذا هو الأمر الحقيقى فى الموضوع كنت أسعد عندما أوجد فى وسطهم وكانت سهرتنا دائما ليلة الجمعة مساء كل خميس نتقابل فى مكتب زميلى فكان بمكتبه ساحة فسيحة مطلة على النيل حيث نضع شواية لحم ، كان الميكانيكى قد قام باختراعها ليتم شى اللحم فى أسرع وقت ممكن ودون دخان كنا نجلس فى مكان يكاد يكون منعزلا ؛ البيوت على بعد مئات المترات ونطل على النيل ، يبدأ اللقاء فى الخامسة تماما ، لأن السعودى يحب دقة المواعيد والسودانى يزرجن إذا تأخرنا وكنا عادة نحضر قبل الموعد ، تبدأ مراسم الإحتفال بأن يخرج عم عزمى توابله ومحمصاته وتفانينه فى عمل المخللات التى يصنعها بنفسه ثم يخرج (الوهيبى) سلة اللحم وقد أعدت بمهارة شديدة ويبدأ الميكانيكى فى تشغيل الشواية ليشوى اللحم ونضع البساط على الأرض ونحن ننظر إلى النيل الجميل ونأكل ، ما شاء لنا من الطعام ، يقدم لنا الماء وبعض المشروبات المثلجة الساعى الخاص بزميلنا أحيانا نشبع من الأكل ضحكا وأحيانا أخرى نأكل حتى لا نستطيع الضحك ، يأخذ منا هذا زمنا يتراوح من ساعتين أو ثلاث ساعات بعدها نخرج ، نركب السيارة ونذهب إلى مدبح (زينهم) ، هناك بجوار سور المذبح وقد أعدت الجلسة عبارة عن حصير مفروش عليه إخدودات قطنية ناصعة البياض يستقبلنا فيها أحد الرجال ومعه موقد فخارى عليه جمر من نار ثم يأتى بالجوزة وقد غسلت ورص حولها أكثر من خمسين حجرا من الفخار الأحمر ، فيقدم له (العبيدى) قطعة من حشيش تكاد تكون مثل كف اليد ونحن لا نتكلم لأن هذا هو المزاج الخاص لعبيدى وإلا لن نتكلم طوال الليل نحن نحب أن يتكلم لهذا نجلس من حوله فى صمت شديد ، يأخذ هو فى شد الأنفاس ، كل حجر نفس واحد فتكركر الجوزة ، ثم يحضر الرجل الذى جاء خصيصا لهذا الأمر حجرا أخر وهكذا حتى تبلغ عدد الأحجار مائة خلال نصف ساعة ونحن صامتون أو ربما بحكم الأكلة الشهية التى أكلناها وبكثرة الضحك التى صاحبت نكات (مصطفى) ، بعدها يهب عبيدى واقفا هيا بنا نتقافز نحن السيارة الكبيرة فيقودنا الوهيبى ويبدأ العبيدى فصلا فى الإفتاء فى أمور الدين والدنيا فيقول أراء غريبة لم نسمعها من قبل ولكنه يقولها فى جدية شديدة وفى براعة أشد فيستخدم اللفظ فى موضعه حتى أننا أحيانا ننسى أنه العبيدى الجاهل أو أنه خرج تو من (مشربة الحشيش) يبهرنا العبيدى بأقواله وللغرابة أجد فى بعضها كل الصحة كيف تخرج الحكمة من فم هذا الرجل الذى لا يعرف القراءة والكتابة ؟ ولكن شاء الله ما يشاء ونكون قد وصلنا إلى أحد الملاهى ذات المستوى الردئ أو الدرجة الثالثة فى شارع الهرم ولا نعترض لأننى كما قلت أن لكل منا مزاجه الخاص ، يفعل ما شاء ولكنى ونحن معه نستمتع برؤيته ، فندخل إلى الكازينو لا أريد أن أسميه ونجلس فى مائدة بعينها فتأتى فتاة من الراقصات وتجلس بجوار العبيدى فى صمت فينفجر وجه الأسود عن ضحكة جميلة عذبة ونرى الحب بين عينيه ويهمس فى أذنيها بكلمات لا يمكن أن تصدر من ذلك الرجل الذى كان منذ قليل يدخن الحشيش وتجلس الفتاة بجواره فى

أناة ودعة وطيبة ونجلس ونحن نراقب العبيدى فى جلسة الحب الولهانة هذه ثم يمد يده فى جيبه ويعطيها رزمة نقود ، نخرج بعدها لنذهب إلى أحد المطاعم الفاخرة لنأكل مرة ثانية ويدور الحوار حراً طلقا ، أشعر بالراحة الشديدة ويأتى الفجر .. لنفترق ، واذهب أنا إلى منزلى لكى أجلس أمام مكتبى وأكتب ، رغبتى جادة فى أن أكتب عن أشياء لم يكتبها أحد من قبلى ، يدور عقلى وأدور حوله ، اقتنص فكرة ، ثم تهرب منى ، أحاول النوم ، ولكن بلا فائدة فإن الأفكار تهاجمنى أصرخ فى رعب .. تندفع ابنتى نحوى وتدق جرس الباب ، أجد من حولى الأطباء والممرضات ، أشعر أننى أذهب إلى مكان بعيد أشتاق إلى رؤية ولدى الصغير أنادى عليه علّه يسمعنى ..

الألم لا يمكن تعريفه ، أنت داخل الألم وأنت الألم نفسه : شخصه ، تحاصرك الأوجاع ، لا تقدر على النوم ، ولا على الجلوس ، ولا على الصراخ ، ولكنك لا تملك إلا أن تصرخ ، الصراخ هنا رفاهية لا تقدر عليه وانتألم لونا من البذخ ، إنك مطحون ، مهروس ، لا يملك لك طب الدنيا شيئا ، بل أنت فى نظر الأطباء منبوذ ، موبخ : رحمة الله واسعة ، امدد يدك يا ربى ، أعلم أنك بجوارى ، لا أملك إلا الدعاء إليك ياه .. يجب أن نعود إلى الضحك ، ويقوم الوهيبى تاجر الجمال فى هذا الفصل بأن يتظاهر بأنه باشا أو على الأقل أحد الأفنديات الكبار فيأمر الجرسون أن يأخذ هذا ويحضر ذاك ويطلب منا أن نأكل وأن نضحك على العبيدى السودانى عندما يمسك بالشوكة والسكين ولا يستطيع الأكل بهما ، وكأننا قد صرنا أطفالا الوهيبى وقد صار صاحب العزة والفخامة الوهيبى ويتولى زميلى التنكيت والتبكيت على الباشا الجديد وكان الوهيبى يحتل المسدس دوما ، كما يحمل من النقود ما يجعل جيوبه تنتفخ لهذا يجب أن تشعر أنه يستضيفك ويجب أن تأكل فى أبهة وفى باشاوية وفى أرستقراطية ونمكث فى هذا الكازنيو أكثر من ساعتين نأكل فيها ما شاء لنا أن نأكل ، ونضحك على نكات مصطفى ، آلاف النكات وآلاف من النوادر ويتدخل السودانى منافسا يصارعه نكتة بنكتة ، والحكاية بالحكاية ونضحك رفيقنا المخرج يضع بعض الكلمات التى تجعل من تلك الجلسة وكأنها صراع ديوك ويطلب الميكانيكى أن نجلس على شاطئ النيل فى بقعة نائية وعلى الأرض حتى نرى النيل والقمر ويحكى لنا تبدأ حكايات الميكانيكى بمذايات شاب قد استولت عليه حب فتاة جميلة ولكن هذه الفتاة الجميلة يتيمة الأبوين فقيرة يأخذ بيديها وتقفز على أكتافه وهنا ترفض الزواج منه ، وتتزوج بغيره بعد أن يكون مستواها الاقتصادى قد تحسن ولا أدرى لماذا يقص علينا الميكانيكى هذه القصة كل سهرة ؟ وقد صدقته فى أول مرة ثم تزامل الصدق والكذب فى المرات التالية ثم بدأت أشعر أن هذه حياته بالفعل ذهبت ذات مرة إلى بيته لأرى كيف يعيش فإذا بى أمام زوجة تبدو عاقلة ورصينة جدا وبدينة جداً ولديها عدة أطفال أكبرهم فتى على وشك الدخول فى سن الرجولة

وكنت أتساءل كيف يحكى محمد بكل هذه الحساسية تلك القصة عن الأنثى يتمية الأبوين فتركته لتتزوج بغيره ويهيم هو بحسرته فى الشارع ويتأملها وهى عروس جميلة تزف إلى شاب غيره على الرغم أنه وسيم الطلعة ، جميل الصورة مقتدرلدية ورشة فنية يتباهى بها ، كل سهرة وكل ليلة جمعة يحكى لنا الميكانيكى هذه القصة وكأنها ترنيمة من ترانيم مقدسة لا بد أن تحكى ولا بد أن تروى بعد سهرة امتدت من الخامسة مساء حتى الثالثة صباحاً ونحن نجلس على أرض خشنة أمام النيل فى منطقة معزولة فى مصر القديمة فإذا انتهى من الحكاية أمطروه بوابل من التبكيت والتنكيت يجعل محمد ذاته يضحك حتى يستلقى على قفاه ، أما أنا فأبدى عطفى عليه فينظر نحوى فى أسى ويقول أنا أكتب قصصاً أفضل منك ، من صميم الواقع ليبدأ مزاج المخرج فى أن يجعل الجو مشتعلا فيقول بعض الكلمات التى تجعل (مصطفى) يقف غاضبا ثم يدفع السودانى لكى يهاجم مصطفى فإذا نجح فى ان يتناطحا استدار إلى(عزمى) الذى يظل صامتا طوال تلك الرحلة يضحك فقط ولا يشترك فى الحوار الساخن وأنا مثله ليس لنا إلا أن نشترك فى هذا الدغش ، نضحك فقط فلا نستطيع تبكيتنا ولا نملك حكايات ولا نشرب الا الشاى ، فيدفعنا المخرج إلى المشاحنة وعادة ما يفشل مع (عزمى الذى يبدو أنه لا أحد يستطيع على الإطلاق أن يجعله غاضبا فهو الإنسان الذى لايغضب وقد زرت بيته فعلمت أنه يعيش هو وزوجته وحيدين لا يأكلان إلا من طبق واحد ولا يشربان إلا من كوب واحد ويهويان تربية الحمام فكنت أذهب كل شهر لعزومة حمام مشوى ومحمر ولم أرى طوال (الرحلة الدغاشية) مع تلك المجموعة هذه عزمى غاضبا ، ولا أدرى لماذا دوما نقع فى تلك الخدعة التى يتقنها رفيقنا المخرج ومع هذا لا نكرهه ، وفى كل مرة يغيب عنا فيها نذهب إلى بيته لكى نستدعيه لحضور تلك الأمسية التى لا تكتمل إلا به ، استمر هذا الدغش فترة من زمن انتهت بأمر مؤسف ، فقد كانت فرقة مسرحية تعرض مسرحية كوميدية على مسرح الجلاء وكانت ليلة الإفتتاح ، وأصرت الجماعة بعد عشوه الشواء أن يغيروا من برنامج السهرة ونذهب إلى المسرح لنتفرج فذهب الوهيبى ليحجز التذاكر حتى لا يقوم المخرج أو أنا بحجزها عن طريق المنتج ببلاش،ودفع ثمن التذاكر فى الصف الأول حيث جلسنا نرقب رفع الستار ، تأخر رفع الستار نصف ساعة ثم ساعةونصف وانتاب الملل العبيدى وزمجر بطريقته السودانية كما تململ الوهيبى وأخذ يصيح لماذا لا ترفع الستارةإحترمونا يا قوم .ذهب رفيقنا المخرج إلى الكواليس يلتمس الأسباب لتأخر رفع الستار ؟ اخبروه أن وزير الداخلية فى ذلك الوقت قادم لمشاهدة العرض ، فيجب إنتظاره فطاش صواب العبيدى واستشاط غيظا كيف يؤخرون عرضا لتجرد أن شخصا ما سوف يحضر انكمشنا نحن لا يمكن مجابهة هذا (الشعراوى جمعة) نعرف من هو ، وأنا زميلى مصطفى كنا فى ذلك التنظيم الذى يعرف قدر شعراوى جمعة ، وكيف يستطيع أن يمحونا من سجلات المصريين،فجلسنا فى حالة خوف وترقت العبيدى يصيح والوهيبى يزامله الصياح فإذا بشعراوى

جمعة يدخل ومعه رفقة كثيرون أحضر عمال المسرح مقاعد عالية ووضعوها أمامنا فحجبت عنا المسرح فإذا بعيدى ووهيبى يخرجان مسدسيهمان ويهددان بإطلاق الرصاص على كل من فى الصالة ، فإذا بالمخرج يأخذ بيدى ويد زميلى ويقول هيا نهرب هذا سعودى وذاك سودانى لن يستطيع شعراوى جمعة أن يفعل لهما شيئا وهم فى حالة سكر ولكن ماذا نفعل ونحن مجرد أناس رعايا من رعايا الدولة وأن التسلل الأن من المسرح لا يعد جبنا بأى حال من الأحوال بل الجنون حتى ينتبه الحرس إلى ما يفعله هذان المجنونان ، وكان الإظلام قدحل على صالة المسرح وبدأت الأنوار مسلطة فقط على المسرح حيث ظهرت شويكار وانفجر المسرح.الضحكات تغطى على صوت العبيدى والوهيبى فإذا بهما يضعان مسدسيهما و يجلسان فى هدؤ ، وكأنهما كانا فى ترقب للحظة انطلاق ضحكات الجماهير لكى يناما فى سعادة فجلسنا نحن الثلاثة نرقب فى انتباه أى حركة تصدر منهما أو أى حركة تصدر من الصف الذى أمامنا دون أن نلتفت إلى المسرح،حتى إذا ماقارب انتهاء الفصل الأول وكنت قد حضرت بروفات المسرحيه من قبل تنبهت إلى إننا يجب الخروج الآن ، وتسللنا نحو الخارج وتنفسنا لصعداء عندما أصبحنا فى الشارع أخذ كل منا طريقة دون وداع أخذت طريقى إلى بيتى ولم نعد،تفرقنا وتفرقت بنا الأيام على هذا النحو ولم نعد نلتقى إننى اعترف إننى ما استمتعت فى حياتى بقدر استمتاعى بسيرة هؤلاء ولكن ما باليد حيلة ، أنا لا أملك أن اقف أمام وجه التيار ولا أستطيع أن أدعى بطولة مزيفة فأنا أعلم من هو الشعراوى وما يمثله من قوة وبطش وجبروت فى ذلك الوقت والرجل يقبض فى اليوم الواحد على عشرات الرجال وعشرات النساء وأنا ومصطفى نعلم هذا لأننا كنا فى تنظيمه الذى يدعى الثورية ، كنا نعلم وكنا لا نعلم ، لم نكن نعلم أننا جهلاء ، ألم أقل لكم أنه دغش ؟ والبقية تأتى من دغش ولكن . . أشعر بالغثيان ، تقيأت درع نحوى الطبيب بانديا ، وأقبلت مجموعة من الممرضات قالوا أن الحرارة ارتفعت هذا خطر ، شعرت أن قواى تخور ، وأننى هالك لا محالة اقتربت ' ، من وجهى وقالت تماسك يا أبى ، أمسكت بقطعة من قماش ، ألوذ بالكعبة ، أتمسح بردائها .. أراد الله .. الله .. لا تزال فى الحديث عن دغش واذكر دغش هذا هو اسم نوع من الزبادى كنا نأكله فى السعودية أو ربما يكون اسم شركة وصاحب الشركة ولهذا لا أدرى لماذا تذكرت هذا الاسم الأليف ، استخدمنا دغش وهذا يكفى الآن وليس على المريض من حرج ، ولأننى مريض فقد زارنى الطبيب فى منتصف الليل وجلس معى قليلا وكالعادة حدثنىعن أشياء بعيدة كل البعد عن المرض ثم إذا مضى تذكرت أننى يجب أن أحاول عمل بعض الأشياء بدلا من انتظار الممرضة ، أو انتظار ابنتى لكي يلبوا طلباتى،أريد شيئا ما فلا أستطيع المهم ألجأ إلى تسجيل روايتى الجديدة على أمل الخروج من مأزق . . الوحدة ومن الألم وأجمل مدينة رأيتها هى مرسى مطروح وأجمل ذكرياتى فيها ذهبت إليها مئات المرات وفى كل مرة كنت أمكث فيها أياماً طويلة وأحيانا أشهرا كاملة ولكن أتذكر مرتين على وجه التحديد كانا

لهما نصيباً من دغش المرة الأولى ولا أدرى تاريخها (فكما قلت لا أكتب تاريخا ، إننى مجرد رجل يعيش الوحدة يبلوس من أثر الكمية الكبيرة التى أتعاطاها من أدوية فلا يلومنى أحد بل يلوم نفسه لأنه قرأ هذا الكتاب) أول مرة ذهبت فيها إلى مرسى مطروح وكانت دغشا فى دغشى ، عندما قابلنى بعض الأصدقاء وكنا فى سن شقاوة الفجركما يقولون ونملك صحة وقوة وعزيمة وأيضا وقتا نضيعه قالوا: لماذا لا نذهب إلى مرسى مطروح ؟ قلت: لا يزال الوقت مبكرألكى نذهب فى معسكر إلى هناك ، قالوا بل نذهب بمفردنا ، وكنا ما يقرب من سبعة أو ثمانية لا أذكر العدد شباب وشابات أما الشباب فكانوا أصدقاء قريبين إلى قلبى وكانوا يعاملوننى باحترام شديد على أساس إننىلهم الأخ الأكبر أما البنات فهما من أسرة كانت تعتبرنى فى منزلة الأخ لهما ، وتقابلنا فى النادى ، واتفقنا على أن نذهب إلى مرسى مطروح بإذن الله فى اليوم التالى بواسطة القطار الذى يأخذ يوما كاملاً ونصل إلى هناك وقد خارت قوانا وساءت ملابسنا وأخذ منا التعب كل ما أخذ لأنه قطار غريب وعجيب وهو القطار الوحيد الذاهب إلى مطروح فى ذلك الزمان فقد كانت مرسى مطروح بعيدة كل البعد عن العمران وبعيدة كل البعد عن كافة الخدمات ولا اهتمام بها على الإطلاق ، يحكمها حاكم عسكرى يفعل بها ما يشاء ثم مجموعة من القبائل لا يهمها مرسى مطروح فى شئ ، يقيمون بعيدا عنها أما مرسى مطروح ذاتها فهى مدينة صغيرة يقيم بها موظفى مديرية مرسى مطروح ، والمستشفى الأميرى وفى مكتب البريد وفى بعض المخازن التجارية القليلة ، يصلها قطار واحد فى الخادمة وبها شارع واحد ممتد إلى خمسمائة متر من المحطة إلى مبنى مديرية الأمن والمديرية تطل على منظر بديع من الخلف البحر الجميل كان فى الماضى جميلاًجمال الطبيعة ذاتها ، ثم مجموعة من المبانى ذات الطابق الواحد يسكنها كما قلت مجموعة من الموظفين ، ثم خلف ذلك الشارع مجموعة من الحوارى والساحات الفسيحة التى يسكن فيها مجموعة من البدو يعملون بالتجارة للمصطافين الذين يعشقون مرسى مطروح ، ويأتون إليها رغم كل الصعاب وندرة الماء ومرسى مطروح فى ذلك الوقت كان يجيئها الماء عن طريق ذلك القطار ، عربتان من عربات السكك الحديدية ثم يوزع الماء على الأسر وعلى المعسكرات القليلة المقامة فى الصيف بالقطارة ، أنت تأخذ كمية من الماء تكفى فقط لشربك أو لعمل الطعام أما بقية احتياجاتك من الماء فهو ماء آخر يسمى بالماء الرومانى ثم عندك البحر كله وبه متسع لكى تستحم أو تشرت منه إذا منه إذا لم تعجبك هذه المعيشة ، الصحف والمجلات لا تصل أحيانا إلا فى هذا القطار أى أن هذا القطار القادم من الاسكندرية ويحمل الركاب والزاد والصحف والمجلات والبريد والماء والطعام ، هذه هى مرسى مطروح ثم ثلاثة معسكرات وقد وضعت بنظام جميل وخيام منسقة لطيفة أكثرها جمالا معسكر يبدو قبيحا بخيامه القبيحة الصغيرة جدا به عددا كبيرا من الطلاب ويأخذ مساحة شاسعة من الأرض ثم معسكر آخر ثالث يقام على استيحاء بجوار المعسكر الكبير وهو معسكرالسلام ، ومرسى مطروح بها من الأماكن ما يمكن أن تقضى

يوما كاملا فى كل منطقة وكأنك ذهبت إلى مصيف مختلف ، ذاك منطقة الميناء تلك منطقة عميقة المياه زرقاء اللون يسبح فيها كل من يجيد السباحة ويهوى المغارة وأحيانا ترسو بها سفنية صغيرة يقال أنها جاءت لتصطاد ونعبر منطقة الميناء بمراكب شراعية صغيرة ، كان هذا الميناء يحوى عشرة مراكب صغيرة تعمل بالشراع الأبيض ، تلك المراكب تأتى فقط فى الصيف من الأسكندرية وتقوم بنقل راغبى عبور منطقة الميناء وهو ملاصق للمدينة ولا يبعد عنها كثيرا فأنت فى مرسى مطروح تعتمد على قدميك أو تركب مركبا صعبا عبارة عن عربة من عربات الكارو الصغيرة جدا ويقودها حمار هزيل وصبى يظل يضرب الحمار حتى أنك تجد نفسك مضطراً إلى الهروب منها والسير على الأقدام تلك العربة المنتشرة فى مرسى مطروح والتى يركبها البنات والسيدات ويجدن فى ذلك متعة فهى لا تسير ولكنها أيضا ليست واقفة على كل حال ، يركبن تلك العربات الصغيرة ، و(الكارتة) تستخدم لنقل الركاب ويحاول كل سائق أن يزينها بزركشة بدوية تبدو من بعد كأنها جميلة ، نركب المراكب الشراعية ، لنعبر مضيقا صغيراً إلى منطقة جميلة جدا تسمى منطقة (روميل) ، وهو ذلك الخندق الذى حفره جنود روميل خلال الحرب وهى منطقة شاسعة بها رمال ناعمة وصخور ناتئة ، ثم بحر جميل رائع يتدرج من زرقة خفيفة حتى الزرقة الثقيلة أى أنك من الممكن أن تسبح فيه مسافة طويلة دون أن تخشى لأن تغوص أو تشعر بالخوف ، فكان هذا البلاج أو تلك المنطقة آمنة جداً وكنا ذلك الوقت لا نجد إلا عشرة رواد على الأكثر منتشرين على البلاج الذى يتسع لأكثر من عشرين ألف من المصطافين وقد ذهبت آخر مرة فوجدته مكتظاً وكأنه تحول إلى بلاج شعبى يسترخ فيه وابور الجاز وحلل المحشى وتفوح رائحة الطعام المطبوخ وسيدات يأكلن ورجال يدخن الجوزة ، ويشربن الشاى وأطفال يلعبون ويتقاذفون بالطوب والزلط ، رأيت المنطقة على هذا النحو آخر مرة زرت فيها مرسى مطروح ، أما فى الرحلة الدهشية فقد كان البلاج به سبعة أفراد على الأكثر فى كل مرة ذهبنا إليه وليس معهم شمسية ولا خيمة ولا وابور الجاز ولا حلة محشى كانوا جميعا يرتدون المايوه والسباحة للمسافات الطويلة ثم العودة إلى الراحة ثم بعد ذلك يعودون إلى السباحة وهكذا فكنا نذهب إلى روميل سباحة من منطقة الميناء ونظل نلعب ونصعد إلى الجبل ثم نجرى حتى نصل إلى البحر وتصبح نعود إلى حيث كنا ، اتفقنا نحن السبعة او الثمانية أن نسافر إلى مرسى مطروح وجمعنا بعض الأدوات القليلة التى يمكننا بها إقامة معسكر صغير فى أى منطقة ، وأخذنا بعض الأدوات القليلة التى أمكن توفيرها على وجه السرعة وسافرنا فى ذلك القطار توفيرا للنفقات وصلنا إلى مرسى مطروح فى الخامسة مساء كالعادة ومشينا فى الشارع الرئيسى وكانت بعض المحلات القائمة على جانبى الشارع يعرفوننى بالاسم ويسألون ، هل جئت لإقامة معسكر ؟ وقد كنت أقوم بإنشاء معسكرات الشباب فى كل عام ، فكان هذا معناه الرزق لكل المدينة لأن معسكراتى من تلك المعسكرات الضخمة الكبيرة العدد التى تحتاج إلى كل شئ ، الطعام وما

يحوى من خضار وفاكهة ولحم ودجاج وسمك ومشتروات مختلفة تجلب من هذه المحلات ولهذا فهم يرحبون ، ولكن هذه المرة كنا سبعة وكل منا يحمل على ظهره جزءا من متاعنا ويجب أن نقيم فى منطقة الميناء لأنها منطقة فسيحة بالإضافة إلى أنها تعد مركزا جميلا لنا ننطلق منها إلى بقية المناطق فذهبنا إلى هناك واكتشفنا أن المحافظة أقامت لنفسها معسكرا فى تلك المنطقة التى كنا قد أزمعنا على الإقامة فيها فالأرض فى مرسى مطروح فى ذلك الوقت لم تكن ملكا لأحد بل كانت مشاعة ، فوجدنا ذلك المعسكر ووجدنا له بوابة ودورة مياه وكأنه قد انبعث انبعاثا فى تلك المنطقة يجاوره منطقة خاليه اقمنا فيها خيمتين صغيرتين أحدهما للشباب والثانيه للفتايات ثم أقمنا منطقة فاصله بين الخيمتين ووضعنا فيها بعض الأدوات التى يمكن أن نصنع بها الطعام ، فعلنا هذا ثم بدأنا نكتشف المنطقة ودخلنا معسكر العائلات وما كدت أدخل حتى عرفنى قائد فرحب بى وطلب منى أن انتقل بزملائى وأصدقائى للانضمام إلى معسكرة ومعاونته الاشراف على المعسكر فقلت أننى فى أجازه ولا أريد أن أمارس سلطة تأخذنى من راحتى ، فقال أنت وما شئت ولكن يجب أن تأتى إلى هنا وقتما تشاء وأن تستخدم مرافق المعسكر وأخذت مجموعتى ورفاقى ودخلنا معسكر العائلات وغنينا (تن تن كرفان ، الليلة رايحين تنام ، وبكرة ، هأناخد زكام) ، وردد خلفى المعسكر جميعه ، وإذا بتلك الأغنيه العجيبة التى ألفتها من وحى لحظة رؤيتى للخيام معسكر العائلات أصبحت هى شعار المعسكر وبعد عدة أيام ظهرت لى شعبية هائله وإن كانت شعبيه من لون جديد ، فلم أكن قائدا ولا مشرفا بل مجرد شاب يلهو ومعه مجموعة مثلة يلهون طول الليل وطول النهار ، يأكلون حيث يجدون الطعام ، كنا منذ الفجر نذهب إلى الميناء وهو كما قلت مياهة عميقة جدا ونقفز من الميناء إلى داخل البحر حيث الماء الأزرق والأسود ونتصايح مثل الأطفال قد خلى لهم المكان حتى إذا جاء الصباح وأرتدينا ملابسنا ، وذهبنا إلى معسكر العائلات وتكون كل عائلة صنعت لنفسها إفطاراً شهياً وقد كان المعسكر يضمن لك الإقامة فقط نظير مبلغا زهيد من المال ولكن الطعام توفره كل عائله وكنا نذهب وقت الأفطار ، ونأكل دون حرج وندفع الثمن اضحاك هؤلاء الذين صعنوا الطعام ، ولا نقيم فى مكان واحد فإذا ما شربنا الشاى فى خيمة نذهب إلى خيمة أخرى ، هذا بسكويت فلنأخذ منه قطعة من كل صنف وهذا فول مدمس حتى إذا ما شبعنا من الطعام الذى نتاوله مع كل أسرة ترحب بنا مع عاصفه من الضحك ومن الأناشيد الهزلية نمضى وهم يحاولون الإمساك بنا حتى نذهب معهم إلى الشاطئ ونعتذر كما نشاء وفى أحد الأيام لجأ الينا صاحب فندق يسأل هل لديكم من يستطيع اصلاح فواتير المياه والساخانات المعطلة ؟ وكان معنا أحد الاصدقاء مهندسا يعمل فى هذا المجال فقال الشاب فى حياء نعم يا سيدى وأذهب أنت الآن حتى نتحدث مع الباش مهندس ، ثم قال بعد أن أنصرف صاحب الفندق ، هيا نذهب معا ، فقلت كيف ؟ قال إذا ذهبت أنا وحدى فان أجرى سيكون قليلا ولان منظرى مجرد ميكانيكى أما إذا ذهبت أنت ومعك

المجموعة وأخذنا نناديك ياباش مهندس ، ونحاول أن نكون معاونين لك وسأقوم أنا بالإصلاح في الحال وفقا لإرشاداتك فقلت أنا لا أفهم في المواتير ولا الساخانات قال يكفى أن تشير أن تصدر الأوامر وإذا أمكن أن تصفعنى فاصعنى صفعا رقيقا ، وقلت له وماذا نأخذ ؟ قال نأخذ أجرا معقولا ونأكل أكلة شهيه بدلا من ذلك الطعام الردئ الذى تعودنا عليه وذهبنا إلى الفندق فأشار الميكانيكى نحوى وقال سيقوم الباش مهندس بالكشف والمعاينة وسنحتاج إلى قطع الغيار تأتيها من الإسكندرية فظهر الحزن والقلق على وجه صاحب الفندق فكيف له أن يذهب إلى الإسكندرية ، وسيأخذ منه هذا يوما في الذهاب ويوما في العودة ثم يوما في شراء قطعة الغيار وبهذا يكون فقد كل زبائنه ، وشمر الميكانيكى عن سواعده وبدأ في إصلاح الآلات المعطلة وبدأنا نشير عليه ونعاونه وأبدوا أنا المهندس الفنى بينما يقوم زميلنا الميكانيكى بالعمل الفعلى واستطاع أن يصلح الثلث كأمهر ميكانيكى في العالم ويصيح صاحب الفندق ويهلل لان الماء ملأ الخزانات وامتلأت الغرف بالصياح لان الماء قد عاد عمت الفرحة نزلاء هذا الفندق الأنيق الذى يضم أغنياء من أنحاء العالم وأحاطوا بنا يهنئون ، ثم بدأنا في إصلاح الثلاجات وكان زميلنا الميكانيكى قد تعب (وأنا زودتها حبتين) أتدخل أحيانا على الرغم من عدم فهمى لما يقوم به ، لهذا وجدته يصيح في صاحب الفندق يا خواجه نحن لم نأكل منذ الصباح وأنت لا تستحى فقال حالا .. وجلسنا حول مائدة عامرة بأشهى الأطعمة ونحن ننظر إلى البحر وكنا دوما نذهب إلى هناك ونجلس على الرمال دون مقاعد ودون طعام فإذا بنا اليوم نجلس كما اشتهينا أن نفعل من قبل وكنا رأينا الأجانب يجلسون على مقاعد خضراء نظيفه وأمامنا مائدة عامرة بما لذ وطاب من أكل قد حرمنا منه منذ أن جئنا إلى هنا ، وقد كانت تلك (الغدوة) رائعة بالفعل أعطتنا مزيدا من القهوة وشربنا الشاى والليمون وكان صاحب الفندق ياتى مهرولا ليحضر لنا أكوابا من الليمون ثم القهوة وسلال الفاكهة نظيفة وزميلنا الميكانيكى منهمكا في إصلاح الثلاجات وأكتفى أنا بإلقاء التعليمات حتى انتهينا أو انتهى زميلنا الميكانيكى من عمله وجاء صاحب الفندق ، ليعطينا أجرنا ، فنظرت إلى أصحابى وقلت نحن لسنا في حاجة إلى نقود قال صاحب الفندق أعلم أنها نقود قليلة ولكنى ارجو أن تقبلها واخذتها فقال ولن تذهبوا إلا بعد أن تغتسلوا وتجلسوا عنا في كازينو الفندق لتشاهدوا برنامجا حافلا كنت قد نظمته هذه الليلة والعشاء على نفقة الفندق فذهبنا إلى أحدى الغرف التى خصصت لنا وبالفعل قمنا بالإستحمام لأول مرة منذ أن جئنا إلى مرسى مطروح بمياه حلوة أقصد إنها ليست مياه البحر وكنا دوما نستخدم البحر في أشياء كثيرة لا داعى لذكرها ، اغتسلنا هذه المرة بماء عذب وشربنا من الثلاجة عندما عدنا إلى الكازينو وكان في مكان غير مكان الفندق ورأينا العجب العجاب ، فقد رأينا مكانا فسيحا جميلا مزركشا ورأينا فرقة موسيقية جاءت من اليونان وكانت أول مرة نسمع فيها موسيقى صاخبه كانت بدعة في ذلك الوقت ولم تكن تعرف في مصر إلا في أماكن معنية ومحددة

لايدخلها إلا الأجانب فقد كنا فى زمن الأجانب هذا المكان لايدخله الا الأجانب ، وغير مسموح بدخول المصريين (فى الاسكندرية إيضا فندق فى ميدان محطة الرمل لا يدخله إلا الأجانب ،وبالعجمى فندق خصص للروس) وذهبنا إلى الكازينو وكنا فيما يبدو أول مجموعة من المصريين يدخلون إلى هذا المكان ، ورأينا النساء فى ملابس السهرة كما تشاهدهن فى الافلام فالظهر عار والصدر إلى منتصفه إيضا عار والرجال يرتدون ملابس مثل ملابس باشاوات زمان والموائد نظيفة والورود منتشرة فى كل مكان والجرسونات يقدمون المشروبات المثلجة والمشروبات التى لاتعرف لها اسما وتقبع الفرقة الموسيقية فى أقصى الفندق تعزف لحنا هادئا جميلا حتى أننى عندما جلست بعض الوقت رغبت فى النوم من هدوء الموسيقى وحلاوتها وكان هذا موعد بدأ تناول العشاء .والعشاء فى هذا الكازينو لـيس مثل ذلك العشاء الذى تعودنا تناوله سواء فى معسكرنا العزيز أو فى بيوتنا ، فنحن نضع الطعام ثم نبدأ باسم الله فى ابتلاع الطعام ابتلاعا ، هذا هو طبق الرز وعليه طبق السبانخ .. أو الملوخيه أو أى لون من الوان الخضروات المطبوخه وتطبخ الخضروات فى مصرنا العزيزة كلها بطريقة متشابه ، بصل محمر ثم عصير الطماطم ثم تضع أى شئ أخر البسلة مثل الكوسة مثل الفول المدمس مثل اى شئ ثم يأخذ فى الغليان ثم يصبح طبيخا ونضع الطبيخ على الأرز ثم قطعة اللحم فوقهما ونأكل بالمعلقة طيخ طاخ حتى تمتلئ بطوننا ولا يستغرق هذا منا لاخمس دقائق أو نحوها وفقا لقدرتك على الابتلاع وليس على قدرتك فى المضغ ونجلس إلى موائدنا فترة قصيرة وكأننا نكره الجلوس إلى موائد الطعام ، ولا نتحادث بعضنا إلى بعض كما نرى ذلك الآن فى التليفزيون والذى يحدث دوما أننا نلتهم الطعام وإذا اصرت امهاتنا على أن نأكل سلطة خضراء نضعها فوق هذا كله فيصبح الطبق (أمريكانى) ولكنى الآن الأمر يختلف ، رأينا الجرسون يقدم لنا الطعام بالقطارة وهو مقدار محدد بانواع مختلفة هذا مثل وذاك مربع واخر مستدير ، أخذ كل منا قطعة من خبز اختفى الخبز من مائدتنا ، وجاء للجرسون فإذا به يضع قطعا صغيرة من الزبدم والجبن ، قطعا صغيرة تافهة ولما مضى قفزت ايدينا فجأه إلى الزبد والجبن فلما عاد الجرسون لم يجد لاخبزا ولا زبدا ونظر الينا ثم نظرنا نحن إلى بقية المدعوين أو المتفرجين فإذا أمامهم الخبز والزبد وكل منهم ياخذ قطعة صغيرة من خبز يضع عليها قطعة صغيرة من الزبد ويأكلها يتلذذ واستمتاع ثم يرتشف رشفة صغيرة من كوب النبيذ أمامه والموسيقى تعزف ، فقلت لاصدقائى يجب أن نغير من عاداتنا أو على الاقل هذه الليلة حتى نشعر بالمتعة ، ولان صاحب الكلمة لدى المجموعة ، فقالوا نعم سنفعل كما تفعل أنت أمرت الرجل أن يأتى الينا بخبز جديد وزبد فاحضر لنا خبزا مقددا ساخنا واخر باردا وكثيرا من الزبد وكثيرا من الشوربه وقد احس هذا الجرسون باننا قوم غير القوم واننا على الاقل مثله ، مصريون ، فاشفق علينا واحضر لنا المزيد من الخبز والزبد فأخذت أنا افعل كما يفعلون ، أخذت قطعة خبز صغيرة وجرفت قطعة زبد بسكين ووضعتها برفق على

قطعة الخبز هكذا ثم وضعتها برفق فى فمى وأخذت امضغها فى تلذذ فلما جاء إلينا الجرسون بالنبيذ قلنا لم نتعود على شربه ، طلبنا منه أن يأتينا بشراب المانجو أو أى شراب أخر حلال فأتى إلينا الرجل بعصير الليمون وأخذنا نرتشف رشفة من عصير الليمون ثم قعة من خبز عليها قطعة صغيرة من الزبد ونأكل ثم نشرب ، يفعل اصدقائى كما أفعل مثل جارى ، أخذ منا هذا ساعة ، ولم نأكل من الخبز والزبد إلاربع الكمية لأننا كنا نقلد الاجانب الذين يتحدثون بجوارنا بلغات لا نفهمها غير الإنجليزية ، بالطبع فقد كنا نتحدث نحن أيضا بالإنجليزية ، الإنجليزية المدرسية التى تبدو وكأنها نقر فراخ أو نعكشة من نعكشات بدوى يتحدث بالفصحى ثم جاء موعد الطبق الأاول أو هكذا استنتجت ، فقد أزال الرجل ما على المائدة من أدوات وطعام وجاء إلينا بطبق كبير ثم بأدوات مائدة اخرى ثم جاء بمجموعة اطباق صغيرة وضعها متناثرة فوق مائدتنا ، وفعل ذلك لبقية الموائد وبدأت الموسيقى أكثر سرعة نظرنا حولنا فإذا بقية الموائد تاخذ قطعا صغيرة من طماطم وقطعا صغيرة من الطحينه مثلا هكذا واستنتجنا أن هذه هى السلاطة كما كنا نأكلها فى مطعم الخواجة (مترى) عاشق مرسى مطروح الذى أقام فيها ما يقرب من خمسين عاما ، يصنع المكرونه فى مطعم متفرد بجوار البحر وفوقه منزله ومعه زوجته ، ونذهب إليه لأن طعام جميل ولذيذ وايضا رخيص الثمن ويقدم لنا طبقا من المكورنه ومعه أطباق صغيره من الطحينه أو بعض المخللات فعلنا مثل ما يفعل الآخرون ، قطعة صغيرة من الطماطم أو قطعة .. صغيره من طبق الطحينه فإذا بالجرسون يقدم لنا قطعة كبيرة من اللحم مثل رغيف الخبز أخذ جارى سكينا وشوكا وأخذ يأكل على مهل قطعة قطعة يمضغها على مهل وقد تغير لون النبيذ من لون وردى إلى لون غامق ، فأتى الجرسون ، أستبدل عصير الليمون بعصير آخر وبدأت الموسيقى تبدو أكثر عنفا ، ونحن نريد أن نلتهم قطعة اللحم بسرعة لانيا كانت بالفعل ذات مذاق لم نذقة من قبل ، كنا فى سن الشباب الباكر ، لا نريد أن نجلس هكذا مثل التماثيل يمضغون الطعام فى عدة ساعات حاولت أن أقوم بالتجربه إلى أقصاها أو إلى مداها وفى جيوبنا النقود الكثيرة وهذا الطعام لن ندفع ثمنه ، فلنأخذ التجربة إلى اخرها ولتكن دغشا فى دغش ، فإذا بر جل وامراة يذهبان إلى حيث كانت الموسيقى ويرقصان ، أخيرا رأيت الرقص امام عينى مباشرة لم يكن فى السينما ، ولم يكن هذا مجرد خيال إنما هو واقع أمامى الرجل يحتض المرأة بقوة ويضع يدى حول خصرها وهى تكاد تنام على كتفه والموسيقى تعزف ، زوجان أخران ثم زوج ثالث وأمتلات المساحة المخصصه للرقص بهذا الحشد الكبير ونحن نرقب الحلبة كما نرقب الأطعمة هكذا وكأنهم يأكلون دوما أما نحن فجلسنا فى دهشة ريفيون بسطاء سذج رغام أن معظمنا تربى فى المدينة وعاش فيها وذهب إلى السينما منذ صغره فقال صديقى الميكانيكى: هل يمكننا أن نفعل مثلهم ؟ فقلت له أننتظر حتى نرى ما نستطيع أن نفعله ونقلد غيرنا ، أما هذا الحدث الذى يحدث أمامنا فأنا لا أستطيع مثلا أن أخذ (الحصان) الفتاه التى كنا نسميها

الحصان لكى تنام كتفى ، فأنا لا أتحملها وربما سقطت من ثقلها وتضاحكنا وسرعان ما توقفت الموسيقى وعاد الراقصون والراقصات إلى موائدهم وعادوا إلى الأكل بنفس الطريقة الهادئة البطيئة وكنا قد أنتهينا نحن من إلتهام قطعة اللحم ولم نصبر قليلا على تلك الطريقة البطيئة التى تأخذ اللحمة قطعة قطعة وأمسكنا بالسكين وأخذنا نأكل ما أستطعنا أكله كما كنا نفعل دوما فإذا بالأطباق أمامنا خالية بيضاء من غير سوء ، ورفعها الجرسون وبدأ يأتى بطبق آخر فإذا به أرز وبجواره مجموعة من الخضراوات التى تبدو جميلة المنظر منسقة الصنع ، وكان أغلبنا قد شبع فقد ألتهم الكثير من العيش والزبد والكثير من السلاطة وقطعة اللحم الكبيرة ، ولكننا بدأنا فى أكل الأرز ونحن نحب أكله دوما وخاصة يبدو وكأنه قد طبخ بإشراف أخصائى كبير وقد أخذنا فى إلتهام الأرز بالملعقة وياللهول نظرت إلى جارى فإذا به يأكل بالشوكة أندهشت كيف تأكل الأرز بالشوكة ؟ لابد أن نكتفى نحن بأكلة بالمعلقة حتى لا ينسأقد على ملابسنا ، الموسيقى أرتفعت فجأة ، وكأن عفريت من الجن قد بدأ يعزف ، طاخ طيخ ، فرأينا شاباً وشابة يخرجان من بين صفوف المشاهدين ويرقصان رقصا عفريتيا وهى تفعل ما يحلو لها وهو يفعل ما يحلو له دون أن يلتصقا أو يتعانقا أو يضع يده حولها وفرحنا بهذا فرحا شديدا أسعدنا هذا إلى حد كبير ، وقلنا هذا أفضل وقلنا نجرب ، بدأنا نتشاور أنت يا على ؟ قال على : وكيف أفعل ذلك ؟ هذا أمر غريب ، أنت يا أحمد : قال أحمد لا ... والله لا أفعله ، أنت يا اسماعيل أنت أكبرنا سناً وأنت من الأسرة المالكة إنك كنت فى زمن عاشت أمك أميرة مثلا ، وتعرف هذا عننا ، قال : كيف أدور فى وسط هذا الحشد وأرقص كمجنون ، إنه زار ، وقالت النتاة الحصان بصراحة أود أن أفعل هذا من صميم قلبى ولكن الخجل يتملكنى ، فقلت لها هيا بنا ، هيا لنجرب ، بدأت أزحف إلى حلقة الرقص وأعترف الآن إننى كنت أرتعش أحسست أن فروة رأسى قد التهبت وأن شعرى بدأ .. يتساقط ، وأسنانى تصطك وترتعد يداى وكأننى لست بتجها للرقص بل متجها على الذبح وقفنا أنا وهى وبدأنا نتحرك حركة بطيئة هو جاء لا معنى لها وأحاول أنا أن أسيطر على نفسى وأن أستمع إلى دقات الطبل مثلا فأفعل ما يفعل أهل القرى فى رقص الأفراح والنتاة تحاول وبعد لحظات قليلة بدأنا بالفعل نندمج ونشعر بالموسيقى تدخل أعماقنا ونتجاوب معهم ، ونرقص ونشعر بلذة حقيقية وسعادة وتنتشى أجسادنا بالفرحة وشعرت أننى أفعل شيئا هاما جداً وأننى سعيد رقصت بطريقتى ، وبالطريقة التى هدانى إليها النغم الصادر من الفرقة الموسيقية حتى انتهت القطعة الموسيقية وكنت وصفقنا جميعا وذهب كل منها إلى مائدته وأخذت أنا النتاة الحصان إلى مائدتنا والمجموعة من حولى تكاد تزغرد من الفرح لأن اثنان منهما قد فعلا ما لا يمكن فعله فى جرأة شديدة سألنا عن رأيهم فينا فعلنا ؟ قالوا كنتم أفضل الراقصين ، هكذا قالوا فقلت حسنا فلنتشجع جميعا ولنفعل فى المرة القادمة معا ما يفعل هؤلاء ، نجرب هذا ثم نقول إذا كان هذا خطأ أم لا ، بدأت الرقصة الثانية ووقفنا جميعا وذهبنا نحن السبعة إلى حلقة

الرقص وبدأنا نمارس لونا من ألوان الرقصات التى هى ليست من الرقص الغربى ولا الرقص الشرقى ولايحزنون ، إنما كنا سعداء حتى ما أنتهت الرقصة الثالثة عدنا فجدنا أطباقنا وقد أختفت وقد جاء صنف ثالث بأطبق أشهى وألذ وبطريقة جميلة فالتهمنا ما على المائدة دفعة واحدة دون النظر إلى مراعاة تقليد الآخرين فقد شعرنا بالجوع بعد تلك الرقصات الهوجاء التى لايمكن أن تعرفها تعريفا سليما وتقول أن لها قواعد ، إذا بالمغنى يغنى أغنية يونانية فتخرج فتاة من بين الصفوف وترقص بطريقة عجيبة منسقة فإذا برجل من بين الصفوف يخرج طبقين عند قدميها وبالطبع صاحت الفتيات من مجموعتنا يا أخى خسارة ، فعلا خسارة سيحطم طبقين سيكلفان الفندق كثيراً من المال فإذا بثالث يحطم أربعة وبخامس يحطم سبعة وبآخر يحطم عشرين ، وإذا بفتيات كثيرات يظهرن على المسرح ولكل منهن صديق لها أو كل رجل يخرج ويحطم أمام الفتاة التى ترقص مجموعة من الأطباق كانت معدة خصيصا فى ركن من أركان الصالة لهذا الغرض ، آسف جاءت الممرضة وقالت: لقد نفد الدم فى الكيس هل تشربه ؟ ضحكت ، جاءت بكيس دم آخر وظلت حتى بدأت قطراته تتدفق ، كنت أتذكر حفلة الفندق الكبير فى مرسى مطروح ، ولية الكازينو ... رأينا حلقة كبيرة قد اكتملت من الرجال والنساء والفتيات وأخذن يرقصن رقصة يونانية جميلة سريعة والأرجل تتقدم ثم تتقافز ثم تتلوى هكذا بنظام بديع أعجبنا كثيراً وشعرنا بسعادة غامرة ولكنا لم نستطع مشاركتهم فى تلك الرقصة التى تستلزم تدريبا ..نيا بالتأكيد وقدرأيت هذا ذات مرة فى أ..د الأفلام أعجبتنى وتمنيت أن أرقصها بمفردى فى غرفتى ، حاولت ، ولكنىلم أستطع ، فجلسنا نشاهد ونسعد حتى إذا ما أنتهوا من رقصهم اليونانى بدأت الموسيقى مرة أخرى لتعزف شيئا بطيئا وبدأ السيدات والرجال فى الإلتصاق وكنا قد أنتهينا من الطعام ومن الشراب وبدأ النوم يداعب جفوننا فقد تعبنا اليوم كله فلما عدنا إلى خيامنا الفقيرة البسيطة وكنا ننام على الأرض مباشرة ، نعد بعض الرمال ثم ننام على الأرض مباشرة لا يحجزعنا هواء الليل إلا خيمة رقيقة بسيطة الصنع بسيطة الإقامة فلما ذهبنا إلى هناك رحنا فى نوم عميق حتى إذا جاء الفجر صحونا كما تعودنا ، حاولت أن أحاسب نفسى على الخطايا التى ارتكبتها ، لم أستطع حصرها ، هالنى إنها كثيرة ولكن الله غفور رحيم ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم جاءت الممرضة لاحظت أن تدفق الدم يبدو سريعا حاولت ضبطه ، أسرع إليها ممرضا آخر ، وكان لابد أن يغيروا (الكانه) المغروزة فى عرق الرقبة ، تصاعد الألم إلى دماغى ، صرخت ، أسرع الطبيب ليرى ، أعادوا فتح الجرح فى الرقبة لوضع (الكانه) الجديدة .. ولكن الألم لم يذهب وأحلامى هى فقط التى تبخرت ..

نظرنا إلى البحر القريب منا ، شديد الظلمة عميق المياه ، ونحن نتساءل هل كان بالأمس حلما أم حقيقه ؟ لم نتحادث ولم نتبادل ذكريات ذلك الأمس الجميل ، عدنا وأنطلقنا وكأن شيئا لم يكن وتشاجرنا كالعادة حول من سيطبو طعام الغداء (بطاطس بالبصل توضع فى إناء فخارى نصنعه

من بعض الأحجار ونشعل بعض الحطب الجاف الذى نجمعه من حول الخيمه) ، أحببت مرسى مطروح ، زرتها فى الخمسينات وفى الستينات وفى السبعينات وفى الثمانينات وأيضا فى التسعينات ، اختلفت اختلافا كبيرا وبدلا من أن كنا نشترى صفيحة المياه العذبة بعشرة قروش ونظل عليها حافظين لمدة أسبوع كامل ، إلا أن العديد من القرى السياحية والعديد من الشقق السكنية والعديد بل الآلاف من البشر يتزاحمون ويتقاتلون على نقطة مياه صافية على شواطئ مرسى مطروح الممتد لأكثر من عشرين كيلو مترا ، عزبة حشيش زرتها عندما تزوجت أول مرة وكنا نذهب إليها بالعربات الخاصة لكى ننطلق فى نزهة برية حتى نصل إلى البحر ، وزرتها ومعى زوجتى الثانية ولفيف من الأصدقاء ، ونحن عائدون انفجرت إطارات السيارة الأربعة ووقفت أنا وهى حائرين ماذا نفعل ؟ وضحكنا وظللنا نضحك حتى جاءت سيارة وحملتنا إلى مرسى مطروح وهناك حاولنا شراء إطارات جديده لنعود بالسيارة ونجحنا ولكن بعد أن أبلغنا مديرية الأمن فى مرسى مطروح لكى تأتى لنا ببائع الكاوتشوك التابع للشركة لأنه لأسف الشديد كان قد أغلق دكانه ولا يوجد محلات أخرى ، فأصدروا أوامرهم ليأت الرجل من منزله وعلى الرغم من إرهاقنا الشديد إلا أننا كنا نضحك فى سعادة ، وكأن ما يحدث لنا مجرد فيلم كوميدى ، وضحكنا عندما أبلغنا الرجل أن الكاوتشوك ليس محليا وأنه مستورد من كوريا وأنه أردأ أنواع الكاوتشوك وليس لديه غيره ولا يكفى أن ينقلنا إلى القاهرة والله ستار وتحمل الكاوتشوك بعد ذلك عامين كاملين ولم تنفجر الإطارات وكان بالفعل كاوتشوك جيد ، نغش ، المرة الثالثة ، فيما يبدو أن لى ذكريات خاصة بزوجاتى الثلاث فى مرسى مطروح ، وأرجو ألا يتصور أحد عندما يسأل عنى فيعرف إننى فى مرسى مطروح ، فيتصور إننى ذهبت لأتزوج لأن هذه المدينة قاسمتنى عمرى كله ، عندما تزوجت زوجتى الثالثة ذهبت معها إلى مرسى مطروح ولم تكن تصدق هذا الجمال ، وهكذا كلما أتحدث عن مصاريف مصيفأقول ليس هناك مصيف فى العالم كله يضارع مرسى مطروح ، فقد ذهبت إلى كابرى ، عندما كنت طالبا فى البعثة وذهبت إلى الريفيرا وإلى مصاريف بلدان عديدة ولم أر فعلا أجمل ولا أحلى من مرسى مطروح ، حتى فى منتصف التسعينات أعتقد إنها لم تعد كذلك إنما أصبحت مظهرا من مظاهر قلة ذوق الأثرياء ولله الأمر من قبل ومن بعد . وفى المرة التى أذكرها وهى الثالثة لا أقصد الثالثة إلى مرسى مطروح فقد ذهبت إليها مئات المرات وقضيت فيها عددا كبيرا من الأيام لا يمكن حصرها بسهوله ، أقصد عندما تزوجت للمرة الثالثة أخذت زوجتى الجميلة الصغيرة وذهبت بها ، على فكره أنا أحب زوجتى حبا شديدا جدا وأشتاق إليها الآن اشتياقا شديدا جدا ومهموم بأمورها وأمور أولادها وأدعو لها دائما بالتوفيق وأكاد أجن لأنها الآن وحيدة تناضل من أجل الأطفال الثلاثة وأنا هنا راقد لا أملك لها إلا بالدعاء ودائما عندما تحادثنى فى التليفون أحاول أن أجعلها تذهب إلى زوجتى الأولى لأنها بالتأكيد وكما ثبت بالتجربة إنها أم ، أم لابنتين وأما لها وأما لأولادي

الثلاثة ، وهى سيدة حنون ذات قلب كبير وقفت بجوارى ناديتها أمى طوال تلك السنوات ، وظلت هى أمى بالفعل ، أمى الحنون التى تقف بجوارى دوما التى لولاها ما كنت هكذا سواء حققت نجاحا بسيطا أو حاولت النجاح ، دائما أستمد منها الأمل عندما تحدثت عن زواجى وضرورته وربما يكون هذا زريعة فى نفسى ولكن الحق يقال إذا كانت قد فشلت كأمرأة نجحت نجاحا كبيرا كأم : سواء كانت أم لأبنتى أو أما لى وأنا كنت فى حاجة إلى تلك الأم ، ولم أكن فى حاجة إلى زوجة مدللة تأخذ من وقتى ما شاءت وربما سقطت فى بئر الحرمان ولكننى وجدت سلم الأمان فى عنايتها والوقوف بجوارى وأيضا عدم المساس بكرامتى وعدم المساس بوقتى وإفساح المجال لى ولطموحاتى ولموهبتى ، وأنا الآن أحبها كثيرا كما أحب زوجتى الصغيرة حبا كثيرا وأتمنى أن تذهب إلى بيت أمى الحاجة (زوجتى) وتجلس بجوارها وتحكى لها عن مشاكلها لكى تحاولا هما الاثنتان التغلب على مشاكل غياب الزوج ، اللهم تقبل دعائى فى نجاة أولادى جميعا ، من المرض ومن الزيف ومن النفاق ومن الكفر ومن الشرك ومن كل ما هو آثم ، وأن تجعل لهما نصيبا من نجاح فى الدنيا وحسنات فى الآخرة ، اللهم أمين ، وفى رحلتى مع زوجتى فى المرة الثالثة ، كنت أمام الفندق الكبير الذى ذكرته فيما سبق ، وسألتنى زوجتى ما هذا المبنى ؟ فقلت فيما مضى كان مبنا شامخا جميلا يسمى (البوسيت) وكان له رونق وبهاء ولا ينزل فيه إلا وجهاء القوم وأثريائه ، وخاصة الأجانب وكان شاطئه جميلا وفسيحا وبديعا ، يكفى أن نجلس فى هذا الركن لنشرب الشاى هيا بنا ندخل وقصصت عليها قصة إصلاح المواتير والثلاجات والستائر فضحكت فى سعادة وجلسنا فى نفس المكان ، الذى جلسنا فيه ونحن شله من شباب ، يقول (المستر) الطباخ أنه مستاء منى جدا لأننى لا آكل ، وقد أحتار معى ، نظر نحوى فى غيظ ثم قال : ماذا تريد أن تأكل ؟ وجاء الجرسون وطلبنا شايا وجاء الشاى ، معدوم الرائحة معدوم اللون ، وأيضا معدوم الطعم والموائد متسخه والمقاعد محطمة والفندق يبدو شيخا ضاعت هيبته وصغر حجمه أو ربما أنا قد تغيرت إلى درجة أننى رأيته بهذه الحالة المتدنية. فخرجنا ومضينا ونحن نتضاحك وكنت سعيدا أشرح لها كل شئ ، فسألتنى : ولماذا لا نذهب إلى عزبة حشيش قلت لها : لم تعد عزبة حشيش ، أصبحت قرية سياحية لذوى النفوذ فى بلدنا .. فسألت .. وما هو الحشيش ؟ ضحكت وقلت لها :كيف لا تعرفين الحشيش ؟ قالت : هل هو الذى تأكله البهائم مثلا ؟ أنا سمعت من جدى ذلك ، قلت لها : هناك صنفان من الحشيش ، حشيش تأكله البهائم وحشيش تأكله البشر ، فسألتنى مرة أخرى وهل لنا شراء هذا الحشيش ؟ فضحكت حتى أنها بكت لأننى استهنت بسؤالها ، أخذت أشرح لها إنه من المواد المخدرة ، وبالمصادفة كان يمشى خلفى رجلان فلم أهتم كثيرا بأن يسمعا أو لا يسمعا وأنا أشرح لزوجتى كيف يزرعون الحشيش ثم كيف يستخلصون منه بعد ذلك مركبات معقده ، كنت بالطبع قد قمت بدراسة هذا ورأيت كل تلك العينات وأنا أدرس علم النفس فى الدراسات العليا وخاصة أمراض

النفس البشرية وكيف تلعب المخدرات دورا فى أسباب المرض وتقدم منى الشابان وضحكا بشدة وقالا يا رجل لقد تصورنا إنك تاجر مخدرات فأبديت دهشتى ، فقالا لا بأس نحن نعرف من أنت ، قلت من أنتما تاجران من تجار المخدرات ؟ قالا ضابطان من مباحث .. المخدرات ، فصمتت زوجتى ونظرت إليهما فى رعب وكانها ترى جنيا سوف يأخذ زوجها وأمسكت بى بشده فقالا لا تخشى شيئا يا سيدتى نحن نعرف الاستاذ ونعرف من هو ، ولكنه بالفعل قام بشرح المخدرات وصناعتها والإتجار فيها وزراعها وتصنيعها أفضل من فطاحل تجار المخدرات ، وكان هذا اليوم دغشا فى دغش .

وأتذكر حكايات متفرقة من الدغش لا تخصنى إنما شاهدتها ، بعضها ضحكت فيها والاخر بكيت ، ذهبت ذات يوم إلى أسره من التجار الأثرياء وكان لى بهم صلة ما ، وكنت أذهب لزيارتهم كل حين فقال لى رب الأسرة أركب معنا فنحن سوف نتعشى خارج البيت ، فأبديت إعتذارى ولكنهم أقسموا وركبت وأنا متذمر وفى نيتى أن أنتهز أقرب فرصة لأهبط منفلتا وكانت أسرته مكونه من ثلاثة أفراد ، ركبت بجواره وذهبنا إلى منطقة المنيل وهناك أمام الجمعية التعاونية وقف بجوارها ثم هبط وأخذنى معه وكنا فى ذلك الوقت فى أواخر الستينات وكانت أزمة اللحوم الطاحنة وأزمة الدواجن ولا أحد يستطيع الحصول على لحوم الجمعية بالذات لأنها رخيصة جدا لا تقارن بأسعار الجزارين ، كانت طوابير الدجاج هذه سببا لكى أكتب قصصا عديدة حول دجاج الجمعية وأذكر أننى كتبت قصة عن رجل مات فى طابور الجمعية الخلفى ، وطلب صديقى من الجزار ذبيحة.. وذبيحة بأكملها ، قال الجزار التابع للجمعية ، إذهب أنت وسوف أحمل الذبيحة بنفسى إلى السيارة ، رأيت الجزار وهو يحمل عجلا كاملا مسلوخا ولما لم يستطع حملها نادى على مساعده ليحملها معه ، حتى المرسيدس وفتح الرجل شنطة السيارة فوضع فيها الذبيحة وأعطاه صديقى عشرة جنيهات فرح بها الجزار وصاحبه ، أبديت رغبتى فى شراء بعض الحلوى لكى أذهب إلى الباب الأمامى للجمعية ، جاء الطباخ أو المستركما ينادونه وقدم لى (ورك) دجاجة يشبه رجل فيل صغير ، عافته نفسى ولكننى لم أشأ أن أخيب أمله فأخذته وشكرته .. وتذكرت الذبيحة التى حملها صديقى الثرى فى سيارته بينما وقف مئات من البشر فى طوابير أمام الجمعية لكى يحصلوا على كيلو واحد من اللحم ، هذا فى أواخر الستينات وليس فى الحلم وأرفع رأسك ياغبى ، طوابير مرصوصة من أجل الحصول على كيلو واحد وموظفى الجمعية يسبونهم سبا فظيعا ، ثم أمسك مدير الجمعية خرطوما من خراطيم المياه فى محاولة لتفريقهم وهم يعانون من الماء ومن التراب ومن الزحام لكى يحصلون على كيلو واحد ، مجرد كيلو واحد من اللحم ، فى مقابل السعر المحدد الذى حددته وزارة التموين هذا ياأصحاب عبد الناصر كان واقعا ترونه كل لحظة عندما كنتم فى قمة السلطة وعندما كنتم أمناء

الإتحاد الإشتراكى ، ألم يكن هذا واقعا ؟ لماذا مات هذا الرجل الثرى فقيرا وترك أولاده فقراء ، كانوا أحباء إلى قلبى ولكنى كرهت من أبيهم هذا ، حنون على الكلاب قاسى على البشر كما كان عبد الناصر ، حنونا على العرب قاس على المصريين لهذا مات محصورا مقهورا وقد استعمر اليهود أراذل الناس ديارنا ولكنا والحمد لله استطعنا ان نطرد الكلاب التى أكلت لحم الجمعية لأن صديقى الثرى أطعم كلابه لحم الجمعية ، ودعنى آخر حتى أعطيكم النبأ اليقين من شاهد عيان رأى كل هذا وعاش فيه حتى يتذكر الأبناء ما كان يفعل الآباء قد دعانى المرحوم المخرج (الجزائرلى) وكان وقتها مخرجا كبيرا إلى رجل مهاب الطلعة وقال سوف ينتج مسرحية من مسرحياتك وذلك لفنانة معروفة ، وقد خصص إيراد المسرحية لأمها المسكينة التى تعيش فى القلعة ولأننى لا يهمنى عمل المنتج وكل ما يهمنى أن تقدم المسرحية بشكل فنى جيد وكنت فى بداية حياتى الفنية أريد رؤية أعمالى التى أكتبها على الورق وقد امتلأت حياة بالممثلين وتدور أحداثها بعد أن دارت فى عقلى ويشاهدها الناس بعد أن شاهدتها أنا فى خيالى ، وبالفعل قدمت له مسرحية استعراضية غنائية كنت قد ألفتها وقام فؤاد الجزايرلى رحمة الله بإخراج هذا العمل الغنائى الكبير وقام ببطولته عدلى كاسب وأنور محمد ومحمد توفيق وأشترك معهم المطربة التى كانت فى ذلك الوقت مشهورة ، وتربطها الإشاعات بهذا المسئول الكبير ، كما أشترك فى المسرحية مجموعة من الأصوات الشهيرة مثل محرم فؤاد وغيره ولا أذكر إلا هؤلاء ولأن الذاكرة تخوننى أحيانا ولأنه قد مضى زمن على عرض هذه .. المسرحية وتسجيلها أكثر من ثلاثين عاما وعرضت المسرحية على مسرح الأزبكية وكان قد عرف الفيديو أو عرف التليفزيون وسجلت وتم تصويرها وبيعها وتم تسويقها جيدا وذهبت يوم الأربعاء وهو اليوم المحدد لنا لكى يقبض كل منا أجره : ذهبنا جماعة سواء النجوم من أمثال المليجى وعدلى كاسب وأنور محمد عليهم رحمة الله .. والموسيقيون والمنشدون وأيضا مجموعة الإخراج والإنتاج والتقينا جميعا بالمخرج العجوز الذى كنا ننادية بابا فؤاد وكنا نعرف اسم الرجل الذى يحمل النقود وهو رجل قصير القامة كريه المنظر ينفق على المسرحية فى بخل شديد وحرص أشد ، ولكن لا يهم يكفى أن يقبض كل منا أجره ويمضى فأخبرنا بابا فؤاد بأن الرجل المسئول الكبير ذا النفوذ الأكبر أقام حفلة عشاء لنجاح المسرحية فى كازينو الهرم ، فركبنا سيارات من يملكون السيارات فى تعاون وود وقد كنا شبه أسرة متكاملة ، ذهبنا إلى ذلك الكازينو ووجدنا الرجل فى أنتظار وقد أعدنا لنا مائدة كبيرة الحجم عليها من أصناف العشاء ما يفوق الوصف بل إننى تخيلت أنه من الممكن إطعام سكان حى السيدة زينب بهذا العشاء الدسم لمدة ثلاثة أيام فجلسنا ونحن نتضاحك وننظر لأننا سوف نأكل اليوم وفيرا من اللحمه وديوكا روميه وكثيرا من الطعام لا نعرف اسمه ولم نر لونه من قبل جلست بين الفنان عدلى كاسب والفنان أنور محمد وقد كان من أعز أصدقائى فلما جلسنا جاء الجنود . نعم الجنود ، لا تظنوا بى الظنون ، كان الجند يحملون صناديق الويسكى ويضعون أمام

كل فرد منا زجاجة بأكملها ، هكذا وبدأ الحفل وبدأ الناس يطعمون وبدأ من يشرب الخمر ، يحتسى بشكل يبدو إنه سوف يُعب الزجاجة عبا ، فقام أنور محمد بسحب الزجاجة ، من أمامى لأننى لا أشرب ووضعها عند قدميه وقبل ذلك بزجاجته لأنه هو أيضا لا يشرب وفعل أيضا عدلى كاسب ذلك لأنه رحمة الله كما بدا لى لا يشرب أيضا ، ولكن الزجاجات المختفية جاء بدلها زجاجات أخرى ثم جاءت زجاجات وزجاجات حتى ان المائده الكبيره التى كانت بسعة الكازينو كله تحولت إلى صناديق من الويسكى مخازن من زجاجات الويسكى والرجل يضحكم منتشيا ، شرب من شرب وطعم من طعم ولكن الرجل فى لحظة هاج وماج ونادى صاحب الكازينو فجاء صاحبه ومديره وكل من يعمل فيه يرتعدون خائفين ماذا يا سعادة الباشا ؟ ولكن الباشا كان فى سلطته ضرب صاحب الكازينو الحقير ، هيا بنا ، فهب الناس وقاموا وجلين خائفين فقد بدى الرجل ذى النفوذ أسدا لا يقدر على مواجهته أو حتى الدفاع عن نفسه إلا من رغب الموت ، وارتعدت فى رعب وهانت نفسى وبدأت الدموع تنهمر من عينى ومضينا حيث أشار والطعام لا يزال على الموائد يكاد يغطيها كلبا وأنا أتحسر على هذا الطعام الذى لا يجده الفقراء ، ذهبنا إلى كازينو آخر لم يكن مستعد أستعدادا كافيا ولكنهم فى لمح البصر أحضروا الطعام طعاما كثيرا أيضا وجاء الجند وأحضروا المزيد من صناديق الويسكى وبدأ الذين شربوا يشربون مره أخرى والذين لم يشربوا شربوا من الخوف أصبحت الساعة الثانية بعد منتصف الليل وشعرت بدوار فهمست إلى أنور محمد وكان أقرب الأصدقاء إلى قلبى ، أننى تعبت وأريد الإنصراف فقال أرجوك فقلت هل تتصور بعد هذا من يجرؤ أن يطالبه بأجر ؟ عوضى على الله ، قال وكيف ننصرف ربما لمحنا وضربنا بالسوط أو بحذائه أو اعتقلنا ، فقلت له لا تخشى شيئا فقد شرب الرجل ولم يعد يرى ما تحت قدميه هيا نتسلل وكنا والحمد لله نجلس فى حديقة ذلك الكازينو فقام أنور متسللاً وذهبت خلفه حتى سيارته وركبنا وعندما بلغنا نفق الهرم أى أصبحنا تقريبا بالقرب من الجامعة صحت مهللا لقد أنقذت نفسى من هذه الورطة فقال أنور وأجرك فقلت عوضى على الله ، إنما يحزننى الآن هذا الطعام الكثير الذى سال على الأرض بينما هناك فقراء يتعذبون ويقفون فى طوابير الجمعية من أجل قطعة لحم أو من أجل ورك فرخة وهذا الرجل الذى نصب نفسه مدافعا عن الفقراء وأمينا عاماً لكل الفقراء فى الشرق الأوسط وليس فى مصر وحدها لسان حال موسكو لسان حال الحزب الشيوعى ينفق بهذا السخاء ويسخر جنده وعربات جيشه لكى يوفر لمجموعة من الممثلين صناديق كاملة من الويسكى وسألت مرافقى : كيف يحصل هذا الرجل على الويسكى ؟ فضحك وأبتسم وكنا قد بلغنا منزلنا ، وقال : تصبح على خير ولم أصبح على خير أبدا ، فلم أذهب إلى بيتى فقد كنت تعسا وحزينا ولا أستطيع الرقاد فذهبت إلى محل كان لا يزال ساهرا وأشتريت لنفسى شايا قيل لى إنه مستورد وقد كانت البضائع المستورده ممنوعة أيضا وعجبت لذلك وقلت له كيف يكون هذا الشاى مستوردا والمستورد ممنوع قال : يا أستاذ خليها على الله أنا

أبيعه لرؤساء البلد أشتريت كيسا كبيرا من الشاى فقد أغرانى اسمه وماركته العالمية وأنا أحب الشاى حبا شديدا ودفعت مبلغا كبيرا ثمنا له وقلت لنفسى هذا أجرى عن المسرحية وعندما تسألنى زوجتى أقول لها هذا أجرى وكنا على وش الفجر جلست لأصنع الشاى من ذلك النوع المستورد وأنا أمنى نفسى بكوب ذى رائحة عطره جميلة من الشاى المستورد وصنعت لنفسى ولزوجتى التى أستيقظت على تحركاتى فى البيت فقلت لها هيا أشربى الشاى الفخم وتناسى لمدة شهر أو أكثر طعم شاى التموين فأبتسمت زوجتى وبدأنا نشرب الشاى فإذا به لاشاى ولا يحزنون وأضطرت لأن أطلب من زوجتى أن تصنع كوبا من شاى التموين دغش ، هل أقص عليكم قصصا أخرى من هذا الدغش أم هذا يكفى ؟ هناك الكثير من الدغش فى حياتى هناك الكثير جدا من الدغش ، دغش تسبب فى رفدى وفصلى ودغش تسبب فى حرمانى من راتبى لمدة أعوام ودغش كنت فيه من اللاهين الشاكين ، سأحكى لكم دغشا آخر ، عندما كنت موظفا فى الإسكان قمت بالحجز على أحد السكان وعندما حضر صاح ، وقال ألا تعرف من أنا ؟ ومن أنت يا أخى ؟ أنت عبد الله لا أكثر ولا أقل ولا أحد يعرف قيمتك إلا من يعرف خلقه وهو الله سبحانه وتعالى ، قالوا هذا الرجل عضو بالمجالس البرلمانيه والنيابية والقومية والفخرية والإشتراكية وأنه بالإضافة إلى ذلك نسيب وقريب السيد المحافظ والسيد المحافظ فى نفس الوقت هو السيد المحافظ الذى قال لعبد الناصر انه يشبه موسى وعيسى ومحمد وكان مشهورا بغلظته وقسوته وخاصة على كبار الموظفين لهذا ارتكبت وفقا لنظرية أصدقائى فى العمل جرما كبيرا لأننى تعرضت لأحد أقرباء ونسباء المحافظ وهو أيضا من ذوى النفوذ والذين كانوا يحفظون الميثاق حفظا عن ظهر قلب ، هذا الرجل يا سادة لم يدفع إيجار منزلى الحكومى الذى يشغله فى أرقى مناطق القاهره لمدة عامين كاملين ، وأنا المسئول عن تسكين الناس وعن تحصيل أجور مساكنهم ، يعاتبنى الأستاذ متولى لأننى لم أحصل على أجرة السكن لمدة ستة أشهر من سيدة تبيع الفجل فى منطقة عين الصيره لماذا لم أطردها وأرمى أثاث منزلها على قارعة الطريق ؟ وأثاث منزلها لا يتعدى كنبه بلدى وحصير ومرتبة ومجموعة من الحلل الالومنيوم لو أننى بعته فى مزاد علنى ما جاء بإيجار شهر واحد ، فأشفقت على السيدة وأمهلتها أما هذا الرجل الثرى فقد كان بيته مؤثثا باثاث فاخر ، بل وأكثر من فاخر وايجاره الشهرى فى ذلك الوقت لا يتعدى أحد عشر جنيها وقد تخلف عن دفع الإيجار وهو رجل ذو نفوذ وبالتالى ذو منصب وذو مال وذو جاه لم يدفع الإيجار لمدة عامين ، ماذا أفعل أنا مسئول التحصيل أمام السيد المحافظ ؟ فى تحصيل أجرة تلك المساكن وخاصة أجرة المساكن الفاخرة فذهبت وقد كنت وفقا للسلطة المخولة لى قانونا للحجز على أثاث المنزل وأتخذت كافة الإجراءات القانونية المتبعة وفقا للسلطة المخولة لى ووفقا للقانون وكان هذا أمام البوليس ومراعاة القواعد الروتينية التى يجب أن تؤخذ فى الاعتبار بعدها بقليل أستدعانى السيد المحافظ وكثيرا ما تكتب فى الخطابات الرسمية ، السيد المهندس اللواء الأستاذ

الدكتور الوزير المحافظ فلان الفلانى وكان تلك الألقاب لا تكفى السيد المحافظ ، جاءت الممرضة وحملت الطعام كما جاءت به ، ونظرت نحوى فى إشفاق وقالت سوف أحضر لك قطعة من الجبن .. واستدعانى المحافظ وبدأ الخوف الشديد على وجوه زملائى فى إدارة الإسكان ذهبت إليه وأنا بالطبع أعلم لماذا استدعانى السيد البيه الإشتراكى الكبير المحافظ ، استقبلنى مدير مكتبه بغلظة شديدة وتجهم أشد ودفعنى إلى مكتب الباشا المحافظ وهو يقول بغلظة : أدخل وكأن المحافظ سوف يلتهمنى أو يأكلنى وعندما دخلت ، أنحنيت على الأرض وأمسكت بما يشبه التراب وإن كانت الحجرة تخلو من التراب إلا إنه كان يبدو لى أو بدا لنا نحن الإثنين أنا والمحافظ إنه تراب وأقتربت منه قد وقف أمام مكتبه وتشابكت ذراعيه ونظر إلى فى تحفز واضح وقلت :أنت تراب جاء تراب وستعود إلى التراب ونفضت يدى وصاح غاضبا كيف تجرؤ قلت له: لأننى بعد أن أخرج من مكتبك سوف أذهب إلى الزعيم لأقول له إنك ضد [illegible] الشعب، وإنك ضد الإشتراكية وإنك من أعداء الثورة فأنتفض الرجل وأندفع خلف مكتبه وكأن مكتبه هذا يخيفنى أو يبعد الشر عنه ،ولكننى أقتربت وقلت بجديه شديدة وبى ثورة حقيقية ، وقلت له؟ إننى دافعت عن مصالح الشعب العامل وأنت تريد أن تدافع عن هذا الرجل عدو الإشتراكيه لأنه قريبك ويقطن فى عمارة فاخره ولديه من الأثاث ما يستحق أن أشكوه للزعيم ليقول له من أين أتيت بكل هذا المال ؟ لابد من تجريده وتأميمه، وكانوا يفعلون هذا بأقل الأغنياء ثراء بل وأحيانا يفعلون مع الفقراء ، وتسلل الخوف إلى كل الظواهر الإجتماعية حتى إنه لم يعد هناك خوف من الله بل خوف من الزمن والفقر ولقمة العيش لأن هذه أشياء موجودة فى حياتهم وقد عانوا منها الأمرين أما الإيمان فقد ألتمسوه فى قلوبهم فقط ولهذا تحول المصرى من مجرد عامل مجد إلى عامل لا يعمل ولا يثق فى السلطة ، وأخذت أردد بعض الشعارات التى كنا نرددها فى منظمة الشباب ، وبالتأكيد لم تكن غريبة عن أذن الرجل الذى يعمل أيضا بذلك التنظيم ، جلس المحافظ متوترا حائرا وتحول ذلك الأسد الضارى الذى كان يركل كبار الموظفين بقدمه وكان يكفى لإذلال أى وكيل وزارة بأن يخطروه بأن الباشا المحافظ يريد أن يقابله حتى يهرع هذا بالذهاب إلى بيته فلا يخرج منه أبدا إلا إلى قبره لأنه يعلم أن مصيره الإذلال أمام موظفيه ، ثم بعد ذلك الإعتقال والمعاناه من العسكرى الأزرق والأسود والأحمر وكل ألوان العساكر التى عرفت فى ذلك الماضى الأغبر ، قام وقد تسلل الخوف إلى قلبه وهو يقول: ماذا بك يابنى أنا أستدعيتك لكى أشكرك باسم الشعب العامل أنت مثال للوطنية والإشتراكية وأنا كلفت بأن أكافئك فقلت لا أريد مكافأة على فعل وطنى يكفى أن يسعد الشعب ، فقط أريد بعض الأشياء لإدارتى وبدأت أملى عليه وهو يكتب ما أريد بالأرقام التى أحددها وكنت أبالغ أحيانا فى تلك الطلبات ، ووافق على جميع طلباتى التى رحت أنبش فى عقلى وأبحث عن طلبات جديده ،، فلما انتهيت من ذلك نظرت إلى الباشا المحافظ وقلت له: يجب أن يتم كل هذا الآن ولن أخرج من مكتبك حتى تكون كل تلك الطلبات قد أعدت

بطريقة قانونية سليمة وبالفعل لم تمض لحظات حتى رأيت المدير المتعجرف فى مكتب الباشا المحافظ ينحنى أمامنا ويقول كل الطلبات جاهزة يا سعادة الباشا وكأنه كان يسترق السمع ويطيع فى نفس الوقت وبالفعل ودعنى الباشا المحافظ عند مكتبه وأنا أنظر إلى البيه مدير مكتبه بعطف شديد وأقول ياربى ألستم بشرا مثلنا ؟ ألم تعرفوا ان الله واحد وأنه رب الكون وأنه المعز المذل ؟ لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله ، وركبت السيارة الجديدة وفوقها تلالاً من ورق وأقلام ودوسيهات وسجلات وكل ما أردته ، ذهبت إلى مكان الإدارة فوجدت الموظفين وقد وقفوا على بابها الأمامى وهم يتصورون أننى سوف أعود وقد ضربت ضربا مبرحا أو أننى لن أعود مطلقا فإذا بهم يروننى وأنا أهبط من السيارة ، فراحوا يهللون وهم يتسلمون الأوراق التى كانوا فى أمس الحاجة إليها ثم ازدادت فرحتهم بتلك القرارات التى كانت لصالح تحسين أوضاعهم المالية وربما يكون الأمر كله هو تلك الجزلة التى أعيشها الآن بمستشفى فى القاهرة ويقرر الطبيب أننى فى حاجة إلى جراحة عاجلة ويجرى أقاربى وينفعل أصدقائى ويحاول زملائى وكل من يعرفنى لأخذ موافقة رئيس الوزراء، ومضت أكثر من اثنى عشر يوما قضيتها وأنا راقد فى فراش المرض أنتظر تلك الجراحة العاجلة ثم آتى إلى لندن وتأخذنى السيارة إلى جامعة إكسفورد ، وأدخل غرفة العمليات لأجرى جراحة عاجلة وأخرج منها بإذن الله فيقابلنى الطبيب الذى أجرى الجراحة بوجه باسم ويخبرنى أنه قد أجرى جراحة عاجلة عاليه وأن جراحتى كانت معقدة جداً وأنه سعيد كل السعادة ثم لم يلبث ان أجرى لى أخرى دون أن يخبرنا لماذا فشلت الأولى التى كان يتباهى بها لتزداد حالتى سوء وليصاب جسدى كله بالشلل ، والأخطر بتلك الآفة التى أحاطتنى من كل جهة أو الميكروب اللعين الذى ظل ينهش جسدى حتى الآن . فى ذات الصباح تأكدت من جذرنى فأنا شخصان فى وقت واحد أحدهما يتألم والآخر يحارب فى مكان ما اكتشفت إننى جالس على مقعد بجوار السرير ارتعد من البرد كيف وصلت إلى هنا ؟ كيف جئت إلى المقعد ؟ وأنا المشلول ، المفتوح الصدر ، الذى ينزف دما ورأسه لا تحوى إلا ذكر الله وصورة الكعبة ، أصحو لكنى اقرر فى حزم لابد من مغادرة تلك المستشفى ، كانت بالتأكيد مجازفة أن يخرج إنسان صدره ينزف وجسده مشلول والماء يتساقط منه من كل جانب ، وتخطر الأجهزة الرسمية ويجرون هنا وهناك فى محاولة لمنعى ، وتبكى ابنتى ويصر الأطباء والممرضات فى قسم القلب بجامعة اكسفورد على ألا أخرج ولكنى أصمم وينجح عنادى فى الخروج وأفاجأ فى نفس اليوم وبعد ثلاثة ساعات أن البروفيسور الكبير يقول لى : ما كان يجب أن تجرى الجراحة ! أشق صدرى أكثر مما هو مشقوق ؟ قلت خذ بثأرى أيها المصرى الجراح من الإنجليزى يقول دعنا أولا نتدارك الأمر ولا يزال يتدارك الأمر وأنا أضعف وأضعف ولا أجد أمامى إلا أن أكتب هذه الرواية ، أكتبها وأنا تحت تأثير هذا الضعف وهذا الخلل فلا شئ يهم الآن مثل الأحلام ، مثل ما نكتبه أيضا لا شئ يهم ، ماذا فعلت كتاباتى لتمنع عنا الحروب قبل أن تحدث ؟ وعن الزلازل قبل أن تحدث وعن

السيول قبل أن تحدث ؟ وعن الانتصار قبل أن يحدث ؟ ماذا يهم ؟ لا أحد يقرأ ، لم يعد أحد يقرأ كتبي ، صار الكل مشغول بهموم الدنيا ليس فيها إلا الأكل والإنفاق ودور الإنسان في الدنيا أن يأتي بالمال ، ونسى الناس أن المال مال الله وأن الرزق بيد الله فانشغلوا بما هو غير واجب عن ما هو واجب ، فكيف تكتب ؟ أليس هذا دغشا في دغش ؟ وتسمع آلاف القصص هنا في المستشفى ، المرضى كل منهم له حكايات لو شئت أن تكتبها رواية لكفتك واحده من تلك الحكايات التي يرويها ، وهو راقد يكاد يهمس إليك همسا ويذهب بعد أن يشفى كل منهم وأنا أقيم ولازلت مقيما في مقصورتي رقم ١٦ ، سجني ، غرفتي ، عذابي ، قل ما شئت ، أنا وحيد ، ذهب الجميع وبقيت وحيدا ، من الساعة السادسة مساء وحتى العاشرة صباحا أجلس وحدي ، أحاول أن أرفه عن نفسي ، أتخيل حكايات ، وأجمل الحكايات حكايات الحب وأيضا حكايات العبادة ، فأنا دوما أتذكر كيف ذهبت إلى الكعبة ؟ ذهبت مرارا ، في كل مرة أحاول أن أتذكر كل شئ ، ماذا حدث ؟ مره ذهبت وحيدا وقضيت أكثر من عشرة أيام ، لم آكل شيئا كنت أجلس في المطاعم فأطلب الطعام ثم أجد نفسي وحيد فأخرج دون أن آكل تكرر هذا على مدار زياراتي ، سواء للمدينة المنوره عظمها الله أو مكة المكرمة أكرمها الله ولكن يبقى دائما من تلك العمرات والزيارات ورحلات الحج يبقى دوما فرحة اللقاء بالكعبة وفرحة رؤيتها وفرحة الإبتهال إلى الله وأنا جالس في مقام إبراهيم وأنا جالس في انتظار مدفع الإفطار أو آذان المغرب لكي نأكل التمر ونشرب القهوة ، لا يزال في العقل والوجدان وفي الذاكرة وفي الخيال ، لا يزال ذلك الحلم الجميل ، تلك الرائحة الجميلة العطره التي يشمها الإنسان في جنبات الكعبة أو يشمها أو يشعر بها بجوار قبر رسول الله "صلى الله عليه وسلم " آه ، مضت ثلاثون عاما وأنا أذهب كل عام مره أو مرتين ، وربما ثلاث ، لم أعد أذكر ، بقيت الذكرى وبقيت الرائحة وبقيت الكعبه ذاتها في داخل نفسي أتذكرها دوما خاصة في أوقات الشدة ، ألجأ إليها ، تحاول (السيستر) أن تحشو جرحي بكثير من تلك الأشياء التي تضعها ، أتألم فالجرح فوق القلب تماما ، لا حول ولا قوه إلا بالله أحاول الدخول في الصلاة ، الله أكبر ، أردد ، تنظر إلي ولا تفهم ماذا أقول وتواصل الدفع وأنا أتألم : ألمي في صلاتي ، لا ، لا أريد أن أشكو فلا داعي لذكر الألم ، لنقل أنها دغش في دغش ، هل يمكن أن نقول أن بعض الأشياء التي تحدث لنا دغش لا أفهم معنى دغش ، وربما تكون كلمه جميلة ، ربما تكون كلمة غير جميلة ولكني استخدمتها ، ومن أراد أن يفهم معناها فليفتش هو بنفسه يحارب من أجل معرفة معنى كلمة دغش أما أنا فسوف أكتفي بذكرها ولننتقل إلى فصل آخر ربما يحمل لنا من المسرات ما عجز عنه هذا الفصل عن الدغش .؟

۞۞۞۞۞۞

الفصل الخامس

الحب عنوان فصلنا القادم ، كم فتاة أحببتها ، سؤال صعب ، سألت الفنان (..) هذا السؤال فأجاب لا أذكر ولكنهم نحو ألف فتعجبت وقلت له : أنت تبالغ فقال : ونحن في فندق في أسوان وكنا نتناول العشاء في سهرة جميلة نظمها لنا محافظ أسوان بمناسبة ذكرى عباس العقاد ، فقال: بل من ألف ويزيد ألفا واحدة ، سألت يوسف جوهر ، كم فتاة أحببت ؟ قال : واحدة تزوجتها ، يا الله ، كان معى أنور أحمد رحمه الله فسألته حقيقة الأمر لأنه عاشر يوسف جوهر فقال إنه يقول .. الصدق ، لقد أحب واحدة وتزوجها ولم يعشق غيرها ، سألت توفيق الحكيم هل فعلاً أحببت فتاة بباريس ؟ قال لا قلت ولكنك كتبت هذا في كثير من كتبك واعترفت به أمام الجماهير في أحد الأفلام ، صورك وأنت تجلس معها وهكذا ، قال لا، قلت وأنت تعلمني الكذب ، فأحيانا لا أصدقك ، فقال رحمة الله بصراحة شديدة لم أحب تلك الفتاة كانت مجرد شئ عابر ولكني دونتها في كتبي وصدقتها في شيخوختي ، عجيب ، فكم فتاة أحببتها يا توفيق ؟ فقال هن بالفعل كثيرات ، ولم أعد أتذكر ، قلت : وكراهيتك للنساء التي اشتهرت بها ؟ قال أنا لم أعد أفهمك يا بني لقد حاولت أن أعلمك الكثير ولكنك أبداً لا تتعلم وظهر الغضب على وجهه وزم فمه ، ونظر نحوي ورفع يده وهي ترتعش قليلاً فقد كان هذا الحديث قبل أن يتوفى بعام تقريبا وقال حاولت أن أعلمك ولكنه لا تتعلم ، يجب أن يخلق الأديب من حوله شيئا ما فإذا بالناس تتكلم عنه ، رأيت أن أقول أنني أكره النساء في زمن كانت هناك آراء قاسم أمين تعلو كل الآراء وهناك صحوة النساء وحقوق النساء فكان لابد أن ينبري واحد مثلي ليقول لن يتزوج لأنه يكره النساء ، وتلتقفه الأقلام ، قلت : لست في حاجة إلى دعاية ، قال : من قال لك هذا ، طه حسين مثلا تشبث بالأحزاب وبالعمل السياسي من أجل هذا ، لهذا طه حسين السياسي أكثر شعبيه من طه حسين الأديب ، تأمل من حولك ، كل أديب كتب منه في السياسة أصبح مشهورا ، لو أن (إحسان عبد القدوس) هكذا قالبا ، كتب في الرواية فقط ماذا يبقى منه ؟ هل يلتفت إليه أحد ؟ قلت نجيب محفوظ لم يتكلم في السياسة ؟ قال وظل نجيب محفوظ حتى بلغ الستين ولا أحد يعرف نجيب محفوظ ، عندما التفت إليه الاشتراكيون وقال أن إبداعاته تمثل اتجاها سياسيا أشتهر وكتب عنه أمين سر الحزب الشيوعي وضحك توفيق الحكيم ضحكة بالغة القسوة (اذكرها لأمانة السرد مع اختلافي معه في الرأي ، قال توفيق الحكيم (أن نجيب محفوظ صنع لنفسه قالبا ثم راح يملاه سردا) .

ولم يجدد ، قلت أنت الآن تمزح ، أجاب : الحق أقوله لك ، عندما سالت نجيب محفوظ كم فتاه أحببت ؟ قال يا ولدى لا تسال ، الدنيا أسرار ، قلت :ولكنك أحببت فتيات كثيرات ؟ ابتسم ولم يجب ، ولكنى لم أحاول الضغط عليه كنت اعرف كم فتاه أحب ، وهن كثيرات ، والذى يدفعنى إلى حكاية الحب فى حياة الأدباء أننى أصادقهم ، وأحس بودهم نحوى . أحب نجيب محفوظ حبا شديدا واحترمه واجله وهو كذلك ، فقد ظل يوما كاملا يبحث معى عن سيارة تقلنى من الإسكندرية إلى القاهرة حتى ظن سائق التاكسى الذى اقلنا من (بسترو) حيث تجتمع بالإسكندرية جماعة الحكيم : إلى كل محطات الأتوبيس وسيارات الأجرة انه أبى ، فلما استطعنا الحصول على مكان لأعود إلى القاهرة أوصى السائق بى خيرا ورد السائق لا تخف على والدك ، ثروت أباظة أحب زوجته إلى حد كبير واخلص لها أيضا وأن كان النساء يعشقنه وكانت هذه هى مشكلته لأنه كان يبذل جهدا كبيرا للتخلص منهن ، سألت محمود البارودى رحمة الله كم فتاه أحب ، ابتسم ولم يجب فى ذلك اليوم وكنا ذاهبان إلى مطعم سمك بعد أن حضرنا سويا اجتماع لجنه القصة ، فقد كان يصادقنى رغم فارق السن الكبير بينى وبينه وكان دائما يقول أنت فى حكمة الشيوخ وحماس الشباب ، فلما جلسنا لتناول السمك ، يبدو أن ذاكرته قد تفتحت قليلا وقال أول مره أحببت كنت فى السويد ، فتى جاء من الصعيد وأراد أن يرى العالم من حوله وفى السويد أحب ابنه صاحب الفندق ، (التى بهرتنى بجمالها وبياض بشرتها ولونها القرمزى الجميل ، وشعرها الأصفر الطويل ، وعيناها الزرقاوتين ، فقررت الزواج منها وعدم العودة لأبى وأنا فى العشرين من عمرى) ، فقلت ماذا كان يحدث لو إنك بقيت هناك ؟ قال كنت أنا صاحب مجموعة أوتيلات ضخمة ، وضحك ، قلت وكيف تخلصت من الحب ؟ قال ذات مره وأنا مقدم على الزواج تذكرت أبى وكأنه يقول لى أليس من العار أن تفعل هذا ؟ فلم أعد إلى الأوتيل وعدت إلى القاهرة ، وأحببت فتاه جميلة أغنتنى قليلاً عن تلك الفتاه التى كانت ابنه صاحب الأوتيل ، ذات الشعر الأصفر والعينان الزرقاوتان ، قلت لم تقل لى كم أحببت ؟ قال لا أحد يستطع أن يقل ذلك ولكننى أحببت ، هل أنكر ؟ أنا لست جماداً أو نباتاً حتى لا اعشق أو أقابل الهوى ، نعم أحببت مره ذات الشمال ومرة ذات اليمين وأبتسم البدوى ثم ظهر الألم واضحا على جبينه وكأنه تذكر فتاه السويد ، واحترمت صمته ولم أقل شيئا ، وسألت إحسان عبد القدوس ذات مره كم فتاه أحببت ؟ فقال لماذا تسأل ؟ قل وأنا أبتسم ، هل تخفى سراً ؟ إذا كان كذلك فلا تبح به ، أننى أسأل لأنك أشهر كاتب فى الحب ، انزعج وأنتفض غاضبا وقال أذن اكتب عن هذا (إذا أحصيت عدد الكلمات الجنسية فى روايات نجيب محفوظ وأحصيت عدد الكلمات فى رواياتى تجد أن نجيب محفوظ تحدث عن الجنس وعن الحب وذكرهما صراحة اكثر منى وأنا الذى أتهم بذلك) ، فقلت معاذ الله ولكنى فقط أسألك من باب المعرفة لأنني أقع فى الحب كثيرا ، ثم اكتشف بعد ذلك

أن لا حب ولا يحزنون وإنني أتظاهر بالحب وتصبح القضية عندى أو المشكلة الأهم كيف أتخلص من ذلك الحب ؟ أو بمعنى أصح كيف أتخلص من تلك الحبيبة التى أوحيت لها أننى أعشقها ؟ (يكح بشده عدة مرات) ثم اسقط فى حب واحدة أخرى وأظن بالفعل إننى قد وقعت فى حب حقيقى ، سوف أسعد به وما ألبث أن اكتشف أنه ليس حباً بل وهماً صنعته بنفسى لنفسى والغريب فى الأمر إننى أحببت فتاه ثم جاءت صديقتها لتخبرنى بأمر ما فقررت أن أحب صديقتها بدلا منها واختنت الفتاتان وجلست حزينا ، فقلت لاحسان عبد القدوس أنا أسألك لأنني بالفعل أحاول أن أفيق نفسى من مرض وهم الحب ، أو السقوط فى بئر الحب توهما ، أبتسم وقال لا بأس ، لا بأس ، سألت محمود يوسف رحمة الله الذى كان أحد الفرسان الصحافة الأدبية والفنية فى الأربعينيات والخمسينات وكان من أقرب أصدقائى فى الستينات والسبعينات : كم فتاة أحببتها يا بابا محمود ؟ زغدنى فى كتفى وقال لماذا تسأل يا ولدى لم يعد فى العمر وقت الحب قلت : أصدقنى القول ، قال هذا كلام لا يجب أن يقال ، خاصة لفتى مثلك ونحن فى سن الشباب كنا لا نحب فتاة واحدة بل اكثر من فتاة وأسأل كامل الشناوى ، قلت له أنت إذن من مدرسة كامل الشناوى الذى يحب ويحب ، وقال يا ه ، لقد كنت أحب عشرة فتيات فى وقت واحد ، ولا أمل أبدا من الحب وعطاء الحب حتى إننى كنت أحيانا عندما تهجرنى فتاة أحاول أن استعيض عنها بفتاتين فالحب شئ جميل يا ولدى ولكن أعطنى أنت عمرك وسنك وشبابك لكى أريك كيف يكون الحب أيها القزم ، ثم دفعنى بشده وعندما رانى صامتا أفكر وقد كنت فى ذلك الوقت أحب فتاة هجرتنى وأشعر بالحزن لأنها هجرتنى .

(توقف عن التسجيل)

وقال أنت تفكر فيها ؟ قلت من ؟

قال يا بنى إنها مجرد أوهام ولا تبتئس ، أنت لا تحب هذه الفتاة ، قلت :كيف عرفت ؟ قال : نحن نعشق لكى نكتب عن العشق لا أن نعيشه ونفعله ، نحب كى نكتب عن الحب وصدقنى هذا هو الحال لبقية زملائك ، الكتاب وساعتها جلست وحيدا فى البيت أفكر هل أنا بالفعل أحب تلك الفتاة ؟ التى هجرتنى ، فجاءت زوجتى ولمست كتفى برفق وقالت : فى الغد تحب غيرها ، انتفضت وجسدى يرتعد ، جاءت الممرضة السوداء وبعدها جاء الطبيب أتأمل الوجوه جادة تعمل فى صمت أكلنى الألم ساعة ثم انصرفوا ، عدت إلى نفسى هل كنت تعرف بأمر تلك الفتاه ؟ وأنا الحذر الذى يحاول أن يعشق وأن يحب وان يدارى على زوجته على الأقل احتراما لمشاعرها ، أم إن الأمر بالنسبة لى بالفعل ليس عشقا ولا حبا بل هو لونا من ألوان التجارب الكتابية ؟ التى يجربها الكاتب ومن السهل على الكاتب الأديب أن يقول كلاما جميلا

يبدو فيه أنه بالفعل عاشق لفتاة جميلة مثل فتاتى ، حاولت أن أدارى خجلى وان أتماسك ولكنى بكيت بشدة على صدر زوجتى وهى تهديني كم هي وفية وطيبة هذه السيدة التى تحملتنى كثيرا جدا ، وعندما جاءت الممرضة وقالت فى أدب شديد : لماذا لا تحلق ذقنك ؟ قلت فى يأس ولماذا ؟ قالت : لكى تبدو جميلا وأنيقا وأنت فتى وسيم ، ضحكت فى وهن وقلت فتى ؟ قالت : يجب أن تحلق ذقنك ، كنا فى الليل وقالت : فى الباكر سوف أفعل لك هذا ، قلت : افعلوا أنا لا أفعل لنفسى شيئا ، أنا مثل مقعد موضوع فى الحجرة ، مثل ذلك السرير الذى يرتفع وينخفض بأمر الممرضات ومثل تلك المائدة التى تضعن عليها الأدوية ماذا تفعل المائدة لو حركتها شمالا و يمينا ؟ هل تستطيع المقامة أو الرفض ؟ هل تستطيع إبداء الرأى ؟ أنا لا أملك شيئا لنفسى ، ذقنى محلوقة أم غير مخلوقة هى ذقنى ولكن لا أملك لها شيئا وانصرفت وتركتنى وحيدا ، الليل هنا يبدو مثل ليل الساحر غامض ومهموم والأصوات تأتى من بعيد وكأنها همسات والشجر بجوار النافذة يصدر دوما أزيزا مثل وأبور الأتوبيسات بطن فى رأسى ، وأحيانا أسمع تكبيرات الآذان وتلفت حولى هل هناك مسجد قريب ؟ هل توجد مآذن هنا ؟ إن الإلحاد هنا يتفشى وكأنه ظاهرة عامة : لا أحد يتكلم فى الدين ولا أحد يسأل أين الله ، فقط يسألون جميعا عن المال عن المكسب ، من يعمل يأخذ مالا ومن لا يعمل لا يأخذ والعمل شحيح وضنين وهناك ملايين المتعطلين ، فأنت دوما تحارب من أجل البقاء فى عملك وإلا طردت ، تحسن الخدمة وتعمل وكأنك ثور يعمل فى ساقيه ، الممرضات هنا يعملن من الثامنة صباحا وحتى الثامنة مساء ثم يأتى أخريات يعملن نفس القدر من الثامنة مساء إلى الثامنة صباحا والويل كل الويل لمن تتأخر ، أو الويل كل الويل لمن لا تقوم بعملها كما يجب ، ماذا يحدث لو إنها أخطأت ؟ قبل أن يكتشف مدير المستشفى تكون هى فى طريقها إلى البيت ، العدل هنا تحت حد السيف والسيف هو المال والمال هو الذى يوفر الحياة الكريمة والويل كل الويل لك لو حاولت أن تتباطأ أو أن تسهو قليلا أو تزوغ كما يحدث عندنا ، ليس الدين هنا الدافع للعمل إنما الدافع الجوع والحاجة والقانون العملى الذى يقوم لك انك إذا أخطأت فالشارع يستقبلك فورا فليس هناك مجاملة فى ذلك ، لهذا تجد الكل يندفع ويهرول لكى يثبت حقه فى العمل وانه جدير به ، حتى لا يفصل ولا حول ولا قوه إلا بالله ، تذكرت فتاة أحببتها ، كانت دائما منطوعة وواقفة بجوار دارها وطول النهار تجلس أمام الدار بلا عمل ، فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها بيضاء اللون وجهها مشرق بحمرة قليلا وشعرها يبدو تحت المنديل الأبيض أو الأسود كأنه أسلاك من ذهب وجلبابها القديم النظيف يلف جيدها كأنها عروس البحر أو فتاة الأوليمب الجميلة التى كانوا يقولون عنها إنها ألهه الجمال : (نفرتيتى) ، أحببتها حبا جما طوال عام كامل ، ولكنى لا أستطيع أن أبادلها كلمة بكلمه فقد كانت دائما قابعة فى هدوء ، هى وأمها ومن حولهما أجد نساء أخريات

متشحات بالسواد يتهامسن كلما مر رجل أو امرأة وكنت أحاول إن أجد لنفسي الكثير من الأعذار لكى أمر على حبيبه القلب واسمع همس الكلمات وأنا أسير أمام بيتها وغامرت لكى اكتب لها على ورق الحب كتابا ربما يجعلها تحبنى ، حاولت أن أتكلم معها أن انفرد بها ولكنها كانت دوما مسنودة على الباب وسط النساء ، بعدها بعام تقريبا كانت فتاة الحنطور فتاة ذات قوام بديع ووجه صابح وشعر ناعم اسود يتدلى من رأسها الصغيرة الجميلة وهى تهبط من الحنطور يساعدها سائق الحنطور ونظرت إليها فإذا بعينيها تتجهان نحوى وكأنها غرست عيناها فى قلبى ، وظلتا مغروزتان ، فى الصباح وفى الليل تتحدثان العينان إلى بكلمات الحب الجميلة ، وذبت ذوبا فيها ؛ فكنت أصحو مبكرا وأنا مسهد من كثرة التفكير فى تلك العينين واذهب إلى محل الفول واخرج بنفس الساندويتش الملفوف الذى لم اعد آكله ولكنى أتشبث به وكأنه هو شرط وصول الحنطور وتتكرر تلك النظرات وهى تدس عيناها فى عينى مباشرة فأجفل مضطربا أتحول من شخص إلى شخص آخر يطير فى الهواء شعاعا وعندما أصحو اكتشف أنها قد انفلتت من الحنطور ، وتتكرر تلك النظرات واتجرا ذات مرة فالمس خديها ونهديها وجسدها بعينى ، أتلمس جسدا رائع التكوين وقلبى يدق وعقلى يزن ولسانى أخرس ، ترمقنى فى نظرة سريعة تخرس القليل من الكلمات وعشت عاما على هذا النحو ، عاما دراسيا كاملا وأنا لا افعل شيئا إلا أن أتلقى سهام عينيها وأنا واقف مثل عمود النور لا شيء يحركنى ؛ النار بداخلى تشعل الضوء الذى لا يراه أحد وآه من الحب ، ثم جاءت الامتحانات وجاء الصيف بعمله الشاق بجوار أبى ، نسيتها أو تناسيتها وظلت مجرد ذكرى حبيبه إلى نفسى ثم لا شئ بعد ذلك بالتأكيد. تلك القصص أرويها ليست بالضرورة مرتبة ترتيبا أرشيفيا فلم أكن أتوقع أن أكتبها فى يوم من الأيام ، لهذا سأقفز إلى وجه تلك الفتاة السمراء ذات العيون العسلية التى بهرتنى بعيونها التى تبرق فى سعادة رغم سمرة وجهها فقد كانت أول فتاة أخرج معها فعلا ونتحادث حول الحب والعشق ، تتلامس الأصابع والأيدى ترتجف والجسد ، كنت فى السابعة عشر من عمرى أدرس فى الجامعة أقابلها كل ظهر وعند خروجى من المدرسة تبتسم فى وجهى وتحاول أن تتدارى عن زميلاتها ونتقابل فى بيت عمى لكى تعطينى قصاصة ورق فيها موعد اللقاء وكان هذا هو الحب الحقيقى الأول فى حياتى أعطتنى ورقة بالمكان والموعد وكان المكان جامع الخازندار والموعد الثالثة ، لم اكن أعرف ما هو مسجد الخازندار ولم أشأ أن أسأل زوجة عمى أو عمى ربما يعرفان من السؤال أسرارى وبالطبع كنت أخجل من هذا وتسللت خارجا وحرت من أسأل ؟ كنت اشعر أن كل من يمر فى شارع شبرا وكل من يسير بجوارى يعرف سرى ويعرف إننى عاشق ولهان ويعرف إننى أرتجف حبا اقتربت من بائع الشكولاته واشتريت منه بجنيه وكان هذا معناه أن يعطينى قطعتين كبيرتين ثم سألته فورا على حياء شديد أين مسجد الخازندار ؟ وأشار إلى المبنى رايته

مسجدا عتيقا من مساجد المماليك ذات العمارة العالية ولكنه يتوسط الشار ويمر به أناس كثيرون ، كيف نتقابل هنا ؟ والمفروض أن يكون مكانا خاليا ، نستطيع فيه أن نتهامس وأن نتبادل فيه كلمات الغرام والحب ، والتى حاولت أن أرصها فى دماغى طول ليلة أمس عندما قررت هى أن نتقابل بعد طوال إلحاح منى ، وقفت بجوار المسجد وأحاول أن أفتش عن مكان هادئ بجواره ولكن لا يمكن أن يكون هذا مكان تقابل عشاق فهو أولا مسجد يؤمه ناس كثيرون وبجواره باعه كثيرون أيضا والمارة لا حصر لها ولا عدد ، جادت الساعة الثالثة ورأيت فتاتى مقبلة وجهها عند قدميها ، لمحتنى بطرفه سريعة وأشارت بيدها وكأنها تلمس شعرها الأسود الفاحم ، لم أدر معنى تلك الإشارة ، مع هذا تبعتها ركبت الترام وركبت وتركت مقعدين وجلست خلفها .

كنت اشعر أن ركاب الترام يعرفون سرى فأشعر بالخجل وأذناى كانتا ملتهبتان ولكنى كنت أدس عينى فى شعرها الفاحم الأسود ولا ادرى إلى أين نحن ذاهبان ، أترقب دائما أن تقف وأن تهبط إلى الشارع لا أعرف الشارع جيدا ولا اعرف المنطقة قادم توا من قريتى ، طالب فى كلية الطب مرموق المكانة الاجتماعية ولكنى صغير الحجم ضئيل قليل التجربة هذه أول تجربه عاطفية شملتنى بعنف وبشده ، وقفت ، أحاول أن أدارى خجلى أو أحاول أن أفسر سر وقوفى تلفت حولى وكأننى ابحث عن المحطة ، تحركت هى نحو الباب ، تحركت أنا نحو الباب الخلفى ، هبطت ، هبطت ، مشت عدة خطوات ، اكتشفت إننا فى منطقه خالية تماما من البنايات والسكان أيضا ، هذه المنطقة الآن أصبحت من المناطق المكتظة بالناس والعمارات المختلفة الأشكال والألوان وأيضا الأذواق ، مشت عدة خطوات ، ثم وقفت وتلفتت حولها ثم أشارت إلى بالاقتراب ومدت يدها نحو يدى ولكن يدى كانت باردة أمسكت هى بيدى ، كانت يدها دافئة ، فشعرت بالدفء وهى تمسك بيدى فقبضت أنا عليها حتى أضم يدها فى يدى وكأنها عصور دافئ صغير ويدى مثل العش البارد ، بدأت أشعر بيدها فى يدى ومضينا عدة خطوات حتى استقرت على أحد الأحجار المتناثرة فى هذا الخلاء ، جلسنا ، لا نتكلم ، مددت يدى بقطعتى الشكولاته ووجدت أننى فقدت إحداها واحتفظت بالغلاف فقط ، ضحكت وابتسمت ، قلت : ماذا أفعل أنا لا أعرف مسجد الخازندار ، وكنت أريد أن أسأل ؟ قالت : وكيف وأنت تسكن بجواره ، قلت لها : وما أسم هذه المنطقة ؟ فليكن موعدنا دائما هنا لأننى عشت دهرا فى الترام وربما أشعر مره ثانيه بالدفء اكثر لو أننا جئنا إلى هنا مباشرة قالت تهبط قبل نهاية الخط بمحطة واحدة ، تذكر هذا جيدا ، تذكرت ، قالت هيا بنا و أنتبى اللقاء ، وكما جئنا عدنا ، وعندما عدت إلى البيت جلست فى غرفتى فقد كنت اسكن بالطابق الثانى وأسرة عمى تسكن فى الطابق الأول وأغلقت النافذة وأغلقت الباب جيدا ووقفت أرقص رقصة المنتصر أو رقصة الديك الرومى عندما

يشعر أنه استطاع أن يتخذ لنفسه وليف ، وكنت في قمة ، وكنت فى قمة سعادتى ، وتعددت اللقاءات وبدأت اشعر بالشجاعة اكثر وبالدفء يسرى فى بدنى كله ثم بدأنا نلتقى مرتين فى اليوم ، مرة ظهرا ومره أخرى آمر على بيتها فتهبط مسرعة بحجة أو بأخرى نتقابل فى الشارع مجرد مقابله تتلامس أيدينا وتهرع هى عائده وأعود أنا سيرا على الأقدام ، متذكرا كل لحظة كنت معها أو كانت معى ومضى العام هكذا لا شئ يحدث بيننا غير هذا ، أنا سعيد به وهى سعيدة أيضا ، أحيانا أقابلها أمام المدرسة وأحيانا اكتفى بالموعد وفى كثير من الأحيان أقابلها فى الموعد نتحادث فى أشياء تافهة ، أظل اسرد على نفسى أسئلة وأجوبه طوال الليل فإذا ما قابلتها لا أجد فى عقلى ولا فى ذهنى شيئا مما أعددته لها وأتلمس الكلمات ، أتلمسها التماسا فلا أجدها ، نضحك ، نبتسم ، نتبادل تلك اللمسات الرقيقة ثم نعود كما جئنا وفى الليل اذهب إلى بيتها فتهبط هى مسرعة فتلمس يدى وهى ترتدى ملابس البيت الجميلة واعتقد أننى أحببتها حبا شديدا وهى ترتدى الجلباب المنزلى المزركش الألوان وشعرها ينسال بلونه الأسود الفاحم على ظهرها ولونها الأسمر وعيناها التى تبرق فى عتمه الليل طريقا يأخذنى نحوها وأظل مستيقظا طوال الليل وأنا انظر إلى عينين سمرا وتين تبرق فى الظلمة وكأنها حبتان من الزيتون تقفان فى زيت زيتونى أخضر اللون له بريق يعكس الضوء الذى أمامه وأنتهى العام وجاء الصيف وشعرت بحرمانى من فتاتى وانشغلت بالتجارة مع أبى ، فى العام الذى يليه لم نستطع أن نتقابل ، كانت قد خطبت ، لم أعلم إلا بعد فتره ، شعرت بالمرارة ولكنها أرسلت مع إحدى صديقاتها إنها باقية على الحب وأنها تريد أن تقابلنى ، رأيت صديقتها ، كانت بيضاء جميلة العينين أيضا ولكن فى اخضرار البرسيم وشعر فى اصفرار الشمس ، فأحببتها وكان تلك السمراء قد ذهبت بلا عوده ، وبدلا من أرد على رسالة حبيبتى أعطيت صديقتها خطاب حب ملتهب أوصف فيه أشجانى لها هى وحدها ، وفى اليوم التالى بالطبع أخبرتنى زوجة عمى أننى حمار كبير فقد فقدت الاثنتين وانتهت قصة الحب لأقع فى حب زميله لى فى نفس السنة الدراسية وفى نفس مجموعتى الدراسية ، وقد كانت مجموعتى الدراسية لا يوجد بها إلا خمسة فتيات وكانت هى إحدى هاتيك الخمسة ، أحبتنى فى حرص شديد وكأننى من الماس النادر وأعطتنى رعاية تكاد تخنقنى طوال ثلاثة أعوام .

لم تقل لى حبك ولم اقل لها أنا كلمة حب واحدة ، ولكن مجموعتى الدراسية كانت تعرف جيدا إنها تحبنى فلم يقترب منها أحد ، بل كانوا يتركون مقعدى بجوارها شاغلا حتى لو غبت أسبوعا ، كانت هى تكتب لى ما غاب عنى من محاضرات وأسماء المراجع وأحيانا تكتب لى الملاحظات التى كانت تدونها مع حضورها الدائم فى المحاضرات بينما كنت أنا أحيانا مشغولا بالعمل الطلابى لأننى كنت مشرفا على جماعة الأدب وجماعات مختلفة وأنشطه الطلاب إلى غير

ذلك من أنشطه الجامعة لأننى عشت فتره الجامعة بكل ما فيها من دفء وحماس وذكريات ونشاط ، لا أجد هنا مكونا لسردها لأنها تحتاج إلى عمل مستقل ، المهم أنها منحتنى طوال تلك الأعوام هذا الحب الذى كنت احظى به كنت اقضى معظم نهارى فى الجامعة أو فى العمل ولكن كانت معاكسات بنات الجيران تضايقنى فدائما أجد فتاه من فتيات الجيران تغازلنى وكأننى أنا الفتاه وهى الولد بل تعرض نفسها على فى وقاحة مبتذلة فاضطر إلى تغيير سكنى تقريبا كل شهر ونصف أو كل شهرين عندما آمل مغازله البنت لى فاهرب إلى مكان أخر وهكذا واجد فتاه أخرى حتى أن إحداهن كتبت بخط واضح على جدران المسكن الذى كنت اسكنه صراحة أنها تحبنى فاضطررت إلى الانتقال من منطقه اند[illegible] إلى منطقه الهرم لأننى خفت أن يصل هذا إلى سماع كل السكان الذين كنت احظى بينهم باحترام شديد ، وجاء العام الأخير وكنا فى هذا العام قد كلفنا بتقديم بحوث يتوقف عليها الحصول على الليسانس وبدأنا فى إعداد البحوث طوال العام كله ماعدا مادة واحدة سوف نمتحن فيها امتحانا عاديا ، وسعدت بهذا كل السعادة لأنه أعطانى فرصه للاطلاع والبحث والكشف وكتبت الرسالة وبقى الامتحان النظرى ، كانت المادة الأخيرة بالنسبة لى شيئا هينا لا يحتاج حتى على الأقل مراجعة أو قراءة الكتاب ولكن فى يوم الامتحان كنت مسهدا لسببين ، بسبب أن فتاة الجيران تنبهت لجمالى فجأة فيما يبدو فأخذت تعاكسنى وتغازلنى بشتى أنواع حتى أنها كانت تقذفنى بالتين والحمص أو السودانى ، الرسائل الغرامية وكان لدى عملا فى الجريدة التى كنت اعمل فيها واضطرت للذهاب إلى الجريدة والبقاء فيها حتى الصباح ولهذا عندما عدت إلى البيت كان قد حان موعد الامتحان فذهبت ورأسى مشوش الأفكار واشعر بنوع من الاختناق ، جلست وجاءتنى ورقه الأسئلة ولا أجد فى رأسى شيئا وكان كل المادة التى درستها قد تبخرت وظلت هكذا اكثر من نصف ساعة أحاول أن أتذكر إجابة عن سؤال أو مجرد جمله أرد بها على سؤال وأنا أنظر إلى زوجه المستقبل ، فهى تجلس بجوارى تقريبا فى نفس اللجنة ، وهى تكتب وأزيز أساورها يصدر صوتا رتيبا لأنها تكتب بسرعة ، تلفت حولى فوجدت كل زملائى يكتبون والمراقب يجلس عن بعد واللجنة هادئة تماما ، نظرت أليها وهمست أننى لا ادرى شيئا ربما ساعدتنى بكلمة أو جملة تجعلنى اندفع للإجابة ولكنها لم تلتفت نحوى ، كانت جميلة بيضاء شعرها أسود وقوامها معتدل مع بعض السمنة المحببة رأيت ذراعها يتحرك بسرعة وكأنها فى سباق مع الزمن تضع على رقة الإجابة كل ما لديها وأنا لا املك كلمة واحدة ، أنادى مره ثانيه فى همس ثم فى صوت مرتفع قليلا أنا لا أعرف شيئا لكن لا مجيب فجاء المراقب وقد سمع صوتى ونبهنى إلى ذلك ولكن بدلا من أن اصمت رفعت مائدة الامتحان وحطمتها فى غيظ شديد ، وهاج الطلبة وماجو ونظر المراقب نحوى فى فزع وكأننى مجنون فاقد العقل فجاء الطبيب وجاء رئيس القسم الذى كان يعلم بأننى من المتفوقين

ولا أحتاج للغش حتى أحدث كل هذا ، وأعطانى الطبيب حقنه مهدأة وقال رئيس القسم من الناجحين سواء كتبت أو لم اكتب ، لان تقديرى فى البحث يجعلنى أتخرج فى الجامعة بتقدير معقول جدا ، وأجلسنى فشعرت بالهدوء ولكن شعرت بكراهيتى الشديدة لها وكان ذلك الحب الذى كنت أظنه حبا قد مات ، وإذا بالكتاب المرجع لهذه المادة يكاد يكون مفتوحا أمام عينى فانقل منه ما أشاء ، فأجبت إجابة راضيه حتى أنتهى الوقت المخصص وشعرت بالراحة الشديدة لأنها الإجابة المتميزة التى كنت أتوقع أن أجيبها ، وخرجت من الامتحان قاصدا موقف السيارات لأركب سياره خاصة إلى بلدتى ، تحملت ما يقر بمن ساعتين فى السيارة وأنا أحبس دموعى حتى ما إذا رأيت أمى اندفعت إليها باكيا وأنا لا ادرى لماذا ابكى ؟ شعرت أن لا شيء يتم وأنى يجب أن أعود إلى الحياة فأنا لم أحب ومن يومها وأنا لا أحب أحدا ، كل ما أستطيع أن افعله أن أقول كلمه حب ، الآلاف من كلمات الحب لأى واحدة تروقنى ، هذه (فهيمة) وهذه (فاطمة) وتلك (اعتدال) وتلك (عنايات) ، كل واحدة بقصه وكل واحدة بحدوتة ولكن لم أشعر إطلاقا بحب لكل هاتيك البنات وظللت على هذا النحو حتى أحببت تلك النساء الجميلة ولطيفه المعشر التى أكاد أبكى عندما أتذكرها الآن ، زوجتى أم عمرو هى حياتى وأكاد أجن الآن عندما أتذكر أنه يفصلنى عنها قارة بأكملها ومرض يلزمنى القعود فى الفراش بينما هى تحاول من أجل تربيه أولادى الصغار ، أشهد الله أنها كانت وفيه وأنى كنت لها وفيا ولم أبخل عليها بكلمة حب كما أنها هى لم تبخل على بكلمة ود وامتنان وشكر وكلمة طيبه وهى نعم الزوجة رغم مرور سنوات كثيرة ورغم وجود الأولاد إلا أنها لا تزال فى قلبى هى الأولى والأخيرة ، وأشعر الآن أنى يجب أن أتوقف لان البكاء يكاد يملك على نفسى ولا أستطيع أن أتحدث عن ما هو الحب حاولت دوما فى كل أعمالى باحثا عن تلك الكلمة السحرية بحثت عنها فى الحياة ولم أجدها إلا بصعوبة بالغة وبحثت عنها فى الكتب وتحريت عنها فى أقاصيص عديدة ، اسمى ما يتصف به الإنسان ، ما هو الحب ؟ لا ادرى ، تسألنى وكأننى رجل مجرب قصصت عليك بعضا من قصص وبما للأسف لا اعرف ، إنما اعرف المودة والرحمة وتبادل المشاعر والرقة والذوق السليم والتربية الحسنه رأيتهم حقا فى زوجاتى الثلاث رغم اختلافى معهن فى بعض .. الأحيان إلا أننى لم أتزوجهن عن حب مطلق ، عن اقتناع فكانت المودة والرحمة هى السائدة أن كنت قد افتقدت إحداهن فقد كان هذا فوق طاقتى وطاقتها وأنا التمس لها كل عذر وان كنت قد قسوت على زوجتى الأولى فأننى فعلت هذا وأنا مجرد إنسان بشر يعشق ويكره ويخطئ ويصيب والله وحده هو الغفور الرحيم ، وإذ كان الله سبحانه وتعالى يقبل التوبة ويقبل الذنوب ويغفر المعصية فما بالك بالإنسان ، اللهم تقبل منى توبتى وتقبل منى رغبتى الصادقة فى الإخلاص والوفاء والعبودية لك وحدك يا الله وهذا حب الإيمان بالله هو الحب والحب هو الإيمان بالله وكفى .

الفصل السادس

كان لابد من أن ننظر إلى الوراء والعودة إلى الخلف لاسترداد الوعى وللبحث والتنقيب عن أشياء ربما تبدو تافهة للوهلة الأولى ولكننا إذا تأملناها نجد أنها فى غاية الأهمية فذلك الطفل الذى كان يحتضن أعواد البرسيم فى سعادة وحب وكله أمل فى أن يخاطب البرسيم ويحادثه وتلك الزهرات الجميلة لنبات لا يعرف اسمه تطل على جدول صغير يشق الأرض كان من الممكن أن تعدو تلك المناظر والأحاسيس شيئا تافها وأن نعبرها عبورا وكأنها لم تحدث ولكن عندما نستعيد ذكراها ونتأملها تأملاً عميقا نجد أنها كانت إحدى الينابيع المتدفقة خلال عقله الواعى وأيضا داخل عقله اللاواعى لكى تدفع الإنسان إلى أن يتعلم ، يتعلم من الجماد والحيوان والمكان كله ، وكان من الممكن أن تكون تلك الجلسات الهادئة بجوار مدفأة جدى بجمرات النار متوهجة حينا ومنطفأة حينا آخر مجرد جلسات لا معنى لها وكذلك حكايات جدى حول عرابى وسعد زغلول وتحطيم قضبان القطارات والثورة العارمة للشعب المصرى ، كان من الممكن أن تمر على ذاكرة الفتى دون أن تحدث أى أثر من آثار الإنفعال الإيجابى ولكن ماذا لو تأملناها ؟ ماذا نرى ولو إننا أيضا حاولنا تلمس الأعذار لذلك الفتى الذى كان جهده وكل يومه وليله أن يقرأ الكتب وكأنه (دوده قراية) بالتأكيد تلك ينابيع المعرفة كما إنها أيضا ينابيع الحزن ولأن الحياة ليست حزنا مبرحا أو سعادة مطلقة على طول الخط إنما هى تتقلب بين ذاك وتلك ، بين ألم ومسرة وحزن وفرح ، بين حب وكراهية بين أمل وألم ، أنها الحياة ، الحياة كما يحياها كل الناس ، عندما جاءت ابنه آدم وإنشقت الأرض عنها جميلة المحيا هيفاء الجسد سمراء الشعر تمشى فى دلال ويراها شابان فقط شابان أحدهما هابيل والآخر قابيل ابنا هذا الرجل القابع بجوار الصخرة العالية ، إنهما متساويان من أم واحدة ومن أب واحد ولكن ما كادا يطالعان هذا الوجه الصبوح ، هذا الوجه الجميل الذى جاء وكأنها انشقت عنها الأرض بجمالها الباهر وجسدها المرصع بالحياة تشبثا بها وتعاركا ، وحاول كل منهما الاقتراب منها ، كان لابد من أن يفوز أحدهما بقلبها وأن يتحسر الآخر وأن يشعر بالكراهية وأن يحنق على الذى فاز بقلبها ، أنها شقيقتهما ولكنها تختلف عنهما اختلافا كبيرا فلها رأس جميل دقيق الوجه دقيق التعبير وشعر منسدل ناعم يصل إلى كعبها ونهدان بارزان وخصر نحيل وقوام ممشوق لامعة البشرة ملساء ، يشعران

نحوها بإنجذاب شديد ولكنها قد اختارات ، اختارت إحدهما دون الآخر ، ماذا يفعل الآخر ؟ هل يكتفى بالذهاب إلى الصحراء إلى الوادى إلى نبع النيل ، إلى نبع الفرات ، إلى الغابات ؟ هل يصارع الوحوش ؟ هل يأكل الثعابين ؟ ماذا يفعل ؟ وهى الوحيدة فى هذه الأرض الشاسعة ، لا يرى غيرها ، ماذا يفعل ؟ يدور ويدور ويدور ، يتجول إلى ثوره هائج ، يتحول إلى شيطان إنه لا يعرف الشياطين ولكنه يشعر الآن بأن فى جسده نار موقده ويجب أن يطفأ هذه النار فيمسك بأخيه يضربه فإذا بأخيه يسقط دون أن يتكلم يهز جسده ، كثيرا ما نام أخيه وكثيرا ما أيقظه ، وأحيانا ما يضع الماء على وجهه وأحيانا ما يرق له قلبه وأحيانا يضع فى فمه الفاكهة ولكن هاهو أخوه لا يفيق ، تحول جسده إلى شئ بارد جاف ، انتفخ بعد قليل ، يدور حوله ، يراها قد قبعت بجوار الصخرة كما كان يفعل أبوه ، الذي انطلق منذ زمن إلى مكان ما ووجدها ترتعد ترتعش وأحيانا يرى الماء ينسال من عينيها الجميلتين ، يدور حول أخيه ، يجرى هنا وهناك ، يصيح ، يستغيث ، ماذا فى أخيه ؟ ماذا يفعل لأخيه ؟ ربما يعود أبوه ربما يسأله ماذا فعلت بأخيك ؟ بماذا يجيب ؟ كان يظن أنه يحاول أن يخفيه حتى يبتعد عن تلك الجميلة ويتركها له ولكنه هاهو قد سكت فجأة ، ورقد وكأنه جزع شجرة قد اقتلعت . يمضى فى الصحراء ثم يعود ويجد جسد أخيه قد انتفخ أكثر وتورم والعينان منطفئتان والفم مطبق ، الذى كان يتكلم لم يعد يتكلم ، الذى كان يبتسم لم يعد يبتسم ، عيناه مبحلقتان فى فراغ ، يعود إلى الفراغ إلى الرمال إلى الأشجار يتخبط فى الغابة ، يرى غرابا وأمامه آخر مبيض الجناح لا حراك فيه ، يحفر حفره ثم يضع الغراب المبيض فى الحفرة ثم يركمها ترابا فوق تراب ، حتى يختفى الغراب المبيض ، يبدو إنه يجب أن يفعل هذا بأخيه ولكن سيفتقده ، إلى من سوف يتحدث ؟ إلى من يتكلم ؟ هل يذهب إلى الجميلة ؟ يتحدث مع الجميلة ؟ ها هى الآن بمفردها وشقيقه لا يتحرك ، يبكى فى مرارة ، يحفر حفره يفعل مثل الغراب يوارى أخيه التراب ثم يجلس فوق التراب ينظر حوله ، جاءت إليه ارتمت بين أحضانه ، شعر بلهيب جسدها ، قريبة منه ، أمسك شعرها بيده ، فى غلظه راح يضربها ، لقد فعلت به ما فعلت ، ففعل بأخيه ما فعل ، أنها السبب أنه يمقتها ولكن شفتاها تقتربان تلتصق بشفتيه ، جسدها الناعم يقترب من جسده الخشن ، يرتعد جسده يحتضنها بقوه ، يدوس على صدرها ربما تسقط أو تصمت كما صمت أخيه ربما تكف عن الكلام ، عن الابتسام ولكنها لا تكف بل تصدر همهمات غريبة تسرى فى دمه ، هاهو ينتشى يبلغ ذروه الانتشاء يصيح أنا ، أنا ملك الكون ، وتتكرر المأساة هكذا دوما ، ثم تزداد حركتها دورانا ، ذلك الصراع يتكرر كدومات تزداد إتساعا وتزداد عمقا وتأخذ بين ذاك وذلك فى دورانها العديد من البشر ، حتى يومنا هذا أليس هذا ما يحدث ؟ أليس هذا ما حدث وسوف يحدث ؟ لسنا غرباء فى هذا الكون ، ما نتصور أنه تافها يكون فى الحقيقة هو الينبوع الأصيل ، ويأخذ الصراع أشكالا

مختلفة ولكنه أبدا لا يتغير (يبدو صوت طائرة عاليا) نفس الصراع الذى من أجلـه خـرج آدم مـن الجنة ، هذا أمر ربك وقد كان ربه يعلم هذا وقد خلقه لكى يعصيه ويخرج من الجنة ، لم يخلقه من أجل الجنة ، هذه حكمة الله سبحانه وتعالى ، فإذا تأملنا الفتى فإنه يكاد يكون غريبا عن تلك الصراعات الشبيهة ، عاش فيها وبها لكن الفكاك ، لا فكاك من ذلك الينبوع الذى يشرب منـه ، قد خرجت من سريرى ومشيت خطوات بعيـده نحـو شـارع جـانبى ، تـأملت لأشجار ، تـأملت الورق الأخضـر ، الورقـة الخضـراء التـى مـا أن ظـهـرت حـواء حتـى أسـرعت إلى تلـك الأشـجار وأمسكت بأوراقها لتخفى عورتها وهكذا فعل آدم ، تلك الأشجار هى نفس الأشجار ، لم تختلف ولن تختلف فى تلـك المنطقـة بجـوار المستشـفى ، حديقـة أنيقـة صغـيره الحجـم جميلـة الشـكل بجوارها الكثير من الشجر ، أشجار جميلة أراها فى سعادة . أشكر الله على أننى عدت ورأيتـها وأتذكر ، لابد من الرجوع إلى الينابيع أو أن صح كما ذكرت فى الليلة الماضية إلى هوامش الكتاب فلا بد من الرجوع إلى المصادر ، هل أكتب آدم ثم ولديه ؟ أم أكتب القريب جدا منى والذى تأثرت به مباشرة حتى لا أخوض فـى موضوعـات فلسـفية ؟ لقـد تغـير الزمـن ولكـن قومـى لا يشـعرون بالتغيير إلا بعد أن يحدث ويواجهونه وكأنهم كانوا نائمون لا أدرى لماذا نفعل بأنفسنا هذا ، لقد تغير الزمن ، فقدنا لغتنا الأصلية ولم نعد نفهم الأجداد وفقدنا الإحساس بالأمان والأمـل ورحنـا نتاجر فى أنفسنا نتاجر فى الموت قبل أن نعيش الحيـاة ، تعودنـا هـذا والعيـاذ بـالله ، كـل منـا مهموم بذاته بنفسه ، أمكث فى المستشفى فـى سـرير واحـد وفـى غرفـه واحـدة أتلـهف إلى مـن يزورنى زارنى اليوم زوجان ، من اليونان كنت قد قابلتهما فى حجرة الأشعة وتحدثنا وضحكنـا والألم يحاصرنا من كل جانب ولكن ضحكنا ومضيا هم نحو طريق الشـفاء ثـم جـاء اليـوم ليعـاودا الكشف بعد أن أصبحا فى صحة مقبولة جاءوا إلى بالورد ورود جميلة ملونه حمراء وصفراء ومن كل لون جاءوا إلى بالورود ، ابتسما وأعطتنى زوجته الوردة وهى تبتسم وتدعـو لى باليونانيـة أن أشفى ، ابتسمت سعيدا ، أخذت الورد ، احتضنته ، كدت أنحنى علـى يـد السـيدة أقبلـها لـولا حياء فلاح قادم من ميت بره لا يعرف كيف تقبل يد النسـاء ، انحنيت شاكراً أخذت ابنتى الورد وضعته فى آنية جميلة بجوار الفراش ، قلت أخرج حتى لا أبكى فالبكاء يؤلم صدرى ، الضحـك والسعال والابتسام والكلام ، كل هذا يـؤلم صـدرى ، أشـكو لمـن ؟ إلى الله ثـم أعـود للحديـث عـن مصادر ، وينابيع هذا الكتاب الذى كتبته وأنـا أتقلب بـين جمـر الألم وجمـر الحـزن وتراودنـى أحاسيس غريبة ولولا هذا ما كتبت ذلك الكتاب ، لهذا أبدأ بجدى هو المصـدر الأول ، (سـيد) ، سيد كان يعمل فـى شـركة قنـاة السـويس ، عندمـا كـانت فرنسـية -إنجليزيـة ، وعندمـا سـقط وتحطمت ضلوعه أحسوا إنهم أمام مشكله ولكن لأنه مصرى الجنسية فلا يهم لأنه كـان فـى ذلـك الوقت ، المصرى لا يساوى شيئا ، بل تخلصوا منـه فـالقوه فـى إحدى المستشفيات الحكوميـة ،

القوه هناك دون لقب أو اسم ثم مزقوا ملفه الخاص فلا أحد يعرفه إنه كان هنا مهندساً أو عاملا أو مرشدا اسمه سيد له صله بشركة قناة السويس ، عندما جاء أبى وهو ابنه الكبير يلتمس أبيه ويسأل عنه ودخل مكتبه وسأل أصدقاءه الذين كانوا يتقربون إليه بالأمس بقطع الشيكولاته والحلوى والابتسام والمرح قابلوه اليوم بجفاء شديد وتساءلوا من هو سيد هذا ؟ بكى ، توسل إليهم ماذا حدث لأبيه ولكن لا أحد يجيب خرج ومشى فى الشوارع هل ينادى يا أبتاه ، نحن مازلنا صغارا كيف تتركنا هكذا فإذا بعامل من العمال يأخذ بيده ويقول له سأريك أين أبيك ولكنك لا تخبر أحدا إننى أنا الذى أرشدتك إلى أبيك ، فوجد جدى وقد ألقى على سرير بادئت يعانى آلام الحسرة والألم ، فحمله وعاد به إلى بلدتنا ، جدى عندما شفى كنت قد بلغت الرابعة أو الثالثة . لا أذكر فاحتضننى وأخذ يعلمنى وأخذ يقص على قصصا ليست هى بحكايات أشوال ولا بحواديت جدتى ولا بالحواديت المنقوصة التى تحكيها أمى ، فقد كانت لا تتمها أبدا فهى تنام عندما تقص حدوته ، تنام فى منتصفها تماما ، نعود إلى جدى ، كان يقص على تاريخ مصر الحديث ، ماذا حدث فى عهد عرابى لماذا أسموها (هوجه عرابى) كان يقص على أقاصيص بأشخاص حقيقية وهو يحتسى القهوة ويعطينى بعضا منها وأنا أنظر إلى الجمر المشتعل الذى يضعه جدى فى الموقد الفخارى أمامه وقد أرتدى جدى ملابس تشبه الفلاحين أو الأعراب لا أدرى ، إنما هى غريبة عنيه ولكن تضفى عليه وقارا محببا إلى نفسى ، يقرأ الجرائين كما يقولون ثم يحكى لى ما بها ثم يعلق تلك الأخبار التى يلقيها على مسامعى وبها من الأسماء ما لا أعرف معلقا عليها بحكايات قديمة تحكى أصل الموضوع ، هذا هو جدى ، ذلك الرجل البسيط الذى كان يجلس متربعا على مخده بيضاء وأمامه عدة القهوة ثم يحكى عن ثوره الشعب المصرى ، مصر أفضل بلاد الله فقد ذكرت فى القرآن ، وكان يعلمنى الصلاة ويرسخ فى قلبى الإيمان وها هى جدتى ست أبوها ، هذا هو المصدر الثانى أو الينبوع الثانى وإن كنت أفضل أن يكون الينبوع الأول ، جميلة الوجه مستدير ته حمراء مشوبة بياض خفيف ذات شعر اصفر ناعم رغم إنها جدتى هو قوامها ممشوق وجميل وحديثها مثل حديث الملائكة ظللت بين أحضانها حتى ذهبت إلى الجامعة ، هى كل فى حياتى ، هى التى تأخذنى بالأحضان هى التى تذهب معى لكى تغسلنى من أدران القذارة التى يسببها لى تراب الشارع ، هى التى تعلمنى كيف أرتدى الملابس ؟ كيف امشى ؟ كيف أتكلم ؟ كيف أكون رجلا نظيفا ؟ النظافة من الإيمان ، النظافة يجب أن يتعلمها الإنسان عندما يكون صغيرا فيكون نظيفا مؤمنا ، أى تؤمن بالله ولهذا تصلى ويجب أن اصلى وأن أحفظ القرآن هذا يكفى ، الصلاة وحفظ القرآن ثم الابتسام فى وجوه العباد ، فأنت لا تدرى ماذا يحدث لك فى الغد والدنيا لها صاحب ولها ملك اسمه ملك الملوك هو الله . فلا تأبه بالدنيا ، لا تسأل عن ماذا سوف يحدث فى الغد ، الغد بيد الله أحاول أن أكون نفسى أنا

ذاتى أحاول أن أكون شريراً ، أطلب الطعام ثم ازدريه ثم أطلب غيره ولا تكف هى عن الابتسام ولا تكف عن صناعة الطعام من اجلى هكذا تعطينى بعض الأخشاب الصغيرة تصنع منها لعبا جميلة الشكل (لم أستطع المواصلة وسأتوقف) .

الفصل السادس

عودتنى قريتى كما عودت ذلك الفتى الذى نتحدث عنه ان يرجع إلى المصدر أو الينبوع ومصدر المياه عندنا النيل ونحن ولدنا بجوار النيل وتسكن أسرتى بجواره ، النيل عريض متسع أحيانا يفيض يثور يجرفنا يأخذنا يشتاق إلى أحضاننا ، عندما كنا أطفالا أو صبيه كنا نلهو بين أحجار الشاطئ وبين مياهه العذبة إنه يتحرك بسرعة نرى حركته نرى الأسماك تتقوس ، أسماك صغيره بيضاء نأخذ فى جمعها تحضر بعض الفتيات بعض السلال الصغيرة نضع فيها ما جمعنا نذهب إلى بيوتنا وكأننا قد حصدنا حصاد النيل هاهو يا جدتى ما هو يا جدتى هاهو ما حصلت عليه ألست ذكيا فطنا ؟ عاملا مجتهدا تبتسم ، أقول لها أريده مقليا أجلس بجوارها أراقبها وهى تضع الأسماك الصغيرة فى إناء به دقيق ثم تلصق كل خمسة بكف واحد مثل كفى الصغيرة تضع فى المقلى أشم رائحة السمك تقلبها ها هى قد تحولت من اللون الأبيض إلى اللون الأحمر إلى اللون البنى الغامق تحملها وتضعها فى إناء أمامى أحاول أن ألتهمها ولكنها ساخنة تلسعنى ، أنتظر ، لكنى لا أطيق أمسكها ثانية تلسع النار يدى لابد من أكلها سمك صغير لا يغى معدة طفل ولكنه لذيذ ، تحدثنى جدتى عن أسماك بور سعيد ، يا جمال بورسعيد ، عندما كان يحضر جدك سمكا يسمى البورى أضعه فى إناء ثم أشق بطنه فتخرج البطارخ ماذا عن البطارخ يا جدتى لها طعم جميل دسم يحبه جدك كثيرا أضع البطارخ فى أناء وحده لا أقليها ولا أشويها وأضع عليها بعض الملح ثم أتركها نأكلها فيما بعد ، بعد أسبوع أو أكثر ، أندهش ما هى البطارخ يا جدتى تقول بيض السمك يا ولدى أقول وهل يضع السمك بيضا مثل دجاج بيتنا تقول نعم كل شىء يلد . الدجاجة تلد ؟ تقول تلك بيضا مثل البط والأوز وغير ذلك ، هل الأرنب يبيض ؟ أنا أريد أن أرى بيض الأرنب لابد أن شكله جميل تقول لا الأرنب يلد ، هذا أمر شائك من الذى يلد ومن الذى يبيض تقول جدتى كل شئ يولد ولكن بطريقه مختلفة بعض الحيوانات تضع البيض قبل أن تخرج الجنين وبعض الحيوانات تضعه فى بطنها حتى يخرج الجنين . الأسماك تحتفظ ببيضها داخل بطنها ، ولكنك الآن أخرجت بيض السمكة ، فما تقولين ؟ تقول أصبحت السمكة لا حياة فيها : أن آكل ميتا يا جدتى ؟ يا ولدى السمك حلال ، نحن نصطاده من البحور ويصطاده الصيادون وحلال أكله هكذا قال الله سبحانه وتعالى ، الميتة هى ميته الأرض ، وقد حرمها الله علينا ، حرمها ، أذن هناك أشياء محرمة تقول نعم ، الكذب حرام ، السرقة حرام ، أخذ

الأشياء التي تخص غيرك حرام ، النظر إلى النساء حرام ، هذه أشياء محرمه يا ولدى ، ولكن كل شئ بعد ذلك حلال ، أن تأكل فهو حلال وأن تعمل فهو حلال أن تقول الصدق فهو حلال ، حسنا يا جدتى ، أعطنى بعض السمك أذن ، تقول أنتظر سوف أجعل جدك يرسل فى طلب سمك كبير ، من بور سعيد ، كان لنا رجل عجوز فيعطينا كل يوم مقدارا جوال كامل من السمك ، سمك يسمى بورى وسمك يسمى دنيس وأسماء مختلفة لم أعد أستطيع أن أحفظها فى ذكراتى أنواع الأسماك التى كانت جدتى تتحدث عنها بل هناك حيوانات بحرية لم أعد أذكر منها إلا ما أكلته فيما بعد مثل الجمبرى والكابوريا وما إلى ذلك ، بل أكلت ذات مرة وأنا فى فرانكفورت بعض الصخور التى تنمو فى قاع البحر ، اشتراها أخى من السوبر ماركت وقال إنها صخور البحر ونباتات البحر ومخللات البحر كان يحملها فى برطمان كبير ، أكلت منها كثيرا كل يوم فى الصباح ، أفتح البرطمان وأحضر طبقا كبيرا وأظل آكل منها لها أشكالا غريبة حمراء وصفراء وزرقاء وأشكال بعضها يشبه الترنبيط وأشكال بعضها يشبه مجرد ساق مثل ساق اللفت المخلل ولكنها كانت لذيذة الطعم شهية جميلة جدا ، فى نفس الوقت كنت أحضر الكثير من البطارخ من السوبر ماركت وأتذكر جدتى ، ذات يوم ذهبت إلى حديقة النباتات فى فرانكفورت ، كنت وحيدا أشكو الوحدة ، كنت أدرس هناك ، أخذت معى بعض الطعام وبعض المعلبات التى أحبها وذهبت إلى حديقة النباتات ما أجملها حديقة ، هى أجمل حديقة فى العالم رأيتها ، بها أكثر من مليون نبات ما بين الطويل والرفيع والقصير والمزركش والملون ، لافتات صغيرة دقيقة عليها أحرف لاتينية وأخرى ألمانية أقرأ ، لا أفهم ، لا يهم الفهم ، أشجار باسقة طويلة وكأنها مثل الجبل الصلد تقف شامخة لا تهتز رغم ريح باردة فى شهر أكتوبر فى ألمانيا ، ادخل إلى الصوامع لأرى أشكالا وألوانا من النباتات ، تعبت ، ذهبت إلى الكافيتريا ، جلست هناك رأيت جدتى مقبلة ، كانت تحمل كوبا من الشاى قدمته لى ، ابتسمت وقلت لها بالعربية أهلا يا جدتى ابتسمت المرأة ولم تقل شيئا ، وانسحبت إلى داخل الكافيتريا ، ذهبت خلفها أجذبها من يدها ، جدتى لماذا لا تقولين شيئا ؟ فجأة تذكرت أنها سيده ألمانية ، اعتذرت بسرعة ولكنى عدت إلى المائدة وتذكرت أنا جدتى بالفعل ، لم أعد أعرف هل سيدة ألمانية تقوم بالخدمة فى تلك الكافتيريا أم أنها جدتى ؟ هذا أمر صعب كيف أستطيع حسمه ، عدت إليها ، تحدثت إليها بالإنجليزية لم تجب ، تحدثت إليها بالعربية لم تجب ، تحدثت إليها بالألمانية ابتسمت وقالت : سأتيك بأنية أخرى للشاى بها الكثير من الشاى ، يبدو إنك تحب الشاى كثيرا ، قلت : لها بالعربية نعم يا جدتى نعم مازلت أحب الشاى ، ماذا أفعل ، أنا أحب الشاى ، وأنا فى المستشفى الآن لا أحب الشاى ، ابنتى تحب الشاى تأتى به كل ساعة ، تأتى به وتصنع لى فنجانا أشرب رشفه لا أستطيع البلع ، ابتلع الأشياء بصعوبة ، أريد أن أشرب ، يسألنى الطبيب

أن أشرب كثيرا ، كيف أشرب ثلاث لترات ، أتمنى أن أشرب ، أحفو إلى النيل ، ماذا لو أحضروا لى كوبا من ماء زمزم ، لو شربت ماء زمزم لشفيت بالفعل أمسك الكوب ، أدعو الله سبحانه وتعالى أن يحوله إلى زمزم ، أنظر إليه ماء رقراق جميل ، أشرب يا فتحى هذا زمزم إن شاء الله ، اللهم أشفنى وعافنى وأتم على نعمتك بالشفاء العاجل يا رب ، اللهم أشفني شفاء لا سقم بعده ، أتجرع جرعة أسعل ، أضع الكوب لا أستطيع الشرب أضع الكوب وأنظر إليه أتمنى أن أحسوا من ماء (القلة) ، القلة أحضرتها أختى الصغيرة من ماء النيل العذب له طعم السكر ، لماذا يختلف طعم ماء النيل عن بقية ماء العالم ؟ لماذا لا نرتوى هنا ؟ الماء هنا نقى جدا ، يأتى فى قارورات جميلة يبدو متلألأ مثل الفضة ، مثل الورق الفضى الذى أمامى ، لماذا لا أشرب ؟ أرتشف رشفه أخرى ، لا أطيق ، أتمنى ماء النيل كم شربت من النيل ، أرفع الكوز من ماء النيل مباشرة وأشرب حتى أرتوى ، عمى أحمد كان يحضر لى ماء البئر ، البئر ينبوع ، ينبوع من الأرض ، لا تأتيه المياه من أعلى إنما تنبثق المياه من جوفه ، يعود عمى أحمد إلى داخل البئر إلى عمقه ، يببط ويهبط ويببط حتى إننى أخاف فأنادى عليه ، يجيبنى لا تخف أنا قادم إليك يعطينى كوزا من الماء بارد وجميل وطعمه مثل طعم السكر لماذا نقول عن كل شئ حلو إنه مثل طعم السكر ؟ عندما آكل قطعة من السكر لا أستطيع أن آكل بعدها شيئا ، ولكن مع هذا أشرب كثيرا من السكر ، أقصد ماء البئر ، أشرب كثيرا من ماء النيل لدينا فى المنزل مياها ، أشرب بالقلة وأشرب بالكوب سواء عندما أتى من سفرى ، يكون هو أول شئ أسال عنه ، هل لديكم ماء أشربه ، هل من ماء النيل ؟ بالتأكيد ، سيكون من ماء النيل ، أخى يستقبلنى هكذا ، عندما يقبل من سفر تكون فى سيارتى أكثر من زجاجة مليئة بماء النيل يشرب ويرتوى ويقول الله ، هكذا قال لى جدي ، ماء النيل هو نهر من أنهار الجنة يا ولدى أشرب منه ما شئت ، أذهب إلى النيل مع أصدقائي ، عندما كنت طفل أسبح فى ماء النيل وعندما كبرت إلى حد ما لم يكن عندى من الوقت ما يسمح لى بشرب ماء النيل فكنت أكتفى بالجلوس على الأحجار والنظر إلى مياه النيل ، أ، قبه وهو يسير يجرى يندفع وكأنه مجموعة من الثوار يجرون ، تقابلهم ثلة من جنود ، يطلقون النار ، يسقط شهداء يحيا مصر ، تحيا مصر والسودان ، يسقط الإستعمار ، المياه تندفع ، تندفع تكتسح سلة الجنود ، تبتعد الجنود الماء يسير ، يدفع كل شئ بقوة ، تحمسوا ، حاربوا ، حارب أنت المرض ، يجب أن تكون محاربا شجاعا ، يقول الدكتور بانديا الهندى القادم من أعماق الهند وهو أيضا كان يسكن فى قرية ثم بعد أن انتهيت دراسته جاء إلى لندن ليزداد علما ولكنه بقى هنا ، شرب من ماء نهر (التيمس) فبقى هنا ، نسى النهر فى الهند ، لا أدرى ما اسم النهر فى الهند ؟ لا بد أن لديهم أنهارا لأنهم متحضرون ، المتحضرون هم سكان وادى الأنهار ، النيل صنع مصر ، النيل صنع الوحدة ، وصنع الإيمان ، النيل الواحد ، الرى

الواحد ، نظام الرى واحد ، نظام العقود واحدة فالأفضل أن يكون الله واحد ، وهو الواحـد الأحـد الفرد الصمد ، هكذا قال جدى ، علمنى ، وقالت جدتى : كل شئ فى الدنيا حـلال إلا مـا حرمـه الله ، كيف أعرف يا جدتي الحرام من الحلال ؟ أصبحت أشك فى أشياء كثيرة وأخاف أن أرتكب الحرام ، ما هو فعل الحرام يا ولدي ؟ إن قلبـك الطيـب وعقلك الذكـى سـوف يعرفـان الحـرام و الحلال ، لا تجهد نفسك فقط أنظر إلى قلبك ، كيف أنظر إلى قلبي يـا جدتـي؟ هـل أخرجـه ، إن قلبي ليس معي ؟ فتقول إنه هنا وتشير إلى صدري، يااااه يا جدتي مرض القلب يا جدتـي أعـانى من مرضه ثلاث عمليات فى القلب يا جدتي كنت تملكين قلبـا أبيضـا تملكين شـفافية جميلـة ، تقولين كلاما سهلا واضحا لا تعقيد فيه ، الحلال حلال والحرام حرام يجب أن تصلى وأن تؤمـن بالله وأن تترك كل شئ بعد ذلك إلى الله لا تفعل شيئا تشعر أنه حرام فقط حاول أن تكـون أنـت أن تؤمن بنفسك أن تستفتى قلبك ولو أفتوك ، أقول كيف أستفتى قلبى هـل أنـا شيخ معمم ؟ نحـن نسأل مدرسينا ، نسأل مدرسى المدرسة وشيوخ المسجد فيقولون كلاما كثيرا ثم يقولون فى النهاية الله أعلم إذن لا يعلمون ، تقول نعم يا ولدي العلم من عند الله يجب على الإنسـان أن ينظـر داخـل نفسه ، تحكي لي قصة آدم ، كيف استمع إلى زوجتـه ، لو كـان استمع لنفسـه مـا قضم الثمـرة المحرمة وما خرج من الجنة ، أقول لها لو بقى فى الجنة ما جئنا نحن يا جدتى ، تقول ها أنت قد عرفت ومن عرف خير من مَن لا يعرف ، تعلم يا ولدى ، تعلم ، أنظر إلى كل شئ تأمله ، لا تنظر إلى كل شئ بعينين براقتين ، لا تحدق فى الأشياء وتكتفى بالتحديق بل أنظر ثـم أدخـل إلى داخل الأشياء ، كيف أدخل إلى داخـل الأشياء يـا جدتـى ، هـل أتكلم معها ؟ أن تخاطبـها أن تحادثها ، آه يا جدتى ، سأذهب إلى حجرتى ، أذهب إلى حجرتك ، أنظر إلى السرير انه عملاق ضخم ذو أعمده سوداء طويلة وعليها ناموسية ، والناموسية مرسـوم عليـها ملائكـة ذات أجنحـة بيضاء وكأنها فراشات تطير أو ربما طيور كبيرة تطير ، لكنها لها رأس أدميه تشبه الفتيات فى قريتى ، فتيات قريتى جميلات الوجوه ، أرى كريمة ابنه عمى بيضاء الوجـه ، جميلـة مليحـة مثل تلك المرسومة على الناموسية ، ها أنا أتكلم مع السرير ، السرير ، السرير يتكلم معى يقول أنا مثلك أتكلم ، أنا اشعر أنا أحس ، تعاملت مع الأشياء هكـذا يجـب أن أكـون رقيقـا ورفيقـا ، إنها كائنات إنها تعبد الله ، يقول جدى ما من شئ ولا يسبح باسمه ، أذن هى تتكلـم ، أذن هـى تقول سبحان الله كما يفعل جدى ، كـل صبـاح وكـل مسـاء يقـول سـبحان الله كثـيرا وأردد خلفـه سبحان الله وبحمده سبحان العظيم ، أكرر مرات ومرات ، أذهب إلى حلقـه الذكـر ، اقـف قصـير القامة ولكنـى أردد سـبحان الله وبحمده سـبحان الله العظيـم ثـم اردد اسـم الله ، الله ، الله ، الله ، الهنود فى إنجلترا يجتمعون كل أسبوع لكى يرددون اسـم الله آلاف المـرات ، يقـرأون القـران ثـم يختمونه بالدعاء ثم يأكلون بعض الحلوى وينفضـوا ، هكـذا يفعـل الباكسـتانيون أيضـا ، وهكـذا

يفعل بقية المجتمعات الإسلامية ، الإسلام هنا لـه طعم آخر مختلف ، يتبادلون المصاحف ، يتبادلون أشرطة الكاسيت المسجل عليها القرآن الكريم بأصوات المقرئين من مصر ، لماذا من مصر لا أدرى ؟ أن لهم أصواتا عذبة ولهم شهرة مدوية فى كل مكان تحدث معى باندبا أنه للأسف الشديد لا يعرف الإسلام ، أحاول أن أتذكر جدتى ماذا تقول عن الإسلام ؟ الإسلام أن تكون مسلما ، أستزيدها ، ما هو الإسلام يا جدتى ؟ تقول : أن تكون مسلما ، هل أنا مسلم الآن ، نعم يا ولدى أنت مسلم ، لأنك تقول الله من يقول الله هو مسلم ، هذا أمر سهل ، أقول لباندبا أن تقول الله ، وكفى ، الله واحد وكفى ، يقول هذا حسن ، سأحاول ولكنى لا أعرف العربية ، أحاول أن ادخل إلى قلبك ، جدى تقول قلبك أو صدرك ولكن أحيانا يكون قلبك فى عقلك وأحيانا أخرى يكون عقلك فى رجليك لا أدرى أحيانا تقول جدتى رغم سهوله اللفظ وعذوبته أشياء فى غاية التعقيد ، لماذا ؟ هل لأنها ولدت فى الصحراء ؟ لى أسره من البدو ، أنها أسرتهم فى الأصل ولكن لماذا تقول هذا الكلام الذى يبدو لى أنه صعب الفهم ومع هذا تقوله لى فى سهوله شديدة ، الإسلام هو الإسلام ، الله هو الله ، لا تريد تعقيدا ، أن تصلى ، وأن تقول الله فقط وأن تأكل وتشرب من حلال وإلا تفعل الحرام ، ما هو الحرام يا جدتى ؟ يا ولدى أنت تسأل كثيرا ومن يسأل كثيرا يتعب نفسه فلا تسأل ، لا تسأل كثيرا طالما إنك تشعر إنك سعيد بأنك مسلم وهذا يكفيك ، أما إذا كنت غير سعيد فهذا أمر آخر ، لا يا جدتى والله ، أنا سعيد بالفعل بل أنا اشعر أحيانا لأن هناك بعض الناس لا يقولون مثلما تقولين ، ليس لك صالح بالآخرين ، كن فى نفسك ، تذكر أبدا يا ولدى أن لك عيوبا مثل الآخرين ، كن فى نفسك ، تذكر أبدا يا ولدى أن لك عيوبا مثل الآخرين فلا تقل على طفل من زملائك أن هذا قذر وأن هذا كذاب وأن هذا له من العيوب كذا إنك أيضا إنسان مثله ومن الممكن أن يقول عنك ما قلته عنه ، كن فى نفسك ، لا تحكى أسرارك لأحد كن دائما مع الله ثم مع نفسك ، حاولت يا جدتى ، حاولت أن تكون مع نفسى ولكنى لم أستطع ، رأيت الظلم يحيط بى ورأيت العدالة تختفى وسألت قلبى فأجابنى ، يجب أن تحارب ، حاربت يا جدتى ، كانو يريدون أن يعطوننى المال ويأخذوا قلبى وعقلى ، وبالفعل يا جدتى أخذوا جسدى . حبسونى ، اعتقلونى ، ورفدونى ولكنى حاولت أن أحمل قلبى على يدى وأن يعمل قلبى بلا خوف بالطبع يا جدتى ، أنت غرستى فى نفسى أشياء لا أستطيع ولم أستطيع أن أحذفها من قلبى الكثير ، أنت السبب يا جدتى ، إننى أراك فى كل لحظة كلما صليت ألمحك هناك ، كلما ذهبت إلى الكعبة أجدك بجوارى ، لماذا يا جدتى تحاصرينى إلى هذا الحد ؟ لماذا تصرين أن تكونى معى فى كل لحظة ؟ لماذا تعاقبيننى دائما ؟ إذا ما حاولت ذات مره أن أبدو مثل الآخرين ، فالآخرون يعيشون ، يلهون ، يتندرون ، أجدهم لا ينفعلون كثيرا ، يجلسون فى صمت أو يضحكون أو يتواعدون به كأس وشراب ، وأنا لا أفهم شيئا ، يقولون لى إننى متخلف ،

هل أنا متخلف يا جدتى ؟ هل أنا مجنون يا جدتى ؟ هل أنا عاقل أم أنا مجنون ؟ أجيبى ؟ لقد ورثت عنك أشياء كثيرة ماذا يا جدتى ؟ لماذا لم تعلمينى جيداً ؟ لماذا لم تقولى لى ما هو الحرام والحلال ؟ لماذا تركتى هذا السؤال ، دون إجابة محددة ، كان يجب أن تتدمى كتابا كاملا ، الحرام محددا ، من رقم واحد إلى رقم ألف ، و الحلال محددا من رقم واحد إلى رقم ألف ، فأنظر إلى الكتاب فإذا كان هناك ما يريبنى ، نظرت إلى الكتاب ، فوجدت ما هو حلال أفعله وما هو حرام لا أفعله ولكنك قلت أسأل قلبك ، كيف أسأل قلبى يا جدتى وقلبى بين ضلوعى ؟ كيف أسأل عقلى وقلبى ، وهل قلبى وعقلى واحد ؟ لم تجب جدتى ذهبت وبكيت ، بكيت على كتفها عندما ذهبت ، ولم أجد من يحدثنى عن ثورة الشعب المصرى ، جدتى ماتت دون أن أراها عدت إلى قريتى ذات مساء ، كانوا يعلمون إنى متعلق بجدتى تعلق الولد بأمه حاولوا أن يخبرونى بأمر وفاتها فى سهولة ويسر وكيف تخبر إنسانا أن أعز ما لديه قد مات ؟ قبلت خبر وفاتها وأنا أرنو إليها ، نعم إنها لم تعد ، أنا أراها أمامى ولازلت أراها - أعطونى مهلة كى أبكى جدتى ، وأسألها يا جدتى ، ماذا أفعل لقد سقطت من فوق الشجرة ؟ ابتسمت وقالت ولكنى أراك سليما معافا ؟ أقول لها لقد سقطت من فوق شجرة التوت ، قالت : لم تتسلق فى حياتك شجرة ، وأنت لست مثل بقية الأطفال الذى يتشاجرون فيمزقون ملابسهم ويتسخون ، أنت دائما تخاف من كل شئ كيف عرفت جدتى هذا السر إننى لم أتشاجر فى حياتى مرة واحدة ؟ أذهب إلى أمى ، أمى سمراء الوجه ؟ أسرتنا بيض الوجوه أو حمر الوجوه ، ولا يوجد بيننا أسمر اللون إلا هى حتى أمها بيضاء شقراء من أين جاءت هى باللون الأسمر ؟ دقيقة الملامح ، كأنها عروسه صغيرة من تلك التى يرسمونها فى المجلات المصورة ، أمى لا تقل شيئا ، أمى لا تقول ولكن تعمل قبل الفجر تذهب ، تحضر لى اللبن عندما أعود بعد صلاة الفجر أجد كوب اللبن أو بمعنى أصح أجد كوز اللبن الساخن أشربه كل يوم ، لم أفكر أبدا كيف تحصل هى على اللبن وكيف تذهب هى إلى حظيرة المواشى لكى تحلب بنفسها هذا الكوز الجميل من اللبن فتحضره إلى بعد صلاة الفجر مباشرة ؟ فلا تتكلم عندما أنظر إليها أجد مثالا للصبر والتفانى فى خدمة الآخرين ، لم تقل شئ قط تحكى حكاية ولا تتمها ، دائما تنام ، قبل أن تتم الحكاية أتذكر عندما كنت صبيا أذهب إلى جدتى أرنو إليها وأقول لماذا يا جدتى أمى سمراء ؟ فتقول وهى تبتسم أنها ليست أمك ، أغضب [illegible] إليها وعصاها تغضب هى فتبتسم وتقول لها جدتى لا تغضبى يا خالتى أنا أمزح ، [illegible] لا تتحدثين ، بل تقومين بالعمل (يبدأ الحديث وخروج الكلمات بأسى بحزن وتعب) دون حديث ودون كلام لم تعرفى يوما الملل ولا شكوى دائما تبتسمين ، عندما تقدم بك العمر جلست فى سكون ، تنظرين نحونا ولكن أيضا ابتسامة شاحبة تغطى وجهك ، ماذا يحدث لك الآن ؟ فيما تفكرين ؟ ولدك الكبير الذى كان حبك الأول كما كنت تدللينه يرقد بعيدا

عنك مريضا قدم لى أحد الأصدقاء حلوى ونوعا من الطعام صنعته زوجة لابنـه حـاولت أن آكلـه ، ارتعشت يدى ، حاولت بيدى الشمال فلم أستطع ، قام هو يطعمنى ، صديق لم أراه إلا منذ ثلاثة أيام ، باكستانى الجنسية، كان له صديق أتى لى بورد ، وضعه فى آنية ثم وضعه أمامى فى اليـوم التالى ابتسم الورد ، وتفتح فتذكرتك يا أمى، يا نبع الحنان يا نبع الحب الصادق ، قروية تجهل الكتابة والقراءة ولكنها جمعت الحكمة كلها ، عندما كان يسبها أبى كانت تهدده حتـى يـبدأ ثورته ، عندما كان يشعر باليأس تظل به حتـى يتذكـر وجـود الله فيصلـى ويعـود إلى حماسـه ، عندما تنزل إحدى مصائب الدنيا تهونها علينا وتذكرنا بأن لنا أيضا نعم أخرى لم تـزل باقيـة ، حاولوا قتل عمى لسرقة مزرعتنا وثار أبى وهدد ولكن استطاعت وهى فى المنزل قابعة ولم تخرج أبدا ، استطاعت أن تجعل من حاولوا قتل عمـى أن يـأتوا إليـه ويقدمـون الاعتـذار ، لسـت أدرى كيف ولا تفسير لدى ، عندما جاءت حركة التأميم وشلوا حركة أبى فـى التجـارة ابتسـمت أمـى وقالت لدينا المزارع ، كان أبى لا يفهم فى الزراعـة ، وكـان يحكـى لنـا كيـف يضحـك الفلاحـون عندما يفعل شيئا أو يأمر بفعل شىء ، ولكنها كانت دائما تقـول لـه أنـت علـى حـق ، ثـم يـأتى المحصول الخاص بأبى أفشل كثيرا من محاصيل الفلاحين الذى ضحكوا عندمـا قـام أبـى بزراعـة محصوله ، لم تخرج أبدا من البيت ، عندما وعيت الدنيا وجدتها فى البيـت وعندمـا ذهبـت إلى الجامعة ، لم تخرج من البيت وعندما عدت من ألمانيا ، حياتها البيت والأسرة الكبيرة ، الجميع هنا يقولون لها يا أمنا يا أمنا أعمامى يقولون لها يا أمى وأخوالى يقولون لها يـا أمـى وأنـا أيضـا بعـد أن كنت وأنا صغير لا أقول لها ذلك ولكنى عرفت قدرها عندما رأيتها فى المواقف الصعبة هى أكـثر صلابة ، فى كل ما مر بأسرتى لم أجد أشد تماسـكا مـن أمـى التـى لا تقـرأ ولا تكتـب ، وعندمـا قررت الحج حملتها فى سيارتى وذهبت بها إلى المطار وأنا خائف أشد الخـوف ، لماذا لم اذهـب معها ، لا أدرى ، لماذا لم يذهب إلى أبى ، قال أنه قد حج وأنه يجب أن يكون أحدنا فى البيت ، لم نعد مثل الزمن القديم ، لقد أخذوا تجارتنا ولم نعد نتاجر إلا فى القليل ولم تعد أرضنا تفى إلا بثلث الأشياء ، لهذا أصر أبى أن يمكث وأن تذهـب أمـى لأن هـذه رغبتـها ولأنـه أيضـا قـد حـج بمفرده ، وبدونها من قبلها فلتذهب هى أيضاً بدونه ، وعلى مـتن الطـائرة بكيـت كيـف تذهـب بمفردها ؟ ماذا تفعل وهـى لا تقـرأ ولا تكتـب ؟ ولا تعـرف الفـرق بـين القـرش والريـال ، لا لا تعرف إذا كانت هذه الورقة نقودا أم هى مجرد ورقه ؟ وأعطيتها المال وحاولت أن أشرح لها وأنا أضعها فى الطائرة بعد أن أخذت تصريحاً بذلك ، هذا هو الريـال وتلـك ورقـة بعشـرة ريـالات ، وأخرى بخمسين ريالاً ، أما تلك فمائه ريـال ، معـك الآن مـا يمكـن أن يكفيـك شـهر كـاملاً ، لا تحاولى أن تخرجى عن المجموع ، وطارت وطرت أنا شعاعاً ، سافرت إلى أحد البلدان على شاطئ البحر ، كنت أجلس على الشاطئ وعندما أرى طائرة فى السماء وأقول طارت أمـى فـى مثـل هـذه

الطائرة ستعود أمى فى مثل هذه الطائرة كنت وقتها استاذاً فى الجامعة وأعلم مقدما موعد وصولها إلى القاهرة ولكنى كنت أنظر إلى كل طائرة وكأنها تحمل أمى عدت إلى القاهرة وذهبت إلى قريتى ربما أجد هناك نوعا من العطف والحنان يجعلنى لا أشعر بالغربة وأمى بعيدة عن بيتها على الرغم من أنى كنت أسافر بالسنوات وأبتعد عنها بل أننى أنا الابن الوحيد الذى أبتعد عن أمه منذ أن كان فى الخامسة عشرة إلى أن أصبح جدا وله أحفاد : أما باقى إخواتى فقد التحقوا بها ولم يغادروها واسكنوا زوجاتهم بجوارها ويجلسون إليها صباح مساء ومع هذا أظل الأثير وأنا المحبوب .. الاستاذ جاء الاستاذ جلس لا تتحدث هكذا أمامه يجب أن تصمتوا فى حضوره يجب ألا يسمع هذا الخبر ويكتم الجميع عنى أخباراً يظنون إنها من الممكن أن تضايقنى ذهبت إلى قريتى وجلست إلى إخوتى ورأيت أبى شاحباً باكيا كطفل لا يجد أمه واقتربت منه وأخذته بين أحضانى ، أحسست أنه ضعيف ، وأنه ليس أبى الذى أعرفه ، أعرف أبى القوى الشديد ، البأس ، الثائر الذى يستطيع أن يغلب قبيلة بحالها ، ولكنه اليوم مثل طفل ضل الطريق عن أمه ، قال وهو يبكى جسدى لا يحتمل ، دعتنا أختى الكبيرة للغذاء حاولنا أن نطعمه ولكنه رفض ، كان أبى لا يشعر بوجودها أو هو كذلك كنا نظن به ؛ كان دائما عندما يدخل إلى البيت يكون ثائراً دوماً وغاضباً دوماً ، كان لا يحضر إلى البيت إلا فى الثانية عشرة ليلاً ويغادره بعد صلاة الفجر فإذا حضر صدفة مع ضيف أو مع أقارب للغذاء فى البيت فإن بيتنا الكبير يصبح قلعة للصمت فلا أحد يتكلم ولا أحد يهمس بكلمة فالكل يعمل فى دأب والكل صامت : لأن أبى هنا ، وأول من يصمت هى أمى ، وينظر إليها وكأنه قد كذفأها هكذا تصورنا ، جميعاً : وأقصد تخيلنا وأن سفرها هذا لا يعنى بالنسبة له أى شئ ولكنى رأيته هكذا يبكى يوماً كاملاً ؛ أخبرتنى أختى أنه هكذا طوال غياب أمى وأحياناً فى الليل تجده مسهداً ويهبط إلى الدور الأول ويجلس حيث كان يجلسان معاً ، فى صمت لا يأكل إلا القليل ولا يشرب إلا القليل ولا يذهب إلى العمل ، عدت من قريتى وأنا محطم النفس ، لا أدرى هل أبى يحبها أكثر منى أم أنا أحبها أكثر منه أحسست بالغيرة من أبى وأيضاً بالإشفاق عليه ، ولم أكن أتخيل أنه يحزها كل هذه المعزة داومت الاتصال بالشركة لأتأكد من موعد وصولها ، علمت أنها ستصل يوم الجمعة ذهبت إلى المطار يوم الأربعاء وبقيت الأربعاء والخميس والجمعة حتى أوشك يوم الجمعة على الانتهاء وهي لم تصل بعد ، كلما سمعت عن طائرة قادمة من السعودية جريت ، كنت مثل الفلاحين ، أعلم مسبقاً بموعد إقلاع الطائرة من مطار جدة وموعد وصولها بالساعة والدقيقة والثانية ورقم الرحلة والكشف فى جيبى بركاب الطائرة الذين سيأتون مع أمى أو تأتى أمى معهم ، كان موعد وصلها فى الرابعة مساء يوم الجمعة برقم رحلة محددة على شركة طيران محددة كنت قد استخبرتهم فأجابونى بكل التفاصيل ، ومع هذا حضرت إلى المطار يوم الأربعاء صباحاً ووضعت سيارتى فى مكان آمن وظللت

يومى الأربعاء والخميس أتردد بين سيارتى وبين صالة الانتظار في المطـار بـل ونمـت أيضـاً علـى أرض المطار مثل باقى الفلاحين ، وأتحدث معهم وأتنـاقش في حمـاس فـإذا سمعنـا صـوت وصـول الطائرة قفزنا جميعاً إلى مدخل الوصول حتى نرى من وصل ومن له قريـب سـوف يجـرى مسـرعاً لاحتضانه ، وثم نعود إلى حيث كنا نفترش الأرض ونحن حزاناً لأن أقاربنا أو أخواتنـا أو أهلينـا لم يصلوا بعد ، إذ كان هذا هو حال الفلاحين الذين لا يعرفون مواعيد الطائرات فما بالك بى وأنا أعلم أنها لن تأتى الأربعاء ولـن تـأتى يـوم الخميـس وأن موعدهـا حسـب الجـدول أن تـأتى يـوم الجمعة في الرابعة مساء ، ظللت هكذا حتى جاءت الرابعة وهبطت منها مجموعـة مـن قريتنـا ، سألت أحدهم فقال لى والدتك معنا وهى بخير ولكن سوف تأتى بعد قليل فهى لا تشـترك فـى أى زحام كان ، وقفت فى طابور المنتظرين ، قدمى ترتعش ، يداي ترتعشان ، تقدم نحـوي الدكتـور بانديا معلنا أنه لن يرانى فترة طويلة ، وأنـه جـاء لداعـى ، لم أفـهم وتصـورت أنـه في أجـازة ، صافحنى وتركنى ومضى .. وعدت أنا إلى أمى جاءت فجأة ، رأيتها أسرعت إليها ، احتضنتها ، كنت مشفقاً عليها ، ولكنها ظلت تتكلـم عـن رحلتـها ، سـعيدة بـها ، تبـدو متـوردة الوجنتـين تتحدث في حرارة عن الكعبة ذهبت إليها لأول مرة ثم كيف عاشـت بجوارهـا أكـثر مـن عشـرين يوماً دون أن تفارقها أبداً ، كانت تأكل التفاح والموز فقط حتى لا تغادر الكعبة وكـانت تذهـب إلى البيت للنوم فقـط كـانت تعـرف طريقـها جيـداً وكـانت لا تختلـط بالنـاس حتـى لا تسـمع كلمـة تخرجها عن حالتها كانت تتحدث في إنطلاقة غريبة ، أحمل متاعها القليل إلى سيارتى وتركـب بجوارى وهى تحكى وتقص على كل شئ عن رحلتـها منـذ أن غادرتـها وهـى فـى الطـائرة حتـى استقبلتها فى المطار ، وكيف كانت تشرب من ماء زمزم ، وكيف كانت تأكل التمر وكيـف كـانت تأكل التفاح و الموز ، ولا تقرب الأطعمة الأخرى وكيـف كـانت تنـام وتصحـو قبـل صـلاة الفجـر وتلازم الكعبة حتى بعد آذان العشـاء ثـم تذهـب إلى النـوم ، هكـذا كـانت الحيـاة ، وكيـف أدت مناسك الحج ، لقد كان الله معى لم أشعر بأى تعب أنهم يبالغون فى الحديث عن المشقة ولكنى يـا ولدى لم أجد أية مشقة ولم أجد أية عسر ولم أجد مشـكلة قـابلتنى ، كنـت أجـد طريقـى ميسـراً سهلاً ، ذهبنا إلى (منى) ، جلست في الخيمة أصلى ثم أخذونا إلى غرفة ، إنها كبيرة جداً ، جداً يا ولدى وهناك جلست أناشد ربي أن يمن عليك بالصحة والسـلامة وأن تكـون في مكانـة ترضاهـا ويرضاها لك الله ، بكيت وكنت أقود سيارتي وأنا لا أرى شيئا أمامي ، كنت أود أن أذهب بها إلى أبى وأقول ها هى أمى فلا تبكى بعد الآن ، كنت أرى دموع أبى وهى تحكى فى سـعادة وانشـراح كيف انزلقوا بها نحو (المزدلفة) وكيف كـانت هـى تمشـى ، تمشـى بـين الزحـام كيـف جمعـت الحصوات ، جمعتها يا ولدي في دقيقة واحدة ، مثل حبات الحمص أو أكثر قليلاً ثم جلسنا هناك لنصلى المغرب والعشاء ثم أخذونـا لنقـذف الشـيطان ، قذفتـه بكـل قـوة ، كـبرت عليـه حتـى لا

يغلبني ، قالوا لها من الممكن أن تكلفي أحد الرجال ولكني قمت بالعمل وحدي ؛ لقد كان الأمر سهلاً ميسوراً ثم ذهبت يا ولدى إلى الكعبة في الفجر وطفنا وصلينا ، كيف كانت (هاجر) ؟ كانت تجلس هنا يا ولدى فى هذا المكان ، كيف كانت تعيش ونحن نتأفف لأن الماء ليس بارداً كما يجب ؟ أو أن البلاط ساخناً أو أن التكييف لا يفى بالغرض المطلوب ، وهى قد نامت على الصخر الأسود رأيت الصخر الأسود يا ولدى يطل علينا فى مكة ، صخراً أسوداً كئيباً لم أره فى حياتى ، كيف كانت (أم إسماعيل) تجلس فى هذا الصخر ؟

في هذا الصهد ؟ لا ماء ولا زرع ولا ناس ، الناس يا ولدى بالملايين ، كثيرون ، نذهب إلى أي مكان نجد الناس كثيرون كثيرون ، من كل جنس رأيت ناساً يتكلمون بغير اللسان الذي نتكلم به إنهم يتكلمون بلغة لم أرك تتكلم بها من قبل ، أبتسم وأنا أرى وجه أبى وقد غطته الدموع وأسرع بسيارتى ، الظلام بدأ يحل علينا ، ولكنى أمضى بسرعة وهى تقص على ، عندما كنت في البيت أقترب من النافذة كي أنظر إلى الكعبة فقد حبانا الله بسكنى بجوار الكعبة ، أهبط الأسانسير ، ولا أدرى كيف يهبط ، سبعة أدوار فى لمح البصر بمجرد أن أقول بسم الله الرحمن الرحيم الله الرحمن الرحيم الله الرحمن الرحيم الله الرحمن الرحيم أجد نفسي في الطابق الأول ، منه إلى الشارع أرى الكعبة أمامى أذهب في أول ركن أقابله وأجلس للصلاة كنت أصلي وأنا واقفة وأنا جالسة وأنا راقدة على سريري ، أصلي دوما يا ولدى يا سلام على الإسلام ، الإسلام يا ولدى حلو ، حلو قوي ، إحنا ربنا كرمنا لأننا طلعنا مسلمين ، المسلمون هنا كثير قوي يا بنى ؛ أقول لها أرجوك كفاكى حتى لا ترهقى نفسك ، تقول لا يا ولدى أنا غير مرهقة ، ثم تسألني فجأة ونحن ندخل القرية كيف حال أبيك ؟ بكيت تأثرت هى وأخذت تضع ذراعها حول رقبتى أعلم يا ولدى أعلم لا تبكى ، وصلنا إلى باب الدار توقفت فجأة ثم صحت في أبى ، هى فلا تبكى بعد اليوم ، لم أكن أرغب فى شئ صحت فى أبى هى فلا تبكى بعد اليوم ، أن يتكاتفا معاً وأن يجلسا معاً ، هذا كل مطلبى فى الحياة ، اضطرب أخي الصغير وسقطت منه صفيحة الشربات : كان يصنع الشربات فى صفائح كبيرة ، سقطت صفيحة الشربات وأغرقت الشارع كله ولكنه قال عندي غيرها بالعشرات ، فلا يغضب أحد الكل يشرب الشارع امتلاء بالزغاريد وكأن دارنا قد بدت وكأنها كعبة مقصودة يؤمها كل البشر ، مئات بل ملايين مثلما قالت أمى قد تجمعوا فى الكعبة ، وقفت بجوارها وهى تبتسم فى هدوء وكأنها قد عادت إلى بيتها وإلى هوايتها المفضلة . تبتسم وانسحبت أنا أخذت سيارتى وقد أكتفيت بتلك السعادة التى رأيتها ظهرت على وجه أبى ولكنه مع هذا لم يقل لها شيئاً ولم يعبر عن فرحته ، أكتفى فقط بأن جلس شامخاً ينسق شاربه بيده اليمنى وقد رفع وجهه هكذا وكأنه عاد لتوه أبو سلامة الذى يهابه الجميع ويخافه الجميع ، ويجب أن يحترمه الجميع ، عاد كما كان وكأن قامته قد ازدادت واقتربت من سقف

البيت وأحسست أنا أن هذه هي نهاية رحلتي والتي كنت بدأتها الأربعاء وقد كنت متعباً غاية التعب وعدت أدراجي إلى بيتي في القاهرة وأنا سعيد كل السعادة ابتسم وأقول نعم يا أمي ، نعم هذه حلاوة الإيمان ، حلاوة العاشق ، عندما يصل إلى ما كان يشتاق إليه ، أنا شعرت بها يا أمي أنا المحب الولهان ، أنا المحروم الآن ، أنا الذى يتطلع إلى صورة الكعبة ولا يستطيع رؤيتها والدخول إليها ، يجفانى النوم ، ترتعش يدى ، وأنا أمسك بكوب الماء أتخيله زمزم (الصوت يخرج بتأثر شديد) أدعو الله أن يكون زمزماً ، ماذا لو مد لى أحد يده بشراب زمزم ؟ ربما يشفينى ، ربما تلتأم جراحى ، أمى ، لكى حبى وفؤادي .

(يبكي ، يتوقف عن التسجيل)

ربما يكون من الأجدر بنا أن نعود إلى المصدر الرئيسى لهذا الكتاب وهو أبى (إبراهيم) ، فهو قد تولى الإشراف على تربيتي وظل معي طوال فترة طفولتى وحتى بداية شبابى فقد كنت ملتصقا به أشد الالتصاق وعاملنى كصديق منذ أن وعيت الدنيا وقد كان مهتما بى إلى درجة كبيرة حتى أنه كان هو الذى يشرف على ملابسى وعلى طريقة ارتدائى تلك الملابس وكان يشتري لى أغلى الملابس وأكثرها أناقة ، ويهتم بذلك ويبذل من أجل ذلك الكثير ، بل ويغضب أشد الغضب إذا رآنى حزينا مجرد حزن يرتسم على وجهى ، كفيل يجعله فى قمة غضبه فيظل يلح في السؤال حتى يعلم السبب والويل كل الويل إذا كان هذا السبب هو أحد من الناس فسوف ينزل به العقاب أشد العقاب لهذا كنت أخفى عنه كل ما يتصل بأهلى وأقاربى إذا أغضبونى لشيء ما ، حتى ولو كبيراً ، كانت علاقتى بأبى علاقة صداقة وقد اشتغلت معه يداً بيد ورجلاً لرجل ، يشترى أشترى مثله يبيع أبيع مثله ، إذا هو وقف ليتاجر ، أذهب أنا لأذاكر واقرأ الكتب ، إذا وقفت أنا يهرب هو إلى حيث يلهو قليلا أو ينام قليلاً ثم يعود ليجدنى فى مكانى وأحاول أن أكون أنا ذاتى ونفسى ، طريقتى تختلف عن طريقته ، أنا أتعامل مع الناس بإنسانية ورحمة أشد ولكنه يتعامل مع الناس بغلظة إلى حد ما ، رغم كرمه الحاتمى ورغم سماحته وقد رأيته مراراً لا يحاسب أحدا إذا جاء إليه مديناً وطلب منه بضاعة أعطاه حتى ولو لم يدفع الدين القديم ، وإذا سأله المدين كم دينا لك يا عمى يقول : أنت تعلم فالمدين لا ينسى دينه ، ولكنى أنا أنسى لأنكم كثيرون ، رأيته وأنا صغير وأنا شاب يساعد المدين على سداد دينه ، رأيته يشترى من الجزارين لحمة لا نحتاج إليها لمجرد أنهم لا يستطيعون بيع ما لديهم من لحم ولأن قريتنا صغيرة الفقر هو السمة العامة لأهل قريتنا حيث كان عدد الملاك قليلاً جداً بالنسبة لعدد الأجراء والفلاحين العاديين فإنه كان لا يبخل بمال على أحد وكان يترك البيت مفتوحاً ليأكل من شاء ، كان دائماً كريماً عطوفاً ولكن الويل كل الويل لمن يغضبه أو يثيره فهو سريع الغضب يثور لأقل الأسباب ، فإذا ثار فالويل لمن حوله ، غضبه عنيف قاسى ، وقوته فى شبابه كانت لا تقارن بقوة أحد

الرجال من حوله ، بل كان بقوة ثلاثة أو أربعة رجال كان يمسك بهم يطلقهم فى الهواء وكأنهم قطع من الحلوى ، كان لدينا مصنعاً للحلوى ومتجراً وكنا من الأثرياء أو هكذا كنا يخيل إلى ، وكان هو يتباهى أنه صنع كل هذا بنفسه استطاع أن ينفق على إخوته وأن يتكفل بهم وأن يزوجهم جميعاً وأن يقيم لهم بيوتاً مستقلة ، تخرج أبى فى مدرسة المعلمين ولكنه لم يعين مدرساً بسبب حادثة جدى فجاء إلى قريتنا وبدأ مشوار العمل لكى ينفق على أسرته وعلى أبيه المريض وأشتغل فى بداية أمره عند أحد الخوجات من أصحاب الأملاك ولكنه لم يستمر شهراً واحداً فلم يعجبه الحال فتركه ومضى ، واشتغل فى شركة (شل) التى تبيع فى ذلك الوقت الجاز فى القرى وكانت تصنع من أجل هذا كل الحيل لكى يستخدمه الفلاحون وكانت تشجع من أرضه لكى يبنى بها محطة بنزين وجاز لكى يحصل على توكيل لبيع المواد البترولية ، أقام محطة بدأت تزدهر وبدأ أبى يجنى ثمار المحطة وجمع ثروة لا بأس بها من بيع الجاز ولكنه بعد سنة واحدة كما قص على وحكى لى هذه القصة مراراً وتكراراً وكنت دوماً أشتاق إلى سماع قصص حياته لأنه فى كل مرة يحكيها بطريقة مختلفة وإن لم تختلف الحقائق أو الحوادث الرئيسية ، فكان التشويق فى حكى الحكاية يشدنى ويشد مستمعيه كيف أقام المحطة ثم كيف وزع العربات التى تبيع الجاز ثم كيف كان يحضر لمبات ويوزعها بالمجان على أهالى القرى المحيطة وهكذا فى عام وبضعة أشهر استطاع أن يكون ثروة لا بأس بها ولكن لم يعجبه هذا العمل لأن رائحة الجاز بدأت تضايقة ، ضد وجاهته وأناقته قد كان فى شبابه أنيقاً جميلاً يتباهى بملابسه بعينيه الخضراوين وشعره الأشقر وقوامه المليح ووجه الصبيح وكان مثل فتى عاشق يهوى كل البنات وكل الفتيات وتهواه كل الفتيات والبنات والنساء فترك هذه التجارة مع أنها كانت مربحة مجزية وأشار عليه أحد أخواله أن يشتغل بتجارة الجزارة ، وتربية المواشى فأنها مربحة ولا تحتاج إلى جهد ، فترك البنزين والجاز إلى الجزارة ولكنه ذات يوم اضطر لذبح بقرة وكانت عزيزة لديه فبكى بجوارها ولم يستطع بعد ذلك أن يشتغل بالجزارة ، لقد كان يحب بقرته ومواشيه فكيف إذن يذبحها ، أنها قاسية على قلبه فترك تجارة الجزارة مع أنها أيضاً كانت تدر عليه ربحاً وأعتقد أن أبى كان ذكياً لماحاً جديراً بمهنة التجارة يعرف كيف يكسب وكيف يعامل الناس وكيف يكون كريماً وكيف لا يضن على مدينه بانتظار بل كيف يعطيه ولا يبخل وعلى المدين ، حتى يستطيع ذلك المدين الدفع عند الميسرة فأحبه الناس وكان دوماً مدافعاً عن المظلوم حتى يأخذ حقه وافتتح مخزناً كبيراً وبدأ فى الاشتغال فى تجارة الزيت والعدس والفول وكل شىء يقابله لديه قدرة الإقناع كما وهبه الله ثقة الناس به ويأخذون كلمته مأخذ جد واستطاع هو أن يؤكد أن التاجر يتاجر فى فلوس الآخرين ، وبأموالهم طالما أنه أمين صادق الوعد كان دوماً يقول لى التاجر الشاطر يكسب القليل ويقنع به فتتسع تجارته ويتسع ربحه لهذا اتسعت

تجارته ، لقد اشتغلت معه زمناً طويلاً جداً وكنت يده وذراعه وعقله وكان يتمنى دوماً أننى لو ظللت بجواره دون العودة إلى تعليمى ودون هوسة الأدب لكنت فى شأن آخر صاحب ثروة واشتغلت بالزراعة فى أرضه ولم يكن فلاحاً بشكل جيد فذهبت إلى الحقل وراح يجرى تجاربه فكان لماحاً ذكياً يدرك الأشياء بالنظر وكان يقرأ القرآن فى تبتل وبصوت رخيم ، كنت أقف مشدوها عندما أجده فى هذه الحالة ، هذا الرجل الغاضب الثائر الذى كان يضرب الناس إذا ما وقفوا أمامه يطلبون حاجياتهم بشىء من الخشونة وكان لا يسمح لأحد أن يدخل إلى مخازنه إلا بعد أن يتوضأ أمامه فإنه كان يخشى من هذا خشية كبيرة كما أنه كان يخشى دوماً أن تنقص الميزان فقد كان يؤكد على كل من يتعامل معه أن الميزان هو العدل وأن العدل هو الله ، فالميزان هو الله فمن يخسر الميزان فقد أخطأ فى حق الله ، كانت هذه قاعدته وكانت أراها مطبقة أمام عينى ، يحرص على الصلاة فى أوقاتها ولكن كان له عادة حاولت أن أناقشه فيها فقد كان يجلس كل مساء مع مجموعة من التجار يشربون ذلك المخدر المقيت الذى يسمى (الحشيش) على أنه لوناً من ألوان الفحولة وكان هذا فى زمنه بالفعل من العادات المحبوبة لدى الرجال وخاصة إذا كان هؤلاء الرجال من المستوردين مادياً للترويح عن النفس من كثرى أعمالهم وتجارتهم ومن كثرة مسئولياتهم فكل منهم لديه جيش جرار يعمل ، وهذا الجيش لديه مئات الأفواه التى تأكل ، يجب أن يتدبر أمر كل هؤلاء عن كل الأسر التى يعولها ، يجب أن يكون منتبهاً كل الانتباه والإراح فى حركة إفلاس يشيرها علناً فلا يبقى منه شىء وتلطخ اسمه وكان هذا كفيلاً بأن يجعل كل تاجر على ضد كل التجار يشترون من بعضهم البعض على سبيل السلفة أو الدين ، يردونه إذا ما باعوا بضاعتهم هكذا كانت الأمور تسير ، العسل يأتى من الصعيد فإذا بعنا أعطينا تجار الصعيد وجامعى العسل أموالهم أما إذا خسرنا أو سواء فسد العسل الأسود فى الأسواق فإن سعره يهبط وهكذا يتعرض التاجر إلى خسارة فادحة ، وهذا سواء فى المحاصيل والمنتجات الزراعية أو غيرها من المنتجات التى ترد إلينا من مصانع الشركات الكبيرة وفقاً للنظام الرأسمالى أو ما يسمونه الآن السوق المفتوح تخضع الأسعار له لم أعد أفهم التجارة ولا أفهم فى اتفاقية الجات ولكنى كنت أفهم أن العدس يرد إلينا من إسنا فى أجولة كبيرة نبيعه نحن قنطاراً قنطاراً أو عشرة عشرة أو ربما قدحاً قدحاً يجب أن نحصل على المال ماذا لو كان المحصول وفيرا هذا العام ينخفض السعر . (توقف عن التسجيل)

أبى كان مثل هؤلاء التجار قديما يخشى الله ويتقيه ويعلم علم اليقين أنه ما إذا غش عميلاً فإنه سوف يخسر ما له كله ، الحكاية عند أبى هواية وغرام وعشق وهو يروى الحادثة عدة مرات على أوجه مختلفة ولكن وقائع تلك الحادثة واحدة ، نصحه والده أن يذهب إلى الحج وهو فى شبابه حتى يستمتع ذهب للحجز قالوا لقد انتهت أماكن حجاج البواخر من أراد أن يركب

الطائرة فليتّى ، تقدم هو إلى مكتب الحجز الخاص بالطائرات وبالفعل كان له نصيب السفر في ذلك العام إلى الأراضى الحجازية وعاد سعيداً كل السعادة ، ثم أخذ بعْد ذلك يروى تلك الحكاية على أوجه مختلفة هى نفسها أنه ذهب إلى البندر لأنه كان يتألم من ألم بسيط يأتيه كل عام فذهب إلى هناك عسى أن يجد فى تجارته ما يلهيه عن هذه الألم فرأى الزحام فسأل وهكذا أنتهى به المطاف إلى حجز تذكرة بالطائرة إلى الأراضى الحجازية كنت سعيداً غاية السعادة عندما أجلس إليه خاصة فى الصباح أيام الأجازات لكى يروى لى حكاية جدى وأجدادى وأسأله أنا ولكن يا أبى أين جدى سلامه هذا ؟ فيضحك وينظر ويقول ليس جدك اسمه سلامة أن جدك اسمه سالم فأقول هل تدرك من هو سلامة هذا ؟ يقول لا أنها يا ولدى اسم القبيلة التى جئنا منها فأسأله مرة أخرى وهل أخوالى وأعمامى الذين يسكنون فى الجبال هؤلاء هم أصل قبيلتنا يقول نعم ولكنهم الآن مثلنا تماما أولاد خال وكثيراً ما ذهبت إلى أولاد عمى وأولاد خالى هناك وسط الجبل والطريق يأخذ منى ما يقرب من ساعة مشياً على الأقدام فى جبل يسمى (جبل باغوص) ولكنه الآن تحول إلى منطقة صناعية بعد أن كان مجرد جبل وسط الدلتا وكنت مندهشاً غاية الدهشة من وجود هذا الجبل فى تلك المنطقة التى كنا ندرسها فى المدرسة ويقولون عنها أنها من أخصب أراضى الدلتا وكنا عندما نذهب إلى المركز ولا أدرى لماذا كرهت هذا المركز لم يكن بينى وبينه علاقات حميمة لم يكن به أقارب لنا كل ما فى الأمر أننا عندما نحتاج إلى ختم ورقة من أوراق المدرسة أو الجامعة كنا نذهب إلى هناك ولكى نذهب يجب أولاً أن نركب سيارة مدينة بنها ثم نأخذ سيارة أخرى من مدينة بنها إلى المركز وهكذا تجد الطريق صعباً للغاية وهناك سيارة واحدة تسمى سيارة (أبى حجاج) تذهب إلى هناك ولكنها تقوم فى السابعة صباحاً ويركب بها سبعة أفراد فقط وسائقها أبو حجاج هذا رجل متوتر الأعصاب دوماً عندما تركب لابد أن تصبر ، وتصل بعد أن تكون قد استنفذت كل ما لديك من قوة صبر وتحمل فتذهب إلى القسم أو إلى البندر لكى تختم ورقة هزيلة تحتاج إليها فى المدرسة أو الجامعة وهكذا وهى مدينة ، (عندما كنت طفلاً أو شاباً صغيراً) ، متواضعة جداً وليس بها أى شىء يذكر تقريباً ، بعد ذلك ضحكوا على الناس وقالوا هنا يباع الفطير المشلتت وهنا استراحة وهكذا ازدهرت المدينة إلى حد ما لأنها تقع على الطريق الزراعى السريع ، أما عاصمة مدينتنا فقد ذهبت إليها أكثر من مرة لزيارة صديقى (حسين) ، كانت بلدتنا أكبر كثيراً من مركزها وكان بها من العمارة والتجارة والفلاحة والمصانع ما يؤهلها أن تكون بالفعل مركزاً تجارياً قال لى أبى أنها سميت ميت بره نظراً لأنها كانت منذ أيام الفراعنة ميناء هاما معناها بلدة الميناء هكذا قال لى أبى ولم أحاول أن أناقشه ولم أحاول أن أرجع إلى القواميس اللغوية الخاصة تصادق أبى مع والد حسين ، وكان حسين هذا تلميذاً طيب القلب ولكنه تلميذ بندرى أى أنه يبدو أنه قد دخل فى كيس من النايلون اللامع فهو

يبرق دوما صادقته ووجدته عفيف اللسان حلو الكلمات لديه من المعلومات ما ليس لدى فقد جاء من البندر الكبير ويعرف أكثر منى من معلومات مدنية فقد سبق له أنه دخل السينما أكثر من مرة وأنا وقتها لم أكن أعرف ما هى السينما فلما أرتحل عن بلدتنا وأشتغل والده فى محالج المديرية كنت أشتاق إليه وأركب دراجتى وأذهب إليه قاطعاً مسافة تقرب من ستين كيلو متراً بالدراجة ذهاباً ومثلها فى الإياب وأذهب يوم الجمعة فى الصباح الباكر مخترقاً الحدائق والغيطان وأسعد كل السعادة وأنا أخترق تلك الحقول المترامية والحدائق وخاصة حدائق الليمون حتى أصل إلى البيت وأقصد بيت حسين فأجلس إليه ساعة أو بضع ساعة نتحادث ويقول كلانا أخباره ومتاعبه للآخر وثم أعود بدراجتى إلى بلدتى قبل أن يأتى المساء وذات مرة وأنا قادم بلدتى يبدو أننى نمت نوماً عميقاً وأنا أقود الدراجة وكان هذا من عادتى أننى أشرد وأنظر إلى الحدائق وإلى ما يعدبنى من خضرة متسعة جميلة فيشرد خيالى وتنطلق نفسى إلى أفاق متسعة وتأخذنى سنة من النوم وعندما أفقت واكتشفت أننى قد سرت فى طريق آخر غير ذلك الطريق الذى تعودت أن أسير فيه بالدراجة فقد كنت أحد المتمرسين فى ركوب الدراجات وفى سباقها أيضاً ، وكنت متعوداً على أن أقطع مسافة المائة كيلو أو المائة كيلو وعشرين فى الطريق الزراعى دون كلل أو ملل ودون شعور أيضاً بالتعب والإرهاق فقد كنت أحب هذه الرياضة حباً شديداً شجعنى أيضاً والدى عليها وكانت لدينا دراجتان تخصان أبى كان دوماً يقول لى : كيف ركب أول مرة وكيف علمه جده وكيف كانت يسعد بركوب تلك الدراجات وخاصة فى بور سعيد وعندما كنت صغيرا لم أتعلمها ولهذا عندما كبرت إلى حد ما قال لى أبى لماذا لا تركب الدراجة ، وأركبنى عليها ثم قال إياك والسقوط وأن سقت لن تصبح فى نظرى رجلاً أبداً ثم دفعنى بشدة ومن كثرة خوفى ألا أصبح رجلاً ظللت راكباً الدراجة وأنا محتفظ بتوازنى وكانت مسافة طويلة وعندما أرت العودة تركتها وهربت إلى الأرض بعيداً عن نظر أبى فلم يشاهدنى وأنا أسقط ، وعندما جئت إله ممسكاً بها قال كيف سقطت ؟ قلت له تركت نفسى لأسقط لأننى لم أستطع الهبوط من هذا العلو الشاهق للدرجة الكبيرة وأنا صبى صغير فاخذ يدربنى كيف أقف ثم كيف أستدير كل هذا فى ساعة من زمن ثم طلب منى أن افعل كما علمنى ففعلت فإذا بى أنجح لهذا أحببت الدراجة حبى لأبى أو أحببت أبى لأنه علمنى ركوب الدراجات يبدو أن كل شئ فى حياتى كان له ارتباط بأبى بطريقة ما فأنا لم أسر أبدا حافى القدمين إلا عندما تضطرنى بعض الظروف فى المنزل فأسير خطوه واحدة اشعر بان جسدى كله يرتعش ولان أبى حاول دائما أن يجعلنى ألبس الحذاء ، فكان يصنع لى أحذية جميلة ويطلب من صانع الأحذية بان يصنع لى أحذية ذات ثقوب فى الصيف تسمى (الصنادل) وذات أشرطة وكان المدرسون فى مدرستى يتعجبون لها ويدهشون وكانوا يتمنون أن يحصلوا على واحدة منها ، هكذا علمنى أبى كيف أرتدى ملابسى وكيف تكون زاهية

الألوان أو متسقة الألوان وكيف أفرق بين لبس العصر ولبس الليل ولبس الصبح ، أو لبس الصيف ولبس الشتاء وهكذا كيف أرتدى ملابسى بشكل لائق أنيق وكان يبذل فى ذلك ومن أجله المال دون تأفف ومن عادة أبى إنه كان يأخذنى وأنا طفل إلى البندر ونذهب إلى المخازن التى يتعامل معها فيجلس إلى التجار ساعة ينهى فيها أعماله وكان سريع البت فلا تأخذ منه الصفقة سوى دقيقة أو دقيقتين بالأكثر فيتم صفقاته على عجل وتشعر إنه راضى كل الرضا ورضا أبى هذا نابع من إنه يقول دوما الرزق عند الله فلا يأخذ الإنسان أكثر من رزقه ولكن عليه السعى ، فنمر على عده مخازن يعقد صفقاته بيعا أو شراء وتتم الصفقات دون كتابة عقود أو دفع نقود وهى تتم بين أبى وصديقه التاجر ويتفق على السعر ، يتواعدا على الدفع والتسليم وتنتهى بعد أن يشرب أبى فنجانا من القهوة يسمى (فنجان بيشا) أى إنه يأخذه على رشفتين ، ويضعون أمامى كوبا من الليمون فلا أقربها لأنه كان يحذرنى من شراب المقاهى وكان يحرص دائما كل الحرص ألا أشرب شيئا لدى التجار ، وعندما سألته فلماذا يشرب القهوة فيقول إنها مغلية وقد خرجت تواً من النار ، بعد هذا يأخذنى إلى أحد محلات السمك لنأكل سويا ونضحك ويحكى لى القصص والحكايات وأنا جالس أمامه آكل فى سعادة ثم يمضى بى إلى الشوارع نتفرج وكأننا ليس لدينا عمل نؤديه ، ونسير وهو يعلق بنكاته ، وسخريته اللاذعة على كل شئ نراه ثم نشترى بعض الأشياء الصغيرة لأمى ولأخوتى ثم نعود فنركب السيارة الأجرة الخاصة بنا فهو دائما ما كان يحذرنى من ركوب السيارات الأجرة التى يكتظ بها الركاب بالعشرات لكى يدفعوا أجرا زهيداً ، بل تستقل سيارة خاصة ويدفع للرجل ما يريد ونعود سعيدان ، ليس أب حاسم يخافه الناس وابنه الصغير ، هذا تقريبا كل أسبوع وعندما كبرت قليلا كان يأخذنى إلى القاهرة فندور فى شوارعها ويتفق مع زملائه التجار على ما يريده من بضائع ، وذهبنا ذات مره إلى المدبح لا ادرى ما كنت تلك الصفقة التى تحتاج منا إلى وجودنا فى المدبح ، دخلت المدبح أول مره فى زينتهم ورأيت الجزارين وقد تلطخت ملابسهم بالدماء ورأيت الجاموس والبقر وقد انساقت إلى الذبح ورأيت حيوانات مذعورة وقهقهات .. الجزارين وصياحهم وصراخهم وأنا أسير بجوار أبى وفى ذلك اليوم جلسنا إلى أحد التجار الذى أتى بطعام كثير وخاصة من السمك وأرغفة ساخنة وأشياء أخرى كثيرة وأجتمع تجار كثيرون يحتفلون بأبى وهو يضحك ويروى النكت ويروى الحكايات البسيطة وكأنها حكايات غزوات نابليون أو فتوحات الإسكندر يسمعها زملاؤه التجار فى اشتياق وهم يرتشفون الشاى أو يلتهمون قطع السمك والكباب والكفتة ذهبت معه ذات مرة ، مع مجموعة من التجار إلى العتبة الخضراء وفى هذه المرة ، كنت صبيا صغيرا يمسكنى من يدى حتى ألا أتوه ويتحدث مع زملائه التجار فى أمور كنت أحيانا يصعب على فهمها رغم إنه أحيانا يستشهد بى فأقول نعم يا أبى وكنت دائما أشهد إنه لم يقل إلا الصدق فقد عودنى أبى إنه لا

يكذب أبدا مهما كانت الظروف وهو أيضا تاجر صادق وكريم النفس عفيف اللسان فى تعامله صادق الوعد لم أره أبدا وعد تاجرا فأخلف وعده أو حاول أن يأخذ الدين من مدين بقسوة ذو بغلظة ، وقد رأيت أخى الأصغر ذات مرة وهو ينصح أبى بأن يكتب تلك الديون فى دفتر ولكن أبى يقول يا ولدى المدين لا ينسى دينه أبدا هذه تجارة وليست دينا أنا أعطيته بضاعة تصور إنها ضاعت أو فقدت كم جوال من أجولة الأرز فقدتها عندما سقطت العربة فى النهر أو كم طنا من الفول آكله الفئران أو العصافير كل تلك البضائع التى أخذها هذا التاجر الصغير ذهبت هكذا أكلته الفئران أو أكلته العصافير فإذا جاء بدينه هذا فضل وعدل أما إذا لم يأتى به فسامحه ، والرضا عند أبى فلسفة وعلم وإيمان فهو يقول أن الرضا هو الإيمان بالله والتقوى عنده أن لا يفعل الإنسان المحاذير أو يتقيها أن يبتعد عنها فلا تذهب إلى خمارة وتقول أنا أبحث عن ولدى والتقوى عنده هكذا أن تتسابق إلى المسجد وأن تلملم ثوبك حتى تتقى شر الطريق وألا تتكلم فى أعراض الناس بأن تبتعد أساسا عن الحديث حول أسرارك أنت فلا تتيح لآخر أن يحكى لك أسراره ويطلع هو على أسرارك وتصبح الأسرار ليست بأسرار إنما مجرد أخبار تروى ويقول لك : أن الرضا يرتكز على التقوى وفقا لفلسفة أبى وأقول فلسفة أبى لأنى جلست إليه وعاشرته سنوات طوال كنا أحيانا نقضى معنا أكثر من عشرين ساعة فى اليوم دون أن نفترق فى أيام مواسم العمل المضنية كنا نتزامل ونجلس معا ونعمل معا ونتشاور فى كل أمورنا كنت أنسى الزمن من كثرة العمل ، وفلسفة الرضا عنده أن تكون حريصا على أن تفى بوعدك قدر استطاعتك أما كيف تفى بوعدك وهل تقدر أم لا تقدر فهذا متروك لله سبحانه وتعالى بما إنك قررت الوفاء بالوعد وعندما وعدت فالله سوف يعينك طالما أن نيتك الصادقة الحقيقية للوفاء بالوعد عندما وعدت وعدك هذا يرجع إلى قلبك ، أبى يقول أن الله داخل قلبك وليس خارجه الله فى داخلك أنت تحمل الله فى قلبك فتتقيه وأنت مدرك إنه بداخلك وليس بخارجك فيكون الإيمان صادقا وركائز الرضا الثلاث موجودة لديك فلا تخلف إذا وعدت الوعد فإن ما داخلك إذا كان صادقا بالفعل يتحقق وعدك بسهوله مع الرضا أى بسهولة ويسر هكذا كانت نظرة أبى إلى الدنيا هى ملك لله يصرفها كما يشاء ولهذا كان دوما يضحك ويبتسم ويتفاءل رغم إنه يبدو من الخارج وفقا لما أراه عيون الآخرين من أقاربى ومن أصدقائى رجلا ثائرا دائما غضوبا وأخوتى يتحدثون عنه بأن غضبه شديد وبأسه أشد وضربه أيضا وعتابه عنيف ولكن رأيته وأنا أتنزه معه فى القاهرة ننطلق كأصدقاء يحدثنى عن نفسه وأحيانا كثيرة يجلس فيقرأ القرآن ويتباهى بأنه حفظ القران فى سن مبكرة ودائما يشعرنى أنى مقصر فى حق نفسى لأننى لم أحفظ القرآن كما حفظه هو بل تلهيت أنا بقراءات متعددة فلم أحفظ القرآن كله وهذا ما يشعرنى حتى الان بأننى مذنب وصلتى بأبى أنه كان دائما يصدقنى فى أى شئ أقوله ولا يقبل عنى كلمة نابية فإذ أخبره واشى من الوشاة بأمر ما فإنه يقابله بأزدراء

شديد ، أحيانا يكون الخبر الخاص بى والذى قدم إليه من هذا الواشى صحيحا ، وأبكـى لأنـه لا يريد أن يصدق أننى فعلت ما قالوه وأعترف به ، عندما أقدمت على الزواج لأول مرة كان هو غير راض عن تلك الزيجة وظل يناقشنى فى هذا الأمر مرات عديدة حتـى إننـى شـعرت أننـى سـوف أخالفه مخالفه قويه وأفقد صداقته التى حاولت أن أحتفظ بـها طـوال عمـرى فلما اختلفنـا حـول رغبتى فى الزواج من زوجتى الأولى راح يأخذنى إلى السينما فنجلس لنشاهد الفيلم ولكننا كنا فى ذات الوقت يفكر كلانا فى طريقه لنسوى هذا الخلاف ونخـرج مـن السـينما لنجلـس فـى الهـواء الطلق هو يحدثنى عن وجهة نظره ولماذا هو غير راض وأنا أتشبث برأيى وكنت فـى ذلـك الوقـت صغير السن غير مدرك لكثير من أمور الحياة وهو بالطبع يدرك أمورا فى الحيـاة لم أكـن أدركـها أنا ، فيحاول أن يراجعنى فلا أتراجع أبدا عندما شعر أننا على وشـك الخصـام ، قـال نذهـب إلى أسرة زوجتك وذهبنا وجلس إلى أمها وكانت ذات شخصيه وجديرة بالإحترام مات عنها زوجـها وأولادها صغار وأصبحت هى الأم والأب وحملت هذا الحمل عن جدارة واستطاعت أن تعـبر بـهم سلم الحيـاة إلى أن حصلـوا علـى درجـات علميـه تؤهلـهم للوظـائف العاليـة بحزمـها ومهارتـها وتدبيرها وحسن إدراكها للأمور فلما جلس إليها وقدمت إليه فنجان القهوة الذى أحبه كثـيرا إذ به يخطب لى العروس من أمها وتصادقا صداقة جميلـة وظلـت قويـه إلى أن توفيـت إلى رحمـة الله وظل يتحدث عن حسن إدراكها للأمور ، وأحب أولادها جميعا أما صداقتنـا أنـا وأبـى فقـد ظلـت دوما قويه وأتودد إليه كرفيق من رفقاء العمر الذين علمونى ووقفوا بجوارى ولم يتخل عنـى أبـدا عندما أصبت بالعمى فى عامى الأول بالجامعة ظل بجوارى يبذل من الجـهد والمـال ومـن صحتـه ومن وقته ما كاد ينسيه أهله وماله وتجارته كان يبكى بكاء مرا لأننى فقدت البصر ويشعر حتـى اللحظة التى أدون فيها رواياتى هذه لأنه مقصر فى حقى لأنه أجهدنى كثيراً وأنا طفل بالاشتغال معه وأنفق فى سبيل إعادة بصرى المال الكثـير والحمـد لله اسـتطاع الأطبـاء بعـون الله أن يرجعـوا بصرى وذهب واشترى لى نظاره من الذهب لأنه كان قد وعد بهذا عندما اخبره الطبيـب أول مـرة أنه سوف يعالجنى وسوف ينجح بإذن الله ، الحديث عن أبـى يطـول ويتشـعب ، أتذكـره عندمـا أذهب للحج وأقول أبى كان يقف هنا وكان يجلس هنا لأنه قص على قصة حجه بكل تفاصيلها بل كان يصف لى أماكن جلوسه وأماكن وقوفه وأماكن نومه ولـما ذهبـت كـان قـد تغـير الحـال وأصبـح المسجد غير المسجد وأصبحت الأماكن غير الأماكن لقد ذهبـت إلى الكعبـة لأول مـرة فـى منتصـف السبعينات وقد رأيته منذ سبعة أشـهر فقـط مـن الآن أى أن بـين رحلتـى الأولى والأخـيرة والتـى أتمنى ألا تكون الأخيرة ، ما يزيد عن عشرين عاماً . .

علمت أن صديقى الدكتور بانديا سوف يغيب عن المستشفى ، أحضرنا له هدية أخذها فى فرح شديد ، سقطت دمعتان من عينيه ، شعرت إنه يفارقنى غير راغب فى المفارقة ، شجعنى على أن

أسجل خواطرى وإن أعاود نشر موضوعاتى فى الجريدة تشجعنى على أن أمارس حياتى الرقاد الطويل ، والألم الذى لا يطاق ، دفع إلى عقلى الأمل فى الشفاء والعودة ، حرر الإنسان داخلى خاطب روحى ولم يقصر فى علاج جسدى ، هناك الكثير من الحكايات والتفاصيل ربما كانت هناك من الحكايات ما هو أهم من التى رويتها ولكن ذاكرتى الآن لم تعد قوية كما كانت ولأنى أحكى حكايات مباشرة لا أبذل فيها جهداً ، ولا أحاول أن أطبخها بعطر الأدب كما أفعل فى رواياتى من قبل ، هذه روايات مختلفة لا أقصد منها سرد ذاكرياتى ولكننى أسرد فيها ما يعن لى الآن وأنا راقد على فراش المرض أمسك بجهاز التسجيل الصغير فى كف يدى ، وأحاول اتذكر ينابيع الحزن والمسرة ، فقد كان أبى ينبوعا من ينابيع الأمل والمسرة والرضا خالى إبراهيم فى طفولتى كنت أعتقد أن لى أبوين ، أسمهما إبراهيم فأبى أسمه إبراهيم ، وخالى أيضا اسمه إبراهيم ، ولحرص خالى على تربيتى وفقا لوجهة نظره ووجوده المستمر بجوارى فى كل منعطفات حياتى السعيدة والحزينة .

سواء فى حالات المرض أو الفرح ، كان خالى موجوداً باستمرار بجوار أبى وهما الاثنان يقرران معاً ماذا يفعلان لى ، كنت أذهب إلى خالى وأقول له يا أبى وأقول له يا أبى هذا إبراهيم وذاك إبراهيم ، هذا يعاملنى معاملة ود ولطف وهذا يعاملنى مثلها وأفضل أيضاً ، يتنافسان على رضاى ، ويتنافسان على تدليلى ويتنافسان على تلبية كل رغباتى مهما كانت رغباتى هذه وكان من الممكن أن أكون ولداً فاسداً وطفلاً مدللاً وشاباً ميؤساً من حالة لأن كل شئ كان متيسر لى ، المال وموافقة الخال والوالد على كل طلباتى ولكن الله أراد أن أكون هذا الطفل المتزن الذى لا يلهو بلعبه والذى تكون فرحته فى أن يحتضن أعواد البرسيم أو يذهب إلى الحقل ليرى كيف يعمل الفلاحون وفى نفس الوقت يشتغل مع أبيه كرجل يفهم معنى التجارة ومعنى العرق والتعب ، كنت هذا الطفل الذى لا يلهو ، الطفل الذى وضع فى حسبانه منذ كان صغيراً أن يكون روائيا ، فحاول أن يصل إلى هذه الدرجة ، فلا يلهو مثل بقية الأطفال فى لعبة ولا يشترك معهم فى شجار أو نفار حتى أن رياضتى كانت رياضات فرديه تأخذ الهدوء والتأمل والتعقل ، وخالى من الشخصيات القليلة النادرة التى لا تغضب فهو دائماً يبتسم ونطلق عليه حكيم الأسرة وحاكمها ، فإذا كانوا فى ضيق أو فى أزمة وتعرضوا لأمر ما فإن حكيم الأسرة وعاقلها هو خالى إبراهيم هو من يقول القول الفصل ، دائماً يبتسم إذا تحدثت إليه فى أمر وعقلك يطير شرراً وترى الدنيا وكأنها قد أسودت فى عينيك ، يضيق بك المكان ويضيق بك الدنيا ، تذهب إليه فإذا بالدنيا قد اتسعت وإذا بالضيق فرجاً وإذا بالحزن يذهب والفرح والأمل يأتيان إليك فتستريح فتنظر إلى وجهة تجده مبتسماً دائماً ، لم ألمح على خالى إبراهيم لمحة يأس أو إحباط أو إحساس بالذنب أو بالغضب ، كان دوماً يبتسم يأخذنى فى قص رواية شعبيه ، رواية من روايات الحكماء فى القرية ، ويبدو

أن أهل البندر يتصورون دائما أن أهل القرى سذج وعبط ومن السهل أن تضحك عليهم الحكومة ولكن الحقيقة أنهم هم أمكر كثيراً من أن تضحك عليهم الحكومة كانوا هم دوماً الذين يضحكون على الحكومة ويمكرون بها ، ولديهم من الوسائل ما يستطيعون تنفيذ أمورهم الخاصة بحياتهم وكأن الحكومة هذه فى واد وهم فى واد آخر ، لأنهم لم يعودوا يؤمنون أن السلطة الحاكمة تعمل فى صالحهم ، ويبدو أن هذا من طول الإستعمار وطول الإستبداد وطول تكبر من قبل الحكومة المركزية وبالتالى ممثليها فى القرى والبنادر الصغيرة ، كان خالى مثالاً لهذا الفلاح الذكى الفطن وهو يجمع أيضاً بالإضافة لأنه فلاح ذكى فطن ، مؤمن أشد الإيمان يجمع بين هذا ودرجة ما من التعليم حصل عليها من الأزهر الشريف وكان لديه من العلم الذى أعانه على أن يشكل عقله ويتدبر أمر نفسه وأمر أسرته مهما كان العدد ، مجاملاً إلى أبعد الحدود ، فلا يوجد مأتم إلا وذهب إليه مواسياً ولا فرح إلا وذهب إليه مباركاً ولا توجد جلسة من جلسات المصالحة إلا وكان رأسها ، تجده دائماً فى ترحال دائم يزور فلاناً فى القاهرة لأنه سمع أنه مريض ويأخذه إلى الطبيب ويزور فلاناً فى أقاصى الدلتا لأنه سمع أنه له ولداً سوف يتزوج ويجامل هذا فى منطقة ثم بعد ساعة تجده فى منطقة أخرى كل هذا وهو حريص على أن يزور أفراد أسرته فى بيوتهم فرداً فرداً وأن يسلم عليهم ويعرف أخبارهم ويشترك فى حل مشاكلهم بل ويقضى حاجتهم إذا ما كانوا فى حاجة إلى معاونة فلا فرح يحدث فى الأسرة إلا وهو قائد هذا الفرح ...

(توقف عن التسجيل)

انتابتنى أمس نوبات من الألم الحادة فى معدتى وإحساس بالحمى غريب أخذنى طول اليوم فى دوامه من الألم لا أدرى كيف بدأت ولكننى أعلم كيف انتهيت ، يبدو أن ذاكرتى بدأت تعانى ضعفاً شديداً فلم أعد أدرى ما هو الماضى وما هو الحاضر ، كان أبى عندما تؤلمنى أسنانى ، يحضر لى شخصاً يدعى أنه طبيب ، ويقوم هذا الشخص بخلع ضرسى بطريقته بدائية غريبة ، وقتها يظل فمى ينزف طوال النهار وبعضاً من ليل مع ألم حاد فى فمى ، أبكى وأنا راقد على الفراش ، هل أنا الآن بين يدى ذلك الطبيب المتجول فى الأسواق يقوم بخلع ضرسه أم أنا ذلك الرجل العجوز الراقد فى مستشفيات لندن بسبب خطأ طبيب الجامعة ؟ من هو الرجل ، الطبيب الذى أجرى لى الجراحة أم الطبيب الذى قام بخلع الأسنان ؟ لابد أن إحداهما دجالاً ، أو كلاهما أو لابد أنهما يتصفان بصفة واحدة إلى ابن يقودنى هذا الطريق ؟ بانديا يقول : لا تكلف نفسك مشقة التفكير فى الماضى يجب أن تحارب يجب أن تكون مقاتلاً ، نعم يا بانديا حاولت أن أكون مقاتلاً ، ماذا أفعل سوى ذلك ؟

ليس أمامى من طريق سوى أن أكون مناضلاً ومكافحاً ، أكافح من ؟ هذا هو السؤال ، أكافح من يا باندیا ؟ یا ابن قرية بعيده فى الهند ، يا من تضحك معى دائماً وتبتسم فى وجهى ، وتقول لى الكلمات الطيبة التى على لسان طبيب ماهر مثلك ماذا أفعل ؟ هل أبكى لأتخلص من تلك العقدة ؟ التى تلازمنى الآن ، لم أعد أفكر ، الآن أنا ابن الرابعة أم ابن الرابعة والأربعين ؟ أنـا فعـلا ابـن الأربعة والأربعين لأننـى بـالفعل لا أدرى مـاذا أقـول ؟ لقـد قلـت كـل شئ عـن أسـرتى وكـأننى أفضحهم وكأننى كنت أتخلص من حمل ما كنت أحمله ، لا أدرى ماذا سيقوم عنـى القـراء ؟ هـل قلت ما لا يجب قوله ؟ أن الناس من حـولى يتكلمـون عـن جمـع المـال وكأنـه أصـبح الصنـم الـذى يعبدون ، قلت صادقنى من بعض المصريين من أهل المـهجر يتسـمون بشراسـة غريبـة ، يقدمـون عليك هاشين باشين بأيديهم الهدايا ، لم يعرفوك من قبل سمعوا أنك مريض فجاءوا إليك هذا فى حد ذاته حسن مرحباً بكم يا أهلى يا جيرانى يا وطنى يا مصر ، أهلاً ،

(توقفت عن التسجيل)

❁❁❁❁❁❁❁

الفصل السابع

مصر ، مصر أم الدنيا ، لكن الذين يقيمون في لندن ليم رأي آخر ، فأغلبهم عندما تجلس إليه يقولون عن مصر أشياء كريهة جداً ، المواصلات زحمة والأسعار نار والحياة لا تطاق والجو ملوث والماء ملوث تظل تقاوم هذا الاتجاه ولكنك لن تفلح أبدا ، جاءوا إلى هنا منذ أكثر من عشرين عاما وأقاموا حياتهم واشتروا بيوتهم .. وأطفالهم يدخلون المدارس ويتخرجون ثم منهم من يجد عملاً ومنهم من لا يجد عملا ، يتبادلون شرائط القرآن ، ويذهبون لصلاة الجمعة ولكن الإيمان استغفر الله قبل أن أقول هذا الحديث لم يصل بعد إلى قلوبهم ، لأنهم يتحدثون عن المال ، بكم هذا ولماذا أنفقت وهكذا ودائما يتفرقون ، ويتشيعون فرقا ، والكل يشكو من جفاء الآخر ، لا يذهب إلى زيارته حتى إذا مرض ، حتى إذا توفى أحد أقاربه ، ومع هذا يشكو من الوحدة ويشكو أن أحدا لم يزره ولم يسأل عنه ، فى محنته فلماذا لم يذهب هو ؟ يقول لك أن بقية الشعوب تتضافر ، الجاليات الأخرى تشكل الأندية تترابط فيما بينها ، أما نحن فلا .. الذين يزورنى ولا بأس فأنت مريض وأنت تعانى من الوحدة والألم وكل أصناف التعذيب البشرى والجسدى ومع هذا تسمع هذا الحديث ، ها هو الريان قد ضحك على الحكومة وعلى الشعب وضحك علينا وكأن الريان هذا بدعه من البدع ، وأنا هنا فى المستشفى منذ زمن سمعت فى نشرات الأنباء عدة آلاف من قصص الريان هذه ، فى أمريكا مثلاً سمعت أمس عن بنك ضخم جداً أشهر إفلاسه بسبب أنه فقد فى يوم واحد عشرة ملايين من الدولارات بسبب أحد الموظفين ، والديمقراطية والذين يتشدقون بحرية الكلام فى هايد بارك ، هنا فى هذه المنطقة التى توجد بها المستشفى ، تسببت إحدى الشركات العقارات فى أزمة سكنيه حادة وفى انخفاض حاد فى أسعار العقارات ، حتى أن الكثير فقدوا أموالهم فى تلك المضاربة المجنونة التى كان سببها أحد الأفراد الذين فعلوا ما فعل الريان فى مصر وكأن ما يحدث فى مصر بدعة بالنسبة للمهجرين هنا ، الذين جاءوا فرارا من شئ ما ، وأقاموا هنا حياة ناجحة من يملك مطعما كبيرا من يعمل فى منصب مرموق ومع هذا يضنون علينا بكلمات رقيقه عن بلادنا وكأن النيل لم يجر فى عروقهم وكأن الطين لم يعرف يوما ما لامس جلدهم ويتحدثون بإنجليزية ركيكة ولكنهم يتخاطبون مع غيرهم وكأنهم قد نسوا العربية وفى يوم الجمعة تجدهم جماعات ووحدانا يتجهون إلى المساجد ويتبادلون شرائط من كل صنف ولون وشكل ، هذا الشيخ (رشدى) وهذا الشيخ (جابرى) وهذا الشيخ (النجعاوى) وهذا الشيخ (الجعفرى) ويتحمسون لهم وكأنهم قد وصلوا إلى حد الصوفية ،

عندما تسألهم سؤالا حقيقيا تجد الرد الجاهل وكأنهم ما سمعوا فى مسجلاتهما الإجابة الصحيحة ، مجرد سماع أو مجرد تباهى بأن لديه شرائط الشيخ فلان أو لدية دروس الشيخ فلان ، فى بداية آمرى انكبوا علىّ فى حماس ، مصرى مريض يجب أن يلتفوا حوله ولكن عندما أزداد مرضى وطالت مدته بدءوا ينصرفون كل منهم لا يسأل ، كان فى بداية الأمر متحمسا غاية التحمس ، ماذا تريد وأنا أصنع لك الطعام نحن نضع لك الدنيا كلها بين يديك فى الزيارة الأولى ، والزيارة الثانية تأتى بعيده ، يقولون لك الدنيا مشاغل ، هنا لابد أن تعمل وهنا لابد أن تكسب نحن فى الغربة ولابد للغربة من ثمن يجب أن توفر النقود ، أنت لا تعرف الأيام تنظر إلى هذا الشخص الذى يتكلم تجده فى الستين وأن لديه من المال الكثير ويعترف لك بوفره ماله وفى نفس الوقت وفى نفس الدقيقة يعترف أنه فقير جدا وأنه يحتاج إلى العمل ، تسأل هل تملك بيتا ؟ يقول لك نعم وفى أفخم مكان فى لندن ، أنه يساوى مليونا من الجنيهات الإنجليزية تقول لماذا تعود إلى بلدك وموطنك وتقيم مشروعا صغيرا ينتفع به بعض الشباب ؟!

(توقف عن التسجيل)

وجريت نحو خالى ، جريت إليه كم كان عمرى فى ذلك الوقت ؟ الرابعة أم الخامسة عشرة أم الأربعين ؟ رجلا كامل الرجولة ، قالوا أن أبى خص أخى الصغير بقطعة أرض ، ثار أخوتى دون أن يعلنوا هذه الثورة أمامه ، وجاءونى ، تصوروا أننى سوف أواجه أبى ، كنت بعيدا عن هذا المضمون التراثى والاجتماعى والوراثى لهذه القضية فلم أكن أتصور مطلقا أبى سوف يموت وأننى سوف أرث عنه مالا أو عقارا أو أرضا ، لم أتعود التفكير بهذه الطريقة وقد حاولت ما استطعت أن أشكل نفسى بنفسى وأن أبنى نفسى بنفسى ولا أكون محتاجاً فى يوم من الأيام إلى أحد الآن يدفعونى لكى أتحدث مع أبى صراحة حول إجلاء هذه الإشاعة ما إذا كانت حقا أو مجرد أقاويل للناس وذهبت إلى بلدتى وجلست إلى مائدة طعام تضم أفراد الأسرة ولم يكن بيننا ضيف حتى نحتفى به كعادتنا فى الريف ، نعد الوليمة ونزيد فى الطعام ونسرف فى ذلك إسرافا شديدا يصل إلى درجة التبذير والعياذ بالله جلسنا نضحك ونأكل ما نشاء من الأكل وأبى يجلس وسطنا ، يعطى هذا ويناول ذاك كعادته دائما إنه يأخذ قطعة اللحم يقضمها أولا ويتلذذ بها ثم يناولها لولدا من أولاده أو بنتا من بناته ولا يقدر أحد من أولاده أن يقول لا بل يأخذها بسعادة ورضا ويأكلها ، أما أنا فقد كنت دوما أجلس بجانبه فإذا به يعطينى اللحم ويقول كل وأخذ اللحم وأضعه فى الطبق لأننى لا أشتهى اللحم كثيرا ، وبالطبع أخص أخى الذى يجلس بجوارى ، وأعطيه طبقى لكى يأكل هو ما شاء وعندما أنتهى الطعام فإذا بأبى يواجه أخوتى بقدر كبير من القسوة ويوبخ كل منهم على حده ، ويكشف بعض أسراره بحيث لا يستطيع أخى الرد عليه فلما

أندهش عندما بوذا الذى قاله صدقوا جميعه ولم يقل أحد منهم ما كان يقوله لى قول أن أذهب إلى هنا ، فقال يا أبى أنا أعلم إنك رجل ذكى وأن أولادك يرثون منك هذه الدرجة العالية من الذكاء والفطنة فلا تلومهم إذا كانوا أذكياء وحاولوا استغلال ذكائهم فى تجارتهم وفى أعمالهم فلا توبخهم هكذا فان هذا الشبل من ذاك الأسد ، فإذا به يفطن إلى ما أنوى قوله فأراد أن يجعلنى أنا أيضا فى قفص الاتهام ولكن بشكل مغاير ، فيقول لى اسكت أنت فأنا حزين من أجلك أنا لست أخاف على أحد منهم بقدر خوفى عليك فأنت الفاشل الوحيد بينهم .. وكانت صدمه لى أن يقال عنى هذا بين أخوتى وأسرتى وبين الذين أحببتهم حبا ملك على حياتى كلها وسرت على دربه وأخذت كل كلماته على أنها لا تقبل المناقشة فكيف يقول لى هذا بعد ما فعلت ، تصورت أننى قد وصلت إلى ما يمكن أن يصل إليه طالب علم فقط ، فقد نلت أعلى شهادة فى سلم العلم وأصبحت أبحاثى تدرس فى الجامعات العربية والأوروبية وأيضا بلغت فى عالم الأدب مبلغا معقولا كما بلغت فى الصحافة درجة عالية ونجحت فى تكوين أسرة وفى تكوين بيت ولم أحاول أن أمد يدى لأحد وهذا من فضل الله ونعمته ، فأصبت بدهشة والدهشة انقلبت عندى إلى لون من ألوان الغضب وخشت أن أثور فى وجهه أو أقول كلمة نابية تخرج منى فأحرج مشاعره فقمت مسرعا وقد تملكنى حزنا شديد واندفعت بسيارتى من منزلنا وسط القرية إلى منزل خالى على أطراف القرية وكنت أقود السيارة بسرعة رهيبة حتى بلغت حضن خالى وارتميت عليه وأنا ابكى ، إحتضننى أبى الثانى خالى إبراهيم وصعد بى إلى حجرتى التى خصصها لى فى منزله وأرقدنى على السرير وذهب لإحضار الطبيب الذى جاء وكتب لى الدواء مهدئا ، فنمت ساعة أو بضع ساعة وعندما صحوت وجدت أبى جالسا عند رأسى وخالى يجلس فى الناحية المقابلة عندما استيقظت تلفت حولى وجدتهما ، اعتدلت فبادرنى خالى بأنه قد اعد لى شايا جميلا كنت قد تعودت أن أشربه من يده أصحو من النوم فإذا به قد وقف على رأسى ومعه كوب الشاى فى أى وقت ، أحيانا كنت أصحو فى الثانية صباحا فأجد كوب الشاى فى يدى خالى أو أبى الثانى يقف عند رأسى ويناولنى الشاى وكأننى أتوقع دوما هذا الفعل من خالى وابتسامة شفافة على وجهه أضاءه لطيفه محببة أشعر بالأمل وبالحياة وأرتشف الشاى سعيدا وأقول له حيه يا خال ماذا وراءك ، فيحدثنى حديثا طيبا به الكثير من الآيات القرآنية وأحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكلها آمل وبشرى وتفاؤل ، أفيق من النوم وأعتدل لأجد مائدة عليها طعام وفير من أطعمه القرية الجميلة أكل ما شاء لى الأكل ثم نهبط معا إلى الدور الأول فنجلس فى المندرة نتحدث وأحكى له عن كل شئ يحدث لى حتى أننى كنت أحيانا أحكى له الأشياء التافهة مثل ماذا أكلت فى الأسبوع الماضى ماذا قالت لى ابنتى ماذا قلت لها ؟ ، كيف ضحكت ، وكيف ضحكت ، أشياء عادية بالمرة ولكنى كنت أحب أن أحكيها لخالى ، وكان هو يسألنى إذا ما لم أخبره بهذه الأشياء العادية فإنه يجب

سماعها ، هذه المرة قال لقد أعددت لك الشاى ، ولكنه غير ممسك بالكوب ونظرت إلى أبى فوجدته يبتسم ويقول لخالى يا خال لا أدرى لماذا هو غاضب منى فأنا لم أقل شيئا يغضبه ؟ تلفت حولى لقد قال أننى فاشل وأننى لم أنجح وأننى أضعت حياتى هباء ، لم أفعل شيئا ، هل هذا لا يغضب رجلا فى الأربعين وصل إلى بداية الشيخوخة ويقال له أنك فاشل ومن من ؟ من أبيه ؟ نظرت إلى أبى ضحك وضحكت وضحك خالى بصوت مسموع فتجمع أولاد خالى بسرعة وهم يضحكون ويأخذ كل منهم يقبل الآخر وكأن ضحكة أبى ثم ضحكة خالى ثم ضحكتى إيذانا ببداية سعيدة وكأن كابوسا قد زال وأحضروا الشاى وشرب الجميع وامتلأت الحجرة عن أخرها بأولاد أخوالى وهم يتصايحون ويتحدثون فى وقت واحد ، ذهبت إلى خالى فى الرابعة ، لا أذكر وكنت أبكى أيضاً ولا أدرى لماذا بكيت يومها وذهبت أليه فى الثامنة وشكوت له قسوة هذا الطبيب التجول الذى خلع سنتى وأيضا هذا الطبيب خلع لى مره ثانية وجريت إلى خالى حزيناً لأننى كنت قد كبرت إلى حد ما فلهى خلع ضرسى ، وظللت كل عام أشكو من ألام الأسنان حتى أن زوجة خالى كانت دائما تقول لن أزوجك ابنتى لأنك رجلا بلا أسنان ، كانت تكرر هذا القول حتى بعد أن تزوجت ابنتها من أحد أقربائى ، خالى منبع من منابع الحكمة ، دائما يتحدث عن نوعين من أمراض البشر ، القلق والغضب ، يقول عن القلق أنه مصدر المرض كله ، أن تقلق إذن فأنت مريض ، لأن القلق معناه عدم الثقة بالنفس ، وبدايته عدم القدرة على الإيمان المطلق داخل القلب فأنت مؤمن وقلبك قد أسلم قيادة بالإيمان وامتلأ بالله أو امتلأ بالإيمان بالله فلن يأتيك الغضب لا من يسار ولا من يمين ولا من فوق ولا من تحت ، فأنت بعيد فى جزيرة منعزلة عما يسمى بأعاصير الغضب ، أما إذا فقدت هذه القدرة الإيمانية المطلقة التى تملأ قلبك فأنت مصدر رئيسى لأعاصير القلق على نفسك أولا ثم على الآخرين ، والقلق عندما يأتى يهز جدار المخ ويصل إلى مصدر التفكير داخل المخ ، هذا قول خالى دائما سمعته منه عشرات المرات فالقلق .. يا ولدى هو مصدر المتاعب فلا تقلق كل مشكلة ولها حل ، وكل حزن مآله إلى زوال ، وكل آلم له علاج ، والأمر فى النهاية وفى البداية بيد الله ، فأنت لا تملك لنفسك شرا ولا خيرا ، إنما عليك بتقوى الله ، ثم العمل بما يجب أن تعمل ، العمل فى حد ذاته مصدرا للرزق وأيضا مصدرًا للإيمان فى قلبك من الممكن أن تتشدق بالأحاديث النبوية الشريفة وأن تتلو دوما القرآن وأن تحفظه وأن تذهب إلى المسجد ولكن أى بادرة تحدث لك فإذا بالقلق يعصف بك وإذا بالغضب يأتيك وإذ بالغلط يصدر منك .. والغلط يؤدى إلى عواقب وخيمة الغلط يا ولدى قطعة من هرم تجذبها أمامك فإذا بالهرم كله يتهاوى ويسقط ويصبح كومة من حجارة فوق رأسك منه تبدأ سلسلة من انفجارات متتالية والغضب يحدث من عدم القدرة الإيمانية التى تملأ القلب أما إذا ملأت القلب بالإيمان ثم وثقت فى نفسك ثم عملت فإنك فى هذا تحمى نفسك من الغضب ، من القلق والغضب هذه مقولة

خالى ظل يكررها أمامى مئات المرات وفى كل مرة أستعذبها ، ولكن لا أفعلها فأنا كثيرا ما أقلق وكثيرا ما أغضب وكثيرا ما أخطأ وأعترف بينى وبين نفسى إننى ثائر دائما أقع فى أخطاء كثيرة على الرغم من أنى أشعر بينى وبين نفسى أن إيمانى بالله لا يكاد يتزعزع ولكن ما حيلتى أنا مجرد إنسان له أخطاء كثيرة بل أحيانا كنت أجلس طوال الليل أبكى لأننى أخطأت فى العام الماضى ، أخطاء لا يمكن تصورها ولا يمكن أن تصدر عن إنسان وأشك فى أننى نصف مجنون بل إننى ثلاثة أرباع مجنون ، وإننى بالفعل فاقد العقل وفاقد الرشد وكلمة (لو) هذه أكرهها كرها شديدا لو ماذا ؟ لو لم أستمع إلى الطبيب الذى يعالجنى من عشرة أعوام الذى قال يجب إجراء عمليه وحدد لى اسم الطبيب واسم المستشفى وكل من كان حولى اعترض على إسم الطبيب لأنه كان من الطبيعى أن يجرى جراحة أخرى أو يصحح الجراحة الأولى ولكن قد تقرر هذا وكلمة (لو) هذه لا نستطيع قولها الآن ، لأن لو تعنى أنه كان قرار طبيبى صحيحا أو غير صحيح أو أن الجراح الذى سوف يجرى الجراحة على قدر كبير من المهارة أم لا وكان ما كان ولو كنت ولو كنت المهم إننى جئت إلى هنا وسقطت فى بئر المرض والألم والحزن وأنا الآن جالس على فراشى فى ليله مظلمة معزول فالجناح الذى أرقد فيه مهجور ، لا أحد هنا حتى الممرضات بعيدات كل البعد عن المنطقة التى أجلس فيها ، إنها فى مؤخرة المستشفى ، هذا هو المصير الذى انتهيت إليه واحمد الله عليه ، فقد أعطانى فرصه من عنده حتى أسترجع كل تلك الكلمات عن خالى وأهالى ومصادر ينابيع معرفتى وعلمى ، يتحدث خالى عن التسليح بالعلم فهو مؤمن تماما أن الشىء المورث المؤكد الذى يورثه الأب لأبنائه ، هو أن يعلمهم أن كل قرش ينفقه على تعليم أولاده أو كل جهد أو وقت يقدمه لأولاده لكى يتعلموا فهو أرث فمن الممكن أن يترك لهم مالا أو عقارا أو أرضا أو أشياء ثمينة وهم جهلاء فإذا بهذا المال يضيع هباء وكأنه لم يترك لهم شيئا ، إنما الذى يمكنه أن يفعله الأب لأولاده هو أن يورثهم العلم هذا هو المطلوب بدقة شديدة من وجهة نظر خالى ، لهذا نظرت إلى أبى وأنا حزين ، أنا فعلا لا املك دارا ولا عقارا ولا أرضا ولا مصنعا ولا أى شئ ، لا املك شيئا حتى راتبى الذى يمكن قطعه فى أى لحظه ، لا أملك شيئا أما أخواتى فلله الحمد يمتلكون ولهم ثراء معقول أو الستر كما يقولون فلماذا يغضب أبى وقد تسلحت بالعلم وأنا قادر على استخدام هذا العلم فى عمل يتاح لى واشتغلت بالفعل فى أكثر من عشرين عاماً مختلفاً ومتنوعاً ولدى فى ذلك خبرة طويلة وكنت أذهب من عمل إلى عمل مغاير تماماً وأعتقد أننى كنت أنجح .

نظرت إلى مدام (ثريا) التى زارتنى كثيراً وأنا على فراش المرض هى لا تريد العودة إلى القاهرة إلا بعد أن تطمئن إلى أن إقامتها فى القاهرة ستكون عيشة مريحة ، هل أضمن لها هذا ؟ سألتنى بإصرار وبعناد من أنا حتى أضمن لها ، أنا مهيض الجناح وصدرى مفتوح ، لا يريد أن

يلتئم ، سبحان الله ، أن الأطباء أنفسهم لا يضمنون للجرح أن يلتئم يبذلون من أجلـه الكثير من الجيد والوقت وأنا أبذل كثيراً من الألم ، نظرت إليها سمراء ذات شعر فاحم تبدو إلى حد ما رشيقة القوام رغم اقترابها من الخامسة والأربعين تعمل فى إحدى السفارات العربية لديها ولدان فى المرحلة الإعدادية ، قلت مات زوجك فى الغربة وأنت الآن تقيمين هنا فى بلد المهجر منذ اكثر من عشرين عاما تشكين من ألم الوحدة ، لم يكلف أحدا من أصدقاء زوجها كى يحضر كنا تقولين ذكرى الأربعين إلا ثلاثة من الأصدقاء حضروا بمحض الصدفة وبعد مضى عامين كاملين على هذا الحادث المؤسف بالنسبة لك لا أحد يأتى ولا أحد يريد أن يطمئن عليك فى التليفون ، لماذا تصرين على أن تقيمى فى لندن ؟ أنت تحصلين على أجر كبير وهذا حقك ، وتودين (خدوا بالكو من كلمة تودين دى) لأنهم جميعا يودون ، لم أقابل منذ مدة إقامتى هنا ، مهاجراً مصرياً لم يود العودة إلى الديار ، جميعهم يودون ولا يفعل أحدا ، جميعهم يودون فإذا قلت أنت تود أن اذهب ، عد إلى موطنك ألك أسرة هناك ؟ يقول نعم ، خالى فلان بيه وعمى فلان باشا ، وابنه عمى تعمل فى كذا ولى ابنه خال مذيعة كبيره مشهورة وابن خالى يعمل فى صحيفة ، وبعد تلك المناصب التى يشغلها أقاربك هل لديك مسكناً يا أخى هناك ؟ يقول لى نعم فقد اشتريت مسكناً جميلا منذ عشرة أعوام أنفقت عليه الكثير وأيضا شقة فى أحد المصايف أقول إذن تمد إذا كان هذه رغبتك الحقيقية تصور يا خال ماذا يقول ؟ يبدأ فى التراجع أنه يجب أن يفكر جيدا ، ما يحصل عليه الآن لن يحصل عليه وهناك والحياة هنا مريحة ، السيارة والشوارع جميلة والمعاملة راقية ولا شئ يشغل باله سوى عمله ويعود فيجلس فى بيته مستمتعا بكل أنواع الرفاهية فلماذا يذهب إلى وطنه ؟ إذا ذهب إلى وطنه فأنه سوف يشغل مخى بالأمور العامة والأحداث العامة مثل الزلازل والسيول وما حدث لآلاف الأسر ، هل يقف مكتوف الأيدى ويرى الشوارع قد امتلأت بالمطبات والهواء قد تلوث ، والقميص الذى يذهب به إلى عمله فإذا بهذا القميص بعد ساعة واحدة يتحول لونه إلى لون مخالف تماماً ، هل يقف فى طابور الخبز ليحصل على مجموعة من الأرغفة لأولاده ؟ هل يذهب إلى المدرسة الخاصة ليدفع نصف دخل ليتعلم الأولاد فى مدرسة يظن إنها متميزة ؟ هل يذهب ولده إلى مستشفى خاص ويدفع آلفين فى ليلة واحدة فى مقابل لا شئ يحصل عليه من خدمة طيبه ؟ يقولون هذا الكلام يا خال وللأسف يا خال معظم هذا الكلام حقيقى وصح ، فابتسم فيقولون أنظر إلى نفسك فى المرآة أنك تبتسم وهذا دليل على أن ما تقوله أمامك هو الحقيقة ؟ نعم يا أخى فالشوارع ملأى بالمطبات والهواء ملوث والذمم أصبحت خربه ، هل نحن فقط فى مصر الذين نملك الهواء المدهون بالدوكو ، فقط نحن البلد الوحيدة التى بها كل تلك العيوب ، يا ساتر هنا فى لندن ، ألم تقولون أننا نذهب إلى أسواق السمك فى الساعة الخامسة إلا ربع لكى نحصل على أنواع جيدة من السمك لأن تجار السمك فى

وقت معين سوف يغلقون فى اليوم التالى وبالتالى سوف يضطرون إلى بيع أسماكهم ، بأسعار تكاد تكون رمزية ، تصنعون هذا ويصنع تجار السمك هذا ، أهذه بدعة أم ماذا تسميها ؟ تذهب إلى المحل فتشترى بثلاثين جنيها ويباع فى سوق آخر بثمانية ، لماذا لم تقل لنا هذا ؟ لماذا لم تقل لنفسك أن الإيجارات ترتفع ، مضاعفة بشكل يثير غضب الناس ، فالبيت الذى إيجاره مائتين يصبح فى العام الذى يليه أربعة والضرائب وما أدراك ما الضرائب ، وكل الأشياء التى تنغص حياة البعض هنا فى إنجلترا بلد الديمقراطية والخزى والعار الذى ترتكبه أميرات الأسرة المالكة من فواحش الأفعال التى يبثها التليفزيون ليل نهار ، بحجة الديمقراطية ولأن المهاجر ليس موطناً فلا الملكة ولا رئيس الوزراء ولا قرار البرلمان يهمه أنه مواطن من الدرجة الثانية وبالتالى لا يهتم بالأحداث الجارية من حوله ، عليه فقط أن يعمل وأن يأكل جيداً وأن ينام جيداً ، هل هذه حياة ؟ أيها السادة أنكم كثيرون وتقولون أننا لا نعرف بعضنا البعض ، أننا نعيش فى جزر منعزلة كل منا يشكو من نفسه ولا نفعل شيئا فقط نعمل ونعمل ، ثم ماذا ؟ ماذا بعد جمع المال ؟ لا شئ وكأنك يا خال عندما تتحدث فى القلق والغضب والخطأ وعن الدرجة الإيمانية التى تملأ القلوب ، وما إلى ذلك من أحاديث هى بالتأكيد لا تخص كل هؤلاء الناس لقد قدم إلى أحدهم ما يقرب من ثلاثين شريطا دروسا دينية تحث المرء المسلم على خدمة المواطنين وعلى الخدمة العامة وعلى الإحسان إلى الجار وجار الجار وعن ضرورة التمسك بآداب الدين وعن آلاف القيم الإسلامية ، ثم تجد الشخص نفسه يتحدث أمامك عن المال فقط ، إنه حتى الآن ، لم يجمع سوى تسعة ملايين ، ماذا يفعل بها ؟ ماذا يفعل هذا من أجل أولاده ، إنه جاء للدنيا ليكون أداة يأخذ ليعطى وهم وقفوا مكتوفى الأيدى ينتظرون موته لكى يأخذوا ما أدخره لهم ، أنا لا أعمل من أجل نفسى وإنما أعمل من أجل أولادى ، يقول هذا متباهيا يقولون أذن فلننتظر وفاة الأب حتى نرثه ، أنت يا خال الأب ، يجب أن يورث أولاده العلام والتعليم . فإذا ما تعلموا كانوا على قدر كاف من المواجهة وهم ورزقهم ، إذا شاء ربك أن يرزقهم ، من المال الكثير ويمنع عنهم كثرة المال لحكمة فى علمه سبحان هذا أب جمع ثروة ومات وتركها ، فيتحول الأخوة إلى أعداء ، كل منهم يريد نصيب الأسد من تلك الثروة ، لأنهم منذ طفولتهم يحلمون بالمال كل منهم يطمع فى الكثير ليتركه لأولاده بدوره لقد أراد لنا الله التعبد والعبادة هى الإرث ، وهى العمل وإعمار الأرض إذا شاء ربك أن يعطيك من المال الكثير ، وكما يشاء ربك أن يعطيك فربك أيضاً رب أولادك سوف يعطيهم ، فليست أنت العبد وحدك ولكن أولادك من ضمن عبيده ، اشتغال المؤمن فى أعمار الأرض بغاية أن تصبح الدنيا أجمل ، لا من أجل أولادك فقط بل من أجل كل الناس ومن أجل الخير فى حد ذاته ، أنت تزرع الشجر الكبير وأنت لن تراه وربما أولادك أيضا لن يرونه ولكن تزرعه لكى تعمر الأرض بالخضرة ، وأنت تملأ الأرض بالثمار وأن يأكل كل الناس هذا هو

العمل ، والعمل عباده أما أن تعمل لتختزن المال فهذا أمر يبدو لى مرهقا للعقل ولهذا فهم هنا مشتتون حيارى .

خالى يحترم العلم والعمل وتراه دوماً يعمل ، إما فى التجارة أو الزراعة لم أره فى حياتى كسولا رغم هدوئه وابتسامته العريضة وحديثه الودى الودود وزيارته لأقاربى فى أقصى الصعيد وفى شمال الدلتا فى جميع المناسبات مره هنا وأخرى هناك واستعداده الدائم لمعاونه أى إنسان يأتي لطلب المعاونة يقول القران يجب أولا أن يدخل إلى قلبك ويصعد من قلبك إلى عقلك ، وتفكر فيه فيهبط ثانية إلى قلبك وتشعر بالسكينة والسلام والأمان والطمأنينة سأكتفى بهذا القدر فقد شعرت بإرهاق بعد أن عرفت أننا الآن بعد منتصف الليل ، والآن مهدد بغضب المرضات .. جاءنى ولدى الصغير ووقف بباب الغرفة فقلت لماذا لا تناديني حتى أحضر إليك .. وصحوت من نومى متعباً .

عندما كنت فى السعودية منذ ما يقرب من سبعة أشهر وفى أخر زيارة لى لمدينة الرياض ، حدثنا المرشد المرافق الذى اصطحبنا وكنا مجموعة من كتاب العالم العربى فى حالة فى المنطقة الأثرية فى مدينه الرياض وهى القلعة القديمة قبل أن يدخلها الملك عبد العزيز آل سعود ويوحد المملكة فى إطار واحد سميت بعد ذلك بالمملكة العربية السعودية ، ولا أدرى سر وراء تلك الحكايات الغريبة فقد فكرت فيها توا ، فى أوبرا عايدة مثلا نجد أن القائد المنتصر وزوج الأميرة ابنة الفرعون هذا القائد المنتصر بعد أن عاد بانتصار ساحق على مملكة الحبشة ومعه آلاف من الأسرى وآلاف من الحيوانات الوحشية إلى الملك الفرعون ومن بين هؤلاء الأسرى ملك الحبشة وابنته السمراء الجميلة فيقع هذا القائد العظيم وهو فى نفس الوقت زوج ابنة الملك أسيرا فى حب تلك الفتاة السمراء سجينة القصر وتستحوذ على لبه وتدفعه إلى الخيانة وتفشل المؤامرة ويزجان سويا إلى السجن ، ويتحول السجن تدريجيا فى نهاية الأوبرا إلى أن يصبح قبرا يضمهما معاً والغريب أن هذه الحكاية تتكرر دوما وتنتهى عندما ينتهى الحب قال لنا المرافق ونحن نرى القلعة بدى صورها قد صورها بأشكال مختلفة نسمع من المرافق أن الملك عبد العزيز أو الفارس عبد العزيز ومعه سبعون رجلا فقط اقتحموا أسوار القلعة على الوالى الذى يحكم منطقه الرياض من قبل الدولة العثمانية .

قليل من عذاب الدنيا والدنيا كلها عذاب ، تمرض بقليل من أنفلونزا يعد بالنسبة لك مرضا عضلا يلزمك الفراش عدة أيام مثله مثل عملية القلب كلها ثوان وتبقى زى البمب أنا أكرر دائما هذا ، وهم دائما يحتاجون إلى مثل هذه الأقوال لكى تعود إليهم الطمأنينة خاصة الذين جاءوا من الأقطار العربية لا يجيدون الإنجليزية يريدون من يتحدث إليهم لكى يدخل على قلوبهم

الراحة ، وهم يتصورون أنهم مقدمون على الموت بقليل من المرح الذى أتظاهر به أمامهم وبكثير من الإيمان والدعاء وآيات الله المباركات يجلس المريض وقد هدأت نفسه وذهب إلى حجرة العمليات وهو متيقن أن شاء الله من الشفاء وتكرر هذا مع كثيرون . وبعد أن شفوا تماما تحدثوا إلى بالتليفون أو زارونى وكل منهم يحمل هدية لكى يقول لى شكرا ويسألون لماذا أبقى بحجرتى وأقول أنا (شاويش المستشفى) أنا (العمدة) لقد أرادوا أن يحتفظوا بى كتميمة لهذا المستشفى لكى أجلب لهم الحظ فأنا دائما أول من يقابل المريض القادم وأخر من يودع المريض الشافى بإذنه تعالى ، حجرتى بها الكثير من الهدايا وكثير من الأشياء التى تؤكل بداية من الحلاوة الطحينية إلى البلح الأمهات مرورا بالعنب والمانجو والكمثرى والتفاح وغير ذلك من الفاكهة والجميع يأتون ويأكلون ويأخذون ويتركون ولا أحد فى حجرتى يسأل من هذا ومن ذاك بل الحجرة أحيانا تمتلئ بالناس سواء من المرافقين للمرضى أو المرضى ، وفى ذات مره جاءت إلينا ممرضه إنجليزية صارمة وقالت يجب إلا تختلط بالمرضى عندك مرضا معديا يمكن أن تنقل إليهم العدوى لم أنم ليلتها ظللت مسهدا هل أنا إلى هذا الحد مجرد جرثومة تنقل العدوى إلى الآخرين مع أننى ابتسم فى وجه الدكتور وفى وجه الممرضة وفى وجه المريض وفى وجه كل زوارى بينما أتألم بشده ، وقد كنت بالأمس فى حالة غاية فى السوء وعندما يقترب منى أحد أسرع بالابتسام وارددد بالإنجليزية أنا بخير وقد تحسنت اليوم عن أمس لا أدرى لماذا تحدثت عن نفسى ربما لأن الطبيب كان عندى منذ لحظات وتحدث معى حول الأدوية ولكنى كنت أتحدث عن النماذج التى نراها فى أجهزه الإعلام وفى المسارح وفى الأفلام طول قرن كامل وهم يعرضون علينا أن الحب جميل وأن المرأة لها نفس الحقوق التى للرجل وأننا يجب أن نعترف بحق المرأة فى الحياة وفى الحكم وفى تبادل العواطف بل رأيت فى التليفزيون بجوارى مجموعة من القرارات التى أتخذها مؤتمر النساء فى بكين فاستغفرت الله كيف تطالب المرأة بالدعارة كيف تطالب المرأة بحرية الجماع وحرية الإجهاض وحرية التنازل عن شرفها وما إلى ذلك من حريات بل وجلست إلى مجموعة من الممرضات وهن يتحدثن عن أهمية الحرية فى أن تتزوج المرأة بأخرى وأن يتزوج الرجل برجل أخر هذا يبدو من وجهة نظرهن أمراً طبيعياً وهم يوافقون عليه كيف يتزوج طالما أن الأمور قد وصلت إلى هذا الحد من الحرية إذن لماذا إصرار النساء على الزواج من امرأة طالما أنها تستطيع أن تذهب معها أو تذهب إليها فى أى وقت شاءت فلماذا الزواج ولماذا تلك الأفلام والنشرات والقصص عن أن الحب هو كل شئ أن تخرج الابنة عن طاعة أبيها وأن تصور السينما والتليفزيون هذا الأب على أنه رجلاً جلفاً لا يفهم فى العواطف ولا يفهم فى القيم الروحية ولا يفهم فى الحرية وهو يقف عثره فى سبيل سعادة ابنته أو ابنه لماذا لا نترك الحبل على الغارب ، حسنا تركنا الحبل على الغرب هنا فى أوروبا هنا فى إنجلترا تركوا الحبل على

الغارب لنرى إذن تلك الحرية آلاف من البنات فى بداية المرحلة المتوسطة والفتاه لم تتجاوز عاميا الحادى عشر وهى حامل تسأل ماذا تفعل ؟

والأب بالطبع مجهول تركنا الحبل على الغارب فانضجعت مع كل شاب قابلها عندما يسألونها تبدو مثل طفله تعبث بضفيرتها من هو والد الطفل تقول لا أعرف كنا فى نزهة نامت مع عشرات من الشباب فكيف تعرف من هو والد الطفل حتى ولو عرفت أنه أيضا فى الخامسة عشرة من عمره تلك هى المشاكل التى تواجه مجتمع الحرية المفتوح فى إنجلترا وليس فى إنجلترا وحدها إنما فى كل أنحاء العالم الذى ترك الحبل على الغارب كما يقولون هل يتزوج فتى يأخذ كل أسبوع فتاه يلهو بها وهى أيضا كذلك ، هذا هو النموذج الأوروبى وبالتأكيد سوف يتجه هذا الشاب الذى مارس الجنس منذ أن بلغ الثانية عشرة إلى أن بلغ عمره الآن خمسة وعشرين عاما ماذا يفعل بالفتيات وقد شبع منهن انه يتجه إلى طريق أخر يتجه ، إلى تجربه ممارسة الجنس مع شاب مثله والشاب الأخر يريد أن يكتشف هذا العالم يريد أن يكتشف لذة أخرى غير تلك اللذة التى شبع منها بعد أن ذاق حلاوة كل الشابات عرفهن فى صباه فليجرب أن يكون معشوقا لفتى مثله يمارسا معا ذلك الدور الأزلى بين زوجة وزوج لتكوين أسرة تتكون بين ذكرين يعيشا والتليفزيون أمامى يعرض هذا كله ، وأسمعه من المرضات ومؤتمر عالى ينادى (الحبل على الغارب) كما ينادى مؤتمر بكين وكما سوف ينادى مؤتمرات نسائية كثيرة بعد ذلك الحرية هى المطلق هى أن تفعل ما تريد ومن أجله وضعوا كثيرا من القوانين النفعية والوضعية أنت تفعل إذن تدفع ثمن فعلتك أن تخطئ تفصل فورا أنت مفصول أنت جائع متشرد فى الشارع لا تأكل إذن يجب أن تعمل بجد واجتهاد دون أن تخطئ لا من أجل عيون العمل ولا من أجل العمل مقدس وأن العمل عباده لأنه يجب أن تعمل لكى تأكل فإذا لم تعمل لن تأكل توقف الطبيب الإنجليزى فى غطرسة وقال يجب أن تستعد للجراحة وأن محمد عبده وأن إسماعيل باشا عرفوا أن أوروبا هى النموذج الأمثل للإسلام أن إسلام هذا يا ساده إسلام الأيتام إسلام المشردين فى الشوارع وإسلام المدفع والقنبلة الذرية إسلام أعطنى مالك أو آخذ حياتك هكذا فى الميادين العامة فى الشوارع نسمع الحكايات ونراها فى التليفزيون اليوم أم قتلت ابنتها تنافسا على شاب وكأن الدنيا ضاقت بهما حتى أحبوا شابا واحدا ، أليس أمام الأم فتى آخر ، تنافس الأم مع البنت ، من أجل عيون شاب هذه هى الحرية ، لا أريد أن أطيل إنما جاء الأمر على خاطرى ولأن هذه الرواية قد كتبت لتكون مجرد تهويمات ومجرد ثرثرة مريض يا أخى القارئ لا يهمنى أن تقرأها أو لا تقرأها ، لم يعد أحد يقرا الكتب ، دلونى ، على من قرأ نجيب محفوظ ؟ رغم شهرته الواسعة كم كتاب أو وزعته المكتبات لنجيب محفوظ فى كل العالم العربى ؟ هه ، آلف ، آلفين ، خمسة ، عشره آلاف خمسين ألف ؟ وكم عدد أفراد سكان الوطن العربى ، مائه مليون ، مائتين مليون ؟ ثم

تتحدث عن خمسة آلاف ، كلنا نعرف نجيب محفوظ من التليفزيون من السينما ومن الصحف ولكننا لم نقرأ له ، من يقرأ لنجيب محفوظ ؟ من يقرأ لفتحى سلامة ؟ ها هو فتحى سلامة يكتب روايات فلا داعى إذن أن أكتبها بكل حرفنه وكل لغة رصينة أبذل فيها دمى وقلبى وحياتى لكى لا تقرأها أنت ، لكى تطبع توضع على أرفف المكتبات ، ثم إذا كنت صديقى تأتى وتسبنى لأننى طبعت الرواية ولم أعطيك نسخه يا سلام ، هو أنا طبعت الكتاب عشان أوزع منشورات انتخابية يجب أن أحظى با... سيادتك ، لمجرد أن أعطيك نسخه ممهوره بإمضائى ، لماذا لم تشتر أنت نسخه ؟ إذا كنت فعلا صديقى اشترى نسخة ، هذا أفضل لى وللناشر الذى دفع دم قلبه من أجل نشر الكتاب أما أن توبخنى يوما كاملا لأننى لم أسال عنك وأعطيك نسخه مجانا تضعها فى مكتبك لتتباهى أنها جاءت من صديقك فلان بل ويتباهى النقاد بأن كل تلك الكتب الزفت جاءت إليه وعندما تكتشف أن هذا الزفت الذى جاءت إليه تجدها (لجمال الغيطانى) و (يوسف العقيد) و (فتحى سلامة) و (مصطفى فوده) و (ومحمود العزب) و (عبد العال الحمامصى) و (محمود البدوى) و (نجيب محفوظ) و (ثروت أباظة) وغيرهم ، هؤلاء الزفت من وجهة نظر الناقد اللى مش راض لأنه هو أيضا زفت فى زفت على شغلى يقذف بالكتب فى سلة المهملات ليس لديه الوقت الكافى للقراءة يقول لك أن عينه لم تعد تبصر ومع هذا يصر على الكتابة أسبوعيا صفحات من تاريخ الثقافة المصرية كأنه قد كتب فى زمانه الأول كتابا واحدا ثم أخذ ينشره على حلقات ثم جمع الحلقات لكى يجعلها كتابا ثم وزعها على حلقات وهكذا منذ أن بدأ الكتابة حتى انتهى من الكتابة كل هذا من شهر واحد ثم راح ينقح كل ما كتبه خلال كل تلك الكتابات عليه فقط أن يضيف سطر أو سطرين لكى يشعر القارئ أنه يتكلم عن مضمون جديد هكذا يفعل بعض النقاد وأنا أتحدث هنا مباشرة ويجب أن يقول على روايتى هذه الزفت لأننى بالفعل أعتقد أنها زفت فى زفت فحتى لا يقول عن روايتى زفت أنا أعترف من الآن أنها زفت هذه ليست لغة عربيه إنما من العامية ولا داعى لتحويلها إلى لغة عربية وأصدقائنا الكتاب وخاصة هؤلاء الذين كانوا فى يوما ما يتجهون إلى موسكو وقد تحولوا الآن إلى جبهة أخرى راحوا يكتبون بالعامية حتى تكون أسهل ، حسنا يجب أن أقول أنا أيضا مثلهم الموضة كدة الكتابة بالبلدى ربما يفهم بعض الناس ، وخاصة إذا كانت الكتابة من (الألب) قصدى من القلب بجروح نعود إلى الينابيع أو إلى مصادر الرواية وخاصة على أننى وشك ختامها فلا داعى للخوض فى حكايات أخرى أنا لم أتحدث عن حرب ٦٧ وماذا حدث فى معسكر شبابنا كيف أحترق كتبت قبل الحرب عن هزيمتنا فى ٦٧ فى مسرحية ما بعد الحروف ولم يلتفت أحد إليها على الرغم من أنها كتبت فى أبريل سنه ٦٤ فى الساعة التاسعة صباحا يوم ٦٧ يوم بدأت فى كتابه المزامير وهى عن حرب أكتوبر لم يلتفت أحد يذكر كتاب المزامير ولأننى لست من أبناء الشلل ولا أشرب الخمر ولا

أتعاطى المخدرات ولا أجلس مجالس النساء كل ذلك أبعدنى عن دوائر النقد وأرجو أن أكون قد أحسنت خيرا أننى ابتعدت عن النقد وأنا أسعد كثيرا عندما اكتشفت أن قارئ ما فى بلده ما قرأ كتابى وأعجب به وأسعدنى أننى ذات مره حدثتنى أمى أنها كانت فى زيارة لإحدى القرى ومعها جماعة من أقاربنا فإذا بالسيارة تتعطل ويقف السائق ليقول للنساء انتظرن هنا لحظات حتى آتى بمن يصلح السيارة فردا بسيده تخرج إليهن وتقدم لهن المقاعد لكى يجلسن فى حماية دارها وتقدم لهم الماء والشراب ثم كعادة نساء تتحدث كل امرأة عن عائلتها وعن ابنها الذى أصبح مدرسا أو وكيلا للنيابة أو محاميا أو ما شاء الله ، بسم ، بسم الله النبى حرصه بقه دكتور ، وجاء الدور على أمى وكانت لا تجيد الحديث فهى قليلا ما تخرج من البيت وقد خرجت اليوم لأنها فى واجب عزاء لإحدى قريبتها فإذا بها لا تجد من تتحدث عنه سوى أن لها ابنا اسمه كذا ويقيم فى القاهرة ويعمل عملا لا تفهمه جيدا فهو يكتب الروايات الخيالية فإذا بصوت رجل من أقصى الدار التى يجلسون أمامها يهرع إليها ويسألها هل حقا هى أم ذلك الكاتب الكبير تقول له أمى أنه ابنى الكبير ، ويعود الرجل إلى أمه ويخبرها أنها الآن تحظى باستضافة أم رجل عبقرى ، والأم تفهم شيئا واحدا أن والدها يتحدث عن شخصية مرموقة ويبدو عليه السعادة والانشراح فتقسم أن .. تستضيف أمى ومن معها للغذاء فتذبح لذلك شاه وتقيم وليمة فى شرف أم هذا الشخصية المرموقة يتحدث عنها ابنها الذى يعمل مدرسا بإحدى الكليات ، وهو يعرف قيمة الشخصيات الهامة وعادة يكون فى نظرها وكيلا للنيابة ، أو ناظرا لمدرسة ، أو رئيسا لابنها أى أنه شخصية مهمة وكفى فلتقم لها مأدبة مكلفة حتى يحظى ابنها بعين الرضا وتشعر أمى بالفخر لأنها أنجبت ولدا مثلى ويتصادف أن أزورها فى اليوم التالى فأجدها سعيدة كل السعادة لأننى شخص معروف وأدهش لأنها لم تعر اهتماما من قبل ، وكل ما كانت فعلته أنها تبتسم عندما تسمع أننى صاحب المسرحية أو التمثيلية الإذاعية أو المسلسل الذى يذاع فى التليفزيون ، يقول لها شقيقى انظرى يا أمى هذا هو اسم أخى مكتوبا على شاشة التليفزيون وتبتسم وتقول (ليه يا ابنى كده ، مش كان أحسن ما يكتبوش اسمه عشان ما حدش يحسده) ، ويضحك أخوتى كثيرا على أن اسمى مكتوبا وأن أمى خائفة من الحسد ، وعندما أمرض تقول انظروا ها ما كنت خائفة منه حسدوه بالفعل وعندما أزورها بعد ذلك تجلس بجوارى وتمد يدها برقوه ترقينى بها لأنهم كتبوا اسمى ذات مره فى التليفزيون أو أن ابن أخى الصغير وضع يدها على اسمى وهو مكتوب فى الصحيفة ، انظرى يا جدتى ها هو اسم عمى أنا أستطيع أن أقرأه لك ، هذه ، تضحك أمى وتقبل الاسم وهى سعيدة ثم تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم لأننى أعمل مع الكفرة ومع الذين ينشرون صورا قبيحة وتقذف بالجريدة بيدها وتقول لحفيدها انزع اسم عمك ثم احرقه حتى لا يدوسه من يدخل درنا ، ويضحك الولد ، أعود إلى خالى ذلك الرجل الذى تأثرت

به كثيرا والذى كان يعطينى الحكمة بالقول والفعل فى نفس الوقت ، فكان إذا ما حدث لى مكروه أجده بجوارى يخفف من آلى ويبثنى العزيمة والقوه ويجعلنى أعود إلى حظيرة الإيمان ويأخذنى إلى المسجد واصلى وهناك حيث الهدوء الشامل والحصير البارد والكون المفعم بالقداسة والإحساس بالإيمان المطلق بعيدا عن ضجيج أوروبا التى عشت بها كثيرا وعشت فى بلدانـها ، ورأيـت فيـها العجب وكأننى أرى نهاية العالم ثم بعد ذلك أتذكر الأعمام والأخوال ، ولكنى أضميم فى مصـدر واحد يأخذ رقما واحد ، أما أخوالى فكانوا مصدر الإلهام فى الحواديت الشـعبية كـانوا يجـهلون القراءة والكتابة ولكنهم كانوا يحفظون الكثير من المواويل الشعبية والمدائح النبويـة والحواديـت التى تشبه الأساطير وكثيرا ما استمعت إلى الآلاف من تلك المدائح النبوية أو تلك الخرافات التـى جاءت إليهم من قديم الزمان على شكل حواديت ، حواديت الجن والعفاريت والملائكة وغيرهـا ، تفسر وجود العالم وتفسر الشر والخير والصراع ثم أعمامى الذى تأثرت بـأصغرهم الـذى يكـبرنى قليلا ، فقد تأثرت به تأثرا بالغا على نحو يكاد يكون مسيطرا على شخصيتى حتى الآن فهو على حياء شديد وعلى درجة كبيره من الصدق والإحساس بالمسئولية والجدية وهو لا يضحك إلا نـادرا ومع هذا فهو دائما هاشا باشـا فـى وجـه أولاده ، وأولاد أخيـه وأولاد كـل مـن يتعـامل معـهم ، وعصبيته تلك تذكرنى بجدى فهو لا يثور إلا إذا كان الأمر يستحق الثورة بالفعل علمنى عمى كل فنون اللعب فقد كان فى طور السن الصغير وأنا كنت فى طور الطفولة نذهب معا إلى الحدائـق وإلى الحقول ونذهب إلى مزرعتنا وعلمنى كيف أقلع الزرع ، كيف أحصد النبـات وكيـف أوزع حبـات الذرة فى الحقل وكيف أقف خلف الجاموسة عند الساقية وكيف أدير المحـراث ، وكيـف اسـبح فى الترعة وكيف اصطاد السمك وكيف أحكى الحكايات ، كـان لديـه الكثـير مـن الحكايـات بـل أحببت (أدهم الشرقاوى) من خلال سماعى لقصته من عمى ، ولم أسمع قصص الغـرام القديمـة إلا عندما كان يرويها عمى من مشاهير الأحبة ولم أحظ باللعب والعمل اليدوى إلا معه وقد كان نعـم المعلم على الرغم من أنه كان لا يكبرنى إلا بالقليل جدا من الأعوام ولكن كانت لديه حكمة الشيوخ وهو حتى الآن مصدر الهام وينبوع علم لا ينفذ أبقاه الله وأحياه وأدامه لأولاده ولى سـألتنى ابنتـى عن أولاد عمى وضحكت رغم شده مرضى قلت تصورى أن هناك أولاد عم لا أعرفـهم تصـورى أنـه من الممكن أن أقابل أولاد عمى فى الشارع ولا أعرف ما إذا كانوا أولاد عم أم هم أولاد خال ضحكت ابنتى قلت لها وأنت هل تعرفين مثـلا أولاد أعمـامك ؟ أو علـى الأقـل أولاد عـم واحـد فتلعثمت وبدأت تذكر بعض الأسماء وخاصة هؤلاء الذين دائما نراهم فى بيت جدها فقلت لهـا أنـت إذا لا تعرفين وذهبت ذات مره بعد عودتى من الجراحة الأولى وطلبت من خالى أن يجمـع أولاد أخـوالى حتى أراهم جميعا دفعة واحدة بالفعل جاءوا فلم أستطع أن اسمى بعضهم باسمه تذكرت واحد أو اثنين ثم لم أستطيع ذكر باقى الأسماء فلم أنادى أحد باسمه مكتفيا بالترحيب والسلام والابتسام

لأدارى خجلى لأننى لا أعرف كل أولاد الأخوال متباعدة وانجبوا وأولادهم أيضا أنجبوا واللذيـن أعرفهم هم الملتصقين بأبى حتى الآن أو يعيشون بجوارى ثم لا شئ من قبيلـة كبيره جـاءت منـذ زمن بعيد جدا من أراضى نجد لكى تكتشف لها مكانا فى سهل أو فى وادى مصر أو فى تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا والسـودان والصومـال وطرابلـس والشـام ، طرابلـس المغـرب هكـذا تفرقوا كلا منهم فى وادى يزرع أسرة جديدة وهذه الأسرة الجديدة لا تحمل سـوى الاسـم سـلامة ثم تحمل بعد ذلك العديد من الأسماء وتتفرق ولا أحد يعرف مصادفة عرفـت قريبـا لى مـن ليبيـا كان يسكن مرسى مطروح وكان يعمل مقاولا عندما سمع باسمى رغب فى رؤيتى وأخذ يسألنى عـن أسماء أجدادى حتى وصل إلى جدى سالم الكبير وهو جد لجدى وقال هذا هـو المفـروض أننـى مـن سلالته أننى ابن عمك ، نظرت إلى الرجل وجدته شيخا هرما تعدى السبعين من عمـره لـه لحيـة بيضاء ضئيل الجسم ويمتاز بحده الذكاء أخذت أرقبه وأنظر إلى جبهته وألمح التجـاعيد وأحـاول أن أزيلها لكى اكتشف صورته وهو شاب وقفز إلى ذهنى صوره عبد الخالق فسلمت عليـه بحـرارة وسعد الرجل بذلك سعادة كبيره حتى أنه وافق على بناء المعسكر الذى جئت من أجله فـى الزمـن الذى حددته من أجل عيون قبيلتنا المنتشرة فى أنحاء العالم كله يحدثنـى الدكتـور عبـد الحميـد يونس رحمة الله ويقول آهلا بابن القبيلة التـى حصلـت مـن أجلـها علـى درجـة الدكتـوراه أذكـر معلمى الأول الدكتور (يوسف مراد) الذى أسس مدرسة الدراسات النفسية فـى مصـر ومـن بعـده الدكتـور (مصطفـى السـويف) وبالتـالى يجـب ذكـر (مصطفى الخشـاب) و (أحمـد الخشـاب) و (إبراهيم سلامة) الذى علمنى معنى أن أدرس ما يسمى بالأدب المقارن وأن أعرف بالضبط مـا هـى طبيعة الأدب الفرنسى ثم يجب أن أذكر بكل خـير الأسـتاذ المرحـوم الروائـى (محمـد فريـد أبـو حديد) الذى أخذ بيدى وكان يعطينا الكثير من وقته وجهده وبالتالى يجـب ذكـر (يحيـى حقـى) الذين كان ينبوع القصة المصرية كلها منذ أوائل هذا القرن و (توفيق الحكيم) الذى علمنـى الكثـير ولا أنكر فضله أخى الأكبر (ثروت أباظة) الذى عرفته طوال أكثر من ثلاثـين عامـا عرفتـه رجـلا عند الشدائد ولا يستطيع الإنسان أن ينكر ماذا تعلم من (يوسف السباعى) و (محمود البـدوى) و لا من (لويس عوض) ولا من غيرهم بل وتعلمت من زملائى .. ذاتهم تعلمت من (محمد العـزب) و (من عبد العال) ومن (نبيل عبد الحميد) ومن (محمد قطب) أنهم أصدقائى ويعاملونى معاملـة الأخ الكبير وتعلمت أيضا من تلامذة لى كتبوا بعدى وتعلمـوا منـى الكتابـة ولكنـهم اسـتطاعوا أن يدفعونى إلى المزيد من الإبداع والكتابة الجيدة .

(توقف التسجيل)

حدثنى بعض الأصدقاء عن أشياء عديـدة وتحدثـت معـهم عـن أشياء عديـدة مـن خـلال تلـك الأحاديث عن أمور الحياة ومن كلمات عابرة وربما يسمعها الكاتب فى السيارة أو عندما يسير فـى

أحد الشوارع أو فى إحدى الحارات من تلك الأشياء الرقيقة والدقيقة والتى تبدو عادية يستطيع الكاتب أن يأخذ منها ما يمكن أن نسميه إبداعا روائيا لا شك إننى تأثرت تأثرا كبيرا عندما اشتغلت بالتجارة مع أبى طوال سنوات طفولتى وصباى وشبابى بل أننى أذكر أنه ذات مره حلا لى وأنا بجوار أبى وكنت فى سن الصبا المبكر أن تحدث فى ذلك اليوم عن الحظ وعندما أقول للرجل سواء ، كان غنيا أو فقيرا أنك رجل طيب دمث الخلق ذكى فطن ومع هذا لاحظ لديك فأنت غير محظوظ يقول نعم يا ولدى هذا بالضبط ما اشكوا منه ليس عندى من الحظ ما يكفى بل أنا ليس لى حظا على الإطلاق وتكرر الأسئلة ويتكرر الأجوبة فى نهاية اليوم سألنى أبى ماذا تفعل يا ولدى لما تقول هذا لكل الناس قلت يا أبى لأثبت لنفسى أن لا أحد راض عن نفسه ، ودائما ما يعلق على الحظ أمالا كان يحلم بها أو أمالا لم تتحقق أو فشلا ذريعا ويبدو أن الحظ المسكين هو الشماعة الموجودة دائما فى متناول أى رجل كان ، وبالطبع كانت تجارتنا تسمع لنا بالاحتكاك مع كبار التجار وأثريائهم ومع صغار التجار وفقرائهم ومع الأذكياء والأغبياء ومع كل الطبقات من أفراد الشعب ولهذا كانت مجالا خصبا وواسعا لأتناول منه وأعرف كل ما أريد وأن كنت أعترف فى النهاية أننى لم أحقق ما كنت أصبو إليه وليس ذلك بسبب الحظ كما قالوا إنما بسبب غباء شخصى منيت به وأعترف به فأنا أعترف بينى وبين نفسى أننى بالتأكيد لست ذكيا بالقدر الكافى والحمد لله على هذا القدر الكافى من الذكاء الذى استطعت به أن اشق طريقى وسط عباقرة كبار من أمثال ما ذكرت من الأصدقاء والأحباب وأيضا عندما اشتغلت فى مجال رعاية الأحداث وكان مجالا خصبا مملوءا بكل ألوان الإنسانيات فهذا طفل لا يدرى من أمر نفسه شيئا دفعته أمه إلى أن يمسك بحلة من تلك الأوانى الألومنيوم وتذهب به إلى القسم لكى تتهمه صراحة بأنه لص وهو لا يدرى ماذا تعنى كلمة لص هذه فيذهب معها إلى المحكمة ثم يذهب إلى المؤسسة وهو موصوم بأنه لص ولص قذر لأنه سرق أمه ، ولم يكتف بسرقة الجيران ولكن هذا الطفل كل ذنبه جاء فى زمن الشح وفى زمن اللا ضمير وتركه والده بعد أن انجب سبعة أو تسعة أو عشرة من الأطفال وترك أولاده وزوجته ، وهرب إلى بلده أخرى ليتزوج بأخرى ويفعل بها مثلما فعل بالأولى فلا تملك المسكينة إلا أن تدفع بطفلها إلى السجن لكى يأكل ويشرب وتعلمه الحكومة علاما نافعا أو هذا الغلام الذى نشأ فى قرية ثم جاء مع أبيه إلى السوق وأنشغل أبوه بشراء الجاموسة وترك الولد الذى لم يستطيع أن يهتدى إلى أبيه وضاع فى السوق كما تضيع الأشياء وافتقده الأب وصار فى طريق كله شوك حتى قبض عليه بتهمة ما وزج به فى هذه المؤسسة ليلقى عقابه على يد إسماعيل أفندى المعاون الذى لا يتورع عن سرقة طعامهم وبيعه فى الحلل المقفولة ، كل حلة بعشرة قروش للجيران الذين يستحلون شراء هذه الأطعمة من ذلك الأفاق وكأننا كلنا نعمل فى ساقية واحدة وتريدون أن نكتب روايات ، ما هذه الروايات التى نكتبها ؟ أيكفى أن نقول أن

رجلا يؤتمن على أطفال جياع منهم الأيتام يسرق طعامهم ليبيعه للجيران الذين يتلهفون على شراء الحلة بطبيخها بلحمها بعشرة قروش فقط ، لقد عاشرت هذا الرجل أربعة أعوام كاملة حاولت خلالها أن أتخلص منه ولكن لا فائدة فقد كان رجلا جشعا لا يشبع يخيف الأطفال ولا أملك أنا إلا أن أجاهده بقدر استطاعتى ولكن كيف يجاهد شابا ريفيا مثلى بين السابعة عشرة والتاسعة عشرة من عمرى جاء من قريته يقف هذا الموقف بمفرده ، أمام هذا الإسماعيل الذى لا يتورع عن فعل أى شئ ، تسانده إدارة هشة لا تملك له صدا ولا تملك له جزاء رادعا بل كل انشغالها وانشغال تلك المديرة بماذا تطهى اليوم فى بيتها وكيف تصنع الجونله ثم كيف تصنع بلوفر لابنها الكبير وتحلق حولها الأخصائيات الاجتماعيات وهن شابات يافعات جميلات يقفن جميعا فى مكتب الست المديرة كل منهن تدلو بدلوها حول الطعام والملابس وألوان أخرى من الحياة الأسرية لا تصلح إلا أن تكون حديثا شهيا فى المنزل فقط ، ولكن هنا فى المؤسسة وحولهن مئات من الأحداث الذين فى سن المراهقة الأولى يحتاجون إلى رعاية ، لا أحد ، لا شئ يهم ، المهم أن نقبض أخر الشهر ثم نشكو الغلاء ثم نشكو الإدارة ثم نشكو من كل شئ حتى أصبحنا نشكو من أننا نشكو ، ثم يقول لنا السادة النقاد كتبوا روايات واقعية والواقع أصبح فوق الخيال ، الطبيب الإنجليزى يحاول معرفة سبب الغثيان المستمر ، وطبيب الأعصاب اكتشف أن عصب الذراع الأيمن قطعة الجراح من الداخل وهذا يوم شاق فقد حملونى إلى مستشفى آخر ، وهناك وضعونى عاريا فى جهاز يدور بى وأنا ارتعد ، يجب أن أتحمل . لم يعد الأدب الواقعى يصلح لهذا الزمان ، أذن نكتب أدبا لا هو سريالى ولا هو أدب اللا معقول بل هو لونا من ألوان الأدب غير الموجود وغير المقروء بل هو أدبا يصل للتوهان إلى حد الجنون ، يجب أن نكتب أدبا مجنونا عاصفا يقتلع كل الأشياء من جذورها فلم تعد للأشياء جذور إلا قلة هداهم الله إلى الإيمان فتشبثوا بجذورهم ، جاء الدكتور (شورم برم) ليجرى جراحه لإخراج السلك المعدنى الذى كان يربط العظام ولكن العظام تفتت ، راح فى ثبات ينزع السلك والعظم معا ، وأنا بين الحى والميت .. هناك ثلاث دوائر امتزجت فى نفس الفتى ، أراد أن يحلم وأن يرى أحلامه واقعا وظل بين الحلم والواقع يـ[illegible] مترددا ، هل هو يحلم أم أن ما يراه هو الواقع ، ذلك الفتى الذى تحدثنا عنه وعن ذكرياته ومذكراته وأوهامه وآلامه والذى جاء إلى لندن ليجرى جراحة لا يدرى إذا كانت ضرورية أم لا بل أنه حتى الآن وبعد مضى كل تلك الليالى على سرير المرض إلا أنه حتى أتت اللحظة التى يكتب فيها هذا الفصل لا يدرى ما إذا كان قد شفى أم لا أهو مجروح يتألم ؟ هل يده مشلولة هكذا دوما ترتعش ، كل شئ من حوله صار فى تلك اللحظة وكأنه لا شئ ، يلجأ إلى أوهامه إلى أحلامه يمتصها ، يحاول أن يشربها أن يتجرعها جرعة جرعة، هو لا يستطيع شرب الماء مرة واحدة لأنه ليس ابتلاع الأشياء إلا بصعوبة بالغة، ونستطيع أن ننهى ذلك النبع أو تلك

الينابيع التى كانت مصدرا لأحلامه ولأوهامه أيضا ونقول إذا كانت قريته الصغيرة ميت بره والتى لا تبعد كثيرا عن عاصمة الدولة ، القاهرة والتى يمكن قطع المسافة إليها فى مدة لا تتجاوز ساعة واحدة إلا أنها تعيش كقرية معزولة عن بقية المدن والحواضر ، قرية الا زالت تعيش فى القرن التاسع عشر رغم وجود الكهرباء والتليفزيون وكل ألوان التسلية التى جاءت مع الغزو التكنولجى، أنهم حتى الآن يعيشون نفس المعيشة وبنفس الطريقة ، يجرى النيل بجوارهم عزيزا بعد أن حجبه السد العالى واغلق عليه الباب فأصبح مثل طفل يحبو ضئيلا وهادئا لونه غير اللون ، لونه قاتم ، أحيانا يميل لونه للسواد وشاطئيه عجوزان ، تصور أنت أن الشاطئ أصبح عجوزا ؟ الغاب الذى كان ينمو أخضرا مترعرعا وكنا بجوار الشاطئ ، نحن الأطفال نجزه جزا نصنع من سنا نير لاصطياد السمك ، أصبح جافا هاشا لا بريق فيه ولا عافيه وأصبحت الزراعة تكاد تخنق شاطئ النيل وأصبحنا لا نجد مكانا نجلس عليه بل أن تلك الأحجار التى نضعها لكى نصل إلى ماء النيل أصبحت الآن جرداء مشوهة ، النيل ليس هو نفس النيل ، لقد ذهبت إلى هنا قبل أن آتى إلى لندن ، ذهبت إلى هناك لأرى أسرتى فوجدت النيل قد شاخ ، أصبح هرما عجوزا ، ضاقت به الأرض وضاق هو بها ، وأصبح عنها ضنينا كما أصبحت هى تعطيه ظهرها لا تكاد تنظر إليه فقد شاخت هى أيضا وابتعدت وأحسست أن النيل والأرض أصبحا مثل عاشقان افترقا على خلاف وعلى شقاق ولهذا جلست حزينا ، أقول للنيل لماذا أنت كذلك ؟ لماذا تضن ماءك علينا ؟ لماذا أصبحت هكذا يا أخى ؟ زمن مضى وأنت تشق هذه الأرض بشبابك وعافيتك وكأنك تلقحها لكى تنجب لنا أبقارا وحقولا وماشية ونباتا وحصادا ورغيفا نأكله ولكنك أنت الآن مثل رجل يمشى بجوار الحائط ، هل صرنا شعبا يسير بجوار الحائط ؟ تحولنا جميعا إلى مجموعة من الجرذان تخاف أن تظهر إلى الضوء ، تأكل فى الظل وتعيش فى الظل ولا تفعل شيئا سوى أن تحفر لنفسها حفره كى تختفى عن عراكها مع الزمن ، لا تريد أن تتعارك ، لا تريد أن تناضل لا تريد أن تتكلم ، فقد رأيت ذات مرة أحد اللصوص يطوف فى الأتوبيس فى شارع الجلاء فى وسط القاهرة ويشهر مطواه حقيرة صغيرة مثل تلك التى كنا نلهو بها فى شبينا الأول ، ويجبر الركاب وعددهم يقترب من المائة راكب بين نساء ورجال وشباب وكهول ، يجبرهم جميعا على أن يعطوه ما لديهم من مال ، فأعطوه لا أحد منهم حاول أن يقول له لا ، لا أحد يحاول أن يمسك به أن يتعرض له ، كل منهم قال فليفعل هذا غيرى أنا ذاهب إلى عملى ، أنا أريد أن أعيش أنا عندى بيت وكأنه قد فتح البيت وجلس بجواره ، لا حول ولا قوة إلا بالله، ورأيت سيدة تخلع سلسلتها الذهبية من رقبتها وتقذف بها إلى الشارع وتقول له (أرميها فى الشارع ولكن لا أعطيها لك) اللص لم يفعل لها شيئا ، أخذ كل ما جمعه ووثب بخفة وانطلق نحو الشارع بينما ثارت بعد ذلك ثورة الركاب وتحولوا فجأة إلى حكومة فى المنفى ، كلهم ثورا وكلهم

يتصايحون كنا نفتك وكلمات جوفاء ، ماذا لو كانوا فعلوا ماذا كان يحدث لهم ؟ من كـان مكتوبـا عليه الموت كان سيموت ولكن داهم عاشوا جبناء وظلوا جبناء وسوف يموتون جبناء ، هذا المنظر ليس فريدا ولا أحكيه من باب الندر أو من باب الحكايات الغريبة أنه باستمرار يحدث ، تدخل إلى مكتب الموظف فلا تجده ، فتجلس مستسلما مع أنك صاحب حق، وعندما يأتى الموظـف يكـون ثائرا ثورة هائجة وكأنه يؤدى لك الخدمة من جيبـه الخـاص وأنـه تفضـل عليـك بـأن ينظـر فـى أوراقك ويقول لك بكل كبرياء وعنطزة لا أستطيع ، وهكذا أنت يا نيـل ، مـاذا حـدث يـا خـالى ؟ ماذا حدث يا عمى ؟ ماذا حدث يا أبى ؟ ماذا حدث يا ابن خالى ؟ أين قبيلتنا ولماذا تفرقوا شـعثا بين الأرض ؟ لماذا ذهبوا إلى الجزائر والمغرب وتونس وليبيا والصومال ولبنـان وإنجلـترا ، أنـهم يعيشون هنا فى إنجلترا ، كل منهم يعيش وكأنه قد صنع لنفسه منطقة مصـهورة مـن الفـولاذ لا يخرج منها أبدا، ثم يشكو وتمتلأ القارورة الزجاجيـة التـى صنعـها لنفسـه بالشـكوى فيصدقـها ويتحول إلى شاكى ومشكو وشكوى فيصبح هو الأستاذ شـكوى ذاتـه ، لا حـول ولا قـوة إلا بـالله، رأيت هذا فى ألمانيا ورأيته فى سويسرا ورأيته هنا فى إنجلترا إننى أرقد فـى سـريرى هـذا منـذ أشهر عدة أرى على شفتيه تلك الكلمات تخرج من فمه كأفاعى تريد أن تنقض على من معـه فـى الحجرة ، يريد أن يلتهمه وهو أيضا يتباكى ثم يقول لك ابن النيل ؟ النيل قد جف يا أخى النيل قد جف فى قلبك قبل أن يجف خارج قلبك ، آه يا قبيلتى ، لماذا أنـت هكـذا وتجلسـون بجـوار الحائط فى ظل الحائط ، لا تريدون أن تفعلوا شيئا ، هذا هو مصير قبيلتنـا ، وهـذه هـى روايتنـا منذ أن قتل الأخ أخيه ولم يستطيع دفنه ، منذ تلك اللحظـة وحتـى دخـولى غرفـة العمليـات فـى مستشفى جامعة أكسفورد وأنا أسأل لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا جئت هنا ؟ هـل كان الأسـتاذ الكبير الذى فحصنى قبل أن آتى مخطئا . هل كان الأسـتاذ الكبـير الـذى أجـرى لى العمليـة مخطئـا، ثـم هـل الأستاذ الكبير الذى أجرى لى العملية الثانية مخطئا ثم هل كان الأستاذ الـذى قـال أنـهم جميعـا على خطأ وأنه لم يخطئ ؟ من المخطئ يا أخى يبدو أنهم سـيحملوننى إلى مكـان آخـر .. الظـلام يحيط بى .

(توقف عن التسجيل)

والآن لا يعلم الفتى ما إذا كان سيعود أم لا ؟ لهذا تجد حكاياته من الممكـن أن تكـون حقيقـة ومن الممكن أن تكون غير ذلك ، على العموم سواء كانت تلـك أو تلك فـان الأمـور دائمـا تتسـاوى ونعود إلى حيث بدأنا ، فقد بدأنا عنـد منتصـف اليـوم الأول مـن يوليـو ونعـود إلى نفـس النقطـة ونسأل نفس الأسئلة ، ماذا حدث ولماذا حدث ؟ كل ذلك فى أمر الله وفـى علمـه ، وربمـا يكـون ذا فائدة وربما يكون فيه من العبر مـا يكفـى ولكننـا حاولنـا خـلال سـرد تلـك الحكايـات والأوهـام (التهويمات) إذا أصبح لنا استخدام هذا التعبير فأننا نكتفى بالقول أننا نترك الساحة خالية مـن

أجابه لنعود لنسأل الله التوفيق ونسأل أن يكون لنا عبرة بما حدث ، فكما قلنا إنها حكاية الشقيقان اقتتلا من أجل أول فتاة تظهر على الدنيا أصبح هناك الطيب والشرير وهناك الخير والشر تتكرر نفس المأساة بصور مختلفة ولكنها تتكرر ونحن الآن لا نعرف وأن كان كل منا يحاول أن يظهر وجيه الطيب ويخفى وجهه الشرير وكلنا نفعل الخير فمن أين يأتى الشر اذن ؟ هل هو من الشيطان وحده أم أنه جاء من داخل أنفسنا أو أننا نرتكب الشر عندما نكون فى حالة غير إنسانية ، هذا هو السؤال ، هل نرتكب الشر ونحن فى حالة غير آدمية أم أن الشر قادم إلينا من خارج أنفسنا ، لقد أراد الله بنا خيرا وقد أردنا بأنفسنا شيئا أخر ؟ إلا قلة منا أرادوا الخير كله ليذا يمتد العمران على الأرض ونعود والعود أحمد ونسأل الله أن نكون قد وفقنا إلى فعل الخير وأن كنا نحتاج إلى الاعتراف بأن ذنبنا عظيم ، وثقتنا برحمة الله كبيرة .. أعود إلى مستشفى (دير فيلد) حيث كنت هنا من أربعة أعوام مضت يضعونى عل مقعد متحرك ، لم تعد ابنتى معى سافرت وعادت إلى أمها ، دفعونى إلى غرفة باردة جدا راحت الممرضة تنزع عنى ملابسى ، أصبحت عاريا صدرى ينزف دما ، ودفعوا بى إلى اسطوانة معدنية تصدر أزيزا أمرنى الطبيب الإنجليزى فى غضب أن زمت تماما .. فلم أنطق بحرف واحد .. ولكنه أمرنى ألا أتنفس.. وأظلمت الدنيا .

☆☆☆☆☆☆

كتب للمؤلف

أولا في مجال الرواية :

- ثمار الشوك .... الكتاب الماسى
- الجراررقم٣٥ .... هيئة الكتاب
- العام الأول للميلاد .... دار الهلال
- أشياء حقيقية .... مطبوعات مجلة الثقافة
- وقتلها الحب .... نشرت سلسلة بجريدة المساء
- المزامير .... دار التعاون
- ديار الجبل .... هيئة الكتاب
- منشية البكرى .... هيئة الكتاب
- العصر .... هيئة الكتاب
- برج الأسد .... دار الحياة

ثانيا : مجموعة قصصية

- يسألونك عن الخوف .... هيئة الكتاب
- رذاذ الليمون .... إدارة الأدب
- الحب كله .... أخبار اليوم
- مواطن فى مهمة انتحارية .... هيئة الكتاب
- عندما ضحكت بيسه .... قصور الثقافة
- الرحلة .... دار الحياة

ثالثا دراسات :

- القيادة عند الرسول الكريم .... (دراسة بالفرنسية)
- تطور الفكر الاجتماعى فى الرواية العربية ... دار الفكر العربى
- الفكر العربى فى الرواية المصرية .... دار المعارف
- صوت من الجانب الأخر .... دار المعارف
- هموم المغترب فى دنيا الأدب .... دار الحياة
- أدباء أصدقاء .... دار الشاعر
- مستقبل المسرح المصرى .... المجالس القومية
- الجوع / المشكلة والحل .... إصدار مجلة الفيصل

- القراء بعيون المستقبل .... هيئة الكتاب . مكتبة الأسرة
- القصة مصدرا للمعرفة .... هيئة الكتاب . مكتبة الأسرة
- تاريخ وتطور القصة المصرية .... المجالس القومية
- سيكولوجية الفرجة .... هيئة الكتاب . مكتبة الأسرة
- صالون الحكيم (٣أجزاء) .... هيئة الكتاب . مكتبة الأسرة
- ينابيع الحزن والمسرة .... دار الحياة

رابعا : المسرح (مطبوعات مسلسلة المسرح العربى) (من عام٦٣إلى١٩٩٧)

- خضرة الشريفة .
- ما بعد الخوف .
- حفلة طلاق .
- باحبك باحبك .
- يعملوها الكبار .
- أيام زمان .
- مجرم تحت الاختبار .
- على حزب وداد قلبى .
- مجنون عاقل جدا.
- عقول للبيع .
- ممنوع دخول الستات .
- على ورق الخوخ .
- عشرة على باب الوزير .
- ناس عقولها مكن .
- ألمظ .

خامسا: قدم التليفزيون ٣٥عملا دراميا مسلسلا،كما قدم للسينما عدة أفلام .
- نشرت قصصه ورواياته ودراساته فى معظم الصحف والمجلات العربية
- كما نشرت دراساته العلمية فى مجلات العلوم الاجتماعية والنفسية المحكمة فى (لندن وجنيف وبرلين وموسكو) .

- كتب عن المؤلف

- البطل فى روايات فتحى سلامة .... محمود قاسم
- قراءة فى مسرح فتحى سلامة .... عاطف عز الدين
- التطور الاجتماعى من خلال روايات فتحى .... د.إقبال أحمد
- فتحى سلامة كاتبا مسرحيا .... ماجدة على
- رواية فتحى سلامة والرواية الروسية(أدب مقارن) ... د.محمود الشاذلى
- مائة ناقد وفتحى سلامة .... مديحه السيد
- الرمز والمدلول فى روايات فتحى سلامة .... مديحه السيد